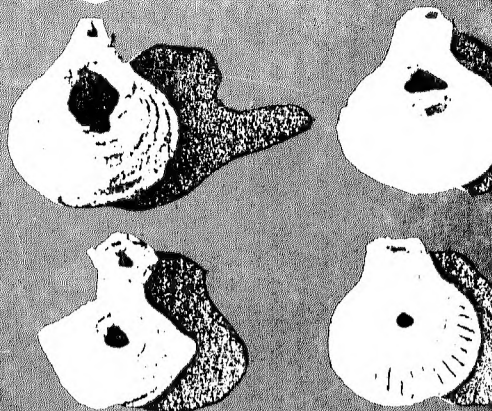


غزة وقطايعها

دراسة
خلود المكان.. وحضارة السكان
« من العصر الحجري الحديث
حتى الحرب العالمية الأولى »



سليم عرفات المبيض

٠ ١٨٣

غزة وقطاعها

دراسة في
خلود المكان .. وحضارة السكان
« من العصر الحجري الحديث حتى الحرب العالمية الأولى »

سليم عرفات المبيض



المكتبة المصرية للكتاب

١٩٨٧

تصميم الغلاف

أسامة سعيد

الاخراج الفنى

راجية حسين

إهداء

الى الذى قضى صباه وشبابه فلاحا يحترث الأرض
وكهولته وشيخوخته شرطيا يحرس الأرض والعرض *
اليك يا والدى .. أهدي جهدى

سليم عرفات المبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ان معرفة ما حولنا غريزة .. هكذا يقول أصحاب نظرية المعرفة ويسموننا بالاستعداد الفطري للتاريخ ، ويقال أيضا بأن الانسان يولد جغرافيا منذ اللحظة التي يحاول فيها التفريق بين ثدى أمه وسريره الذي ينام فيه وهو رضيع ، برهانا منه وقدرة على التفريق بين الاختلافات المكانية (١) ومن الجغرافيين من يعرف علم الجغرافيا بأنه « دراسة الاختلافات المكانية » أو التباين الأرضي بمعنى التعرف على المفارقات الجوهرية بين أجزاء الأرض بجميع مجالاتها لهذا تكون قمة الجغرافيا التعرف على شخصيات الاقاليم « Regional Personality » فكأن الاقليم بهذا التعريف هو قلب الجغرافيا ، فهن المنطقى أن تكون الشخصية الاقليمية هى قلب الاقليم ، ومن ثم يتيقن أعلى مراحل الفكر الجغرافى (٢) ومن هذا الايمان ، وبدافع الانتماء لهذه الأرض ، كان التوجه نحو محاولة تشخيص مدينتنا مدينة غزة وقطاعها بالدراسة والتحليل قدر الجهد للتعرف على ملامحها وقسماتها عبر تاريخها المديد .

وحقيقة .. لسنا هنا بازاء « قطاع » متفرد بخصائص ومزايا معينة بل أمام « مدينة » داخل اقليم برزت فى ملامحه قسما تميزته بقدر كبير من الخصائص والصفات تبادل فيها مع المدينة بتأثيراته عليها كما أثرت هى عليه .

أما اذا أضفنا للمدينة وهى غزة كلمة « قطاع » فقطاع .. مصطلح عسكري سياسى حديث جدا يتنافر تماما مع مزايا « الاقليم الجغرافى » انه وليد السياسة العسكرية الناجمة من اتفاقيات رودس سنة ١٩٤٩ العسكرية التى

(١) س. و. ولدردج وزميله . الجغرافيا مغزما ومرمعا ، ترجمة د. يوسف أبو الحجاج ، القاهرة ص ٢٣ ، ٢٥ .

(٢) د. جمال حمدان . شخصية مصر - الجزء الاول ، القاهرة ، ١٩٨٠ ص ١١ .

فصلت فيما بعد ما سمي خطوط الهدنة سنة ١٩٥٠ لتخرج الى حيز الوجود ما سمي لأول مرة بعد هذا التاريخ « قطاع غزة » (*) .

إذا لم يكن القطاع بما تضمنه من قرى ومدن ابن الجغرافيا الطبيعية التي لا تؤمن بالخطوط والحدود الهندسية البشرية . فمدينة غزة في الحقيقة وقراها لم تنزع على الانفصال في أية حقبة من تاريخها عن ظهرها الممتد شمالا وجنوبا وشرقا عبر سهل ساحلي خصيب أكبر بكثير في حدوده ومساحاته من قطاعها الحالي الذي اقتطع قسرا أعقاب مسرحية عسكرية سنة ١٩٤٨ من أرض فلسطين التي هي أيضا جزء من سوريا الكبرى والتي لا تنقسم بحدود عن الوطن العربي الكبير . لكن هذه المدينة بقطاعها - إذا ما سلمنا فرضها بهذا التعبير العسكري الجائر - هي جوهر دراستنا كجزء من اقليم أصبحت عليه الظروف الطبيعية بصغات ميزته عن سائر المناطق ، باذلين الجهد للنفوذ الى « روح المكان » حتى يتسنى لنا أن نحدد قسما هويتها وشخصيتها الكامنة بما يعرفه علماء الجغرافيا باصطلاح « عبقرية المكان » (١) .

وعليه فاننا نرغب بهذه الدراسة أن نصل الى أبعد من ذلك بالتوغل داخل مكنونات هذه المدينة حتى نمسك بمفتاح سرها الذي منحها الحلود على مر العصور دون أن يأتي عليها حين من الزمان كانت فيه مندثرة ، وهذا قصة فلسفتها المكانية ، التي نتمنى الوصول اليها لا من خلال الوصف الجامد أو عن طريق الأسلوب التقريرى لمجرد سرد ركامات من الوقائع والأحداث التاريخية خاصة لمدينة ذات موقع تميز بزخم تاريخي دسم واكب معظم الحضارات بل وكان لكل منها بل وللعظم القادة الكبار عبر التاريخ القديم والحديث خدث وحديث في هذه المدينة .

بل نصل الى عبقرية مكانها عن طريق الأسلوب التركيبي الذي يحفظ الرصل بين الظروف الطبيعية والبشرية ومدى التفاعل بينهما ويدرس الفاعلية الايجابية للمدينة بما حولها ، لهذا لم يكن غريبا أن نجد بحثنا في « المدينة وقطاعها » ليس مقتصرنا بالدراسة على علم الجغرافيا أو التاريخ وحدهما بل وجدنا أنفسنا نخوض ولو بطرف لدراسة شخصيتها في التاريخ والجغرافيا في الجيولوجيا والاركيولوجيا في الانثروبولوجيا والنتيورولوجيا . فهذه جمعاء

(*) قطاع غزة يأخذ شكل المستطيل يضيق في الشمال الى حد يصل فيه الى تسعة كيلومترات لا يلبث أن يصل في الوسط الى ٥ كيلومتر يتسع في أقصى طرفه الجنوبي عند الحدود المصرية فيصل لنحو ١٦ كيلومترا بمساحة تقدر بنحو ٣٦١ كيلومترا مربعا « انظر الخريطة » ، وطول القطاع يصل الى ٤٥ كيلومترا على ساحل البحر المتوسط .

(١) A. J. Herbertson, Regional environment, heredity and consciousness, Creg, No. 34, 1915, p. 148

بتفاعليها الذي لا ينفصم هي التي أمدت المدينة بعنصر الخلود . استمدت من جغرافيتها الخالدة وتاريخها البعيد .

فدراسة مدينة غزة وقطاعها بهذا المفهوم ومن خلال هذا المعنى لم تحفظ بأية دراسة جادة لا على المستوى الأكاديمي المتخصص أو الثقافي العام .

ففي العصور التي سبقت الميلاد كان يأتي اسمها عرضاً في تراث المخطوطات أو النقوش على جدران المعابد - هذا على حد علمنا - وكان المؤرخون والسائحون يتعرضون لها بفقرات عند المرور بينها كما جاء وصفها والحديث عنها من قبل هيرودوت في القرن الثالث قبل الميلاد كما سيأتي ذكره وهذا حالها في الفترات الرومانية والبيزنطية على ما كان لها من مكانة مرموقة أما في العصور الوسطى فقد حظيت بالمديح والوصف من الرحالة العرب والمسلمين حتى أتى القرن التاسع عشر قمة التحلل العثماني وذروة التدخل الأجنبي الأوروبي برجاله منتشرين بالدراسة في شتى المجالات ، فقدمت بعثة في بداية سبعينات القرن التاسع عشر وهي «مسح غرب فلسطين Survey of Western Palestine» فايتدأوا المسح بمدينة غزة ولم يعبروا جنوبها بأية دراسة فكانت أول دراسة قامت بعملية مسح ظاهري للمدينة وأحيائها وبعض مساجدها وقراها الشرقية والشمالية دراسة طابعها الإحصاء الأفقي أكثر منها دراسة علمية ووقعت جميع هذه البيانات على خرائط بمقياس رسم ١ : ١٠٠٠٠٠ في قرية دير البلح فقط .

وفي عام ١٨٨٦ أتى «شوماخر» G. Schumacher لكي يكمل ما ظل فجوة في هذه الدراسة فقام بمسح «خان يونس» وقراها الشرقية ورفع خربها متوغلا في «الشيخ زويد» ليعودوا ثانية للمدينة ، وأخذت دراسته الطابع السطحي لمجرد ذكر ما رآه بعينه من أطلال وظواهر جغرافية وديمغرافية في صفحات محدودة أشبه بتقرير رسمي ستعرض له في حينه .

ومع بداية العقد الأول من القرن العشرين كتب Martin A. Meyer أول كتاب عن «تاريخ مدينة غزة History of the city of Gaza» سرد فيه تاريخ المدينة من الألف الرابع قبل الميلاد حتى نهاية الفترة العثمانية وكان حافزه في هذه الكتابة كما جاء في مقدمة كتاب ، الأستاذ Stark الذي سبقه في الكتابة عن مدينة غزة سنة ١٨٥٢ في كتاب Gaza Und die Philistaische truste (٥)

(٤) E. e r, Conder and H. Kitchener, the Survey of Western Palestine, Vol IIF, Jerusalem 1970.

Martin, A. Meyer, History of the City of Gaza, New York., 1966, (٥) p. vii.

والتي لم يذكر فيه الحجة الاسرائيلية في التاريخ فكان «ماير» بهذا يرد على « ستارك » ليحشو هذه الحقبة في تاريخ المدينة ، والتي سنراه لا يمثل حتى ولو جملة اعتراضية في مجلدات تاريخها ٠٠ فهذا هو دأب المستشرق Meyer وغيره من المستشرقين في حملتهم في التشكيك في الدور العربي الاسلامي في الحضارة الفكرية والعلمية فوق تراب منطقتنا .

وعند مطلع الثلاثينيات « سنة ١٩٣٤ » بدأت حملة اركيولوجية جادة بحفائر هامة في مواضع وتلال بالقرب من مدينة غزة وما حولها قام بها السير فلنדרز بترى Sir Filinders Petrie في منطقة « تل العجول » دونها في كتاب أسماه « غزة القديمة » Ancient Gaza جاء ذلك في ثلاث مجلدات (٦) سمىها بالحفر في « تل الفساعة » وتل جمه (*) سنة ١٩٢٦ ، وجنوب شرق مدينة غزة مع زملائه ستاركى وهاردنغ J. L. Starky and L. Harding لتمولنا هذه الحفائر ودراساتها بمزيد من المعلومات الدسمة عن المدينة وظهرها الذي اشتمل أيضا مواقع أثرية في « الخلصة » وعبدة « وكرنب » « وبئر السبع » « وخربة الفار » وجميعها كانت تتبع مدينة غزة بصورة أو بأخرى تتفاعل معها كنقاط عسكرية على الطريق المؤدية لها والتي سيرد ذكرها في حينه .

وفي النصف الثاني من ثلاثينيات هذا القرن (١٩٣٥ - ١٩٣٨) اكتشفت بعثة « كولت » H. Dunscombe Colt (٧) الاثرية أثناء حفرياتهما في « العوجافير » نقوشا كتابية ووثائق بردية وأواني فخارية والتي كان يطلق عليها اسم « نصتان أو Nessana باليونانية أبانت الدور الذي كانت تلعبه مدينة غزة اداريا واقتصاديا على هذه المناطق وسنكشف النقاب عنها في مكانها .

وممن كتب عن مدينة غزة من أبنائها في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينات الشيخ عثمان الطباع في كتاب له لم ير النور بعد وما زال مخطوطا أسماه « اتحاف الأعزة في تاريخ غزة » اتبع فيه النهج التاريخي في سرد الوقائع والأحداث ومما أضافه جديدا عن المدينة تعرضه للكتابة عن بعض الأسر الغزية ولبس جميعها اعتمد في دراسته على اجتهاده الشخصي وما كان يرويه له

١٧. Petrie, Ancient Gaza, 3 volumes, London, 1931.

(٦)

(*) تل الفساعة يقع الى الشرق من مدينة غزة بنحو عشرين كيلومترا ويطلق عليه بترى اسم بيب بيلت Beth Pelet كما أطلقوا على « تل جمه » الذي يقع شمال شرق الفساعة بنحو ١٢ كيلومترا اسم جدار عاصمة ايمالك الفلسطيني .

J. L. Starky and Lankester Harding, Beth Pelet II, London, 1932.

١٨. Dunscombe Colt, introduction p. 14 in Excavation at Nessana, London, 1962. (٧)

المسنون من أبناء المدينة ومما لا شك فيه أن دراسته أضافت شيئا لمعيشته فترة الحرب العالمية الأولى انتهاء بالأتراك وبداية بالانجليز تمنى أن نرى كتابه مطبوعا .

وقد استغل قائمقام مدينة غزة السيد عارف العارف وجوده في المدينة فكتب كتابا بعنوان « تاريخ غزة » تم نشره في عام ١٩٤٣ (٨) اتخذ فيه أسلوب « ماير » والشيخ الطباع في سرد تاريخها بأسلوب تقريرى مفعم بالأحداث التاريخية ومعتمد اعتمادا رئيسيا على كتاب زميله Meyer مقتبسا من الشيخ الطباع ومضيفا اليهما ما استجد على المدينة في الأربعينات وما استطاع الوصول اليه من أوراق لدى بعض السكان المحليين في نهاية حكم الأتراك .

ومن كتبه التي نعتبره فيها رائدا - كتابه عن « القضاء بين البدو » (٩) سنة ١٩٣٤ الذي يعتبر من وجهة نظرنا وبحق مدخلا لما يسمى الآن بالدراسة الانثروبولوجية الحضارية والثقافية لما دونه فيه من عادات وتقاليد البدو خاصة في « الوشم » مما يعد أول دراسة انثروبولوجية لهذه الفئة السكانية لأبناء جنوب فلسطين في الوقت الذي كانت جميع هذه القبائل تتبع مدينة غزة اداريا ، على الرغم مما أثير من جدل حول كتاباته .

وفي بداية الستينات طالعنا مطبعة جامعة اكلاهوما بالولايات المتحدة بكتاب بعنوان « غزة في بداية القرن السادس الميلادي (١٠) » مؤلفه G. Dawney ركز فيه المؤلف على تاريخ المدينة في مستهل القرن السادس الميلادي بأسلوب علمي متادب مستعرضا ظروف سكانها الاجتماعية والاقتصادية واصفا حياتها اليومية بصورة أشمل من التدقيق في تاريخها .

تلك هي المراجع الأساسية التي اتخذت من مدينة غزة عنوانا لدراستها اشتركت جميعها بمعالجة الجانب التاريخي المحض ولما تعرضت له من وقائع تاريخية على مر العصور ، دون أن تتناولها بأسلوب تركيبى شامل يتعرض بالتحليل والدرس لمدى تفاعل عناصر بيئتها الطبيعية والبشرية بتلك الأحداث ومدى تأثير ذلك على المدينة كمدينة في حجمها وتركيبها الوظيفي وتأثيرها على ما حولها من مواضع وقرى ومدن .

(٨) عارف العارف ، تاريخ غزة ، القدس ، ١٩٤٣ .

(٩) عارف العارف ، القضاء بين البدو ، القدس ؛ ١٩٣٤ .

(١٠) G. Dawney, Gaza in the early Sixth Century, University of Oklahoma Press, 1965.

فلم تكن المدينة كما سنوضح تعيش في فراغ فهي جزء من كل أولا وجزء تميز بالقدرة على العطاء لما حوله ثانيا .

ومنذ الستينيات لم تحظ المدينة بدراسة علمية جادة - على حد علمنا - باستثناء ورودها ضمن مقالات جغرافية أو سياسية ، وأحيانا اقتصادية (١١) ليس الا ، على الرغم من أن هذا القطاع حرى بالدراسة الشاملة فهو يمثل الآن كتلة بشرية هائلة تحمل على عاتقها مسئوليات جساما فوق مساحة محددة ، ونحن أبناء القطاع واجبنا يفرض علينا أن نكون أدري بشعابنا والجغرافيا كما يقولون « كالأحسان تبدأ بالأقربين بل وبالبيت Geography begins at home (١٢) فنحن وبدون موارد كمواطنين لسنا على المستوى الثقافى بهذه المدينة على قدر عراققتها التى تضعها فى مصاف أقدم مدن العالم قاطبة .

وبالتالى نحن الآن أحوج ما نكون لفهم شامل وعميق لمكاننا هذا وكياننا لقدراتنا وملكاتنا ، لنقائصنا ونقائصنا ، خاصة ونحن نعيش فى بحر متلاطم الأمواج يتهيج فيه الفكر ويستنفذ بحثنا عن « غزوة » بالذات لتبيان جوهرها والكشف عن معدنها وتحديد دورها الحضارى والانسانى فى مصاف الحضارات العريقة والتليدة .

فالمدينة - مدينة غزة - بقطاعها تمر اليوم بأخطر بل وأضيق دهاليز تاريخى معتم وتسحب الى أخرج حافة جرف هاوية فى تاريخها القديم والحديث ، فهي تستدرج نحو طمس شخصيتها العربية الفلسطينية الاسلامية ببداية التخفيف من هذه الملامح عن طريق حقنها بهزارع بشرية « مستوطنات » لخلق واقع جغرافى ومن ثم تاريخى جديد يسيطر على المدى البعيد ، يدعم هذا الاستيطان ويلزمه التحايل السياسى نحو طريق الضم والالحاق الاقتصادى تارة أو بما يسمى بالحكم الذاتى المشروط تارة أخرى .

ولا يفوتنى هنا أن أضغط على حقيقة أود ذكرها قبل الدخول فى هذه الدراسة حتى لا أفسح فرصة لشطط التأويل وهى : أن « شخصية مدينة غزة وقطاعها » مهما تبلورت وعرضناها للأضواء الساطعة ووضعناها تحت ميكروسكوب مكبر فلن نخرج عن كونها خلية وملحها من شخصية فلسطين التى هى بدورها جزء من شخصية الوطن العربى الكبير .

فدراستها لا تعنى الاقليمية السياسية الضيقة ، بل انها الاقليمية الجغرافية المنيرة ، فهي دراسة عن شخصية مدينة مع ما جاورها من قرى ومدن ودواضع ضمن اقليمها الكبير ، لانه ليس من السهل علينا أن نركز على

(١١) التنمية الاقتصادية فى قطاع غزة ، محمد على خاوصى ، القاهرة : ١٩٦٧ .

(١٢) الجغرافيا مغزما ومرمما ، المجلد رقم ١ ص

خطة البحث :

بالطبع ومن وحي استشفاف « الروح » لعناصر شخصية هذه المدينة الخالدة ، ومن واقع فاعليتها ككائن حي يتفاعل تفاعلا أيكولوجيا بكل العناصر المحيطة بها ، من موقع حدى ، وموضع اكروبوليسى ، لعبا دورا فى أمنها والدفاع عنها ، الى البنية الجيولوجية التى تركز على تربتها المدنية وتحيط بها • ومدى قابليتها للبقاء والتمويل الغذائى والصناعى ، الى المناخ المسيطر على سمائها وما تنفثه من حرارة وتزجيه من غيث يهبها الحياة •

هذه الأضمومة الطبيعية بدأنا بها مكونات الباب الأول . كمدخل طبيعى وحيوى يفسر الى أى حد منحت هذه المجالات الطبيعية فرصة البقاء الخالد للمدينة مبتدئين بالموقع والموضع ، ثم البنية الجيولوجية والحركات الأرضية وأخيرا المناخ بعناصره المختلفة وإسهاماته ، مع عدم اغفال كيف استطاع الانسان العربى الكنعانى والفلسطينى البانى لهذه المدينة أن يكون عنصرا جغرافيا موجبا ويشكل ثم يعيد تركيب تربته ويغرسها فى اطار بيئة حديثة ليست بالدلول الهين استطاع أن يعيش معها فى توافق سعيد •

أما الباب الثانى / فقد اتخذنا من العنصر البشرى مادة الدراسة وأساسها بأحداثه التاريخية ووقائع الحربية كاستجابة وتجدد مستهلين فصوله بالعصر الحجري الحديث بأقسامه القديم والوسيط والحديث كعصر تميز بأهميته الحضارية كما سنرى أتبعناه بالعصر الحديدي الفلسطينى متجهين بعدها للفترات التاريخية التى تعرضت لها المنطقة من القوى الحضارية شرقا « كلدانية وبابلية واشورية » والفرعونية بجحافلها ثم اليونانية والرومانية والنبطية العربية والبيزنطية فالاسلامية والعثمانية مع ما اندس بين هذه الحقب من هجمات عارضة « صليبية ومغولية » وقد أفردنا للقرن التاسع عشر الميلادى فصلا خاصا لما تميز به من ضغط هجومي يكشف على الرجل المريض عسكريا وسياسيا واجتماعيا كبداية مهددة للغزوة الامبريالية الصهيونية التى شكلت بعمق جراح هذا الشرق الأوسطى للقرن العشرين •

مع حرصنا الشديد ونحن نترسم هذه الحقب ألا ننفل عن المدينة من الداخل لتلمس استجابة سكانها وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - بقدر الامكان - وعلاقة هذه جميعا بحجم عمرانها ووظائفه وما

يصيبها من تمدد سكنى وسكانى داخل حدودها وخارجها من عصر لآخر لايماننا بأن الانسان ككائن حى وليس العالم الطبيعى هو عنصر الحضارة الفعالة وقاعدتها •

لذا غلف دراستنا لهذا الباب طابع «الجغرافيا التاريخية» للمدينة والقطاع لتعدد مناحيها ومجالاتها فى الدراسة وأكثر الفروع الجغرافية سبرا لأغوار أى اقليم وقدرة على اكتشاف جوهره وكيانه فمعظم من كتبوا عن أى اقليم دخلوه من باب الجغرافية التاريخية « (١٣) •

ونظرا لخصوبة تاريخ هذه المدينة ان لم تكن بحق مصغرا للتاريخ نفسه - لم لا وقد بدأت مسيرة الحضارة من منطقتنا منطقة الهلال الحبيب (١٤) • فقد اتخذت أسلوب التتابع الزمنى فى ظهور المدن والقرن والمواضع العسكرية للقطاع مبتدئا بالأقدم فى « تل العجول وغزة ومنهيا بالأحدث حتى تبدو الصورة واضحة فى الدلالة على أهمية كل موضع ولتبيان دورها وأهميتها التاريخية فى ظهور ما يليها • أى بأسلوب التاريخ الطولى بالنسبة لتتابع ظهور المدن والقرى والمواضع الأثرية ، وأسلوب التاريخ العرضى لكل حقبة زمنية نستعرض فيها ما أنجزه انسان المدينة من تطور عمرانى ونشاط اقتصادى ونمو اجتماعى وثقافى حتى تبدو الصورة متكاملة لحد ما •

وبناء على ذلك - ولتنفيذ هذه الخطة ، فان معظم مراجع هذا الكتاب كانت جغرافية بفروعها المختلفة الطبيعية منها والبشرية وأبحاثا وكتب تاريخية قديمها وحديثها ودراسات اركيولوجية ومراجع ديمغرافية وأبحاث ودراسات جيولوجية وهيدرولوجية ، ونظرا لأن المدينة وقطاعها لم يحظيا بالدراسة المعمقة فى أى مجال من مجالاتها - باستثناء التاريخية منها - فقد كان الحصول على معلومات لتغطيتها أمرا ليس بالسهل ويعتمد على له من سترات متنافرة ومتناثر من كتب الرحالة والبحانة والحوليات الرسمية والوثائق والمستندات فى الدوائر والمؤسسات الدينية والمجلات العلمية وما تمخضت عنه بعثات الحفر من دراسات وتعليقات ، معززة بالزيارات الحقلية المهادفة لكل موقع وموضع أثري سواء أكان أطلالا لمدينة قديمة أو بقايا لأرضيات من الفسيفساء وكذلك الهرابات والمساجد والكنائس والأسواق القديمة والحمامات والخانات حتى المزارات وبعض الأضرحة التى لها دلالاتها التاريخية ولعله من المفيد فى هذا المقام أن نشهد همة مثقفينا وعلمائنا ومؤسسانا الدينية • خاصة ادارة

(١٣) شخصية مصر لمرجع رقم ٢ ص ١٤ •

(١٤) ج • برونوفسكى - ارتقاء الانسان - ترجمة د • موفق شخاشيرو - سلسلة عالم المعرفة

- الكويت ١٩٨١ •

الوقف ٠٠ وأثرياء هذه الديار لكى يهبوا ويهبوا تراثا تركه الأجداد بالغالى والنقيس للحفاظ عليها وترميمها فهي شواخص حضارتنا الثابتة وهي « أوراق الطابو » لأرضنا ومجدنا وتراثنا وأن نجمع ما تنثر منها ليمثل التواة « المتحف غزة » الأثرى ، فهي مدينة تملك رصيدا هائلا من التراث والآثار لاقادة « متحف » .

فهناك الكثيرون ممن يقتربون السوء بجهالة عند هدمهم لمساجدنا القديمة المنتشرة فى أحيائنا القديمة بقصد بناء مسجد حديث فوقها ، وهذا جريمة فى حق التراث - فما زالت أراضى الوقف واسعة فعلىنا بالحفاظ على القديم بالترميم وبناء المساجد الجديدة على أراض جديدة لأن هذه المساجد وما حوتها من طراز معمارى ونقوش وكتابات هي سمة من سمات الشخصية العربية الاسلامية لهذه المدينة ، تفرض علينا الحفاظ عليها واجلالها . ويا حبذا لو شكلت لجنة أو هيئة رسمية مهمتها المحافظة على هذه المناطق الأثرية يكون من مهامها :

١ - الحفاظ على هذه المباني بترميمها من الأموال المتاحة محليا .

٢ - اصدار قرار بعدم هدم أو بناء لأى أغراض سكنية أو تجارية فى المناطق أو المباني التاريخية .

٣ - لا يجوز استخدام الأسمنت المسلح فى ترميم أو إعادة بناء أى شئ فى هذه المناطق الا باذن خاص من الهيئة أو اللجنة المختصة .

فإهمال الآثار التاريخية هو فى حد ذاته انكار للذات والشخصية العربية ، ولشخصية هذه المدينة وما يتبعها من قرى ومدن والحفاظ عليها ملمح لنضج حضارى وثقافى راق ، كما أن تراثنا الحضارى بشخصه وثوابته الشامخة هو محج لنا ولزوارنا وأبنائنا ليقرأوا منه قصة أجدادهم وفرصة تربوية نبذ بها النمط التقليدى المدرسى فى تدريس مادة التاريخ والعلوم الأخرى « كلاميا » فمن خلال هذه الأماكن الأثرية « والمتحف » - كما نتمنى - تكون الدراسة عملية قيية الانسان وطريقة انتاجه وبنائه وكيفية استخدامه لأدواته التى يخلفها لا تقل أهمية عن ما ينطق من فمه من أقوال ومأثورات .

اختصارات

AASOR : Annual of the American Schools of oriental Research.

BASOR : Bulletin of the American Schools of oriental Research.

T.P.O.S. : Journal of the Palestine oriental Society.

JEA. : Journal of Egyptian Archeology.

P.E.F.A : Palestine exploration Fund Annual.

PEQ : Palestine expploation quarterly.

JEA : Israel exploration Journal.

S.W.P. Survey of Western Palestine.

ZDPV : Zeitschrift des Patschen Palästina Vereina.

الفصل الأول

العوامل الطبيعية المسؤولة عن خلود المدينة

● موضعا ٠٠ وموقعا

● جيولوجيا

● مناخيا

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان بقسدين يديان على سطح القشرة الارضية فيما نسميها « بالتربة » ورأس في الهواء يستنشق أكسجين ويتأثر بحرارته وبرياحه وأماطاره كعناصر رئيسية للسماء .

فهو اذن في حقيقته « الواسطة » بين السماء والأرض ، وننتاج من نتاجها ، الواسطة الحيوية التي حبها الخالق بالعقل ذى الفكر المدبر . وفي أحسن تقويم . يتأثر بما حوله ويؤثر فيما يحيط به ، يتفاعل وينفعل ، ليصنع من ردود الفعل هذه « الحضارة » بمفهومها المادى والثقافى .

فالتربة هي مجال الانسان فى انطلاقاته سعيا وراء رزقه ، وبنوع تكوينها توفر له عناصر غذائه وإدواته ، فان كانت فقيرة « كالرمال » فانها غالبا ما تطرد ، وتجذبه لها ان كانت طيبة غنية ، وهى بجميع أنواعها المختلفة وكل تراكيبها المتنوعة غير ولود الا اذا تدفقت عليها المياه وتسربت خلال مساماتها سواء فى صورة أمطار أو أنهار وعيون وآبار فالمصدر واحد هو السماء ، تمتزج جميعها مع البذور لتتأخذا - الحرارة - فتنتج الزرع والكلاء غذاء ووقودا للانسان وحيوانه .

الم يكن من الماء كل شئ حتى ١٩ ٠٠

وعليه كان الاعجاز فى كتابه الكريم « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا » الانعام ٢ « فما دم الانسان ولحمه وعظمه الا نتاج حقيقى مما تستجسه التربة وتفيض به السماء ولن يكتب له البقاء لو استغنى عما تعطيه هذه الأرض الطيبة ولو لفترة وجيزة . كيف لا ومآله الابدى لها يدوب فيها ليصبح مزيجا رعنصرا من عناصرها « واليهما ترجعون » لقد اختزل الخالق بأعجاز «حكم هذه «الدورة الحياتية» فى محكم قرآنه بقوله « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » الروم ٤٨ » .

هكذا بتتابع تركيبى منتظم تبدأ بالرياح وتنتهى بسعادة الانسان لما يصيب الأرض من انتاج لوفرة الأمطار ، تلك هى العروة الوثقى بين السماء والأرض وما بينهما الانسان .

فالمحصلة مفادها أن الأرض تربتها واستقرارها « جولوجيا » والسماء بعناصرها « مناخيا والانسان بعقله وتديره ثلوث ينسج الحضارات » عند

الدراسة الايكولوجية نود تأكيدها في التوطئة عن العوامل الطبيعية المسبولة عن خلود مدينتنا « غزة » فما الأرض والسماء الا الركائز الجوهرية والمقدمات الأساسية التي لا بد من وعيها جيدا قبل الولوج في تراكمات الاحداث التاريخية البشرية التي يعتورها الكثير من الشكوك سواء المتوفر لدينا وهو قليل - وما انظر منه واندثر بين طيات الأرض - وهو مازال الكثير - الذي نبحث عنه .

الم نر أن أعرق الحضارات واقدمها ما نشأت الا على تربة طينية فيضية تغمرها المياه الوفيرة سواء على ضفاف النيل أو بين جنبات دجلة والفرات وحول سهول أنهار جنوب شرق آسيا أو في وديان ودرى جبال المناطق الممطرة كاليمن والشام ، فأمدت الانسان بخيراتها ومنحته الأمان على غذائه فأقام البنيان وشيده العمران الشامخ مقاوما الزمن مما دفعنا ان نطلق عليها « عجائب الدنيا » .

وفوق ثرى أرضنا فلسطين - قامت حضارة - عاصرت بل واكملت بناء الأهرام في مصر والبابليين والآشوريين في العراق وهنا في غزة وفوق رباهما وضفاف أوديتها نشأت مراكز استيطان، واكملت - كما سيبيح ذكره - بحضارتها حضارة مصر مما يلزمنا قبل تتبع تاريخها أن نستقرى - جغرافيتها ، فالجغرافيا بأرضها وسماؤها هي التي تنسج أحداث التاريخ بل توجهه وتقوده . ومدينة غزة لها أسرارها الفريدة ، فهي لم تندثر قط ، عاشت حية منذ ولادتها ولم تمت . مناقضة كل النظريات التي تقول ان المدينة أبة مدينة كالكائن الحي يعيش ثم يموت (١٥) لقد اندثرت حقاً بعض المدن الساحلية في فلسطين في حين من الزمان - مثل يافا - حيفا - عسقلان - المجدل - رفح - إلا مدينة غزة استمرت خالدة في موضعها ووقعها لم يهجرها أهلها الأصليون على مر العصور فما هو السر !!؟

والسر يتضح في دراسة روافد السمود - انها الأرض المعتلة بموضعها ووقعها ، ببساطة تضاريسها أو صعوبة بلتها - باستقرارها أو زلزالها والسماء بحراراتها ومائها - هذه جميعا تمنح البقاء والاستقرار .

(١٥) جمال حمدان - جغرافية المدن - القاهرة ، لا توجد نسخة .

الموضع والموقع : لمدينة غزة وتل العجول

أثير كثير من الجدل حول موضع ونشأة مدينة غزة منذ عصور ما قبل الميلاد ، هل نشأت أول ما نشأت في منطقة « تل العجول » الواقعة على التلة الشمالية القريبة من فم الواد - وادى غزة - كما يرى فلندرز بشرى . أم أنها كانت تقع منذ أن شيدت لبناتها الأولى في موضعها الحالى الواقعة على خط عرض ٣١°٣ شمال خط الاستواء وعلى خط طول ٣٤° شرقا . بعيدة عن الساحل ثلاثة كيلو مترات ونصف (٣.٥) الى الغرب منه . تماما كما حدد بعدها هذا « هيرودوتس » أيام الاسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد .

وبما ضاعف من هذا النقاش ما ورد من أسماء مثل « غزة الجديدة وغزة القديمة » والفيصل لهذا الجدل ما أجمع عليه معظم الأركيولوجيين من أن غزة الجديدة تقع على أنقاض غزة القديمة فالمواضع والمواقع غالبا ما تتوارث ، وما الارتفاع الذى تقع فوقه المدينة الحالية « ٤٥ مترا فوق مستوى سطح البحر » الا نتيجة الارसाيات المتراكمة من أنقاض بنيانها القديم عبر القرون ، ولو أن هذا القول يؤخذ بشئ من الحذر والتحفظ .

ففى عام ٣١٢ قبل الميلاد أسماها كل من ديودورس Diodorus و بروفي Prophy « غزة القديمة » تمشيا مع التعبير القديم « Veterem Gaza » وقال جيروم Jerome أن موقع مدينة غزة القديمة من الصعب تحديده وانها ربما دمرت أيام الاسكندر جانيوس Alexander Jannaeus ثم أعيد بناؤها ليطلق عليها اسم « غزة الجديدة » وربما كان ذلك على يد جانيوس Gabinius سنة ٥٧ قبل الميلاد (١٦) .

فمهما اختلفت هذه التسميات تبقى هناك أمور ثابتة لا تجعلنا نحيد عن جوهر الموضوع وهو أن موضع مدينة غزة الحالى سواء أكان فى « تل العجول » الواقعة جنوب المدينة الحالية بسبعة كيلو مترات أو نشأت فى موضعها الحالى ، يظل كلا الموضعين موقعا حديا ضمن إقليم جغرافى طبيعى واحد ، تطله ظروف مناخية واحدة فالسبعة كيلو مترات لا تنقلنا من إقليم لاقليم آخر متباين . (انظر خريطة رقم ١) .

M. A. Meyer, History of the city of Gaza, New York, 1966, p. 7-11, (١٦)

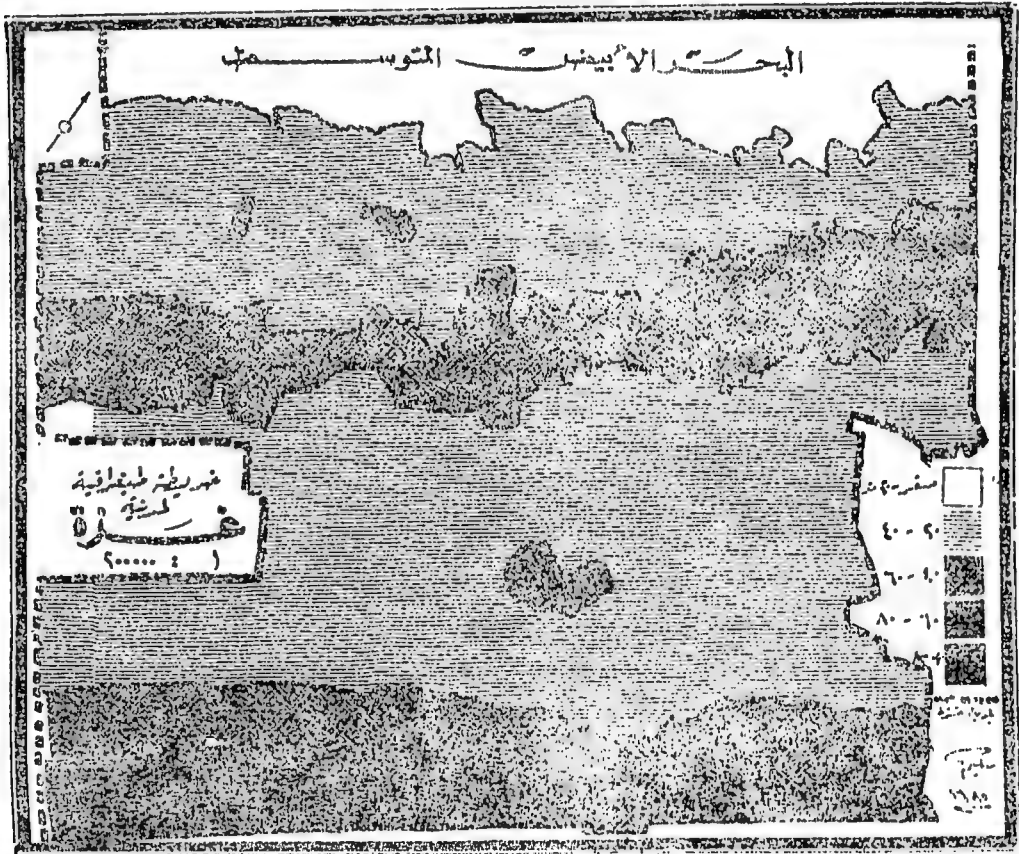


خريطة (١) موانع وموضع غزه ونل المجلول

وكلا الموضعين « تل العجول » وغزة ، يقعان على تلة ، الأولى قريبة جدا من البحر (١ كيلو متر) والثانية (٢٥ كيلو مترا) أبعد منها متمشيا مع الأسلوب القديم في اختيار « التلال » مراكز للاستيطان - النظام الاكروبوليسى - لاستيفاء ضوابط الأمن والدفاع وسط منطقة سهلية تسيطر عليها . لكن يبقى استثناء واحد بين الموضعين هو أن « تل العجول » تقع على حافة واد وباقرب من نهايته المصبية وعند أكثر اتساع له . بينما غزة تقع على تلة وسط منطقة سهلية خصبة . وقديما تشكلت وتوطنت جميع المواضع منذ العصر الحجري وحتى الإنسان العربي الكنعاني وما بعده اما بالقرب أو على حافة نهر أو واد ، وسنرى كيف استقطب - وادي غزة - من منابعه عند الحافة الجنوبية الهضبة الخليل مورا بمجرى الأوسط عند بحر السبع وحتى مصبه في غزة عديده من هذه المواضع الأثرية الاستيطانية القديمة . وهذا لا يبرر طول البقاء لهذه المواضع سواء لقرب المياه السطحية منها أو الجوفية أو لكون الواد خدقا أماهيا يصعب اجتيازه ويسهل الدفاع عنه . بالرغم من كل ذلك - كثير منها عاشت لفترة قصيرة واندثرت وأخرى استمرت لمدة أطول لمزايا موقعها وموضعها . وربما تحولت نعمة الموقع على الواد التي انفردت بها « تل العجول » عن غزة الى نقمة عندما أدى ركود مياه الواد عند المصب الى انتشار مرض الملاريا بين سكان « تل العجول » فهجروا موضعهم متجهين شمالا نحو موضع مدينة غزة الحالي على حد زعم «فلندزيرى» ليسكنوا تله وليمتعدوا عن البحر قليلا « ومياه الأودية الراكدة مستعصين بدلا منها بينابيع المياه المحيطة بمدينة غزة وسياها الجوفية القريبة - كما وصفها كثير من الرحالة كما سنرى - فوفر بالتالى عناصر الأمن والغذاء لها ليمنعها الخاود هذا عن الموضع Site

أما الموقع Situation فهو لسر الآخر لخلود المكان فسواء أكان موقع مدينة غزة الحالية أو موقع « تل العجول » فإنهما يمثلان أول واحة للراحة تقف عندهما تلك القبائل العربية القادمة من الصحراء العربية - الخزان البشرى الهائل والأول - لتحل رحالها فيها لتجد الطين والحصب من بعد الرمال والقحط والماء الوفير بدلا من مياه العيون المتناثرة وسط بحر الرمال العظيم ، لتصبح منطقة غزة لهؤلاء أول مدرسة لتعليم الزراعة والاستقرار لمن تعود الرعى والترحال ، فينجح من يملك القدرة والرغبة على التعليم فيكتب له الاستقرار اذا فهم مصيب بشرى يحكم موقعها الحدى - بين المزروع واللامزروع فهم آخر السحراء شمالا وأول البحر المتوسط جنوبا - منطقة انتقال - سمة من سمات الحدى ، جماعت العصر البشرى العربى ذا الوجوه السمراء دائمة التوافد ، ترى سراياهم موجة اثر موجة على مر التاريخ ليتركزوا بها ، تمولهم بعاتها الوفير ، فيفتنونها بالبذل والتضحية فكان سر خلود المكان وسمود السكان . على النقيض من « تل العجول » التي سبقتها سكننا ولم تجارها بقاء مستمرا فقد تلاشى

اسمها - كموقع مدني - بعد أول ضربة هكسوسية لتزول ثم تطفوا من جديد
والكن بوظيفة جديدة - وظيفة الموقع العسكري المتقدم - والميناء احيانا - لمدينة
غزة من الجنوب ، لم لا وقد نزع سكانها نحو - غزة - لكن لم ينسوها ، فقد
أبانت لنا الحفائر والدراسات الأركيولوجية من أدوات زراعية وحلى ومجوهرات
وأوان فخارية البجوحة الاقتصادية والحياة الاجتماعية الترفية التي كان
ينعم بها سكانها .



خريطة رقم (٢)

وسمعا عن « تل العجول » كنقطة تجمع عسكري للوالب على غزة من
الجنوب على طول الفترات التاريخية وحتى الحرب العالمية الأولى .

الموقع البحري

وحافظت مدينة غزة القديمة على موقعها منذ نشأتها حتى اليوم الذي يبعد عن شاطئ البحر بنحو ثلاثة كيلومترات ونصف (٣٥ كم) من الغرب ، احتلت موضعا فوق تلة فسيحة الى حد ما (كيلو متر مربع تقريبا) تتوافق في مساحتها مع متطلبات وطاقت أبنائها الأوائل في العصر العربي الكنعاني . وترتفع هذه « التلة » ثمان واربعين مترا (٤٨ متر) عن مستوى سطح البحر وسط منطقة سهلية أقل منها ارتفاعا أصبحت وكأنها جزيرة مرتفعة وسط مجرى وادي قديم . يحفها حزامان طوليان أكثر منها ارتفاعا الى الغرب والشرق منها موازيان لساحل البحر المتوسط .

أما الحزام الغربي فيمثل نطاقا من الرمال يرتفع أكثر من ٥٠ مترا عن مستوى سطح البحر ويبعد عن البحر كيلو مترين .

أما الحزام الشرقي فيتكون من رمال خشنة (كركار) وطين يرتفع أكثر من ٦٠ مترا عن مستوى سطح البحر وتعلوها بعض تلال يزيد ارتفاعها عن ثمانين مترا عن سطح البحر مثل تل المنطار (٨٥ مترا فوق مستوى سطح البحر) وأخرى أكثر من سبعين مترا بحيث أصبحت تشكل « مناظر » الشرق وتشرف عليها (انظر الخريطة رقم ٢) .

يتوسط الحزامين موقع وموضع مدينة غزة فوق حزام ثالث أقل انخفاضاً (٢٠ - ٤٠ مترا) فوق سطح البحر .

هذا الموقع الاستراتيجي « الأوروبوليسي » ساعد المدينة كثيرا في توفير أقصى درجات الدفاع عنها .

القطاع جيولوجيا :

يشبه هذا الشريط الساحلي المسمى « قطاع غزة » والذي هو جزء لا يتجزأ من السهل الساحلي الفلسطيني يشبه جيولوجيا ومورفولوجيا الساحل الشمالي لسيناء بشكل كبير ، لما يتميز به من ظاهرات بارزة من سلاسل وحواف طولية وكثبان رملية .

فالكثبان الرملية في القطاع تمتد على هيئة حزام طول مع امتداد ساحل البحر المتوسط من أقصى الشمال الى الجنوب يصل ارتفاع بعضها الى سبعين مترا عن مستوى سطح البحر كما في « تلة النصر » غرب قرية بيت حانون حيث تصل الكثبان الرملية الى أقصى امتداد لها نحو الشرق في قرية بيت حانون ، وبعدها تضيق نطاق الكثبان الرملية الساحلية الحديثة التكوين كلما اتجهنا جنوبا فتمتد الى الغرب من قرية النزلة وحاليا وتصل أعلى نقطة وسط هذه الرمال الناعمة عند « تلة الشيخ رضوان » وترتفع ٦٥ مترا عن سطح البحر . وعند مدينة غزة وصلت الكثبان الرملية الى الغرب قليلا من المدينة لتحيط بها في اتجاه الجنوب لتتحصن بعدها هذه الكثبان الرملية لتشكل أضيق خاصرة لها الى الغرب من « دير البلح » ثم تأخذ في الاتساع قليلا في اتجاه مدينة خان يونس وإلى الغرب منها مباشرة حتى رفح لترتفع أعلى الكثبان شمال غرب خان يونس فتصل الى « ٦٨ مترا » وشمال غرب رفح الى ٥٥ مترا عن سطح البحر (١٧) ، وعلى العموم يتراوح عرضها ما بين ٢ كيلومتر الى ٥ كيلومترات داخل القطاع .

تأخذ هذا الكثبان الرملية الشكل « الهلالي » وبعض الأشكال المتعرجة وذلك لسيادة الرياح الغربية والشمالية معظم العام . وهي متحركة نحو الشرق .

وقبل أن نترك الكثبان الرملية والساحل للقطاع تستوقفنا ظاهرة جيولوجية ومورفولوجية ماثلة في حواف لها وجه شديد الانحدار تطل على البحر مباشرة تتألف من تكوينات طينية حمراء خصبة كذلك الواقعة على شاطئ البحر قبالة « بيت لاهيا » وعند شاطئ « الشيخ رضوان » ميناء انبندون القديم ، « وحانة الشيخ عجلين » والحانة الواقعة على شاطئ « دير البلح » فالشعيرة البحرية الشاطئية هي المسئولة عن ظاهرة الارتفاع « الجرف » Cliff لكن التكوينات الطينية ربما كانت نتيجة لارساب طمي النيل أثناء الفيضان عندما يقذف بارساباته الطينية في البحر المتوسط لتحميلها أمواج البحر

أو ترسبها على شاطئ غزة • والتي اتخذ منها فيما بعد مناطق استيطانية وموانئ هامة للمدينة في العصر اليوناني والروماني • هذه الرمال حدثت بل حددت بقوة طريق المواصلات القديم «Via Maris» طريق البحر • وحدت من التوسع العمراني لشبكة المدينة وسائر مدن القطاع نحو الغرب لفترة مديدة (انظر الخريطة رقم ٣) •

اما الى الشرق من القطاع فهناك الكشبان القديمة غير المتحركة والتي تتألف من تلال من الحجر الرملي المتناسك « الكركار » تتخلله طبقات رقيقة من الرمال الحمراء أو ذات اللون البني والتي تعرف محليا « الحمرة » تتركز جميعا مع طبقات من التكوينات الطباشيرية •

هذه التلال تحف بالقطاع في الغالب من الشرق مبتدئة من الشمال الى الجنوب وجميعها يتراوح ارتفاعها ما بين ٨٠ الى ٨٥ مترا فوق سطح البحر باستثناء « تلة المنطار » شرق غزة التي يصل ارتفاعها الى ٨٥ مترا • ساهمت هذه التلال بدور رئيسي كنقاط للمراقبة « منطير » على مر العصور •

وتكوينات « الكركار » أهدت سكان غزة بحجارة البناء فبنوا منها مساكنهم ونحتوها لدفن موتاهم في حجرات منذ أقدم العصور وفي عصرنا الحالي • بالإضافة لكونها الوعاء الخازن للمياه الجوفية لمساحتها فأصبحت تمثل الرصيد الاحتياطي الهائل للمياه وبمرتفعاتها الشرقية حددت طريق حوريس هي والكشبان الرملية (١٨) •

اما التكوينات الطينية الحمراء والمنتشرة شرق القطاع فقد استغلها الانسان العربي الفلسطيني الغزي في تشكيلها وصنع منها لبنات الطوب ليشيد بها بيته ، بل تعدى ذلك وتفنن في صناعتها لارتفاع نسبة الحديد فيها فصنع منها أدوات وآليات الفخارية التي شملت معظم احتياجاته واحتلت شهرة فائقة كما سنرى عند مقارنتها بالأواني والأدوات الفخارية المصرية والتي عثر عليها في « تل العجول » و « دير البلح » وأماكن عديدة من القطاع •

فمنها صنع أدوات التخزين ومصايحه وخزينة ماله وظل يطورها حتى أمسست قبيلة لدفعه وقالبا يصب عليه نقوده كما سنرى •

وللتكوينات الطينية أهميتها للزراعة خاصة لو علمنا أنه الى الشرق من غزة تتألف التربة من مزيج التربة الطينية المختلطة بالجير الايوسيني الذي تنقله الرياح « اللويس الصحراوي » فكان لهذه « التوليفة » الجيولوجية أثرها

فى شهرة أراضي غزة بزراعة القمح والشعير الغذاء الرئيسى للسكان منذ أقدم العصور وفيما بعد بالحشيشات والكروم .

هذه الامكانات الجيولوجية بتكويناتها المعطاءة وفرت لانسان هذه المدينة عناصر البقاء والحدود من زراعة وصناعة وحتى الظروف الأمنية ولعسل « استرابو » فى العصر اليونانى خير ما أوجز ذلك بقوله « تربة غزة ناعمة ومن السهل العمل فيها ، وان أدوات وآلات الحصار تواجه صعوبة فى تطويقها لأنها تغوص فيها ولكن الكثير مدح خصوبتها وزراعتها » (١٩) (انظر خريطة رقم ٤) .

وفى نهاية العصر الجيولوجى الحديث « البلايوسين » تعرض القطاع كجزء مما تعرض له السهل الساحلى الفلسطينى لحركة هبوط امتدت من مدينة « يافا » شمالا حتى رفح جنوبا متوغلة الى بئر السبع شرقا على هيئة قمع كبير ، طرفه الضيق عند « بئر السبع » وفتحته الكبيرة تمتد من يافا حتى رفح [حوض بئر السبع - غزة] (٢٠) .

ويرى العلماء أن هذا الحوض انكسارى فصل هضبة الجليل عن النقب تماما كما فصل انكسار سهل مرج بن عامر بين الجليل وجبال نابلس .

أدى هذا الهبوط بطبيعة الحال الى توغل مياه البحر المتوسط على هيئة لسان مائى امتد حتى بئر السبع فنجم عنه ارسابات بحرية جيرية يمكن رؤيتها بوضوح عند مشارف مدينة بئر السبع الغربية خاصة وحولها بصفة عامة . وهذه التكوينات أكسبت التربة الطينية ذرايا جعلت زراعة القمح والشعير فيها ذات شهرة فائقة فى نوعيتها وجودتها عززت مكانة غزة بصفة خاصة الاقتصادية فى الأسواق العربية المحيطة بل والأوربية . تراجع بعد ذلك هذا اللسان البحرى متجها للغرب فى اتجاه موقعه الحالى نتيجة حركة ارتفاع لباطن الأرض فى عصر « البلايستوسين » فانسحب مخلفا وراءه مستنقعات وبحيرات متناثرة أخذت تجف تاركة وراءها طبقات جديدة صماء تحول تسرب المياه السطحية الى أعماق بعيدة ، لذا كان الوصول الى المياه الباطنية فى القطاع وغزة خاصة لا يحتاج الى الحفر لأعماق بعيدة ، بحيث لا يزيد عن خمسين مترا شرق المدينة وخمسة عشر مترا الى الغرب منها بالقرب من الساحل . وهنا يكمن سر آخر من أسرار بقاء المدينة

Leo picard, geography, Librairy Boker, Jerusalem, 1973.

(١٩)

(٢٠) د. محمد غلاب ، الجغرافيا التاريخية لاقليم النقب ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية

ـ الموسم الثقافى لعام ١٩٥٦ ـ القاهرة ـ ص ٨٤ ـ ٨٦ .

وهو سهولة الحصول على المياه الجوفية خاصة وان المدينة تتلقى الحد الأدنى من كمية الأمطار الساقطة على فلسطين كلها . فاشتهرت كما سنرى بحفر الآبار واقامة السواقي عليها لزراعة الخضار والفاكهة من حولها .

من هنا اختلفت طبيعة التكوينات الجيولوجية للتربة وخواصها التركيبية في القطاع من التربة الطينية والرملية المتحركة والرملية المتماسكة (الكركار) ويمكن توزيعها وفقا لموقعها الجغرافي بالنسبة التقريبية من الشمال للجنوب كالتالى : (٢١)

١ - منطقة بيت حانون ودمره :

تشمل التربة الطينية على ٤٠٪ من مساحة أراضيها أما التربة الصفراء فتغطي ٣٠٪ منها فى حين تحتل الرمال والكركار ٣٠٪ من مساحتها الباقية .

٢ - منطقة جباليا والنزلة :

تربة رملية وكركار ٩٠٪ والتربة الصفراء تغطي ١٠٪ من مساحتها .

٣ - منطقة شمال شرق غزة :

تربة طينية ٨٠٪ من مساحتها و ٢٠٪ رمال وكركار .

٤ - شمال غرب غزة (مشروع عامر والسيفا) وبيت لاهيا .

تتألف من تربة رملية تكون ٧٠٪ من مساحتها وتربة صفراء ٢٠٪ وتربة طينية ١٠٪ .

٥ - منطقة غزة :

٩٠٪ من تربتها طينية و ١٠٪ تربة صفراء .

٦ - منطقة وادى غزة والمخراقة (تل العجول) .

تربة طينية ٩٠٪ و صفراء ١٠٪ من مساحتها .

٧ - منطقة النصيرات وأبو مدين

تربة طينية ٤٠٪ ورملية وكركار و صفراء ٦٠٪ من مساحتها .

٨ - منطقة السميرى والسبع الوسطى والمغازى :

تربة طينية ٧٠٪ ورملية صفراء ٢٠٪ ورملية ١٠٪ من مساحتها .

(٢١) التطور الزراعى فى قطاع غزة . نشرة من مديرية الزراعة - بتاريخ ١٩٧٨/٦/٢٥ .

٩ - منطقة دير البلح :

تربة طينية ٤٠٪ ورملية صفراء ٣٠٪ ورملية مواصى ٣٠٪ من مساحتها

١٠ - منطقة خزاعة وعيسان وبني سهيلا .

تربة طينية ٨٠٪ ورملية صفراء ٢٠٪ من مساحتها .

١١ - منطقة خان يونس :

تربة طينية ٢٥٪ ورملية صفراء ومواصى ٧٥٪ من مساحتها .

١٢ - منطقة رفح :

تربة طينية ٢٠٪ ورملية صفراء ومواصى ٦٠٪ ورملية ٢٠٪ من مساحتها .
نلاحظ من خلال التوزيع الجغرافي للتركيبات الجيولوجية للتربة ان الأراضي الطينية الجيدة للزراعة تتوزع بنسبة كبيرة حول المدن وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية والوسطى والشمالية الشرقية من قطاع غزة مما يسهل قيام حرفة الزراعة المبكرة .

وهكذا يمكن اجمال فضائل الجيولوجيا على المدينة وما حولها بانتشار تربتها الطينية الخصبة المزوجة الى أقصى الشرق بتربة جيوية ساعدت على زراعة الحبوب وشهرته شرقا كما كانت المادة الخام لصناعة الفخار لأبناء المدينة ولبناء بيوتهم منها وفي الغرب حددت الرمال بكتبانها المتحركة نحو الشرق الطريق التجارى والعسكرى فأصبح أشهر طريق عالمى قديم (طريق البحر « Via Maris ») يمر بجذاء مدينة غزة عبرته جحافل الامبراطوريات العسكرية القديمة وقت الحرب وقوافل التجارة أيام السلم ومن هذه الرمال الناعمة صنع الزجاج ومن رمالها المتناسكة والمنتشرة الى الشرق من القطاع على هيئة تلال استمد الانسان العربى الفلسطينى تجارتها فقام بنحتها وتشييدها لبناء منزله .

يبقى لنا عنصر جيولوجى هام أضفى على المدينة « غزة » وما جاورها نعمة الهدوء والاستقرار التكتونى لسكنها وسكانها وهى « الزلازل » ومدى تعرض المدينة لضرباتهما على مر الأحقاب .

الزلازل :

ونلاحظ أن نصيب غزة وما حولها من الهزات الأرضية قليل جدا ، فالزلازل فى فلسطين عامة - وكما هو الوضع فى اقليم البحر المتوسط من النوع المعتدل عكس الحال فى منطقة الأغوار التى تضربها الزلازل بعنف وذلك لحداثة تكوين الاخود الأفريقى العظيم الذى تعتبر منطقة الأغوار الفلسطينية امتدادا شماليا له هبطت فى عصر اليجوسين « .

فالجيوولوجيون يرون أن هناك مراكز للزلازل في فلسطين في منطقة نبي صفد ونابلس « مراكز سطحية » وأخرى أقل عنفا في « اللد والرملة » .

ويرى السيد « سايبيرج » « Sieberg » (٢٢) بأن خطوط الانكسار الجيولوجية القريبة من ساحل البحر في الجنوب هي المسؤولة عن وجود المركز الثالث الأقل عنفا مما سبقه . وهي منطقة « غزة - دير البلح » والذي يقع في قطاع يمتد من بئر السبع - دير البلح - مواز للساحل (أنظر خريطة رقم ٥) وسليبه فمناطق غزة هي على هوامش الزلازل تتلقى الجهد الأدنى من ضرباتها وتتكرر عندها أخف موجاتها الضاربة فلم يحدث لها كما حدث لبعض المدن التي دمرتها الزلازل كليا ، بل تعرضت لهزات جزئية أثرت على بعض بنياتها القديمة . ولعله من الأهمية أن نتبع ما تعرضت له غزة والمدن الفلسطينية من هزات أرضية على مدار أكثر من ألف وخمسمائة عام (٢٣) .

السنه	ملاحظات
٣٦٢ ميلادية	أحدثت الزلازل اضرارا في غزة ونابلس وبيت جبرين
٦٧٢ هـ	ضربت غزة وعسقلان والرملة وكانت قوية .
١٠٣٣ هـ	ضربت غزة وعسقلان وكانت الحسائر شديدة وحدث مد بعوى على شاطئ المدينة .
١٠٣٤/١١٠٣/١٢/١٠ م	دمرت الزلازل ١/٤ الرملة ونعصف نابلس ودمرت اريحا ودمت بيوت عكا مع خسائر في الأرواح واكتسحت الأمواج ميناها ودمرت بيوتها في الغليل وغزة وطبريا .
١٢٩٣ م	ضربت غزة والرملة والكرك .
١٥٤٦/١/١٤	ضربت غزة ودمرت فيها مدرسة قايتهى تدميرا تاما .
١٨٣٤ م	ضربت غزة وكانت قوية واستمرت متقطعة لعدة أيام .
١٨٧٠/٦/٢٤	ضربت غزة وكانت خفيفة .
١٩٠٣	ضربت غزة ثلاث هزات في ست ثوان .
١٩٢٧	هزة خفيفة في غزة .

إذا نصيب غزة محدود من أضرارها لتوجهي لنا وتشير الى شموخ بنيانها القديم الذي ما زال ماثلا في أجزائها العديدة .

I.E.J. Vol. 2, 1952, pp. 49-60, D.H.K., Amiran, Arvised Earthquake. (٢٢)

I.E.J. Vol. 1, 1950, pp. 51 calalogue of Palestine. (٢٣)

(*) درجات الزلازل عند Siebery كالآلى من ١ - ٢ درجة خفيفة جدا لا يلحظها الفرد العادى

٤ - ٦ درجات لا تحدث أضرارا أو خسائر .

٧ - ٨ درجات عنيفة وتسبب أضرارا مادية .

٩ درجات فما فوق عنيفة وتحدث أضرارا جسيمة .



خريطة (٥)

مناطق الزلازل في فلسطين

وتضاريسها يمثل القطاع تنمة للسهل الساحلي الفلسطيني ويصل الى ذروة اتساعه عند هذا القطاع ليصل شرقا في بئر السبع رصعته بعض التلال ذات الحجر الرملي المشماسك جذبت الانسان العربي الكنعاني الفلسطيني للاستيطان فوقها طلبا لمزيد من الأمن وقوة في الدفاع فأضحت هذه التلال بمثابة السهل الممتنع فوق أرض منبسطة في عمومها فلا عجب أن تجد أقدم حضارات فلسطين العربية الكنعانية قد اختارت مواقعها الاستيطانية فوق تلال مثل « تل السبع - تل أبو هريرة - تل جمة - تل الفارعة - تل العجول - تل رفح وتل السلطان » وهي جميعا باستثناء التلدين الأخيرين تقع على ضفاف وادي غزة بالإضافة الى مدينة « غزة » الواقعة على تلة وسط أرض منبسطة . وعليه لم تشكل التضاريس حاجزا أو مانعا يفصل المدينة عن ظهيرها فلا جبال ولا وديان تعوق الاتصال بين المدينة ومجالها الزراعي المسميح شرقا أو شمالا أو جنوبا . فهناك اتصال أرضي مستمر للأرض سهلية ومفتوحة في أقصى وأعرق امتداد لها على طول الساحل الفلسطيني .

الأحوال المناخية :

ان الأرض وما عليها مرآة عاكسة للسماء وأحوالها ، فالتغير وعدم الاستقرار في الأحوال المناخية معناه في المقام الأول اضطراب في طواهر الجغرافية البشرية على الأرض وعلى رأسها تنقل القبائل ومن ثم التغير في توزيع مراكز العمران والاستقرار سواء على مستوى القرية أو المدينة وحتى الحزب وبالتالي تبدل حالة الاستغلال الاقتصادي وحجمه مع ما ينعجم عنه من ازدهار مناطق وزوال أخرى .

فهل ازدهار مراكز الاستقرار في منطقة النقب ظهير غزة وما حولها يعني ان مطرا كان في الماضي أغزر مما هو عليه الآن ؟ فقد دلت الآثار والأطلال على وجود مدن عامرة في الماضي وحتى القوة الرومانية البيزنطية مثل (سبيطة - عبدة - كرنب - المشاش - تل الفارعة - تل أبو هريرة وعسلوج النخ وجاء ذكر حوالى ثمان وثلاثين مدينة في النقب في عديد من المصادر القديمة . وعاصرت غزة جميع هذه المراكز الاستيطانية المندثرة وبقيت هي ، فهل يعني ذلك ثبات الأحوال المناخية حول غزة وعدم استقرارها وتذبذبها على مناطق ظهيرها شرقا وجنوبا ؟

هناك رأى للسيد هنتنجتون «Huntington» يقول فيه ان أسباب الهجرات السامية ، مرده للجفاف الذي يصيب المناطق الانتقالية بين اقليمى البحر المتوسط والصحراء . وانه حدثت سلسلة من التغيرات المناخية تناوبت فيها فترات الجفاف وفترات المطر الغزيرة خلال العصور مستعينا بأفكاره هذه مع ما افترضه

« بروكنر » Bruckner من وجود دورة تكثر فيها البقع الشمسية كل خمسة وثلاثة أو إحدى عشرة سنة واستنادا على هذا فسر هنتنجتون الأحداث التاريخية من قيام حضارات وانحطاط. أخرى وهن هجرات البدو وهجمات البرابرة وتقلص التجارة أو تقدمها على أساس تغير المناخ من غزارة المطر أو جفافه . وكان هنتنجتون بهذا يحاول الوصول الى ايجاد علاقة بين الدفوعات المناخية من ناحية وبين الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى مستندا ومقننا آراءه هذه بأطالال المدن المنتشرة والمندثرة في ظهير غزة في النقب (٢٤) .

ولكى يدلل هنتنجتون على آرائه هذه قام بزيارة مدينة غزة خاصة وانها تمثل جزءا من الحزام الانتقالي بين الصحراء ومناخ البحر المتوسط الذي هو صلب وجوهر وجل ميدان بحثه ودراساته والتقى بالهر غات Herr Gut المبشر النمساوي الذي عاش ثلاثين سنة في كنيسة دير اللاتين في غزة محدثا هنتنجتون بأنه لم يسمع بمحن أصابت الزرع بين مدينة غزة ووادي الشريعة في الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٧٩ و ١٩٠٩ م سوى مرة واحدة وكان باقي السنين كاف في غلاته ويصدرون ما يزيد عن حاجتهم ، أما الأرض الواقعة شرق وادي الشريعة حتى بئر السبع فقد أصيبت في نفس الفترة عشر مرات (٢٥) .

ولعل رد السيد غات كان منافيا لآراء هنتنجتون في عدد مرات الجفاف والقحط العديدة في الفترة الوجيزة « ٣٠ سنة » ويوحى لنا عن تعدد فترات القحط في ظهير غزة عنه فوق المدينة وهوامشها لقرب مدينة غزة من هبوب الرياح العكسية الممطرة وقلة تأثيرها كلما اتجهنا شرقا وجنوبا مما جعل التذبذب أكثر وضوحا شمال النقب وجنوب غزة كما سيوضح من دراسة المعطيات الرقمية عن كميات الأمطار . كما اننا لسنا بصدد الرد هنا على آراء هنتنجتون لكننا نوضح بأن الظروف السياسية وتوزيع واختلاف مراكز الثقل الاداري والعسكري للامبراطوريات المتتابعة مع الظروف الصحية وانتشار الأوبئة كانت كهيئة بدفع هجرات بشرية وهجر مناطق واستيطان مناطق أخرى والنحول عن طريق تجاري وانكماش مدنه الى طريق أخرى وانتعاش مراكز عمرانه . فليست الأحوال المناخية سوى عنصر لا ننكره من جملة أسباب وعناصر سياسية واجتماعية وصحية . . . الخ .

وما دمنا بهذا الصدد فلعلنا من المناسب أن نجيب عن السؤال هل المناخ في السابق كان كما هو عليه اليوم ؟ هناك فريقان استخدمتا كل الوسائل

Viola Hintington, Palestine and its Transformation, London, 1910, (٢٤) pp. 251.

(٢٥) عارف الجارف ، القضاء بين البدو - القدس ، ١٩٣٣ ص ٢١٩ .

لدراسة جذوع الأشجار والظواهرات الجيولوجية والمورفولوجية والاركيولوجية .
ليؤكد فريق أن المناخ لم يتغير وقد كان في الماضي على ما هو عليه اليوم ويتأسس
هذا الرأي السيدان وولي Wolly ولورنس Lawrence ويوضحانه في
كتابهما The Wilderness of Zin (٢٦) مستشهدين بكثرة السدود والصهاريج
التي تفنن في انشائها أجدادنا العرب الأنباط في مدن النقب السابق ذكرها
وحذا حذوهم الرومان والبيزنطيون . ولعل قصة أبينا ابراهيم عليه السلام
١٨٥٠ ق.م واختلافه مع ملك الفلسطينيين وقائه جيشه (سفر التكوين - ٢١)
على ملكية بئر الماء في بئر السبع ما يكفيها الدلالة على تذبذب كمية الأمطار
وندرتها مما دفعهم لحفر الآبار والصهاريج وتفننوا في حفظ كل قطرة ماء تهبط
عليهم من السماء . ولعل هنتجتون يصطلف مع هؤلاء لكنه يتميز بالربط بين
تذبذب الأحوال المناخية وظروف الهجرات والاستيطان .

أما أصحاب الرأي الآخر فيرون أن الأمطار كانت أغزر مما هي عليه الآن
يقودهم كل من السيد ستاركى J. L. Starkey وهاردنغ L. Harding
في كتابهما Beth Pelet (٢٧) مفسرين كثرة مدن النقب وسدودها
لغزارة الأمطار ، والرأي الأول هو الأرجح والأصوب فإذا ما رجعنا للكتب
السماوية المقدسة الكتاب المقدس والقرآن الكريم نجد وصف الأول للهضاب
والسهول الفلسطينية ونظام المطر فيها وما تضمنته الآيات القرآنية من أنواع
الأشجار « كالتين والزيتون والاعناب والنخيل ووسائل استثمار الأرض ينطبق
على نفس الحال اليوم . وهذا لا يمنع من وجود ذبذبات عليه عن المتوسط
العام » .

أما عن الحرارة كعنصر مناخى حيوى فيرى الأستاذ جريجورى J. Gregory
أن درجات الحرارة لم تختلف في الجانب السورى منذ القديم عنها حتى الوقت
الحاضر مستدلا على ذلك بأشجار النخيل في الجنوب والتي مازالت منتشرة .
فلم تزد عليها الحرارة لتعوق نموها كما أنها لم تقل عن معدلها لتحد من
انتشار زراعة الكروم على الساحل الجنوبي الفلسطيني أو فوق الهضاب (٢٨) .

إذا لا خلاف على حدة ذبذبات المطر وقدرتها شرق وجنوب غزة وتوفرها
بكمية معقولة فوق مدينة غزة مما جعل الاستقرار أكثر ثباتا منه في ظهيرها

wolly and Lawrence, The Wilderness of Zin. (٢٦)

J.L. Starky and L. Harding, Beth Pelet, II. (٢٧)

والاثنان من البعثة التي قامت بالتحريات في تل العجول وتل جمة وتل الفارعة - شاروحيين «
ويدعى بتري أن تل الفارعة هي Beth Pelet.

J. W. Gregory, Glasgow, 1930, pp. 887-897. (٢٨)

شرقا وجنوبا فأوضحت مراكز الاستقرار في الشرق والجنوب مصدر تمويل بشرى لمدينة غزة في احوال التذبذب المناخى أى منطقة جذب أكثر منها منطقة طرد . وبقي موقع غزة على طريق حيوى برى وبحرى كمحطة وقاعدة عسكرية وسوق تجارية ما أوحى لسكانها بالتأقلم على ذبذبات المطر لتورثهم ظاهرتا القحط والخصيب ملاحق وتراث ظالا راسخين فى شخصيتنا بصفة خاصة فى غزة وعامة فى فلسطين . فأثرت على حياتها الاجتماعية والاقتصادية وتعدتها الى نمط الاستقرار البشرى فيها .

فندرة الأمطار وتذبذبها شتاء وانحباسها صيفا ، طبعت الانسان العربى الغزى بالحدس المزوج بالقلق سيكولوجيا والميل الى الادخار اقتصاديا فحفر الآبار الجوفية ليغضى احتياجه البشرى والزراعية فى الصيف الجاف ونقر الصهاريج فى الصحور .

وفى منتصف بيته حفر آبار « الجمع » ليلتلف من أسطح منازل كل قطرة ماء توجد بها السماء شتاء ليمسح حاجاته اذا ما أتى الصيف وكثيرا ما حفر آبارا أخرى لخزن الغلال فى نفس المنزل ليطمئن على غذائه كاحتياطي عند الحاجة . وأشاد « الهرايات » حول قراه ومواطن استقراره كصوامع غلال ورصيد له اذا ما حل القحط أو داهمته الكوارث البشرية ، هذه الهرايات كثيرا ما نراها منتشرة حول المدينة وشرق دير البلح « الدميثة » وقرى خان يونس « عيسان وبنى سهيلا - وخزاعة » . كما كان لقلة كمية الأمطار السنوية أثرها على ندرة الغطاء النباتى الكثيف أى قلة الأشجار - الكبيرة ذات القيمة الخشبية ، فأثر بالتالى على نمط السكن الغزى فأقام المساكن الطينية منها أو الحجرية ذات الطراز القبائى المحشوة بالرمال والفخار خالية من جذوع الاشجار فى الغالب الأعم (باستثناء أشجار الجميز - السدر - والسيلوط « الصفصاف » والحلفا .)

وتعدى تأثير ندرة الأمطار واحتباسها عن موعدا أحيانا الى معتقداته فترى كيف يخرج سكان المدينة فى معظم عصورها الوثنية والمسيحية والاسلامية ينطلقون من كنائسها ومساجدها « للاستسقاء » « صلاة المطر » ومتجهون الى ساحة المدينة يطلبون من الله عز وجل الغيث .

ومن المناسب أن نورد جملولا تتضح فيه كمية الأمطار الساقطة فى فصل الشتاء لعديد من المدن الفلسطينية لمقارنتها بما يهطل من أمطار على مدينة غزة .

البلد	كمية الأمطار « بالمليمترا »	المدينة
	٦١٦٤ مليمترا	شبرا
	٦٣٥٤ »	حيفا
	٥٠١٦ »	يافا
	٣٦٢ مليمترا	غزة
	٩١٢٤ مليمترا	أريحا
	٦٢٨٣ »	الناصرة
	٦٣١٧ »	نابلس
	٥٨٣ مليمترا	القدس
	٥٠١٩ مليمترا	الخليل
	٢١٩٩ »	بئر السبع
تحت المثلث ٤٠ - ٦٥ يومان في السنة ٢٨ يوما		

معدل كمية الأمطار الساقطة في الفترة الواقعة من سنة ١٩٠١ - ١٩٤٠ (٢٩) لتبين أنها المدينة التي تمثل الحد الأدنى لكمية الأمطار الساقطة باستثناء بئر السبع لكنه حد العيش ولكي تكمل الصورة على صعيد غزة وقطاعها نورد الجدول التالي لكميات الأمطار الساقطة التي تكشف لنا عن تضائل كمية الأمطار كلما اتجهنا جنوبا نحو صحراء سيناء .

المدينة أو القرية	كمية الأمطار « بالمليمترا »
بيت لاهيا	٣٧٩ مليمترا
غسرة	٣٢٨ »
النصيرات	٢١٥ »
دير البلح	٢٦٧ »
خان يونس	١٨٩ »
رغيف	١٦٢ »

ومما يعوض قلة كمية الأمطار جنوب مدينة غزة كثرة ليالي الندى والتي تزيد على ٢٥٠ يوما (٣٠) في السنة لا يضاهيها في ذلك سوى منطقة الكرم

(٢٩) مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ١ ، القسم الأول ، دار الطليعة - بيروت ١٩٦٤
ص ٣٧ - ٣٨ و ٥٦ و ١٢٥ .

(٣٠) Israel Pocket library, geography, 1973, Jerusalem, Map, pp. 103.

في حيفا مما أكسبها شهرة في زراعة الفواكه وخاصة الصيفية مثل « الشمام »
والبطيخ ..

وهنا لا بد لنا من توضيح مدلول ظاهرتي القحط والجفاف ليس في قطاع
غزة فحسب بل وفي فلسطين عامة فلا علاقة - كما قد يتبادر للذهن لأول
وهلة - بين الأمطار وظاهرتي الخصب والمحل . فقد تصل كمية الأمطار
الى أعلى معدل سنوي ويلازمها القحط والمحل وقد تصل كمية الأمطار في بعض
السنين الى حدها الأدنى ونسجم بالخصب قد أصاب البلاد ..

وما يدفعنا لوصف السنة بالمحل والخصب هما القمح والشعير كغلة
غذائية رئيسية وحيوية للسكان لذا كان المحل الأساسي الذي يخلق سنة
الخصب أو المحل هو موعد سقوط الأمطار المبكرة في المقام الأول حتى يتسنى
للحبيب النمو في مرحلة الانبات الأولى مع عدم وجود الصقيع يليها ثانياً انتظام
سقوط الأمطار على أشهر السنة الشتوية ابتداء من نوفمبر حتى يناير وفبراير
ليدفع النبات للنماء ولو بكمية قليلة . وعلى النقيض يحدث « المحل » اذا
ما تأخر موعد سقوط الأمطار خاصة في نوفمبر وديسمبر وقلت كميتها عن
المعدل في يناير حتى لو اعقبتها بعد ذلك أمطار غزيرة في فبراير ومارس ،
فتكون الفرصة قد فاتت لمرحلة انبات القمح والشعير ومن ثم يتضائل نمو الساق
فيصيبها المحل ولن تفيد الأمطار عندها الا المحاصيل الصيفية والخزان الجوفي
للمياه الباطنية .

اذن فموعد سقوط الأمطار المبكر وانتظام هطول كميتها على مدار الشهر
الشتوية الأولى هما الفيصل في تحديد « الخصب والمحل » منذ آلاف السنين .

وتدوين جدول هنا يوضح كمية الأمطار الساقطة على مدينة غزة على مدار
أشهر الشتاء لسنوات عدة يعكس لنا ظاهرة التذبذب في كمية الأمطار سواء في
مجموعها السنوي أو في معدلها الشهري *

(*) بلغ متوسط كمية الأمطار الساقطة على مدينة غزة من سنة ١٨٩٦م حتى سنة ١٩٠٥م
ما مقداره ٤١٩ر١٠ ملميمتر كما بلغ متوسط كمية الأمطار على المدينة في الفترة الواقعة بين
سنة ١٩٠١ حتى ١٩٤٠ ما يعادل ٣٢٧ر٧ ملمم .

السنة	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	يناير	فبراير	مارس	أبريل	المجموع
٦٨/١٩٦٧	٢٨٧	١٢١	٥٠٤	١٠٩٥	٢٢٩	١٠٢١	٣٧٢	٤١٠٥
٦٩/١٩٦٨	٧٦٣	٥٥٤	١١٧٩	١١٠٩	٢٢٢	٥٣٦	١٨١	٤٣٥٣
٧٠/١٩٦٩	٣٤٧	٣٢٢	٢٢٢	٤٩	١٧٤	٢٢٩	٩٢	١٨١١
٧١/١٩٧٠	٩٧	٤٣٣	٨٦٨	١٢٣٧	٧١٣	١٣٣	١٥٣	٤٣٦٤
٧٢/١٩٧١	٢٣	١٣٣	١٦٥٣	٤٢٧	٥	٤١٤	٦٧	٤٣٦٩
٧٣/١٩٧٢	١٦	٤٥٩	١٠٤٥	١٦٠٧	٧٥	٥٤٦	-	٢٧٣٣
٧٤/١٩٧٣	٣١٦	٦٧٢	١٦١	٢٩٨٦	٥٢٨	٣٢٤	-	٥٠٦١

فالتذبذب واضح على مستوى أشهر الشتاء في السنة الواحدة كما أن التباين أوضح على مستوى كمية الأمطار الساقطة في الشهر الواحد لعدة سنوات (دراسة الجدول أفقيا ورأسيا) ليبقى المجلد النهائي لكمية الأمطار أعلى من حد الجفاف .

نخلص من هذه العجالة الى نتيجة مفادها أن - العناصر الحياتية - لهذه المدينة قد أمدتها بأسباب البقاء والخلود . فالموضع هيا لها الأمن والأمان والموقع كان وما زال استراتيجيا كمواحة بين قارتين وواحة بعد صحراء وقاعدة عسكرية وسوق تجارية بين اقليمين متباينين وداهليز الملك ، والخط الساخن بين امبراطوريتين وأخيرا العمق الاستراتيجي للدفاع عن أهم شريان عالمي وهي قناة السويس .

وجيولوجيا ، ذات تربة طينية وتكوينات رملية وجيرية أمدت المدينة بالخصب الزراعي ومواد البناء والصناعات الممكنة من فخارية وزجاجية وتضاريس مهيبة .

وبشرياً : فان حيوية الانسان العربي على مر عصورها التاريخية قد استوعب جميع هذه العناصر فاستغل هذه الامكانات بعقلية خلاقة أثرت وتأثرت بما حولها من حضارات عريقة تحيط به من الجنوب والشمال كما سبتضج ، فتحدثت بالتالي هذه المدينة الفناء لأكثر من خمسة آلاف سنة خلت رغم الأحوال والمحن ، رفضت الهزيمة - وتمسكت بالتجدد المستمر ، ففشلت كل القوى العاتية من فرعونية وبابلية وأشورية . وحتى أحداثها العثمانية والبريطانية . في اذابة ملامح الشخصية العربية سواء الكنعانية والفلسطينية للمدينة وطمس سماتها وتراثها الثقافي الخالد على مدى التاريخ على الرغم من منجزات التدمير - والقذائف المحرقة - وأعمال السيوف على الرقاب قتلا وتقتيلا . أو حقنا بالمستوطنين .

الفصل الثانى

حضارة غزة فى العصر الحجرى الحديث

- تل العجول تميزت بأنماط حضارية خاصة
- وادى غزة عقدة حضارية بين فلسطين ومصر
- الجعارين صناعة كنعانية فى تل العجول تأثرت بها الحضارة المصرية .

غزة في العصر الحجري الحديث :

بدأ الانسان مسيرة الحضارة في منطقة الهلال الخصيب عندما وضع يده على النبات والحيوان متعايشا معهما فزرع في العصر الحجري القديم - وقبل أن يصل الى العصر الحجري الحديث - أشجار الزيتون والفسكهة ودجن الكلب والطيور مستقرا في مسكنه ليجهز ثمار ما زرع مكونا - نواة القرية .

فالسيدة الحقيقية للانسان لا تكمن في الهيمنة على العوامل البيئية الطبيعية - لكنها وليدة وعي الانسان وادراكه للعالم الذي يعيش فيه . وهذا ما وصل اليه الانسان في فلسطين في العصر الحجري الحديث . من هنا أصبح هناك اتجاه مكثف ونشط منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى الآن في البحث عن المواقع الأثرية الفلسطينية المنتمية لمرحلة العصر الحجري الحديث بصفة خاصة ، على اعتبار أن تاريخ هذه المواضع يسبق زمنيا مثيلاتها من المواقع في مصر والعراق والمنتمية لنفس العصر فأثار العصر الحجري الحديث الفلسطينية تتميز بأهميتها وتنوعها ومدى ما وصل اليه انسان هذه البلاد من تقدم في الفن المعماري والنحت على الرغم من عدم توافر عنصر التكامل الموضوعي مما يصحب معرطها بنفس المقياس الحضاري المتكامل لحد كبير في المواقع الأخرى ، لأنها تشتمل على مظاهر معمارية وتعبيرية فريدة في نوعها كالتحصين المعماري والنحت والتشكيل الصوري الانساني ، مما يحفز الباحث لمزيد من التنقيب والمداومة على البحث لتلك المرحلة حتى يضعها في مكانها الحضاري .

وفي الحقيقة ، اعتبر كثير من العلماء « مرحلة العصر الحجري والنحاسي » مرحلة انتقال الى التطور التاريخي ، اتجه الانسسان فيه للبحث عن استغلال موارد بيئته الطبيعية المحلية المحيطة به ففي فلسطين أثبت البحث والتنقيب عن وجود حضارات محلية تركزت في مواضع مختلفة في طول البلاد وعرضها ، ولو أن هناك تكتفا واضحا في الجنوب الفلسطيني « جنوب خط مطر ٣٠٠ ملم تقريبا » والذي يمر بجنوب غزة . هذا على دمة ما تم الحفر والبحث فيه » .

ولقد قسمت هذه الحضارات الفلسطينية الى مراحل ثلاث متصلة :

أولها : حضارة وادي غزة ومنطقة أريحا « الطبقة الثامنة من تل اريحا » .

والثانية : الحضارة الغسولية(*) .

(*) نسبة الى موقع تليدة الغسول شمال شرق البحر الميت بنحو كيلومترين .

والثالثة : حضارة بئر السبع .

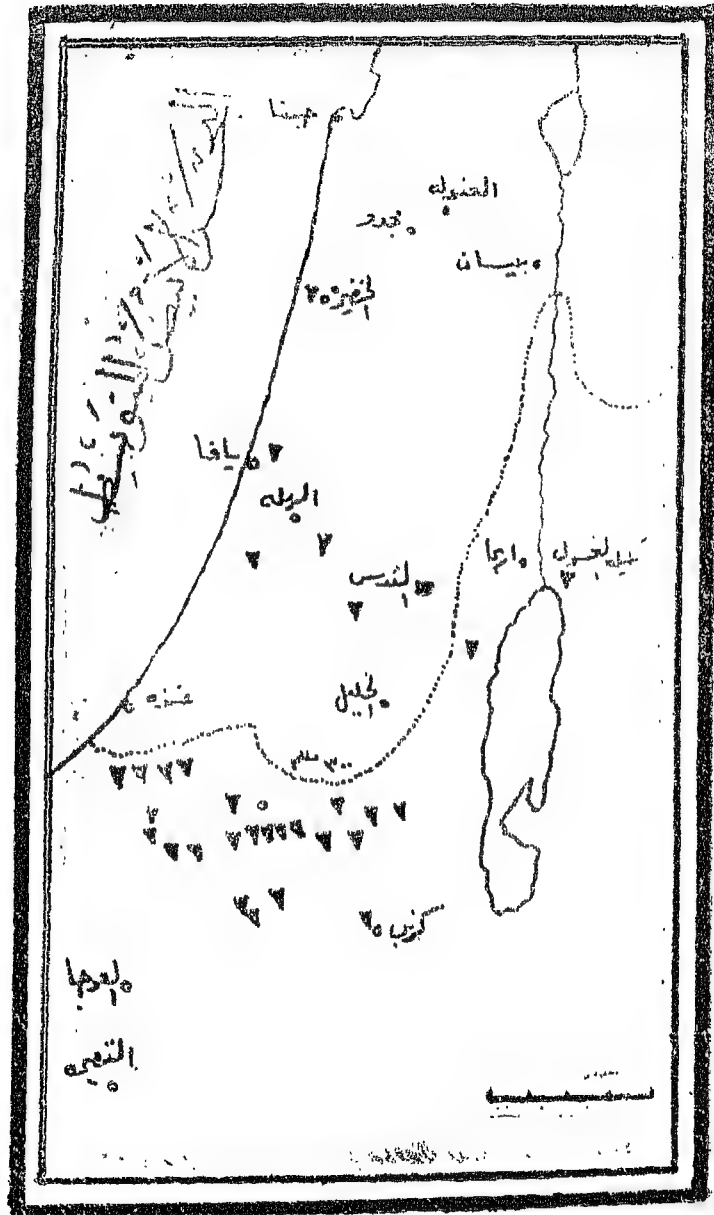
وتغطي هذه الحضارات فترة زمنية تمتد من نهاية العصر الحجري الحديث فى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد حيث تطورت الحياة فى فلسطين بكامل مظاهرها فى هذا العصر بعد أن استخدم معدن النحاس والذي يهمننا هنسا « حضارة وادى غزة » ، وخاصة منطقة « تل العجول » النواة لبداية السكن فى مدينة غزة على حد رأى بترى . . (انظر خريطة ٦) .

والذى يجب ألا يغيب عن الأذهان ، أن ليس هناك مواضع أو مواقع تعيش فى معزل عن غيرها - فان كانت الحضارات الفلسطينية فى مواقعها المختلفة لم تتصل بحضارات فى بداية نشأتها ، الا أنها احتكت وتأثرت بل واثرت أحيانا فى الحضارات المجاورة لها .

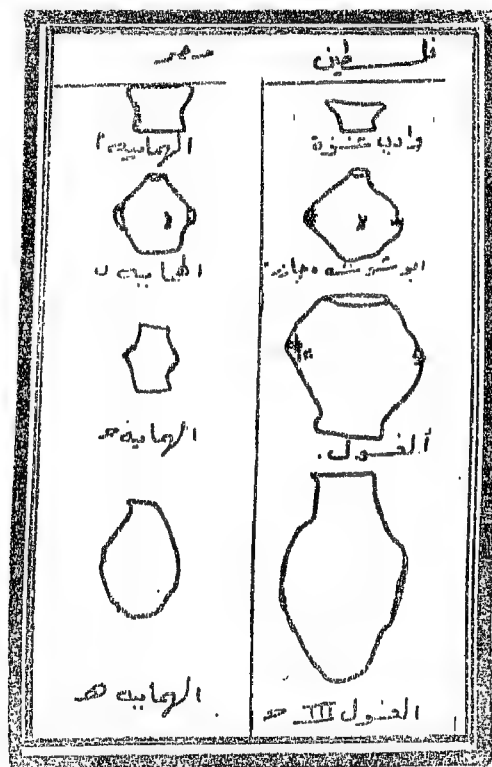
فى شمال بلاد الرافدين كانت هناك « حضارة حلف » الذى تمكن انسانها من صناعة الأوانى الفخارية والأدوات الحجرية والطينية والعظمية والنحاسية وكذا الأختام الحجرية التى استطاع أن يؤثر - بفضل المد الحضارى الى شمال سوريا فى منطقة « العمق » الا أن هذه الحضارة - حضارة حلف - لم تصل بتأثيراتها الى فلسطين التى تميزت حضاراتها كما ذكرنا بأنها محلية مستقلة ومن المفيد أن نذكر بأن « وادى غزة » وعلى طول مجراه الأدنى فى غزة والأوسط فى شمال بئر السبع قد اعشوشبت عليه مواقع حضارية قديمة نلفت الانتباه ، فاقت فى عهدها الخمسة عشر موضعا فقط على ضفاف مجراه الأدنى فى غزة . مستغلا وجود الماء القريب من سطح الأرض اذا ما غيض ثم الاحتماء خلف ثنياته ومستنقعاته متمركزا فوق تلال ليضمن عنصر التفوق ، فكان التوطن واضحا دفع كثيرا من العلماء لتسميتها جميعا « بحضارة وادى غزة » أو مجموعة وادى غزة ، والتى تضم على رأس قائمتها « تل العجول » الذى تميز بانساط حضارية خاصة الفخارية منها ما ميزت هذه المنطقة عن غيرها خاصة بألوانها وكثرة ما عثر من « جعارين » تفوق فى نوعها وعددها ما عثر عليه فى فلسطين بل وفى مصر . . فالأوانى الفخارية ذات الرسموم الحمراء التى عثر عليها فى وادى غزة تشبه الى حد كبير هياكلها فى منطقة « الهمامية » بصعيد مصر ، لبثبت السيد Kantor « كانتور » أن هناك اتصالا حضاريا فلسطينيا فى الألف الرابعة قبل الميلاد « العصر الكانكوليشى » بمصر فى فترة ما قبل التاريخ .

وعلى الرغم من قلة ما اكتشف من أوانى فخارية فلسطينية فى هذه المنطقة الا انه وجد تشابه بينها وبين تلك التى توجد شمال وجنوب مصر والعراق (٣١) وتليدة الغسول . (انظر الشكل) .

H. J. Kantor, the early relations of Egypt with Asia Jncs, 1942, (٣١)
pp. 174-213 and I.E.J., Vol. 9, 1959, pp. 134-138.



خريطة (٦). موانئ حصارات غزة وبئر السبع والقسول



أوجه التشابه بين الأواني الفخارية الفلسطينية والمصرية

وربما كانت حضارة - تل العجول - جنرب مدينة غزة هي القنطرة
وهمزة الوصل مع حضارة الوجه البحرى فى مصر فقد تعرضت صنائه الأوانى
الفخارية فى مصر الى تحول حضارى فأصبحت تصنع من « الطفل » بدلا من
طمي النيل كما أدخل عليها بعض الزينات والرسوم فى منطقة « حضارة
جرزة » أو « نقادة الثانية » وكان من أهمها الأوانى ذات المقابض الموجهة
الذى بنى « فلندرز بترى » تاريخه التتابعى على تطور شكل هذه الأوانى
والذى يرى أنها استوردت من جنوب فلسطين كما يدل على ذلك الرسم
الذى عليها (٣٣) .

كما اكتشف فى « المعادى » فى الوجه البحرى المصرى بعض الأوانى
الفخارية ذات الغطاء الطينى التى تمتلئ بالزيوت من فلسطين وتذهب لمصر
فاعتبرت لذلك « حضارة المعادى » حلقة وصل للحضارة الآسيوية الفلسطينية
فى الشمال بحضارة صعيد مصر فى الجنوب (٣٣) .

ولقد عثر حديثا فى منطقة « دير البلح » وبالقرب من شاطئها على نفس
هذه الأنواع من الأوانى الفخارية ذات الغطاء سنتحدث عنها فى حينه .

فحضارة وادى غزة . لم تتفاعل فقط تأثرا وتأثرا بحكم موقعها
الجغرافى فى العصر الحجري الحديث بل تعدته عبقا حتى الصناعات الحجرية
القديمة لما ضمته من ثراء وغنى بأشكال الآلات الحجرية التى تعود للعصر
الحجرى القديم « الأسفل » فقد قام السيد « مكدونالد » بدراسة وافية على
الأدوات الصوانية والحجرية التى عثر عليها فى مواضع مختلفة من « وادى
غزة » استطاع من خلالها أن يستشف مدى التفاعل ومدى التأثير بالحضارات
الأخرى واضعا إياها فى ميزان التقدير لما جاورها فى مصر .

فقد لمح بأن الأدوات الحجرية فى مواضع وادى غزة متأثرة فى أشكالها
وملامحها - « الأنواع من ١ - ٨ » بتلك المنتشرة فى مواضع حضارة
بئر السبع والتى منها فى مواضع « خربة البيطار » وخربة الصفدى
« وتل أبو مطر » وتل السبع - ومنطقة بئر ابراهيم شرق مدينة بئر السبع ،
وجميعها تمثل حضارة واحدة ترجع للعصر الكالكوليثى فى فلسطين « ٤٠٠٠ سنة

(٣٢) د ابراهيم رزقانه - موضوعات فى الجغرافيا التاريخية ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٦٢ .

(٣٣) د ابراهيم رزقانه ، المرجع السابق ص ٥١٠ .

ق، م « كما عثر على أثمانات قديمة لبيوت أشسبه بالكهوف وأدوات حجرية صوانية ومخازن وأنفاق وهى من الوفرة والكفاية لتوضح مدى التجانس الحضارى شبه التام بينها وبين تلك المواقع الواقعة شرق مدينة بئر السبع فى منطقة « المشاش » وخرية « السويدانى » وكرنب ، وكما فى مواضع غرب المدينة - بئر السبع - أيضا فى مواضع « أبو يحيى » وأبو محيلق « وأبو ارفيق ووادى الزميل * حيث تم العثور على أوان وأدوات حجرية صوانية ومساكن ومواقد للنار (٣٤) ٠٠ وعلى حواف نفس وادى غزة وإلى الشرق من مدينة غزة نفسها تم التنقيب من قبل السيد R. Neuville فى منطقة أبو هريرة عثر فيها على أدوات صوانية تشبه مثيلاتها فى مواقع بئر السبع السابقة الذكر كذلك الحال بالنسبة لما عثر عليه فى منطقة « تل الفارعة » وتل حمة وتل المعجول .

أما الى أى حد تأثرت حضارة « بئر السبع » بظهير غزة بحضارة تليمة الغسول ، فان السيد « بيروت » J. Perrot (٣٥) يرى ومثله فى ذلك جلوك N. Glueck الذى يقول بأن حضارة بئر السبع عندما وصلت الى مرحلة النضج متخفة وضعها النهائى من التطور بدأت بالاحتكاك بالحضارة الغسولية شمال شرق البحر الميت (٣٦) شرقى الأردن التى تمثل امتدادا جغرافيا وتاريخيا للأجزاء الجنوبية من فلسطين « أقل من ٣٠٠ ملم من الأمطار » . من هنا كان التشابه بين الأدوات الصوانية الغزية « الأنواع من ٨ - ١٧ » بتلك التى توجد فى حضارة تليمة الغسول .

أما بالنسبة لتلك الأدوات الغزية من « ١٨ - ٢١ » فيبدو التشابه بينها وبين الأدوات المصرية حيث يؤكد « ماك دونالد » بأن مواضع وادى غزة كانت أكثر عرضة للتأثيرات الخارجية مما حدى بالسيد Petiot لعقد مقارنة بين الأدوات الغزية وتلك التى وجدت فى منطقة الفيوم بمصر حيث يرى ان السكينة والفأس التى عثر عليها فى وادى غزة M2 والفأس المشكسة فى منطقة A و B ولرأس الرمح لمنطقة H والسكينة وذيل السمكة لموضع H هذه الأدوات تشبه تلك الفؤوس التى عثر عليها فى الفيوم والتى ترجع للفترة النيولوتيسية « أو ما قبل الأسرات » ويرى

I.E.J. Vol. 5, p. 174.

(٣٤)

J. Perrot, The excavation at tell Abu Matar near Beershebo.

(٣٥)

I.E.J. Vol. 5 1955, pp. 185-187.

N. Glueck, exploration in eastern Palestine, I, EAASOR, 14, 1933-34 p. 87.

(٣٦)

(*) هذه الاسماء تعود للعائلات الفلسطينية التى كانت تمتلك هذه الاراضى بمواقعها .

أيضا ان هناك تشابها في الفن المعماري وفي الأدوات الصوانية لحضارة
بئر السبع وحضارة المعادي في مصر على الرغم من ان الصانع في « بئر السبع »
يبدو انه كان على درجة من المهارة الفنية الفائقة اذا ما قورن بالصانع
المصري (٣٧) .

وعليه نجد ان هناك تشابها حضاريا يعكس ظروفًا اقتصادية واجتماعية
متقاربة تبدو فيها مواقع وادي غزة بانها تمثل « عقدة حضارية » على الطريق
بين بئر السبع وتليلة الغسول من جهة وحضارة مصر السفلى عبر سيناء من
جهة أخرى .

فمن الواضح المؤكد بأن أقدم العلاقات التجارية بين سكان وادي غزة
وظهيرها في بئر السبع كانت قائمة عبر سيناء مع « حضارة المعادي » ومصر
السفلى التي بدورها كانت همزة الوصل مع حضارة الصعيد ولقد أكد العديد
من العلماء من أمثال « كينغ » والمؤرخ ماسبيرو أن « لعروق المصريين القدماء
والعرب الكنعانيين والفينيقيين روابط تشدد بعضها بعضا وليس المصريون سوى
ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم » (٣٨) . فالعلاقات قائمة بين
شعوب هذه المنطقة ذات الأصول السامية العربية الواحدة .

ففي منطقة « المعادي » ، وجدت كميات من القار « الأسفلت » أثبت
الفحص انه مستورد من منطقة البحر الميت وذلك لاستخدامه في طلاء السفن
المصرية (٣٩) كما يبدو جليا التشابه بين الأواني الفخارية ذات الأيدي
السميكة والموجعة في كل من تليلة الغسول ووادي غزة والهامية في صعيد
مصر (٤٠) .

كما أكد السيد « فلندرز بترى » في كتابه « غزة القديمة » (٤١) على
هذه العلاقة الحضارية القوية بين « حضارة تل العجول » ومصر من خلال
ما اكتشف من آثار ومنها « الجعارين » Scarabs ذات الدلالة التي تعكس
بعض العادات والتقاليد للسكان والتي يستخدمونها للحماية من السحر وفي
الاحتفال بالمناسبات الدينية المقدسة ولحماية الملوك عند تسميتهم فمنح

I.E.J. Vol. 5, 1955, Ibid, p. 187.

(٣٧)

(٣٨) أحمد سوسة : تاريخ حضارة وادي الرافدين - الجزء الأول - وزارة الري - بغداد

١٩٨١ ص ٢٩٥ .

(٣٩) د. ابراهيم زرقانة - موضوعات في الجغرافيا - المراجع السابق ص ٥٠٦ .

J. Kaplan, The Connections of the Palestinian Chalcolithic culture
with the Prehistoric Egypt I.E.J. Vol. 9, 1959, p. 134-136.

Pe'eri, Ancient Gaza, Vol. I, p. 3.

(٤١)

توزيع الأدوات الصوانية في المواضع الأثرية لوادي غزة « عن ماكدونالد (٣٩) »
 نادرة - شائعة الاستعمال + عديمة جدوا وكثرة

النوع	H	B	A	M ¹	D ²	O	E	M ¹	D ¹
١ - رأس سهم طويل ومقوس	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٢ - فأس مثلثة الشكل واستعمارية الساتين	+	+	+	+	+	+	+	+	+
٣ - مشرقة على شكل كمان	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٤ - مشرقة ذات زوايا مدببة	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٥ - مشرقة	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٦ - مشرقة صوانية	+	+	+	+	+	+	+	+	+
٧ - شظية رفيعة	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٨ - Microlith	+	+	+	+	+	+	+	+	+
٩ - مشرقة مثقوبة	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٠ - مشرقة مروحية	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١١ - مشرقة بيضاوية	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٢ - قطاع من فأس مثلثة	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٣ - فأس مثلثة	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٤ - فأس عريضة مستوية	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٥ - مشرقة دائرية	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٦ - معول	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٧ - مشرقة « شفرة كنهائية	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٨ - مشرقة طويلة	+	+	+	+	+	+	+	+	+
١٩ - سكين	+	+	+	+	+	+	+	+	+
٢٠ - سكين - ذيل سمكة	+	+	+	+	+	+	+	+	+
٢١ - الخ	-	-	-	-	-	-	-	-	-

E. Macdonald, J. L. Starky and Harding, Beth Pelet II, London, 1932, (٣٩)

الاسم يعتبر حدثاً هاماً في حياة الأفراد لأنه - كما يعتبرونه - جزء لا يتجزأ من شخصيته (٤٢) .

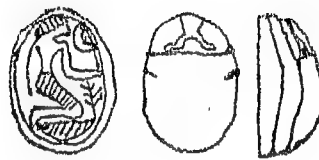
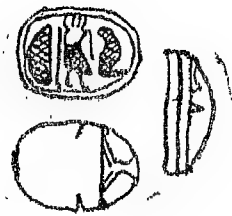
وما يدعوننا للحديث عن « الجعارين » في تل العجول ما تميزت به عن غيرها ليس فقط بالنسبة للمواضع الأثرية الفلسطينية فحسب بل وعن المصرية أيضاً ، ففي أحد فصول العمل والتنقيب في « تل العجول » عثر على أكثر من خمسمائة جعران بحالة جيدة وسليمة أما ما وجدوه منهشداً فيفوق هذا العدد المبالغ فيها . في حين تم العثور على « جعارين » في مواقع فلسطينية أخرى مثل تل الدوير « لخيش » وتل الفارعة وأبو شوشة « جازر » هذه الأعداد فاقت في احصائها ما عثر عليه في أى موقع من المواقع المصرية وهذا يحسونا للتساؤل عما اذا كانت هذه « الجعارين » فعلاً من إنتاج عربي كنعاني محلي أم لا ؟ والاجابة يؤكدتها فلندرز بترى « قائلاً بأن » هذه الجعارين مصنوعة كنعانية لا وراء فيها وان كل من يدعى بأنها هكسوسية لا صحة لسعواه فهي كنعانية الاصل صنعها الكنعانيون قبل وخلال الحكم الهكسوسى » . بل ويضيف السيد Marty بأن هناك نوعاً من الجعارين الكنعانية التي عثر عليها في تل العجول « تمثل المرحلة الاولى لبعض الجعارين المصرية في صناعتها ، واصفاً اياها بأنها جميلة ومتقنة وربما أجعل من الجعارين المصرية (٤٣) متتبعا العلاقة بينها وبين المصرية منها من خلال دراسة النقوش والرسومات التي عليها مؤكداً انه ليس من السهل معرفة متى حدث التغير والانتقال من الكنعانية الى المصرية ولو انه يفترض ان هذا الانتقال ربما حدث قبل دخول الهكسوس لسر نحو قرن من الزمان (٤٥) .

بالاضافة الى ما توجيحه هذه الجعارين من دلالات وملامح الأحوال الاجتماعية فانها تعكس جانباً من الظروف الاقتصادية حيث يبدو على بعضها (اللوحات ٩ - ١١) صورة لجسم كائن حي بشري يرتدى ملابس مزينة ملفوفة على جسده أكثر من طية ، ويحمل في إحدى يديه فرعاً من سعف النخيل وأحياناً زهرة اللوتس . وفي بعضها يقف انسان رافعاً إحدى يديه واقفاً تارة وراكماً تارة أخرى ، ويظهر على بعضها صورة شعبان يحملها انسان . واتخذ بعضها شكلاً جديداً حين ظهر انسان وله رأس صقر ليمثل جانباً من الألوهية ربما لاله حورس ، أو رع (لوحة ٩ صور من ١ - ٩) وربما يرمن لاله الشمس .

M.A. Murray, Some Canaanite Scarabs, P.E. 9, 1949, pp. 92, (٤٢)

M.A. Murray, P.E. pp. 93, (٤٥)

والذى يعنيننا هو - لا أى الحضارات أقدم - بل أن حضارة وادى غرزة
 فى تل العجول والمواقع العديدة الأخرى هى ذات طابع عربى كنعانى فى
 مسورتها الأولى ومنذ أقدم العصور الحجرية ولم تبق جامدة فى مكانها بل
 تعدت تخومها لتتصل بحضارات عريقة فى الجنوب - تمثل عقدة حضارية
 ذات قول وتأثير وموصل جيد للحضارات خاصة بعد أن تخطى انسانها فى
 كلتا المنطقتين مرحلة العصر الحجري .



نماذج من جعارين عربية كنعانية عشر عليها هي « تل العجول »

الفصل الثالث

العصر البرونزي القديم والوسيط

- تل العجول مدينة عربية كنعانية ذات حضارة
- الهكسوس يغزو المدينة
- ظهور اسم غزة ورثج

العصر البرونزي القديم ٣١٠٠ - ٢١٠٠ قبل الميلاد .

استمرت الاتصالات الحضارية بين فلسطين ومصر في هذا العصر ، لكنها تميزت بمميزات خاصة في انتشار الفخار الرمادي والبرتقالي المصفر وقد زينت الرسومات الملونة باللون الأحمر مضافا اليه الفخار ذا الأيدي المموجة والذي وصل الى مصر السفلى طوال عصر ما قبل الأسرات الأول « ٤٠٠٠ - ٣٦٠٠ ق م » من فلسطين والذي عثر عليه في منطقة « تل العجول » . وفي الطبقة الثانية عشرة في بيسان لتؤكد استمرار المواصلات الحضارية بين حضارتى فلسطين ومصر (٤٦) .

وفي المرحلة الأولى من عصر البرونز والتي توافق عصر ما قبل الأسرات الأخير في مصر « ٣٤٠٠ - ٣٠٠٠ ق م » ويصطلح عليه أحيانا بعصر الحجر والنحاس الأخير (Late Chalcolithic) ، كما يطلق عليه السيدة « كينون » استخدام تعبير « ما قبل المدني » « Proto-Urban » . وقد ازدهر في هذه الفترة بناء المنازل والبيوت العامة التي لا يقدر فرد عادي بمفرده على بنائها كالمعابد والمقابر ، وظهور الأواني الفخارية المتميزة بالخطوط المتقاطعة والمتموجة والتي اكتشفت في أماكن عديدة من فلسطين في أريحا ومجدو وتل العجول وتل بيت مرسم وتل الدوير . هذا مما يوضح لنا اتساع نطاق الجانب الحضارى في فلسطين وبلاد الشام عامة حيث ساد نظام حكومات المدن City State كما ازدهر نظام الاتصال السياسى والحضارى والاقتصادى وبدا الاحتكاك بالحضارات المجاورة أمرا لا مفر منه بشكل مكثف سواء مع الشمال بحضارة الرافدين أو مع الجنوب في مصر .

فتواجدت بالتالى المدن المستقلة في الشام عموما واستمرت محافظة على استقلالها الذاتى تحيط بها الأسوار الفخمة لتعزز استقلالها ، مستغلة التلال لتفنى البعد الاستراتيجى والدفاعات القوية ، ولا مانع من أن تختار مواقعها وموضعها خلف واد مائى ليزيدها منعة وقوة كما هو الحال في « تل العجول » حماية لها ضد الأخطار الخارجية المغيرة ، فأنحصرت كل مدينة في شئونها مع ممارسة نشاطها الخارجى بشكل مستقل ، ولما تجلى ظهور « تل العجول » في هذه

H. Kantor, the chronology of Egypt and its correlation with that of (٤٦) other parts of the Near East in Periods before the late Bronze Age, Chicago, 1954, p. 4.

الحقبة ووصلت شأوا حضاريا جيدا ، اذا لا بد لنا من وقفة على أطلالها نستكشف بعدها الحضارى ودورها مع ما سجاورها فوق هذه الشريحة من أرضنا فلسطين المسماة « قطاع غزة » .

بدأت هذه المدينة « تل العجول » كحال بقية المدن العربية الكنعانية في فلسطين - في جبالها وسهولها - تتخذ من موضعها على تلة « النظام الاكروبوليسى » متخذة من موضعها على قم الوادى وعند أقصى اتساع لمجرى مينة دماغية بلورها موقعها الهام كمداخل رئيسى نحو الأراضى الكنعانية الساحلية ، ووقوعها بالقرب من ساحل البحر المتوسط مما حدا بسكانها نحو المزيد من الاهتمام بتحصين مدينتهم فأقاموا حولها سورا ضخما يحيط بها ولقد عثر فلندرز بترى على أساسات وبقايا مبان ترجع للألف الثالث قبل الميلاد أما السور فارتفاعه خمسون قدما ويتراوح عرضه ما بين متر ونصف المتر ، أما النفق فيصل طوله الى خمسمائة قدم كان الأهالى يحتمون به عند الشدة ويعود كلاهما السور والنفق الى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . ولقد أقيمت هذه المدينة على مساحة تقدر ما بين ٢٠ = ٣٠ فدانا « لا يقل عن ٨٠ دونم » (*) (انظر صورة ١ - ٢) .

حقا لقد استازت المدن الكنعانية فى هذا العصر بالقوة والمنعة فى المناطق الجبلية مثل « ييوس - القدس » وحلحول وبتلة وأربع « الخليل » وببيت رسم وتل الدوير . كذلك بالنسبة للمدن الساحلية . ومعظمها لا يزيد مساحتها على « عشرة دونمات » من هنا ندرك الفارق بينها وبين مدينة « تل العجول » التى تتفوق بشمانية أمثال هذه المساحة . ولا غرابة فى هذا الامتداد الواسع خاصة لو أدركنا ظروف تكوينها الجغرافى عند مصب الوادى وساحل البحر لتحتل موضعا وموقعا شبه جزرى فالوادى يمتد بمياهه جنوبا والبحر غربا فلم تعد بالتسالى قرية صغيرة كما كانت فى العصر الحجري تعيش عيشة رعوية زراعية مغلقة داخل حدودها ، بل أصبحت وبفضل التربة الخصبة حولها ووفرة المياه تلعب دورا رئيسيا هاما على طريق الساحل التجارى والاسكرى ، ليس هذا فحسب ، بل ان موقعها البيئى وسط ظروف مناخية متباينة الى حد ما خلقت أنواعا من المزروعات ، فالساحل امتاز بأعنابه الجيدة التى اشتهرت بها منذ القدم وفى الشرق يمكن زراعة الحبوب حتى نصل الى « بئر السبع » التى

(*) قام فلندرز بترى بالتنقيب فى تل العجول فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٣١ - سنة ١٩٣٥ واضعا كتابه Ancient Gaza فى ثلاثة مجلدات ، كما تم نشرها فى سلسلة مقالات ضمن :

سادت فيها حرفة الرعي والزراعة منذ عصور سابقة . هذا بالإضافة الى انتشار التربة الطينية الخصبة والمياه التي يمكن العثور عليها على أعماق بسيطة بحيث يمكن زراعة الخضار والفاكهة . هذه الامكانيات الطبيعية مهدت السبيل لسكنى الانسان الذى احترف الزراعة بل والصناعة كما سنرى بعد مدة - وجيزة وفى العصر البرونزى الوسيط - هذا التنوع فى الانتاج منح المؤهلات الكافية لقيام مدينة فالموضع يمنح المكان استمرارا أكثر مما يمنحه الموقع .

وظيفيا : استطاعت « تل العجول » أن تقوم بوظائف عدة - كسوف محلية - وكحصن وملجأ وقت الخطر بالإضافة الى مكان للعبادة ، كما بينته الأدوات المكتشفة مثل المناجل والفؤوس والآلات الحربية كرؤوس الرماح والخنجر النحاسية لما لها من دلالات حربية وقدرات صناعية بالإضافة الى « الجعارين » وما عثر عليها من رسومات مثل « الحية » لمكانتها الدينية خاصة لو علمنا أن عبادة « الحية » كانت عادة كنعانية يستدل عليها من تماثيل الشعبان الكثيرة فى أماكن العبادة فقد عثر على نصب « الحية » فى بيت رسم يرجع تاريخه للفترة الواقعة ما بين ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م (٣) أى عند نهاية العصر البرونزى القديم وبداية الوسيط ، كما كان للشعبان أهيبتها - كرمز - تحرس الآلهة يضعها « مينا » موحد القطرين فى مصر فوق رأسه .

وهكذا كان الانسان العربى الكنعانى فى هذه المدينة « تل العجول » . وفى كل المدن التى أنشأها فوق الجبال والسهول أول من احترف الزراعة مستخدما المنجل والمحراث كما احترف الصناعة بما عثر عليه من أواني فخارية وأدوات نحاسية حتى أن الأستاذ « فنسنت » يرى أن للكنعانيين فى فلسطين حضارة خاصة فى عهد البرونز أطلق عليها « حضارة الكنعانيين » .

ومن أقدم الوثائق فى العصر البرونزى القديم تلك التى تعود للحملة المصرية على أرض الكنعانيين أيام الأسرة السادسة والتى تتمثل مذكرات ضابط مصرى يدعى « وينى » يصف فيها حملة عسكرية قام بها أيام « بيبى » فى الفترة الواقعة ما بين سنتي ٢٣٢٥ - ٢٢٧٥ قبل الميلاد (٤٨) يستدل منها على المزروعات التى كانت قائمة على الأراضى الساحلية من أعناب وتين .

لقد أثبتت عديد من الدراسات الأركيولوجية بأن هناك فترة تعرضت لها مدن البلاد للتدمير عند نهاية العصر البرونزى القديم أعقبها فترة من الفراغ

(*) يمكن رؤية هذه الأدوات والمجوهرات فى متحف روكفلر بالقدس (متحف حكومة فلسطين) .

Cardinar, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 95.

(٤٨)

السكانى ناتجة عن الغارات الأمورية والتي دمرت عديدا من المدن الكنعانية الجبلية والساحلية فى تل الدوير « لحيش » ومجدو وتل بيت رسم والظاهرية وبيسان ، ولكن الى أى حد وصامت هذه الموجة فى تدميرها وامتدادها الى تل العجول ؟

ترى السيدة « كينون » بأن العناصر الأمورية قد وصلت الى فلسطين من طرفها الشمالى الشرقى مستمدة على ذلك بالشبه الكبير فى صناعة الفخار التى عثر عليها فى بعض المواقع الفلسطينية والأماكن التى قدم الأموريون منها (٤٩) . كما يرى السيد « ميللارت » أن بعض هذه الشعوب الوافدة قد قدمت من خربة الكرك حيث عثر على فخار يحمل اسمها معتقدا أن مصدره قد أتى مع جماعة وافدة من العناصر الأناضولية وهى العناصر الحورية (٥٠) ، فقد كانت خربة الكرك وقتها من أكبر مدن شرقى نهر الأردن فى تلك الفترة (٥١) .

العصر البرونزى الوسيط « ٢١٠٠ - ١٥٤٦ قبل الميلاد »

واصل المصريون حملاتهم واتصالاتهم بالعرب الكنعانيين فى فلسطين متخذين من الطريق الساحلى الممر الوحيد الذى يربطهم بالبلاد عبر سيناء التى لم تمثل مانعا أو عائقا للمواصلات فقد كانت « الفرما » Silc فى تل « أبو سيفة » اليوم التى تبعد ميلين شرق القنطرة الشرقية ، بمثابة حجر القفز للحملات الفرعونية نحو أرض الكنعانيين ، وكانت تجر اليها المياه بواسطة قناة تأتىها من أحد فروع النيل . ويطلق عليها « قلعة طريق حورس » أو طريق الفرعون . كما جاء فى أوراق البردى التى تعود للفرعون « انستانى الأول » كما ورد ذكر هذا الطريق فى قصة « سنوحى » أيام المملكة الوسطى فى القرن العشرين قبل الميلاد .

ونظرا لحيوية هذا الطريق أنشأ عليه الفراعنة عدة نقاط بها حاميات عسكرية ومحطات وآبار فى مسافات محدودة لتسهيل مهمات القوافل والجيوش وحمايتها (٥٢) كما عثر فلندرز بترى على بقايا مساكن فى « تل آل أبو سليه » بمنطقة الشيخ زويد تعود الى ما يزيد عن الف وخمسمائة سنة قبل الميلاد

K. M. Kenyon, *Archeology in the holly land*, London, 1965, pp. 152-158, and Y. A. Aharoni, *The Land of the Bible, historical geography*, Philadelphia 1967, pp. 124.

J. Mellart, *the chalcolithic and Early Bronze Ages in the near east and Anatolia*, Beirut 1960, p. 78.

Y. Aharoni, *The Land of the Bible* ibid, pp. 123-124.

Y. Aharoni, pp. 43.

قد نكون بقايا اساسات لموقع حامية مصرية على الطريق الساحلى . ولو أن هناك آراء تقول بأن الاتصال البحرى فى هذه الحقبة بين مصر وفلسطين قد سبق ان لم يكن لازم الاتصال البرى (٥٣) لتظل بالنالى « تل العجول » مركز امداد وتموين وقلعة على الطريق لها أهميتها كمركز حضارى أيضا ربما كان لسكانها دور ما فى « مجال التعدين وبصفة خاصة تعدين النحاس فى سيناء » ، فالمصريون لم يبدلوا جهدا لاستغلال معدن النحاس على الرغم من وجوده فى سيناء الا بعد عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حيث دخل الحضارة المصرية متأخرا عن باقى حضارات البحر المتوسط ويدا عبث عليه فى سيناء بل ومن طريف الآثار نقش كتبه عامل منجم كنعانى الاصل كتب بلغمته الكنعانية عبارات بحروف مصرية (٥٤) لتوحى بوجود علاقات ما بين الكنعانيين والمصريين بل لقد ترك العمال الساميون فى معبد « سراجيت الخادم » بسيناء الذين ساعدوا فى تعدين الفيروز مع المصريين نقوشا تدل على ان لهم كتابات خاصة كما جاء فى أخبار أحد ملوك الأسرة الخامسة أنه كان يوجد من بين أفرادها ثلاثة مترجمون مما يؤكد أن الاهالى الذين قبلوا التعاون يجهلون اللغة المصرية (٥٥) بل لم يتردد المصريون فى عبادة آلهتهم بالطقوس السامية . ليعكس ذلك أول تبادل واستخدام خبرات الآخرين فى التاريخ . وربما كانت حضارة « تل العجول » وما جاورها بحكم موقعها الجغرافى ومجاورتها لسيناء هى أول من أمدتهم بطاقتها البشرية الكنعانية واستعاننت ربما بالحديد والنحاس لتصهره فى مدينتها « تل العجول » فقد عثر على « محرقة » أو أشبهه بفرن لصهر المعادن فيها .

نبقى الصورة العامة للحالة السياسية والاجتماعية وكذا الاقتصادية لأرض العرب الكنعانيين فى فلسطين فى العصر البرونزى الوسيط - مهزوزة وغير مستقرة فهى مقسمة الى وحدات سياسية ضيقة فى مداها الجغرافى وبالتالى فان نزاعاتها القبلية تبقى محدودة كدوامات موضعية ، تعبر غالبا عن ضعف النفوذ المصرى التى لم تكن لديهم الرغبة فى بسط نفوذهم السياسى والاقتصادى (٥٦) .

فقد عثر على « جعارين » باسم الفرعون « سبوسمتريس الأول » الذى حكم مصر ما بين عامى ١٩٧٠ - ١٩٣٦ ق م فى مناطق عدة مثل مجدو وتل المير

(٥٣) مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، القسم الأول - الجزء الأول ، بيروت ١٩٦٤ ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٥٤) د . محمد أحمد الناصرى ، مصرية التاريخ القديم - المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٧١ ص ٧٧ .

(٥٥) ابراهيم غالى ، سيناء المصرية عن التاريخ ، القاهرة ، ١٩٧٦ ص ٧٠ .

(٥٦) G. Raux, Ancient Iran, London, Pelican Book, 1966, pp. 214, (٥٦)

وجازر « أبو شوشة » . حتى بدأ النفوذ المصري في الاضيق خلال والضعف أيام الأسرة الثالثة عشرة ١٨٠٠ قبل الميلاد (٥٧) مهددا هذا الحال لنزول الهكسوس في عام ١٧٢٠ قبل الميلاد تعرضت مصر لهوجة الهكسوس التي اجتاحتها قادمة من الشمال فسيّدوا لهم مدنا ومنها مدينة « تيس » شرق الدلتا ليتخذوها عاصمة لهم ولينتهي في مصر عهد « العزة السعيدة » ولتدخل عصر المنازعات الدولية . ولتدفع ملوك مصر بعدها الى اعتماد استراتيجية وتكتيك جديد يقول « هاجم حتى لا تهاجم » . انقل الحرب الى ما وراء سيناء حتى لا تضطر الى الحرب داخل وادي النيل (٥٨) . هكذا !! منذ آلاف السنين خرجت هذه الحكمة العسكرية - اذا جاز التعبير - لتجعل من سيناء وتخوها في فلسطين عمقا للدفاع عن مصر واولها اراضى القلح . لقد أكد معظم الدراسات الأركيولوجية أن فترة الهكسوس (عصر البرونز الوسيط الثاني) امتازت بكثرة بناء المدن في البلاد وازدياد نمو التطور العمراني ووصلت مدينة « تل العجول » الى ازهى عصورها فعل الصعيد العجواني استطاع الهكسوس أن يبشروا مدنا ذات حجم جيد في منطقة القدس كما أخذت مدينة تل العجول تزداد في أهميتها ، وتفننوا في تحصين المدن ببناء الأسوار المائلة والمبنية من الحجارة وحفروا الخنادق حولها والقلاع وهذا النظام كان بمثابة تكتيك دفاعي ضد المنجنيق (٥٩) .

وربما شادوا هذه التحصينات بالنسبة للمدن الكبيرة في البداية ثم أخذوا في تعميمها بعد ذلك بالنسبة للمدن والقرى الصغيرة خاصة بالنسبة لتلك التي وردت في قوائم فرعونية (*) ضمت مجموعتين من أسماء المدن والحكام في فلسطين وسوريا في الفترة الواقعة ما بين القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد والتي نحن بصدددها ، حيث جاء ذكر المدن المحصنة التي قاومت الغزو الفرعوني بعنف مثل « تل العجول » وتل الدوير وعسقلان على الساحل وتل بيت رسم وبيت صور فوق هضبة الخليل .

وفى المجال العسكري ، فقد أمداوا البلاد بأدوات وآلات حربية جديدة وكان « الحصان » من أهم الوسائل التي أدخلوها على المفاهيم والأساليب العسكرية وكذا العربات ذات العجلات والدروع فأخذت هذه المفاهيم والأساليب دورها على مدى القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد في مصر وبلاد الكنعانيين .

Y. Aharoni, pp. 134-135.

(٥٧)

(٥٨) إبراهيم طلال ، سيناء المصرية عبر التاريخ ، المرجع السابق ص ٦٦ و ٨٥ .

Y. Yadin, B.A.S.O.R., 137, 1955, pp. 23-32.

(٥٩)

(*) تسمى هذه القوائم « قوائم اللعنات » وتضم مجموعتين ، الأولى منهما تضم عدد أسماء المدن والحكام بلغت عشرين مدينة وثلاثين ساكنا ، أما القائمة الثانية فتد شملت ٦٤ مدينة بمكانها .

كما أضافت - للمصريين خاصة - بعدا تكتيكيا في القتال العسكري مفاده أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . وأن الدفاع عن مصر لا بد أن يكون خارج واديهما في عمق سيناء وتخومهما حتى حدود أرض كنعان الجنوبية . وهكذا أخرج الهكسوس مصر من عزلتها السعيدة وانغلاقها لتتدفع خارج حدودها في حروب عديدة ومتكررة خاصة نحو أرض العرب الكنعانيين في فلسطين . أيام الأسر النامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين كما سيظهر فيما بعد . ولا غرابة إذن أن نجد نهاية الهكسوس كانت في « تل الفارعة » قرب تل العجول حيث لم يعد لهم ذكر في التاريخ بعد هذه الواقعة .

ومن المواقع العربية الكنعانية التي كانت منتشرة ولها شأنها في فترة الهكسوس في جنوب فلسطين وبالقرب من « تل العجول » هي تل الفارعة آخر معقل الهكسوس وتل جمة وجيرار التي يقال إنها « تل أبو هريرة » وكانت جميعها مسورة تماما مثل تل العجول تحيطها جدران ضخمة وتقع على تلة يمكن رؤيتها بوضوح (٦٠) وقد شملها الازدهار - العراني والزرعي في هذا العصر كما قام الهكسوس بترميم معظمها حتى كادت « تل الفارعة » يطلق عليها « شاروحي » منافسة تل العجول حيث أصبحت القاعدة العسكرية الحصينة للهكسوس كما سنرى .

من المدن الرئيسية في فلسطين أيام الهكسوس « مدينة حاصور » Hazor في الشمال وهي من أهم المدن الكنعانية بما امتازت به من تحصينات فائقة ومساحة فاقت مساحة جميع المدن العربية الكنعانية حيث بلغت ١٧٥ فداناً في حجبها ويحيطها سور عظيم مرتفع تشبه بذلك مدينة « تل المشرفة » في سوريا وكر كيش على نهر الفرات ، كما يعتقد أن مدينة حاصور Hazor ربما كانت عاصمة الكنعانيين (٦١) يوضح هذا ويؤكد أنه المدينة الوحيدة التي ذكرت في أرشيف ماري بالعراق والذي يرجع للقرن الثامن عشر قبل الميلاد (٦٢) .

نذكر ذلك لنبين أن مدينة غزة حتى هذا الحين لم يرد ذكرها كمدينة في جميع الوثائق والحفريات ليس لكونها لم تكن موجودة بقدر ما هو عائد لعدم وجود أية دراسة اركيولوجية جادة في موقع المدينة الجالي أو بالقرب منها . فتعددت الدراسات والحفريات في جميع المواضع الكنعانية السابق ذكرها باستثناء موضع مدينة غزة وهذا يعتبر ثغرة في سلسلة الدراسات اركيولوجية

The Land of Gerar, I.E.J., 6956, pp. 26-32.

(٦٠)

A. Malmef, T.B.L, 79, 1960, pp. 12-19.

(٦١)

Y. Aharoni, Ibid, pp. 137.

(٦٢)

لمدينة عريقة يقال أنها موجودة منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد على يد بنيها العرب المعنيين والسبئيين (٦٣) .

خراب تل العجول وظهور غزة ثم رفح :

ومع نهاية العصر البرونزي الوسيط كانت نهاية الهكسوس على يد القائد الفرعوني أحمنس ١٥٨٠ - ١٥٥٧ ق.م مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ - ١٣٥٠ ق.م) في اخراج الهكسوس من مصر وملاحقتهم عبر سيناء حتى آخر معاقلمهم في المنطقة الحدودية في « تل الفارعة » (ساروخين) الحصينة فكان أعظم حصار ذاك الذي دام ثلاث سنين أو أكثر أثبت فيه أحمنس قوة الصبر والمثابرة في حين دل على عظمة العدو الهكسوسي المتمثل في منعة المدينة وقوة دفاعاتها وغزارة رصيدها التمويني . الى أن سقطت بعد ذلك فأصابها التخريب والتدمير ثم لحقتها بعد ذلك مدينة « تل العجول » التي منيت بالتلغ والتدمير (٦٤) . وظل أحمنس يلاحقهم هو ومن تبعه من أبنائه أمنحتب الأول ثم تحتمس الأول حتى نهر الفرات .

فهل يعني هذا ان لمدينة « تل الفارعة » مكانتها العسكرية والادارية التي فاقت في العصر الهكسوسي مدينة تل العجول ؟ ربما كان الأمر كذلك فاتخذ الهكسوس من تل الفارعة قاعدة عسكرية قوية تحمي وخرتهم فتميز الهكسوس ببناء المدن والاستحكامات العسكرية والقلاع كما تغلبوا في تدمير القديم من المدن . فلا عجب أن يعتمد الهكسوس عن تل العجول ليجعلوا من تل الفارعة قاعدة لهم .

ان انهزام الهكسوس وعلى اثره تدمير لمدينة « تل العجول » يعتبر العلامة الفارقة في حياة هذه المدينة فيرى السيد فلندرز بترى بأنه من جراء التخريب الذي أصاب المدينة من اعمال وانتشار أمراض الملاريا دفع المواطنين من أبنائها للهجرة والتوجه شمالا والتمركز في جنوب موضع مدينة غزة الحالية (حتى الزيتون) . مكونين بذلك النواة الأولى لمدينة غزة الحالية (٦٥) .

والتي بدأ اسمها يظهر فعلا في القرن السادس عشر قبل الميلاد في عدة وثائق للفراعنة المصريين وعلى وجه التأكيد مع بداية العصر البرونزي الحديث ، وبدأت تظهر اسم « رفحجو » (رفح) كنقطة حراسة رئيسية على طول الطريق - طريق سورس - الساحلي والذي بدأ يلب بالنشاط والحيوية من جراء ازدياد

A. Meyer, The history of the city of Gaza, pp. 13-14. (٦٣)

(٦٤) بريستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسي ، ترجمة حسن كمال ،

القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ١٧٤ .

Petri, Ancient Gaza, Vol. II, London, 1932, pp.

النفوذ المصرى للأسرة الثامنة عشرة بعد الغزوة الهكسوسية حتى كاد المصريون أن يستأثروا بالأجزاء الجنوبية من الأراضى الكنعانية ، فهزيمة الهكسوس علمتهم أن يدافعوا عن أنفسهم من العمق - التى هى أراضى « فلسطين » .

فهل كان ظهور مدينة غزة ورفح على حساب هجرة سكان مدينة تل العجول ؟

أم أن كملتا مدينتى غزة ورفح كانتا معاصرتين لمدينة تل العجول ولكنهما أقل شأنًا إداريًا وعسكريًا لذا لم تكن لهما تلك الأهمية . أم هى القصور فى البحث الأركيولوجى عن موضع ونشأة المدينتين فالى الآن لم تعطى بأى دراسة أو حفريات جادة خاصة غزة فى حين تم التنقيب فى تل رفح . ربما كانت الإجابة على هذه الأسئلة متكررة إذا ما ذكرنا اختلاف وجهة نظر الباحثين والأركيولوجيين بهذا الصدد وعلى رأسهم فلندرز بترى الذى يرى هجرة سكان تل العجول بعد حملة الهكسوس وانتشار الأمراض هما النواة فى تأسيس مدينة غزة فى القرن السادس عشر قبل الميلاد أيده فى ذلك زميله السيد ستاركى فى التنقيب معهم القديس ايرونييموس .

وخالفهم جميعًا « استرابون » الذى يعتبر منطقة « تل العجول » ليست أكثر من ميناء وثلج بحرى تجارى يخدم مدينة غزة التى كان موقعها فى موقعها الحالى أو قريب منه ويؤيده فى ذلك الأب « جورج غات » الذى يرى أنها منذ أن بناها الكنعانيون هى فى موضعها الآن . وهناك رأى ثالث يقول صاحبه السيد إدوارد جلaser Edward Glaser بأن المعنيين كانوا يمتلكون المنطقة الواقعة من حضرموت حتى قرب غزة منذ فجر التاريخ وأن هؤلاء الناس يرجعون للقرن السابع عشر قبل الميلاد وقد أنى بعدهم السبئيون واستولوا على نفس المنطقة . وعليه يمكن القول بأن المعنيين أو السبئيين هم بناء غزة التى ارتبط اسمها كثيرا بسجلات أصحاب تجارة التوابل بين الشرق والغرب والتى تعبر قوافلهم صحراء غزة (٦٦) .

ومن استعراضنا لهذه الآراء نجد أن هناك نغمة سائدة وقاسم مشترك فيما بين آراء فلندرز بترى وإدوارد جلaser وهو البعد الزمنى فكلاهما اتفق فى أن نشأة غزة لم تتعد القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد معتقدين أما على الحفريات كمعطيات مادية أو الوثائق والنصوص وبعضهم فى ذلك أولبرايت (٦٧) .

١. Meyer, ibid, pp. 14.

(٦٦)

(٦٧) ولیم . ف . أولبرايت - آثار فلسطين - ترجمة زكى اسکندر و د . محمد عبد القادر محمد - المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية - الكتاب الحادى عشر - القاهرة ١٩٧١ ص ٤٣ - ٤٤ .

أما بالنسبة لوجبة النظر الثنائية بأن مدينة غزة أقدم من ذلك أى قبل العصر البرونزى الوسيط فان هذا الاعتقاد مشكوك فيه لو علمنا بأن « التلة » الواقعة عليها مدينة غزة الآن من الاتساع والامتداد (كيلو متر مربع) تقريبا بحيث لا تقوى إمكانات الفترة الكنعانية المبكرة - قبل العصر البرونزى الوسيط - على استغالها أو احاطتها بسور وان هذه المساحة تنوق أضعاف مساحة أى مدينة كنعانية معاصرة لتلك الحقبة شرقها أو جنوبها أو فى شمالها . لذا حاصور « Hazor » العاصمة الكنعانية التى بلغت مساحتها ١٧٥ فداناً ، والتى لم تتجاوز أى مدينة أخرى فى مساحتها على عشرة أفدنة .

ويكون مقبولا الاعتقاد بأن مدينة غزة نشأت بعد الفترة الهكسوسية (القرن السادس عشر قبل الميلاد) فى موضعها ومساحتها الحالية . (على التلة) وذلك لاهتمام القبائل العربية لتقدمها وازدهارها التجارى تسانده احتمالات الفراعنة بالمدينة كمساعدة ادارية وسياسية وعسكرية على الطريق الساحلى (طريق حوزس) وما وصلت اليه هذه الامبراطوريات من حضارة وتقدم كقول بأن يفى بمتطلبات تلة غزة المستوية كما سنلمسه بعهد ذلك وفى العصر البرونزى الحديث . خاصة لو علمنا أن الفترة الهكسوسية تميزت بالرخاء الاقتصادي الذى ساد فلسطين بواسطة التجارة فأصبح لزاد على السكان أن يستوطنوا دوقعهم وموضعهم الجديد فى « غزة » كمبر بين قازنى آسيا وأفريقيا . والكهيات الكثيرة التى عثر عليها فى جنوب غزة وحولها من الحل والاسلحة المصنوعة على النمط المصرى (٦٨) .

كما سنرى فيما بعد فى منطقة (دير البلح) (انظر الصور من ٣ الى ٨) .

ولا يعنى هذا بالضرورة أن البلاد كانت تعيش فى أمن وسلام بل على العكس من ذلك سادتها فترات من الاختلال والدمار لكثير من المدن والمواقع العربية الكنعانية كما هو الحال فى « تل العجول » وتل بيت رسم جنوب الخليل ومجدو ٠٠٠ التى دمرتها الحروب أكثر من أربع الى خمس مرات خلال قرنين ونصف من الزمن (١٨٠٠ - ١٥٥٠ ق م) (٦٩) .

وقبل أن نترك العصر البرونزى الوسيط لنا وقفة أردنا أن نتحدث عنها جانبا لأهميتها التى شملت جوانب عديدة على سكان هذه المنطقة أو نرى أنها توجت هذا العصر ألا وهى قدوم أبينا إبراهيم عليه السلام الى فلسطين (أرض العرب الكنعانيين) فى عام ١٨٥٠ قبل الميلاد بسبب الصعوبات التى واجهها فى

(٦٨) ولزم أولبرايت - آثار فلسطين - المربع السابق من ٦٠ - ٩١ .

(٦٩) ولزم أولبرايت - آثار فلسطين - المربع السابق من ٦٤ .

اور بالعراق (٧٠) ، فالبعض يدعى أن رحلتهم هذه تمت قبل ذلك ، الا أن هناك اجتماعا بأن قدوم أبينا ابراهيم عليه السلام كان في الفترة الواقعة في العصر البرونزي الوسيط .

فإن تآان الحجرات الواقعة مختلفة منها الاقتصادية المعاشية في شالها
الاعم ، او سياسية او لطروف اجتماعية احيانا ، فبقده هاجر أبو الانبياء ومعه
ابن أخيه «لوط» ودانعه لذلك توصيل «رسالة البلاغ ومبدأ التوجيه» بحملها
لأبناء هذه الأرض الذين يعبدون الأصنام والشمس والشعابين والحيوانات في
كنعان ومصر الفرعونية ويطلقون عليها أسماء عديدة - الله رع • داجون • •
بناس - «انور • • • الخ • قدم ليمبلغهم بالوحدانية لله عز وجل قائلا لهم « ان هي
الا أسماء سميتومها أنتم وآباؤكم » فبالهجرة اذا هجرة بلاغ • • والا فإن أراضى
جنوب العراق التي قدم منها بخصبها ووفرة مياه أنهارها الفياضة أكثر رخاء
وأجل هلاء من أراضى كنعان ذات الأمطار المتذبذبة خاصة في مناطق استقراره
« الخليل » أو بشر السبع أو بالقرب من غزة شبة الصحراوية . الأرض التي
لا تعطى الا بالكد والجهد • • ألم يختلف كما جاء في التوراة أبونا ابراهيم مع
أبيمالك ملك فلسطين على الشرب من ماء البئر فوق أرض « بن السبع »
أو كما جاء شرق مدينة غزة في « جبرار » عاصمة أبيمالك « أو تل أبو هريرة »
الواقعة على « ردى السريعة » إحدى روافد وادى غزة • كمدينة واقعة على حد
المسكون بين المناطق الصحراوية في بن السبع والزراعية عند سهل غزة .
وقد أقام أبونا ابراهيم على هذه الأرض « جبرار » سعيا وراء الرعى وقت القحط.
وقد مارس أبناؤا بعضا من أنواع الزراعة الفصلية بنجاح الى حد ما (٧١) •

وما نود تأكيدده هنا عن رحلة ابي الانبياء - أنها تركت انطباعات وأدرا
فاقت تأثيراتها على أى حدث في نفوس أبناء العرب الكنعانيين وأحفادهم العرب
الفلسطينيين والمسلمين فوق أرض فلسطين حتى غزة . آثارا ظلت مطبوعة في
أفئدتهم بل تعدت وغطت مناحى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية
وحتى النفسية على سكانها العرب حتى الآن ولمدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة .
لم يتنازل معها أى قوم أو شعب آخر بشئ ما تأثر بها واندمج معها العرب
الفلسطينيون المسلمون مؤمنين « ان أولى الناس بابراهيم للمدين التيموم » - سورة
آل عمران » ومعتقدين بأنه « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا
مسما » « سورة آل عمران » • فتميزوا بالتمسك بدينهم دين الاسلام وكتاب
القرآن وأصبحت شخصياتهم تتميز بطابع الجد والتدين . فاشتقوا من اسمه

G. Raux, Ancient Iraq, London, Pelican Book 1966, p. 216, (٧٠)

Land of Gerar, I.E.J., 1958, p. 26-28. (٧١)

اسم مدينتهم « الخليل » بل وقسموها الى احياء أطلق على كل حي « خلة » ووقفوا مساحات شاسعة من أراضي فلسطين وقفاً للحرم الابراهيمى ايفاء لمستلزماته وتقديم الخدمات لمسجده بل وللفقراء والمساكين يومياً . حتى الفلاح العربى الفلسطينى وفى غزة خاصة يتبارك بتقديم أول جزء من انتاجه من القمح للفقراء ويسمونه « عساع الخليل » .

والدلالة الثانية : هى أن ابنا ابراهيم جاب البلاد من أقصى الشمال « نابلس » لأقصى الجنوب شرق غزة وبئر السبع لكى يشتمم البلاغ حتى انتهى به المطاف وتوفاه الله عز وجل فى « الخليل » .

والنقطة الثالثة : توحى بدلالة تاريخية فكما جاء فى التوراة أنه اختلف مع أبمالك ملك الفلسطينيين ، فهذا معناه أن الفلسطينيين قدموا الى البلاد قبل عام ١٨٥٠ قبل الميلاد وهى سنة قدوم أبينا ابراهيم عليه السلام فى حين تؤكد الدراسات الاركيولوجية والأبحاث العلمية ان قدومهم كان مع انتهاء القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ليدل على أن - التوراة - لا يمكن الركون إليها كمرجع خاصة لو علمنا بأن ما جاء منها من أسفار وأخبار جمعت جميعاً وفقاً لما يذكره بعض رجال الدين بعد قرون عدة من الشتمات .

أما اذا صدقت - التوراة - فمعناه أن قدوم الفلسطينيين سبق قدوم القبائل العربية اليهودية بسنة قرون تقريباً .

الفصل الرابع

العصر البرونزي الحديث

- غزة العاصمة المصرية على ارض الكنعانيين
- رفح موقع عسكري متقدم لمصر
- مقابر قديحة على شاطئ " دير الباج "

العصر البرونزي الحديث ١٥٤٦ - ١٢٠٠ قبل الميلاد .

يعتبر العصر البرونزي الحديث امتداداً حضارياً مباشرًا لفترة الهكسوس ، فلم يطرأ أى تغير على نظام « المدينة الدولة » فى البلاد ولم يتبدل سوى الغزاة من « الهكسوس » الى فراغت مصر الذين ضمتهم الامبراطورية الثانية ١٥٤٠ - ١٣٥٠ قبل الميلاد - وانتهى انطاقها وكسرين انفسال العزلة السياسية السعيدة داخل حدودهم الى الغزو نحو الشمال ليضموا جميع البلاد السورية محققين انتصارات عسكرية على كثير من الشعوب وليعيدوا عديدا من مراكز القوى المدنية على خريطة الأرض الكنعانية لتفقد احداها دورها كمدينة هامة ذات شأن ادارى وعسكرى لتؤول الى مدينة أخرى ، وبالبحتم الجغرافى الناجم عن موقع القوة الفرعونية الغازية فى الجنوب ، كان لا بد لمدينة غزة أول المدن الكنعانية على التخوم المصرية ان تتأهل لدور العاصمة الكنعانية الاقليمية ولتأخذ مركز الثقل الادارى والسياسى فى أرض كنعان كلها وتسلب مدينة حاصور Hazor اهميتها ومكانتها كعاصمة كنعانية فى الشمال فاختارت الادارة المصرية بحكم الضوابط الجغرافية مدينة غزة قاعدة رئيسية لهم وللمبعوثين من الدبلوماسيين والاداريين (٧٢) بالنسبة الى التالى أهمية مزدوجة كقاعدة عسكرية ومركز ادارى وتجارى هام ولم تنافسها فى هذا الدور سوى مدينتى عسقلان واسدود (٧٣) على الساحل .

لقد جاء اسم « غزة » عندها قام تحتشمس الثالث بحملاته المتعددة على فلسطين وسوريا فى العراق ١٤٦٨ - ١٤٣٦ قم - قاطعا المسافة بين « ثارو » شرق القنطرة حتى مدينة غزة فى تسعة أيام بجيوشه ليبرهن على جدارته العسكرية وقوة اندفاعه فى ذلك الوقت داخل الصحراء فى الوقت الذى يقال فيه ان سفنه الحربية المبحرة فى البحر المتوسط قد رست بعضها عند شواطئ غزة (٧٤) واغصانه سلامة الطريق - طريق الفرعون - أقاموا عليه محطات عسكرية كمخافر وحفروا العديده من الآبار فى مسافات محددة لتسهيل مهمات

A. Alt, ZDPV, 67, 1944, p. 9.

(٧٢)

Aharoni, Ibid, pp. 23.

(٧٣)

(٧٤) سمح الدين جوناثان - سوريا وفلسطين - مصر - ١٩٤٧ ، ص ٣٧٨ (باللغة

التركية) .

الجحافل العسكرية والقوافل التجارية ، والضمائم ميمنة الطريق الهام .
جعلوا من المدن الشرقية لمدينة غزة وتل العجول قلاعاً عسكرية لهم في تل جمة
وتل الفارعة وأقاموا أيضاً في « تل رفح » على الساحل وعززوا مكانة تل العجول
العسكرية .

فقد أبانت الدراسات الأركيولوجية التي قام بها فلندرز بشرى وزملاؤه سنة
١٩٢٦ في « تل جمة » على آثار ترجع لتحتمس الثالث سنة ١٤٨٠ قبل الميلاد
ومن انقراض وحفريات « تل الفارعة » وجدت آثار ترجع لرمسيس الأول سنة
١٣١٨ ق م وسيتى الأول سنة ١٣١٧ ق م ورمسيس الثاني سنة ١٢٩٥ ومرفتاح
١٢١٩ ق م والذي اشتهر بكثرة اهتمامه لفلسطين كما وجدوا اسم سيتى الثاني
١٢١٠ قبل الميلاد محفورة على جرة من الفخار (٧٥) في نفس الموقع لتظهر جميعاً
أهمية موقعها كنقاط عسكرية ففيها احتفل تحتمس الثالث بمناسبة مرور العام
الثالث والعشرين على اعتلائه العرش وسط خبرة حتى يقال انها أول مرة يرد
فيها اسم غزة في الآثار الدالة على مكانتها (٧٦) .

في حين وصفت مدينة غزة بأنها . العاصمة المصرية في أرض
الكنعانيين (٧٧) فبدأت حياتها في الازدهار في حين كان هذا ثمنه الضمور
الديمقراطي للمدن القائمة حولها خاصة الى الشرق منها وفوق المناطق الجبلية
لتقدم مبالاة الاهتمامات المصرية لها فتركوا المدن الداخلية الجبلية بصفة خاصة
على حالها لا لفقرها وعدم أهميتها الاستراتيجية التي انصبحت على الطريق الساحلي
الفرعوني فحسب بل كرد فعل للمنعذ والتفرد لهذا المدن بصورة لا تلت الانتباه
فلم تشكل فيما بينها وحدة سياسية تمنحها القوة للتهديد أو الغزو لهذا أدار
المصريون ظهورهم لهذه المناطق فنادرا ما توجهت حملاتهم نحو الداخل في فلسطين
فساعد هذا الانعزال الداخلي على انتشار ظاهرة « الممالك المدنية » التي هي أشبه
بقبائل تعيش كل منها فوق مساحة محدودة من الأرض تمارس سلطتها
عليها (٧٨) .

وعليه بدأ نوع من الكشف المدني والاستقرار البشري فوق هذا الطريق
الساحلي لم لا وقد بلغت حملات تحتمس الثالث التي جهزها للغزو من فرقته
سبعة عشر حملة عسكرية على حضارات الشمال حتى وصلت شاطئ الفرات ،
لترك من ورائها ثراء علميا ووثائق تاريخية وجدت في « معبد السكرنك »
بصعيد مصر منها قائمة تضم ١١٩ مدينة كنعانية كانت تحت امرة ملوك قادش
ومجدو بفلسطين يساعدهم « الميتانيون » في بلاد الرافدين ويقدمون لهم العون

Starky and Harding, Pet Palet II, Ibid, pp.

(٧٥)

Aharoni, Ibid, pp. 44.

(٧٦)

A. Meyer Ibid, p. 20.

(٧٧)

W. F. Albright, BASOR, 87, 1942, pp. 37-38.

(٧٨)

والمساعدة للتصدي وتحدى السلطة المصرية (٧٩) . وعلى أرض « مجدو » المدينة العربية الكنعانية قامت أول معركة فاصلة تدور بين تحتمس الثالث وملوك كنعان تركت من بعدها معلومات ونقوش من بينها ما عثر على قبر أحد ضباط هذه الحملة منقوشا عليه المواقع التي مرت عليها الحملة مبتدئا بالسهل الساحلى حتى سفوح الكرمل مختربة أراضي سهل مرج بن عامر حتى وادى بيسان الى جسر بنات يعقوب ومنها الى الأراضي السورية (٨٠) محورا عسكريا أبديا ، وممرا لا محيد عنه ، فى السلام والحرب ، وهذا هو أمنحتمب الثانى ١٤٣٦ - ١٤١٠ ق م - يجهز حملتين عسكريتين بقصد ايقاع الهزيمة « بالميتانيين » فى الشمال حتى انتصر عليهم (٨١) وكالعادة تركت لنا سجلات هذه الحملات أسماء بعض المدن الكنعانية منها « قادش وجازور وافيق يسوكه » ومن أهم ما زودتنا به قائمة بتعداد بعض المسجونين الذين وقعوا فى الاعتقال ، وربما يكون لذكرهم هنا انعكاس للحالة الاجتماعية والتركيبية السكانية للمنطقة فى ذلك الوقت فقد ورد فى القائمة ١٢٧ رجلا من حكام « رثنو » ومما هو جدير بالذكر أن « رثنو » أطلقها الفراعنة على تلك الأرض الواقعة فى شبه جزيرة سيناء حتى الطور أما سكانها فيطلق عليهم « الشاسو » (٨٢) .

وهناك ١٧٩ من أبناء حكام رثنو ، و ٣٦٠٠ من قبيلة « الخابيرو » وهى قبائل يعوزها الاستقرار وبلغ عدد المسجونين من قبائل الشاسو البدوية ١٥٢٠٠ شخص فى حين وصل عدد الحورو Huru ٣٦٣٠٠ نسمة وهم من عامة الشعب ونحو ١٥٠٧٠ شخصا من Neges من سكان شمال سوريا وقراة ٣٠٦٥٢ من العائلات التى تنتمى لسكان شمال سوريا (*) أيضا (٨٣) .

ليست هذه الأرقام وليدة احصاء بل هى أقرب الى المجموعة العشوائية التى وقعت فى الأسر أو الاعتقال الفرعونى عند قيام الحملة نستلهم من خلالها صورة ولو جزئية عن التركيب السكانى الذى يمثل الحوريين أكثر قليلا من ثلث المجموعة فى حين نجد الشاسو وهى القبائل البدوية التى تسكن جنوب وشرق غزة تمثل ١٥٪ من المجموعة أما « الخابيرو » والتى كانت مصدر ازعاج لحكام الأقاليم فلا تتعدى ٣٥٪ من المسجونين . فى حين نجد النسبة الكبيرة من بين هذه الأعداد هم من سكان سوريا الذين يشكلون أقل قليلا من نصف

G. May Herbert, Oxford Bible Atlas Ibid., pp. 95. (٧٩)

Aharoni, Ibid, pp. 144-145. (٨٠)

W. F. Albright and A. Rowe I.E.J., 14, 1928, p. 281-287. (٨١)

(٨٢) غالى - سيناء المصرية عبر التاريخ - المرجع السابق ص ١٣

Aharoni, Ibid, pp. 144-145. (٨٣)

(*) ورد اسم مدينة بالقرب من بيسان باسم Neges أيام تحتمس الثالث I.E.J. Vol. 28, 1978, p. 93.

العدد الاجمالي « ٤٥٪ » ويبدو واضحا أن أعداد من ألقى القبض عليهم أثناء الحملة يأخذ في الازدياد كلما اتجهنا نحو الشمال وربما كان يتناسب ذلك بتناسب عدد السكان ففي الجنوب حيث الصحراء والقبائل المتنقلة وقلة عدد السكان تقل النسبة في حين تزداد شمالا للاستقرار على الأرض الزراعية وبالتالي شدة المقاومة .

ومن المشاغل التي أضاعت لنا مساحة شاسعة وكشفت عن أحداث هامة غطت حقبة تقل قليلا عن قرن من الزمان لهذا العصر كانت « رسائل تل العمارنة » التي ضمت في مجموعها ٣٥٠ لوحة من الطين أرخت لعهد تحتمس الرابع ١٤١٠ - ١٤٠٢ قبل الميلاد الذي عقد الميثانيون معه معاهدة سلام لما أصابهم من ضعف ، كما أمدتنا هذه الرسائل بمعلومات تعود لأممحت الثالث ١٤٠٢ - ١٣٦٤ قم وأممحت الرابع ١٣٦٤ - ١٣٤٧ قم (٨٤) .

وما يعنينا من رسائل تل العمارنة أن نصف مجموعها أرسل من ملوك كنعان والباقي أرسلته ممالك شرق أوسطية (حيشيين - ميثانيين - بابلين - قبارصة) وقليل منها مرسل من ملوك مصر أنفسهم الى أولئك الملوك والشعوب جميعا . لتبين - كثافة المراسلات بملوك كنعان والتي توضح بدورها الأهمية الاستراتيجية بين القطرين ومدى حساسية هذه المنطقة بالنسبة للأمن المصري كمطقة ارتطام وكموقع متقدم في العمق للدفاع عن مصر . خاصة عندما كشفت لنا بعض الرسائل التي تحمل استغاثات أطلقها بعض قادة الحاميات في الأراضي الكنعانية ضد من أسموهم « الحابيرو » كعنصر مقلق دفع بعض الحكام أحيانا لعقد اتفاقات معهم ، وهؤلاء « الحابيرو » أشبه بقبائل متنقلة ، أو فئة من الأجانب لم يكن لهم حقوق الملكية (٨٥) وفضلوا الانتقال والانتشار داخل المناطق الجبلية ، ويرى آخرون بأنهم نوع من المرتزقة حرضتهم القوى الحثية بآسيا الصغرى للعمل ضد الكنعانيين والمصريين عندما أخذت الاهمال يستشري أيام أممحتب الرابع « اخناتون » . في حين يرى المؤرخ « يوسفوس » بأنهم عرب واخوة للفينيقيين (٨٦) وهذا يناقض ادعاء بعض المحدثين الذين يدعون بأنهم طلائع العبرانيين .

وقد عكست رسائل تل العمارنة ، ومن الوجهة الجغرافية - أهمية كثير من المدن الكنعانية بشكل أشبه بالتصنيف الاقليمي ضم كل منها عدة مدن ففي

Georges Ville, Concise Encyclopedia Archaeology, 1971, p. 27. (٨٤)

R. Borger, Z.D.P.V. 74, 1958, pp. 121-122. (٨٥)

(٨٦) الدبس - تاريخ سوريا - المجلد الاول - الجزء الاول - بيروت ١٩٦٣ ص ٢٣٠ .

نطاق السهل الساحلى لأرض كنعان أوضحت ثلاث مدن هي غزة وعسقلان وجوبا « يافا » وأوردت مدن جازر - وجات - لحيش - مجدو - كمدن عربية كنعانية ، وغيرها من المدن الجبلية الداخلية (خريطة ٧) .

وهكذا ظلت مدينة غزة محتفظة بأهميتها كعاصمة اقليمية كنعانية ومركز ادارى مصرى كما جاء فى رسائل تل العمارنة (*) ومما يؤكد هذا الازدهار ما جاء بوثيقة ترجع بتاريخها للفترة الواقعة ما بين ١٣٥٠ - ١٢٠٥ قبل الميلاد أى فى النصف الأول من حكم الأسرة التاسعة عشرة تبين ما رآه أحد الرحالة المصريين للمدن الكنعانية والفينيقية ومن ضمنها مجدو وجوبا ورفح وغزة « ذات المراعى الجميلة والجنان الحضرى ذات الثمار الناضجة من كل نوع ولم ينس أن يصف « الفتاة الجميلة التى تقوم بحراسة الكروم ذات النظرات الأخاذة التى تأخذ الأبواب » (٨٧) .

ومن أهم ما بينته رسائل تل العمارنة الضعف الذى بدأ يتسرب بجسم الدولة الفرعونية خاصة أيام « اخناتون » وكيف بدأت شعوب الأرض الكنعانية فى مدنها المختلفة فى طول البلاد وعرضها الانتفاض فعملت القبائل البدوية فى قطع طرق القوافل التجارية ونهبها ، واندفعت شعوب المدن بالثورة ضد المصريين مما دفع السلطة للرد عليها مما أدى الى تخريب وتدمير عديد من المدن مثل أريحا وتل بيت مرسم ودمر سكان لحيش « تل الدوير » المعابد المصرية فيها . وباغت أوجها عندما قام سكان غزة بتدمير المراكز الادارية والمقصون العسكرية فى المدينة ، ويصف بعض الضباط المصريين ردود فعلهم حينئذ السكان النافرين قائلا : (لقد أنلفت . أمتعتهم وحرقنا ودمرت مدنها وحاصلاتهم فأخذوا يهربون الى الجبال كالأنعام وانتشر الجوع فى أنحاء البلاد) وبالرغم من ذلك لم تتمكن بعدها حملات اخناتون من اخضاع ثورة السكان أو القنطرة على استتباب الأمن ، فبدأ بعدها النفوذ المصرى فى الانكماش (٨٨) وهكذا احتفظت المدن الكنعانية بعناصر شخصيتها القومية العربية الكنعانية فلم تفقدها بالرغم من ازدياد النفوذ المصرى لعدة قرون خاصة فى أهم مراكزهم غزة ومن ثم فى باقى المدن . ورغم تحريض وتهديد ملك البابليين الذى أرسل رسالة رسالة لأخناتون (أمنحتب الرابع) يدفعه فيها لمعاينة المهاجمين لقوافلهم قائلا

(٨٧) أليس الصايغ - سوريا فى الأدب القديم - بيروت - ١٩٥٧ ص ٦١ - ٦٢ .

(٨٨) تاريخ مصر الى الفتح الفارسى - المرجع السابق ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(*) هناك رسالة ذات أهمية أرسلها قائد مدينة غزة ويافا اسمه Yarbrifti وهو كنعانى المولد يستعطف الملك الفرعونى ويقدم له الولاء والخلصه فى حراسة بوابة غزة ويافا - راجع : A. Meyer, Ibid, p. 21.

خريطة (٧) المدن الرئيسية الفلسطينية التي وردت في رسائل تل العمارنة:

له (كنعان هي أرضكم وملوكها هم خدامكم) (٨٩) .

ومادمننا بصدد ما أوردته رسائل « تل العمارنة » فقد ظهر ولأول مرة مصطلح « كنعان Kinhi-Kīnahna » مع بداية النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد متضمنا فلسطين وأجزاء من سوريا تحت اسم اقليم كنعان « (P) Ihati Sakinahi » (انظر خريطة رقم ٨ و ٩) .

ولم تفقد مدينة غزة مكانتها سواء الادارية أو العسكرية بعد كل هذه الأحداث بل استمرت محتفظة بمكانتها كعاصمة كنعانية وقاعدة عسكرية لا غنى عنها للحملات المصرية فقد جاء ضمن قائمة المدن التي وردت في حملة سبتي الأول (١٣٠٣ - ١٢٩٠ ق م) التي تضمنت سبعة عشر موقعا كنعانيا كل من رفح « R.P.H. » وجاء اسم غزة مقترنا باسم كنعان ليشير الى مكانتها كعاصمة كنعانية ولها قيمتها العسكرية لمصر (٩٠) . ويبدو أن هذه الحملة كسابقاتها تهدف لتأديب قبائل الشاسو البدوية المتمردة فاتجهت الحلة حتى مدينة صيدا لتعود بعدها الى بيسان وجازر حيث دارت معارك هناك . ولم ينس سبتي الأول حفر آبار مع طول طريق الفرعون من ثارو حتى رفح وغزة q-d-t لجلب المياه كما ذكرت نقوش معبد آمون بالكرنك (٩١) .

ويبدو أن التمرد ظل مستعرا خاصة في الأجزاء الجنوبية من أرض كنعان وبالقرب من غزة فلم تهدأ بالتالي سرايا الجيوش الفرعونية التي أخذت تتربى عبر هذا الدهليز الساحلي فأكمل زمسيس الثاني ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م ما انتهى به سلفه سبتي الأول فقاد حملته ضد سكان البلاد في الجنوب ليواصل حملته ضد الحثيين في الشمال ، فأخضع سكان البلاد المتمردين من قبائل الشاسو فقال (هاجمت سنا آرو « أي جنوب كنعان » وأنزلت بلائي على قبائل الشاسو فخربت ديارهم وقتلت رجالهم وأهلكت أبقارهم وأموالهم ، وأسرتهم وأجبرتهم على دفع الجزية وقدمتهم الى الآلهة كهبيد في المعابد) (٩٢) .

فلم يهدأ سكان البلاد ولم يستكينوا مهما طالبت مدة بقاء السيطرة الأجنبية والبطش الذي أنزلوه على السكان من قتل وتخريب لجميع مصادر الثروة الزراعية عن الثورة والمقاومة ، فهل هي الصحوه الناجمة عن سوء معاملة المصريين والبطش الذي أنزاه على السكان من قتل وتخريب لجميع مصادر الثروة الزراعية منها وحتى الحيوانية ، أم هو التحريض « الحيثي » كقوة مناوئة للمصريين في الشمال للسكان ودفعهم للثورة - كما يحلو للبعض أن يفسروه . أو هو ضعف

Aharoni, Ibid, p. 62.

(٨٩)

Aharoni, pp. 70.

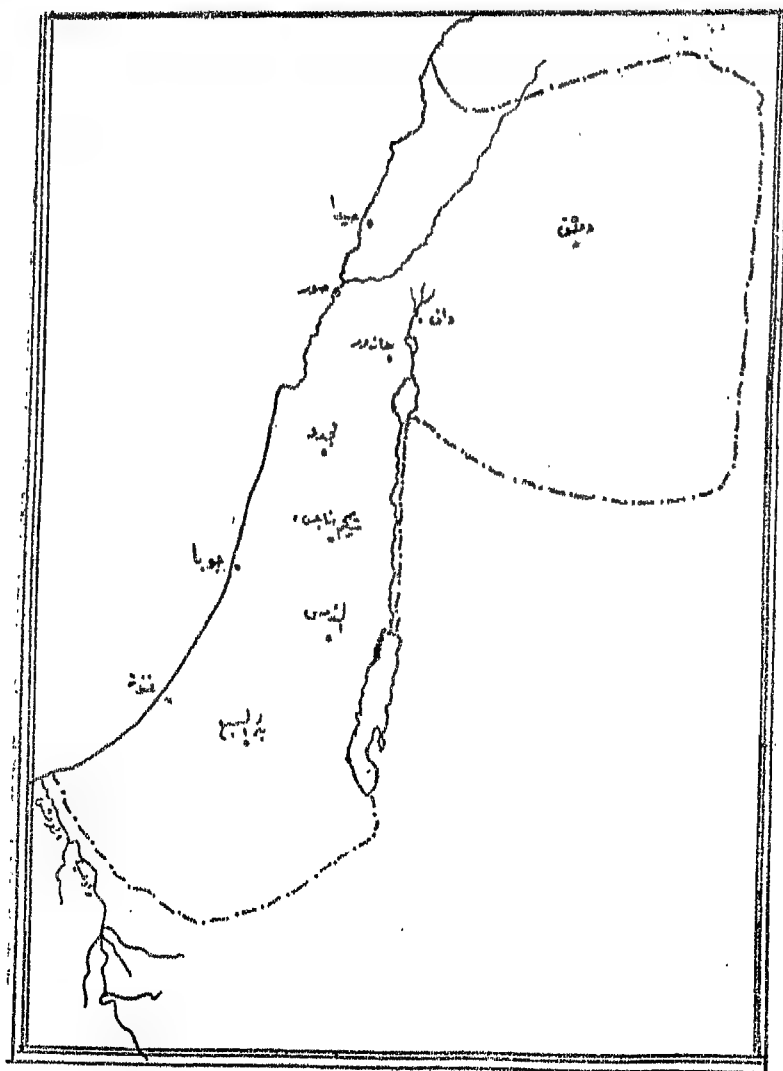
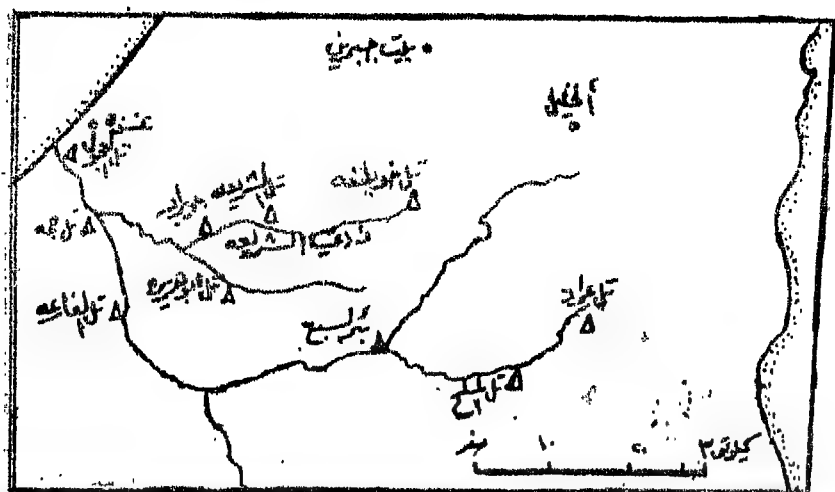
(٩٠)

K, A. kitchen, J E.A., 50, 1964, pp. 47.

(٩١)

Aharoni, 165.

(٩٢)



وانهيار السلطة المصرية أغرت السكان وقبائلهم بالتمرد واعتراض سبل القوافل والثورة . أم دخول عناصر جديدة . كما يوضح دخول العبرانيين من الشرق والفلسطينيين من الغرب لأرض كنعان ؟ .

والرد على هذه الاستفسارات يأتي من « مرفتاح ١٢٢٣ - ١٢١١ ق م الذى قام بحملته بمطاردة القبائل العربية الكنعانية ومحاصرتهم فى « جازر » وانتصاره عليهم مما دفعه لتلقيب نفسه « محاصر جازر » (٩٣) بعد أن استولى على عسقلان ليبرهن على قوة دفاعات المدينة ومقاومتها . فالعبرانيون والفلسطينيون قد قدموا مع بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد ولم يصلوا بعد لدرجة الاستقرار التى تمكنهم من المقاومة كما تلقى الحيثيون ضربات متواصلة من الملوك المصريين وكثيرا ما انهزموا أمامهم مما يقلل احتمال تأثيرهم على السكان الكنعانيين يبقى التمرد الكنعانى من سلطة المصريين الضاغطة هو المحك والدافع لغيان السكان الذاتى . ولتبقى مدينة غزة أكثر المدن - بحكم موقعها الجغرافى - بقاء تحت السيطرة المصرية فى أرض كنعان محتفظة على قسماتها العربية الكنعانية بالرغم من انتشار الثقافة المصرية فيها بكل أبعادها الحضارية وفى مجال حياتها المختلفة كما سيتضح مما أبانته أحدث الحفريات على شاطئ دير البلح والتى تعود لنفس العصر البرونزى الحديث الذى نحن بصددده .

فإن كانت تل العجول فيما سبق قد لعبت دور العقدة الحضارية كسجة غالبية فى العصور الحجرية فإن غزة أخذت دور العقدة العسيرية كصفة سائدة على شخصيتها فى العصر البرونزى بقسميه القديم والحديث ، ومنطقة ارتطام جديدة .

يدفعنا هذا للتساؤل عن السر فى استمرار التواجد المصرى واصراره فى أكثر الأوقات ضعفا على الجنوب الكنعانى فى غزة ورفح ومدنها الشرقية (تل جمة - الفارعة) . هل هى الدوافع الاقتصادية ؟ أم أنها الأطماع السياسية لفرض النفوذ والتصدي للأعداء القادمين من الشمال ؟ أم أنها أرض الدفاع من العمق عن وادى النيل ذلك الدرس الذى استوعبه ملوك مصر من الحملة الهكسوسية ؟ .

وربما استعراضنا لجوانب ومقومات الحياة الاقتصادية للأرض الكنعانية فى العصر البرونزى الحديث يلقي لنا الضوء عن مدى اغراءاتها وجاذبيتها للسلطة المصرية ، هذه الجغرافيا الاقتصادية - إذا جاز التعبير - لأرض الكنعانيين نقشت على حائط قبر نائب تحتشمس الثالث « رخمير Rekhmire » الذى كان

(٩٣) إريستد - تاريخ مصر من أقدم العصور حتى الفتح الفارسى - المرجع السابق

بتلقى ضرائب البلاد ، سندرسها دراسة محصولية علنا نستقرئ من بين سطورها الجوانب الكامنة وراء الغزوات الفرعونية على بلاد الكنعانيين ونستوضح مراميها والتي يبدو من خلالها أن السمة الاستراتيجية هي السائدة أكثر مما هي دوافع اقتصادية : -

ملكية الأرض (٩٤)

كان الفراعنة المصريون إذا ما استولوا على أراضٍ يعتبرونها ملكا خالصا لهم يسبغ القائد المصرى اسمه عليها فعلى سبيل المثال كانت مدينة غزة - ملكا خالصا لتحتمس الثالث وأسماءها « المدينة التى حاصرها الحاكم » وهكذا أطلق عليها رمسيس الثانى بعد أن حكمها . وكان بالتالى السكان الكنعانيون مضطرين لدفع الضرائب الى الفرعون المشرف الأول على زراعة الأراضى فيها ومجى ضرائبها بنفسه وقد جاء ذكر ثلاث مدن بالقرب من بيسان (Hakur - Neges - Yenoan) تفعل مثل هذا الحال . وكانت هذه الضرائب تؤول قربانا للآلهة المصرية التى ألحقها تحتمس الثالث ببعض المدن الكنعانية كآلهة لها فقد قدم ضرائب مدن كاملة للاله آمون بمعبد الكرنك بالصعيد . فمدينة عسقلان أصبحت ملكا للاله « بتاح » تدفع له الضرائب . فالتيغير هنا أصبح اجتماعيا أكثر منه سياسيا على المدينة بحيث عزلت المعتقدات الداخلية للأسر المحلية واستبدلت بآلهة المصريين ، كذلك الحال فى غزة صاحبة الاهتمام الفرعونى الكبير والذى سبق أن أوضحنا كيف اعتدى سكان غزة على الآلهة ودمروها داخل المدينة وكان جزء من هذه الضرائب ينفق على الجيوش المصرية فتجهز بها العربات الحربية ويأخذ بعضها رجال الحكم وكانت غزة تقدم ذلك (٩٥) .

المحاصيل الزراعية :

وردت أسماء عديد من المدن الكنعانية التى ترسل « القمح » الى الاله آمون فى الكرنك أيام تحتمس الثالث ولكن لم توضح الكميات المرسله ، وفى قائمة أخرى ترجع لرمسيس الثالث جاء فيها أن الاله « بتاح » فى هليوبوليس استلم من أرض كنعان كميات من القمح «hkito, Hirw» فى السنة كما استلم معبد « بتاح » فى ممفيس ٤٠ وحدة hk it كل سنة وهذا يعنى أن مقدار ما استلمته المعابد المصرية من أرض كنعان ما يعادل ٢٠٠ لتر أو ١٥٠ كيلوجراما (١٩) تقريبا . ويبدو أن هذه الكمية مجرد هبات رمزية إذا ما قيسبت بتلك الهبات

I.E.J., Vol. 28, 1978, pp. 93-95.

(٩٤)

Aharoni, p. 138 .

(٩٥)

التي تقدمها مصر نفسها الى معابدهم (٩٦) ولم تكن مصر بحاجة لاستيراد القمح من أى مصدر فما كانت تجمعه غالبا ما تزود به الجيوش المصرية المربطة فى المدن الرئيسية فى غزة وعسقلان وجوبا « يافا » ، والتي كانت تخزن كميات كبيرة منه كرصيد احتياطي وقت الحرب كما هو الحال فى « يافا » وكثيرا ما كان سكان المدن يتجهون بضرائبهم « كالقمح » ليسلموه فى مناطق التخزين أو المخازن : وفى بعض الحروب كان الجنود ينهبون كميات من القمح كما جاء فى رسالتين أيام تحتمس الثالث وعند حصار « مجدو » (٩٧) .

الزيت :

زيت الزيتون على العكس من القمح فمصر الفرعونية كانت مستوردة له فهي لا تنتجه بل وقامت الأسرة الثامنة عشرة بمجهودات لزراعته كما ورد فى إحدى وثائق الأسرة التاسعة عشرة ، ويؤخذ الزيت كضرائب يقوم باستهلاكه واستغلاله الجنود ورجال الادارة المصرية فى المدن الكنعانية نفسها كما ورد ذلك فى رسائل تل العمارنة .

النبيذ :

جاء ذكره فى معظم السجلات وكان يقدر « بالجرة » أيام تحتمس الثالث فقد بلغ فى سنة ٢٩ من حكم تحتمس الثالث ما حملته من النبيذ بنحو ٩٥ ألف لتر (٩٨) أرسل مصر .

الثروة الحيوانية :

فى مجال هذه الثروة ورد ذكر الأغنام والماعز بأعداد قليلة بحيث لم يتعد عدد ما ذكر منها فى قائمة الضرائب ثلث عدد الأغنام التى سلبت عند حصار مجدو ووصلت نسبة الماعز للأغنام ١ : ١٠ لىضفى دلالة - ولو بسيطة - عن قلة هذه الثروة التى كانت تقدم فهي لا تعدو كما ذكرنا - عن أعداد رمزية تضيفى الدلالة على الولاء للآلهة . وقد قام أحد ملوك كنعان الجنوبيين بتسليم (٥٠٠) خمسماية عجل وطلب أحد الضباط المصريين سبعة عجول من ملك جازر .

أما الحیول فتبدو أهميتها على الرغم من قلة ما كان يطلب منها فقد وصل عدد ما أخذ فى إحدى السنوات ألفا وخمسمائة حصان تقريبا (٩٩) .

I.E.J. 28, Ibid., p. 96-97.

(٩٦)

I.E.J. 28, p. 98

(٩٧)

I.E.J. Vol. 28, Ibid, p. 99.

(٩٨)

I.E.J. Vol. 28, 1978, p. 100.

(٩٩)

المواد الخام :

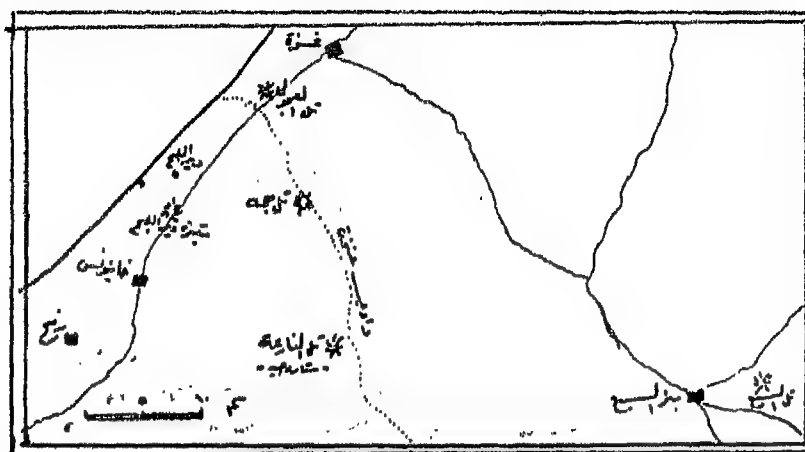
لا نمتنع عن الحقيقة كثيرا اذا قلنا بأن الأخشاب فى ذلك العصر تعتبر من المواد الاستراتيجية الحساسة والهامة وقد ذهبت مصر لاستيرادها ، وكلها من الشمال الفينيقي ، ولما كانت أرض كنعان تمثل الحدود الجنوبية بأطرافها القليلة المتذبذبة فان الاستفادة من أخشابها ضئيلة فى كميتها ولم يرد ذكرها - اللهم الا عند ارساء السفن المحملة بالأخشاب على موانئ أرض « الرتنو » - ربما كانت غزو أو العريش - القادمة من الأراضى الفينيقية ومتجهة الى مصر . أما الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعاج فانها بطبيعة الحال غير موجودة فى أرض كنعان أما تلك الكميات التى كانت ترسل منها للملك مصر كتلك التى استلمها تحتسب الثالث من أرض كنعان فهى وان كانت ضئيلة فى كميتها - كما جاء فى رسائل تل العمارنة - فهى مستوردة من خارج أرض كنعان (١٠٠) .

هذه النظرة السريعة لطبيعة ثرواتنا الاقتصادية فى أرض كنعان - ولو أنها جزئية - الا أنها تمثل نماذج واضحة للثروة الزراعية والحيوانية والمواد الخام الزراعية التى لا تختلف عن ثرواتنا اليوم لتوحي وتؤكد رأى من يقولون بعدم تبدل الظروف المناخية منذ آلاف السنين حتى اليوم .

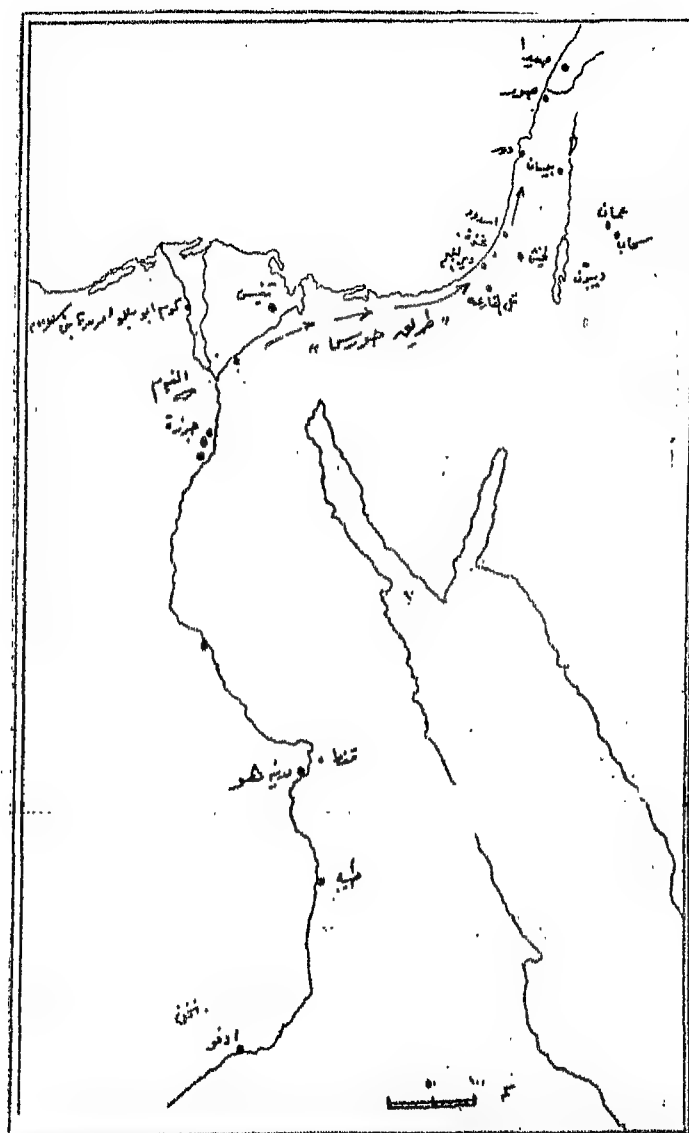
هذه الثروات لم تكن سببا لجذب المصريين لها فالدوافع الاقتصادية للحملات المصرية غير واردة فلم يكن هناك اهتمام اقتصادى واضح تجاه الأراضى الكنعانية ، وان كان هناك هذا الاهتمام فانه محدود ولم يزد عن مجرد تزويد الحاميات العسكرية ورجال الحكم الادارى بمؤناتها مع بعض الهبات الرمزية المرسلة للآلهة .

فالحقيقة أن الأراضى الكنعانية (خاصة الجنوبية منها) ليس لديها ما تقدمه للمصريين الا أقل القليل بحكم ضالة مواردها فى الوقت الذى تتمتع فيه مصر كدولة غنية بشراء زراعى وحيوانى يوصلها لمرحلة الاكتفاء الذاتى ويزيده ، وان كان هناك ما تستورده مصر من أرض الكنعانيين فهو النبيذ والعسل والقار كما جاء ذكره سابقا .

وعليه يمكن تنحية الجوانب والدوافع الاقتصادية المصرية لبلاد كنعان والتوجه نحو أهميتها الجغرافية فى موقعها البينى والحدى بين حضارات تليدة فى الشمال فى أرض الرافدين وشبه جزيرة الأناضول وبين مصر الفرعونية ، يربطها جميعا هذا الجسر الضيق الذى يبدأ من رفح وتل العجول وغزة القاعدة العسكرية التى انصبحت اهتمامات المصريين بها ومعها عسقلان وجوبا « يافا » كقواعد انطلاق تحمى ظهورهم ومخازن تموين احتياطى عند تصديدهم للقوى



خريطة (١٠) خريطة توابع موقع مقبرة دير البطح



خريطة (١١) الموقع الاستراتيجي الهام لمنطقة غزة على الطريق البحري
« أو طريق حورس » « Via Maris »

الحيشية فى الشمال • فلا غرابة أن تدفع المدن الكنعانية الثمن غاليا لقاء موقعها هذا من تدمير وتخريب وحرق ، وكثيرا ما بانث فوق تلالها وبين طبقاتها المحترقة والتي تعود للعصر البرونزى الحديث فى (لحيش - جازر - مجدو : الخ) • مما جلب الحراب عليها وعلى اقتصادياتها •

ومن أحدث الحفريات التى أجريت فى غزة تلك التى جرت سنة ١٩٧٢ بالقرب من شاطئ مدينة دير البلح والتى كشفت عن وجود مقبرة ترجع للعصر البرونزى الحديث عشر فيها على مجوهرات وأوان فخارية وتماثيل صغيرة - وجعارين ومجموعة فخارية كبيرة ميكانيكية الطران وقبرصية ومصرية بالإضافة الى بعض الصناعات المحلية الكنعانية • يبدو أن معظمها كان يستخدم لحزن السوائل مثل التبيذ والزيت والحليب لأن لها غطاء (١٠١) وصفت جميعا بأنها من أغنى الأدوات والأشياء التى عشر عليها فى فلسطين وأكثرها تنوعا. كما لم يكشف النقباب عنه (خريطة ١٠ و ١١) •

أما الأواني الفخارية فترجع جميعها للفترة الواقعة ما بين القرنين الثالث عشر وحتى الحادى عشر قبل الميلاد « سراجات - قدور - جزار » عليها بعض الرسومات ملونة باللون الأحمر وعلى هيئة دوائر وهذا النمط كان شائعا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد كما عشر على « جعارين » أو أختام تحمل ثلاث منها اسم تحتتمس الثالث وواحد عليه اسم أمنحتب الثالث وأخرى تحمل اسم أمنحتب الثانى وتحتتمس الرابع وأمنحتب الرابع ورسميس الثانى وهناك جعران واحد يحمل اسم رسميس الرابع (منتصف القرن ١٢ قبل الميلاد) مما يعكس الفترة الطويلة للسيطرة المصرية والاهتمام بالأراضى الكنعانية (انظر الصور ٩ - ١٢) •

لقد عشر على جميع هذه الأشياء بجوار أكفان فخارية (موميات) تثبت ان هذه المقابر استخدمت ابتداء من القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثانى عشر تقريبا قبل الميلاد (١٠٢) ومنها ما يشبه محتوياته بعض المقابر فى مصر ومنها ما ليس له شبيه فى كثير من المواقع الكنعانية مثل بيسان وتل الفارعة ولحيش والتي تعود لنفس الفترة • وهذا يدل على درجة من التمرکز على طول الساحل الغربى وقلة الاهتمام المصرى شرقا حتى فى نطاق حدود غزة الطبيعية نفسها •

فهذه الأكفان الفخارية لم تعثر على اثنين لها حتى فى « تل الفارعة » الى

I.E.J. Vol. 22, 1972, pp. 65-68.

(١٠١)

I.E.J. Vol. 22, 1972, pp. 65-68.

(١٠٢)

الشرق قليلا . فهي من أقدم ما عثر عليه عن عادة دفن الموتى في فلسطين ، ولم يعثر على شبيهه لها إلا في ثلاث مقابر بالأردن ترجع للفترة الواقعة بين القرنين العاشر وحتى السابع قبل الميلاد أى أحدث من مقابر دير البلح في منطقة « سحاب » جنوب شرق عمان (١٢ كيلو متر) وفي جبل القصر بمدينة عمان نفسها ومنطقة « دبون » وما هو معروف أن عادة دفن الموتى في أكفان فخارية (موميات) بدأت منذ عهد المملكة الوسطى خلال الأسرة الثانية عشرة (١٠٣) .

ان اكتشاف هذه المقابر في منطقة دير البلح يدفعنا للتساؤل عن هم الذين كانوا يستخدمونها ؟ فبالقرب من المنطقة وحتى الآن لا توجد آثار تؤكد أن هناك استقرارا بشريا في صورة مدينة أو قرية حتى يقوم سكانها بدفن موتاهم باستثناء « تل العجول » الى الشمال منها . وعلى ضوء ذلك يمكن وضع عدة افتراضات منها انها اما كانت لكبار الضباط المصريين وكبار رجال ادارتهم العاملين في أرض كنعان .

أو كانت لبعض الكنائس المصرية المتمركزة في المعامل والحصون الكنعانية القريبة مثل تل العجول وتل رفح وتل جمة وتل الفارعة الى الشرق أو لمدينة قديمة داخل دير البلح لم تكتشف بعد خاصة وإن مدينة « الداروم » في الفترة الرومانية لعبت دورا مركزيا هاما ربما قامت على انقاض مدينة قديمة .

وهناك احتمال أخير بأن هذه المقابر كانت لحكام كنعانيين ذوي سلطة اندمجوا في الحضارة المصرية وأخذوا عنها الكثير مع الحفاظ على تراثهم وصناعاتهم المحلية توارثها من بعدهم السكان الفلسطينيين الذين دفنوا موتاهم بنفس الطريقة في أكفان فخارية (١٠٤) . وما بقى في باطن الأرض لهذه المنطقة فهو أعظم وينتظر الدراسة والبحث الجاد .

وهكذا ومع نهاية العصر البرونزي الحديث تنتهى مرحلة من الصراع بين الرعاة والمزارعين أو قل صراع بين الرمل والطين . هذه المعادلة معادلة الصراع بين الرمل والطين ما اختزله السيد « بريستد » في تاريخ الشرق القديم بأسره متمثلة في هجرات الرعاة وغزواتهم ابتداء من الآراميين الكنعانيين بفروعهم والحيشيين وبلاد ما بين الرافدين والحضارة الفرعونية في الجنوب تتوسطهم جميعا أرض كنعان أرض فلسطين . لحصنها جميعا بالصراع بين البر والبحر .

لننتقل بعدها في معادلة جديدة تروى قصة الصراع بين البر والبحر بين الفلاحين والملاحين .

I E.J. Ibid, pp. 71.

(١٠٣)

II E.J. Vol. 22, Ibid, p. 72.

(١٠٤)

الفصل الخامس

العصر الحديدي

- قدام الفلسطينيين واستيطانهم للامكن العربية الكنعانية
- قدام القبائل اليهودية لأول مرة بعد ١٢٠٠ سنة من التوطن العربي الكنعاني
 - تل العجول ثغرا ومصنعا لصهر الحديد
- رفع مازالت موقعا عسكريا حصينا وظهور لابان « الشيخ زويد »
 - سندا لها
- ظهور اله غزة « مارنا » والملك « هانون » الذي قاد الثورة ضد الاشوريين
 -

العصر الحديدي « ١٢٠٠ - ٥٨٦ ق م »

العصر الحديدي القديم « ١٢٠٠ - ٩٣٠ قبل الميلاد »

ان كانت معادلة الصراع بين الرمل والطين قد انتهت بانتهاء العصر البرونزي الحديث ، فقد أتى عصر جديد يحمل معه عناصر الصراع المتفاوتة ، صراع البر والبحر للفوز لا بالموضع فقط من أجل الثروة الزراعية المحلية الغنية ، بل أتى هذا الطمع البحري - البري للفوز بالموضع والموقع معا .

انهم الفلسطينيون القوة البحرية التي قدمت من جز غرب البحر المتوسط لتسبغ على هذه الحقبة لقب « العصر الحديدي » أثبتت لتستقر جنوب السهل الساحلي العربي الكنعاني بعد أن قاموا بمعارك ضارية في الشمال مع الحيثيين وفي الجنوب مع المصريين .

فقد أخبرتنا وثائق رمسيس الثالث ان الفلسطينيين دمروا في معاركهم Alashia ومملكة الحيثيين حتى وصلوا أبواب مصر .

وهكذا برز لأول مرة اسم « الفلسطينيين » على نقوش رمسيس الثالث في العام الثامن من حكمه سنة ١١٧٠ ق م أثناء حملاته العسكرية على أرض كنعان وسوريا (١) .

وأكدت الوثائق المصرية أن الفلسطينيين قدموا بمراكبهم البحرية التي تحمل أسرهم في مجموعات عديدة منها - مجموعة تسمى « بليست Philistines . p-r-s-t نسبة الى « بالستا » إحدى الجزر اليونانية كما أتوا من كريت .

- ومجموعة ثانية تسمى « ثكر » (Sikel) T.K.R. ويبدو أنها قريبة من « صقلية » ومجموعتان قديمان w.s.s s.k.r.s

وقد ظهر اسم الأولى - كما بينا - على نقوش رمسيس الثالث الذي قام بصدهم وهم متجهون لمصر ودمر سفنهم مما دفعهم للاستقرار في أقرب موقع لمصر وهو الجنوب الفلسطيني ، متخذين من مدينة غزة مستقرا لهم وما حولها

A.N.E.Z., pp. 262 and Aharoni, Ibid., p. 245-246.

من مدن عسقلان وجاءت « عراق المنيشة » وعكرومة « عاقر » واسدود متخذين من هذه المدن الخمس «Pentopolice» اتحادا كنفدراليا كنقطة ارتكاز لتنظيمهم السياسى وقاعدة انطلاق أرضية نحو البر والبحر ، فكل مدينة حكمها الذاتى وحاكمها يطلق عليه « سيرين » Seren (٢) ويبدو أن « اسدود » استأثرت بأهمية خاصة لموقعها المتوسط .

ويطفو هنا سؤال لماذا كان التمرکز الفلسطينى فى هذه المدن الجنوبية ؟ لأن هذه المنطقة الجنوبية كانت منطقة ارتطام عسكرى وثورة عارمة تنصدى باستمرار للقوى الفرعونية الغازية من الجنوب فقد شبت نيران الثورة العربية الكنعانية ضد أعنى الملوك الفراعنة تحتتمس الثالث الذى اتخذ من غزة مركزا عسكريا واداريا مرموقا واستمرت البلاد فى حالة من الثورة ضد حلفائه ، المنحوتب الثانى وتحتتمس الرابع ١٤٣٦ قبل الميلاد وولده المنحوتب الثالث الذى استقر الأمن والهدوء لحد ما فى عصره لينتهى عصره ببداية الاضمحلال المصرى فى فلسطين وسوريا وبدأت عناصر الحايرو والشاسو تقلق الأمن وتضعف الحكم العسكرى لتتقضى بعدها القوى المحيرية فى عهد الأسرة التاسعة عشرة على الجنوب الفلسطينى بقيادة سيثى الأول ضد بدو الجنوب ومن ثم يجبرهم على دفع الضرائب ويتخذ من غزة قلعة عسكرية له ، وهكذا برزت اسماء المدن الجنوبية ومنها غزة فى عهد رمسيس الثانى سنة ١٢٠٤ قبل الميلاد .

هذه الضربات المتوالية على الجنوب يبدو انها أضعفت القوى المصرية كما أنهت السكان الأصليين الممثلين فى العرب الكنعانيين الذين ظلسوا محتفظين بكيانهم القومى رافضين للاحتلال مما هيا هذا الضعف والتخلخل الفرصة للفلسطينيين للاستقرار فى منطقة الضعف هذه والبعيدة عن بؤر الحضارات فى شمال مصر وشمال سوريا فاستوطنوا هذا الشريط الساحلى المنتصق بالبحر . كان هذا أول تأثير لقوة بحرية على الساحل الكنعانى مع نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقبلها كان هذا الشريط الساحلى تحت السيطرة المصرية القلقة متخذة من غزة ويافا قواعد لحمايتها العسكرية تسيطر بها وتتحكم على أعظم ممر برى عسكرى وتجارى فى ذاك العالم بالاضافة الى قاعدة بيسان العسكرية فى الداخل .

فقد ورد فى احدى قوائم رمسيس الثالث التى أشارت الى مجموعة من المدن الفلسطينية بلغ عددها ثمانية فى « حورو Huru - فيها غزة ، واكتشف فى عسقلان معبد مصرى للاله « بتاح » أيام حكم رمسيس الثالث

الذى أتاح تدهوره المجال لتوسع النفوذ الفلسطيني فى عصره فبدأ عصر الثراء الحضارى والتكنولوجى لمدينة غزة وما حولها ، من مواقع استراتيجية بشكل مكثف فكانوا أول من انتقلوا وارتقوا من مرحلة البرونز الى عصر الحديد ، ليبتوها فى أرجاء المدن والمواقع فقد عثر على أوان فخارية عليها التأثيرات الايجابية والمكانية فى تل جمة كما عثر فيه على خوذ وكؤوس فلسطينية ترجع لسنة ١٣٢٠ قبل الميلاد ولسنة ١١٦٠ ق م وبين طبقات تل الفارعة اكتشفت قبور فلسطينية يرجع عهدها للفترة الواقعة ما بين سنتى ١٣٢٠ - ١٠٥٠ قبل الميلاد والتى عثر عليها فلندرز بترى وزميله سبتاركي وهاردنغ سنة ١٩٢٦ . كما تم العثور بالقرب من شاطئ دير البلح سنة ١٩٧٢ م على أوان فخارية وأدوات ترجع للعصر الفلسطينى عليها التأثيرات الايجابية والمكانية لتوضح التأثير والاتصال مع جزر جنوب أوروبا . وحول مدينة غزة عثر على كثير من الحفر كانت تستخدم لحزن الحبوب وشحنها الى ما وراء البحر أيام الفلسطينيين الذين كانوا محاربين أشداء استخدموا الخوذ النولاذية والدروع والسيوف والسهام والنبال كما ابتدعوا فى صناعة الأدوات الزراعية فصنعوا المحراث الحديدى والأدوات المنزلية .

فكانت غزة وما حولها المدرسة الأولى التى استقبلت واستوعبت هذا المنهاج الحضارى والتكنولوجى ليمولها بالشراء ويمنحها القدرة على البقاء والصمود .

بدأ الإشعاع والاحتكاك الحضارى الفلسطينى بالتفاعل مع الحضارة الكنعانية ينتشر الى جيرانهم فى الشمال وهم « الفينيقيون » المتمركزون فى منطقة ساحلية يفتقر ظهرها للمقومات الزراعية الوفيرة فجاء التشجيع الفلسطينى للفينيقيين حافزا لايجاد مصدر رزق آخر وذلك بحفزهم للتوغل فى عمق البحر المتوسط مما خلق لهم قوة بحرية لأكثر من ألف سنة أنتجت عائدا هائلا من الحضارة والثراء للبشرية .

ويمكننا الآن أن نتخيل الخريطة السياسية الفلسطينية التى أصبح يتقاسمها الفينيقيون فى أطرافها الشمالية كمجموعة عربية كنعانية استوطنت الساحل والشمال الفلسطينى ، تساندها وتحفز لها فى الشمال القوة الحيثية . والفلسطينيون على طول الساحل الفلسطينى الجنوبيين بعمق يصل حتى أقدام السفوح الجبلية الوسطى شرقا . أما المنطقة الجبلية الوسطى فتمركزت فوقها القبائل العربية الكنعانية التى أشادت مدنها وحضاراتها ممثلة فى مدنها « نابلس ويبوس » (القدس) واستوطنتها اليبوسيون « وأربع » (الخليل) ،

الذى أنشأها القائد العربى العنلقى الكنعانى « أربع » • وقد تسلمت ولأول مرة فى التاريخ قبائل عبرانية عبرت نهر الاردن بقيادة يوشع سنة ١١٨٦ قبل الميلاد كما يرى بثرى • وأخذت تتحفز للفلسطينيين والكنعانيين جنوبا القوة المصرية •

ولما لهذه القبائل العبرانية من دلالات فى المنطقة علينا أن نتذكر بأنها قدمت للمنطقة وقد سبقتها حضارة عربية كنعانية استغرقت من التاريخ المدون أكثر من ألفى عام أنشأت فيها المدن وحفرت الآبار وزرعت القمح والشعير والأعشاب ، وسبقها التواجد الفلسطينى غربا بحضارة وافدة أثرت المنطقة حضاريا وادخلت العرب فى قلوب من حولها عسكريا •

فبماذا أمدت القبائل العبرانية المنطقة وما دورها فى ازكاء الحضارة ؟

على الرغم من التناقضات بين ما جاء فى « التوراة » وما أثبتته الدراسات الأركيولوجية وبالرغم من معرفتنا المسبقة عن أن كتابه التوراة قد نسخت بعد قرون من فقدانها وفقا لما يذكره بعض رجال الدين من اليهود مما يجعلنا أكثر تحفظا للأخذ بها كمرجع • الا اننا سنأخذ بما جاء بها للرد على السؤال المتضمن لدور القبائل العبرانية التى دخلت المنطقة الجبلية الوسطى من فلسطين •

بعد أن دخلت هذه القبائل بقيادة يوشع بن نون الأراضى العريضة الكنعانية مستخدمة وسائل التدمير والحرق للزرع والضرع ولم تقو بعدها على دخول المدن الكنعانية بل أثرت حياة العزلة والتنقل حول المدن وليس بداخلها لعدم قدرتها على التأقلم مع سكان المدن فى ييوس « القدس » وأربع « الخليل » وكانت ترى فى هذه المدن بأنها مدن عربية « فيفضلون سكنى الهوامش والظهير المدنى فيما يطلقون عليه « الحقل » التى كثر ذكرها فى التوراة دون دخول المدن • (وفيما هم عند ييوس والنهار قد انحدر جدا قال الغلام لسيده تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها فقال له سيده لا نميل الى مدينة عربية حيث ليس أحد من بنى اسرائيل هنا ») « قضاة ١٩ : ١١ - ١٢ » هذا ما جاء فى التوراة •

هذا الابتعاد من القبائل العبرانية لسكنى المدن الكنعانية يعكس التباين والتنافر فى المستوى المعيشى بين الحياة البدوية وحياة الاستقرار والحضارة المدنية ، فبدأ انتشبارهم وسياحتهم فوق المناطق الجبلية الوسطى من « دان الى بئر السبع » قضاة (٢٠ : ١ - ٢) ولم يتعد هذا المجال ولم يتجرأوا على الاقتراب من الساحل الفلسطينى (« وجاء يوشع فى ذلك الوقت وطرد العنقايين من الجبل من حيرون ومن دبير ومن عناب • فلم يتبقى عنقايون فى أرض اسرائيل لكن بقوا فى غزة وجت واشدود ») يوشع ١١ : ٣٠ « لماذا ؟

لأن القبائل العربية العنقائية الكنعانية قوم أشداء فلم يستطيعوا ملاحقتهم والسيطرة على مدينة غزة على الرغم من وجود هذه القبائل حتى أثناء التواجد العبراني كما سيوضح ٠٠ لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على غزة وما جاورها فتقول التوراة (لقد كان الاله يهوذا الذي سيطر على المناطق الجبلية ولم يستطع قيادة سكان السهول لأن لديهم مراكب حديدية ») قضاة ١ : ١٩ . فاتجهوا بالتالي نحو الشرق لاقامة علاقاتهم مع من في مستواهم ليقاتلوا المديانيين ورؤساءهم « عدد ٣١ : ٨ » كما حاربوا العمالة كقبائل عربية امتازوا بكثرة عددهم (لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويحيثون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد) قضاة ٦ : ٦ « حتى شملت مناوشاتهم شرقا قبائل بنى عمون » قضاة ٣ : ١٤ .

وعلى هذا الحال من القتال والمناوشات عاشت القبائل العبرانية قرابة قرنين من الزمان مع القبائل العربية بفروعها المختلفة شرقي المناطق الجبلية وجنوبها - تسلم خلالها داود العرش سنة ١٠١٠ ق م - كانت استمرارا للقتال ، وطيلة هذه المدة لم تستترع هذه المعارك أو المناوشات المحلية انتباه القوة الفلسطينية على الساحل كقوة عظيمة لأن هذه القبائل لم تكن ذات ثقل عسكري يستحق الاهتمام . فهم أى الفلسطينيون منكبون بالاهتمام التجاري والعسكري وهم الآن المسيطرون على مدينة غزة وعسقلان حتى الكرمل ٠ وأخذوا يعززوها بالقلاع والحصون لمواجهة بعض المناوشات القادمة من الشرق أحيانا . ولكي يستفيدوا من موقعهم التجاري وما يفرضوه من ضرائب على السلع من تجارة المرور » .

وإذا كان الفلسطينيون لا يملكون أية ثروة من تجارة المرور والبحر المتوسط ، فمن أين المصادر المالية التي مكنتهم من تحصين مدنها ومنحتهم هذه القوة العسكرية الجبارة ١٩ . خاصة وان موارد الثروة الطبيعية المحيطة - قليلة ، فبالطبع كانت التجارة والصناعات الحديدية التي باعوا منها لما حولهم من القبائل . ولما كان المصريون مهتمين بالطريق الساحلي الذي هو مجالهم الحيوى تجاريا وعسكريا ويربطهم بالأمم في الشمال فربما استطاعوا اغراء الفلسطينيين بالعمل معهم لتأمين هذا الطريق فكان حسن الجوار والمعاملة لأننا نرى أن معظم الآثار الفلسطينية جنبا الى جنب مع الفرعونية في غزة - ودير البلح وتل جمه وتل الفارعة ورفح ويافا وجازر ومجدو حتى بيسان كاهم قواعد كنعانية - مصرية - فلسطينية على طريق الساحل وبالقرب منه .

ومع انتهاء القرن الحادى عشر قبل الميلاد كانت الخريطة السياسية لفلسطين تنقسمها قوتان هما الفينيقية في الشمال والفلسطينية في الجنوب ويسودهم جو من حسن الجوار فلم يتدخل الفينيقيون في جو العلاقات

الفلسطينية المصرية ولم يتوسعوا في اتجاه الاراضى الفلسطينية جنوبا وبادلهم الفلسطينيون بدورهم بعدم التدخل في شئونهم التجارية والبحرية فقد وصل النشاط التجارى والبحرى الفينيقي شمالا حتى اللاذقية والاسكندرية وانتشرت جالياتهم التجارية فى الموانئ الفلسطينية فى غزة والعريش « ونيوكولورا » جنوبا بل لقد كانت لهم جاليات فى « منف » العاصمة المصرية (٤) .

ويبدو أن منطقة « دور » وهى « الطنطورة » الساحلية كانت تمثل الحد الفاصل بين الفلسطينيين والفينيقيين ممتدة من شمال ومن جنوب المدينة كم منطقة عازلة . وكانت تكتنفها الرمال والأحراش والمستنقعات مما حدا بالطريق الساحلى للمرور شرقها ، حتى ان بعض القبائل العبرانية عندما حاولت الاقتراب من هذه المنطقة اصطدمت فوراً بالفلسطينيين فى معركة « أفيق » « صموئيل الأول ٢٩ : ١ » والذى انتصر الفلسطينيون عليهم كحد فلسطينى على أرض الكنعانيين مع الفينيقيين فالعلاقة اذا ما زالت غير جيدة بين الفلسطينيين والقبائل اليهودية التى لم تحدث أية تغييرات ذات أثر ولم تصل للساحل (٥) حتى فترة حكم داود لها . ومما هو جدير بالذكر هنا ولتوضيح ذلك أكثر ظهور اسم « اسرائيل » لأول مرة فى عصر مرفتاج ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م على لوحة منقوش عليها هذا الاسم عثر عليها فى « طيبة » وصفت فيها اسرائيل بأنها « بغير بذور No Seed فى الوقت الذى أطلق على أرض فلسطين وسوريا وعلى نفس اللوحة أرض الحورو « khor » فقد درجت الكتابة الهيروغليفية أن تضع قرين كل اسم صورة أو رسم للأرض الذى يعيش فوقها فعندما كانت تذكر سكان الجبال تضع صورة لاناس وأمامهم صورة للجبال أو رسم لأرض سهلة أمام أناس للكناية بأنهم سكان سهول

ولكن عندما جاء ذكر اسم « اسرائيل » لم يلحق أمامها سوى رسم لرجل وامرأة فقط دون رسم لأرض . للدلالة على اناس كانوا يعيشون متنقلين لا أرض ولا ملكية لهم فقد جاء على النقش تلك القصيدة :

(ونهبت كنعان بكل بسوء . . . وأخذت عسقلان وقبضت جازر (٧)
وجعلت يانو عام كان لم تسكن . . . واسرائيل ضربت وانعدمت بدورها)

(٤) د. محمد غلاب - الشكل الفينيقي وظهيره - بيروت ، ١٩٦٩ ص ١٦

I.E.J., Vol. 6, 1956, p. 39. (٥)

P.H. Newby, The egyptian story, Italy, Abbeville Press, p. 55. (٦)

Pritchard, Ancient Near East Text Relating to the old Testament, (٧)
princeton, 1929, p. 378.

وفى عهد من افتتاح هذا جاء ذكر مدينة غزة ضمن مذكرات ضابط حدود
جاء فيها : -

(A servant of Ba'al 'e'ti-y' The son of Sa-pu-ira of Ga-sa-y)

لقد أتى سليمان بعد موت أبيه داود ليضع لنفسه وقبائله عنصرا أكثر
أمانا وهدوءا (وكان له صلح من جميع جوانبه حواليه) « الملوك الأول ٤ : ٣٥ »
فاستطاع أن يستغل موقعه الوسيط فوق المرتفعات واتخذ من هذا الموقع
الجغرافى منطقة عبور للقوافل التجارية المارة بجمالها بين الفينيقيين
وأرض الرافدين من ناحية وبين الأمم والممالك الجنوبية عبر البحر
الأحمر . الا أننا لا نستطيع أن نرسم صورة واضحة عن التجارة فى عصره
لنبن أن نقيم فعاليتها الاقتصادية ومدى رواجها فمن النادر جدا ان نرى فى
التوراة اهتماما واضحا للجوانب الاقتصادية أو التجارية باستثناء ذكر -
وبأسلوب عرضى - بعض القوافل التى مرت بفلسطين متجهة نحو مصر وأخذت
معها يوسف « تكوين ٣٧ : ٢٥ - ٥٨ » وما قدمه سليمان من قمح وزيت للملك
الفينى « حيرام » عندما رفض الأخير أن يأخذ ذهباً مقابل ما أنجزه. خبراؤه
(فى بناء بيت الرب وبقية القلعة وسور اورشليم وحاصور ومجدو وجازر)
« الملوك الأول ٥ : ١٠ - ١١ » ونجح سليمان فى استغلال موقعه الجغرافى
بين الحيثيين فى الشمال والمصريين فى الجنوب فى تبادل الحبوب والعربات
« الملوك الأول ١٠ : ٢٨ - ٢٩ » . كما كانت له صلة بمملكة سبأ التى أتت
له بالذهب والطيب والحجارة الكريمة « الملوك الأول ١٠ : ١ » على الرغم من
عدم وجود أدلة كافية لتوضيح أو تقدير نوع هذه الصلة وكما ، وهل هى
صلات قائمة على الاعجاب الشخصى بين ملكة سبأ وما تسمعه من حكمة سليمان
وقدراته الفائقة أم هى علاقة تجارية محضة بين مجموعتين من السكان ؟

كما حاول سليمان إقامة سفن له فى ميناء عيصون . جابر . « ايلات » على
شاطئ بحر سبوت (البحر الأحمر) الواقعة ضمن الأراضى العربية الأدومية
بمعونة (الفينيقيين الذين أرسلوا عبيدهم البنواتى العارفين بالبحر) « صموئيل
٩ : ٢٦ - ٢٨ » لعدم توافر الخبرة والدراية اليهودية بركوب البحر وصناعة
السفن .

ندرك من كل هذا أن الصانع الوحيد لهذا الازدهار السليماني هو « حيرام الفينيقي » بما يمتلكه من خبرة وطاقت مدربة لها جذورها العميقة في التاريخ .

كما نرى ان فترة حكم كل من داود وابنه سليمان تميزت بعدم السيطرة على المدن الفلسطينية وبصفة رئيسية على غزة وحتى جازر التي كانت هدفا للغزوات الفرعونية . وربما كان للمصاهرة بين فرعون مصر وسليمان الأثر في عدم توغل الحملات المصرية نحو الداخل في اتجاه المنطقة الجبلية الوسطى أكثر من التفسير القائل بأن المصريين لم تكن لديهم القوة الكامنة للتغلغل نحو مركز سليمان بل هناك قول بأن سليمان استنجد بالمصريين ضد المتمردين الكنعانيين في « جازر » على الرغم من أنها حصنت على يد الفينيقيين مما جعلها تلعب الدور الحدودي ، بل قام أحد الفراعنة بتقديم قلاع جازر الكنعانية هذه وتحصيناتها هبة لسليمان ، وهذا يعتبر أول تدخل في الشؤون الداخلية الفلسطينية منذ عهد رمسيس الثالث (٩) .

وعليه لم تصل القبائل اليهودية المنهكة الى الساحل الكنعاني والفلسطيني قط وبقيت هذه المدن الساحلية تنعم بتجارها .

وبموت سليمان انقسمت هذه القبائل اليهودية على نفسها لتتمركز احداها في الشمال ٩٣٠ - ٧١٢ ق م والآخرى في الجنوب ٩٣٠ - ٥٨٦ ق م . وهذا يقودنا لرحلة أخرى جديدة من العصر الحديدي .

العصر الحديدي الوسيط والتحديث ٩٣٠ - ٥٨٦ قبل الميلاد .

تعرضت فلسطين لحملة شيشنق سنة ٩٢٦ قبل الميلاد في السنة الخامسة من انقسام القبائل اليهودية على نفسها مما دفعه للتوجه نحو المناطق الداخلية ولأول مرة - تذهب فيها القوة الفرعونية نحو المناطق الجبلية التي لم تغز قط من قبل أي فرعون سابق ، وربما يرجع ذلك لمكانتها التي تبلورت أيام سليمان كطريق جديد يربط الشمال بالجنوب نحو ميناء « عصيون جابر » الأدومي كمنفذ نحو البحر الأحمر ومن خلفه الممالك العربية بحيث أصبح ممرا وطريقا ينافس الطريق الساحلي التقليدي (طريق الفرعون أو حوريس) .

فمن خلال تتبع سير الحملة والتي يرى السيد Meyer أنها لا تقل عن كونها « غارات » على النمط القديم أكثر منها احتلالا (١٠) ونرى المدن التي ذكرها في حملته ومنها غزة التي جاء اسمها على الجدار القبلي لمعبد الكرنك

Meyer, Ibid, p.. 33.

(٩)

Meyer, Ibid, pp. 33.

(١٠)

كأول مدينة استولى عليها لتوضيح مكانتها الاستراتيجية والتي يبدو أنها لم تبد أية مقاومة ضد المصريين لتواصل من بعدها الحملة نحو مدينة جازر الحدودية ولتخرج منها الحملة متوجهة نحو « القدس » وأخرى اندفعت شرق غزة (أنظر الخريطة رقم ١٢) مستهدفة بذلك ضمان السيطرة على الطريق الجبلية الوسطى في فلسطين ومن ثم قطع دابر المواصلات الداخلية المتجهة نحو البحر الأحمر والقضاء على كل تجارة تتخذ من هذا الطريق ممرا لها .

فقد دلت الحفريات التي قام بها Clueck « جلوك » على مدى ما عاناه ميناء عصيون جابر (ايلات) من التدمير في القرن التاسع قبل الميلاد (١١) بعد فترة من الانتعاش التجاري الفينيقي حيث كانوا يجلبون الملابس الأرجوانية والزجاج والحلي بالإضافة لشهرتهم الفاتكة في صناعة الصوف والنييد والزيت في الشرق دون منافس (١٢) . فدمرت الحملة الميناء وقطعت الطريق واستولت على القدس وخزائنها السلিমانيّة « الملوك الأول ١٤ : ٢٢ - ٢٥ » .

ومما جاء من أسماء حملة شيشنق لأول مرة مدينة لابان « Laban » جنبا لجانب مع رفح ويبدو أن لابان . هذه تقع بالقرب من الشيخ زويد الآن على « تلة أبو سليمة » . والتي أجرى الحفر فيها فلندرز بترى (١٣) ، وذلك لتعزيز المكانة العسكرية للمصريين في سيناء التي تمصرت منذ الأسرة الحادية عشرة (١٤) . فأصبحت تمثل نقاط دفاعية في العمق . وسندا - كما سنرى - للمدن العربية الفلسطينية وبوجه خاص رفح وغزة .

وحتى الآن نجد مدينة غزة تحتفظ بكامل سماتها العربية الكنعانية الفلسطينية فما زالت الأرض الفلسطينية وأبرزها غزة وصيدا وصيدا فلسطينا زاخرا وثرىا فهي من المدن الواقعة في الجنوب والقريبة من مصر الفرعونية التي تواءمت مع الفلسطينيين بحسن الجوار وتوطيد العلاقات الاقتصادية بحيث أسند الفلسطينيون ظهورهم جنوبا وهم مطمئنون ، فلم يعد هناك مصدر للقلق الا ووجته الشمال أو مصدره الشرق من بعض القبائل اليهودية .

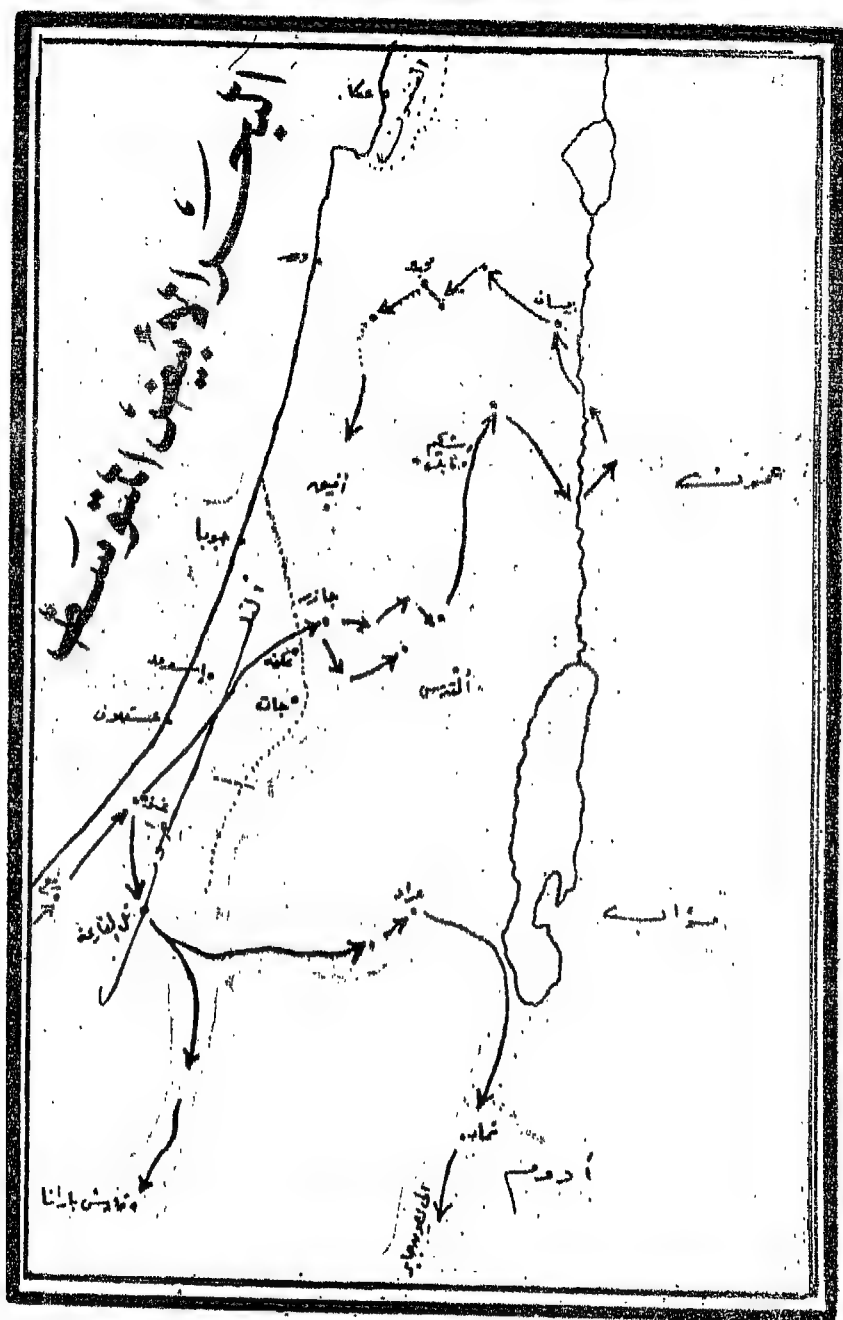
فحدود السيطرة الفلسطينية ليس من السهل تحديدها بحدود جغرافية ثابتة لأنها كانت دوما عرضة للمد والجزر مع القبائل اليهودية شرقا والتي لم تجدهم لحرصهم على الاحتفاظ بالطريق التجاري والعسكري الساحلي الهام

(١١) N. Glueck, The other, Side of Jordan, New Haven, 1945, p. 99.

(١٢) Raux, Ancient Iraq, ibid, p. 244.

(١٣) W. M. Flinders petri, Anthedon, London, 1937, and ANET, p. 286.

(١٤) غالى - سيناء المصرية عبر التاريخ - المرجع السابق ص ٧٠ .



خريطة (١٢). حملة شيشنق / ٩٢٤ قبل الميلاد

ولما أبداه المصريون من اهتمام له مما دفعهم أن يتفقدوا مع الفلسطينيين للاهتمام به :

لكن مما لا شك فيه ان هناك منطقة جغرافية ثابتة تميز بها الاستقرار الفلسطيني بشيء من الثبات لتضفي دلالة على قوتهم وقدرتهم الدفاعية ممثلة في السهل الساحلي الجنوبي لأرض كنعان ابتداءً من رفح وغزة وحتى «استدود» مما أضفى على مدينة غزة صفة الاستمرار والبقاء .

ولعل انتشار الأواني الفخارية وبعض الأدوات الفلسطينية ما يوضح مراكز تواجدهم فمن خلال المسح الذي أجراه السيد «أولبرايت W. F. Albright» في منطقة قريبة من «عراق المنيشة» أثبت أن هناك مدناً ترجع للعصر الحديدي الفلسطيني أقيمت فوق تلال بسيطة (١٥) . كما عثر على قدوة فخارية فلسطينية على السفوح الغربية لهضبة الخليل في خربة «سكة» لتبدل على مدى توغلهم شرقاً كما تم العثور على أوان فخارية فلسطينية في «تل الحسي» في الطبقة الثالثة منها (١٦) وإلى الشمال فقد تم التنقيب والعثور على مدينة كانت بمثابة ميناء فلسطيني صغير تقع على الحافة الشمالية لنهر «العوجاء» (*) كما تؤكد الآثار على التواجد الفلسطيني في مدينة أفيق (١٧) وانتشارهم شمالاً فتأكد وجودهم من خلال آثارهم في بيسان . وجنوباً تم العثور أخيراً على توابيت وأواني فخارية فلسطينية بالقرب من شاطئ ديزن البلح كما سبق أن ذكرنا آنفاً «وتعزز الوجود الفلسطيني في المواضع القديمة شرقاً في تل الفارعة وتل جمه في بئر السبع شرقاً» . بل ويقال أن أبيمالك الفلسطيني اتخذ من تل جمه «جيرار» عاصمة له . ولقد عثر على قبور فلسطينية في تل الفارعة فالقوة الفلسطينية كانت كفيلاً يحفظ تواجدها فوق هذه الساحة فالجندى الفلسطيني تميز بقوته وتقدمه في استخدام أدوات القتال الحديدية وتزويده بالحدود والدروع والأسلحة الحديدية والنحاسية والملابس العسكرية التي كانت تلمق الرعب في نفوس اليهود كما جاء في التوراة «صموئيل ٧ : ١ - ٨» .

استطاعت غزة في الفترة الفلسطينية أن تصل إلى ذروة مجدها الاقتصادي والعمراني حتى قيل إنه تم تسويرها بسور ضخيم يحيط بها حتى اضحى اسمها يعني كل الأرض الفلسطينية كما جاءت في قائمة شيشنق ، فكثيراً ما كانت تبدي الولاء والطاعة للمصريين أكثر مما تقاومهم .

W. F. Albright, A.A.S.O.R., 2-3, 1923, p. 11.

(١٥)

Aharoni, Ibid, p. 247.

(١٦)

B. Mazar, I.E.J. 1950, 51, pp. 61.

(١٧)

(*) نهر صغير يطلق عليه نهر يافا وينبع من رأس العين شمال شرق مدينة يافا بعشرين

كيلومتراً .

أما تل العجول • فيبدو أنها حافظت على مكانتها في عصر الفلسطينيين فقد عثر بترى على « محرقة » لصهر الحديد فيها تماما كما وجد في عديد من المدن الفلسطينية خاصة فوق تلك الواقعة على نهر العوجاء • ووجود هذه المحرقة في تل العجول يدفعنا للتساؤل عن مصدر الحديد الخام والأخشاب المستخدمة لصهره من أين كان يؤتى بها ؟ خاصة عندما يؤكد العلماء بأن كل طن من الحديد يحتاج لصهره اثني عشر طنا من الأخشاب •

فالحديد ربما كان يجلب من الجنوب في وادي عربة وسيناء فالعلاقة قديمة بين تلك المناجم بسيناء والجنوب الكنعاني وبين الفينيقيين كما وضعنا سابقا واستمرت كذلك مع الفلسطينيين •

أما الأخشاب فمصدرها الساحل الفينيقي والتي كانت لهم جالياتهم المنتشرة في مدن السواحل ومنها غزة لكثرة أمطارها عن الجنوب الفلسطيني فاستورده الفلسطينيون اما عن طريق البحر أو البر فتجارة الأخشاب بين الفينيقيين في الشمال وسكان الجنوب الكنعاني أو المصريين كانت رائجة لما بعد ذلك وحتى العصر البيزنطي كما أثبتته الآثار الموجودة على ساحل مدينة غزة •

يؤكد هذا مكانة « تل العجول » كمنشأة فلسطينية وقلعة حصينة تمولهم بالصناعات المختلفة مثل « المحراث الفلسطيني » لحراث الأرض (١٨) •

يتبقى لنا سؤال لماذا لم يكن في غزة محرقة ؟ والجواب يبقى معلقا للقصور والنقص في الحفر والدراسة الأركيولوجية في داخل المدينة أو ما حولها حتى الآن • وربما كانت تل العجول ملحقة بغزة وتغنيها عن هذه الصناعة بما تقدمه لها •

أما رفع Raphiku فيبدو أنها تبلورت كمدينة حصينة لها الطابع العسكري المتقدم والتي تلعب دور المدينة الدولة ذات المسحة الدفاعية على النسيق الأوروبوليسي حيث احتلت تلة مرتفعة يقرب مساحة قممتها أقل قليلا من ٢٠٠ متر مربع مزدهرة بالعصر الفلسطيني ومما أثيرى هذا الازدهار انشاء مدن مصرية قريبة منها بدأ اسمها يقترن مباشرة معها وهي مدينة « لابان » Laban التي أشرنا اليه مع حملة شيشنق •

بدأ هؤلاء الفلسطينيون في الدوبان داخل البوتقة العربية الكنعانية ذات التراث المكين مثلهم مثل الأمم السابقة فتأثروا بالحياة العربية الكنعانية

فأخذوا أسماءهم وتدينوا بدياناتهم وأخذوا يعبدون الههم « داجون » فأصبحوا كنعانيين دما ولحما ولم تبق سوى بعض النظم الادارية والسياسية ذات الطابع الفلسطيني .

الغزو الأشوري :

مع نهاية القرن التاسع قبل الميلاد وبداية القرن الثامن تعرضت البلاد للغزو الأشوري يحدوهم السيطرة على هذا الممر الاستراتيجي الهام الواصل بين مراكز القوة والسيطرة العالمية وتغريهم موارده ومدخولاته الثمينة والتي عبرت عنها قوائم الضرائب التي دفعتها مدن الوحدات السياسية - اذا جاز التعبير - أو شعوبها بنظامها القبلي فاستولى القائد الأشوري Adad-Nirari ٨١ - ٧٨٣ قبل الميلاد « ١٩ » على المنطقة فقدم له الفلسطينيون والأدوميون والفينيقيون والقبائل اليهودية الضرائب وهي جميعا قبائل عربية استوطنت فيها القبائل الأدومية أراضي النقب وحتى البحر الأحمر وشمالا حتى مرتفعات البحر الميت فقد وصف ميناء عيون جابر على خليج العقبة في عهد سليمان بأنه في أرض الأدميون « الملوك : ٢٦ - ٢٨ » .

واستمرت هذه الأقوام فوق هذه الأرض مع مطلع عام ٧١٤ قبل الميلاد عندما استولى « تفلات بلاسر » Tighate Plsser على مدن عديدة متجها نحو غزة وكان ملكها يدعى « حانو » Hanno والتي هي من أغنى المدن الفلسطينية لموقعها الجغرافي الذي جلب لها الدخل الوفير ولأهميتها بالنسبة للقبائل العربية فلم ينتظر « حانو » قدوم الأشوريين بل هرب الى Musri التي يقال بأنها مصر « ان لم يكن مكان يقع شمال شبه الجزيرة العربية » (٢٠) فنقل الأشوريون من غزة إليها وأخذوا في جباية الضرائب والمجزية معسدا إياها فقد جاء في أحد النقوش ما يلي : -

أخذت الجزية من سييتي بيل (بل) من بيبيلوس ومن أينل من حماة ، وفاناسو من سمأل (مملكة آرامين) وما تنبي من أرواد ويهوه هادي من يهوذا ، آدوما « أدوم » وهانو وتو (هانو) من جازا (غزة) [(٢١) توزيع جغرافي لجميع الوحدات السياسية في المنطقة وانفراد غزة هنا يعني مدى أهميتها كوحدة تحمل اسم فلسطين ولعله من الطريف هنا أن نذكر بعضا من قائمة البضائع التي دفعتها غزة كضرائب منها « الذهب والفضة والحديد

Raux, Ancient Iraq, Ibid, p. 373.

(١٩)

Meyer, Ibid, pp. 34-35.

(٢٠)

(٢١) الشيخ نسيب وهيب الحازن - من الساميين الى العرب - بيروت - ١٩٦٢ ص ١٥٤ .

والرصاص وملابس ملونة وأوعية فخارية ومن منتجات البحر (الأسماك)
ومنتجات البر - وخيول - وأسرجة لها ٠٠ الخ » (٢٢) لتبرز جميعها المكانة
الاقتصادية للمدينة والشراء الذي كانت تنعم به .

فى هذه الأثناء وصلت القبائل اليهودية فى الشمال (فى نابلس) الى
حد الاحتضار لأن هذه القبائل كانت تعيش على هامش مناطق الشراء فى الساحل
وفتتها التناحرات الداخلية فيما بينها ، وكان مركز الثقل السياسى والقومى
متمثلا فى النطاق الساحلى الجنوبى فى غزة وعسقلان ورفح التى قاومت بشدة
الاحتلال الآشورى فقد شكل كل من أمير غزة « حانو » الذى عاد من بعد
فراره الى غزة ليشكل وحدة مع أمير عسقلان للتصدي لسرجون الثانى ٧٢٢ -
٨٢١ ق م . ثانية ربما كان يؤازره أيضا « سايبى Sibi » ملك مصر ؟
Musri فجميع المدن الفلسطينية قد تعانقت لقهر الغازى الآشورى باستثناء
القبائل اليهودية فى جنوب المرتفعات الوسطى التى بقيت راضية للسيطرة
الآشورية فبادر سرجون وبسرعة قبل تبلور التجمع الفلسطينى وهاجمهم حتى
وصل الى أقصى الجنوب الفلسطينى ليقابل « هانو » وساييبى فى مدينة
رفح Raphiku لينتصر عليهم فتتمكن من الفرار الى ببلاده فى حين أسر
حانو أمير غزة وأرسل الى آشور ونقل الى غزة الى الخارج مرة ثانية .

ويبدو أن غزة ورفح لم ترضيا بهذا الاحتلال فعادتا الثورة من جديد
لتأخذ دور الثقل الثورى ضد الغزاة القادمين من الشمال وربما ساندتهما
وأيدهما فى ذلك قرب التواجد المصرى لها فى « لابان » (القرية من الشيوخ
زويد الآن) .

فعاد سرجون الثانى مرة ثانية لمدينة غزة ورفح ٧١٣ - ٧١٢ قبل الميلاد
فدك المدينة وقام بتدمير معظمها ليحجر السكان على الخروج مما دفع أميرها
« ايمانى » الى الفرار الى مصر ظهيره السياسى (٢٣) لتبدأ من بعد ذلك سلطة
الآشوريين فى الاستقرار فنقلوا جميع أختام غزة الذى أطلق عليها اسم «مارنا»

ومات سرجون سنة ٧٠٥ قبل الميلاد ليخلفه ولده « سنحاريب » وبمجرد
اعتلائه على العرش قام الفلسطينيون بثورة ضده وعلى رأسها مدينة غزة
واشتعلت حتى وصلت الى عقر داره فى بلاد الرافدين فأحمد جميع المتمردين
فى بلاد الرافدين ليتجه نحو الفينيقيين حتى عكا واصفا جميع هذه المدن بأنها
كانت محصنة ويقودها ملك « صيدا العظيمة » حتى وصل سنة ٧٠١ قبل
الميلاد الى الساحل الفلسطينى الجنوبى فاستولى على عسقلان وأسر ملكها

Meyer, Ibid, pp. 35.

(٢٢)

Raux, Ancient Iraq, ibid, p. 202.

(٢٣)

« صدقا » Sidqa ليتجه بعدها الى غزة ومن بعدها شرقا للهضاب الوسطى نحو القبائل اليهودية فأسلم زمام أمرهم الى ملوك غزة وأسودود وعافر فكانت هذه الضربة هي بداية النهاية لتقويض القبائل اليهودية منهاكا اياها بالضرائب الباهظة التي قدرت بنحو ٣٠٠ وزنة من الذهب و ٨٠٠ وزنة من الفضة بالاضافة للمجوهرات (٢٤) . يبدو من ذلك أن الأشوريين كان اهتمامهم منصبا على جمع الضرائب دون الالتفات كثيرا نحو الجوانب السياسية أو الادارية بحيث لم يطرأ على الخريطة السياسية الفلسطينية أية تغيرات ، كما أنهم كقوة برية لم يستغلوا البحر كوسيلة للمواصلات وبالتالي بقيت غزة وما جاورها مدنا طغى عليها الجانب العسكري . ومما يجذب الانتباه ظهور اسم « مارنا » لأول مرة في هذه الفترة مقترنا باسم غزة فربما مرد ذلك لوجود تماثيل أو آلهة للمدينة تحمل هذا الاسم - كما سنرى - وقد أطلق على ميناء غزة في الفترة الزوانية اسم « مارنا » . فهل يعنى ذلك أن منشأ هذا الميناء بدأ في القوة الاشورية التي هي قوة برية لم تلبثت للبحر ؟ هذا ما سنوضحه في حينه .

أشارت الوثائق الاشورية بأن سنحاريب قد قتل عام ٦٨١ قبل الميلاد ليخلفه ولده أسرحدون Esarhaddon (٦٨١ - ٦٦٩ ق م) الذي وصلت الامبراطورية في ظله الى أوج عظمتها وقمة مجدها وأقصى توسعها محققا بذلك حلم آشور القديم بهزيمة مصر سنة ٦٧٠ ق م (٢٥) فدفعت له غزة الضرائب Silbel وأصبح الساحل الفينيقي ومعه الفلسطينيين يجمع مدنها المحصنة تحت قيادته فتعرضوا لأقصى أيامهم بدفع الضرائب الباهظة ليحقق من بعدها نوعا من الاستقرار والهدوء فكان لابد للفنيين الاندفاع نحو البحر مستغلين أقصى امتداد وعمق له ليلتفوا حول رأس الرجاء الصالح قبل طواف داجابا بأنفى عام (٢٦) ليجلبوا ويكسبوا ما يعرضهم عما يدفعونه من ضرائب باهظة للأشوريين التي ربما تعكس ثراء هذه الشعوب أو شراهة المحتلين . فقد أبانت سجلات أسر حدون أسماء ملوك المدن التي دفعت له الضرائب وهم ملوك صور وبيلوس في فينيقيا وآدوم ومواب وغزة وعسقلان وعكرون « عافر » أسودود . كما ورد ذكر هزيمة ملك « أوزرا » وهي تل خمة كموقع ومدينة عسكرية شرق غزة ظلت محتفظة بتواجدها حتى هذه الفترة . كما أخبرنا « اسرحدون » في أنشاء حملته ضد مصر سنة ٦٧١ ق م بأنه استولى

Aharoni, Ibid, pp. 338-340.

(٢٥)

Meyer, Ibid p. 35.

(٢٤)

(٢٦) مستر فلاير - المختطف - الجزء السابع - السنة السادسة عشرة - عدد إبريل سنة

١٨٩٣ م ٤٥٠ - ٤٥٢ .

على رفح واصفا موقعها بأنه قريب من نهر مصر Brook of Egypt. (وادى العريش) حيث واجه صعوبات عندها .

هذا التوزيع الجغرافى بوحداته السياسية استمر متماسكا وخالدا ومنها غزة فى حين بدأت أسماء القبائل اليهودية فى الزوال من هذه القوائم لقد لعبت مدينة غزة دورا قياديا وثوريا عالميا ضد الغزو الاشورى خاصة خلال حكم سنحاريب وخلفائه (٢٧) .

فلم تكف الثورة ضد الغزاة حتى خلف آشور بانيبال Assurbannipal الحكم بعد وفاة والده « اسرحدون » سنة ٦٦٨ ق.م فحاول السير على خطوات والده وقام فى عصر « أسل » بعل غزة A sil-Baal بدفع الضرائب له . وما ان جاءت سنة ٦٥٢ قبل الميلاد حتى هبت جميع شعوب الامبراطورية الاشورية بحركة تمرد ضخمة شملت عيلام - وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وحاول القضاء عليها لتعود الى الهدوء فى سنة ٦٤٨ و ترجع الأمور لسابق عهدها بعد أن أخذت قوى الامبراطورية فى الضعف والأفول فبدأت القوى المصرية فى التحرك من الجنوب بالاضافة الى غزو السيكيثيين Scythian من آسيا الصغرى شمالا .

وهنا برز دور مصر الفرعونية من جديد للملاحقة الاشوريون وضد المد الآسيوى السكيثى القادم من الشمال فقام بسامتيك الاول الملك الفرعونى بمطاردتهم حتى حاصر أسدود لياتى من بعده ابنه نخاو الثانى سنة ٦٠٩ ق.م والذي غزا فلسطين وقد ورد ذكر احتلال غزة بشكل ترويجى على لسان هيرودوتس الذى قال « بعد هذه المعركة » مجدو ؟ لقد أخذ نخاو Kadatu التى هى اعظم مدينة سورية » .

فهل مدينة Kadytis هى غزة فالاسم قريب من Ga-da-tu أو غازاتو كما كان يسميها « الفراعنة والاشوريون » أم انها قريبة من اسم قادس أو قدس ربما الحكم فى هذا يبقى رهن الدراسات الفيلولوجية والاركيولوجية ولو ان الكثير يعتبرون ان الاسم مطابق لمدينة غزة (٢٨) .

Meyer, Ibid, p. 35-36.

(٢٧)

Meyer, ibid, p. 40.

(٢٨)

الفصل السادس

الفترة البابلية الفارسية

- غزة تنعم بالاستقلال الذاتي تحت القيادة العربية المعترف بها بالسلطة الاشورية
 - القبائل العربية تسيطر على الجنوب الفلسطيني
- ظهور مدينة « اينوسيس »
- هيرودس يقول « غزة تشبه ساردس في جاذبيتها »
- غزة تسك النقود لأول مرة

السيطرة البابلية :

هذه الفترة تعتبر النهاية للعصر الحديدي ، في الوقت التي تمثل فيه مرحلة من مراحل التغيير في الخريطة السياسية لفلسطين ، فقد خاصر « نبوخذ نصر » المدينة العربية « ييوس » (القدس) وأحرق ما بها من معابد وقتل من سكانها قرابة خمسين ألفا ممن يعتنقون اليهودية (الأسر البابلي) وذهب بهم الى بابل العاصمة . ليستمر التمدد العربي الأيدومي (الأيدوميون) في الزحف نحو الشمال نحو الخليل حتى بيت صبور تدفجهم قوى العرب الأنباط من خلفهم والقادمين من شمال شبه الجزيرة العربية وجنوب فلسطين أما الساحل الفلسطيني فقد تمتع بنوع من الاستقلال في مدينتي غزة وعسقلان مقابل دفعهما الضرائب فتعمقت الروابط التجارية مع بابل وانتشرت الكتابة المسمارية والبابلية كلغة متداولة سياسيا وتجاريا ولا أدل على ذلك من كونها لغة الكتابة ما كتب على ألواح تل العمارنة بمصر منذ قرون عديدة خلت .

إذا احتلت غزة بموقعها التجاري الهام والحدودي عند نهاية المملكة البابلية مكانة مرموقة خاصة وقد دعمها التواجد العربي الذي أصبح منتشرًا وسائدًا بمملكاته على طول وعرض الجنوب الفلسطيني بعمق يصل للجزيرة العربية نفسها فهم الأيدوميون والأنباط ما منح غزة الشراء التجاري فأصبحت « المدينة العظيمة » « والمدينة الكبيرة » على حد تعبير هيرودوتس وهيكاتيوس Hecataeus قبل احتلال الفرس لها .

وعلى العموم فإن المعلومات والمصادر عن فلسطين في المرحلة البابلية تكاد تكون شحيحة خاصة في الحقبة الواقعة ما بين سقوط القدس ٥٨٦ ق م وحتى سقوط المملكة البابلية سنة ٥٣٩ ق م والتي حاول البابليون خلالها أن يروا التقسيمات الإدارية الفلسطينية على الطريقة الآشورية السابقة .

الفترة الفارسية :

سقطت بابل سنة ٥٣٩ ق م لملك فارس « كورش » الذى أسس أكبر امبرطورية امتدت امتدادا واسعا فى تاريخ الشرق القديم من مرتفعات ايران شمالا حتى حدود مصر جنوبا .

وعلى الصعيد الفلسطينى ليست هناك أية وثائق أو كتابات تدل على حدوث معارك فوق منطقتنا وربما دانت سوريا وفلسطين للفرس بشكل تلقائى بعد القضاء على البابليين لمدة قرنين من الزمان تقريبا أحدثوا فيها تغيرات جذرية عميقة انبثقت من خلالها تحولات محورية على المستوى الادارى والسياسى والاقتصادى فى فلسطين عامة وللمدينة غزة بشكل أساسى وحيوى ، فاداريا ظهر مصطلح جغرافى يجمع رقعة الامبرطورية الفارسية المترامية تحت عنوان « بابل وارضى عبر النهر » أى تلك الواقعة غرب نهر الفرات أيام كورش . . . وعليه فقد كانت سوريا وفينيقيا وفلسطين بطبيعة الحال ضمن مناطق عبر النهر .

وبناء على ما جاء من هيرودتس (٢٩) فقد قسم الفرس امبرطوريتهم الى عشرين ولاية Satrapy عند بداية حكم « داريوس ٥٢٢ - ٤٨٦ ق م » قام على أثرها بفصل اراضى عبر النهر عن اراضى بابل وعين لكل ولاية حاكما « مرزبانا » وكانت الولاية الخامسة تمتد من شمال سوريا حتى غزة التى تحكم نفسها حكما ذاتيا .

أما المناطق الواقعة جنوب غزة مباشرة فقد حكمها وسيطرت عليها القبائل العربية التى سادت سطوتها بشكل ملحوظ وكانت - اراضيتهم معفاة من الضرائب والممتدة مباشرة جنوبا من غزة . ولعل ما جاء على لسان هيرودوت الذى استقر فى مدينة غزة الى حين (٣٠) فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ما يضى لنا دلالة واضحة للجوانب الادارية والسياسية للمنطقة فيقول (الأرض الممتدة من جنوب فينقيا حتى مدينة غزة يسكنها سوريون يسمون بالفلسطينيين ، وجميع الموأىء من غزة الى مدينة اينوسوس تتبع ملك العرب وتنتهى للسوريين ، البلاد من اينوسوس Janyos الى بحيرة سربونس التى يمتد جوارها جبل كسيون Kasion ، والأرض وراء بحيرة سربونس (بحيرة البردويل حاليا) هى أرض

Aharoni, Ibid, p, 256-258.

(٢٩)

H. G. wells, The out line of history, Vol. I, New York, 1956, pp. 188. (٣٠)

Mayer, Ibid, pp. 41.

حصر • والمنطقة الممتدة من مدينة اينوسوس الى جبل كسيون وبحيرة سربونس
« مسيرة ثلاثة أيام » شديدة الجفاف) •

وهكذا نرى بجلاء ان مدينة غزة وجنوبها ظلت متمسكة بعلامح شخصيتها
العربية الفلسطينية بعد الكفاح المرير ضد القوى الاشورية والبابلية المريرة
وازداد التكتف العربى فى جنوبها حتى قامت لأول مرة مدينة Senysos
والتي وصفت بأنها من مدن العرب الرئيسية الذين استطاعوا فيها احتواء
واستيعاب الفلسطينيين وامتصاصهم فأصبحوا عربا (٣١) • ولعل Jenysos
هى اشتقاق من لفظة « العسس » الذين هم نواة الجيوش العربية كجنود مخافر
أمامية فى ذلك الوقت خاصة وان هذه المدينة تقع عند حد الصحراء • أصبحت
مدينة غزة تنعم باستقلال ذاتى تحت ادارة القيادة العربية للملوك « قيدار »
المعترفون بسلطة الاحتلال الفارسى والذين فرضوا بدورهم ضرائب عليهم (٣٥٠
وزنة من الفضة) تعادل نصف ما كانت تأخذه من مصر ، هذا على الولاية الخامسة
حتى غزة أما جنوبها فقد كان عربها معافين من الضرائب مما ساهم فى تنشيط
التجارة فى غزة كمخرج حيوى رئيسى على شاطئ البحر للتجارة العربية •

نجد اذن التواجد العربى على طول الساحل الغربى وحتى رفح مدينة
Ienyzos التي جاء ذكرها على لسان « استرابو » عندما وصف حملة قمعين
على مصر سنة ٥٢٥ قم والذي حشد قواته فى عكا ومر بمدينة غزة الذى كما
يروى دفن كنزه فيها حتى يقال ان كلمة غزة تعنى « الكنز » بالفارسية ولكن
اسم غزة كما نعلم أقدم من ذلك بكثير • كما أثبتته الوثائق والكتابات على
المعابد الفرعونية - وورد على لسان استرابو أن ملكا عربيا « ربما هو قيدار »
قوله أثناء مروره بالمياه حيث كان الشريط الساحلى الممتد من غزة الى
اينوسوس (*) أرضا معفاة من الضرائب (٣٢) •

وربما كان ذلك دافعا للفرس الى وضع كتيبة حربية لهم فى غزة منعا
وتحسبا من الزحف العربى نحوها الذى ظل متحفزا حتى سنة ٣٥١ ق م وذلك
لم يعد يذكر بل يوصف السكان بأنهم سوريون بل عرب •

واقصاديا :

نعمت غزة بتجارة هادئة مزدهرة أتى بها العرب من الهند عبر الجزيرة
العربية مارة بجنوب فلسطين أى أرض القبائل العربية الايدومية • حتى مدينة
غزة ، وتم هذا الازدهار الضرائب المخففة على أسوأ تقدير - ان لم تكن معفاة

Meyer, Ibid, pp. 42,

(٣١)

Herodotus, Historia, III, p. 49, and Aharoni, Ibid, pp. 256,

(٣٢)

Ienysos ائوسيس ربما كانت تقع فى مكان ما بالقرب من موقع

(*) مدينة

خاليونس الحالية •

تماماً من قبل الفرس ، حتى يمكننا القول بأن شريط غزة أصبح بمثابة ميناء تجارى حر بعيداً عن منافسة اخواتهم الفينيقيين فى الشمال والذين امتد أثرهم وفعاليتهم البحرية حتى عسقلان وكذا عن النفوذ الفارسى المباشر والذين منحوها نوعاً من الاستقلال الذاتى حتى غدت مدينتنا غزة كما وصفها هيرودوتس عندما مر عليها بأنها « تشبه مدينة ساردس Sardis » (**) فى جاذبيتها (٣٣) .

فالفرس على عكس الاشوريين أبدوا اهتماماً كبيراً بالبحر المتوسط ، فقد هممن الفينيقيون كما ذكرنا على تجارة الشمال فانبعثت موانئهم مع انهم اسما تحت السيطرة الفارسية - فاستفاد الفرس من هذه القوى الفينيقية المخططة التى كانت لهم سنداً وعضداً ضد القوى اليونانية فيما بعد .

ومن التورات الاقتصادية الفارسية الرائدة سك النقود لأول مرة فى فلسطين أيام داريوس وكانت تحمل اسم « غزة » وربما سكت على النمط « الأثينى » (*) ومن أجل التجارة مع اليونان ، خاصة لوجعلها تسرب التأثير اليونانى ونقودهم الأثينية « أثينا » لأول مرة الى فلسطين فى هذه الحقبة (القرن الخامس قبل الميلاد) وبعدها سكت النقود المحلية الغزية على نمطها ومنها زاد التأثير اليونانى ونجود العديد منهم وقد اندسوا كجنود مرتزقة مع الجيوش الفروعونية والفارسية فبعدما غزت فلسطين (٣٤) .

ومما يلفت النظر أن تقوم فى غزة عملية سك نقود فارسية باسمها لتبرهن على مدى قوتها وأهميتها التجارية حتى بلغت النقود الغزية شأنًا بارزاً ليس فى النقد الفلسطيني فى الفترة الفارسية بل وتعدته على الصعيد العالمى والتجارة الدولية لما تميزت به سكتها من تشابه بالنقود الأثينية التى غدت نقداً عالمياً متداولاً فى عصرها (٣٥) وللمقارنة لم يكن فى هذه الحقبة لمدينة عسقلان المجاورة أية نقود تذكر . وهكذا فانتشار النقود سهل الحياة الاقتصادية داخل المدينة فأعطى سيولة التداول بين الناس ، ومهدت بالتالى لخلق فئة جديدة من السكان والتجار أتبعته لهم فرصة البيع والشراء لسهولة اقتنائهم كميات كبيرة من النقد بدلاً من عملية « المقايضة » الأكثر عسراً فى السابق . فازداد الرواج التجارى بين الناس للمدينة فتأكد الموقع الحدى البحرى الحاكم للمدينة وعززته ثروتها فعادت لدورها كجسر تجارى يربى بين الشمال والجنوب وميناء

U. Rapport, I.E.J. Vol, 20, 1970, p. 75.

(٣٣)

(★★) مدينة سادوس كانت عاصمة الليدين فى آسيا الصغرى وتقع على بحر إيجه وهى من أعظم الموانئ ولكنها الآن قرية صغيرة .

Meyer, Ibid, pp. 42.

(٣٤)

H. Rapport : Caza and Ascalon, I.E.J., Vol, 20, 1970, p. 76 and C.F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Palestine, London, 1914, pp. 176-183.

(٣٥)

بحرى كمنفذ للتجارة العربية على ساحل البحر ، ومنطقة خديّة يسيطر العرب على تخونها الجنوبية الصحراوية الفاصلة .

هذه الاغراءات جميعا دفعت الفرس بأن يضربوا فى غزوة كتيبة فارسية بحرية (٣٦) . كطاقة احتياطية لهم تؤمن السيطرة على هذا الثغر الهام الذى يمثل عنقا اسنراتيجيا وعسكريا بل وتجاريا لهم وكرصيده سنرى كيف استفادت منه القوى الفارسية والعربية فى صد قوات الاسكندر الأكبر خاصة - وكما سبق لنا القول - بأنها كانت مدينة مضمورة يسور بناء الفلسطينيين منذ قرون خلت كما يقول غارستنح (٣٧) واعادة تحصين قلعتها التى سبق ان دمرها « نبوخذ نصر » .

وسياسيا : - منحت غزوة نوعا من الحكم الذاتى ، لما تميز به الفرس فى اطلاق الحريات وممارسة الشعائر الدينية الوثنية دون تدخل منهم ، فحكموا انفسهم فأصبحت لهم سلطة واسعة فى ادارة شئونهم الادارية والمحلية وفقا لقوانين ونظم عادلة سننها الفرس لولاياتهم ويشرف على تنفيذها « داريوس » بنفسه ، فكان هذا دافعا قويا لسكان منطقة العرب الفلسطينيين والفينيقيين الى مؤازرة الفرس ومساعدتهم بأداء فعال وقوى عندما تعرضوا للغزو اليونانى خاصة فى مدينتى صور وغزة .

أما المنطقة الجبلية الداخلية من البنسلاذ فقد رأت عودة بعض اليهود من بابل على يد الفرس ليجدوا قوما من العرب الايدوميين والانباط قد شمسادوا البنين وعمروا المدن فوق الهضاب وكما وصفوا فى التوراة بأنهم أصبحوا مستقرين جيادا ، وأنشأوا مراكز ادارية وأسواقا تجارية هامة مثل مدينة « مريشة » شمال غرب هضبة الخليل التى عجت بسكانها الايدوميين (٣٨) وأصبحت مدينة بيت صور شمال الخليل مركز الثقل لتجمعهم السكانى بدلا من الخليل أو زيف (٣٩) .

هكذا عاشت جميع الشعوب العربية الساحلية منها والداخلية فى البلاد من عربية فلسطينية أو فينيقية أيدومية أو كنعانية أو حتى نبطية فى وئام وتجمعها صهرتها بوثة القومية العربية على اختلاف مسمايتها القبلية وجميعا

Meyer, Ibid, 43.

(٣٦)

P.E.F., Vol, 52, 1920.

(٣٧)

(★) انظر الى مجموعة النقود الغزية التى تعود للقرن الخامس قبل الميلاد فى M. Rosenberger, city coins of Palestine, Vol. II, Jerusalem 1975, p. 47-49.

Archeology of Israel, Pocket library, Jerusalem, 1974, p. 211-212. (٣٨)

Aharoni, Ibid, p. 364.

(٣٩)

تحدثت التغيرات بصمود وإباء أمام كل الغزوات صامدة شامخة باستثناء بعض سكان المناطق الجبلية الداخلية من القبائل العبرانية التي عاشت فترة من الازدهار القصير بفضل الحكمة السليمانية تعرضوا بعدها للاقتتال والاحتراق فيما بينهم ومن ثم للخروج البابلي وعودة البعض القليل أيام الفرس وتفضل الاكثوية البقاء في بابل . عاشت كاتلية منغلقة بدينها الذي حوله بعض العبرانيين الى دين خاص بأبناء اسحاق ، والتوحيد فيها شائبة وثنية عندما استأثر العبرانيون بالله فجعلوه اله بنى اسرائيل ، لا اله العالمين ! فأصبحت ديانتهم تمثل « جيتو فكرى » ففقدت بالتالى السمة العالمية والانسانية التى هى من أوضح مميزات وصفات الدين الالهى الواحد كمًا بشر به الرسل والأنبياء (٤٠) وبالتالى بقوا على انغلاقهم ولم يصلوا فى أية مرحلة من مراحل التاريخ الى مدينة غزة وما جاورها . بل هى وكما جاء فى التوراة « ملعونة من الرب » شملت مدينة غزة واعترتها تحولات محورية وجذرية حتى نهاية الفترة الفارسية التى دامت قرنين من الزمن ، لعبت فيها هذه التحولات دورا أساسيا فى قصة حياة المدينة ، وبلورة شخصيتها وعمقت قسماتها العربية فمهدت لها ان لم تكن سببت لها فى الفترات اللاحقة العزلة والشموخ ، وكذا التحلل والرضوخ لفترات طويلة تحت نير الغزاة فاصبحت بموقعها الحدى والذى بلغ أوجه كمدنية اكروبوليسية فوق قمة تل محصنة مسورة ذات قلاع وابراج بل دفعها الشراء وازدياد ما يرد لها من منتجات وتجارة أن تخرج من أسوارها منطلقة نحو البحر تبني ميناءها البحرى كمنفذ للتجارة العربية الهائلة والقادمة من الهند وشبه الجزيرة العربية . فلم تعد « محطة الرمال » بل وأصبحت محطة الترحال « انها بحق عقدة مواصلات » بالطول والعرض . وبلغ بها المجد فسكت النقود لتبنى لنفسها مكانة اقتصادية عالمية متأثرة بذلك باليونانية من وراء البحر .

ولهذا اندفع العرب ليمالوا الفراغ بين مدنهم فاستوطنوا الأرض الواقعة بين غزة وتل العجول فى الشمال ورفع فى الجنوب فبنوا مدينة « انيوسوس » Ienysos ان لم تكن مدينة « العسس » فى موضع ما عند خان يونس اليوم مع استمرارية المواضيع العربية القديمة فى تل الفسارعة وتل جمة التى عثر فيها فلندرز بترى على قبور فارسية وأوان ترجع لنفس الفترة التى استخدمها الفرس كمناطق امدادات ومؤن لقوافلهم العسكرية المندفعة نحو مصر .

اذن عاشت مدينة غزة هذا التاريخ الحافل تتأثر به وتؤثر فيه فاعلة ومنفعلة عبر كل العواصف السياسية وحتى الاقتصادية على مدار أكثر من ثلاثة

(٤٠) د . محمد عمارة - العرب والتحدى - كتاب الهلال العدد ٢٨٤ ، القاهرة ١٩٨٢

آلاف عام وعند نهاية دولة الفرس آخر دول الشرق العظيمة وقبل قدوم اليونان من أوروبا وليس من آسيا .

فماذا فعلته المدنية الشرقية منذ العصر البرونزي حتى نهاية الفرس وعلى مدى أربعة آلاف عام الا قليلا ؟ والاجابة يطرحها هنرى بريستد قائلا « (ان الشرق حبا العالم بالصناعات الأولى بدرجة عالية من الصنع والاتقان فصنعوا الآلات المعدنية والزجاج والنسيج والورق ، وأتقنوا فنون النجارة بصناعة السفن ، كما سبق الشرق أهل الأرض طرا في تشييد المباني الكبرى ، فقد نفح الشرق العالم باختراعات هامة لا يفوقها سوى اختراعات العصر الحديث فأخذ الغرب عن الشرق فنون البناء ذات الأبنية المعمدة والابراج اللولبية الشكل وفن النحت للتماثيل الهائلة والأختام النفيسة « الجعارين » والكتابة وحروف الهجاء وأقدم الروايات والقصائد الشعرية وتقويم السنين الذي يستخدم حتى اليوم ومبادئ الحساب والفلك والطب كما نظم الشرق أول حكومة كبيرة من أمة واحدة عظيمة أو من مجموعة أمم تألفت منها امبراطورية (٤١) » .

(٤١) هنرى - بريستد - العصور القديمة - ترجمة داود قربان - المطبعة الأمريكية -

بيروت ١٩٣٠ ص ١٨٨ .

الفصل السابع

العصر اليونانى

- الاسكندر يحاصر غزة شهرين •
- والحامية العربية والفارسية تدافع عنها ببسالة نادرة وتجرح الاسكندر
- نشاط الاستيطان الاغريقى فى غزة وسواحلها ••
- غزة ورفح ميدان تطاحن بين البطالة والسلوقيين
- العرب الانباط يعيدون لغزة مجدها وازدهار مينائها « أنثيدون »

العصر اليونانى

لم يكن مجيء الاسكندر الأكبر بحملته العسكرية التى زلزلت أرجاء المغفورة مع ثلاثينات القرن الرابع قبل الميلاد هى أول من أدخلت العناصر اليونانية لمنطقتنا ، لا ٠٠ بل لقد تسربت طلائع الشعب اليونانى قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون تقريبا ، وبالتحديد منذ القرن السادس قبل الميلاد أيام الاسرة الفرعونية السادسة والعشرين عندما شجعهم الملك بسماتيك على الهجرة لمصر كجنود مرتزقة انخرطت بين جنده فى خروبه الداخلية مانحا اياهم الاراضى الزراعية وفياتها لهم وميسرا مجال التجارة (٤٢) . ومن هنا كانت الالمحة السابقة عن التأثير الاغريقى للنقود الفزية ، فانيونانى فى بلده الام يعيش فى بيئة جبلية بحرية فقيرة طاردة لسكانها فاندفعوا نحو مراكز الحضارة فى شرق البحر المتوسط ومصر للارتزاق فى مرحلة ما قبل الاسكندر الذى أتى بجحافل جنده غازيا ليمثل النواة الأولى لأقليم استعمار استيطانى عبر البحار فى التاريخ . فاستولى على آسيا الصغرى بعد انتصاره فى موقعة ايسوس سنة ٣٣٣ ق.م على الفرس وبجئته القائد العسكرية صاحب الميول البحرية لم يحاول مطاردة الملك الفارسى المهزوم شرقا نحو عاصمته صوصة ، بل واصل زحفه جنوبا بمحاذاة الساحل ليستولى على سوريا حتى استوقفته مدينة صور.. أمام أسوارها وقلاعها الحصينة سبعة شهور يوم كان الفينيقيون على الساحل الفلسطينى فى قمة مجدهم البحرى والتجارى فكانوا عضدا للفرس استغلوه لصالحهم لصد الاسكندر الذى واصل زحفه بسهولة جنوبا حتى غزة التى أوقفته أمام أسوارها فى اغسطس سنة ٣٣٢ ق.م ، كأعظم مدينة حصينة ذات سور ضخيم بها قوة عربية التحمت مع القوة الفارسية بقيادة « بيتس » Betis فأوعز المهندسون لقائدهم الاسكندر بأن المدينة يصعب اجتيازها والاستيلاء عليها بسهولة . فاستدعى بعض المهندسين ومن كانت لهم خبرة فى حصار صور ، فبدأوا فى بناء تلة مرتفعة . Rampart ساعدتهم التربة الطينية الرملية فى الحفر لكنها قادتهم بنعومتها وطبيعتها الرملية بعدم استقرار أدوات الحصار فوقها . وما أن انتهى بناء هذه التلة الصناعية التى بلغ ارتفاعها ثمانين مترا حتى بدؤوا فى قصف المدينة ودك أسوارها وأبوابها بعد شهرين من الحصار فلاقوا مقاومة عنيدة فحاولوا

(٤٢) جمال حمدان - شخصية مصر - الجزء الثانى - القاهرة ١٩٨١ ، ص ٢٨٢ .

استغلال الناحية الجنوبية للاندفاع فى قلب المدينة كما يرى « فلندرزبترى » من خلال ما عثر عليه من ركامات محروقة وأوان بالقرب من بابها الجنوبي (عند عسقلو الآن) . فلم تكن المدينة سهلة المنال فلم يدخلها الاسكندر الا بعد أن ضحى بعدد من القتلى والجرحى بما فيهم هو نفسه الذى أصيب فى كتفه وركبته فأخذ المدينة عندها بحد السيف ، باع النساء والأطفال كعبيد ووقع نحو من عشرة آلاف مقاتل عربى وفارس وأسر القائد الفارسى « بيتس » Betis فأساء معاملته وربطه الاسكندر فى مؤخرة عربته وسحله فى شوارع المدينة حتى الموت (٤٣) وفى أواخر الخريف من نفس العام ٣٣٢ قم وصل الى بلوزيوم « الغرما » واستولى من بعدها على ممفيس . لتسلم مصر من الوالى الفارسى « مازاكس » وليستقبله المصريون بالترحاب كمثقل لهم من الحكم الفارسى (٤٤) .

بهذا اكتمل للاسكندر القضاء على الوجود الفارسى والقوى العربية المتنافسة على طول امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، بعد أن كلفته مدينتا صور وغزة تسعة شهور من الحصار . عليهما تضافيان لنا دلالة واضحة على منعهما أمام هذا الغازى اذا ما عرفنا أنه اكتسح أعتى مراكز الحضارة فى عهده حتى الهند فى ثمانية أعوام . وهناك تفسير استراتيجى لهذا التصرف . يقول بأن الاسكندر كان يريد الحفاظ على أهم موانئ البحر المتوسط - صور وغزة - دون تبرير لتأمين الامدادات والتموين لأسطولته عبر البحر واتخاذها أيضا قواعد بحرية لصد أى هجوم بحرى ضد قواته والقضاء على التواجد البحرى الفارسى . ويرى بعض المؤرخين سبب اندفاعه جنوبا متقاديا ملاحقة الفرس شرقا هو جاذبية مصر وشهرتها كمصدر لانتاج الغلال لتصنيع قاعدة تموين لجيوشه التى سوف تتبعه بعدها شرقا .

وعودة المدينة غزة بدأ الاغريق ينتشرون داخل المدينة بوضع كتيبة عسكرية وخارجها بصفة خاصة وبدأت مجمعات استيطانية على هيئة خلايا صغيرة تنتقط على ساحل البحر المتوسط « كالضفادع والنمل حول بركة » على حد تعبير أفلاطون (٤٥) فبدأوا يسكنون أطراف المدينة الشمالية والجنوبية وساحل البحر ضمنا للعزلة ولعدم الاحتكاك معتمدين على زراعة الكروم والزيتون حتى ليقال بأن الاستعمار الاغريقى من حيث توزيعه الجغرافى

(٤٣) Meyer, Ibid, p, 43-44. and the out line of History Vol, 1, p, 284-286.

(٤٤) عبده مباشر وإسلام توفيق - سيناء الموقع والتاريخ - القاهرة - دار المعارف ١٩٧٨ ص ١٩٢ .

(٤٥) جمال حمدان - شخصية مصر ج ٢ ص ٢٨٣ .

الرئيسي أنه « استعمار زيتوني » الى حد معين (٤٦) بعد أن أفرغ الاسكندر المدينة والتي كانت أشبه بمدينة مخازن « للبخور والعطور واللبان والمر ومجوهرات وحلي » أفرغها من كنوزها مرسلًا إياها كهدايا لزملائه (٤٧) . وهكذا ارتبط الاغريق بظاهرة الزراعة والتجارة فتمخضت عنها ظاهرة ثلاثية خطره هي « التعمير والتهجير والتوطن ليكتسب من ثم طابعا سكنيا أو استيطانيا لامراء فيه مدعما بثقافة هيلينية ذات توجيه أوربي فأرست قواعدهما البحرية لاستقبال أساطيلها الحربية والتجارية كظاهرة جديدة ميزت التواجد الاغريقي على سواحل البحر المتوسط والأحمر فبنى على شاطئ مدينة غزة لأول مرة ميناء جديدا هو ميناء أنثيدون « مدينة الزهور Anthedon » ليبدأ بعد هذا الاستيطان الاغريقي وبحق أول تحد لثراث هذه المدينة العربية العظيمة بكل ملامحها وسماتها وقسماتها العربية مع أول استعمار استيطاني في التاريخ قادم من وراء البحار فاما أن يمتلئ سكانها العرب هذه الموجة خاصة وان كل الذين أقاموا فيها اما أصبحوا عربا فلسطينيين أو مجتهم فلم يطبقوا مكوثا ولا مقاما مهما كانت أبعادهم ووسايلهم .

فال يونانيون بدأوا يتقصبون المدينة ليخلقوا اسلوبا جديدا على حياتها وبنيتها الاجتماعية لتبتلع الحضارة اليونانية الغربية لأول مرة في تاريخها .

أن جميع الغزاة السابقين - كما بينا سابقا - قد أحدثوا تغييرات عميقة على سكان المنطقة الجبلية الداخلية في فلسطين في الوقت الذي كان التأثير فيه سطحيًا بل بالكاد لمسوه في مدن السهل الساحلي أما الاسكندر الأكبر وهو أس الاهتمامات البحرية فعل العكس كعملية اسقاط للتأثيرات الجزرية التي نشأ فيها . فقد ضمن لسكان المناطق الداخلية حقوقهم واماكن سكنهم الى حد كبير فاحتفظوا من ثم على تراثهم وثقافتهم العربية السامية لتبقى ذخرا للساحل الذي أحدث فيه تغييرات جذرية ثقافية وحضارية على السكان ليس في غزة فيحسب بل وباقي مدن الساحل الفلسطيني الذي أصبح الى حد كبير يونانيا بلغته وحضارته وكذا نظمته السياسية لألف سنة تقريبا ، اقترب فيها الفينيقيون من الاختفاء كقوي بحرية فتمركزوا في بعض المستوطنات الصغيرة خاصة غرب البحر المتوسط استمرت لبعض الأجيال ليستوطن اليونانيون بدلا منهم (٤٨) .

M. Rosentzeff., Social and Economic history of the Hellenistic World (٤٦)
Oxford, 1941, Vol. I, p. 287, p. 360-362.

Meyer, Ibid, p. 44.

(٤٧)

J.E.J., Vol. 6, 1956, pp. 43.

(٤٨)

استأنفت غزة أهميتها التجارية لتعيد علاقاتها بما حولها من المدن ولتتسع مجالها حتى بلاد اليونان ومع دائرة البحر الايجي حتى ايطاليا ، فامبراطورية الاسكندر جمعت بين سواحل البحر المتوسط فأصبح يعرف نظرية « وحدة البحر المتوسط » لتصبح سواحله جميعا خاضعة لنظام سياسى امبراطورى واحد (٤٩) .

فلم تتبدل مكانة غزة واخذت أمورها تسير سيرا طبيعيا ليبقى الوضع التجارى للساحل الجنوبي الفلسطينى كما هو بصفة أساسية حتى القرن الثالث قبل الميلاد (٥٠) .

وما ان مات الاسكندر الأكبر فى بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد فجأة حتى دب الخلاف بين قادته الأقوياء ووصل لدرجة الاقتتال والحروب فيما بينهم برا وبحرا انقسمت على أثرها مملكة الاسكندر الى ثلاثة أقسام فى أوروبا وآسيا وافريقيا رأس كل قسم بها أحد قادته (٥١) .

ومع هذا التقسيم الجغرافى السياسى عاد لفلسطين عامة وغزة خاصة قدرها المحتوم كمطقة ارتطام وأصبح لمدينة غزة تلقائيا دور ميدان التطحان والصراع بين قادة الاسكندر فالتقى جيش بطليموس فى ربيع سنة ٣١٢ قبل الميلاد والذى انفرد بحكم مصر فى غزة مع جيش ديمتريوس بن انتيغونوس الذى استأثر بحكم سوريا كحصنة له . فأصبحت معركة غزة تمثل حلبة تقرير المصير الفاصل لمصر وسوريا معا ، فانتصر بطليموس وقائده سيلوفس على خصومه المزودين بالفيلة فأتخذ هذا القائد من انتصاره فى غزة بداية « لتأريخ جديد عرف فيما بعد بالتأريخ السلوقى أو اليونانى ليمتد من سنة ٣١٢ ق م بداية لتأريخ جديد يدون من خلاله وقائع انتصاراته وأحداثه ويقال ان هذه الموقعة حصلت فى تل العجول « بيت عجليل » (٥٢) . بعدها لم يجد البطالمة منازع فى فلسطين بعد انتصارهم فى غزة على مدى قرن من الزمان تقريبا وحتى سنة ٢١٩ ق م استمرت خلالها مدينة غزة كأهم المدن الساحلية قاطبة ، وعزز هذه المكانة وحفظ لها كثيرا من سماتها وقسماتها القبائل العربية التى بقيت صامدة جنوبها والمستفيدة من تجارة البحر والتوابل والبخور على الرغم من تقلصهم المحدود الا ان تواجدهم قد استمر

C.F. Hurani, Arab Searching in the Indian Ocean, Princeton, 1951, (٤٩) p. 170

I.E.J, Vol. 20, 1970, p. 76.

(٥٠)

(٥١) هنرى بريسند - العصور القديمة - المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .

Atlas of Israel, Jerusalem 1970, p. IXL, 5.

(٥٢)

جنوب فلسطين وسيناء بقيادة العرب الأنباط فنعمت غزة بتجارهم لتأخذ بوظيفة الترانزيت التجارية ولفترة طويلة ارتبطت معها بمدينة الاسكندرية الجديدة والتي أنشأها الاسكندر الأكبر ومع الموانئ الفينيكية وآسيا الصغرى واليونان ، ولعل ما ورد في أوراق زيتون البردية Zanon Papyri وورد اسمها عدة مرات وصفت في احداها بأنها « سيده المبحور » لتبين لنا بوضوح دور التجار العرب كممول للمدينة منذ الفترة الفارسية حتى البطلمية ، ويتألق دور غزة كميناء حيوى نشط ما جاء في خطاب أرسطو Letter of Aristeeas حيث تضمن قائمة بأسماء الموانئ الفلسطينية الهامة فى فترة البطالمة التى جاء فيها « ان لفلسطين موانئ ذات موقع جيد ، تمولها بحاجاتها مثل غزة وعسقلان وجوبا وبطليموس » عكا « التى أنشأها الملك (٥٣) » .

ولعلم النميات « النقود » Num's matic دوره فى تفسير وإبراز أهمية غزة لما للنقود من أهمية اقتصادية تحمل فى نقوشها وصورها دلالات خاصة تعكس ظروفها واحوالا سياسية وعسكرية واجتماعية فى كثير من الأحيان .

فقد راجت فى غزة النقود المسكوكة باسم الاسكندر حيث بلغت أوج نشاطها وسيولتها فى المدينة بصورة فاقت جميع المدن والموانئ الفلسطينية المجاورة مثل عسقلان ، فتدلنا قائمة نركيس Narkiss على وجود ثمانية أنواع من النقود الغزية وواحدة فقط لمدينة عسقلان (٥٤) ليثبت بهذا نشاطا اقتصاديا فائقا عما يجاورها من مدن هذه الحقبة .

ولم تهدأ الحال بين البطالمة فى مصر والسلوقيين فى سوريا ، كما لم يتغير قدر غزة فى موقعها الجدى الذى حولها الى « موقعة عسكرية » بين الطرفين المتخاصمين فاستولى عليها سنة ٢١٩ ق م « أنتيخيوس الثالث » . السلوقي من سوريا ليحصنها تحصينا منيعا وليتخذ منها مقرا لعملياته العسكرية المتقدمة كراس حربى فى وجه البطالمة فى مصر ، وبعد عامين فقط أعاد البطالمة الكرة ثانية فالتقى الجيشان فى ٢٢ يونيو سنة ٢١٧ ق م فكان مسرح القتال هذه المرة مدينة « رفح » فانتصر البطالمة فأعادوا استيلائهم على غزة وفلسطين كلها . فلم تكد المدينة تلتقط أنفاسها لأقل من عقدين من الزمان حتى أغار السلوقيون على البطالمة سنة ٢٠٢ / ٢٠١ ق م بقيادة أنتيخيوس الثالث الذى زحف حتى غزة القلعة التى اعتادت أن ترغم القادة العسكريين على الوقوف أمام قلاعها وحصونها فاستعصت عليه وقاؤه به بعنف

I.E.J, Vol. 20, 1970, pp. 76-77.

(٥٣)

I.E.J, Vol. 20, 1970, pp. 77-78.

(٥٤)

مما دفعه للانتقام منها بقسوة عندما استولى عليها ، وفشل البطالة بغدها
في استرداد غزة حتى اذا ما أتى عام ١٩٨١ ق.م وفلسطين وسوريا قد دانتا
للسلوقيين .

بهذه السيطرة السلوقية بدأت مكانة غزة في الضمور والتدهور السريع
واختفت التجارة عن غزة لبقض عقود من السنين ، لأن الغزو السلوقي أجبر
جزءا من التجارة العربية من المرور مباشرة الى مصر دون التوجه الى مدينة
غزة كما كان في الماضي ، ونظرا لتفوق البطالة في الملاحة البحرية خاصة في
البحر الأحمر واكتشافهم الرياح الموسمية فاقاموا علاقات تجارية نشطة
بين سواحل الحجاز وموانئها « لوكة كونه » والبصرة التي أصبحت همزة
الوصل بين اليمن وسوريا والعراق ومصر مما أصاب التجارة العربية بالضرر
قدفعهم بجانب السلوقيين في الشام ضد البطالة من أجل السيطرة على جنوب
سوريا في فلسطين وضمها بلاد الانباط (٥٥) وبدا فقدت غزة شريانها
حيويا كان يمولها بالطاقة والقدرة كان يضيخ في جسدتها يغذيه اقتصاديا وينميها
ويعيد له تراثه بل ويذكره ويذكره ، هذا الشريان قطعه السلوقيون ولم
يكتفوا بذلك بل أجبروا التجار العرب بأن يواصلوا سيرهم شمالا من الجزيرة
العربية الى دمشق ومنها الى موانئ فينيقيا أو آسيا الصغرى ، ففقدت عندها
غزة معظم تجارة الترانزيت تماما كما تأثرت بقية الموانئ الفلسطينية حتى
ميناء بطليموس « عكا » شمالا وبترت الاتصالات العربية مع الاسكندرية (٥٦)

واستمر هذا الوضع الاقتصادي المتدهور لمدينة غزة حتى النصف
الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد تقريبا أي لعهد انتيخوس الرابع ١٧٤ -
١٦٤ ق.م .

وكرد فعل للتحلل المتواصل للدولة السلوقية بحكم الأقدمية واستمرارية
استنزافها بالحروب شبه المتواصلة مع البطالة على أرض غزة ورفع ، بدأت
في الظهور قوة ثالثة متربصة شرقا ومتضررة من جراء القطيعة التجارية الا وهي
قوة العرب الانباط الذين نجحوا في استعادة السيطرة على طرق التجارة
الرئيسية ومنها الطريق القادم من الجزيرة العربية حتى وادي عربة فالبصرة
العاصمة وبئر السبع لينتهي المطاف في مدينة غزة مستقلين بالتالي عن
السلوقيين ورغم عن أنف البطالة ، فعادت لغزة سيادتها وسيطرتها على
التجارة كميناء مرور ولتنطبع عليها من جديد السمات والملامح العربية والتي

(٥٥) محمد عواد حسين - البحرية في عهد البطالة - جامعة الاسكندرية - ١٩٧٣
ص ١٥٣ - ١٥٦ .
(٥٦) 1, Fl. I., Vol. 20, 1970, p. 78 79.

كان الشيرقي دوماً رصيدها الهائل في التشبث بها والحفاظ عليها رغماً عن تراكمات السنين من الثقافات الأجنبية الوافدة .

ففي القرن الثاني قبل الميلاد أصبح الانباط أمة ذات حضارة عظيمة وصلت قمة ازدهارها وتألقت تجارتها خاصة في تجارة التوابل ، فأقاموا المحطات التجارية عبر المناطق الصحراوية في النقب لتؤمن لهم الحماية والممدد بالمياه والمؤن على طول طريقهم نحو مدينة غزة ولتنضوي كما سنرى جميعها تحت لواء مدينة غزة الإداري والعسكري ومن هذه المحطات عبدة . وسببطة . وكرنب . والخلصة . والعوجا « نصتان » ولقد اكتشفت في الخلصة Iusa كتابة فبطية ترجع لسنة ٩٦ ق م جاء فيها « أسس هذا المكان ناديروا . لحياة الحارث ملك الانباط » (٥٧) أما الاكتشافات التي عثر عليها في العوجا فانها تنير لنا الكثير عن هذه الحقبة ففي الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٥ - ١٩٣٨ ميلادية اكتشفت بعثة « كولت » الأثرية وثائق بردية ونقوشا كتابية دلت على أن نصانا Nessana وهو الاسم اليوناني للعوجا وعرفته الادارة العربية فيما بعد باسم « نصتان » بأنه اسم نبطي . وأنشئت كمحطة على الطريق بين قاعدتهم البتراء وأيلة وقدم آثارها يرجع للقرن الثاني قبل الميلاد كما عثر فيها على ٣٨ من الجرار الفخارية ذات الأختام اليونانية التي ترجع لقرن ما بين سنة ١٥٠ - ٥٠ ق م تعرف باسم « امفورا » Amphora جاءت معظمها (٣٣) منها من جزيرتي ردوس وكوس اليونانيتين وثلاثة من بامفيليا بآسيا الصغرى . واثنان من الجرار للزيت الإيطالية الصنع ، ويعتقد أن هذه الجرار جميعاً لم تأت إلى العوجا « نصتان » بما فيها مباشرة من هذه الجزر اليونانية أو آسيا الصغرى ولعل الأكثر احتمالاً انها مرت أولاً بغزة أو مصر نظراً لتشابه أختامها مع أختام عثر عليها في الاسكندرية وبقراطيس بمصر (٥٨) ويدعم هذا القول ما ورد على لسان هيودوت فيما وصف الأراضي الواقعة ما بين انيسموس « خان يونس » وبحيرة سربونس « البردويل » بأنها شديدة الجفاف ، وحينما قال بأنه كانت تأتي لمصر أوان فخارية مملوءة بالنبيذ من بلاد اليونان وفينيقية وكان كل رئيس مقاطعة يرسل جميع الجرار الفخارية إلى منف حيث تفرغ ثم يملأونها بالماء ويصدرونها للأقاليم الجافة في البلاد السورية (٥٩) .

(٥٧) محمود العابد - البتراء - عمان - نابلس ١٩٥٦ - ص ٥٥ .

(٥٨) V. Grace, Stamped Handle of Commercial Amphoras, excavation of Nessana, Vol. 1, London, 1962, p. 106.

(٥٩) د. مصطفى العبادي - محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٠ - ١٦٥ .

ولا ننسى كثرة ما يعثر على النقود النبطية في ساحل مدينة غزة^(٦٠) وداخلها . وقد عثر على آثار نبطية في إيطاليا التي كانوا يصيدون لها أنواعا من الزفت والقار والى بلاد اليونان أيضا (٦٠) .

فلم تكن هذه الأمة العربية تجارية فقط بل وزراعية بدرجة فاقت الوصف ولعل ما قاله السيد جلوك Gluck يوجز ذلك ببلاغة فقد ذكر (لقد استطاع الانباط توسيع مساحة الاراضي الزراعية على حساب الصحراء بطريقة لم يستطع تنفيذها سكان سورية أو شبه الجزيرة العربية أو الاردن ولا حتى أى أمة أخرى ، فقد عالجوا استغلال الاراضي الجبلية الوعرة ، كما نجحوا فى حفظ مياه الأمطار المتساقطة لفترة قصيرة) (٦١) . وقال فيهم ول ديورانت .

(ان البتراء أصبحت فى الفترة الواقعة بين القرن التاسع قبل الميلاد وحتى سنة ٤٠ ميلادية بلدة هيلينستية لغتها آرامية وفنها يونانى وشوارعها فى عظمة شوارع الاسكندرية) (٦٢) .

هذا على الصعيد التجارى والزراعى والمدنى أما عن التعدين فلم يأل جهدا فى هذا المضمار هؤلاء الانباط فقد عدنوا الفيروز فى وادى المغارة وكذلك النحاس فى وادى النصب بسيناء (٦٣) .

وهكذا استمر العرب الانباط فى تجارتهم وهم على أسوأ علاقة بالسلوقيين الذين بدأوا يتعسفون فى حكمهم وضرائبهم حتى ظهرت ومع بداية النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد قوة برية جديدة ولسدى جيلين فقط هى قوة المكابيين الذين تمردوا على السلوقيين فاستطاعوا ولاول مرة فى تاريخهم الوصول لمدينة يافا سنة ١٤٦ ق.م بقيادة يوناثان Jonethan واستطاع من بعده هركانوس والكسندر جانيوس من توسيع هذه الرقعة الساحلية لفتح شقة بحرية توصله للتجارة الخارجية عبر البحر المتوسط ويعزى هذا لا لمجرد التمرد على السلوقيين بقدر ما هى جاذبية البحر المتوسط الذى يموج بالتجارة الخارجية (٦٤) التى وصلت بأبناء المدن الساحلية ومنها

(٦٠) G.A. Smith, Historical geography of the holy Land, London, 1966 p. 365.

(٦١) Gluck, The other Side of Jordan, New Haven, 1945.

(٦٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - ج ٣ المجلد ٣ - مترجم - جامعة الدول العربية

سنة ١٩٦٤ ص ١١٦ - ١١٧ .

(٦٣) عبد مباشر واسلام توفيق - سيناء الموقع والتاريخ - المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٦٤) I E.J. Vol. VI, 1956, p. 43.

غزة الى أقصى الدول الغربية فى حين ظل أبناء المناطق الداخلية فى حالة من الجمود والانغلاق .

أما عن مدى العلاقة التى ربطت بين مدينة غزة وهؤلاء المكابيين - فقد كانت بطبيعة الحال علاقة سيئة حاول فيها يونانان الاستيلاء عليها فقاومته مقاومة عنيفة مما دفعه لحرق ضواحيها واجبارها على الخضوع وتقديم الفدية فقد جاء فى العهد الجديد .

[وخرج يونانان وطاف عبر النهر وفى المدن فاجتمع لمظاهيرته جميع جيوش سوريا وقدم اشقلون ، فلاقام أهل المدينة باحتفال ، وانصرف من هناك الى غزة فأغلق أهل غزة الأبواب فى وجهه فحاصرها وأحرق ضواحيها بالنار ، ونهبها فسأل أهل غزة « يونانان » الأمان ، فعاقدتهم وأخذ أبناء رؤسائهم رهائن » [مكابين ١١ : ٦ - ٦٢ .

ولهذا التطور الوجيز الطارىء أصبحت عسقلان - على العكس من مدينة غزة - ببناء علاقات طيبة مع المكابيين والبطالمة فى حين واصلت غزة اظهار العداء تجاههم مستمرة بتجاريتها مع الانباط الذين ناصبوا بدورهم العداء لكل من المكابيين والبطالمة .

فبدأت كفة عسقلان فى الرجحان فى هذه الفترة الوجيزة على غزة ومينائها ولعلم النميات أيضا حكمه ، فقد لاحظنا سابقا نشاط المسكوكات الغزية فى القرن الثالث قبل الميلاد من خلال قائمة « نركيس » عندما تفوقت على نقود عسقلان ، فانا نجد الآن انقلاب الصورة فى القرن الثانى قبل الميلاد فقد تفوقت النقود العسقلانية فبينت « قائمة نركيس » أحد عشر نمطا للنقود العسقلانية مقابل نوع واحد للنقود الغزية فى القرن الثانى قبل الميلاد (٦٥) .

ومع نهاية القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد تعرضت مدينة غزة وفى سنة ٩٦ قبل الميلاد لضربات الاسكندر جانيوس الذى حاول تدمير سوريا وحاصرها سنة كاملة وبعدها اتجه الى رفع ودمرها (٦٦) .

I.E.J. Vol. 20, 1970, p. 78-79

(٦٥)

P.E.F., 1886, p. 184, and I.E.J. Vol. 20, 1970, p. 79-80.

(٦٦)

فقط بالطريق التجارى الهام للأنباط الواصل الى مدينة غزة
ومينائها انثيدون • ليعيد القائد جبايوس Gabinius من بعده بنساء
مدينة غزة ورفع (٦٧) •

وما ان أشرف نهاية القرن الأولى قبل الميلاد حتى أنهكت هذه المدينة
العديدة من الضربات المتلاحقة والملاطمة مستمرة فى انكماشها وضمورها
خلف جارتها الشمالية عسقلان حتى بدأت مرحلة جديدة هى المرحلة الرومانية •

وإجمالاً لهذه الفترة يمكن القول بأنه اذا انتشرت مظاهر الحضارة
اليونانية داخل أسوار المدينة فقط فقد ظل السكان المحيطون بها على عاداتهم
وتقاليدهم العربية السامية القديمة فتحدثوا بلغتهم لغة آبائهم متمسكين
بمعتقداتهم وأفكارهم حتى ان هؤلاء الساميين الأرياف كانوا النواة والصيد
الذين ابتلعوا غير الساميين الذين حلوا بينهم وطمسوا آثارهم (٦٨) مضافاً
لهذه قوة العرب الأنباط الذين واجهوا بتحد ضار أعنف القوى اليونانية ،
ليمنحوا الخلود للسمات العربية حتى بعد مجيء الرومان •

Catalogue of the Great Coins in the British Museum, Bologan, (٦٧)
1965, p. Ixxxii.

(٦٨) هنرى بوليسند ، المعنور القديمة ، المرجع السابق ، ص ٣٦٢ •

الفصل الثامن

الفترة الرومانية

٦٣ ق م - ٣٧٩ م

- ظهور قرية طباشا جنوب غزة •
- دخول الديانة المسيحية لمدينة غزة ومينائها •
- تدمير معابد غزة الوثنية وبناء أول كنيسة ... •

الفترة الرومانية

حققت « روما » نجاحا مرموقا في خلق امبراطورية لها احتوت عليها الامبراطورية اليونانية بكاملها ، تدعمها قوتها البحرية والبرية ، فان كان الاستعمار الاغريقي قد تميز بالنمط السكيني الاستيطاني ، نجد أن الامبراطورية الرومانية أثبت بطابع الاستعمار الاستراتيجي في أساسه ، وفي حين تميز الاغريق بالقوة البحرية المطلقة جمع الرومان بين الخاصية البحرية والخاصية البرية متوسعة بمدى أبعد وحدود أعمق توغلت بها الى قفار الصحاري الى حد لم تصله القوى الاغريقية من قبل فكانت الامبراطورية الرومانية بحق ثنائية الأغراض استراتيجيا واستغلاليا لدرجة الابتزاز الواضح .

وللوصول لهذه الأهداف الاستراتيجية صنعت هذه الامبراطورية الرومانية لنفسها شبكة من الخطوط البرية لا تقل خطورة وفعالية عن شبكة الخطوط البحرية التي خططتها لنفسها عبر البحار خاصة المتوسط - محاولة أن تقضى على ما تبقى من قوى فينيقية .

فعلى طول امتداد الساحل الفلسطيني أصبح المستوطنون اليونانيون وكلاهم وتجارهم للنفوذ الروماني الوافد .

بدأ الرومان بترميم المدن وبناء مدن حربية ، ولمدينة غزة نصيبها بلا أدنى شك كموقع وموضع لا غنى عنه والتي أكيلت لها الضربات المتوالية مع نهاية الغزوة الاغريقية ، عندما لعبت دور الكتيبة الأمامية المتقدمة بين القوى المتصارعة ، فلا تغيب هذه الأهمية على الرومان ففي عهد يوليوس قيصر تمتعت المدينة - في مرحلة الانتقال هذه - بإدارة مستقلة ، لتبدأ فترة من الأمن على يد قوى الكتائب العسكرية التي بثتها الامبراطورية في مواقع ومدن محورية ذات أهمية خاصة بلغت ثلاث عشرة مدينة عسكرت في كل واحدة منها كتيبة عسكرية تمركزت في مدن الساحل الفلسطيني في غزة وعسقلان ويافا وعكا وفي داخل البلاد حطت كتائب في بيت لحم وبيت حيرين وسبسطية وعمواس في الداخل بالإضافة الى الكتائب العسكرية في بانياس وجرش وبيسان وبصرى وعمان .

تأتمر كل كتيبة بأوامر قائدها العسكري ، لينشروا الأمن حتى

غدا المؤرخون يبالغون في هذا الهدوء فاسمونه « السلام الروماني Pax Romana » الذي تنعكس آثاره الى شيء من الانتعاش الاقتصادي الذي حققه الحكام الجدد لما تميزوا به من خبرة ادارية وحنكة عسكرية وسياسية . بهذه القوات العسكرية وما تبعها من مد الطرق ورصفها على الأقل لربط هذه الكنائس ببعضها البعض فلا يعقل لكثيية رومانية معسكرة في مدينة من المدن السابقة أن لا يكون لها طريق موصل يربطها بكثيية أخرى ، كما لا يمكن لأى طريق أن يبقى ممتدا الى ما لا نهاية .

وقد دلت الدراسات أن أقدم طريق روماني في فلسطين هو بدون شك الطريق الساحلي الذي كان يربط مدينة انطاكية Antioch بمدينة بطليموس « عكا » والذي أنشأه نيرو Nero في بداية عهده (٦٨) كما عثر على « حجر كيلو » يرجع لسنة ١٣٠ ميلادية في طريق يربط القدس بغزة يرجع لعصر هدریان . كما عثر على « حجر كيلو » جنوب مدينة عكا يعود للفترة الواقعة لسنتي ٢١٠ - ٢١٧ ميلادية .

فهذا الطريق الساحلي كان يربط القاعدتين العسكريتين أنطاكيسا في سوريا والاسكندرية في مصر .

ففي القرن الأول الميلادي استقر الوضع الأمني لحد ما وبدأت أجزاء الامبراطورية في الترابط والاتصال احتفظت فيها مدينة غزة بنوع من الارتباط التجاري العربي النبطي فالأنباط ظلوا وحتى نهاية القرن الأول قوة تجارية متماسكة ، وعلى صلة بمدينة غزة حتى مع بداية النصف الثاني من هذا القرن وفي عام ٦٦ ميلادية تعرضت المدينة ومينائها أنثيدون لبعض التخريب والحرق الناجم عن غضب الرومان لعدم الاستقرار في المناطق الداخلية من قبل بعض القوى العربية اليهودية فأحرقت العديد من المدن الساحلية في قيسارية وعكا وعسقلان ومعها غزة وأنثيدون لتبدأ من بعدها حياة المدينة ومينائها حياة طبيعية ليست بالسهلة على حين بدأ الضمور يغلف حياة المدن الداخلية .

ففي عام ٦٩ ميلادية مر على غزة القائد تيتس Titus وهو قادم من مصر الى فلسطين كما عاد اليها بعد سقوط القدس وبعد أن وضع فيها معسكرات رومانية عسكرية .

تبقى المعلومات والدراسات عن غزة وما جاورها طيلة القرن الأول الميلادي شحيحة كفترة انتقالية تعوزها الأحداث الهامة لكننا نقول بأن هذه المدينة

استمرت بعلاقاتها مع شبه الجزيرة العربية والبتراء وأيلة حتى عام ١٠٥ ميلادى عندما دخل فى هذا العام Cornelius Palma مدينة بصرى (٦٩) فاستتباه الأمن قبل ذلك فى الجزيرة والبتراء منح غزة صفة الاستمرارية التجارية معها كمنفذ هادى على الطريق التجارى الجنوبى ، ومع اطلالة عام ١٠٦ ميلادية وهى سنة محورية فاصلة فى التاريخ الغزى بل وفلسطين الجنوبية ففيها سقطت البتراء العاصمة العربية النبطية تحت قبضة الرومان بقيادة تراجان الذى بدأ فى بناء طريق جديد امتد من الساحل السوري الى أيك « أم المرشش » مارا بدمشق وبصرى وفيلادلفيا « عمان » والبتراء ، استغرق هذا الخط فى مده وتعبيده خمس سنوات بدأت فوراً بعد سقوط العاصمة النبطية ١٠٦ ميلادية وانتهى سنة ١١١ ميلادية .

كان بناء هذا الطريق بمثابة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى ذلك الزمان وعلى حساب طريق غزة - ايلات القديم - الذى أصبح شبه مهجور ولتنقطع من بعد ذلك الامدادات التجارية القادمة سواء من شبه الجزيرة والهند من خلفها أو البتراء . ومن ثم ليقضى على التجارة الجنوبية الفلسطينية ولتنزوى وتضمحل النقاط المدنية على طريق غزة مثل نصتان « العوجا » وعسلوج وكرنب وسبيطة ولكى لا نسمع عنها شيئاً طيلة القرنين الثانى والثالث الميلادى . ولتنتعش من جراء ذلك مدينة تدمر (خريطة رقم ١٣) .

فهذا الطريق الجديد كان أول ضربة سددت على يد « تراجان » ضد الاقتصاد الغزى أما الضربة الثانية فقد وجهت الى شعبها بأكملها لتتمس صلب عقيدته وتثير الاضطرابات والقلق لمدة استغرقت أكثر من قرنين من الزمان وهى بداية انتشار الديانة المسيحية فى فلسطين عامة مع بداية عصر « تراجان » والتي لم تدخل مدينة غزة بصفة رسمية الا فى أواخر القرن الرابع الميلادى حيث ظلت المعابد الوثنية منتشرة فى المدينة (٧٠) يحيط بها سكان المدينة ويقاومون كل فكر ضدها .

تألفت مدينة غزة بصورة شكلية فى عصر هديران الذى خصها بزياراته واقامة المباريات الرياضية فيها فقد قدم للشرق فى سنوات ١٢٣ م وسنة ١٢٥ ميلادية وكذلك فى سنة ١٢٩ - ١٣٠ م حتى أضحى عصره يسمى بالعصر الهديرانى كما أصبحت زيارته لمدينة غزة سنة ١٢٩ ميلادية سنة بداية للتقويم الغزى أو الهديرانى Anno Gazae ليقم فى هذا العام وفي غزة العباا أولمبية ومهرجانات رياضية لألعاب القوى والملاكمة والمصارعة قام بعرض الأسرى خلالها لتمزق الحيوانات أجسادهم إربا إربا . وقام بسبك نقود نقش عليها اسم

Meyer, ibid, ٥١.

(٦٩)

Meyer, ibid, p. 57

(٧٠)

« غزة » ولما كان هديران كارها للديانة اليهودية والمسيحية الوليدة فقد اهتم ببناء الهياكل والمعابد الوثنية في المدينة فقد نشر في فلسطين عامة مراكز خاصة لهذه العبادات جعل مدينة غزة مدينة العبادات الوثنية هي وميناؤها أنيشدون كما انتشرت في عهده وفي غزة تجارة الرقيق في سنة ١٢٤ م حيث أصبح فيها أسواق لهم . وفي مجال المواصلات - وبعد موت هديران - أصبحت شبكة المواصلات الرومانية في فلسطين تامة وأخذت شكلها النهائي الذي يربط سواحلها بداخلها حتى دمشق (٧١) .

أما مدينة رفح فلم نسمع عنها إلا أقل القليل فلم تعد هي وما جاورها شرقا أكثر من نقاط عسكرية أمامية لكن يبدو أنها ظلت باقية تجتر عظمتهما بقوة الدفع التاريخي القديم فقد كان لرفح مع نهاية القرن الثاني الميلادي نقودها التي سكنت وعليها اسمها وتعود للإمبراطور Severus Elgabonnus سيفروس الجبانوس ، وأخرى للإمبراطور أورلياس M. Aurelias مؤرخة بالأحرف والتي ربما تعنى سنة ١٧٧ - ١٧٨ ميلادية . لتدل دلالة قاطعة بأنها ما زالت مدينة تتمتع بنظام المدينة الدولة City State على الطريق المتجه نحو مصر .

ونوالت السنون لتشمل القرن الأول والثاني الميلاديين وغزة تحيا حياة شبه منعزلة على هامش الطريق التجاري الرئيسي الجديد شرقا ولم يعد الطريق الساحلي ذاك الممر الاستراتيجي الهام يوم كانت هناك قوى متصارعة في الشمال والجنوب لتلتقي عندها أو بالقرب منها جحافلهم ، بل أصبحت اليوم إمبراطورية واحدة تسيطر على سوريا بأقسامها في الشمال ومصر في الجنوب ليصبح هذا الطريق الساحلي مجرد ممر مدني تحرسه قلة من الجند تقف على أطلال المدن القديمة لتحولها لمخافر عسكرية اتقاء وتحسبا لأي غزو غربي قادم من الشرق أو الجنوب الشرقي .

كما انكفا سكان المدينة الوثنيون على أنفسهم يفكرون في كيفية التصدي للهجمة الايديولوجية الجديدة التي بدأت تترصد بهم وتهب عليهم بعواصفها بين الغينة والأخرى لتهز كيانهم الاجتماعي وبنياهم الاقتصادي تلك الهبة القادمة مع أولئك المبشرين بالديانة الجديدة « المسيحية » وكان أولهم فيليب Philip ومن بعده سيلفانوس Sylavanus في عام ٢٨٥ ميلادية ليواصلوا الأبواب في وجوههم تارة ويحرقوا الطريق أمامهم تارة أخرى في مقاومة فردية مرة وشعبية في مرات عديدة وليستمر هذا الصراع طافيا على حياة المدينة

ومينائها ليغطي على أهميتها وحياتها السياسية فى أواخر القرن الرابع الميلادى وفى سنة ٣٩٥ م عندما استطاع بروفوريس Prophyrius إغلاق أهم معبد فى المدينة لرب الأرباب وهو الاله «مارنا» ويبنى على أنقاضه كنيسة المدينة .

عاش سكان المدينة داخل أسوارها لذا لم يكن مناص لاولئك المبشرين من أن يعيشوا خارج أسوار المدينة داخل مناسكهم وصوامعهم التى طُلب ببعضها المقام لتكون نواة القرى ومن ثم المدن مع الزمن شمال وشرق وجنوب مدينة غزة .

فسكان المدينة تمتعوا داخل أسوارها بإدارة ذاتية مستقلة كما دلت نقوش جورديان الثالث Gordian III ، ٢٦٨ - ٢٤٤ ميلادية » والتى أوضحت أن غزة « مدينة مقدسة وملجأ وتتمتع بحكم ذاتي » كما رضى أهلها بكلمة « شعب » demos للدلالة على ما كانت له من مكانة كما لو كانوا يمثلون وحدة بشرية متكاملة ومستقلة كما نقش على كثير من نقودها اسم « شعب المدينة » ὁπρος, rwyévtañ هذه القوة البشرية المتراسة لدى سكان المدينة قد حالت دون تسرب معتنقى الديانة المسيحية من الدخول بين صفوفهم فظلوا كما أشرنا قابعين على هوامشها فى مناسكهم تحفزا للوصول إليها حتى جاء عام ٢٩٠ ميلادية ليقيم عدد من هؤلاء بلغ الألفين من الرهبان فى دير أقاموه جنوب غزة فى « دير البلح » ليمثل النسوة الأولى لقرية دير البلح ومن ثم مدينتها الحالية ، أقامه القديس « هيلاديون » الذى ولد من أبوين وثنيين فى قرية صغيرة تقع أيضا جنوب غزة على الطريق المؤدى باتجاه مصر بنحو خمسة أميال تدعى « طباشا » Tabatha (ربما كانت فى منطقة لديمشة الآن لما لهذه المنطقة من آثار توحى بمكانتها القديمة) فاستطاع هلازيون أن يجذب اليه الكثير من الأتباع خاصة من القبائل العربية التى دخلت معتنقة المسيحية معه بأعداد كبيرة ممن تسكن « الجنوب حتى وادى العريش (٧٢) فقد جاهر هلازيون بدعوته بينهم صائحا « لقد هزم المسيح الاله مارنا » اله غزة والذى لم يكن يضاهيه سوى الاله « سراپيس » Sarapis إله مصر المشهور . بقيت اذا الديانة المسيحية تتحفظ فى صدور أدعيائها الرهبان والنسك الذين أصبحت لهم قرى ليس فى الجنوب فقط بل وفى شمالها كما سيجى ذكره حتى مطلع القرن الرابع الميلادى وعندما اعتنقها الامبراطور قسطنطين ودخل بها المدينة سنة ٣٢١ ميلادية وجعل لها « قسنيس » يمثلها فى مجلس مدينة نيس Nice سنة ٣٢٥ م على الرغم من الغالبية الساحقة للبتانكان الوثنيين

والمتشبهين بالهتهم اما سكان الميناء الغزى « أنثيدون ، فقد اعتنق منهم المسيحية فى سنة ٣٣١ - ٣٣٤ ميلادية بايحاء ومباركة من قسطنطين الذى سر لهذا مشرف الميناء بأن لقبها باسم « قسطنديا » تيمنا باسم شقيقه وأصبحت لها أسقفية مستقلة .

لم يكن هذا الاستقلال للمدينة قسطنديا الميناء يعجب سكان مدينة غزة الأم الذين يروا بأنها جزء لا يتجزأ منهم . لذا فقد لى هذا المطلب عندهما نجح جوليان Julian فى سنة ٣٦١ ميلادية بالوصول للحكم فأعاد ربط قسطنديا للمدينة غزة الأم منذ ذلك الحين بتسمية « قسطنديا » باسم « ليمنا غزة » Limena of Gaza لكن بدور الخلاف ظلت مستترة فى نفوس أبناء المدينة ليطلقوا الخلاف بوفاة جوليان سنة ٣٦٣ ميلادية وليعود الصراع بين المدينة الأم ومينائها ليمنا « محوره رفض الانفصال فى حين تأججت نار الخلاف بين سكان مدينة غزة نفسها بين الأغلبية الوثنية والقلّة المسيحية التى نجحت وفى عام ٣٦٣ م فى بناء أول كنيسة لها على الرغم من قتلها والتى دعمت من السلطة الحاكمة كما أوضحنا ، اسمتها كنيسة « إيرين Eiren » أى السلام نسبة لبانيها Irenius وأصبح لها تمثيل فى مجلس شيوخ انطاكية (٧٣) .

الفصل التاسع

الفترة البيزنطية

٣٧٩ - ٦٣٤ م

الفترة البيزنطية

٣٧٩ م - ٦٣٤

تعرضت الامبراطورية الرومانية للانقسام في عام ٣٧٩ ميلادية تبعت فلسطين وبلاد الشام على اثره الدولة البيزنطية الشرقية. فاحتاجت هذه الامبراطورية لانشاء قوة دفاعية على تخومها الصحراوية لصد أى هجوم محتمل من القبائل العربية المتاخمة للجنوب فى شمال شبه الجزيرة العربية والنقب ، فقامت بتحصين المخافر والمدن لتبدأ مرحلة جديدة أكثر استقراراً وأوفر انتاجاً بدأت معها مدينة غزة وما حولها عصراً مزدهراً الى حد كبير لتعيد أمجادها القديمة خاصة بعد عودة الطريق التجارى وللتتالى مع مطلع القرنين الخامس والسادس الميلاديين مدن النقب الواضلة بين غزة وايلات وشبه الجزيرة العربية من جديد . وذلك لسقوط تدمر للسيطرة الرومانية وتوتر العلاقات بين الدولة الفارسية فى الرافدين والبيزنطية عندنا مما أدى معه لوقف طريق القوافل عبر بادية الشام فعادت معه الحياة الى الطريق التجارى الجنوبى فى فلسطين لتربط بين الجزيرة العربية جنوباً وغزة ومينائها على ساحل البحر المتوسط شمالاً تجويزاً القوافل التجارية مزدانة بمرحلة الشتاء والصيف وحتى مطلع القرن السابع الميلادى فيعم الرخاء ليس فقط مدن المرور الصحراوية « العوجا - عبدة - سبيطة - عسلوج - بئر السبع » بل وتكتظ المدينة بأهلها لتقدم قراها الشمالية « جباليا - ازاليا » التزلة « - بيت لاهيا » . مما دفع الكثير للكتابة عن هذه الحقبة وما خلقه السكان من آثار لحضاراتهم كارضيات من الفسيفساء وخزانات وسدود ونقود وأوان فخارية وأوراق بردية عليها كثير من الكتابات والنقوش وما لا حصر لها من الأدوات وما لم يكتشف ربما أكثر وأعظم . وفى أشد الحاجة لمن ينقب وينحث خاصة فى مدينتنا - « والقطاع » .

من هنا لا بد لنا من عودة لمدينة غزة وما جاورها من قرى لندقق فيها المسح الشامل لجمع مناحى حياتها التى تعتبر من أوجد المراحل فى تاريخ المنطقة لأنها تمثل مرحلة الانتقال المفتح العربى الاسلامى وعلى أرضها كانت أول معاركهم .

فمن أجاد وصف مدينتنا غزة ومينائها السيد « دونى Dawney » فى الفترة البيزنطية عندما قال عن مينائها (٧٤) . انها مملوءة بالسفن المتنوعة،

G. Dawney, Gaza in the early Sixth century, university of oxford Press, 1963, p. 9.

التجارية منها وسفن الصيد والسفن العسكرية للامبراطورية ذات الألوان البيضاء والزرقاء والمطلية باللون الذهبي رمز البحرية ، فى حين ترى التجار ينتسرون على طول الشاطئ ، منهم من ينتظر بضاعته وآخرون يفرغون الاحمال من فوق ظهور الابل القادمة من الشرق عبر بئر السبع والمحملة بالبهارات والتوابل والحريز والقطن والأحجار الكريمة والأكلمة والسجاد المستورد من ايران والهند بالإضافة الى واردات شرق أفريقيا من افراء وجلود الحيوانات والمنسوجات المطرزة والعطور ، ولجميع هذه السلع أسعارها المرتفعة لما تواجهه من مخاطر على طول الطريق يرفع من قيمتها وبالرغم من ذلك فان الطلب عليها كبير (٧٥) هذا على الصعيد التجارى العالمى . فماذا عن التجارة الداخلية الفلسطينية ؟ لما لها من رواج عالمى وبالذات للعالم اليونانى والرومانى البيزنطى . مثل التين المجفف والبلح والفواكه - لما تدره من أرباح جزيلة .

فأريحا ترسل الدبس المصنوع من البلح لأنه ينضج مبكرا لارتفاع الحرارة عن معدلها فى منطقة الغور ومدينة الخليل ترسل لميناء غزة النبيذ المصنوع من الكروم لما لها من شهرة فائقة منذ أن زرعه العرب الكنعانيون ويرسل فى أوان فخارية تصنع معظمها فى مدينة غزة نفسها والقرى المحيطة بها .

أما الزيتون فهو من الحاصلات التى - على الرغم من وفرة - لم يكن له نصيب كبير فى الصادرات الفلسطينية من ميناء غزة وذلك لأهميته كمادة استهلاكية أساسية فى فلسطين وتعدد استخداماته كغذاء ودواء ومادة وقود وللإنارة (السراجيات الفخارية) أما القمح فلم تنتج منه فلسطين وحتى مطلع العصر المسيحى ما يكفى الطلب المحلى ، بل وغالبا ما يستورد ميناء غزة القمح المصرى والقبرصى فى أكياس (٧٦) .

هذه صورة الميناء الحافلة بالنشاط التجارى التى يخدم التجارة العالمية شرقا حتى الهند وإيران وغربا لبلاد الامبراطورية الرومانية وثغرا يفى بالصادرات المحلية وليقوم بدور الميناء البحرى بجدارة فى هذه الحقبة ، ولعله من الجدير والمناسب الآن أن نقف على أبعاد هذا الميناء موقعا وموضعا وتسمية لما أثر حوله من جدل : -

G. Dawney, Ibid, p. 39-40.

(٧٥)

G. Downey Ibid, p. 41-43.

(٧٦)

ميناء غزة :

لقد اختلف العلماء ورجال الآثار والباحثون فى تحديد موقع ميناء « أنشيدون » الغربى فمنهم من حدد موقعها عند مصب وادى غزة ومنهم سبب Sepp والمؤرخ يوسيفوس وقائده فرد vande verde وغيرهم ويعزز آراءهم هذه السيد فلندرز بشرى لما عثر عليه من آثار قيمة فى منطقة تل العجول سبق أن بينا بعضا من جوانبها ذات مغزى ودلالات استراتيجية واقتصادية قائمة على أساس ان منطقة تل العجول هى منطقة غزة القديمة ومن ثم كان مينائها واقع بجوارها عند مصب الوادى .

أما السيد شوماخر (٧٧) والذي زار منطقة تل العجول فى سنة ١٨٨٦ ميلادية فانه يرى أن ميناء أنشيدون كان يقع فوق « تل نقيد » القريب من تل العجول وعلى الضفة الجنوبية للوادى معززا ادعاءه بما عثر عليه من تمثال كبير سنة ١٨٨٠ م يدعى انه للاله جوبيتر اله البطولة فى هذه المنطقة وقول آخر بأنه تمثال الاله مارنا اله غزة الرئيسى كما بينا (وهو الآن موجود فى متحف اسطنبول) مما يعكس أهمية هذا التل وان له شأنًا كبيرا ومميزا بالاضافة الى ما يحويه التل من قطع فخارية وأوان أثرية منتشرة فى مساحات واسعة .

على حين دقق السيد جورى Gueri الفرنسى فاحصا هذه المنطقة فلم يجد - وعلى حد رأيه - أية بناية توحى باهتمام هذه المنطقة أو ما يشير بأنها موقع لميناء (٧٨) .

وهناك رأى آخر لا يتعدى المنطقة لكن يتسع ليشمل مدى أكبر امتدادا فقد جاء فى تاريخ اللاتين أن ميناء غزة القديمة هى ميناء ومدينة عظيمة على شاطئ البحر تمتد من ناحية دير الداروم « دير البلح » الى موقع الشيخ عجلين وكان لها ضياع كثيرة زال أثرها ومنها قرية « طبائنا » (٧٩) ولعل ما اكتشف من آثار على شاطئ دير البلح وما يعثر عليه من آثار سطحية وآبار مائية جنوب الوادى ما يجعلنا نضع علامات استفهام كثيرة فوق هذا الشريط (أنظر الصور ١٢ - ١٥) . أما رأى الأخير فيتبيناه السيد Guthe والذي يرى ان أنشيدون تقع الى الشمال الغربى من موقع مدينة غزة الحالية على شاطئ البحر يؤيده السيد Pliny أيضا وربما غزارة ما يعثر عليه من آثار فوق هذه المنطقة سواء كانت أوان فخارية وحجارة ونقود وبقايا أساسات وجدران أشبه ما تكون بسور

P.E.F., 1886, pp. 175-176.

(٧٧)

S.W.P., P., Vol. 3, Condorg, pp. 253.

(٧٨)

(٧٩) الشيخ عثمان الطباع ، اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة - ١٩٤٧ - غزة ص ٢٣٩

• غير مطبوع •

يحيط بها لتدل دلالة على موقع ميناء قديم (منطقة البلاخية) ومما يدعم هذا الافتراض تلك المقولة التي تدعى بأن اسم « البلاخية » الواقع عليها هذه الميناء مشتقة من اسم « بلخاريا » ملكة الروم والتي وهبها القيصر أغسطس لهيروس الكبير (٨٠) . ولعل معظم الخرائط القديمة أظهرت موقع « أنشيدون » فى هذا الموضع من شمال غرب غزة (منطقة الابلاخية) . وكان يطلق على باب غزة الغربى « باب الابلاخية وأحيانا باب الميناء وباب البحر » للدلالة على موقع الميناء فى اتجاه غرب موقع المدينة الحالية .

ولكن يتبادر للأذهان هنا سؤال وربما يكون مدخلا للتسميات التي أطلقت على هذا الميناء وهو هل كانت أنشيدون وقسطنديا وميوما غزة ومن ثم « أجريبا » « وتيدا » تمثل نفس الاسم لنفس الميناء القديم الوحيد أم أنها أسماء لم تترك نفس المكان وأن لكل اسم موقعا وموضعا آخر على الشاطئ ١٩ (أنظر خريطة ١٤) .

ان الذى يفرض هذا التساؤل هو وجود آثار كثيرة فى منطقة واسعة ممتدة امتدادا طويلا كالمقاطرة على طول الساحل الغربى والممتد من شمال منطقة الابلاخية (ومعسكر الشاطئ الآن) شمالا وحتى جنوب الشيخ عجلين الآن بقليل أى بمسافة تقدر بنحو ثلاثة كيلو مترات تقريبا ، وبعمق يصل لنحو كيلو متر شرقا قبالة كل منطقة (*) فهل كان الميناء يحتل هذه المساحة والامتداد الطولى الكبير ١٩ والا بماذا نفس آثار المنطقة الشمالية فى الابلاخية ، والأعمدة الرخامية الملقاة على شاطئ البحر وأسفل الميناء الحالى فى الوسط ثم الآثار التى اكتشفت فى سنة ١٩٦٦ م شمال الشيخ عجلين جنوبا « تله بطشان » تتناثر على بعد هذه المسافة . فاذا كانت منفصلة فهل يعنى أن أنشيدون كانت فى الشمال وميوما فى الوسط وقسطنديا أو أجريبا جنوبا ١٩ خاصة وان لكل منطقة آثارها الزاخرة والموجية بأن هناك حياة تلب فيها (أعمدة رخامية فسيفساء - نقود - أواني فخارية وزجاجية ٠٠٠ الخ) .

ويبقى القول الفصل وهى الدراسة الأركيولوجية الجادة لهذه المنطقة لأن الخفى ما زال أعظم والمسح والتنقيب لم يبتدىء بعد وما يعثر عليه حتى الآن وليد الصدفة .

(٨٠) الشيخ عثمان الطباع - تحاف الأعزة فى تاريخ غزة - ج ١ المرجع السابق ص ١٨٤ وهناك تفسير آخر يقول أن الابلاخية عشيرة من عرب بئر السبع تنسب لعيسدها أبلانخ . والبليخ شجر السنديان .

(*) فقد تم العثور على بقايا أحواض تدل على وجود حمام فى منطقة بالقرب من المجلس التشريعى الآن كما قال أحد المستن من أبناء المدينة .

ولو أن ما نراه هو أن قيام كل ميناء على حدة أقرب إلى الصواب وذلك من واقع ما تمليه آثار المنطقة الممتدة على طول الشاطئ والتي تبدو واضحة في ثلاثة مواضع رئيسية تكشف عن مكنوناتها الدفينة هبوب الرياح الغربية والجنوبية في مواسم الشتاء فتكنسها فتظهر فيها النقود والأواني الفخارية والزجاجية وأحيانا تميظ اللثام عنها معاول الحفر والتجريف عند البناء صدفة فتكشف أرضيات قديمة وفسيساء وأعمدة رخامية تفصح عن ماضٍ تليد .
فأيا كانت رسائل التوضيح والاستبانة بشرية أو طبيعية فإننا بإزاء آثار لها دلالتها الواضحة في ثلاثة مواقع لكل موقع ظهير ممتد لمئات الأمتار من خلفها شرقا بشكل شبه متساو .

ففي المنطقة الشمالية والتي هي أول المواقع والمتمثلة في ميناء « أنشيدون » والتي تكرر ذكرها في كثير من المراجع والأطالس نجد أن لها ظهيرا يمتد لمسافة تقدر بنحو ١٧/٨ كيلو متر وحتى حى الشيخ رضوان الحالى ويبدو أن هذا الميناء كان مسورا حيث عثر على بقايا سور إن لم تكن حجارة لحصن قديم تبعد عن آثار الميناء قرابة ٣٠٠ متر شرقا . لتتناثر بعد ذلك آثار لأدوات وأوان فخارية ونقود رومانية بيزنطية وإسلامية وزجاج يشير إلى وجود حياة تؤكده سعة الظهير وامتداده حتى موضع « الشيخ رضوان » التى ربما ورثت الموضع إن لم تكن قد استقرت على هامشه الشرقى فى الفترة العربية المبكرة ثم الإسلامية من بعدها كقوة عربية كانت تفضل البقاء غالبا بعيدا عن البحر . نتجه بعدها للموقع الثانى جنوبا لمسافة لا تقل عن كيلو مترين وعند موقع الميناء الحالى الذى شيدته القوة البريطانية الانتدابية ليسترعى انتباهنا أعمدة رخامية ملقاة بالقرب من الشاطئ مباشرة وأسفل مياهه مع أوان فخارية قديمة توحى بأنها إما كانت مستوردة من شمال فلسطين أو روما لتشبيد المعابد والمباني داخل المدينة ثملقى بها فى البحر على غير عمد أو أنها كانت تمثل بنايات قديمة على الشاطئ جرفتها أمواج البحر خاصة وأن الساحل المقابل لها مباشرة غنى بآنيته الفخارية ونقوده اليونانية والرومانية والنبطية والبيزنطية على اختلاف مراكز سكنها ، مما يوحى بوجود مركز عمرانى مستقل ربما ميناء ورثته الموانئ الحالية ، أما عن ظاهرة فقد عثر على بقايا أحواض رخامية أشبه ما تكون ببقايا حمام روماني ، تقع على بعد كيلو متر تقريبا شرقا (*) نتجه بعدها جنوبا إلى الموقع الثالث الذى يمثل تلة مرتفعة يطلق عليها « تلة بطشان » فقد عثر بطريق الصدفة فى صيف عام ١٩٦٦ م على أرضية من الفسيفساء تعود للقرن السادس الميلادى توحى بأنها تعود لمكان مقدس وإلى الغرب والشمال فيها عثر على أحواض ربما

(*) قال لى بعض المستن فى المدينة عن هذه الأحواض التى عثر عليها بالقرب من موقع المجلس التشريعى المالى .

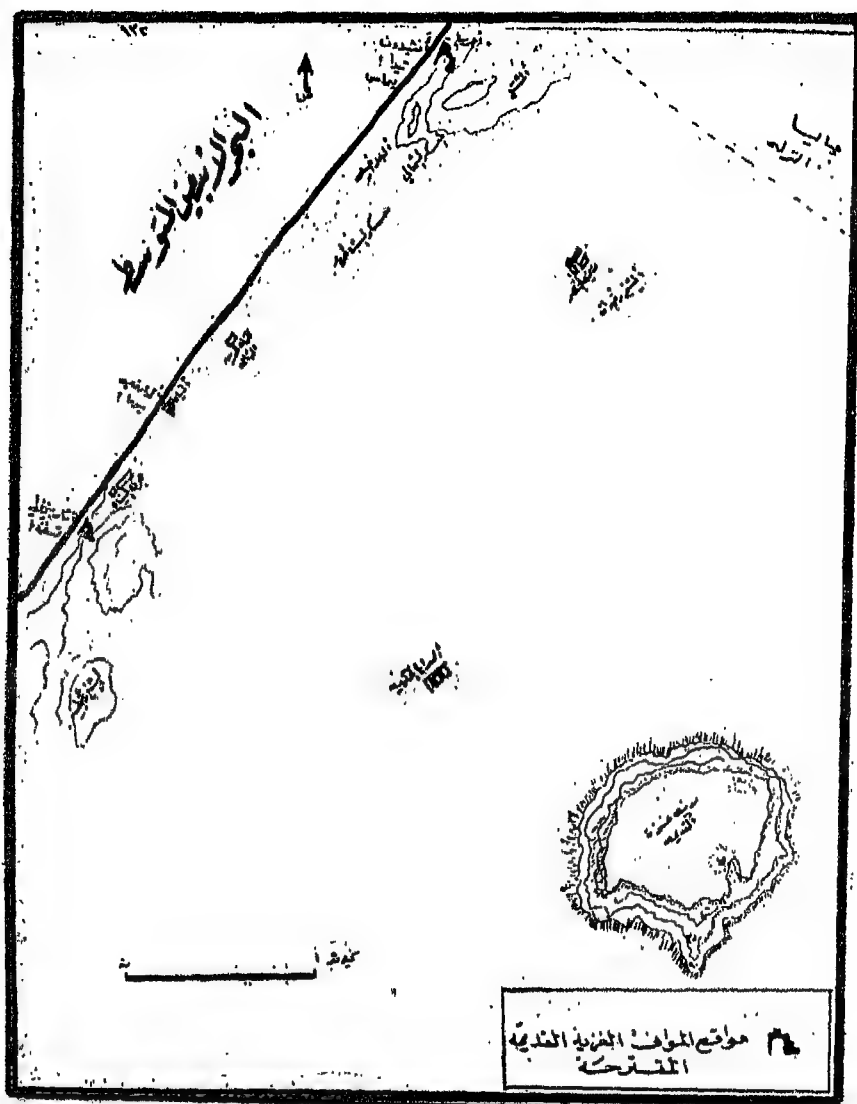
كانت لعصر الزيوت والنبيد أو للدهابة تغطي جميعها مسافة تقدر بنحو مائتي متر مربع ولا تنقطع الآثار خلفها شرقا. والمسافة لا تقل عن نصف كيلو متر تقريبا (دار الحاكم العسكري. المصري) حيث تظهر بقايا شقف ونقود رومانية وبيزنطية (أنظر الخريطة ١٩) .

كل موقع من هذه المواقع الثلاثة تفصل بينها مناطق لا أثر لشيء قديم فيها مما يؤكد تعددها . كما أن لكل موقع من هذه المواقع الثلاثة دلالة الاستراتيجية القديمة وذلك باحتلاله تلة مرتفعة بنحو لا يقل عن ٤٠ مترا عن مستوى سطح البحر متمشيا مع النظام الاكروبوليسى القديم . فضلا عن ان كل موقع من هذه المواقع الثلاثة له عمق وظهير يتجه شرقا لمسافة لا تقل عن نصف كيلو متر ولا يزيد عن ٢ كيلو متر .

وفي أقصى الجنوب وبعد منطقة انفصال لا يوجد فيها أى أثر نجد تلة الشيخ عجلين التي تمثل الحد الجنوبي لمواقع الموانئ الغزية السابق ذكرها كما أنها الحد الشمالى لمنطقة تل العجول الأثرية القديمة حيث لا تنقطع الآثار منها والتي توحى بأن هذا الجزء من الساحل كان زائحا بالحياة سواء أكانت مدنية أم زراعية « فكثيرا ما نرى آبارا قديمة وتلالا تحمل فى باطنها تراثا حضاريا ينتظر البحث والتنقيب تدل على ذلك بقايا فخارية ونقود أثرية وأساسات قديمة تنم عن حياة حافلة زاهرة على طول هذا الساحل . كما اكتشف العديد من القبور بطريق الصدفة فى باطن جرف الشيخ عجلين ظهر أثناء عملية شق طريق ساحلى كما أبانت بعض الجرار الفخارية الرومانية . (أنظر الصور ١٦ - ١٨) .

هذا عن ميناء غزة أو عن الأماكن المقترحة لمواقع موانئ غزة ، فماذا عن المدينة نفسها وهى « غزة » حتى فى الفترة الرومانية وفى نهاية العصر البيزنطى ؟ والذى فتن الكثيرين بها عبر هذه الفترة ، وما هو سر حب هيرودس سنة ١٠٥ م لها عندما أطلق عليها اسم « المدينة العظيمة » ؟ وتغنى بضمخاتها وعظمتها العديدون من أمثال « بلينى Pliny واريانس Arrian وايسوبس Eusebius

بقيت مدينة غزة على موقعها فوق تلة ترتفع قرابة خمسين مترا عن سطح البحر بمعزل عن مينائها فلم تؤكد أية دراسة أن هناك التحاقا مدنيا وصل بينها وبين مينائها على الساحل فأقصى امتداد لظهير الميناء أو الموانئ الغزية لا يزيد على كيلو مترين ، اذا فهناك شقة من الكشبان الرملية الزاخفة شرقا بقيت فاصلة بين المدينة ومينائها . وكان يحيط بالمدينة سور ضخيم عليه قلاع للدفاع منتشرة فى نقاط استراتيجية أربع بالقرب من كل باب من أبوابها الرئيسية .



خريطة (١٤)

خريطة توضح الأماكن المقترحة للموانئ الغزية التي وردت أسماؤها

وبدأ داخل هذا السور الضخم بيوت المدينة ذات الحدائق الجميلة ، تتوسطها ميادين مزدانة بالأشجار ويتوسط كل بيت وفي فناءه بالتحديد بئر لحزن المياه ، فأهالى غزة عرفوا كيف يحافظون على كل قطرة من الماء عند سقوط الأمطار ... فالجفاف أخطر ما يهدد أمن هذه المدينة .. حتى أصبحت الأمطار تشكل عنصرا حيويا فى تراث سكانها ومعتقداتهم الدينية .

أما تخطيط المدينة العمرانى ، فقد شكل إطارها العام سورها التى اتخذت هيئة المستطيل أكثر منه الشكل الدائرى ، فخططت الشوارع على النمط الهللىنى ، تتقاطع مع بعضها البعض بزوايا قائمة وعند مركز التقاطع تكون هناك ساحات عامة ، وهناك شوارع رسمت بمساحة أعرض من غيرها . بالإضافة لهذا كان هناك شارعان رئيسيان يشطران المدينة من الشرق للغرب . ومن الشمال للجنوب ويمثل مركز التقاطع ميدانا كبيرا يوجد فيه « الأجورا » أى السوق المركزى للمدينة .

هذه الشوارع الطولية المتوازية والمتقاطعة تمنح المدينة مزايا صحية تنفذ إليها أشعة الشمس لتغطي معظمها نهارا وتستفيد أيضا من هبوب نسيم البحر والبر المنعش (٨١) .

أما بالنسبة للتركيب الوظيفى للمدينة :

فقد كان الطابع التجارى هو المهيمن على حياة المدينة والمتججه بصفة خاصة لخدمة مينائها النشط فترى المكاتب الرسمية مليئة برجال الأعمال بالإضافة الى حوانيت الحرفيين والذين تتركز خدماتهم لخدمة الملاحين والفلاحين ، فهناك نجارين لخدمة صناعة السفن ومستلزماتها ، وصانعى الشباك والحبال والأدوات الحديدية والنحاسية ومعظم خاماتها كانت تستورد من سيناء . أما الحجارة فتجلب من المناطق المجاورة للمدينة .. حيث يقيم أصحاب كل حرفة فى شارع خاص بهم واستمر هذا الطابع الوظيفى فى بداية القرن العشرين (سوق النجارين - الحدادين - السروجية - الصوافين والدباغين ... الخ) .

ومن المرافق الحيوية داخل المدينة « الحمامات » لما لها من وظيفة مزدوجة فقد تعددت وظيفتها من الاستحمام الى ساحة رياضية يمارس فيها التديك ومزودة بمكتبة لتأخذ دور المركز الثقافى والاجتماعى .

وكان يشاهد الكثير من الصيارفة وحوانيت الحُمور والوكالات التجارية لما وراء البحار داخل المدينة . أما حرفة الزراعة فهى حرفة الفلاحين على هوامش المدينة ،

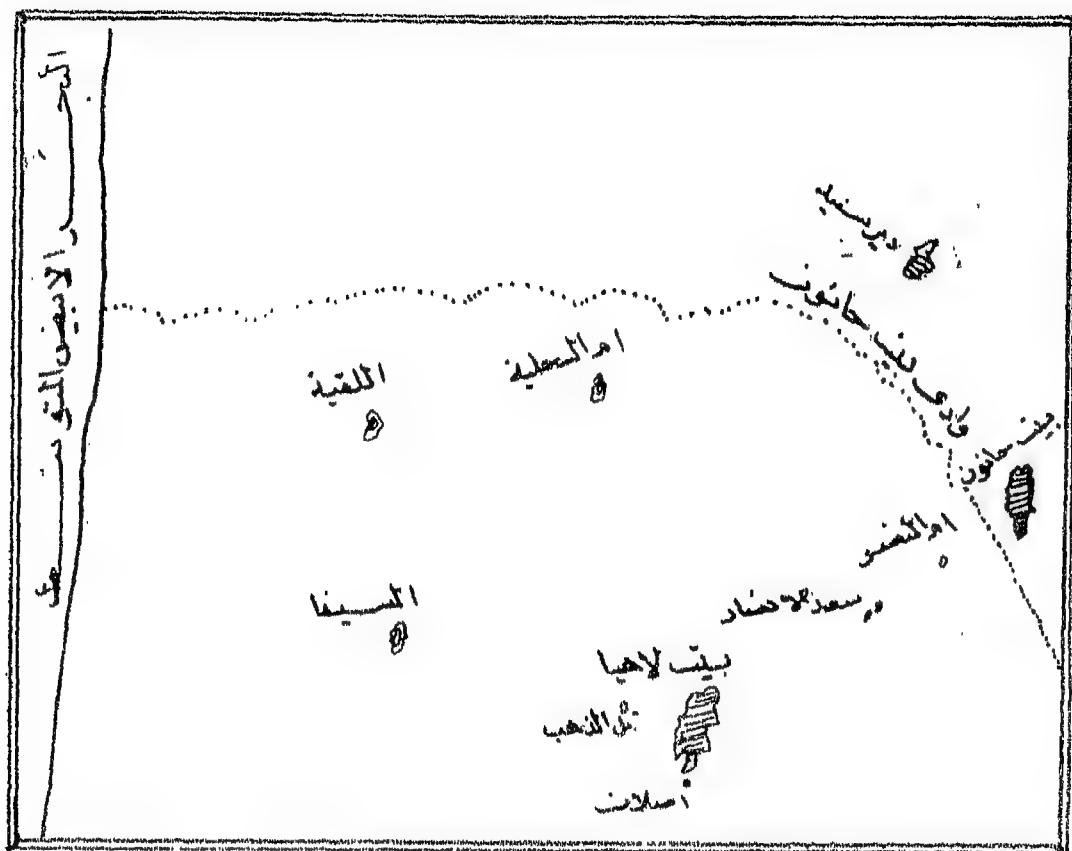
فبفضل « السلام الروماني » بدأ الانتشار السكاني ومن ثم العمراني حول المدينة وفي جميع الاتجاهات مستغلين مواقع المدن القديمة تارة والقريبة من خطوط المواصلات وأنشئت - قرى جديدة يعيش أهلها في بيوت متراصة متكئة تمنحهم الاطمئنان وقوة الدفاع ، فقد تقدمت الزراعة في العهد الروماني والبيزنطي فتقدم فن البستنة وزراعة الفواكه وأقاموا البرك ومدوا القنوات فازداد عدد السكان زيادة كبيرة مما دفعهم للزحف حتى المناطق شبه الصحراوية في منطقة النقب عزز هذه القرى انتشار ظاهرة الرهبنة والتبشير للديانة المسيحية الجديدة . ومن القرى الغزية التي بدأت تظهر على الخارطة الفلسطينية :

قرية بيت لاهيا : اتخذت موضعها شمال مدينة غزة بنحو خمسة كيلو مترات وأول ما يتبادر للذهن أن اسمها يوحى بأنها « بيت للآلهة » فيدفعنا هذا الى زمن أبعد من الفترة الرومانية في نشأتها (*) وهنا لا تسعفنا الأدلة والمستندات التاريخية فنعود للقول بأنها مشتقة من اسمها القديم « بتلجي » أو Bitolion التي تقع على « تل الشيخ حمدان » وخربة صعقب « ومن اشتهر من علمائها في منتصف القرن الخامس الميلادي سوزومانوس ٤٠٠ - ٤٤٣ م . وبهذه القرية كثير من المواضع الأثرية التي هي في أشد الحاجة لمن يمحيط عنها اللثام فقد عثر الى الشرق من موضع القرية على قطعة من الفسيفساء في منطقة تسمى « سعد الأنصار » هذا بالإضافة الى آثار « تل الذهب » الواقع الى الغرب من القرية وبعض الأساسات والمقابر في منطقة السيفا واللقية وأم السحلية توحى بأشبه ما يكون بنظام القرى المتكتلة غذاها ونماها بعد ذلك الوجود العربي الاسلامي (أنظر الخريطة رقم ١٥) .

وظهرت للوجود قرية « أزاليا » Asalea وهي النزلة الآن وربما كانت قرية جباليا الملتحمة بها الآن تحريف لكلمة أزاليا والتي نزلها بعض سكان الجبال في أواخر العصر البيزنطي (٨٢) .

والنزلة كقرية صغيرة تقع للغرب مباشرة من قرية جباليا الحالية لا يوجد أية آثار تشير أو تكشف عن أسرارها باستثناء حوض رخامي كبير - منقول بطبيعة الحال - عثر عليه غرب القرية مباشرة ربما كان المسقاية على الطريق الواصل للمدينة غزة « يصل طوله الى ٣ أمتار بعرض ١/٢ متر بارتفاع متر » . عثر عليه بالصدفة أثناء حفر حوض كبير لتجميع مياه الأمطار سنة ١٩٧٩ (أنظر الصورة رقم ١٩ - ٢٠) وعلى عمق ثلاثة أمتار تحت الرمال .

(*) هناك من الاعتقاد بأنها قرية عربية كنعانية قديمة (بيت الآلهة) تشبه في اسمها قرية بيت لاهيا الواقعة بالقرب من دمشق .
(٨٢) مصطلحي مراد الدباغ - بلادنا فلسطين - الجزء الأول - القسم الثاني - بيروت ١٩٦٦
من ٢٨٢ و ٢٨٧ .



خريطة (١٥) المواقع الأثرية الواقعة حول قريتي بيت حانون وبيت لاهيا

أما قرية جباليا فربما كانت هي • وكما ذكرنا - تحريف لقرية « أزاليا » السابق ذكرها خاصة لو وافقنا على المقولة التي تذكر بأن هناك قبائل بلوية قدمت من جبال جنوب سيناء يدعون « الجبالية » والذين يردون لسلالة مائتي جندي من البسنة جاء بهم الامبراطور جستنيان بعد بناء دير « القديسة كثرينة » اختلطوا بعدها بالمصريين فأصبحوا مزيجاً من الروم والعرب والمصريين واعتنقوا الاسلام بعد النصرانية (٨٣) •

ويبقى ثابتاً أن سكان هذه القرى كانوا يمثلون الظهير الزراعي والممول الغذائي الزراعي اليومي للمدينة فيخرج أبناءها الفلاحون وكما تعودوا - كل يوم صباحاً متجهين نحو المدينة ليعودوا قبل حلول الظلام يعرضون حاجياتهم ومنتجاتهم في أسواق المدينة ، وتستغرق رحلتهم هذه ما بين ساعتين وثلاث سيرا فوق الرمال (٨٤) •

أما التركيبة الاجتماعية للمدينة :

صاغت المعتقدات السائدة حسب فلسفات المفكرين اليونانيين طبيعة وبنية التركيبة الاجتماعية في المدن خاصة ، ففي مدينة غزة شكلت طبقة المفكرين والعلماء سواء الكتاب منهم والأدباء والشعراء قمة المجتمع ولا يغلو عليهم الا طبقة من البيزنطيين يتكلمون جميعاً اللغة اليونانية على الرغم من ملامح معظم السكان السامية ، بالإضافة لانتشار عدة لغات من قبل الوافدين من البحارة والتجار ، حتى أولئك الذين ينحدرون من أصول عربية فلسطينية فقد غدا البعض منهم يتكلمون اليونانية ومنهم من يتحدث الآرامية ، ففي المدن الرئيسية عامة تتغير اللغة تبعاً للقوى المحتلة في حين وكما ذكرنا - تبقى المناطق الريفية الهامشية بسكانها في حالة من الثبات والاستقرار والتمسك بلغتهم السامية وتراثهم الحضاري المادي •

وإثنوغرافيا ، أصبح سكان غزة خليط من أجناس مختلفة عربية فلسطينية ويونانية كجزء من امبراطورية تميزت بعدم التجانس العرقي أو الجنسي وحتى الثقافي (٨٥) •

ثقافياً : بلغت مدينة غزة مرتبة هامة فعاشت فترة من الثراء الفكري وانتشار المدارس والكتليات وظهور طبقة من الأدباء لعبوا دوراً بارزاً في تطور الأدب اليوناني حتى وصلت الى مصاف أرقى المدن الهامة مثل أثينا وروما

(٨٣) غالى - سيناء المصرية عبر التاريخ والمرجع القديم ص ٤٧ •

G, Dawny ibid, pp.67-67.

(٨٤)

G, Dawny, Ibid, pp. 31.

(٨٥)

وانطاكيا والاسكندرية ولو أن التركيز بحكم الضوابط الجغرافية - لانباء غزة
فى توجههم العلمى كان فى اتجاه الاسكندرية فهذا هو « بروكوبيوس » الذى
درس فى الاسكندرية صاحب الشهرة أيام الامبراطور اناستاسيوس ٤٩١ -
٥١٨ م والذى قاوم اغراءات جامعات بيروت وانطاكيا وصور وقيسارية عاصمة
فلسطين وقتها فى التدريس فيها وأثر البقاء فى مدينته غزة ، ابدع هذا الرجل
فى وصف « ساعة » فى غزة كظاهرة نادرة ومثيرة تزين بها الميادين العامة
للمدن الكبرى فقط وكتب أيضا أوصافا لنقوش ورسومات وجدت فى غزة
ليوحى لنا ما تبوأته المدينة من مكانة حضارية كما ابدع هذا الكاتب شعرا
ونثرا كمسيحي ووع يرد فيها على المعارضين والملاحدين من الفلاسفة
الوثنيين .

وممن تعتز بهم غزة « جون الغزى » الذى وصف فى كتاباته وفى قصائده
المناظر المنقوشة فى حمام عام تظهر قوى الطبيعة على أشكال بشرية .

وهناك الأسقف « زخاريا مثيلين » الغزى كتب تاريخ الكنيسة باللغة
السريانية وهذا هو العالم « ثيموثي اوتيموثيوس » والذى تتلمذ فى
الاسكندرية وصاحب الاتجاه العلمى فى كتاباته فكتب عن الحيوانات كما حظى
الأعراب المتواجدين حول المدينة أو بداخلها بنصيب من دراساته .

لقد جمعت هؤلاء الكتاب مدينة غزة فى مسرحها يشيرون تحت سقفه
بشعرهم الكوميدي والتراجيدي كما كان بالمدينة ميدان سباق ولو أنها كانت
حكرا للطبقة الثرية دون الفقراء وغالبا ما تعقد فى الصيف مرة كل أربع
سنوات تماما كالألعاب النارية ، فتاريخ غزة عريق فى الألعاب ، ألم يزرها
الامبراطور الأولمبيادى هديران قبل قرون « سنة ١١٧ - ١٣٨ م » عدة مرات
وحينما جعلت المدينة من زيارته عبدا لها وبداية لتقويم غزى جديد سمي بالتقويم
الهدريانى سنة ١٢٩ م وسك نقودا نقش عليها اسم غزة (٨٦) .

وكما قال السيد داونى Downey مرجزا ان غزة مدينة جامعية على
الساحل الفلسطينى تدعو للفخر مثلها فى ذلك مثل أثينا وقد لعبتا دورا هاما
فى الثقافة اليونانية (٨٧) .

ومع نهاية عشرينات القرن السادس وعندما أصدر الامبراطور « يوستينيان »
٥٢٩ م مرسوما يمنع فيه العلماء الوثنيين من تعليم الفلسفة فى أثينا بدأت هذه
المدينة فى الذبول لتصبح غزة الملاذ لطلاب التعليم العالى فى العالم ساعدها على

G. Dawny, ibid, pp. 50-52

(٨٦)

G. Dawny, Antioch in the Age of eadostus the great, Norman, 1962. (٨٧)

ذلك موقعها الجغرافي الوسيط وشهرتها التجارية كعقدة التقاء ثقافى حضارى ودخول الديانة المسيحية فيها كحافز ثقافى ومعمد جديد نافست بها وثنية أثينا وتقاليدھا القديمة . . ولعل ذلك مدخلا للتحدث عن التطور التاريخى للمعتقدات الدينية فى غزة .

فدينيا : لا شك أن العرب الكنعانيين والفينيقيين ومعهم المصريين كانوا أول من ألهوا الشمس والقمر والنجوم . هكذا قال المؤرخ أو سابيوس - وأردف قائلا بأنهم أول من صرحوا بأفضليتها وتعلق الحياة والموت بها فأدخلوا بين الناس أساطير الآلة ونشروها ، لذا أشبهت ديانة العرب الكنعانيين والفينيقيين فى كثير من أمورھا ديانة مصر وأشور فألهتهم هى آلهة ممالك النيل والفرات وهى التى اقتبسها منهم اليونان والرومان وحولوها حسب عاداتهم فتطورت الأديان وتمازجت بتطور الأمم وتمازجھا (٨٨) ولما كانت غزة واسطة العقد الجغرافى ومنطقة التماس الحضارة فقد أبانت معابدها الوثنية قصة التطور الدينى عند القوة العربية الكنعانية وفى دخول المسيحية مع بداية القرن الخامس الميلادى .

فكان الوثنيون يملكون ثمانية معابد جميلة منتشرة فى الميادين العامة للمدينة وبداخلها وهى (٨٩) :

١ - معبد الشمس « هيلوس » Helios وهو نفسه الاله « بعل » عند الكنعانيين والذى أدخله المصريون فى عبادتهم وشبهوه بالشمس وعبدوا زوجته « استارتا » أى عشتروت المشبهة بالقمر .

٢ - أفروديت Aphrodite وهى اله لجمال وهى « عشتروت » الفينيقية والمصرية ، وفسينوس عند الرومان .

٣ - أبولو Apollo اله النور وهو معبود السلوقيين أدخلوه عند احتلالهم للبلاد كما يعتقد ماير Mayer

٤ - برسيفون Persephone اله الخضار ويمثل أعلاه انسان واسفله على شكل سمكة .

٥ - هيكانه رايسان Hecata له القمر ويمثل تمثال لامرأة ظاهرة العورة .

(٨٨) عيسى اسكندر المفلوف - الروابط التاريخية بين مصر وسوريا - مجلة المقتطف -

ديسمبر سنة ١٩٢٧ ص ٣٩٦ .

S.W.P., Vol. 3, ibid, pp. 251.

(٨٩)

٦ - هيريون Herior. إله البطولة ويسمى جونو وجوبيتر عند اليونان .

٧ - تيشاكون Tychacon إله الحظ ويبدو على صورة امرأة وقد نقش وجهه ورأسه على النقود القديمة .

٨ - مارنيون Marneion معبد الرب العظيم وكانوا يلجأون إليه عند الشدائد وقد بانت صورته على النقود أيضا وهو المعبود الأقوى الذي تخضع له جميع مجالات الحياة الطبيعية .

هذه هي آلهة غزة في عهدها الوثني التي أخذت في معظمها عن الديانة العربية الكنعانية والفينيقية والمتأثرة بالمعبودات المصرية والآشورية كصورة للاقتراحات والعلائق بين هذه الحضارات ليأخذ عنهم اليونان والرومان فيما بعد. حتى ليقال ان « هيريانوس » هو الذي اعتنى واهتم ببناء هذه الهياكل لما يكنه من كره للديانة اليهودية والمسيحية والذي جعل في فلسطين مراكز خاصة لهذه الديانات فخصص مدينة غزة للديانة الوثنية هي وميناؤها « يوما » انثيدون القديمة « سنة ١٢٤ م .

استمرت غزة على عبادتها الوثنية قرابة قرنين من الزمان واكثر حينما بدأت الديانة المسيحية دخول فلسطين على يد الامبراطور قسطنطين ٢٨٨ - ٣٢٧ م ذلك العسكري العبقري فمست التغيرات معظم مجالات الحياة جلبت معه المدينة غزة والمدن المجاورة لها خاصة مدينة رفح وما بينهما تغييرات هامة عقائدية وديمقراطية استيطانية .

لكن المسيحية لم تنتشر بسهولة في غزة الوثنية بدأها الامبراطور ثيودوسيوس theodosius ٣٧٩ - ٣٩٥ م وابنه ركاديوس Arcadius ٣٩٥ - ٤٠٨ م بسلسلة من الأوامر والتشريعات لوضع حد ونهاية لعبادة الأوثان والطقوس السحرية فبلغ عدد من اعتنق المسيحية في غزة في ذلك الوقت ٢٨٠ شخصا تضمهم كنيسة صغيرة واحدة اسمها كنيسة ايرين Eiren أى « السلام » أو ربما نسبة لبانيها Eiren وبها بيت صغير يقطنه أحد رجال الدين في حين ظلت المعابد الثمانية شاخصة بوسط المدينة ، ولم يستجب سكان المدينة لهذه الأوامر والقوانين الجديدة بل واجهوا المبشرين لها من القساوسة عندما كانوا يعلمون بمقدمهم بأن يوقدوا في طريقهم الحطب والأوساخ حتى تتركهم براحتهم وتعمى عيونهم (٩٠) . فأرسلت الامبراطورة

أفدوكسيا . Evdoxia - وكره فعل انتقامي - تأمر أركاديوس بتدمير جميع المعابد الوثنية الغزية .

فتفادى الامبراطور بخنكته وكياسته هذا الأمر العاطفي واضعا في اعتباره قيمة الضرائب السنوية التي يدفعها أبناء غزة بانتظام وأنه سيفقد هذه المبالغ للجزية والكبيرة لو نفذ أوامر سيده الامبراطورة لذا فقد قرر غلق المعابد فقط كاجراء أولى .

فاتحج أبناء المدينة وبدأ أغنياؤها في منتصف مايو سنة ٤٠٢ ميلادية من الوثنيين بالتوجه نحو المدن والقرى المجاورة ، ويعتبر الكثيرون أن هذا التاريخ يمثل بداية دخول المسيحية لمدينة غزة . ليأتي بعد ذلك رسول عسكري من قبل الامبراطورة ويدعى « كينجوس Cynegius » متفذا قراراتها فقول بالاعتراض والتظاهرات الشعبية التي واجهها بضرب الشعب الغزي واحراق معابده التي استمرت تشتعل فيها النيران لمدة عشرة أيام لم يبق منها جميعا سوى المعبود « مارنا » رب الأرباب لما كانت له من مكانة عظيمة في نفوس الناس الذين التفوا حوله بصلابة ما نعين السلطة العسكرية من حرقه مما دفع القائد ومن حوله من رجال الدين في التفكير والتأمل في الأمر . هل يقومون بحرقه ؟ أو تدميره ؟ وأشار رأى ثالث بنقله فقط لمكان آخر . ولم يحسم الموقف الا طفل صغير لم يتجاوز السابعة من عمره عندما نطق بالأرامية قائلا « المعبد يجب أن يحرق » حيث رأى رجال الدين في نطقه وحيا من الرب ، فحرقوا المعبد وسلبوا ما به من مجوهرات ثمينة ، ليجوب من بعد ذلك الجنود ورجال الدين المسيحي البيوت بحثا عن الأصنام وتدميرها (صورة ٢١) .

ومما هو جدير هنا بالذكر أن ميناء غزة « يوما » قد اعتنق سكانه الديانة المسيحية قبل سكان غزة سنة ٣٣١ م فجعلت بالتالي أساقفهم مستقلة ومن هنا أطلق على الميناء وسكانه اسم « قسطنديا » تيمنا بالامبراطور قسطنطين مما أشعل نار المنافسة فيما بينهما فرأى الامبراطور جوليان سنة ٣٦١ م بضم مدينة الميناء الى غزة تحت حكومة مدينة واحدة - ادازيا واقتصاديا وسياسيا مع الحفاظ على الاستقلال الديني لكل منهما .

بدأ السكان المسيحيون في المدينة في الازدياد وأخذوا في بناء الكنائس فوق أنقاض المعابد القديمة فأقاموا كنيسة فوق معبد الاله مارنا [والذي يقال ان موقعها هو موقع الجامع العمري الكبير الآن] فأمدتهم أوزوكسيا . باثني وثلاثين عمودا رخاميا عن طريق البحر لبناء الكنيسة التي استغرق تشييدها خمس سنوات لتسمى الامبراطورة بعدها « يوم ايستر سنة ٤٠٦ م » (٩١) .

وعلى الرغم من هذا بقيت بعض فلول الوثنية ماثلة في المدينة تقاوم المسيحيين ويذهب ضحية هذا الصراع العديد من القتل والجرحى حتى عام ٤٢٠ ميلادية لتستقر من بعد ذلك الأحوال . ويقوم القديس « برفيريوس » أسقف غزة ببناء كنيسة كبيرة تعرف الآن بكنيسة (الروم الارثوذكس) كتب عليها « بسم الله الحى الواحد القدوس » ابتداءً بعمارة هذه الكنيسة يسعى الأب برفيريوس مطران غزة سنة ٤٢٥ ميلادية (صورة ٢٢) .

وبانتشار المسيحية - أخذت جنوة الكتابة الدينية تنتقد بين رجال الفكر والأدب والشعر كما ذكرنا في المدينة سابقا ، كما أدخلت هذه الديانة عنصرا جديدا تمثل في التوسع السكنى وظهور نواة لحركة استيطان مدنى جديد ليس فقط شمال المدينة بل وفي جنوبها وشرقها في المناطق القريبة من مواقع الاستيطان الغربى الكنعانى القديم والرومانى .

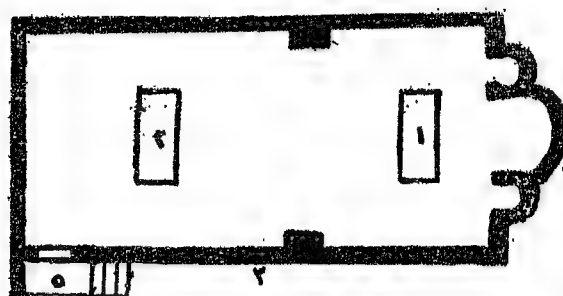
فان كانت القوى الرومانية قد أدخلت التجارة بأوسع أبوابها ومعها غرست العناصر البشرية في المدن الهامة تحرسها المخافر الرئيسية على الطرق الهامة ، فقد أتت الديانة المسيحية في العصر البيزنطى تبشر حركة الرهبنة المسيحية ورغبة الانقياد منهم الى العزلة والقرب من الصحراء - وهذه ميزة شزة الحدودية - فبنوا الأديرة المنعزلة التى جذبت بدورها بعض البسود من العرب للسكنى حولها فبدأت نواة عدة قرى جنوبية لغزة وهى :

قرية دير البلح أقيم فيها أول دير فى فلسطين أقامه القديس هيلاريون ٢٧٨ - ٣٧٢ ميلادية ولذى ولد فى « تبتة » أو « تافانا » القديمة وهى قرية أم « التوت الواقعة » على ضفة وادى غزة الجنوبية (٩٢) .

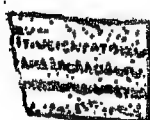
ويقال أقيم فوق قبره مسجد فى وسط دير البلح ، وهناك قول آخر يدعى بأن هيلاريون أنشأ مسكنا أقام فيه ديرين غزة وميوما . (خريطة ١٦) .

والى الجنوب الشرقى من دير البلح ظهرت وازدهرت مدينة أخرى يطلق عليها سوكومازون Sycomazon كانت مركزا للأسقفية فى العهد المسيحى ولعلها تحريف لاسم « سوق مازن » ومازن قبيلة من الازد والخزرج نزلت ببلاد الشام قبل الاسلام وقد ظهرت هذه المدينة على خريطة فلسطين فى الفترة الواقعة بين ٣٢٤ - ٦٤٠ ميلادية . حيث عثر فيها على صهاريج وبنائات وكثير من النقود الرومانية والبيزنطية وكذا الاسلامية (*) . والى الجنوب من موقع المدينة هذه

(٩٢) تمريج الابصار فى ما يحتوى لبنان من آثار وكتاب مصسطفى مراد الدباغ - بلادنا فلسطين - الجزء الأول - التسم الأول المرجع السابق من ٦٨٦ .
(*) تقع هذه الاطلال الآن فى أرض الشيخ حموده شمال بنى سهيلا .



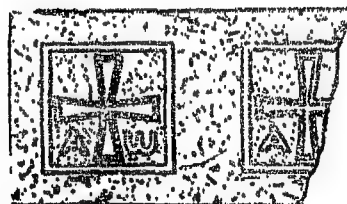
تخطيط لمنبر النضر
" ديرايلج "



٢



٢



١

بعض الكتابات التي عثر عليها في مقام الخضر سنة ١٨٧٢م

وفى منتصف قرية « عبسان » عثر على أرضية من الفسيفساء تدل على أنها جزء من أرضية لكنيسة (صور ١٦ و ١٧) .

والى الشرق من دير البلج ، كانت تقع « الدميشة » أو قرية « دائن » جنوب المغازى التى وقع على أرضها أول المعارك الاسلامية - البيزنطية المتجهة نحو غزة وربما كانت أشبه بموقع متقدم لدير البلج . فى الفترة البيزنطية حيث عثر بها على صهاريج للمياه وأثار لبنانيات قديمة بها بعض الاعمدة الرومانية الرخامية كما شاهدها « شوماخر » سنة ١٨٨٦ ميلادية (٩٣) .

ومن المواقع الأثرية الهامة التى لم تعثر بها أية دراسة على الرغم بما ينطق بها سطحها التلى من بقايا آثار من الشقف الفخارية وبقايا لنقود قديمة يعثر عليها فى منطقتين تقعان فى الشمال الغربى من مدينة خان يونس « التى لم يكن لها وجود حتى هذه الفترة - وعلى شاطئ البحر هما تل « قطيف » « وتله ريدان » الى الجنوب منها كما توجد تلة « جنان » الى الغرب مباشرة من خان يونس وعلى شاطئها (٩٤) .

وفى شرق مدينة غزة وعلى ضفاف واديه « وادى غزة » كشفت قنابل الحرب العالمية الأولى صدفة والموجهة من قبل الفرقة الاسترالية ضد الأتراك على أرضية من الفسيفساء فى تل جمه تشبه تلك التى عثر عليها فى غزة وعبسان وبيت لاهيا وسوق مازن وتعود جميعا للفترة البيزنطية أما فسيفساء تل جمه فعليها كتابة جاء فيها « لقد زين هذا المعبد بالفسيفساء الجميلة أبونا الراهب الاعظم وجورج الورع العظيم ، القسيس راعى الكنيسة فى سنة ٦٢٢ ميلادية وفقا للتقويم الغربى » (صورة ٢٩) . اى فى عام ٥٦١/٥٦٢ ميلادية ولقد زينت بحيوانات كالأسد وبعض الطيور والطاووس وطيور وحسوانات مختلفة شبيهة بتلك التى عثر عليها فى مدينة غزة وعلى شاطئها فى سنة ١٩٦٦ عن طريق الصدفة ، وهى عبارة عن أرضية الفسيفساء عليها كتابة يونانية ترجع لبدية القرن السادس الميلادى ٥٠٨/٥٠٩ ميلادية جاء فيها (*) :

[« نحن تاجرى الأخشاب مناموس وايزووس أبناء ايزيس المباركة ، أهدينا هذه الفسيفساء قربانا لأقدس مكان من شهر لوس من عام ٥٦٩ »] اى

P.E.F., 1886, pp. 177-178,

(٩٣)

Map of Palestine Sheet II, GAZA 1924.

(٩٤)

(*) لما كانت السنة الغزية تبدأ فى ٢٨/١٠/٦١ قبل الميلاد كما استنتج كليرمان غانو لذا اذا ما أردنا معرفة التاريخ الميلادى فعلىنا طرح ٦١ من هنا كانت سنة ٥٦٩ ميلادية تصادف سنة ٥٠٨ - ٥٠٩ وقد تم اكتشاف هذا الفسيفساء عن طريق الصدفة بواسطة « جرافة » سنة ١٩٦٦ وقامت بترجمة كتابتها أوتى .

ما يصادف عامي ٥٠٩/٥٠٨ ميلادية وقد زينت بحيوانات تمثل أشبال وزانات وأفعى وطاووس ونهر مرقط وحمار وحشى وطائر فى قفص (أنظر صور من ٢٣ - الى ٢٨) .

هذا النمط كما بينا كان منتشرا فى فلسطين فى الفترة البيزنطية ، كما اكتشف بالقرب من هذه الأرضية بعض أحواض يبدو انها كانت تستخدم للصبغة التى كانت تستورد - وفقا لتحليلات كيميائية - خاماتها من ايطاليا واليونان ومن مدن النقب وسيناء كما أثبتت الدراسة أن هذه المنطقة الصناعية كانت أقدم بسبعين سنة من أرضية الفسيفساء هذه والواقعة فى المنطقة المعروفة باسم « تلة بطشان » بين ساحل مدينة غزة وحى الشيخ عجيلة والتى سبق أن بينها على الخريطة باسم « قسطنديا » لأن هذه المنطقة تبدو وكأنها لعبت دورا بارزا لكثرة ما يعثر فيها من نقود قديمة متآكلة وسراجات فخارية وبقايا أوان فخارية وزجاجية كما يبدو بين طبقاتها السفلية طبقة سوداء محروقة تؤكد ان هذه المنطقة تعرضت لحريق (٩٥) .

وقد عثر على أرضية من الفسيفساء يبدو أنها كانت لأرضية كنيسة فى منطقة عيسان شرق مدينة خان يونس * (صورة ٣٠ - ٣١) .

أما من الوجهة الادارية :

فقد قسمت فلسطين الى ثلاثة أقسام ادارية هى :

فلسطين الأولى Palestine Prima وتشمل نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلى حتى رفح وعاصمتها * مدينة قيصرية .

وفلسطين الثانية Palestine Seconda وتضم طبرية والجليل وقلعة الحصن وعاصمتها « بيسان » .

وفلسطين الثالثة Palestine Tirtia وتضم بلاد الأنباط وبئر السبع وعاصمتها « البتراء » .

ومن هنا كانت مدينة غزة وقراها تلحق بفلسطين الأولى اداريا وللمدينة مؤسساتها الاجتماعية والقومية المستقلة وتتشكل من سكان المدينة الأصليين ويطلقون على هذه المؤسسات اسم « ديموس » Demos أى الشعب وكثيرا ما جاء ذكر هذه الكلمة على بعض النقود الغزية * وللمدينة مجلس أعيان يضم

خمسمائة عضو ينتخبون من بين العائلات الثرية وتمنح الأجانب حق التجنس بالجنسية الغزية باقتراع الشعب . حتى قيل بأن الامبراطور « بومبي » لم يمنح اليهود حق المواطنة الغزية .

بالإضافة لذلك كان للمدينة « محكمة بلدية » كأعلى منصب يمكن أن يرتقى إليه ابن المدينة ويتألف من موظفين توكل اليهم مهمة المحافظة على الأمن والنظام العام والآداب وتطلق عليهم « حفظة السلام » Irenarcha أى أشبه بوظيفة الشرطة ، هذا بالإضافة الى وظيفة « مسئول الأسواق » وموظفين لحراسة الأماكن المقدسة (٩٦) . وعودة لحياة غزة الاجتماعية فى القرن السادس الميلادى - يجملها السيد « دوانى قائلا » : -

ان بمدينة غزة عالمين متصارعين عالم يكافح من أجل الحياة وآخر يعيش فى كنف العلم والاعباد ، أما أولئك الذين يتكلمون السامية فيسود معظمهم الجهل والبطالة وبالكاد يعيشون على الحزن الناشف وبصعوبة قصوى يحصلون على الزيت والملابس انهم عاشوا وماتوا فى شوارع غزة . وهناك العالم الثانى بأناسه الذين يتكلمون اليونانية ويتنسمون أعلى المراكز الثقافية والاجتماعية ويعيشون فى فلك القسطنطينية والاسكندرية أبصارهم ترنو دائما نحو المجتمعات المتلألئة فى أنحاء العالم ، حياتهم معظمها أعياد وترف وموسيقى » (٩٧) .

هذا التمايز الطبقي كان وليد المعتقدات والأفكار التى تبنتها الافكار والمفكرون اليونانيون فقد كانوا يعتقدون بأن الناس غير متساوين بالطبيعة ، فمنهم من يخلق للحكم وآخر لكى يكون محكوما أما دور الكنيسة فيما بعد فى التخفيف عن هؤلاء البؤساء فقد كان حسنا عندما تقدم للبعض الملابس والمأكول والنقود فى أوقات الكوارث فتهب لتغيث المسيحي والوثنى على حد سواء لكنها عجزت أمام تجارة الرقيق فى المدينة ولم تقدم شيئا .

أما الوظيفة الاقتصادية للمدينة اهم عناصرها ، فربما كانت النقود وثيقة وبنية تاريخية لها مغزاها ومرماها الاقتصادية وأيضا الاجتماعى العميق ، فتلقى لنا الضوء على معظم مناحى الحياة فى المدينة وما جاورها .

فقد بينا ان بمدينة غزة دار لسك النقود استمرت كما بدأت أيام الفارسيين وازدادت سيولتها فى القوة اليونانية والرومانية منها ما حمل اسم أغسطس حتى حكم « ثيالاغا شالوس » ومنها ما حمل اسم « أنطونيوس » « وهديريانوس » . سنة ١٢٩ صاحب التقويم الغزى .

Dawney, Ibid, pp, 58.

(٩٦)

Downey, Ibid, pp, 55

(٩٧)

وبعضها حملت رسومات بعض المعتقدات الدينية مثل ضم الحظ « تينماون » وعلى رأسه صورة غزة المحصنة ، ومنها ما له دلالة اجتماعية عبرت عن وجود بعض المؤسسات الاجتماعية والتي نقش عليها اسم « الشعب Demos » وقد برز بعضها حرف M اللاتيني والتي يفسر البعض رمزها للاله « مارنا » ويفسر آخرون بأن لها دلالتها الرقمية والتي توضح قيمتها بأربعين نميا (*) .

ومن النقود ما ضربت أيام « جستنيان الأول ٥٢٧ - ٥٦٥ م تحمل حرفين لاتينيين L + B (**): ضربت في الاسكندرية (٩٨) لتشير للعلاقة التجارية في القوة البيزنطية بين غزة والاسكندرية والتي اوضحنا جانبها من هذه العلاقة عندما تحدثنا عن الحياة الاجتماعية والثقافية . (انظر الصورة رقم ٣١) كما سكنت نقود المدينة رفح تحمل اسمها سبق أن اوضحناها في موضع سابق .

أما الشق الثاني من الملامح الاقتصادية لمدينة غزة خاصة في الفترة البيزنطية فقد ازدهرت بعد فترة من الضمور في القرنين الثاني والثالث الميلاديين تقريبا ، وعندما سقطت تدمر تحت السيطرة الرومانية ثم توتر العلاقات بين الدول الفارسية في الرافدين والبيزنطية في سوريا أدى ذلك لتعطيل طريق القوافل عبر بادية الشام وعودة الحياة الى طريق التجارة الجنوبية من الجزيرة العربية الى البحر المتوسط . لتنشط من ثم رحلة الشتاء والصيف من شمال الجزيرة العربية وجنوبها وجنوب بلاد الشام على نحو من الازدهار لم تحظ به منذ تاريخ طويل (١٥٠٠ سنة ، تاريخها القديم) . ولتدخل جميع القرى الخزية والقديمة المؤدية لها في النقب مرحلة من الانتعاش الاقتصادي في القرنين السادس والسابع ولتبدأ الدولة البيزنطية في التمرکز العسكري في هذه المدن لحماية الطريق - ولتبعث فيها الزراعة والتجارة وتقيم بها الخزانات والسدود وتحفر الآبار - (٩٩) في نصبتان - العوجا حفير - عبدة - كرنب - تل الملح - الخلعة -) .

فأوضحت المنطقة الجنوبية بمثابة منطقة عازلة Buffer zone للدولة

(*) هذا الحرف M يشير للرقم ٤٠ في الأبجدية اليونانية بمعنى أن قيمتها أربعون نميا .

(**) هذان الحرفان يحملان الرقم ١٢ للدلالة على قيمتها باثني عشر نميا Nummia (٩٨) د عبد الرحمن فهمي محمد - النقود العربية ماضيها وحاضرها - القاهرة ١٩٦٤ ص ١٩ .

(١٩) Philip Maverson, The Ancient Agricultural Rigime of Nassana and central Negeb, in excavation at Nassana, pp. 211.

البيزنطية ضد العرب المتحفزين حولها والمنتشر بعضهم في كثير من هذه المدن .

فالتواجد العربى سبق الفتح العربى الاسلامى لهذه المدن ولا يمكن بأى حال أن نفصل ما هو اسلامى عن ما هو قبل الاسلام فلقد حاول كثير من المستشرقين اجثثا كل ما يشير الى العروبة قبل الاسلام وهذه ظاهرة خطيرة .

فالعرب - وعبر رحلة الشتاء والصيف - استوطنوا جميع هذه المدن - فقد وفدت القبائل العربية خاصة قريش واقام بعضها في غزة وما حولها . فقد أتى المدينة غزة في هذه الحقبة عبد مناف كما ذكره ابن هشام ، وكانت قبيلتنا « بنو عامر وبنو لؤى » ترحلان أيضا إليها في الجاهلية وقد أقامت بل وشكلتا حيا خاصا في غزة يعرف الآن « بحى بنى عامر » (شمال شرق مدينة غزة القديمة) وكذلك قدم إليها « بنو عبد شمس » بن عبد مناف وبها مكان حتى الآن يعرف باسمهم يقال له « جورة الشمس » فى حى الزيتون . أى خارج سور المدينة القديم اختصارا لجورة بنى شمس لأنهم كانوا ينزلون فى هذه البقعة لخصبها (١٠٠) . وكان يحلو للعرب ان يلقبوا غزة « بحمراء اليمن » قبل الاسلام .

ومات بها جده الرسول هاشم بن عبد مناف أثناء رحلاته فأقيم له مقام يقع على أطراف المدينة القديمة الشمالية مما أضفى عليها دلالة روحية لدى المسلمين وأصبح من بعدها يطلق عليها (غزة هاشم) .

وقد اشترك كثير من العرب فى مباريات غزوة العلمية التى أقامها البيزنطيون عندما أقاموا لها سوقا به موسم معلوم تبارى فيه الخطباء من روما واليونان وبعض القبائل العربية القرشية حتى وصلت أعظم شهرة لها أيام ملك فرنسا « كونتران » .

وفى مدينة غزة استغنى عمر بن الخطاب فى الجاهلية لأنها كانت متجرا لاهل الشام كما قال ابن حوقل (١٠١) وكما سيصبح هؤلاء الرجال وهؤلاء القبائل من كبار طلائع الفتح الاسلامى بعد فترة وجيزة .

كما أبانت خريطة « مادبا » مكانة مدينة غزة بين المناطق التى أوضحتها

(١٠٠) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الازعة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٦ .

(١٠١) محمد كرد على - خطط الشام - الجزء الرابع / دمشق ١٩٢٦ ص ٢٥٧ - ٢٦٠ .

من شمال مصر حتى جنوب سوريا مرسومة على أرضية من الفسيفساء تعود
لأيام الامبراطور « جوستينيان » (*) .

ولعل بعض حجاج اليونان أوجز مكانة غزة عندما مر عنها سنة ٥٧٠
ميلادية عندما قال « غزة مدينة مفتخرة ، مليئة بكل الأشياء المبهجة ، فمعظم
رجالها أمناء يتميزون بكل انطلاق وحرية وهم أصدقاء حميمون لكل
زائر » (١٠٢) .

ولعل وثائق « نصتان » [العوجا ضير] قد كشفت لنا الجذور العربية
للمدن الهامشية عبر طريق غزة - الجزيرة العربية التجارية والتواجد العربي
فيها وكذا تأثير البيزنطيين بها فهناك بردية « مؤرخة سنة ٥١٢ م تبرز أسماء
لجنود من أصل عربي مثل فلافبوس اوس بن ابراهيم الذي تنازل لأخيه عن
ملكية أداة حجرية لعصر الزيتون (١٠٣) . كما أبانت العديد من الوثائق أسماء
عربية الأصل مثل عبد الله - والعمير - وسعد الله بن المغيرة .

وهناك وثيقة من الجدير ذكرها ورد بها أسماء تسعة مواقع جنوب فلسطين
أمام كل منها مبالغ مالية أمكن تقدير تاريخها بمنتصف القرن السادس أو قبله
بقليل أي في عهد الامبراطور جستنيان (١٠٤) .

وهي كالتالي : -

المبلغ المطلوب أو المدفوع	الموقع
١٤١ ١/٤ نومسما	من الكرمل
» ١١٤	من خربة الغار (شعاع الكنعانية)
» ٤٨ ١/٢	من الخلعة
» ٨٢ ١/٢	من عبدة
» ٨٦	من نصتان
» ٦٢ ١/٢	من زباله
» ٧٠ ١/٤	من تل الملح (ملحانة الكنعانية)
» ٨٣ ١/٢	من بئر السبع
» ٣١ ١/٢	من كرنب

(●) اكتشفت هذه الخريطة على أرضية من الفسيفساء لكنيسة مادبا بشرقي الأردن سنة
١٨٨٤ .

Dawney, Ibid, pp. 162.

(١٠٢)

(١٠٣) د. مصطفى العبادي - محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام - بيروت - ١٩٨٢

المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(١٠٤) د. مصطفى العبادي - المرجع السابق ص ١٨٢ .

وتمثل هذه المواضع حصون بيزنطية لحماية الحدود الشرقية والجنوبية لفلسطين Limes Palestina وقد قدر كل من جون وايننج وهنتجتن عدد سكان هذه المدن ما بين ٦ الى ١٢ الف نسمة (١٠٥) في كل من « عبدة » و« العوجا » .

وقد جاء في بردية من برديات نصتنا ما يوضح مكانة غزة الادارية كمركز وعاصمة ادارية لهذه المواقع وتبرز بعضها من معاناة سكانها ربما العائدة لظروف الجفاف أحيانا أو لكثرة المبالغ المطلوبة منها فيرفعون شكاوهم الى الادارة المركزية لهم في غزة طالبين العفو أو التخفيف وقد جاء فيها ما يلي : « ١ »

« نود أن نحيط نبيل عظمتكم المحببة الى الله علما بأننا تسلمنا رسالة من عظمة السيد صموئيل ، وانه بشخصه يدعونا وياكم لتتوجه فورا الى سيدنا الوالى المبجل لعله يخفف عنا . لأنهم يثقلون علينا وعليكم ، ولا نستطيع أن نتحمل مثل ذلك العبء فاعلم أننا غدا يوم الاثنين سوف نذهب الى غزة وسوف نكون عشرين رجلا . ومع واحد بعد أن تفرغوا من قراءة الخطاب الحالى ارسلوه الى نصتنا لقد كتبنا الى سوباطه (سبطه) مع أطيب التمنيات والمودة » (١٠٦) [.

رسالة تدل على تظلم اجتماعى مرسل لحاكم غزة فى أواخر العصر البيزنطى . وكيف كانت غزة تمثل العاصمة الادارية لمعظم المدن الجنوبية فى النقب ابان الفتح الاسلامى .

أما رفح فقد احتفظت بموقعها الحدى على الطريق نحو مصر متمسكة بدورها الوظيفى « كنقطة عسكرية » فقد عثر فى منطقة رفح على حجر منقوشا عليه كتابات يونانية مؤلفة من عشرة أسطر ورد فيها اسم « اسكندر سيفارس » Severus Alexander الذى كان حاكما فى سنة ٢٣٣ م (١٠٧) حيث يرى البعض انه بمثابة « حجر كيلو » أو يرمز « لنقطة تفتيش » على طريق رفح - القنطرة - وان هذا الحجر يسد فجوة فى دراسة السيد طومسون Thomson الذى عثر على اثنين وعشرين حجرا على طريق مصر - الشام (*) . ومما يؤسف

(١٠٥) عارف العارف - تاريخ بئر السبع وقبائلها - القدس - ١٩٣٤ ص ٥٠ .

(١٠٦) د . مصطفى العبادى - محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام - المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١ ، وقبس من كتاب :

F. M. Heichelheim, Roman Syria, an economic survey of Ancient Rom, edited by T. Frank, Vol. IV, Baltimore, 1938, pp. 234.

P.E.F., 1886, ibid, pp. 184.

(١٠٧)

(*) عثر هذا الرجل على ٢٢ حجرا من ١ الى ١٨ لسوريا وفينيقييا ومن ١٩ الى ٢١ عثر عليها فى فلسطين (رقم ١٩ من البرج بالليل ورقم ٢٠ من منطقة اللد و ٢١ من دلهما كما وجد حجر رقم ٢٢ فى القنطرة بمصر .

نه ان هناك كسرا بالحجر عند ذكر المسافة بين سوريا ومصر (١٠٨) [صورة ٣٦] ويشير هذا الحجر الى الحدود بين فلسطين السورية ومصر [كما ورد في السطرين التاسع والعاشر] بشكل يطابق تلك التي أشار اليها المؤرخ الفلسطيني القيصاري يوسابيوس Eusebius ٢٦٠ - ٣٤٠ م بأنها في منطقة Peth Tappuh على بعد ١٤ ميلا غرب رفح والذي يقترح بعض الاركيولوجيين بأنها في منطقة « الشيخ زويد » وكما شخصها كل من ألت Alt ودالمن Dalman (١٠٩) في نفس المكان تقريبا . ولقد أوضحت خريطة مادبا الحدود الفلسطينية المصرية في منطقة تقع الى غرب « بيت بالون Bét'ylion والتي ربما هي نفس منطقة الشيخ زويد الآن والتي كان السيزنطيون يطلقون عليها نفس الاسم والتي ذكرها الرومان باسم Bethaftru ولم يعد يرد ذكرها قبل القرن الرابع أو بعده (١١٠) .

وفى عام ١٩٧٤ عثر أيضا على حجر فى منطقة رفح مكتوبا عليه كتابة ترجع لبداية القرن الخامس الميلادى وفقا للتقويم الغزى وتتألف من ستة أسطر جاء فيها :

« فى السنة ٤٧٠ من شهر ميكايير Mechoir ١٢
أبلايوس Ablabios ابن أبابلوس Ababoils البالغ ٦٣ سنة شجاع .
لا أحد خالد (١١١) . (صورة ٣٠٤) .

فالتاريخ هنا كتب بأسلوب تنازلى كما هو معمول به فى غزة والذي يوافق لسنة ٤١٠ ميلادية وهى الفترة المتأخرة من الوثنية فى غزة والتي كانت تقاوم فيه انتشار المسيحية كما ذكرنا .

ويؤكد هذا الحجر بكتابته مدى التأثير العربى فى الفترة البيزنطية على سكان المناطق الهامشية فان كان اسم « أبابلوس » يونانيا فى ظاهره فهو عربى فى مضمونه .

وفى هذه الحقبة أشار المؤرخ الغزى اللهوانى « قرية بيت لاهيسا » سيزومينوس Sozomenus على وجود معابد وثنية فى رفح لعبادة « ايللون كما اكتشف Iby سنة ١٨١٧ م وهو ينقب فى تل السلطان برفح على خرائب لمعبد كبير » (١١٢) .

I.E.J., 23, 1973, pp. 50-52. (١٠٨)

G. Dalman, p. J.B, 20, 1924, pp. 57. (١٠٩)

Avi Yonah, the Madaba Mosaic Map, Jerusalem, 1954, p. 75. (١١٠)
No, 120.

I.E.J. Vol, 24, 1974, p. 128-131. (١١١)

P.E.F, 1886 Ibid, p. 184 and F.M. Abel, Histoire de la palestine, (١١٢)
Paris, 1922, II, pp. 315-317.

فالكتابة بطريقتها هذه تكشف النقاب مجددا عن ان السكان العرب فى الفترة الوثنية لم يبرحوا المنطقة بأسرها وقد تأثروا بالهللينية شكلا لا مضمونا محتفظون بشخصيتهم العربية التى ورثوها من اجدادهم منذ آلاف السنين متفردة بقسماتها السامية ومتمسكة بأصالتها • ومنظرة قوة الدفع من قلب الجزيرة العربية لتمكنهم القدرة على الثبات والتجذر فى بطن الأرض العربية •

وتبقى فى منطقة رفح تلال تحمل فى جوفها آثارا لمراكز من العمران سواء المدني فيها أو العسكرى فالى الجنوب الشرقى من رفح هناك « خربة العدس » وهى منطقة كثيرا ما يعثر الاهالى فيها على « جرار فخارية » تعود بطرازها للعصر الرومانى والبيزنطى وكذا نقود رومانية بالاضافة الى تل مصبح - الواقعة الى الشمال مباشرة من خربة العدس بالاضافة الى المناطق الأثرية الأخرى مثل « أم المدينة » وتل رفح التى كانت تقوم عليه رفح الرومانية •

الفصل العاشر

الفترة الاسلامية

- عرب غزة وقراها هم « الدلاه » للفتح الاسلامي
- عمر بن الخطاب يعمل مبرطسا في غزة قبل الاسلام
- معركة السميشة « دائر » الفاصلة لفتح غزة
- بلورة نواة قرى عيسان وبنى سهيلا وخزاعة ومعن والنصيرات وسوق مازن ٠٠ ودير البلج
- ظهور احياء اسلامية جديدة حول غزة
- ضرب النقود الاسلامية في فلسطين

الفترة الإسلامية

خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة العربية المقفر الذى بقى بمعزل عن احتواء الغزاة وسيطرة المحتلين - خرجوا بقلوب خصبة بالايمان ليبنوا دولة الاسلام على الجمع والتأليف والاحاطة بالمعتقدات السائدة ، والعودة بها الى جذورها الابراهيمية التى أنبتت الفروع ، متجاوزين حدود التنظيمات والهياكل العنصرية والقومية العربية ، لأنها لم تقتصر على الشعب العربى .

فكانت دولتهم التى لم يسبقها ولم يلحقها من قبل ومن بعد دولة فى الامتداد والرقعة ، بل هى فى نظر « هالفورد ماكندر » الامبراطورية العالمية « World Empire » الأولى فى التاريخ « تقلد الاسكندر وتستبق نابليون (١) » .

فاذا كانت الحضارة اليونانية - الرومانية قد حدثها الحدود ، فالعرب المسلمون كانوا أكثر تشعبا وأوسع نطاقا وأجزل عطاء وأوفر انتاجا وأحلى خلقا للشعوب العديدة صاحبة الثقافات المتنوعة ، وفيما اقتصرت الحضارة الرومانية على حد رأى « كروسى Grousset » على حقل السياسة والفتح العسكرى أكثر مما مكنت الشعوب من العطاء فى حقل العلم والفن والأدب فان الحضارة العربية الإسلامية فتحت مجال الخلق والابداع مشجعة الشعوب للاسهام بما عندها من طاقات وقدرات مكبوتة لتنهض بترائها وفنونها .

ولأول مرة فى تاريخ فلسطين أصبح سهلها وجبلها تحت سيطرة شعب واحد يسوده التجانس الدينى والحضارى واللغوى ، فالفتح العربى مازال يمثل ثورة فى تاريخ هذه البلاد التى صهرها وغير من النمط حياتها تغييرا جذريا ليوحدها فى شعب واحد . فانلقاء العربى السامى كان دوما يلج البلاد مقتربا من حدودها يسكنها حينما ويقف على أبوابها أيام التراجع حينما ولا يتركها ابدا .

ومدينة غزة وقراها البوابة الجنوبية كان لها السبق والأولوية فى الفتح الإسلامى ولها فى هذا السبق مبررات : - فلم يأت على مدينة غزة حين من الزمان لم تكن القبائل العربية فيه على اتصال دائم ومباشر معها ابتداء من القبائل المعينية حتى القرون الأولى الميلادية ومن بعدها الفتح الإسلامى وكما

II. J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality, Pelican Books, (١)
1944, p. 74-75.

أوضحنا ذلك سابقا . بالإضافة الى أن غزة تواجه النقب الفلسطيني وهى ثغرة على البحر المتوسط والرثة التى يتنفس فيها تجاريا وهى بالتالى امتداد طبيعى متصل بشبه الجزيرة العربية ذلك الخزان البشرى الهائل الذى يرسل الموجات العربية مرة بدافع الهجرة سعيا وراء الرزق لما تمتاز به الشام من خيرات. وأحيانا بغرض التجارة .

ففى القرن الأول الميلادى هاجرت قبائل قضاة الحميرية من شمال الحجاز الى شبه جزيرة سيناء وارضى غزة التى استوطنت فيها قبيلة « بلي » .

وفى القرنين الثانى والثالث الميلادى وصلت الموجة الأولى لبنى كهلان التى من بطونها قبيلة « جذام » والتى من بقاياها قبيلة الحويطات ولخم وآل ربيعة وتعلبة وبنى صخر التى استوطنت مناطق جنوب غزة وحول «خان يونس» فيما بعد وما تزال كثير من بطونها تعيش لليوم (*) .

هذه القبائل لعبت دورا فى خدمة البيزنطيين كحراس لطرق المواصلات عبر الصحراء « فأهالى نجد أدري بشعابها » أكثر مما يعى البيزنطيون عن المناطق الصحراوية وكانوا يتقاضون أجورا على ذلك كما أوضحت عديده من « البرديات » التى عثر عليها فى نصستان « العوجا حفير » والتى وصل أجر العربى كدليل للقافلة متجهة نحو الطور الى ٣/٤ دينار عند نهاية القرن السادس الميلادى (٢) . كما كانت هذه القبائل العربية بمثابة الرصيد الاحتياطى والقبيلة الموقوتة ضد البيزنطيين خاصة عندما قطعوا وظائفهم فهب العرب من « بنى جفنة » وغيرهم من قبائل الحنم وجذام بثورتهم ضد البيزنطيين فزحفوا نحو أرض غزة ومنهم من اتجه نحو سيناء ليقفوا مع العرب المسلمين مقتحمين وياهم البلاد (٣) .

فلم يكن مستغربا والحالة هذه فى التكنيك العسكرى البيزنطى بأن تخرج جيوشهم بقيادة حاكم « قيصارية » لملاقات العرب المسلمين عند الثغرة الطبيعية والمدار الأراضى المتصل والمعبر التجارى الهام والمسرح البشرى للقبائل العربية وبوابة تدفقهم ، فى جنوب البحر الميت ، مما جعل « موقعة العرب » على حد رأى البلاذرى هى أول وقائع المسلمين مع البيزنطيين (٤) ومع المنطق الجغرافى

(*) هناك كثير من العائلات العربية الفلسطينية كمائلات العبدلة والفدرة والأحامدة هم جميعا بطن من جزيرة من جرم طى ، وللاستزادة راجع كتاب : الشيخ أبى الفوز محمد بن البغدادى (الدويدى) - سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب - بيروت ص ٥٠ - ٥٥ .
(٢) د. مصطفى العبادى - محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام - بيروت - ١٩٨٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) الفدوى - الذيل على الروضتين وتراجم رجال القرنين السادس والسابع - دار الجيل - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٤ ص ٤ .

(٤) البلاذرى - فتوح البلدان - القاهرة - ١٩٥٩ ص ١١٧ .

الطبرغافى هذا كانت الخبرة التجارية قد مكنت التجار العرب أيام الجاهلية أن تمنحهم الدراية فى الدروب واختيار أنسب المسالك وهؤلاء عند الاسلام أصبحوا « الولاة » والقادة العسكريين وعلى رأسهم « عمر بن الخطاب » وعمر بن العاص .

مدينة غزة هى سوق العرب منذ المعنيين وفى رحلة الشتاء والصيف ففيها قبر جد الرسول « هاشم بن عبد مناف » الذى توفى بها أثناء مروره بتجارته كما أيسر عمر بن الخطاب فى الجاهلية لوظيفتها كمستطرق لأهل الحجاز وكان بها عمر مبرطسا (٥) يكثرى للناس الابل والحمر ويأخذ عليها جعلاً وعليه كانت غزة « مدينة عربية » على مر العصور بجدارة واستحقاق إلا مراة فيه ومنه أقدم العصور (٦) لىأتى الفتح الاسلامى معززا ومؤيدا للهوية العربية لها .

وللدواعى الطبغرافية والجغرافية توجهت رأس الحربة الاسلامية بجيوشها نحو غزة عبر شمال النقب بعد أن تم لهم النصر فى « موقعة العرب » متجهين غربا ليصلوا الى « نصبتان » « العوجا حفير » سنة ٦٣٣ ميلادية وليصلوا الى مشارف غزة وعند جنوبها الشرقى يلتقى الجمعان فى معركة « دائن » سنة ٦٣٤ ميلادية التى يعرف موقعها الآن باسم « الدميثة » فى منطقة المغازى التى ربما كانت موقعا أماميا لكل من مدينتى الداروم « دير البلح » وغزة والتى سيأتى ذكرها فيما بعد .

ثم تتجه القوات العربية الاسلامية نحو غزة المدينة المسورة والمحصنة بقيادة عمرو بن العاص ليدخلوها فى ١٤ شباط ٦٣٤ ميلادية (٧) بعد هزيمة قائدها البيزنطى « بطريقيوس » أكبر قادة هرقل العسكريين فى الجيش البيزنطى . ونجحت بالتالى العسكرية الاسلامية من قطع الطريق بين مصر والشام ليتسنى لها عزل مصر ومن ثم لتبرهن على بصيرة واعية لقيمة الموقع الجغرافى الغزى كمفتاح لضمان فتحهم لمصر وهكذا كان . ولتأخذ غزة دورها كقاعدة ومنطلقا نحو مصر مما دفع القائد الاسلامى وثانى الخلفاء الراشدين « عمر بن الخطاب » لتفقدتها بعد فتح القدس سنة ٦٣٨م للاطمئنان على جيوشها والعودة ثانية عام ٦٣٩م للتفكير والتخطيط لخراجها فيما كان يتهدها من اخطار المجاعة (٨) .

وبدخول مدينة غزة دائرة الاسلام دخل كثير من سكانها المسيحيين فى

(٥) ابن حوقل - مورة الأرض - بيروت ٠٠ ص ١٥٩ .
(٦) Meyer, History of the city of Gaza, Ibid, p. 73.

(٧) البلاذرى - فتوح البلدان - المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٨) عارف العارف - تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١١٩ .

دين الله . فمثّلوا بين يدي القائد العربي عدرو بن العاص مطالبين باقتسام الكنائس مع إخوانهم الذين بقوا على دينهم - فحكم عمرو للذين أسلموا وهم الأكثرية بالكنيسة الكبرى فاتخذوها مسجداً وليسعى باسم « الجامع العمري الكبير » وبقيت الكنيسة الصغرى « الروم الكاثوليك » للأقلية المسيحية يمارسون شعائر دينهم بحرية سماحة الإسلام فيها . والسيد St. Willibald الذي زار المدينة سنة ٧٢٣ - ٧٢٦ ميلادية يقول « ان المسيحيين ما زالوا يحتفظون ببيوتهم وأماكن عبادتهم » وأنه سمع عن كنيسة القديس Church of St. Mattias لكنه لم يذكر متى ومن بنى هذه الكنيسة كما جاء على لسان هذا الزائر انه فقد بصره في المدينة التي كان مرض العيون منتشرا بها حتى اطلالة القرن العشرين (٩) .

وانتهى الفتح الاسلامي لفلسطين باستيلائهم على أهم المدن الساحلية المخصصة « قيصرية » سنة ٦٤٠م وعندما فتحوها ودخلها القائد العربي معاوية ومن معه « وكان بها خلق من العرب (١٠) ليؤكد التواجد العربي في هذه المدينة قبل الفتح الاسلامي .

التفتت بعدئذ الدولة العربية الاسلامية في ادارة البلاد فقسمتها اداريا الى أجناس وولايات وكور . . . وقسمت فلسطين الى ولايتين : الأولى وهي الجزء الشمالي من البلاد وعاصمتها مدينة « طبرية » والثانية وتحتل القسم الجنوبي من فلسطين وعاصمتها « الرملة » وكانت القدس تابعة لها . [انظر خريطة رقم ١٧] .

ولقد حافظت الادارة العربية لاسلامية في ايامها الأولى على النظام البيزنطي بأشخاص كما ذكر في بعض البرديات لكن هذه الادارة كان لها ايجابياتها فقد ورد في إحدى البرديات التي عثر عليها في « نصطان » التي كانت تتبع مدينة غزة ما يلي [٠٠٠٠] لقد تسلمنا منك أيها السيد سرجيوس بن جورج مقدار ما أعطينا ٣٧/٢ نومسما عدا حسب مسح الأرض الذي قام به العرب عهداً منح لك بأمر أميرنا الوالي مسلم من اقطاع بنى دعر » [(١١) هذا يعنى أنه قد تم مسح الأراضي بمجرد الفتح الاسلامي لها ولو أن هناك أكثر من احتمال لتاريخ هذه البردية فهناك المسح الأول أمر به الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٠ ميلادية وتبعه مسح آخر بنصف قرن أهر به عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ الموافق ٦٩٢ ميلادية ويرى ناشر البردية أن الاحتمال الثاني هو الأرجح .

ولقد عثر أيضا على تسع برديات من العصر العربي الاسلامي توضح عن ضريبة « الرزق » كتب غالبيتها العظمى بالعربية واليونانية وقد صدرت جميعا

Meyer, History of the city of Gaza Ibid, p. 76.

(٩)

(١٠) البلاذري - فتوح البلدان - بيروت ، ١٩٥٧ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(١١) د . مصطفى العبادي - المرجع السابق ص ١٨٦ .

من مكتب الولى فى غزة الى أهل « نصتان » العوجا حفير • مؤرخة جميعها بين
عامى ٥٤ هـ و ٥٧ هـ (٦٧٤ - ٦٧٧ ميلادية) واخرى كتبت سنة ٧٠ هـ
(٦٨٩ م) • وقد جاء فى احدهما وهى البردية رقم ٦٠ ما يلى بالخط العربى : -

بسم الله الرحمن الرحيم

(من) الحارث بن عبد الى أهل نصتان
من كورة غزة من اقليم الخلوص « الخلصة »

فاعطوا عسر بمدى بن خلد من بنى

سعد بن ملك رزق ذى القعدة

والمحرم وصفر وشهرى ربيع

سبعين مدى قمح ومثله زيتا

وكتب أبو سعيد فى ذى القعدة

من سنة أربع وسبعين • [انظر صورة رقم ٣٥] •

وهكذا ترى من هذه البردية مكانة غزة الادارية والى هى مقر الولى
الحارث بن عبد وتتبعها نصتان « العوجا حفير » التى هى بمثابة كورة تابعة
لاقليم الخلوص « الخلصة » ثم يحدد النص الضريبة ويسمىها « رزقا » أى طعام
الجند وأرزاق المقاتلة ، والى هى ربما كانت استمرارا للضريبة الرومانية التى
تقدم لطعام الجند *annona Militaris* وقد جاء فى البردية كلمة «عسر»
أى « عاجل » لأن مثل هذه الضريبة تتطلب السرعة فى ارسالها من هنا فهى
شهرية تختلف فى كميتها من شهر لآخر لاهميتها للناحية العسكرية وعليه
كانت عينية تؤخذ من المحاصيل مثل القمح والزيت (١٢) •

وهناك وثيقة أخرى تضيف لنا دلالات أخرى فهى تخرج من والى غزة
ايضا ليحدد أوامر « الرزق » نصفها عينا والنصف الآخر نقدا كما يتضح من
النص : -

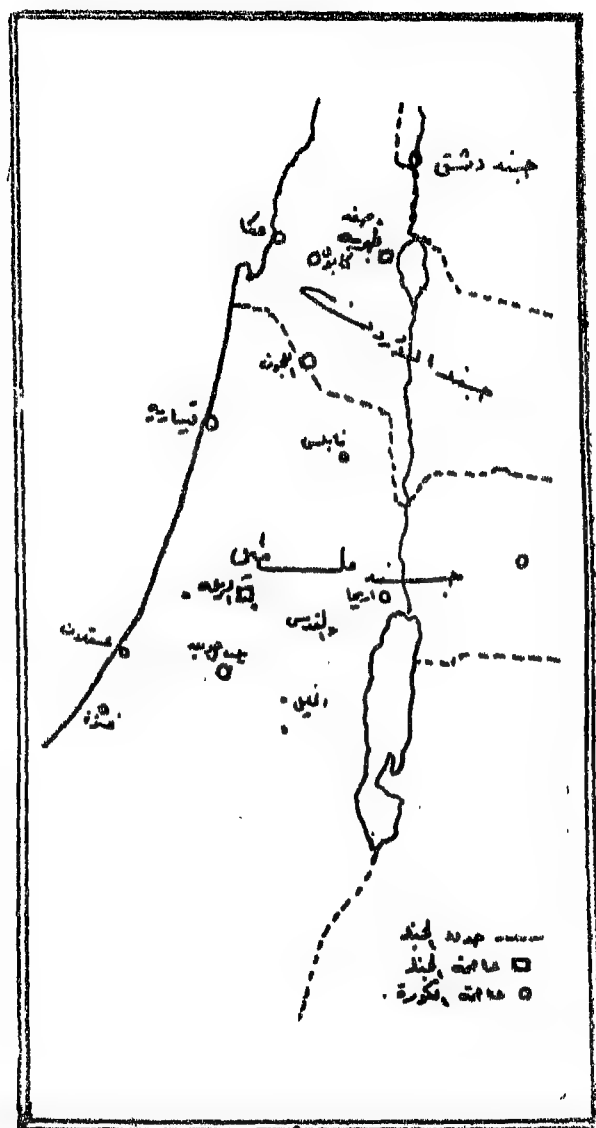
بسم الله الرحمن الرحيم • من الحارث بن عبد

الى أهل •••• من كورة غزة من اقليم سوق مازن

فاعطوا عسر عبد الله بن

علقمة من بنى سعد بن زير رزق

(١٢) د • مصطفى العبادى - المرجع السابق ص ١٩٩ - ٢٠٠ •



خريطة (١٧). أقسام فلسطين الادارية في القرن الثامن الميلادي

شهرى ربيع تسعة وسبعين
ومئتى مدى قمح (ومثله زيتا وثمان)
تسعة وسبعين ومئتى، مدى قمح و
مثله زيتا ثمانية عشر د
ينراً وثلثى دينر وكتب
٠٠٠٠ فى شهر ربيع الأول
من سنة ستة وخمسين .

تأتى بعد ذلك الترجمة اليونانية ثم مراجعة الحساب
مجمعه تسعة وسبعين ومئتى
مدى قمح ومثله زيتا وثمان مثل
ذلك ثمانية عشر دينرا
وثلثى دينر .

وهكذا يتضح من هذه البردية أن هناك نوعاً من ضريبة الرزق النقدي
بالإضافة إلى الطلبات العينية ، والضريبة النقدية هذه استخدمتها الإدارة
الرومانية والعربية على حد سواء وأطلق عليها الرومان *adaeratio* ومعناها
« قبضة » أو « ثمن » كما استخدمتها الإدارة العربية وأساس تقديرها بالدينار
الذهبي (١٣) .

كما أوضحت البردية اسم « سوق مازن » وهي مدينة عربية واقعة شمال
شرق مدينة « خان يونس » (أرض الشيخ حمودة) .

وبناء على هذه الوثائق التي حررت بعد الفتح الاسلامي بحوالى ثلاثين عاماً
نلاحظ أن القوى العربية الاسلامية حافظت على مكانة غزة الادارية كمقر للوالى
الذى بدأ يمارس سلطاته على القرى المحيطة بالمدينة وكذا فى مسح الاراضى
تمهيداً لاستغلالها . وعسكرياً ومن قبيل الاحتياطات الأمنية واحتساباً لعودة
الببزنطيين من البحر ، قامت الادارة العربية الاسلامية بترميم ما خربته الحرب
فأقاموا الحصون . والرباطات والقلاع لمراقبة الساحل (١٤) ، ولو أن هناك
من يفسر هذه الظاهرة بأنها كانت بمثابة نقاط ساحلية « لاستقبال الأسرى
المسلمين وافتدائهم بالمال عند هذه النقاط ، وبالنسبة لمدينة غزة فيعتقد أن

(١٣) د. مصطفى العبادى - المرجع السابق ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .
(١٤) د. السيد عبد العزيز سالم وزميله - تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط
الجزء الأول - الاسكندرية ، ١٩٧١ ص ٥ .

ميناء « تيدا » بالقرب من الابلاخية ، الآن كان هو « الرباط » الغزى لورود هذا الميناء على لسان ابن حوقل وخريطته بالاضافة الى غنى هذه المنطقة وظهرها بالملاحقات الأثرية من نقود وشقف فخارى وزجاج ٠٠ الخ وأن « رباط غزة » كان واحداً من سبعة رباطات منتشرة على الساحل الفلسطيني فى القوة العربية الاسلامية (١٥) .

والمسلمون كقوة برية بدأ توجههم نحو الداخل ، جذبتهم المكانة الدينية المقدسة للمدن الداخلية فأسسوا مدينته « الرملة » التى انشأها عبد الملك ابن مروان سنة ٧١٥ - ٧١٧م فأخذت تنافس المدن الفلسطينية جمعا لتأخذ دور العاصمة ولتصبح أعظم المدن الفلسطينية تليها بيت المقدس فى الكبر (١٦) لتتبعها غزة الذى بدأ الضمور يعتربها خاصة وقد أصبحت مركزا لحركات الجيوش العباسية والطولونية المتحاربة ، ومسرحا للاقتتال بين الدولة الطولونية والاششيدية هجعت على أثرها المدينة وانكفأت على نفسها فى زمام أراضيها وداخل أسوارها لتدخل فى عداد « القرى » الصغيرة التابعة للعاصمة الفلسطينية الفاطمية « الرملة » ولتنافس مينائها موانئ عسقلان وعكا وصور (١٧) فقد ساءت الاحوال الاقتصادية والاجتماعية فى عصر الخلافة العباسية وأصبحت الأمور تسير من سيئ الى أسوأ وبدأ الاحتراب يمزق الأهل منقسمين بين « قيس ويمن » فى اقتتال داخلى به اشتعلت نيرانها منذ عام ٧٨٨ ميلادية فى دمشق لتنتشر أوارها وتلهب نارها ربوع فلسطين وشرقها الاردن حتى مدينة غزة جنوبا ، فكان القيسيون من حزب العباسيين فى حين اصطف اليمينيون مشايعين الأمويين وسكان غزة كانوا يميلون « لليمانية » وتحزب أبناء الخليل وقراها وبعض قرى رام الله الى « القيسييه » (١٨) فكثيرا ما أشعلت هذه الفتنة التى استمرت قرونا وحتى أربعينيات القرن التاسع عشر من قبل الغزاة نار الاقتتال بين الشعب الواحد . ولعل استعانة معاوية بالعناصر العربية اليمينية لتسيير السفن البحرية دفعهم للتمركز على الساحل وذلك لتفوقهم على القيسيين الذين تمركزوا فى الداخل (١٩) واستمر الوضع المتردى مع الدولة الفاطمية لكثرة حروبها والتى أصبحت غزة - كقدر لموقعها - ممرا للجيوش عند توجههم للشام شمالا تارة لقتال مناوئهم وأخرى للقضاء على من يتصدى أن يشور من أمراء بنى طيء وسائر العرب فى فلسطين بقيادة « مفرج بن الجراح » عندما قضى

Meyer, Ibid, pp. 78,

(١٥)

(١٦) ابن حوقل - صورة الأرض - المرجع السابق ص ١٥٥ .

(١٧) د. السيد عبد العزيز سالم وزميله - تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط

الجزء الاول المرجع السابق ص ٢٧٢ .

(١٨) عمر البرغوثى و خليل طوطح - تاريخ فلسطين - القدس - ١٩٢٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٨ .

(١٩) د. السيد عبد العزيز سالم وزميله - المرجع السابق ص ٦ .

عليه العزيز سنة ٣٦٥ هـ ولعل هذا هو الدافع الذي أدى بالفاطمين لاستدعاء بطون قيس من بنى سليم وبنى هلال الى أن يسكنوا مصر ليأمنوا بهم جانب بعض القبائل العربية النازلة ببلاد الشام ، كما يؤتى بعد ذلك الى مديرية البحيرة بقبيلة « سنابس » احدى بطون طيء والقاطنة حول مدينة غزة ليأمن الفاطميون جانب هذه القبيلة . وهذه القبيلة - سنابس - لم تكن الوحيدة التى اضطرها الفاطميون للهجرة الى مصر بل اخلت بهم قبائل أخرى من طيء فعملوا هناك على تثبيت مراكزهم فازداد نفوذهم فى أواخر أيام الفاطميين (٢٠) .

وزاد الأمر ضعفا وتدهورا ما أصاب البلاد من اشتعال نار الفتنة بين الفاطميين والسلاجقة الذين بدأوا يغزون البلاد بعد أن استولوا على العراق واقتحموا أراضى فلسطين بقيادة ملكهم السلطان ألب ارسلان حتى غزوة عسقلان وفشلوا بالنال فى الوصول نحو مصر وردوا خائبين سنة ٤٦٩ هـ بقيادة ملكشاه بن ألب ارسلان أمام ثورة الشعب العربى الفلسطينى فى وجهه فواجهها بالفتك بالسكان وقتل الآلاف منهم فى القدس والرملة حتى غزوة التى قتل من أهلها أناس كثيرون (٢١) . لتعود البلاد ثانية للسلطة الفاطمية .

هذه الحروب انهكت القوى الفاطمية ودفع ثمنها سكان البلاد الذين تعرضوا أيضا الى ويلات الكوارث الطبيعية كالزلازل والأوبئة ففي شتاء ١٠٣٣ - ١٠٣٤ ميلادية ضربت الزلازل فلسطين على مدى أربعين يوما بصورة متقطعة دمرت فيها بيوتات من غزة والخليل وطبرية كما دمرت ثلث مدينة الرملة ونصف بيوت نابلس ومعظم منازل أريحا واكتسحت الامواج ميناء عكا لمدة ساعة . وقبل ذلك بعام وفى سنة ١٠٣٢ ميلادية كان قد ضرب مدينة غزة زلزال آخر ومعها عسقلان وكانت الخسائر شديدة حدث على أثرها مد بحرى طغى على سواحل المدينتين (٢٢) .

وصلت البلاد على أثر ذلك ونتاجا للاهتراء السياسى والتدهور الاقتصادى مع ما صاحبها من ضربات وكوارث طبيعية الى أدنى حد من الضعف يغرى أية قوة متحفزة للغزو فكانت الحملة الصليبية أمامها الطريق شبه مهده .

وقبل أن نتحدث عن هذه الغزوة نقف قليلا لأهم الظواهر الديمغرافية والثوابت الجغرافية العربية التى تبلورت فوق هذه الارض وضربت جذورها فى التربة الفلسطينية مزدهرة بالمناخ العربى الاسلامى صاحب الفتحة الجديد متدفقة على اثره موجات عربية من بطن الجزيرة ومتجهة نحو امتداد الصحراء

(٢٠) السويدى - سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب - دار احياء العلوم - بيروت

ص ٥٨ . لا يوجد تاريخ .

(٢١) عارف العارف - تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٢٧ .

I.E.I. Vol. I, 1950, pp. 51.

(٢٢)

الطبيعي المتصل جنوب الشام في فلسطين فتمركزت في النقب وجنوب غزة مدعمة التواجد العربي قبل الاسلام في المنطقة والذي سبق أن أشرنا اليه ونحب أن نؤكدده وهو أن التواجد العربي في المدن الفلسطينية في العصر البيزنطي قد سبق الفتح الاسلامي ومهد له وعضده ، تماما كما أن الحصار العربية هي حصار اسلامية مما لا شك فيه ولا انفصام بينهما .

اذن عززت القبائل العربية بعد الفتح الاسلامي التواجد العربي من قبله جنوب مدينة غزة مشكلة قرى صغيرة سرعان ما أسهمت في تشكيل مدن بالقرب منها فيما بعد وكان من هذه القرى : -

قرية عيسان

ولعلها ترجع « لبنى عيس » وهم بطن من قبيلة لخم التي سكنت هذه المنطقة في صدر الاسلام وقبله وقد ورد ذكرها على لسان الهمداني المتوفي سنة ٩٤٥ ميلادية (٣٣٤ هـ) حيث جاء في كتابه جزيرة العرب [ومن جشم ابن جذام بطن يقال لهم بنو جرى ينزلون بالرمل من الفرما وبنو بياضة من جذام وبنو راشدة من لخم وينزلون بالبصرة والواحدة والعريش ويغلب على عريش بنو الشعل من بنى جرى ومن بنى الشعل بعيسان قرية بداروم غزة] (٢٣) .

يستشف من ذلك أن قرية عيسان هذه تتبع اداريا مدينة الداروم « دير البلح » والتي أوضحنا مكانتها في القوى الرومانية - البيزنطية - لأنه وحتى هذا الحين لم يكن لمدينة خان يونس من وجود والتي لم تظهر الا في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي كما سيوضح .

قرية خزاعة

ولعل هؤلاء هم « الخزاعلة » الذين هم بطن من سننيس من طيء السابق ذكرها وقد قيل ان من سننيس طائفة بطايح العراق وطائفة بدمياط بمصر وكان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميين (٢٤) .

قرية بنى سهيلا :

نسبة الى « بنى سهيل » وجدهم سهيل بن عمرو بن عبد شمس وهم بطن من جذيمه جرم طيء مساكنهم مع قومهم جرم ببلاد غزة وقال الهمداني

(٢٣) الهمداني ، جزيرة العرب ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢٤) السويدي - سبائك الذهب ، المرجع السابق ص ٥٨ .

بأنهم كانوا سفراء بين الملوك وكان يجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببني فُهيد
ثم اختلطوا بهم وكانت من أعمالهم « قرينا سطر (*) والخصاص » (٢٥) .

قرية معن :

تقع الى الشرق من بنى سهيلا ويطلق عليها أصلاً « معين » وتنسب
الى « معين » القبيلة العربية التي هى بطن من بطون سنبس المار ذكرها .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن هذه القبائل قبل الاسلام وفى العصر
الجاهلي كانت تعبد الكواكب والنجوم (٢٦) « فكانت حمير تعبد الشمس
وكنانة القمر وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشتري وطى سهيلا » (٢٦) .

قرية دائن :

ذكرها ياقوت بأنها قرية من قرى غزة هزم فيها الكفار سنة ١٢ هـ حيث
أوقع المسلمون بالروم أول هزيمة فيهم (٢٧) . وقد أطلق عليها « الدميثة »
وفى الوقت الحالى يطلق عليها « المغازى » نسبة الى مجاهد اسمه « المغزا » يوجد
له ضريح فى المنطقة أسفل سدره وبالقرب منها آثار لأساسات وججارة
قديمة تشير لآثار قرية كانت تحتل مساحة لا تقل عن سبعين دونماً يحيط
بها خزانات « هرابات » ما تزال آثارها حتى اليوم باقية تطوق القرية
القديمة من الشمال والشرق والغرب (لهذه الهرابات فوهة دائرية يصل
قطرها متراً وتأخذ الشكل البيضاوى أسفل سطح الأرض وتصل قاعدتها
الى قرابة ثلاثة أمتار) (صور ٣٦ - ٣٧) .

وكانت تمول القرية بالمياه ، ويبدو أن قرية الدميثة هذه قد لعبت دور
نقطة الدفاع الامامية لمدينة « الداروم » جهة الشرق ، فقد شاهد « شوماخر »
عندما زارها سنة ١٨٨٦ ميلادية وبالقرب من السدرة بناية مربعة الشكل
على بقعة مرتفعة عند حائطها الجنوبي عمودان وعمود ثالث عند الحائط
الشمالى (٢٨) ويصل عرض الحائط الذى يسورها الى ٢٩ بوصة ، بالإضافة

(*) السطر : هى الأرض الواقعة الى الشمال مباشرة من مدينة خان يونس الآن .

(٢٥) السويدي ، المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢٦) صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٢ ص ٤٣ و ٥٠ عفت الشرقاوى - فلسفة

الحضارة الاسلامية - بيروت ١٩٧٨ ص ٨٦ .

(٢٧) ياقوت الحموى - معجم البلدان - ج ٢ - دار احياء التراث - بيروت ص ٤١٧ .

(٢٨) G. Schumacher, P.E.F., Researches in Southern Palestine, 1886, p. 193.

لوجود عديد من الأعمدة الرخامية والجيرية والذي لم يجد مثيلا لها - على حد رأيه - الا فى منطقة عسقلان .

أما رأى القائل بأن « الدميثة » هى مدينة « أنثيدون » الساحلية والتي سميت « تيدا » Teda كما اعتقد « بلينى » Piliny فهذا اعتقاد خاطئ بلا شك ، فقد أورد السيد سميت بأن المسلمين انتصروا بالقرب من أنثيدون Anthedon الساحلية على البيزنطيين « (٢٩) » .

فلا حاجة للربط والتحريف فى التسمية بين أنثيدون ودائن والدميثة فقد ورد فى خريطة ابن حوقل لفلسطين والشام فى الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى (٩٧٨ م) ذكر « تيدا » قبالة مدينة غزة وعلى شاطئها (٣٠) أما بالنسبة لما ذكره « سميت » فلا غرابة أن تواصل الجيوش الاسلامية بعد استيلائهم على مدينة غزة زحفها نحو الشمال الغربى لاحتلال أنثيدون أو « تيدا » على الساحلية وبناء الهرابات كما أوضحنا سابقا .

قرية سوق ملون :

استمرت هذه القرية فى وجودها بعد الفتح الاسلامى وقد جاء ذكرها فى برديات نصبتان السابق ذكرها ولا يوجد من آثارها سوى بعض « الهرابات » وأساسات قديمة لمناطق سكنية وطرق قديمة وشقف ونقود ترجع للعصر الرومانى والبيزنطى والاسلامى وتعرف الآن بأرض الشينج حمودة (صور ٣٨ - ٣٩) .

النصيرات

اسم قبيلة عربية ترجع لنسل « عبد الجابر الانصارى » ومن ذريته الشيخ أحمد الانصارى * والذي أنجب ثلاثة أولاد يدعى أحدهم « نصير » ويسكن بالقرب من الداروم (٣١) وهم جميعا بطن من الأنصار من الأزد من القحطانية ، وقد انتشرت هذه القبيلة فيما بعد فى الأراضى الواقعة جنوب وادى غزة مباشرة حتى دير البلح . وأخذوا يمارسون الزراعة واستوطنوا المنطقة الواقعة شمال مصب الوادى مباشرة والتي يطلق عليها « النصيرات » .

(٢٩) A. Smith, Historical Geography of the holy land, Ibid, p. 189.

(٣٠) ابن حوقل - صورة الارض - بيروت ص ١٥٨

(٣١) احسان النمر - تاريخ نابلس والبلقاء - الجزء الثانى - نابلس ١٩٦١ ص ١٧٣ .

(*) يقال أن لهذا الرجل ثلاثة أولاد أحدهم ناصر ونزل قرية عتيل والآخر ياسين وسكن

كفر قدوم والثالث نصير الذى عاش فى منطقة النصيرات جنوب وادى غزة وسميت لذلك باسمه .

أما الداروم « دير البلح » فقد فتحها المسلمون ومملكوها سنة ١٣ هـ بعد موقعة داتن ، ويقال لها « الدارون » ويبدو أنها لم تكن أكثر من قلعة عسكرية بها دير للعبادة كما بينا سابقا بدأ يعززها تجمع المسلمين من بنى زريق السابق ذكرهم والنصيرات كما جاء على لسان الهمداني سنة ٩٤٥ ميلادية ، لكنها على ما يبدو ووفقا لما جاء في كتاب معاوية الى عامله في جند فلسطين أنها لم تكن مركزا جنديا للاستيطان وفقا للمقاييس الديمغرافية في اختيار مواقع المدن الاسلامية فقد جاء في رسالته « اتخذ لي ضياعا ولا تكن بالداروم المجذاب ولا بقبيسا المغراق واتخذها بمجارى السحاب » فاتخذ له الطباني من كورة عسقلان (٣٢)

وهكذا كانت مجارى السحاب معيارا وأساسا في اختيار أنسب المواضع والمواقع للسكنى عند المسلمين وقد قال زياد بن حنظلة عند فتح الداروم « دير البلح » :

ولقد شقى نفسى وأبرأ سقمها
شد الخيول على جموع الروم
يضر بن سيرهم ولم يمهلهم
وقتلت فلهم الى داروم

رفح :

لقد أبدى الخليفة عمر بن الخطاب تعفظاته عندما تقدم قائده عمرو بن العاص يقود جيش المسلمين لفتح مصر سنة ١٨ هـ ٦٣٩ ميلادية « وقد أوضح هذه التعفظات بعد أن تقدم جيش المسلمين فى الأرض المصرية على هيئة كتاب أرسله للقائد عمر هذا نصه : -

« أما بعد فإن أدركك كتابى هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، أما ان كنت دخلتها أو شيئا من أرضها فامض واعلم أنى بمدك » .

فالتفت عمرو بن العاص الى من حوله وقال « أين نحن يا قوم ؟ فقالوا : فى العريش . فقال : وهل هى من أرض مصر أو الشام أجابوا : انها من أرض مصر وقد مررنا بعمدان رفح مساء أمس فقال : هلموا بنا اذا قيامنا بأمر الله وأمير المؤمنين » (٣٣) .

(٣٢) ياقوت الحموى - معجم البلدان ج ٣ - بيروت ، دار احياء التراث - المرجع السابق ص ٤٢٤ .

(٣٣) ابراهيم أمين غالى - سيناء المصرية عبر التاريخ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، ١٩٧٦ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

هكذا جاء ذكر رفح كمدينة حديثة سبق لنا أن أوضحنا هذه المكانة والوظيفة لها في عديد من المواقع الحربية والحجارة الأثرية التي اكتشفت فيها لتأتى هذه الرسالة وتؤكد هذا الدور .

أما بالنسبة للإشارة التي وردت في رد المسلمين على قائدهم والخاصة بعمدان رفح ، فهناك من قائل بأنها مسلات فرعونية وضعت كحد للأراضي المصرية الفرعونية أما ما هو موجود عبارة عن أعمدة رخامية ثلاثة وكما وصفها « شوماخر سنة ١٨٨٦ ميلادية بأنها أعمدة رخامية اثنان منها منتصبان ويثلاثان الحدود بين مصر والشام (ارتفاع الاثنان ١٣ قدما بقطر ١٦ بوصة) ويقعان أسفل سدة ويتجه الحد غربا نحو البحر وشرقا جنوب خربة أبو عمد (٣٤) والثالث ملقى .

وفي تقويم البلدان لأبى الفدا قال « حد ديار مصر الشمالى بحر الروم من رفح الى العريش ممتدا على الجفار الى الفرما الى الطينة الى دمياط الى ساحل رشيد الى الاسكندرية الى ما بين الاسكندرية وبرقة » .

لذا فان هذه الوظيفة الحديثة لمدينة رفح لم تكن الا وليدة الظروف الجغرافية الطبيعية فهي تمثل حدا مناخيا بين البحر المتوسط والصحراء الجافة قبل أن تكون حدا سياسيا فهي بحق جزء من وحدة فزيوغرافية تشمل الجزء الغربى من صحراء النقب وأقصى الطريق الشمالى العربى لسيناء وهى بالتالى جزء من اقليم أوسع لا يقتصر على هذه الوحدة الفزيوغرافية فقط بل يمتد شرقا عبر وادى عربية وشمال الجزيرة العربية وتاريخ الحدود منذ العصور الكنعانية - الفرعونية حتى الوقت الحالى بين لنا أن الحكام كانوا يقصرون اهتمامهم مع مراكز العمران والريف المنزرع فى مصر وفلسطين كى يرسموا حدودها .

وابان القرن الحادى عشر الميلادى أورد لنا أبو الحسن المهلبى عن رفح قائلا : -

وأعيان مدن الجنار العريش ورفح والورادة وأهلها بدو متحضرون ولجميعهم من طواهر مدنهم أجنة أملاك وأخصاص فيها كثير منهم - وبمدينة رفح سوق وجامع وفنادق وأهلها من لحم وجذام يزرعون فى الرمل زراعا ضعيفا يؤدون فيه العشر وبها عدة دكاكين يشتري منها كل ما يحتاج المسافر » (٣٥) .

هذا الوصف يعكس ظروف المدينة الاثنوغرافية والاقتصادية كمدينة واقعة فى منطقة التخوم الحديثة الصحراوية « الجنار » وكيف استطاعت هذه

G. Schumacher, P.E.F., 1886, Ibid, p. 183-184.

(٣٤)

(٣٥) ياقوت الحموى ، معجم البلدان - الجزء الثانى - المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٦ .

القبائل ممارسة الزراعة واقامة الجوامع والفنادق مستغلين موقعها كما عرفوا كيف يستثمرون هذا الموقع كما بينا فى الفترة البيزنطية .

هكذا كان الاستيطان العربى الاسلامى الجديد الذى بدأ فى الغالب خارج المدن ليعمروا خرائب الأرض ومنهم من دخل المدن لتكثيف التواجد العربى القديم وبناء أحياء لهم وهذا يقودنا للحديث عن مدينة غزة .

مدينة غزة :

ظلت مدينة غزة المدينة الادارية التى يتمركز فيها الولى فقد اوضحت وثائق نصبتان أن الولى منذ بداية الفتح الاسلامى قد اتخذ منها عاصمة ادارية له تخرج منها أوامره ويستقبل فيها أبناء رعيته من القرى المحيطة بها وقد بقيت المدينة مسورة ذات أبواب (باب الداروم من الجنوب بالقرب من جامع الشمعة الآن وباب عسقلان من الشمال وبالقرب من جامع السيد هاشم الآن وباب الخليل من الشرق بالقرب من مدرسة هاشم الاعدادية وباب البحر غربا ويقع على سفح التلة الواقعة عليها بالمدينة غزة الآن) .

دخل المسلمون المدينة وأخذوا فى ترسيخ تواجدهم ومراكز استقرارهم القديمة حول المدينة كما فى منطقة « جورة الشمس » جنوبا وفى شرق المدينة (فيماسمى بعد ذلك بحى الشجاعية) وفى شمال المدينة استقرت أيضا قبيلة « المشاهرة » التى هى بطن من بنى زريق وهم بدورهم فرع من بنى ثعلبة من طيء القحطانية والتى لا يزال هذا الحى يحمل اسمهم والذين سبق أن ذكرناهم فى النصيرات والداروم (٣٦) . هؤلاء هم الذين سيمثلون النسوة للأحياء الشرقية والشمالية والجنوبية للمدينة فيما بعد خاصة فى القوة الأبوية والملوكية » .

أما من دخل أسوار المدينة فقد استوطن على أطرافها وهم قبيلة بنى عامر ابن لؤى والذى يطلق حتى الآن على هذا الحى اسم « حى بنى عامر كجزء من حى الدرج وعلى الرغم من هذا التواجد العربى الاسلامى ، فقد ذكر المقدسى عنه نهاية القرن العاشر الميلادى - ٩٨٥ م - بأن معظم المدن سكانها من المسيحيين عدا مدينه « الرملة » التى أسسها الخليفة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧ م) .

بث الاعلام والآثار الاسلامية فى غزة :

ومن اعلام مدينة غزة فى هذه الحقبة الاسلامية المبكرة « الامام الشافعى »

(٣٦) المقرئى - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - ج ١ - الجزء الاول - ص ٤٨١ ، القاهرة ١٩٥٧ .

محمد بن إدريس بن عباس بن عثمان بن شافع . الذى ولد بها سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) ويرجع لأب كان من تجار قريش واستقر بغزة قبل الفتح الاسلامى ، وعلى الرغم من اختلاف الكثيرين فى أى البلاد أو المدن كان مسقط رأس الامام الا أن ابن العماد يقول « ولد بغزة أو عسقلان أو اليمن أو منى » وروى عن الشافعى نفسه أنه قال « ولدت بغزة وحملتني أمي الى عسقلان » وان صحت الرواية عن الشافعى بأنه قال « ولدت باليمن » فإنه قد أراد باليمن قبائلها فى غزة وهم أهل أمه لأنها « أزدية » (٣٧) . ومما هو معروف أن بمدينة غزة منطقة أو حى يسمى « يمن » وان سكانها يميلون كما بينا سابقا الى « اليمانية » .

ومن رجال غزة أبو اسحق ابراهيم بن يحيى الكلبى الغزى الذى ولد سنة ١٠٤٩ م فى المدينة ثم ذهب لدمشق سنة ١٠٨٨ م وتعلم القانون ثم ذهب لبغداد وتعلم فى الكلية النظامية ثم استقر به المقام فى خراسان وقد جمع أشعاره فى مجلد ضم خمسة آلاف سطر وتوفى سنة ١١٣٠ ميلادية فى بلخ (٣٨) .

ومن أقدم الآثار الاسلامية فى غزة « جامع الشيخ زكريا » عند سفح المدينة الغزى وفى حى الدرج بنى فى بداية القرن الخامس الهجرى كما جاء على إحدى بلاطاته : « عمر هذا الايوان المبارك ان شاء الله تعالى بأمر مولانا ملك الأمراء ٥٠٠ السيفى كافل المملكة الغزية أعز الله أنصاره فى شهر محرم سنة عشرة وأربعمائة » .

وبداخل هذا الجامع يوجد ضريح الشيخ زكريا نقش عليه « هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى زكريا التدمرى توفى فى شهر صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة » .

وقد أعيد بناء هذا المسجد ولم يبق من آثاره القديمة سوى مئذنته (صور ٤٠ - ٤١) .

ومما يسترعى الانتباه وجود مزارات لثلاثة من أولياء الله الصالحين بنيت عليهم مساجد ويرجعون لأسرة واحدة تمت بصلتها لمولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتوزعون فى ثلاث مناطق تحيط بمدينة غزة الأم ويتسمنون أعلى التلال المحيطة بها فأحدهم وهو « الشيخ عجلى » يقع فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى لغزة وعند ساحل البحر والثانى « الشيخ رضوان » ويقع على تلة تقع فى أقصى الطرف الشمالى الغربى والثالث الشيخ

(٣٧) عبد الغنى قمر - الامام الشافعى فقيه السنة الاكبر - القاهرة - دار القلم - ١٩٧٦ ص ٣٨ - ٣٩ .

M. A. Mayer, Ibid, p. 79.

محمد البطاحي « المنطار » على تلة مرتفعة أقصى شرق المدينة وعلى مسافة كيلو مترين تقريبا في حين يبتعد عن مسجدي الشيخ رضوان والشيخ عجلين بمسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات .

ويذكر النابلسي لدى زيارته لمزار الشيخ عجلين والشيخ رضوان بأن كليهما ولدا الشيخ أبي عرقوب الذي هو الشيخ ابراهيم دفين قرية حمامة وأنهما (الشيخ عجلين والشيخ رضوان) حفدة الشيخ علي بن عليل (٣٩) وللشيخ محمد البطاحي صلة قرى بهم ، وجدهم جميعا وهو الشيخ علي بن عليل بن علي عليه جامع شمالى أرسوف على الساحل الفلسطيني كتب على ضريحه « بعد البسملة ٠٠ هذا مقام سلطان العارفين وسيد الاولياء الكاملين شمس الوجود وبحر الفضل والوجود من شهدت كراماته وعمت الأنام بركاته الشيخ علي بن عليل بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن عبد الرحمن بن السيد الجليل الصحابي عبد الله بن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب الفاروقى القرشى رضى الله عنه توفى يوم السبت لأحد عشر خلت من ربيع الأول سنة أربعماية وأربع وسبعين » (أنظر الصور رقم ٤٢ - ٤٥) .

ويعلق القاضى مجير الدين الحنبلى على جددهم الشيخ علي بقوله « انه علي بن عليل وهو المشهور عند الناس بأبن عليم (بالميم) وأما نسبه الصحيح الثابت لعليل « باللام » وله ضريح بشاطئ البحر المالح بساحل أرسوف وعليه مشهد عظيم مأنوس وبه منارة مرتفعة (٤٠) توفى سنة ٤٧٤ هجرية .

وقد اتخذ كل شيخ لنفسه مزارا فوق تلة مرتفعة فالشيخ عجلين أقيم عليه مسجد فوق جرف مرتفع على شاطئ غزة للجنوب الغربى من موقع المدينة غزة الأم وقد عمر المسجد أحمد أغا متسلم غزة سنة ١٢٠٧ هجرية كما جاء على ضريحه ، ويبدو أن هذه المنطقة كانت مأهولة فى الفترة البيزنطية لوجود قبور قديمة وجرار فخارية ترجع فى شكلها للعصر البيزنطى وكذلك من الأعمدة والتيجان الرخامية المتناثرة فى المنطقة نفسها كما ذكرنا سابقا والشيخ من أبناء القرن الخامس الهجرى أما بالنسبة للشيخ رضوان فيبدو أن منطقته كانت عامرة بالسكان فقد بنى على ضريحه قبة ومسجد ومدرسة وكان لها أوقاف وقد جدد مزاره فى القرن العاشر كما جاء مكتوبا على الضريح وعلى اسطوانة ايوانه (قد بنى وعمر هذا المقام الشريف المبارك المعروف بالشيخ رضوان أمير الأمراء فى غزة مراد بك سنة احدى وسبعين وتسعمائة » ثم اندثرت

(٣٩) النابلسي - الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز - مخطوط .

(٤٠) القاضى مجير الدين الحنبلى - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - عمان الجزء الثانى

المدرسة وضاعت أوقاتها وأصبح يطلق عليها بعد ذلك « ضريبة القبة » كانت تحفها أشجار الزيتون والكروم حتى دمرها الأسطول الانجليزى فى الحرب العالمية الأولى نهائيا . (٤١)

وقد تم العثور عند حفر أساسات مستشفى الزهور (تل السكن) على شاهد قبر كتب عليه « هذا قبر السيدة فاطمة بنت الشيخ رضوان توفيت الى رحمة الله تعالى سنة أربعة عشر وخمسمائة » .

أما مزار الشيخ « محمد البطاحى » وهو من أبناء القرن الخامس الهجرى فيقع فوق تلة الى الشرق من مدينة غزة هى بمثابة مفتاحها الشرقى يطلق عليها « تلة المنطار » والمنطار ظاهرة عسكرية استغل فيها الخلفاء الراشدون التلال العالية المطلّة على المدن والقرى فى فلسطين فأقاموا فوقها أبنية أطلقوا عليها « مناطر » (مناظر) وجعلوا بها أفراد يراقبون ما حولها كأبراج المراقبة فى الوقت الحاضر ، فإذا ما داهم العدو المنطقة أُنذر هؤلاء سكان المدن بأشغال الدخان نهارا والنار ليلا فينتقل الخبر بسرعة لياتيهم المدد فكان لهؤلاء « المناظر » ومن بداخلها قيمتهم العسكرية ولا أدل على ذلك من انتشار اسم « منطار » على عديد من المواضع المرتفعة فى أنحاء فلسطين ، لذا لا مجال للتحريف فى تفسير كلمة منطار بتفسيرات بعيدة عن الواقع دس بعضها المستشرقون * .

ليس اذن من قبيل الصدفة أن نجد هؤلاء الأتقياء يتركزون على طول امتداد الساحل الفلسطينى من « أرسوف » شمال مدينة يافا حتى ساحل غزة الجنوبي ، فربما كان هؤلاء من المرابطين الذى يجاهدون فى سبيل الله داخل أبراجهم ورباطاتهم ومناظيرهم البحرية والبرية تيمنا بجدهم الصمغابى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى شجع على تحصين السواحل فحذا حذوه معاوية بن أبى سفيان فحصنها وشجعها بالمقاطعة وأقطع من ينزلها القطن (٤٣). فنجحوا فى صد البيزنطيين عند غزوهم الساحل فى سنة ٢٥ هـ وكذلك فى سنة ٤٩ هجرية ، فحققت مدن المراقبة الساحلية فى كل من عكا وقيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة حتى رفح « (٤٤) الهدف من وجودها فى مواجهة هؤلاء الغزاة فشدت بالتالى لها العديد من أتقياء الله الصالحين الراغبين

(٤١) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعيان فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤٢) عمر البرغوثى وخليل طوطح - تاريخ فلسطين - المرجع السابق ص ١١٠ .

(*) هناك من فسر « المنطار » بعدة تفسيرات لا سند لها مثل « المن طار » أو أنها تحريف

لاسم « منطريوس » أول قس دخل غزة ، وهى من الاجتهادات التى يعوزها الصديق .

(٤٣) البلاذرى - فتوح الشام - الجزء الأول ص ١٥٢ .

(٤٤) قدامه بن جعفر - الحراج وصناعة الكتابة - شرح وتعليق د. محمد حسين الزبيدى

دار الرشيد للنشر - بغداد - ١٩٨١ ص ١٨٨ .

فى الجهاد فى سبيله فكان من بينهم على بن عليل الذى دفن فى أرسوف ذلك الرباط الاسلامى المعروف ليخلفه من بعده حفدته يرابطون فوق تسلال مرتفعة على طول الشاطئ الغربى فى تلة الشيخ رضوان المرتفعة ٦١ مترا فوق سطح البحر والشيخ عجاين (٥٠ متر فوق سطح البحر) كمناطير ساحلية ثم تلة المنطار التى فوقها مزار الشيخ محمد البطاحى (٨٥ مترا فوق سطح البحر) شرق غزة كمناطير يرى وكان الثلاثة قد تسنموا مناطير عالية قديمة وبما زالت تحرس المدينة الأم من جهاتها المختلفة . فما هو معروف اهتمام المسلمين بالأساطيل البحرية وبنائها طيلة الفترة الاسلامية المبكرة وحتى أيام الدولة الفاطمية أيام المعز لدين الله الفاطمى ومن بعده ابنه الذى بنى المراكب البحرية العديدة التى كانت تذهب للمدن الساحلية الفلسطينية السابقة الذكر حتى القرن الرابع الهجرى بدأت بعدها هذه القوة فى الضعف حتى القرن الخامس الهجرى .

والى الشرق من الجامع العمرى الكبير مباشرة وفى موضع مكتبة الظاهر بيبرس قديما والمدرسة الحسينية فيما بعد يوجد ضريح قاضى قضاء غزة جاء عليه الكتابة التالية « بسم الله الرحمن الرحيم ، كل نفس ذائقة الموت . هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى شيخ الاسلام وقدوة الأنام قاضى القضاء شمس الدين أبو عبد الله محمد الأغبر الغزى الشافعى تغمده الله برحمته توفى الى رحمة الله تعالى فى شهر رجب سنة أربعمائة » .

وينتسب لنفس العائلة الشيخ حسن الأغبر المدفون على شاطئ غزة .

من هنا نرى أن الاستيطان العربى الاسلامى تعدى حدود المدينة الأم وأسوارها ليعمر المناطق الغربية الساحلية وعلى طول امتداد الساحل من الشمال للجنوب بمسافة لا تقل عن سبعة كيلو مترات كانت فى أساسها رباطات عززها المجاهدون فأقيمت عليها مزاراتهم ومساجدهم وبنيت بالقرب منها مدارس أحاطتها المزارع لتصبح مراكز إشعاع ثقافية واجتماعية لها قيمتها فأصبحت نواة تجمع حولها السكان كضواحي للمدينة الأم .

ومن ناحية أخرى نجد ان السكن العربى الاسلامى داخل مدينة غزة تركز منذ البداية عند حوافها على هيئة حزام خلف السور مباشرة كما هو واضح من موقع . حتى بنى عامر « عند حافتها الشرقية وجامع الشيخ زكريا عند سفحها الغربى وبقيّة المساجد التى سيمر ذكرها فى حينه والتى تركزت عند حواف المدينة وبالقرب من أبوابها الرئيسية .

أما بالنسبة لقرى غزة الشمالية فقد تركز العرب الفلسطينيون بها وساندوا سكنها وسكانها منذ البداية خاصة فى الفترة المتميزة بالاستقرار والاصلاح الزراعى ومسح الأراضى .

وعنده نهاية الحكم العباسي لم يعد يسمع الكثير عن هذه القرى سواء جباليا أو النزلة أو بيت حانون وبيت لاهيا وجاء ذكر الأخيرة فقط كقرية صغيرة في معجم البلدان (٤٥) . وحيث انزوت هذه القرى ولم تعد أكثر من « خرب » صغيرة تخدم مدينة غزة بما يلزمها من منتجات وفواكه يسوقها أبناءها كل يوم عند سفوح المدينة الشمالية وبالقرب من بوابتها (باب عسقلان) بالقرب من جامع السيد هاشم الآن .

ومن أقدم ما عثر عليه في هذه الحقبة الإسلامية في « قرية جباليا » وداخل مسجدها الكبير كتابة على ضريح بداخله جاء فيها : (نصر من الله وفتح قريب . لا إله إلا الله محمد رسول الله . الشيخ محمد المغفور ولي الله ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هذا قبر الشيخ المشيشي سنة أربعماية) وهذه الأسرة (المشيشية) تعود بنسبها وأصولها الى بلاد المغرب وتقرعت في عديد من الشام . (منها العلمية - القاوتجي - العقاد . . الخ) (٤٦) .

وما ان أهل القرن التاسع الميلادي حتى بدأ الضمور والانكماش ينتاب المدن من رفح والداروم وغزة حتى قراها الشمالية بعد أن عاشت فترة من الازدهار واكبت القرون الأولى من الفتح الإسلامي فأضحت بعدها صورة الحياة السياسية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين قائمة في فلسطين عامة ، كما اقترن بها التطاحن والاقتتال بين الأمويين والعباسيين ، تحول معها الاكتفاء الذاتي في اقتصاد البلاد من زراعة وصناعة تعدها لتصدير الزيت ، أعقبت تدهور زراعي وصناعي وصل لحد الكفاف وتغطية الاحتياجات المحلية من صابون وزيت .

وانتاب مدينة غزة بل وجميع المدن الفلسطينية الاهمال التجاري فبدأت تفقد أبهتها لتصل لمرتبة القرية الصغيرة ، وذلك لتحول طرق التجارة الرئيسية من جنوب فلسطين الى الطريق الشرقي عبر مرتفعات الأردن مباشرة ذلك الطريق المنافس والخطر للطريق الساحلي الواقعة عليه غزة . كما أصبح البحر المتوسط بحرا شبه مغلق يعج بالقراصنة فاتجهت معه خطوط الملاحة البحرية التجارية عبر شماله نحو البحر الأسود ونهر الدانوب تسيطر عليه القوى البيزنطية ، وعليه أقام المسلمون خطوطا أرضية عبر شمال أفريقيا وآسيا وأصبح التوجه المدني نحو الداخل فاستبدلت الاسكندرية بالقاهرة وصور بدمشق وانطاكية بحلب كما أصبحت « الرملة » المدينة الرئيسية والعاصمة الفلسطينية لذلك فقد البحر المتوسط أهميته العالمية في هذه الفترة ولم تعد معه المناطق الجنوبية الفلسطينية « منطقة ارتطام » فتكاثفت بالتالي الظروف السياسية القاسية والأحوال الاقتصادية المتردية مع الكوارث الطبيعية من زلازل كما أسلفنا من

(٤٥) ياقوت الحموي - معجم البلدان - الجزء الاول . ص ٥٢٢ .
(٤٦) الشيخ عثمان الطباع - الشجرة الزكية - غزة - مخطوط .

توجه الأطماع الأوربية الصليبية نحو الوطن العربى لاسيما وأن تجار جنوة والبندقية كانوا من أكبر مموليهما يحدوهم الطمع الاقتصادى (٤٧) .

ولعله من المفيد قبل أن نتطرق بالحديث عن الغزوة الصليبية أن نلقى الضوء على ظاهرة اقتصادية ان لم تكن ثورة اقتصادية جبارة أدت الى تحولات فى البنية الاقتصادية العربية والاسلامية فى حينها وكشفت فى الوقت نفسه عن دلالات سياسية وصور اجتماعية على مدى أربعة قرون ونصف ابتداء من الفتح الاسلامى وحتى الغزوة الصليبية هذه الظاهرة هى سك النقود الاسلامية ومدى علاقتها بالأرض الفلسطينية عامة ومدينة غزة بوجه خاص والتي اشتهرت منذ الفترة الفارسية بدور السك .

النقود الاسلامية :

لقد عرف العرب التجارة ومارسوها قبل الاسلام برحلتى الصيف والشتاء نحو الشام واليمن وكان لهذه التجارة مردود هائل من الأرباح تصل الى مائة فى المائة من بلاد الشام ، كما قدرت أرباح القافلة التجارية الواحدة بما يقرب من خمسين ألف دينار بيزنطى ، وتعامل العرب كذلك مع أهل فارس شرقا بالدرهم الساسانية ، حيث لم يكن للعرب نقود يتعاملون بها ، ولما جاء الاسلام أقر الرسول عليه الصلاة والسلام هذه النقود فى المعاملات التجارية خاصة وانه عليه السلام قد زوج عليا كرم الله وجهه ابنته فاطمة بأربعمائة وثمانين درهما وفرض زكاة المال بهذه النقود السائدة وقد أشار ابن سلام فى كتابه الأموال الى الكثير من هذه المعاملات (٤٨) .

ولما تم الفتح الاسلامى لفلسطين بدأ ظهور الكلمات العربية بجانب الكلمات اليونانية فوجد مثلا تكتب ايليا بالعربية واليونانية وكذلك طبرية كما رأينا فى بردية نصبتان المرسلة من والى غزة اليها طالبا منه ضريبة « الرزق » على هيئة مواد عينية كالزيت والقمح ودنانير ذهبية بيزنطية ثم أخذت الكتابة اليونانية تتلاشى بالتدريج لتحل محلها العربية الى أن أصبحت عربية خالصة وظهرت النقود الاسلامية على يد عبد الملك بن مروان .

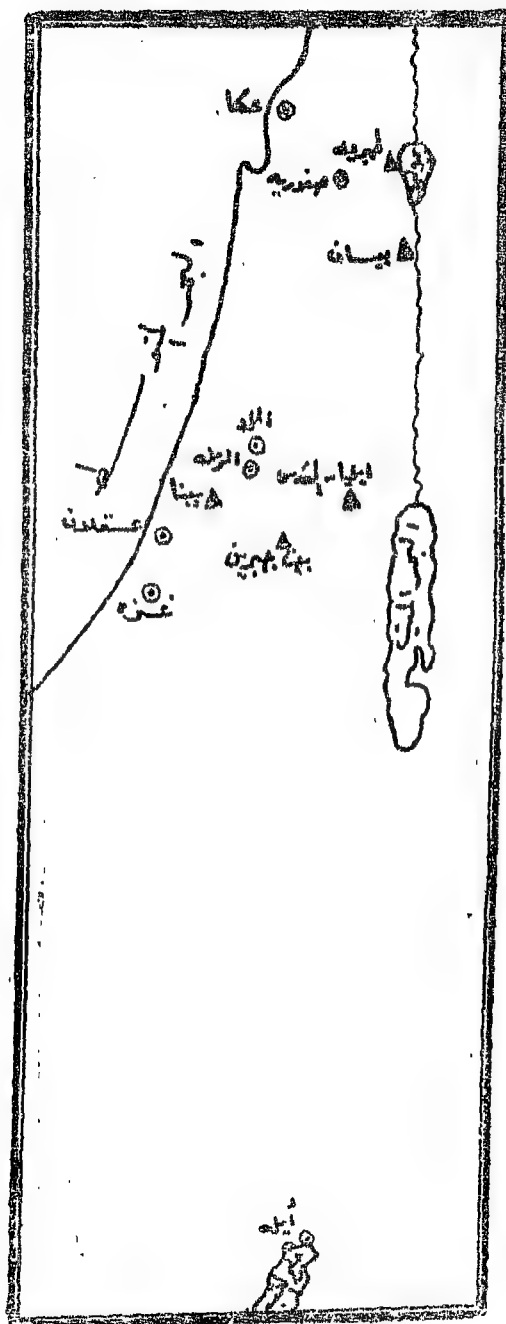
ففى المرحلة الانتقالية - البيزنطية العربية كانت هناك دور لسك النقود فى فلسطين فى كل من مدن ايليا فلسطين (القدس) وبيت جبرين وبيسان وطبرية وينبى . حيث ظهرت نقود اسلامية عليها تأثيرات بيزنطية (صورة رقم ٤٦) .

W. B. Fisher, Middle East, London 1950, p. 136,

(٤٧)

(٤٨) د. عبد الرحمن فهمى محمد - النقود العربية ماضيها وحاضرها - القاهرة ١٩٦٤

ص ٢٢ - ٢٣ .



خريطة (١٨)

المدن الفلسطينية التي سكنت فيها النقود الإسلامية

مدن سكنت فيها النقود في صدر الإسلام

• مدن سكنت فيها النقود في العصر الأموي

ولما قام بتعريبها عبد الملك بن مروان رأى أن يغمر الأسواق بهذه السكة لتغطي حاجة الناس وتلبي احتياجاتهم فقام بفتح دور ضرب جديدة في فلسطين في كل من مدينة غزة ورملة فلسطين وعكا وعسقلان وصفورية وأيلة (أم المرشش) (٤٩) . (خريطة رقم ١٨) .

من هنا تهبأت فلسطين في العصر الأموي مكانة انفردت بها عن بقية الأجناد الخمسة الإسلامية في الشام كله وأمكن التآكل من ثلاثة عشر دارا فلسطينية للضرب وهذا بدوره يعكس ما حظيت به فلسطين من مكانة مميزة في العصر الأموي مما دفعها بالقيام بدور حيوي وفعال في حركة الإصلاح النقدي بل والتعريب فمعاوية أقام في القدس وعبد الملك بن مروان باني قبة الصخرة المشرفة سنة ٧٢ هـ « ٦٩١ م » كأعظم أثر إسلامي وعرب النقود والدواوين بها وقد ظهرت له نقود ضربت في فلسطين (الرملة) ظهر فيها واقفا متمنطقا بسيفه (أنظر صورة رقم ٤٤) وعليها تأثيرات بينظلية (حرف V) عثر عليها في مدينة غزة .

كما بنى الوليد بن عبد الملك المسجد الأقصى وتوجها سليمان بن عبد الملك ببناء مدينة الرملة ومسجدها الأبيض .

أما العصر العباسي بعهودة الطولونية والახشيديّة ومن تبعهم من الولاة ٧٤٩ - ٩٦٨ م (١٣٢ - ٣٥٨ هـ) فلا نجد سوى دار ضرب للعملة الذهبية في الرملة شاركتها دار فرعية في مدينة « طبرية » (٥٠) .

ومما يلفت النظر في العصر العباسي هو كتابة « القدس » لأول مرة في عصر المأمون بدلا من اسمها القديم « ايليا » .

اذن بدأ الضمور في دور الضرب الفلسطينية في العصر العباسي بحيث لم يتعد مدينتي طبرية والرملة التي ضرب فيها الخليفة المكتفي دنائير ذهبية ودراهم فضية خالية من أسماء الولاة .

أما العصر الفاطمي فقد عكست النقود الإسلامية من دنائير ذهبية ودراهم فضية تأثير الأحلاف والمصاهرات والصراع الدائر بين القرامطة من أجل الحكم والسيطرة (٥١) لتعكس التردى المالي بعد رواج في أوائل العصر الإسلامي .

(٤٩) ظهرت بعض هذه النقود في كتاب ستانلي لان بول .

Stanley Lane-Poole — Catalogue of the collection of Arabic Coins,
Cairo, 1984, pp. 91 and 110-115, and 141-144.

(٥٠) يوسف النتنشة - سكة فلسطين الإسلامية - رسالة ماجستير غير مطبوعة - القدس

ص ١٠٩ - ١١٠ وعلق عليها بمجلة الفجر الأدبي - عدد آذار سنة ١٩٨٣ ص ٣٦ - ٤٣ .

(٥١) المرجع السابق ص ٢٥٤ .

غزة - ١٩٣

الفصل الحادى عشر

الغزوة الصليبية

- الداروم تنفوق على غزة كقاعدة امامية للصليبيين
- صلاح الدين يحاصر الداروم وغزة
- الصليبيون يزيفون النقود الاسلامية
- الاستيطان خارج أسوار غزة والى الشرق منها على يد صلاح الدين
- هزيمة الصليبيين فى بيت حانون أدت الى نهايتهم

الغزوة الصليبية

قامت الغزوة الصليبية على البلاد بعدة هجمات فى فترات متلاحقة ، ابتدأت بزوة الأولى سنة ١٠٩٦ - ١٠٩٩ م لتغطى قرنين بالضبط « الثانى عشر ثالث عشر » اكتسبت المنطقة بشمان أو تسع موجات لم تكن فيها على شكل وشن نظامية بل تشكلت عفويا على هيئة ميليشيات البروليتارية والعبودية طاعية الخاوية مما دفعها الى البربرية (٥٢) فمن المؤكد علميا بأن الصليبيات سم على غير مسمى دوافعها الدفينة ومحركاتها كانت اقتصادية - مادية . حين استثمرت الدولة العربية الاسلامية موقعها الجغرافى الوسيط ضابطة سيطرة على جميع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب مستفيدة بذلك الا طائلة منحتها القوة والثراء والتقدم الحضارى الزاهر ، فى هذا الوقت ، ت المدن الأوروبية التجارية النامية تنظر الى هذا الفيض الدافق على العرب يد أن تنقض عليه .

فالدولة العربية الاسلامية تمتعت باقتصاد زراعى مستقر يقابلها مجتمع بى صليبي يعانى اقتصاده الزراعى من التخلف يكبله رق الاقطاع الفاشس .

ومما يؤكد ان دوافع الحرب الصليبية الكامنة اقتصادية .. أنها أخذت ندى من كبار تجار أولييجاركية البندقية وجنوة وبيزا وحينما أوشكت على انتهاء أصبحت أقرب الى القرصنة التى تسلب وتنهب ، فأساطيل المدن الايطالية التى ساعدت الصليبيين على الاستيلاء على معظم مدن الساحل ومنها صور وعكا دخول القدس سنة ١٠٩٩ م ليضعوا « جودفرى » ملكا على بيت المقدس تنتهى الحملة الصليبية الأولى (٥٣) .

أما التبرقع بقناع الدفاع عن المسيحيين فى الأراضى المقدسة وحماية الحجاج اضطهاد السلجوقية الحاكمة فهو باجماع واتفاق كل الآراء فرية ملفقة ومنطق ير لا أكثر ولا أقل (٥٤) . ولو كان هدفها دينيا محضا لما اتسع مداهنا استراتيجى ليتعدى أرض فلسطين المقدسة وليهدد مصر والحجاز والعراق .

لقد ساعد التمزق السياسى العربى وتشرنقههم الى وحدات سياسية قزمية

(٥٢) Philip Hitti, The Arabs, London, 1948.

(٥٣) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، د. حسن ابراهيم حسن ، الرابع ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ ، القاهرة ص ٢٤٧ .

(٥٤) Fisher, Middle East, pp. 136

أشبهه بدول المدن والولايات والأتابكيات في الشام وحصص الصليبيين على الاستيلاء على أراضيهم فابتلعوا الأجزاء الشمالية لفلسطين في مدينة عسقلان عند غزوتهم الأولى سنة ١٠٩٦ - ١٠٩٩ م وعليه تركّز الاهتمام الصليبي العسكري بمدينة « عسقلان » فتحوّلت لمدينة عسكرية محصنة حدودية أمام غزة - التي أصبحت تواجه مباشرة القوة الصليبية - التي لم يستولوا عليها إلا مع بداية الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٠٠ م . وبدافع الاحتياطات الأمنية والعسكرية كانت غزة مدينة مسورة ذات قلاع ، حاول على أثر ذلك « بلدوين الثالث » من إعادة ترميم ما هدم من سورها وأنشأ وتجهّز تحصيناتها سنة ١١٥٠ م (٥٥) ، كما أنشأ « كنيسة القديس يوحنا » كما يدعى كليمان غانو سنة ١١٤٩ م على أنقاض كنيسة قديمة وفي الحقيقة أنه أقام هذه الكنيسة على حساب الجامع العبري الكبير فحوّله إلى كنيسة بعد أن أصابه التدمير على أثر الحرب لقرب موقعه من باب المدينة الشرقي وقلعتها « باب القلعة » ويبدو أن الصليبيين قد عزّزوا تواجدهم الساحلي كنقاط إمداد لهم يوثق علاقاتهم ويحفظ خط الإمداد والتمويل عبر البحر لهم من الدول الأوروبية الممولة فقد ذكر الإدريسي سنة ١٩٥٤ م ميناء « تيدا » الغربي والذي استمر باقيا ، وحافظ على وجوده المسلمون كما ظهر على خريطة صورة الشام لابن حوقل في القرن التاسع الميلادي (٥٦) .

إلا أن مكانة غزة العسكرية والتجارية لم تعلم اليها فلم تتعد أهمية أكثر من قاعدة للتجهيزات العسكرية ضد الزحف العربي الإسلامي المتقدم من مصر جنوباً ، لذا بدأ الاهتمام الصليبي في التوجه جنوباً لأقصى حد ليقتفوا عند « الداروم » « دير البلح » ليتخذوا منها رأس حربة وقاعدة متقدمة تواجه القوى الإسلامية فأقام بها الملك « عموري » سنة ١١٦٢ - ١١٧٣ م قلعة ذات أبراج أربعة في كل زاوية للدفاع عنها (٥٧) ، لتتبعها بعدها المدينة مكانة هامة تتبع مملكة القدس التي أصبحت تتألف من (القدس - عكا - نابلس - الداروم) لتتزوى غزة أمام اسمها خاصة وإن عموري اتخذ من الداروم مقراً لقيادته العسكرية والإدارية ليلتقي بالسفراء العرب مثل « بدران » بها عندما يريد عقد وإبرام معاهدات معهم (٥٨) وبالنسبة لمعاملة الصليبيين للشعب العربي الفلسطيني فقد كانوا « يغطّصون كل متر من الأرض ويجردون الفلاحين من كل شيء ويكرهون النساء العربيات على الزواج المختلط والخروج عن دينهم » (٥٩) استعمار

Steven Runcimen, A history of the Crusades 2, Pelican Books, (٥٥)
1971, p. 338.

(٥٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لم يذكر السنة

ص ١٥٥ .

S.W P., vol. 3, pp. 239.

(٥٧)

Steven Runciman, pp. 380.

(٥٨)

(٥٩) يقطعة العرب - أنتوني ناثينج ، مترجم - كتاب الهلال ، ص ١٢ .

استيطاني بربرى يعبر بها عن اسقاطات من لاجذور لهم . لذا بدأ نجم الصليبيين فى الأفول بعد الحرب الثانية سنة ١١٠٠ - ١١٠٤ لاختفائهم التام فى الهاب الروح الدينية كما حدث فى الموجة الأولى فى حين بدأ المسلمون فى حشد طاقاتهم ، فقل عدد الحجاج وضجر أهل أوربا بفضل رسالة نور الدين الذى قوى مركزه باستيلائه على دمشق وحلب . وعندها انتقل مسرح القتال فجأة لمصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية فبرزت شخصية القائد الاسلامى صلاح الدين الأيوبي الذى اشترك فى الحرب الصليبية الثالثة وأكسبته شهرة فائقة . فقد جرد حملة ضد الصليبيين فى ديسمبر سنة ١١٧٠ م فحاصر الداروم « دير البلح » على الرغم من قلة أدواته مما دفع عمورى Amairic بالاسراع بقوة للتصدي له جلبها من عسقلان فى الوقت الذى التفت فيه صلاح الدين تاركاً الداروم ومتجها نحو غزة (٦٠) فدمر جزءا كبيرا من سورها وهجم على رباطها وأخذ ما به (٦١) ثم عاد لمصر فى الوقت الذى وصلت فيه قوات عمورى للداروم ثانية .

ولقد عثر فى مقبرة دير البلح الواقعة الى الشمال من المدينة الحالية وفى سنة ١٩٧٨ على حجر رخامى طوله ٨٠ سم وعرضه أربعون سنتيمترا بأعلاه وبحجم اليد قطعة من الفسيفساء جميلة الألوان كاشارة على رتبة الشهيد أسفلها كتابة جاء فيها : (*) .

هذا ضريح شمس الدين بن روس البائناسى

التابع لدار السلاج فى عهد

صلاح الدين الأيوبي . . بغداد

المتوفى سنة خمس وستين وخمسمائة .

أى ما يوافق عام ١١٧٠ - ١١٧١ ميلادية ربما وقع شهيدا ودفن فى هذه المنطقة من جراء هذه المعركة . ووقعه فى هذه المنطقة ربما يؤكد أن القلعة كانت تقع بالقرب من شاطئ البحر فى منطقة « البركة » . أخذت حروب صلاح الدين الأيوبي بعدها تأخذ دور الكن والفر مع الصليبيين للانقضاض على أهم تواجدهم الحسكى فى عسقلان وغزة والداروم والخليل وبيت جبرين - والنطرون وبعدها للقدس (٦٢) فى عام ١١٧٧ بعد أن أوشك جيشه على الهلاك فى منطقة « تل الصافى » جنوب الرملة عاد ليستجمع قواه فى مصر ثم

Steven Runciman, A history of the Crusades, Vol. 2, Plican Books (٦٠)
1971, pp. 390.

(٦١) السيد أحمد بن زينى دحلان - الفتوحات الاسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ،
الجزء الاول ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤٣ .

(٦٢) عشر على هذا « الشاهد » سنة ١٩٧٨ وقد تم نقله للقدس .

(٦٢) السيد أحمد بن زينى دحلان - الفتوحات الاسلامية المرجع السابق ص ٤٥١ .

يرجع الكرة ثانية ليمحقق نصره المبين في عام ١١٧٨ في موقعة « حطين » وأصبحت على أثرها بمثابة نقطة تحول وانعطاف حاد لموقف حكام المسلمين خاصة أولئك الذين لم يكثرثوا لها لبضعة قرون لمنازعاتهم الشخصية ومن حطين بدأ زحف صلاح الدين جنوبا للاستيلاء على أهم المدن العسكرية المحصنة في عسقلان وغزة والداروم لتأمين الطريق أمام جيوشه نحو القاعدة الأم مصر فاستغل بعض الملوك الصليبيين ممن وقعوا في أسره للمساومة فاستولى على عسقلان مقابل إطلاق سراح « غي Guy » ملك القدس الأسير كما استسلمت غزة مقابل إطلاق سراح مقدم الداوية جيرار Gerard (٦٣) .

وبعودة صلاح الدين لمدينة غزة عاد لها الهدوء والاستقرار وبدأ بعملية تعزيز الاستيطان العربي الاسلامي خارج سور المدينة فبدأت تظهر أحياء جديدة ولأول مرة خاصة في الجهة الشرقية في الوقت الذي سمح فيه بخروج فلور الصليبيين خاصة أولئك الذين شكلوا جمعيات دينية بحجة العناية بالجرحى والمرضى والحجاج وأهمها « طائفة فرسان المعبد » وفرسان القديس يوحنا Templars الذين كانوا مصبا لاغداق الجميع لمساندة القوات الصليبية .

وكعادة صلاح الدين في معظم المدن الفلسطينية والشامية عضد نواحيه باقطاع جنده من التركمان أو الخوارزميين والأكراد أراض فأسكنهم مناطق داخل المدن وخارجها بصفة رئيسية حملت اسمهم كحى الأكراد فى الخليل وحى الأكراد فى دمشق أما فى مدينة غزة فقد استوطنوا « الشجاعية » تيمنا باسم أحد قادته الذين استشهدوا (شجاع الدين الكردى) على أبواب المدينة فأصبح يطلق على جنزله الجنوبي حى « التركمان » نسبة للقبائل التركمانية أشهر القبائل التركية وأول من اعتنقوا الاسلام من الأتراك (٦٤) معتمدا عليهم فيما يبدو لتوطيد قيادته فى البلاد .

أما داخل المدينة فقد أعاد جامعها الكبير لمزاولة الشعائر الاسلامية فيه .

الا أن الصليبيين لم يكفوا عن مزاولة حشودهم فجردوا حملة من ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا استطاعت أن تستولى على معظم المدن الساحلية الفلسطينية الشمالية حتى يافا لانسحاب جنود صلاح الدين منها والتمركز فى القدس لذا فشلوا فى الوصول للقدس بقيادة « ريتشارد قلب الأسد » الذى بدأ فى التفاوض مع صلاح الدين ولكن المفاوضات كانت تتعثر بسبب مطلبين لا سبيل للتوفيق بينهما : -

Steven Runciman, ibid, pp. 461-462.

(٦٣)

(٦٤) السلوك لمعرفة الملوك ، ج ١ ق ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١٦ - ٣١٨ .

١ - اصرار ريتشارد على أن يتنازل صلاح الدين عن فلسطين خاصة عسقلان وغزة والداروم .

٢ - تشدد صلاح الدين واصراره بالمقابل على أن تكون هذه المدن عربية اسلامية وعلى رأسها عسقلان . وليس علينا بغريب تمنك الجانب العربي الاسلامي لهذه المدن لموقعها الاستراتيجي الهام على الطريق نحو مصر منذ آلاف السنين وبذل التضحيات الجسام من قبل صلاح الدين أمامها في حروبه الفدائية لانهاكلها طيلة السنين السابقة .

لذا تحطمت كل المفاوضات واستؤنف القتال سنة ١١٩٢ م ليتم بعدها بشهرين إبرام اتفاقية « صلح الرملة » والتي بموجبها ظفر صلاح الدين بعسقلان وغزة والداروم وأصبحت فلسطين أرضا عربية اسلامية كما كانت باستثناء تلك الأراضي الواقعة بين عكا وصور .

وانتقل بعدها سنة ١١٩٣ صلاح الدين لجوار ربه واستمر الاهتمام بمدينة غزة كوابية حيوية بين الشام ومصر يبنى فيها الأيوبيون المساجد والمدارس ففي عام ١٢٣٧ أنشأ الملك الكامل بن الملك العادل جامع المدرسة الكاملية « الكمالية » بدخل مدينة غزة ، وفي عهده عقد اتفاقية مع « قردريك » القائد الصليبي في مدينة يافا تنازل فيها الملك الكامل عن القدس والسماح للمسلمين والمسيحيين لمزاولة شعائرهم الدينية مقابل عدم تحصينها واستمرار الإدارة الاسلامية على مقدساتها لمدة عشر سنوات ، أى حاول الصليبيون نزع الشرعية العربية الاسلامية عن المدينة وتجريدها من أسباب القوة والمتعة وتركها أشبه ما يكون اليوم بمنطقة منزوعة السلاح .

وعلى الرغم من هذا التسامح المفرط الذي هو أقرب الى الاستسلام ، الا أن البابا نادى بقيام حملة صليبية جديدة استجاب لها بعض آراء الدول الأوروبية وعلى رأسهم ملوك فرنسا حيث وصلوا لمدينة عكا سنة ١٢٣٩ م ليعقدوا فيها مؤتمرا يطرحون فيه المفاضلة بين ابتداء هجومهم اما على دمشق شمالا كمرکز لثقل عسكري أو التوجه جنوبا للاستيلاء على عسقلان وغزة والداروم بوابات فلسطين الحصينة نحو مصر لقطع الطريق عن القوى الاسلامية القادمة من مصر . فكان القرار بالهجوم على عسقلان وغزة والداروم بالطبع .

فاتجهت حملتهم مساحلة حتى التقت بالجيوش العربية الاسلامية التي أرسلها الملك العادل الثاني بن الكامل عند قرية بيت حانون شمال مدينة غزة هزم فيها الصليبيين هزيمة نكراء وقتل قائدهم « هنرى » فيها وأرسل الباقي أسرى للقاهرة فخادها المسلمون ببناء جامع أسموه « جامع النصر » في القرية وهو يتوسطها الآن مسجدين على بلاطه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . . .

أنشأ هذا المسجد المبارك الأمير الأجل الاسفهلار (*) الكبير الغازى المجاهد المرابط شمس الدين سنقر الملكى الكاملى العادلى عنده كسرة الافرنج خذلهم الله تعالى ببيت حانون يوم الأحد النصف من ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة هجرية وبناء مسجد للنصر وفقد من استشهد من أصحابه فى الموقعة) . (صور ٤٧ - ٤٩)

شجعت هذه الانتصارات أفراد المسلمين ومنهم أمير الكرك الأيوبى للهجوم على القدس وهدم قلاعها كذلك حشد الملك الصالح أيوب مفتنما الفرصة حاشدا القبائل الخوارزمية مسترجعا القدس فولى الصليبيون الأدبار نحو يافا فى عام ١٢٤٤ م وتوالت الأيام ليبلغ الحقد السياسى والتناحر على السلطة حده فيتحالف الصالح اسماعيل ملك دمشق مع الصليبيين ومعهم صاحب حمص والناصر داود أمير الكرك مؤلفين حشدا مع أمراء الصليبيين (صور - تبين - يافا - انطاكية - طرابلس واساقفة الرملة) لملاقاة جيوش الملك الصالح أيوب فالتقى الجيشان عند قرية «هربيا» شمال مدينة غزة فى ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ (٦٤٢ هـ) فانهمز فيها التحالف الصليبي - الاسماعيلي فى موقعة فاصلة لم يكن يسمح للصليبيين من بعدها حراك فكانت هربيا المقبرة الثانية للصليبيين بعد حطين حتى لقد أسموها «حطين الثانية» أسر على أثرها من الافرنج خلق عظيم وغنم المسلمون أموالا طائلة (٦٥) .

وعلى أثر هذه المعركة ازداد التكتف السكاني الاسلامى الخوارزمى أو التركمانى فى مدينة غزة وما حولها (الشجاعية - التفاح - الزيتون) تحقيقا لأوامر الملك الصالح نجم الدين أيوب وايفاء بوعده لهم بأن يقطعهم أرضا فى غزة يسكنهم اياهم مقابل اشتراكهم فى الحرب معه (٦٦) . وكان هذا الملك هو آخر ملوك الدولة الأيوبية .

هكذا كافحت الدولة الأيوبية كفاحا مجيدا ضد الغزوة الصليبية الشرسة اتخذت من فلسطين مركزا ومسرحا لبطولاتها التى بلغت أوجها بصفة خاصة فى المدن الجنوبية وعلى رأسها غزة والداروم كطريق حيوى هام نحو القدس . وما دام قطب القوة والادارة « القاهرة » فلا بد من نصيب الأسد لمدينة غزة وما جاورها من الاهتمام فبنوا فيها المساجد وأقاموا أحياء كاملة الى الشرق والجنوب والغرب من مركز المدينة الاكروبوليسى وازداد الاستيطان الاسلامى بها .

(*) الاسفهلار : هو مقدم الجيش أى برتبة رئيس أركان حرب .
(٦٥) المقدسى الدمشقى - تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين - دار الجيل - بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٧٤ .
(٦٦) المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

وقد برزت أهمية « تل العجول » كقاعدة عسكرية على حدود مدينة غزة الجنوبية في الفترة الأيوبية فقد جاء ذكرها على لسان المؤرخين العرب تجمعت فيها قوات صلاح الدين قبل اقتحامه لمدينة غزة وعسكر فيها الملك العادل ووقف عندها جنود الملك الكامل في رمضان سنة ٦٢٥ هـ متأهباً للذهاب لابن أخيه داود عندما رفض الأخير تسليمه حصن الشوبك (٦٧) .

أمام الداروم « دير البلح » فقد تعرضت لعمليات متلاحقة من التدمير لشدة الاغارات عليها لمكانتها العسكرية كدرع وموقع متقدم وقلعة حصينة أقصى الجنوب فقد أصابها التدمير على يد صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ (١١٧٨ م) ومقاومتها للقائد الصليبي ريتشارد الذي فاجأها بهجوم قاومت فيه حاميتها لمدة خمسة أيام عالت خلالها من المعاملة الشرسة ، حتى إذا ما استقرت بها الأحوال انتهت لثرائعها التي اشتهرت بكرومها وخمورها كما جاء ذكر ذلك على لسان ياقوت الحموي المتوفى سنة ٢٢٨ م (٦٨) .

أما بالنسبة لرفح فقد ساء حالها في هذه الحقبة إذا ما قورنت بأيام المهلبى ٣٨٦ هـ أى قبل أكثر من قرنين ونصف من الزمان فقد ذكرها ياقوت بأنها « فى أول الرمل وهى خربة الآن ويسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل » (٦٩) .

وانتهت الغزوة الصليبية فلم يعد لها ذكر بعد عام ١٢٤٤ ميلادية ذو شأن تاريخي حيث قضى على آخر معاقلهم فى عكا سنة ١٢٩١ تاركين وراءهم عديد من القلاع والحصون والكنائس التى تبارى فى قوامها كثير من المورثات خاصة فى القرن الثانى عشر الميلادى لتمجيد الصليب وحراسة طرق المواصلات وبصفة أساسية تلك التى تربط مدينة الخليل بغزة (٧٠) كمنطقة ارتطام حدودية مع القوى العربية الاسلامية المتمركزة فى الجنوب ، كذلك بدأ تركيز القوى الصليبية على المدن الساحلية بتحصينها وانشاء القلاع بها (أنظر الخريطة ١٩) لضمان امتداداتهم الأوروبية عبر البحر المتوسط وللوصول للمدن البندقية وبيزا وجنوة التى أصبحت بحمى صناعة السفن لتأهب دوراً مزدوجاً فى التجارة وخدمة العسكرية الصليبية ضد المدن الساحلية الفلسطينية فأصبحت تنافسها مدن البحر المتوسط فى التجارة وتعديتها لمضاهاة التجارة البيزنطية (٧١) مما أدى

(٦٧) محبى الدين الحنبلى ، يونس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، الجزء الأول ، عمان ١٩٧٠ ص ٤٠٥ وكذلك : S.W.P., Vol. 3, p. 253.

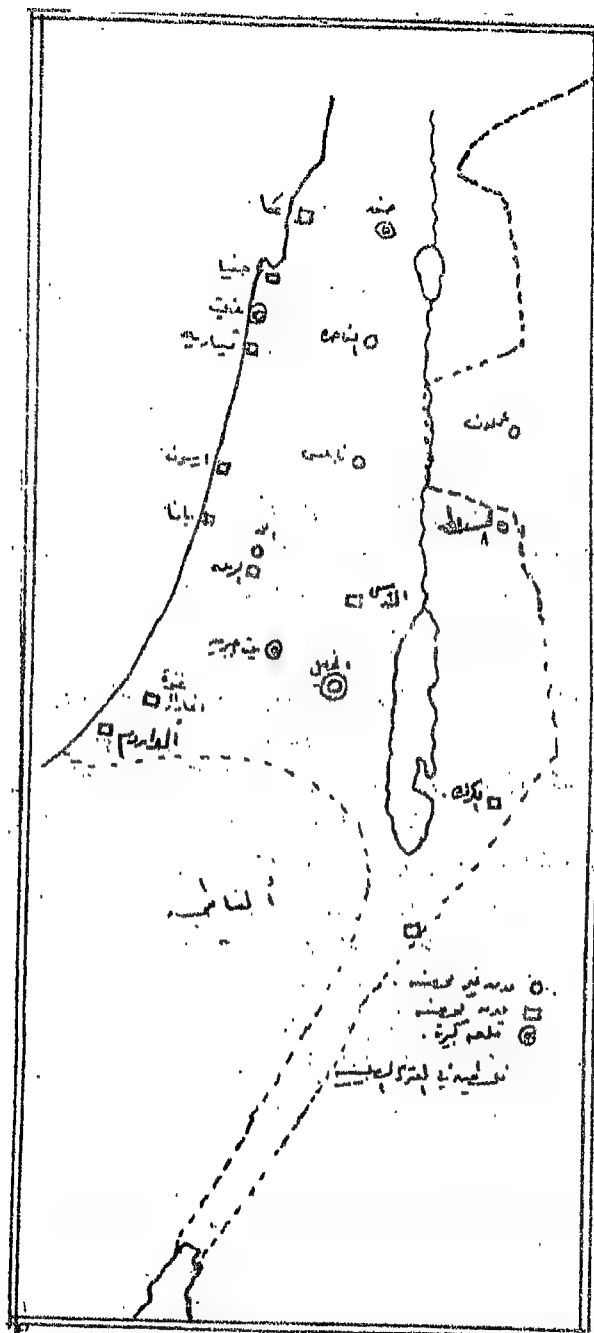
(٦٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٤ .

(٦٩) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٤ .

(٧٠) G.A. May, Oxford Bible Atlas, London, 1968, p. 97.

(٧١) I.E.J. Vol. VI, 1956, pp. 45-46.

(٧١)



خريطة (١٩) مملكة الصليبيين في أوج امتدادها سنة ١١٨٧م

لتحقيق نوع من النشاط الاقتصادي خاصة بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فأصبحت للمدن الساحلية وظيفة مزدوجة تجارية عسكرية فازداد النشاط بين دول المشرق الغربي وأوروبا فوصلت فواكه فلسطين وخمور المداوروم» دير البلح « لأوروبا .

هذا النشاط الاقتصادي المؤقت حث الصليبيين الى ضرب كثير من الدراهم الفضية التي تميزت بعدم دقة تواريخها فكانت تكتب عليها عبارات مسيحية مسجلة بالعربية ضرب بعضها في عكا بأمر القديس لويس (٧٢) تقليدا للنقود الأيوبية . والتي بدأوا في سكها على معظم فترات تسلطهم لأحداث تضخم اقتصادي في السوق العربية بالإضافة لما تعكسه من أغراض الاستيطان والإقامة في البلاد لا بدعوى حماية الدين كما زعموا !! .

فقد قاموا بتزييف وضرب نقود عليها أسماء بعض ملوك الدولة الفاطمية كدينار الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (أنظر الصورة رقم ٥٠ - ٥١) .

وفي أوقات الحروب مع الصليبيين كانت النقود الأيوبية من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية تتعرض لاهتزازات عنيفة في قيمتها لأنشمار « الزيوف » وتسرّب النقد الأجنبي ففي عام ٦٢٤ هـ اضطر الملك الكامل ومحمّد ابن العادل الى ضرب دراهم ثلثينها من الفضة والثلث الآخر من النحاس لكي تواجه النقود الصليبية المزيفة التي احتوت نسبة النحاس بها الى أكثر من النصف مما جعل قيمتها الاسمية تفوق قيمتها المعدنية ولقبها الناس « بالزيوف » (٧٣) لزلزلة الاقتصاد الاسلامي .

ولقد تكررت الأزمة الاقتصادية في سنة ٦٣٠ هـ وأيام الملك الكامل فانهضت فيها قيمة الدينار الذهبي وازدادت بالتالي كمية الفلوس النحاسية زيادة غير طبيعية لتحتل لأول مرة مكانة هامة في السوق النقدي وأصبحت تكفي « بالدراهم النحاسية » . هزأ بقيمة الدراهم الفضية التي انكمشت أمام الفلوس النحاسية فلم تعد كافية لسد حاجة التجار مما سمح بتسريب النقد الأجنبي للأسواق العربية (٧٤) .

واستمر الوضع الاقتصادي المتقلب باستمرار القوى الصليبية المتسلطة حتى أواخر عهدهم فلعل ما ذكره شامة المقدسي الدمشقي في سنة ٦٥٨ هـ « ١١٢٦ م » أي مع بداية ستينيات القرن الثالث عشر ما يعطينا صورة خيرة للسوق العربية ومعاناة المستهلك العربي المسلم وما يكابده من ابتلاء

(٧٢) د. عبد الرحمن فهمي محمد - النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤

بين ٨٠ - ٨١

(٧٣) المرجع السابق ص ٨١ .

(٧٤) المرجع السابق، بين ٧٥ - ٧٧ .

شديد بسبب الغلاء الذي عم في هذا العام على جميع السلع الاستهلاكية الضرورية فسجل لنا قائمة الأسعار الخيالية (للملابس - واللحم - الخبز والثوم - الجبن - العنب ٠٠٠) لا يطيقها الناس معللاً ذلك بقوله (ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج (الصليبيون) من ضرب الدراهم المعروفة « بالياقية » (أى تلك التى سكّت فى مدينة يافا) وكانت كثيرة الغش ، بلغنى انه كان فى المائة منها خمسة عشر درهما فضة والباقى نحاس وكثرت فى البلد كثرة عظيمة » (٧٥) .

ولم يكتفوا بذلك بل قام الصليبيون بتزييف نقود آخر ملوك الدولة الأيوبية فقلدوا دراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى ناصبهم العداء وهزمهم شر هزيمة فى هربيا .

هذه الحرب الاقتصادية الشرسة لم تقل ضراوة أيام الأيوبيين عن مقارعة السيوف فى ميدان المعارك أدرك ذلك القائد صلاح الدين الأيوبي منذ توليه السلطة مدركاً أن حماية وتقوية الجبهة الداخلية اقتصادياً أمر ضرورى ملح يسبق الدخول فى معارك حربية وعليه فقد اتخذ عدة خطوات اقتصادية منج فيها السكان حرية التجارة ودفع عنهم ما أثقلهم به وزراء الفواطم بأنواع الضرائب المختلفة فأبطل المكوس بناء على أوامر صدرت منه نشرت على الناس وقرئت أمامهم من على منابر المساجد فى عام ٥٦٧ هـ (٣٠ يونية ١١٧٠ م) (٧٦) مكنته من تحقيق النصر لبدء الصليبيون فى مقاومتها بعد ذلك كما بينا حتى آخر أيامهم .

أما على الصعيد السياسى ، فقد أضاف الصليبيون للتمزق السياسى الذى كان متفشياً فى الدولة الفاطمية تمزقاً جديداً بحيث لم يعد يربطها رابط حتى أتى صلاح الدين لى يوحّد البلاد العربية من النيل حتى دجلة ولتحقيق النصر للأمة الإسلامية ومن بعده عاد التصدع بين مصر وسوريا مما أتاح الفرصة للصليبيين من التمكن والمكوث فى البلاد أطول فترة مستغلين المنازعات بين الأخوة وأبناء الأسرة الواحدة المنقسمين على أنفسهم فى ممالك متعددة متنافرة وعلى العموم فقد كانت الشخصية الحضارية للحقبة للعالم العربى الإسلامى تتبلور

(٧٥) أبى شامة المقدسى دمشقى ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين - ص ٢١١ .

(٧٦) د . أحمد بيل ، حياة صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة ١٩٢٢ ص ١٩٩ .

فى حضارة الاسلام سواء فى الفكر أو العلم أو الحضارة المادية ، لهذا لم تكن الحروب الصليبية درسا سياسيا فحسب لأوروبا وإنما كانت منهل حضاريا ، حتى لتعزوا النهضة الأوربية فى واقع أمرها وحقيقتها من النهضة العربية الاسلامية .

ولا يمكننا أن نجعل دور الصليبيين بأكثر مما ذكره السيد « فشر » بأنهم « هدموا أكثر مما بنوا وتركوا البلاد أفقر مما كانت » (٧٧) لأنهم لم يستطعوا التأقلم مع طبيعة هذه البلاد ولم يتح لهم أبنائها البقاء .

الفصل الثانى عشر

الفترة المملوكية

- غزة تصبح « المملكة الغزية » ودهليز الملك «
- الظاهر بيبرس ينشئ مكتبة غزة
- ظهور قرية « السلقه » كمحطة بريدية لأول مرة
- قلاون يبنى « بيمارستان » ويوسع الجامع الكبير
- « سنجر الجاولى » يبنى غزة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى
- انتشار المساجد والمزارات بالشجاعة والتفاح والزيتون
- انشاء « خانيونس » ١٣٧٨ م كنواة للمدينة
- قايتباى يوقف الأراضى الواسعة لمرافق غزة
- ضمور غزة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح
- تل العجول تستمر كموقع حربي
- رفح تتحول الى خربة على الطريق

الفترة المملوكية

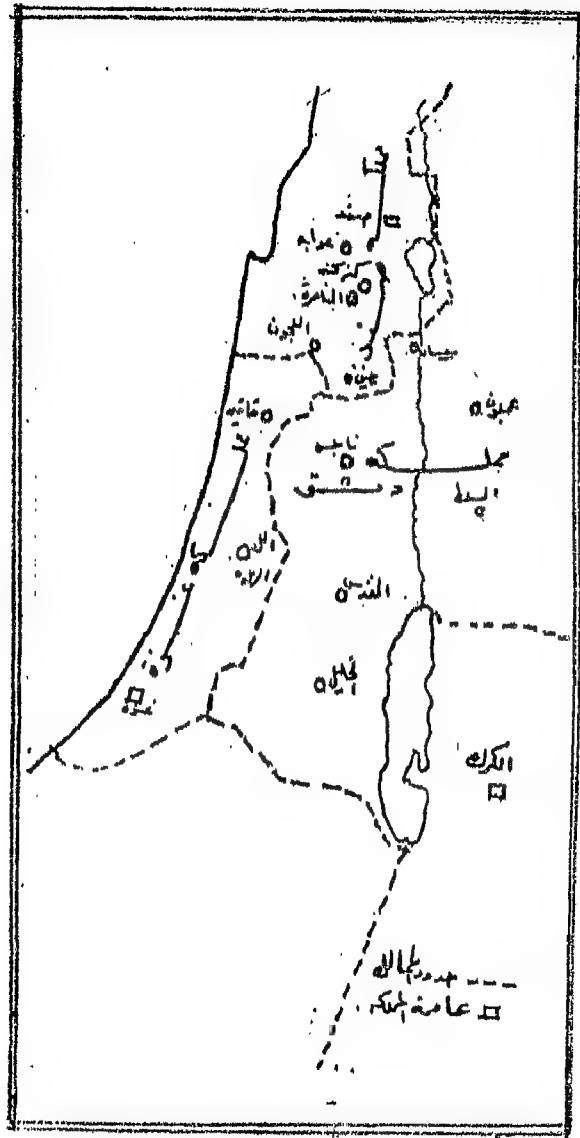
« ١٢٥٠ - ١٥١٧ م »

لا يضاهاى الحقبة التأسيسية العربية الكنعانية فى انتشار العمران وتشبيده الأماكن المقدسة - وازدهار العلم واستتباب الأمن الا الفترة المملوكية التى دامت أكثر من قرنين من الزمان « ٦٤٨ - ٩٢٢ هـ » .

بدأت بقوة وانتهت بضعف وفوضى - قدر الامبراطوريات والدول المحتوم - فالدولة كآى كائن حتى يعيش مرحلة الطفولة والشباب لتمر بمرحلة الكهولة والشيوخوخة مع ما يلازم كل مرحلة من مظاهر القوى والتوسع وأعراض الوهن والانحسار والذبول بحيث لا يبقى لها بعد ذلك فى ذمة التاريخ من رصيد سوى ما خلده من بنيان وقوانين عادلة .

لقد قدم المماليك لفلسطين بعد كسر شوكة الصليبيين وأكسبوا دورهم بعد دورهم للغزو المغولى فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م كقوة واقعية وراعاة للعالم الاسلامى ، فأصبحت بعدها جميع المدن الفلسطينية منجذبة اداريا وسياسيا وكذا اقتصاديا نحو قطب الجاذبية المملوكى فى القاهرة . فكما لحقت فلسطين بالدولة الاخشيدية والفاطمية والأيوبية للقاهرة . الا أن تبعيتها لها فى المرحلة المملوكية أكثر الحاقا والتحاما من أى فترة خلت من قبلها وبالتالى - وبحكم الموقع الجغرافى - أصبحت « مدينة غزة » أول مدينة على الطريق بين القاهرة ودمشق كمركز للشغل الثانى (خريطة رقم ٢٠) ، وتستأثر الأهمية القصوى عند المماليك لتصل لمستوى « المملكة الغزية » ويطلق على حاكمها لقب « كافل غزة » ويهملون عن عمدة جميع المدن الساحلية الفلسطينية باستثناء غزة ويافا لأنهما لعبتا دور وظيفة القلعة العسكرية وحجز القفز للداخل فى الفترة الصليبية وكأجراء وقائى آمنى ضد عودة الغزو الصليبي المحتمل التى ما زالت جيوبه متمثلة فى مملكة صليبية عاصمتها عكا ثرنو ببصرها للانقضاض نحو بيت المقدس .

لقد ساد ربوع فلسطين مع بداية العهد المملوكى من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وحتى القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا الهدوء والاستقرار وسيادة الأمن وشيدت على أثره القنوات المائية والجسور والمباني العامة الكبيرة مثل القياصر والحدائق والجوامع والمدارس والزوايا والبيمارستانات ٠٠٠ الخ . كما



خريطة (٢٠)

فلسطين في الفترة المملوكية (القرن الرابع عشر م)

تميزت البنية الاقتصادية لفلسطين بالقوة والاكتفاء ويستدل على ذلك بما وضعه العديد من الرحالة العرب والمسلمين من أمثال « ياقوت الحموي » ٦٢٣ هـ - ١٢٢٥ م والدمشقي ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م والقزويني ٧٠٨ هـ ١٣٠٣ م والعمري ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م وابن بطوطة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م والظاهري ٩٠١ - ١٤٩١ م وغيرهم كثيرون ممن سنتعرض اليهم واصفين مزروعات البلاد وصناعاتها المنتشرة في معظم المدن والقرى التي مروا بها .

وبينما كانت القوى المملوكية في أوج عنفوانها اجتاحت البلاد موجة مغولية بربرية تمكنت في عام ١٢٦٠ م من مذبحة سوريا بقيادة « هولاكو » الذي استخلفه أحد قاداته لمواصلة التخريب جنوبا نحو فلسطين حتى استطاع بقواته التغل في مدينتي الخليل وغزة لارساء قواعد عسكرية لهم فيها « فقتلوا الرجال واستولوا على الأبقار والمواشي والأغنام (٧٨) كما حاولوا الاعتزام لدخول مصر (٧٩) » .

فهبّت الجيوش المملوكية بقيادة « سيف الدين قطز » للمقاتلة معززة بنجندات عربية من أمير الكرك الأيوبي والسكان المحليين فلم تلق سوى قوى مغولية بقيادة « بايدار » استطاع « بيبرس » قائد مقدمة الجيش المماليكي من هزيمته في ظاهر مدينة غزة وعند مدخلها الجنوبي « حى الزيتون » والتي ستصبح فيما بعد نواة « لمقبرة الشهداء » « جارة العواميد » واستمروا في ملاحقة فلولهم حتى قادوهم للمعركة الفاصلة والحاسمة في « عين جالوت » ليسجل بيبرس نهاية جيش هولاكو على أرضها ولتزدهر من بعدها الحضارة الإسلامية في الشام متقين بذلك شرا مستظيرا كاد يعصف بالمنطقة بأسرها .

والتفت بعدها المماليك بقيادة « الظاهر بيبرس » في مدينة غزة لموقعها كمدخل رئيسي للشام جنوبا ول مصر شمالا متخذين المواجهة الدينية شعارا وهدفا لهم خاصة بعد أن جعلوا من القاهرة عاصمة الخلافة العباسية بعد مقتل الخليفة العباسي ببغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ م . فأصبحت غزة أولى مدن الشام أكثر قربا من مقر الخلافة في القاهرة .

فقام بيبرس ببناء « مكتبة » ضخمة شرق المسجد العمري الكبير مباشرة قبل أنها ضمت أكثر من عشرين ألف كتاب سميت « مكتبة الظاهر » ذات غرف أربع ويوانين فسيحين ليأتي من بعده قلاوون ويزيلها ليعيدها من جديد الملك قايتباي ، كما كانت ويدعمها بالكتب (٨٠) ومما هو جدير بالذكر وجود ضريح

(٧٨) المقدسي - الدليل على الروضتين - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٤ ص ٢٠٧ .

(٧٩) أبو الفدا - البداية والنهاية ، ج ١٣ بيروت ١٩٦٦ ص ٢٢٠ .

(٨٠) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعراس في تاريخ غزة - المجلد الأول - غير مطبوع ،

غزة ١٩٤٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

بساحة المكتبة يرجع للقرن الخامس الهجرى نقش عليه العبارات السابق ذكرها والتي ترجع لقاضى القضاة أبو عبد الله الأغبر (*) .

وبعد الألف من الهجرة قام بترميمها وتجديدها المرحوم حسن باشا والى غزة فصارت تعرف باسم « المدرسة الحسينية » بعد أن فقدت كتبها ، وبعد ذلك أقام بها العلامة الشيخ عبد القادر الغصين واتخذها مدرسة وزاوية ثم وقفها عليه وعلى ذريته من بعده فى عام ست وستين وتسعمائة هجرية وهى الآن مقبرة فقط .

وديمغرافيا فقد عزز القائد بيبرس الاستيطان البشرى فى المدينة من المسلمين التركمان فخلع على أمرائهم الخلع (٨١) ، واستقروا فى المحى الجديدة للشرق من مدينة غزة والذي أسس فى الفترة الأيوبية وهو حى الشجاعية بحارة التركمان كما استقر بعض الأكراد للشمال من هذه الحارة فى حى الجديدة كما سنرى .

كما استطاع أن يجعل من المناطق الساحلية الفلسطينية مراعى للقبائل التركمانية هذا عام ١٢٦٦ م وتطوير مدينة غزة ويافا والمدن الجبلية وعلى رأسها مدينة صفد الذى أعاد بناءها فى هذا العام بعد زيارته لها لتصبح إحدى عاصمتى فلسطين بعد غزة (٨٢) . كما أقام الجسور وشجع الزراعة وزاد من أراضى « الوقف » لصيانة الأماكن المقدسة والمرافق الحيوية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد وخاصة فى الخليل والقدس وصفد وغزة .

ولكى يوفر للدولة المملوكية أسباب القوة والمنعة ركن « بيبرس » اهتمامه على طرق المواصلات وزيادة الكفاءة البريدية منها والجوية « حمام الزاجل » ليتسنى له سرعة الاتصال فيجعل فى مدينة غزة محطة بريدية مركزية للحمام الزاجل سنة ١١٧٠ ينطلق منها السبعاء نحو الخليل والكرك شرقا والقدس والمدن الشامية شمالا يساندها بعض المحطات البريدية الثانوية فى « رفح » « والسلفا » والداروم فى جنوبها ومحطة « حنين » (بيت حانون) فى شمالها (٨٣) .

وهكذا برزت ولأول مرة على الخريطة الفلسطينية « قرية السلفا » كمحطة بريدية فى العصر المملوكى تجمع أبناؤها على أثر الهدوء والاستقرار من القبائل

(*) ينتمى لهذه العائلة الغزية « عائلة الأغبر » أيضا الشيخ حسن الأغبر المدفون بمسجده بالقرب من شاطئ غزة والذي ذكره النابلسى فى رحلته للمدينة سنة ١١٠١هـ .

(٨١) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الاول - ق ٢ القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١٦ - ٣١٨ .

(٨٢) ل. م. ماير - بعض البنايات الاسلامية الدينية الهامة فى اسرائيل - القدس ١٩٥٠ ص ٣٦ .

(٨٣) الفلقشندي - صبح الأعشى - ج ١٤ ، القاهرة ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

العربية الفلسطينية المتواجدة فى بنى سهيلا وعيسان وخزاعة ومعن لخدمة المحطة على الطريق الرئيسى . وربما كان موضع محطة « السلقا » هذه هو موضع « خان يونس » فيما بعد كما سيأتى ذكره عند حديثنا عن الخان .

ولكى يؤمن عنصر الامداد والتموين لهذه المحطات البريدية فقد اعتمد على قبائل بنى ثعلبة وهى بطن من طيء القحطانية فاستخدمهم عندما نزل غزة سنة ٦٦١ هـ بتقديم الزكاة المطلوبة لهم وأن يقوموا بخدمة البريد باحضار الخيل اللازمة له (٨٤) فلا غرابة بعد ذلك أن نقرأ عن ابن اياس باهتمام ببيرس بسرعة تلقى الأخبار الشامية لدرجة أنها كانت ترد اليه فى الجمعة مرتين (٨٥) .

وحتى يرسى دعائم المدينة قام بغرس ثوابتها الدينية والتشيعية باقامة المساجد والمزارات تخليدا للشهداء فى سبيل الله - فى بعض الأحيان - فيها هو يقيم مسجدا للشهيد المجاهد الجمالى على أبو الركب فى قلب المدينة القديم (حتى الزيتون) ليطلق عليه فيما بعد « مسجد وهزار الشيخ أبو ركاب » الذى توفى سنة ٦٦١ هـ جاء على قبره : -

« بسم الله الرحمن الرحيم . كل نفس ذائقة الموت . هذا قبر الشيخ الصالح المجاهد فى سبيل الله الجمالى على أبو الركب توفى الى رحمة الله تعالى فى سنة احدى وستين وستمائة » . ومما يؤسف له أن بقايا هذا المسجد وقبته ما تزال موجودة فى حالة من الاهمال التام (صورة ٥٢) .

كما عثر على بلاطة فى احيى ايوانات جامع الشيخ محمد أبو العزم المغربى عند الحافة الشرقية لمدينة غزة وتدل على وجود جامع قبل اندثاره بنى فى عام ٦٧٠ هـ . وربما نقلت هذه البلاطة لهذا الجامع الأحدث منه أو تم بناء جامع « أبو العزم » العائد لبداية القرن العاشر الهجرى على أنقاضه .

جاء على هذه البلاطة :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أنشأ العبد الفقير الى الله تعالى والراخى عفوه ومغفرته وجلاله . . وأوقف عليه الأرض . . . ذلك بتاريخ الخامس والعشرين من جمادى الأول سنة سبعمائة وستمائة » . (صورة ٥٣) .

كما تم بناء مسجد الشيخ الياس عند الحافة الجنوبية الشرقية للبتلة الواقعة

(٨٤) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك - المرجع السابق ص ٤٨١ .
(٨٥) محمد بن أحمد بن اياس الحنفى المصرى - المختار من بدائع الزهور فى وقائع الأخبار - كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٠ - ص ٨٩ و ٩٢ .

عليها المدينة وفي حى الزيتون . جاء على لوحته الرخامية الموجودة أعلى الباب الخارجى (*) ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش الا الله أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك لله وفي طاعة الله .

وابتغاء مرضاته ورغبة فى مغفرته وثوابه العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الياس .

بن سابق بن خضر غفر الله له واثابه فى شهر صفر سنة احدى وسبعين وستمئة رحم الله من دعا له وجميع المسلمين » . (صورة رقم ٥٤) .

وليس لهذا المسجد من وجود سوى قبة تظل ضريحاً، أما الرمز أو الشعار الذى يحدد الكتابة من جانبها فلا يعرف بالضبط لمن يرمز اليه من السلاطين وربما كانت اشارة لبعض القبائل التركمانية على الرغم من عودة تاريخ بنائه لفترة حكم الظاهر بيبرس .

ونظرا لغنى غزة ببنائاتها العامة وما تعرضت له من حروب وكوارث عديدة دمرت الكثير منها فلا غرابة - كما هو الحال فى العديد من البنايات كما سنرى - أن يكون هذا الحجر منقولاً لهذا المكان ، يؤكد ذلك « الحجر » الرخامى الذى عثرنا عليه داخل جامع « العجمى » فى قلب مدينة غزة (حى الزيتون) أسفل جدار أحد أقبتيه الداخلية فى وضع غير مألوف أن يوضع فيه وبشكل مستتر يرجع لفترة الملك الظاهر بيبرس كتب عليه بخط النسخ المحفور يعود لسنة ٦٧٣ هـ .

١ - « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من .

٢ - آمن بالله واليوم الآخر أنشأ هذا المسجد المبارك لله وفي طاعة الله .

٣ - العبد الفقير الى الله على بن محمود فى شهر صفر سنة ثلاث وسبعين وستمئة غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين » . (صورة رقم ٥٥) .

ولو دققنا النظر فى الحجرين السابقين نجد أوجه الشبه بينهما متطابقة . سواء فى الخط أو الأسلوب وكذا الرموز التى حولها حتى ليكاد أن يكون الكاتب واحد .

(*) لوحة رخامية بيضاء طولها ١١١ سم بعرض ٢٥ ١/٢ سم منقوشا عليها أربعة سطور بخط نسخ أيونى بالغفر وعلى كلا جانبي الأسطر شعار على هيئة سهم . « انظر الصورة » .

وبداخل مسجد العجمي هذا وعلى إحدى جدران الغرفة المواجهة لساحته
توجد بلاطة رخامية صغيرة منقوش عليها ثمانية سطور :

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢ - الا ان أولياء الله لا خوف عليهم
- ٣ - ولا هم يحزنون هذا قبر العبد
- ٤ - الفقير الى الله تعالى الشيخ
- ٥ - الراشد القائد الورع محمد
- ٦ - العجمي أعاد الله من ذريته عوضاً
- ٧ -
- ٨ - وصلى الله على محمد (سورة ٥٦)

وأطلق بالتالى على الجامع « جامع العجمي » ومن الغريب أن لا يأتى ذكر
تاريخ وفاة محمد العجمي لتظل كلتا البلاطتين موضع نقاش خاصة عن مصدرهما
وهل يمثلان بصلة للجامع نفسه أم يعودان لمساجد ومزارات اندثرت .

كذلك استمرت مكانة مدينة غزة فى بؤرة اهتمام الدولة المملوكية فاتسعت
رقعة المسطح البنائى لها خاصة فى اتجاه أحيائها الجديدة شرقاً « الشجاعية »
وشمالاً « حكر التفاح » وجنوباً « حى الزيتون » خارج نطاق سور المدينة التلية
القديم وبشكل اشعاعى يتبع مناطق الجذب والمواصلات سواء فى اتجاه القاهرة
جنوباً أو القدس وصفد ودمشق شمالاً .

أما الجهة الغربية المواجهة للبحر المتوسط فغالباً ما بقيت على حالها لزحف
الكثبان الرملية من ناحية وعدم اهتمام المماليك بميناء غزة بشكل جدى من
ناحية أخرى إلا أنه قد أقيمت بعض المساجد والأضرحة بالقرب من البحر كما
سبق ان أوضحنا لتأمين بعض الرباطات كما زرعت الأراضى القريبة من حدودها
الغربية بأشجار الزيتون التى أوقفت الكثير من المرافق الدينية كالمسجد والحمامات
والزوايا والمدارس كما سيأتى فى حينه .

وظل العمران وانشاء المساجد كأهم ظاهرة عمرانية لها وظائفها المركبة
مستمرا طيلة حياة الظاهر بيبرس وحتى وفاته سنة ٦٧٦ هـ فقد أنشئ مسجد

ومزار الشيخ فجاهد (*) جنوب مسجد الشيخ الياس السابق والتي عثرنا على بلاطته بالجامع العمري الكبير بعد أن اندثر الجامع تماما كتب عليها حفرا أربعة «سطور :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .

٢ - أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الكبير المجاهد الغازي شهاب الدين قرطاي .

٣ - المغوري على ضريح ولده الفقير إلى ربه شمس الدين يحيى توفي إلى رحمة الله .

٤ - تعالى في النصف من صفر سنة ست وسبعين وستماية رحمه الله ورحم من ترحم عليه وجميع المسلمين . (صورة ٥٧) .

ولقد أوقفت بعض الأراضي صيانة لهذا المسجد المندثر حسبما جاء في الدفاتر العثمانية (٨٦) .

وقبل أن نترك فترة حكم الظاهر بيبرس علينا أن نؤكد ظاهرة « الرنوك » المنتشرة في عديد من البنايات داخل المدينة في غزة وخان يونس . فمن المؤكد اركيولوجيا وتاريخيا أن الظاهر بيبرس قد اتخذ لنفسه شعار « الأسد » الذي وضعه على نقوده وعمارته الا اننا نرى بعضا من هذه الرنوك قد بنيت في بنايات تعتبر أحدث عصرا كما هو الحال في بناية الدبوييا بغزة (مدرسة الزهراء الثانوية) وعلى بوابة « خان يونس » للدلالة على اشادة هذا الملك في عصره من ناحية ولما تعرضت له المدينة من دمار نقلت على أثرها هذه الحجارة لتستخدم في بنايات أخرى أحدث عصرا من ناحية أخرى .

وجاء الملك المنصور قلاوون لمتابع هيسيرة البناء في مدينة غزة عاصمة المملكة الغزية فأصلح المساجد وقام بتزيمها في وقت اشتدت فيه الحروب مع

(*) لقد جاء في حجة شرعية صادرة من المحكمة الشرعية بمدينة الرملة الفلسطينية سنة ١٣٢٥هـ وقاضيتها اذ ذاك محي الدين الحري مدرجا بها ما يلي [اقتضار المعتمدين والسادات الموقفين السيد محمد بن السيد الحاج على أبو كر ضريح مكة ابن السيد حسن ضريح بيت المقدس ابن السيد حسين ضريح القاهرة ابن السيد صالح ضريح الرملة البيضاء ابن الشيخ محمد العابد ضريح غزة هاشم بن السيد عبد الله زين العابدين ضريح دمشق ابن السيد محمد زين العابدين المنسوبين لسيدنا الحسن بن علي بن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

(٨٦) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - حسب الدفتر رقم ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري - تحقيق وتقديم - محمد البشري ومحمود التميمي - استنبول ١٩٨٢ ص ٦ .

الصلبيين في الشمال والتتر بدأوا بالانقضاء بين الحين والآخر على بلاد الشام شمالا مضافا الى ذلك اشتداد بعض الفتن بين القبائل والتأمر على السلطة بين السلاطين استطاع قلاوون من خلالها أن يعقد هدنة مع الصليبيين في عكا سنة ٦٨٢ هـ (يولية ١٢٨٣ م) مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام . ليواصل البناء فقد جاء على بلاطة موجودة على إحدى غرف الجامع العمري الكبير بالايوانات الغربية كتابة ترجع لعام ٦٨٧ هـ للجامع قبل تهدم وأعيد بناؤه ولا يعرف بالضبط موقع هذا المسجد الذي نقل حجره هذا فقط للجامع العمري لمكانته المركزية واتساع مساحته جاء عليها :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة .

٢ - وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين
ولما سقط المسجد المعلق المعروف بانشاء الأمير المرحوم .

٣ - سيف الدين بلباني المستعري أنشئ مكانه هذا المسجد المبارك من مال الوقف المبارك المعروف بالأمير سيف الدين المذكور .

٤ - في سنة سبع وثمانين وستمائة بنظر الأمير سعد الدين لوجبا الناصري الوصي أثابهما الله وأجرهما لهما ولجميع المسلمين . (صورة ٥٨) .

وقد وصف الجامع المعلق هذا بأنه ظريف وحسن يقيم به العلماء والقضاة والمسافرون ويقع بقصبة سوق المدينة . ويبدو أن الجامع العمري الكبير قد تهدمت بعض جدرانها خاصة الجدار الشرقي فتم فتح بابه الشرقي في ظل حكم حسام الدين أبو الفتح لاجين وجاء على بابه كتابة تحيط به منخله :

« بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ، أمر بانشاء هذا الباب المبارك والمثناة المباركة مولانا وسيدنا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصوري آدام الله أيامه ونشر في الخافقين بالنظر الويته وأعلامه وأعز أنصاره وأعوانه ووزرائه وأمرائه وحكامه وجنوده وخدامة وحكم في نحر المشركين سهامه وسنانه وحسامه وأوزع شكر ما أنعمت عليه وأحسن في الدنيا والآخرة اليه تولى عمارتها العبد الفقيرة الى ربه الراجي عفو سنقر السلحدار العلائي المنصوري في شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستماية . » (صورة ٥٩) .

(٨٧) عثمان الطباع - تحاف الأعزة بتاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨ .

فقد ظهر على بلاطة في منتصف المئذنة اسم « بكتمور الأعسر » لعله اسم الباني .

وفي نفس العام فتح شباك بالجدار الشمالى للمسجد جاء على بلاطة رخامية أعلاه ما يلى :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين ففتح هذا .

٢ - شباك الثور المبارك فى ولاية العبد الفقير الى ربه سنقر السلحدار العلانى فى شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستماية أتابه الله وغفر له ولجميع المسلمين » . (صورة ٦٠) .

وبعد ذلك بعاهين وفى سنة ٦٩٩ هجرية تم افتتاح باب آخر بنفس الجدار الشمالى للمسجد القديم جاء على بلاطة توجد أعلاه سطران .

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أنشأ هذا الباب والمحراب فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه فى ذا الأنبا أنشأ العبد الفقير الى الله تعالى ابراهيم بن محمد الحاجب غفر الله وأدامه بالعز أمين سنة تسع وتسعين وستماية » (صورة ٦١) .

وليفهم من ذلك أنه أنشئ محراب للجامع بالداخل فى هذا العام الذى أشيع فيه قدوم التتار لبلاد الشام مما أدى الى رفع أسعار السلع فاشتد الغلاء فخرج السلطان من مصر فأقام فى مدينة غزة قرابة شهرين (٨٨) للدلالة على مكانتها الإستراتيجية والادارية فى مراقبة الأحداث واستطلاع الأمور .

وتابع ابن قلاوون مسيرة أبيه ففتح الباب الجنوبي للجامع الكبير المطل على سوق القيسارية بقلب المدينة القديم فقد جاء أعلى الباب منقوشا على بلاطة طويلة ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله . أمر بإنشاء هذه الزيادة المباركة بالجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون خلد الله تعالى ملكه بإشارة لمقر الأشرف العالى الماوى الأميرى الاجلى الكبرى العضدى النصيرى المحترمة المخدمى المجاهدى المربطى المشاغرى المؤيدى المنصورى السيفى مولانا ملك الأمراء تنكز الناصرى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس أعز الله

أنصاره وكان الفروغ منه فى شهر المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة « أى فى عام ١٣٢٩ م . (صورة رقم ٦٢) .

كما أنشأ نفس السلطان فى العام نفسه « بيمارستان » هو بمثابة مستشفى للأمراض العصبية وملحقاً به جامع ورباط سمي « بالرباط المنصوري » أى « خان الزيت » فيما بعد والذي أوقف له المنصور قلاوون كثيراً من الأراضى كما أوقف فى عام ٦٨١ هـ كثيراً من الأراضى والبساتين الغزية على رباطه بالقدس الشريف منها بستان زيتون غربى غزة وقرية المحرق فى نهرتها (٨٩) كما أوقف أراضى شاسعة على البيمارستان الناصرى فى غزة (٩٠) . وقد أصاب الدمار هذا البيمارستان على أيدي جنود الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ م ثم دخل أوقاف أحمد مدبن رضوان باشا فى الفترة العثمانية .

وهناك بلاطة يبدو أنها نقلت من مكانها من أحد مساجد غزة (ربما من جامع البيمارستان السابق الذكر) والذي بناه قلاوون ووضعت فى الأيوان الشرقى للجامع العمري الكبير وعلى منبر جامع قايتباي المنقول أيضا ، وهذه البلاطة غير كاملة فقد جاء عليها :

١ - ٠٠٠ الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين جدد هذا المسجد المبارك الفقير الى الله .

٢ - ٠٠٠ المنصور قلاوون الصالحى خلد الله ملكه دامة ٠٠٠
يتوسط الكتابة « رنك عصا البولو » . (صورة ٦٦) .

وهناك بقايا حجر رخامى نقش عليه عبارات تدل على وجود قصر فى المدينة يرجع لبداية القرن الثامن الهجرى قد أكمل بنيانه الأمير ركن الدين بيبرس العلانى - نقش على هذا الحجر الموجود على إحدى أعمدة الأيوانات الجنوبية :

١ - ٠٠٠٠ الأنهار ويجعل لك قصورا أكمل عمارة هذا القصر أيام .

٢ - ٠٠٠٠ العبد الفقير الى الله تعالى الأمير ركن الدين بيبرس العلانى .

وقد تولى هذا الأمير نيابة مدينة غزة فى عام ٧٠٨ هـ ثم أقيل منها .
(صورة ٦٧) .

وقبل ذلك بعامين تم بناء مسجد فى حي الشجاعية الجديدة ويعتبر من أقدم مساجد هذا الحى أنشأه « الشيخ مسافر » حيث سمي باسمه ولم يبق من هذا المسجد سوى قبة صغيرة عليها بلاطة كتب عليها أربعة سطور : -

(٨٩) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ٤٤ .

(٩٠) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ٦ .

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن .
- ٢ - بالله واليوم الآخر أنشأ هذا المسجد المبارك العبد .
- ٣ - الفقير الى الله تعالى الحاج سعد الدين مسافر بن قتيبغلي أحد .
- ٤ - المماليك السلطانية المناصره ؟ وذلك بتاريخ شهر شعبان سنة سب وسبعمائة » . (صورة ٦٨) .

وهذا فان كانت الترميمات والزيادات هي السمة الغالبة على الجانب العمراني في قلب المدينة غزة وذلك تأكيداً لشخصيتها العربية الاسلامية وداخل أسوارها ، فقد تميزت الأحياء الجديدة ذات الأصول والنشأة العربية الخالصة في أحياء الشجاعة بقسميها (الجديدة والتركمان) شرقاً وحي حكر التفاح شمالاً وحي الزيتون جنوباً بانتشار المباني العامة الجديدة كالمساجد والمزارات والمدارس والحمامات كمراكز دينية وثقافية وصحية .

وهذه في حد ذاتها أصبحت بمثابة طوق عمراني جديد يلف المدينة القديمة الأم اتخذت لنفسها طابعاً ريفياً ازدان بأشجار الفواكه كالزيتون والتفاح وكذلك الخضار والحبوب ليدعم سكان المدينة ومبانيها العامة .

وفى حي التفاح وفى الجهة الشمالية الشرقية من موضع غزة القديم وبالقرب من الطريق الموصل لشمال البلاد أقيم « جامع على بن مروان » وهو من الجوامع الكبيرة بالمدينة بدخله ضريح « على بن مروان » المتوفى سنة ٧٥ هجرية .

وقد جاء على بلاطة صغيرة أسفل مئذنة الجامع وعند بابها : -

بسم الله الرحمن الرحيم جدد عمارة هذه المنارة المباركة

وايوان القاعة والمنبر والمحراب الشريف فى جامع ابن

مروان رضى الله عنه الفقير الى الله تعالى محمد بن عبد الله

سنة خمس وعشرين وسبعمائة . (صورة ٦٩) .

وقد جاء على مئذنة الجامع أيضاً أبيات من الشعر :

منبر من أمير المحمل شريف	فى مقام معظم لله
وعليه لله حمد وذكر	وصلاة وتوجه لله
وهو انشاء حاجب وأمير	صاحب الجود والوفاء والعزاء
فهو سمي سفر دام عزاء	يدا الكل دم فى الأفواه

ومما هو معلوم أن الأمير سفير الحاجب كان موجودا بمدينة غزة سنة ٦٩٧ هـ وربما أضاف له هذا الأمير منبرا جديدا * لأن الجامع بطبيعة الحال أقدم من ذلك ونظرا لقدمه وأهميته لأنه يلي الجامع العمرى الكبير فى المساحة والاتساع فى حينه لذا كان الأمراء وأغنياء المدينة يتبارون على إصلاحه وترميمه * فقد جاء على بلاطه رخامية طويلة بنيت على جدار الجامع الغربى المواجه للمقبرة أبيات من الشعر كتبت فى سطور ثلاثة طويلة جاء فيها :

« لولا المحبة فى القلوب وأنهى رغب لضاق الكون بالأكوان
هى سر فرقان الاله وجمعته هى منه من جنة الرحمن
يُجود وحلم ساد يحيى على الملا أمير غزة هاشم الجزران
بني بناء خالصا فى صلته جزاء خيرا خالق الانسان
يخفى حياة الله كل فضيلة ببناء مسجد على بن مروان
حصنته بالهاشمى محمد وبالخليل مبرد النيران
صل الاله عليه بعد نبينا والآل والأصحاب والأقربان
ما دام خير الدين يرجو رحمة من منزل الزبور والفرقان »

سفر وحرر من عشرة من شعبان المبارك سنة ١٢١٧ هجرية * (صورة ٧٠)

وقد ظهرت فى الدفاتر العثمانية أوقاف عديدة لزاوية الشيخ على بن مروان معظمها أراضى زراعية ، ومن ضمنها بيت فى « حارة الأكراد » قرب مسجد العواشي (٩١) الآتى ذكره لتوصى بسكنى الأكراد المسلمين فى هذا الحى * .

وفى العقدين الأول والثانى من القرن الثامن الهجرى اجتاحت المدينة نهضة عمرانية عادت لقلبها القديم مركز الادارة والحكم فبعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك الصالح اسماعيل من بعده ورسم للأمير علم الدين سنجر الجاولى (٦٥٣ - ٧٤٥ هـ) الفقيه الشافعى بناية غزة فأتى إليها وشرع فى انشائها فأنشأ « عمارة الجامع بغزة وهو جامع الجاولى » وعمر حماما هائلا ومدرسة للشافعية وعمر خانا للسبيل وبنى بغزة مارستانا ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة وجعل النظر فيها لنواب غزة (٩٢) وسنأتى بذكر هذه الأوقاف لكثرتها وانتشارها فى جميع قرى ومدن فلسطين * .

(٩١) أوقاف وأمالك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ١٣ .

(٩٢) ذ. أحمد عيسى بك - تاريخ البيمارستانات فى الاسلام - دمشق ، ١٩٣٩ ص ٢٤٧ .

وبحق يمكن اعتبار علم الدين سنجر الجاولى باني غزة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ومن أعظم نوابها في الفترة المملوكية فقد أبدع ابن بطوطة في وصف جامع « جامع الجاولى » الذي بناه في الطرف الجنوبي الشرقي لمدينة غزة على الطريق المؤدى لمصر فقال عنه « أنيق البناء محكم الصنعة » (٩٣) .

ويبدو انه بعد تهدمه نقلت حجراته لبناء « جامع الشمعة » بحى الزيتون ومن ضمنها حجر الأساس الذى نقشت عليه هذه العبارات : -

« بسم الله الرحمن الرحيم .. انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتمدين .. أمر بإنشاء هذا .. المبارك .. مرضيات الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة أعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة سنة أربعة ٠٠٠٠ » (صورة ٧١) .

هذا ما جاءت به نقوش هذه البلاطة المتهدمة من طرفها الأيسر ، ولما كانت ولاية سنجر الجاولى قد بدأت بمدينة غزة سنة ٧١١ هـ وانتهت فى سنة ٧٢٠ هجرية زمن الملك الصالح اسماعيل لذا يعتقد أن هذه الكتابة ترجع لسنة ٧١٤ هجرية « (٩٤) » .

وهو بطبيعة الحال منقول لأن جامع الشمعة . أحدث بناء تماما كما تم بناء كثير من المساجد من حجارة الجامع الجاولى فهناك بقايا حجر رخامى كتب عليه .. « فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ثلثة عشر وسبعماية » بنى فى أحد جدران جامع السيد هاشم ربما نقل من جامع الجاولى . (صورة ٧٢) وهناك بلاطة رخامية ثالثة ربما جئ بها من « جامع الجاولى » أيضا وضعت فى الايوان الشرقي للجامع العمرى وبالقرب من محراب جامع قايتباى المنقول للجامع جاء عليها : -

« بسم الله الرحمن الرحيم عمر هذه الأفناء المباركة بالجامع المعمور بغزة أيام مولانا السلطان ابن السلطان الملك ابن الملك المنصور خلد الله سلطانه بإدارة المقر العالى .. العبد الفقير الى الله تعالى سنجر الجاولى الملكى الناصرى .. غفر الله له فى سنة عشرين وسبعماية » (انظر الصورة السابقة رقم ٦٦) .

(٩٣) ابن بطوطة - مهذب رحلة ابن بطوطة ، تهذيب وضبط أحمد العوامرى ومحمد أحمد

جاد المولى - ج ١ القاهرة ١٩٤ ص ٤٣ - ٤٤ .

L.A. Mayer, Arabic inscriptions of Gaza, J.O.P.S., Vol. XI 1929, (٩٤) pp. 147-148.

وهناك جزء من حجر رخامي يرجع لفترة سنجر الجاولى صغير الحجم يبدو انه نقل لجامع ابن عثمان بالشجاعة وموجود على جدار المسجد الخارجى بشكل ارتجالي خطوط غير واضحة تماما ربما نقل من أنقاض مرافقه العديدة التي أنشأها بالمدينة وأوقف لها مساحات شاسعة من الاراضى الزراعية معظمها فى قرية جباليا والعديد من القرى والاراضى الفلسطينية • (صورة ٧٣) •

ولجزالة ما تعطيه الاراضى الزراعية التابعة للمملكة الغزية من وفرة انتاج مزروعاتها نجد أن هناك أمراء وسلاطين يوقفون بعضا من أراضيها ومزارعها على مرافقهم وتربتهم خارج حدودها فهي هو الأقبعا بن عبد الله الأوحدي يوقف اراضى تابعة لغزة فى المجدل وعسقلان وحمامة على تربته بالقاهرة فى عام ٧٣٤ هجرية (٩٥) تماما كما أوقفت مساحات كبيرة للحرمين الشريفين •

وفى عام ٧٣٥ هجرية أقيم جامع سمي فيما بعد « جامع كاتب اولاية » أو كاتب الولايات كما جاء فى الدفاتر العثمانية • فقد نقش على رخامة طويلة بنيت أسفل المئذنة سطران - جاء فيهما « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المئذنة مولانا المقر الأشرف السيفى أفنانى العلائى نائب السلطنة الشريفة بغزة المحروسة ابتغاء لوجه الله تعالى فى مستهل ذى الحجة الحرام سنة خمس وثلاثين وسبعماية » يتوسط الكتابة « رنك عبارة عن دائرة مقسمة الى ثلاثة أقسام ترمز للمقلمة ثم كأس فى الوسط واسفله زهرة السوسن » (صورة ٧٤) •

وقد بنى قبالة الكنيسة الكاثوليكية القديمة (كنيسة بيرفوربوس) التي تم بناؤها فى القرن الخامس الميلادى وقد بنى هذا المسجد فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون وقد تعرض للهدم فأمر بإنشائه وتجديده أحمد بك كاتب الولاية فى أوائل ذى الحجة سنة ٩٩٥ هـ كما جاء على احدى بلاطاته المبنية أعلى باب الجامع الرئيسى والتي تعود لأيام السلطان مراد العثمانى فقبل نقش عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله • • • أنشأ هذا المسجد العبد الفقير الى الله أحمد بك كاتب الولاية فى أوائل ذى القعدة سنة ٩٩٥ هجرية » • والغريب أن تكتب السنة بالأرقام لأول مرة • (صورة ٧٥) •

ولقد كان تأثير الطرق الصوفية المتواجدة فى مصر له أثره وامتداده فى مدينة غزة فالزوايا والتكايا كمؤسسات تقليدية قد ازدهرت وترعت فى حجر المجتمع الاسلامى وضربت جذورها العميقة فى التربة الاجتماعية وتغلغلت فى نفسية المواطن والجماهير •

(٩٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٠٠ و ١ •

وقد بد ذلك فى المجتمع الغزى عندما تم بناء « زاوية السيد أحمد البدوى » فى وسط المدينة وفى حى البرجلىة « (الدرج فيما بعد) . ومما هو معروف أن السيد أحمد البدوى قدم لمصر بعد أن تعددت أسفاره للعراق ثم مكة فتوجه منها الى طنطا فى حوالى سنة ٦٣٧ هـ وبعد وفاته انقسمت الطرق الأحمديّة الى عدة طرق فرعية حيث كانت هذه الطرق بعيدة عن القضايا السياسية وتمحور حول التجربة الروحية الفردية (٩٦) .

ولتأثيره هذا بنيت كما ذكرنا هذه الزاوية التى جاء على احدى البلاطات التى تعلو واجهة مدخل الزاوية السطور التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى ان شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا ، أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى طرنتاى الجوكندارى » (صورة ٧٦ ، ٧٧) .

ومما هو جدير بالتنويه أن طرنتاى هو أحد امراء العشرات بدمشق وهو حسام الدين الجوكندار قد ولاء الأمير سيف الدين تنكر فى مدينة غزة فى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٧٣١ هـ (٩٧) .

وفى فناء الزاوية وعند مدخلها الرئيسى يوجد ضريح كتب على بلاطه ستة أسطر بخط النسخ المملوكى ما يلى : -

بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان
هذا ضريح الست الجليلة الكبرى المصونة
السيدة الشهيدة قطلو خاتون بنه المقر
المرحوم بهادر الجوكندار (*) رحمها الله
تعالى وكان وفاتها يوم الاثنين الثانى من شهر

ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . (صورة ٧٨ - ٧٩) .

ونظرا لأن طرنتاى الجوكندار هذا من الجراكسة لذا كثيرا ما عرفت هذه الزاوية فى الدفاتر العثمانية والأوقاف فى الفترة المملوكية « بالزاوية الجركسية » وأحيانا بالمدرسة الجركسية . ولاكمال مسيرتها فقد رصد لها

(٩٦) السيد أحمد البدوى قطب التصوف فى مصر - مجلة الهلال - يونيو ١٩٨٥
ص ٦٩ - ٧٠ .

J.P.O.S, Vol. III, 1923, pp. 74-75.

(*) بهادر الجوكندار أحد امراء الأربعين بدمشق (الطبلخانة) وقد توفى سنة ٧٢٣ هـ أى قبل وفاة ابنته بعشرة سنوات وربما كانت ابنته هذه احدى زوجات كبار المماليك فى غزة أو توفيت وهى فى طريقها للحج أو السفر .

أوقاف خاصة باسم المدرسة في عام ٨٥٧ هـ عبارة عن مزارع في قرى غزة الشرقية (٩٨) .

وتابع العمران مسيرته بأيدي عربية اسلامية مواكبة التطور والتوسع الديمغرافي للمدينة فقد بنى مسجد الشيخ أحمد طقماج بحي الشجاعية حارة التركمان وفي أقصى الطرف الشرقي لها ضم ايوانات ضخمة وبداخله غرفة بها ضريح الشيخ أحمد المذكور وعليه تاريخ يرجع لسنة ٧٤٣ هـ ليدفنوا أولاده من بعده في نفس المكان حيث جاء على ضريحهما :

« هذا قبر محمد وشعبان أولاد أحمد طقماج العلمي الجاولي توفيا الى رحمة الله تعالى في شهر شعبان المبارك سنة أربعة وستون وسبعماية » .

وأحمد طقماج جركسى من ممالك نائب غزة الامير شجاع الدين وعلم الدين سنجر الجاولي (٩٩) .

وهكذا استمر استغلال حدود المدينة القديم فبالقرب من أبوابها تم بناء المؤسسات بوظائفها المختلفة وعلى رأسها المساجد فقد بنى في عام ٧٤٩ هـ مسجد ومزار الشيخ خالد على سفح المدينة الغربى بالقرب من بابها « باب الجرن » وقد دفن بانية في وسطه كما جاء منقوشا على بلاطه بنيت فوق سطح الضريح بشكل فريد لثلاثة أسطر ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها .

٢ - جدد هذا المكان المحتوى على ضريح ولى الله تعالى سيدنا .

٣ - الشيخ خالد المتوفى سنة تسع واربعين وسبعماية (صور ٨٠ -

(٨١) .

ويقال انه دفن بهذا الجامع الشيخ جمناق جد عائلة جمناق الشى تنسب اليها « الأجمقية » فى حي التفاح .

ويبدو من الكتابة أن هذا الجامع قد أنشئ قبل هذا التاريخ الذى يدل فقط على سنة وفاة الشيخ وقد أصبح بهذا المسجد فيما بعد زاوية تسمى زاوية الشيخ خالد حيث أوقفت لها بعض الاراضى فى غزة نفسها منها « بستان المراجعة » قرب تربة باب البحر « (١٠٠) .

لكن النهضة العمرانية التى عمت أرجاء المدينة وضواحيها والمعبرة عن جو الاستقرار الأمنى الذى منح الأمراء من المماليك وكلنا العديد من أفراد الشعب

(٩٨) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ٦ .

(٩٩) الشيخ عثمان الطباع ، اتحاد الأمزة ، الجزء الاول المرجع السابق ص ١٧٥ .

(١٠٠) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٦ .

فرصة التنافس فيما بينهم قى البناء والعمران وكثيرا ما كانت تعسكره الفتن وكوارث الاقتتال بين القبائل . ففي هذه الحقبة وفى عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) كثر الفتن بين قبيلتى جرم المنتشرة حول القدس مع قبيلة ثعلبة المتواجدة حول مدينة نابلس فوقف أمير غزة « يلجك » مع شيخ جرم « اوى » وكانت لهزيمة من نصيبهم فقتل الكثير ونهبت أموال عديدة من مدن القدس والخليل والرملة واللد مما اضطر المماليك من تجهيز حملة قوية ضدهم قضت على ثعلبة بالقرب من اللد (١٠١) .

وفى حكر التفاح (حى التفاح) أقيم جامعها الرئيسى للآن والذى يقال بأن بانيه الأمير عبد الله الايبكى (*) من رجال عز الدين الايبكى التركمان وفى هذا الجامع يوجد الآن بلاطه تدل على تاريخ بنائه الا أن الشيخ الطباع يروى بأنه شاهدها بالمنبر فى أربعينيات هذا القرن (١٠٢) . وقد نقلت الآن بعد ترميمه وزيادته الى ضريح بالجامع جاء عليها ما يلى : -

« أمر بانشائه الأمير الأجل المجاهد المثارى المربط المغازى سيف الدين المستغربى المالكي الصالحى الأشرفى أثابه الله وأوقفه وأيده وسبله ابتغاء لوجه الله ومرضاته سدات السموات والأرض فمن بدله بعد ما سمعه فإنا اثمه على الذين يبدلونه وذلك فى العشر الاخير من ذى القعدة سنة احدى وخمسون وسبعماية » (صورة ٨٢) .

ولقد ذكر المقرئى انه فى عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) هطلت على مدينة غزة أمطار لم يسبق لها مثيل هدت بيوت كثيرة على أهاليها كما هدمت نصف دار النيابة ومسكن النائب بجامع الجاولى (١٠٣) .

حتى اذا ما قدم ابن بطوطة للمدينة بعده بسنوات قليلة من خمسينيات القرن الثامن الهجرى وجدها على حد وصفه « متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق » واصفا جامعها الجاولى بأنه « أئيق البناء ومحكم الصنعة » كاشفا النقاب عن كثافة التجارة على الطريق التجارى الهام بين القاهرة وغزة وبقية بلاد الشام بالعائد المادى الذى تحصله نقطة التفتيش والجمارك فى « قطيا » والبالغ جباها فى اليوم الواحد ألف دينار ذهبى ولا يحق لاحد الدخول لبلاد الشام الا بعد أخذ براءة من مصر (١٠٤) .

(١٠١) ابن اياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الجزء الثالث - القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٣ ص ٢٢٥ .

(*) يقال أن لهذا الشيخ ولدين أحدهما وهو الشيخ عياد والمدفون بالقرب من جامع السيد هاشم والابن الثانى هو أحمد والذى له مزار ويدعى « مزار الشيخ نيك » وقد ورد اسمه فى كتاب أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين . باسم الشيخ أينه بك « وله أوقاف .

(١٠٢) عثمان الطباع - اتحاف الأعزة - المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٠٣) المقرئى ، كتاب السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٨٨٤ .

(١٠٤) ابن بطوطة - مهذب رحلة ابن بطوطة - المرجع السابق ص ٤٣ - ٤٤ .

وتواصل التعمير فأنشئ في عام ٧٥٩ هـ « جامع الأوزاعي » الذي شيد على أثر افتتاح شارع في منتصف المدينة (شارع فهني بك) وتم بناؤه بالقرب من الحد الشمالي الغربي للمدينة حتى سميت المقبرة القريبة منه باسمه .

وهكذا كان النصف الأول من القرن الثامن الهجري زاخرا بحركة عمرانية عمت أرجاء المدينة بطموح بالغ نحو أحيائها الحديثة لتعكس اقديرا من الانتعاش الاقتصادي .جنته المدينة من موقعها المروى الهام وتجاريتها الرائجة وزراعتها الخصبة الغنية . فبدأ أهلها وامراؤها لا يتركون فراغا حول المدينة القديمة الا واستغلوه في بناء المساجد أو المدارس والاسبله ففي نفس العام (٧٥٩ هـ) توفي العالم الصالح الشيخ علي الاندلسي المغربي في جامع (مسجد وزاوية الاندلسي) وسط مدينة غزة وقد اندثر هذا الجامع .

وفي عام ٧٢٦ هـ بنى جامع « الظفر دمرى » عند بداية حي الشجاعية الغربي نقش على بابه فوق حجر رخامي ثلاثة أسطر : -

بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى شهاب الدين أحمد بن أظير ابن الظفر دمرى في سنة اثنان وستون وسبعمائة « (صورة ٨٣) .

وهناك حجر رخامي يوجد أعلى شبك خلف الجامع يعود لنهاية الغزة المملوكية جاء عليه في ثلاثة أسطر : -

(١) أمر بإنشاء هذا المكان المبارك المقر الأشرف الكريمى العالى الأميرى الكبرى المالكى المخدمى السيفى أزدمر .

(٢) كافل المملكة الشريفة الغزاوية المحروسية أعز الله تعالى أنصاره بتاريخ يوم الأحد المبارك ثامن عشر ذى القعدة الحرام سنة ثلاثة وتسع مائة .

واستمر العمران في تسابق مع الزمن يوحى بازدياد عدد السكان لأن مثل هذه المرافق العديدة ما كانت لتقام الا لتفى حاجة السكان المتزايدة فقه بنى بنفس حي الشجاعية وفي عام ٧٨٢ هـ « مسجد ركن الدين التركمانى » الذى بناه ركن الدين عمر بن خليل التركمانى وقد اندثر هذا المسجد الا أن بلاطته التأسيسية قد بنيت أعلى الباب الشمالى للجامع العمرى الكبير وتتألف من ثلاثة بلاطات رخامية تحف بالباب كتب عليها : -

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاکصال . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاه بنى الله له قصرا فى الجنة . . . أمر بإنشاء هذا المسجد الشريف والتربة

المباركة ابتغاء لثواب الله الفقير الى رحمة الله الجليل بن المرحوم ركن الدين عمر بن فرا التركمانى العربى وذلك فى النصف من ذى الحجة الحرام سنة اثنين وثمانين وسبعمائة اثابه الله الجنة وغفر له ولجميع المسلمين « (صورة ٨٤)

وبحى الشجاعة أقيم أيضا مسجد يسمى « مسجد الطواشى » (*) وهو اسم لأحد الأمراء المماليك وقد أطلق عليه فيما بعد مسجد السيد على المغربى « لأن الأخير اعتاد الصلاة فيه ودفن بداخله ، وعلى باب المسجد توجد بلاطتان نقش على السفلى منها : -

١ - بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى شاهين بن عبد الله الكحكى «قدم القصر الشريف انه

٢ - أوقف جميع البيت والقاعتين بجوار المدرسة وجميع الحوش ظاهره وباطنه المعروف بالجوبانى وجميع الحاكورة وما فيها المجاورة بالمدرسة وقفنا صحيحا شرعيا فى سنة ست وثمانين وسبعمائة « .

وعلى هذا الحجر كتب على بلاطه ثلاثة سطور جاء فيها :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة والبشر المعمر المقر السيفى شاهين .

٢ - الكحكى مقدم القصر الشريف كاف وجعل البشر وقفنا على المدرسة المذكورة وعلى السقاية الشتا .

٣ - والحوض داخل المدرسة وذلك فى مستهل شهر الله المحرم سنة احدى وعشرين وثمان مائة « .

وهناك أسفل هذين الحجرين وعلى جانبى باب الجامع توجد أجزاء من حجارة تأسيسية قد تكسرت وبقي منها أجزاء قد استغلت فى البناء كتب على الحجر الأيمن :

- وقفنا على المدرسة

- وعلى القبة

أما الحجر الأيسر فقد جاء عليه سطران :

(*) لقد تم العثور على حجر رخامى على اثر هدم الجدار الخارجى لهذا المسجد جاء عليه فى ثلاثة سطور :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارته للسبيل للعاين المقيم الأمير

٢ - الأجل الكبير الأسفهلار المجاهد المشاعر المابط المظفر

٣ - علم الدين مسنجر بن عبد الله الجولانى الصالحى غفر له فى شـور سنة احدى (وستين)

٠٠ - والطاحونة والدكاكين و ٠٠

٠ - المعروفة بالشجاعية ٠ (صورة ٨٥) ٠

وكما ذكر دفن في هذا الجامع الشيخ على المغربي من صلحاء المغاربة في القرن الثالث عشر الهجرى ثم جده الأمير محمد باشا متصرف غزة الذى نقش على أحد البلاطات الموجودة أعلى باب الغرفة الداخلية بالمسجد العبارات التالية التى تعكس مدى التردى الثقافى والادبى فقد جاء عليها :

١ - هذا ضريح نوره فينا ضياه قد بهر ٠

٢ - جده وزير أهل المكارم والخير محمد باشا عز له ما مثله صي ٠

٣ - الكون من ادم علينا حكمه وانصره نصرا معتبرا هذا بناء ٠

٤ - كامل بمحمد خير الوزير وخير الدين راجيا جنات عدن ونهر سنة ١٢١٥ ٠ (صورة ٨٦) ٠

وهكذا يبدو من هذه الكتابة المنقوشة على الحجارة أن منطقة الشجاعية الجديدة تمثل وحدة سكنية ذات مرافق حيوية تعكس الجانب الديمغرافى بها فقد أصبح بها وبالقرب من الجامع مدرستان منفصلتان عنه تمثل أقدم مدارس الحي بالإضافة لبئر ماء وطاحونة وحوض للسقاية فى فصل الصيف حيث تخزن به مياه الامطار الشتوية ولكى يفى بحاجة المزروعات فى الحاكورة المجاورة وجميع ذلك يعرف كما جاء فى النقش « بالشجاعية » وهذا يمثل فى حد ذاته أقدم سجل يذكر فيه اسم الحي الذى انسحبت هذه التسمية فيما بعد لتضم « حى التركمان » الواقع للجنوب من هذا الحي ٠

وقد جاء فى كتاب أوقاف المسلمين فى فلسطين أن هناك بيتا موقوفا لزاوية على بن مروان يقع قبالة هذا المسجد « بحارة الاكراد » (١٠٥) حتى نهاية القرن العاشر الهجرى مما يدل على سكنى الاكراد القاهريين من الايوبيين والمماليك حيث لا يخلو حى فى معظم المدن الفلسطينية منهم ٠

وفى هذه الاثناء تولى الحكم الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٤ هـ وكما جاء على لسان كثير من المؤرخين أنه أبطل المكوس وانتعشت فى عصره التجارة فانخفضت أسعار السلع المستوردة مما شجع العديد من التجار الشرقيين والأجانب على الاتجار مع مصر (١٠٦) وعليه فلا بد ان يتبع ذلك انتعاش لبوابة

(١٠٥) أوقاف وأماكن المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ١٣ ٠

(١٠٦) د. سعاد ماهر - القاهرة القديمة وأحيائها ، المكتبة الثقافية العدد ٧٠ القاهرة

أول أكتوبر سنة ١٩٦٢ ص ٨٣ ٠

مصر الشمالية الشرقية مع الشام وآسيا ويعود مردوده الاقتصادي بالدرجة الأولى على المملكة الغزية التي تنبوا عاصمتها غزة هذه المكآنة لتستقطب بدورها جميع المدن والقرى التي حولها بعمق يصل شمالا لمدينة قيسارية والقدس والخليل شرقا ممثدا حتى الداروم (دير البلح) والعريش جنوبا .

هذا الرواج التجارى عمل على زيادة الضغط المرورى على الطريق التجارى والعسكرى الوحيد منذ آلاف السنين بين مصر والشام مما استوجب تكثيف المحطات التي تخدم قوافل التجار والحجاج والمسافرين على طول الطريق ممثلة فى أهم هذه المرافق وهى الفنادق أو الخانات » . (خريطة رقم ٢١) .

فحتى ذلك الحين لم يرد ذكر لمثل هذه المرافق الحيوية الا فى مناسقات ذكرها ابن بطوطة مع بداية منتصف القرن الثامن الهجرى فى شمال صحراء سيناء مثل « السودة والورادة والعريش والخروبه » وان لكل منها « فندقا » وهم يسمونه « الخان » ينزله المسافرون بدوايهم وبضائعهم وبخارج كل خسان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاجه لنفسه (١٠٧) .

إذن أصبح من مقتضيات الأمن وضرورات التجارة فى عصر راجت فيه الحركة والتنقل عبر هذا الطريق الاستراتيجى أن يوجد بين مدينة غزة والحروبة موقع يوجد به « خان » بحيث ينشأ بينهما نزل جديد فى صورة « خان » يقى باحتياجات التجار والمسافرين والحجاج فكان الاختيار والبناء من الأمير يونس النوروزى الداودار المملوكى فى ظل عهد الملك الظاهر برقوق حيث أقام «خان» سسمى على اسمه « خان يونس » فى سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) ليصبح فيما بعد النواة التى تجمع حولها السكان ولتصبح مدينة « خان يونس » الحالية .

وقد زود هذا الخان الذى اتخذ شكل المربع « طول ضلعه ٨٥٥ متر » بأبراج فى اركانها الاربعة ومسجد بمئذنة مازالت بعض بقاياها ماثلة لليوم ، وكان يضم عدة قباء بعضها يشتمل على غرفة والآخر على غرفتين أو ثلاثة وفناء صغير لكل قبو (انظر الخريطة الموضحة للخان) .

وعادة كان يخصص الطابق السفلى للمخازن والاصسطبلات أما العلوى فيشمل على حجرات لمبيت النزلاء ومخازن للبضائع المعدة للبيع (١٠٨) .

ولهذا الخان باب رئيسى ما زال حتى اليوم يتوسط الجدار الوحيد الأماهى فقط وقد كانت جدرانها تخلو من المنافذ لتجنب السرقات والتى اندثرت جميعها

(١٠٧) ابن بطوطة - مذهب رحلة ابن بطوطة - الجزء الأول - المرجع السابق ص ٤٣ وكذلك فى كتاب رحلة ابن بطوطة - دار صادر - بيروت ص ٥٤ .
(١٠٨) دائرة معارف الشعب - الجزء الثانى - القاهرة ، ص ١٠ .

(الشرفية والجنوبية والشمالية) ولهذا الباب قوسان أحدهما داخلي والآخر خارجي أحدث منه لأن الرخامة المنقوش عليها الكتابة تعلو قوس الباب الداخلي والذي يحيط بجانبها « صورة أسدان » وهما كما هو معلوم اركيولوجيا شعار الملك الظاهر بيبرس . أما الكتابة فتشير صراحة لبانيها يونس الداودار في عهد ملكه برقوق سنة ٧٨٩ هـ . حيث جاء على سطورها الخمسة وهي على هيئة أشعار ما يلي : -

- ١ - أقول والحق له رونق يقوم في النفس مقام الدليل ، ان له العرش سبحانه قد عضد الملك بكفى كفى .
 - ٢ - فالملك الظاهر بحر الندى أبى سعيد ذى العطاء الجزيل ، فأصبحت نصر به جنة واهلها فى لهو ظل ظليل .
 - ٣ - والهم الله دواذره يونس للخير وفضل جميل ، أنفق من ملجئه من ماله خانه الله بخان السبيل .
 - ٤ - يبغي به الأجر وحسن الثناء عليه طول الدهر فى كل جيل ، لا أمر الله بها دولة ولا حلية من بركات الجليل .
 - ٥ - وتم الخان لتبسع مضت بعد ثمانين بعون الجليل ، وسبعم مئين لذا أرخوا وحسبنا الله ونعم الوكيل .
- (صورة ٨٧) .

لذا وحيال هذا الباب نجد أنفسنا أمام ظاهرتين مختلفتين اركيولوجيا وتاريخيا .

فالباب له قوسان كما أسلفنا الداخلى منه مختلف عن الخارجى الاحدث والذي كما يبدو قد أضيف بناؤه فيما بعد .

أما الأسدان اللذان يخفان البلاطة المبنية أعلى قوس الباب الداخلى فيرمزان للظاهر بيبرس الذى أكد عديد من الدراسات التاريخية أنه بنى عدة أسبلة وجسور ومحطات بريد بين القاهرة ودمشق ومنها جاء ذكره فى « قرية السلقا » حيث أقام محطة للبريد كما أشار الرحالة « العمرى » ، كذلك ذكر « ابن الفرات » بأن يونس الداودار قد بنى خانا عظيما فى مكان يدعى « السلقا » قبيل غزة (١٠٩) .

Marawan F. Abu Khālaf, Khan Yunus and khāns of Palestine, (١٠٩) Levent, Journal of British School of Archaeology in Jerusalem and the British Institute at Amman for Archaeology and history, Volume XV, 1983, pp. 183-184

وهذا يوحى بأن محطة البريد التى جاء ذكرها فى « قرية السلقا » أيام بيبرس ربما هى نفس المكان الذى أعاد فوqe يونس الداودار « بناء الخان » فأضاف الباب الحديث على الباب الجديد والا فآين محطة السلقا ؟ وليبق الجواب محفوظا فى ذمة الدارسين والباحثه .

وعلى جانبى الباب الرئيسى والوحيد للخان هناك بلاطتان رخاميتان عليهما نقوش تكمل بعضهما البعض الآخر على الرغم من بعد المسافة بينهما وعلى كل حجر سطران كتب عليهما ما يلى : - (صور ٨٨ - ٨٩) .

١ - بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، أنشأ هذا الخان فى أيام سيدنا وهولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أى سعيد برقوق خلد الله سلطانه وشد بالصالحات اركانه .

٢ - أوقفه المقر الشريف العالى المولوى الأميرى الزعيمى المشاغرى الشرفى ظهير الملوك والسلاطين والفقراء والمساكين أمير المؤمنين التقى يونس النوروزى الداودار لمولانا السلطان الملك الظاهرى - أعز الله تعالى أنصاره وضاعف جزاءه .

وقد وضعت فوق كل بلاطة ثلاث رنوك الوسطى بيضاوية نقش عليهما « عز لمولانا السلطان الظاهر برقوق عز نصره » وعلى جانبيها ركان دائريان متشابهان عليهما شارة المقلمة رمز الداودار والكأس (أنظر الصورة ٨٨ - ٨٩) .

أما داخل الخان فقد جاء على جدار أسفل المسجد نقوش كتب على بلاطة رخامية طويلة ما يلى : -

١ - بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

٢ - أنشأ المرفق الشريف العالى المولوى الأميرى الزعيمى المشاغرى الشرفى النوروزى داودار مولانا السلطان الملك الظاهرى برقوق نشر الله عمله وبلغه أمله آمين بتاريخ جمادى الأولى سنة ثمانية وثمانين وسبعمائة . (صورة ٩٠) .

وقبلتها توجد عدة بلاطات أخرى يبدو أنها قد تهشمت فاعيد بناء بعضها مما جعل قراءتها غير مكتملة على النحو التالى :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم . . . أنشأ هذا الخ . . . العبد أبو . . . (أنظر الصورة) .

وربما تعود هذه الكتابة لأربعة حجارة قد تكسرت ، وبالنظر الى طريقة الكتابة فانها جميعا ترجع لنفس الفترة التى بنى فيها الخان تقريبا . (صورة ٩١) .

وبدأ الخان بعد ذلك أى (خان يونس) له وظيفة الجذب والاستقطاب لسكان القرى الواقعة فى الشرق فيه ممثلة فى بنى سهيلا وعيسان وخزاعة ومعن وسكان سوق مازن وقرية السلخا التى ربما كانت تقع الى الشمال من الخان أو هى نفس الخان كما بينا آنفا ليندفع سكان هذه القرى حول رافد اقتصادى جديد يسهم فى رفع مستواهم مقابل ما يقدمونه من خدمات للمسافرين والتجار والحجاج فبدأوا يبنون الدكاكين من حوله ويقطنون بجوارها لتصبح محله عامرة يطلقون على سكانها « القلاعية » نسبة للقلاعة التى بالخان لتتطور كما سنرى الى « قرية خان يونس » ثم تأخذ مرتبة المدينة بعد ذلك .

ولم يبق من هذا الخان الآن سوى الجدار الخارجى له يتوسطه الباب الرئيسى (انظر ٩٢ - ٩٣ - ٩٤) .

وما كاد القرن الثامن الهجرى يوشك على الانقضاء حتى أقام المماليك سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) أكبر جامع فى حى الشجاعية بل وفى مدينة غزة حتى الآن ليزر الدلالة على نماء وتطور هذا الحى جغرافيا وديمغرافيا ، فالجامع من حيث المساحة لا ينافس الا الجامع العمرى الكبير وسط مدينة غزة ، وقد سمي هذا الجامع الكبير « بجامع ابن عثمان » نسبة لبانيه شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عثمان الذى ولد بمدينة نابلس ثم نزل غزة « وكان صالحا منقطعاً » بمسجده الذى بناه بغزة وتوفى سنة ١٤٠٥م كما جاء على لسان السخاوى (١١٠) الذى لم يوضح أين توفى ؟

فالمكانة المركزية التى تبوأ بها هذا الجامع لكبر حجمه وموقعه المتوسط فى الحى وأزدياد خدماته الاجتماعية نجد أنه ضم حشدا من الحجارة الأثرية المنقوش عليها كتابات لمؤسسات دينية وثقافية واجتماعية قد أسست فى الحى أو المدينة أو فى نفس الجامع . لذا تحتاج دراستها لشيء من التحفظ لعل البعض منها « منقولاً من أماكن قد تهدمت كما هو الحال بالجامع العمرى الكبير خاصة وان الكثير منها قد بنى فى مواضع غير مألوفة على الجدار الخارجى للجامع .

فالجامع له بابان رئيسيان جاء فوق الباب الأيسر أقدم هذه الحجارة منقوشا عليه بالخط النسخ المملوكى أربعة سنطور كما يلى : -

(١١٠) السخاوى - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - القاهرة ١٣٥٤ - المجلد الثالث

ص ٣ - ٤ .

١ - بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوقف الى الله تعالى السيفى أوزمك
الملكى الظاهرى .

٢ - أعزه الله تعالى جميع القيسارية والاربع حوانيت مجاورة الشيخ
ابن مروان والدار سكن الواقف جميع

٣ - ذلك وقفا على مصالح المدرسة والسبيل وكتاب الايتام وخبز الصدقة
والمسجد المجاور سكنه وما فضل من ذلك يكون للجامع بتاريخ شهر شوال
سنة سبع وتسعين وسبعماية .

٤ - ومن الاملاك المذكورة قيراط ونصف للنبي عليه السلام ومثله للخليل
عليه السلام نفذه عنه (*) .

(صورة رقم ٩٥) .

لذا يعتبر هذا الحجر وثيقة وقفية توضح المصادر المختلفة التى أوقفت
لصالح مسجدين ومدرسة وسبيل وكتاب الايتام وخبز الصدقة المشار اليهم
والمفروض أنهم موجودون يقدمون خدماتهم قبسل عام ٧٩٧ هـ ١٣٩٥ م فاذا
افتراضنا أن هؤلاء جميعا كانوا فى جامع ابن عثمان نفسه والذى توفى كما بينا
سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . فآين الحجارة التى تدل على بناء الجامع نفسه ؟
فهناك حجران يشيران الى بناء مساجد وافتتاحها للعبادة أحدهما يرجع لعام
٨٠٠ هـ ١٣٩٨ م موجود داخل الجامع فوق أحد الأعمدة للقباء الغزى المثل على
صحن الجامع نقش عليه ستة سطور كالتالى : -

١ - بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم
الآخر . . . صلا الله .

٢ - عليه وسلم من بنى لله مسجدا بنى الله له مثله فى الجنة أمر بإنشاء
هذا .

٣ - الجامع المبارك الفقير الى الله تعالى المقر الأشرف العالى

٤ - المولوى الاميرى الكبيرى المالكى الظاهرى أعز الله أبصاره وختم الله

٦ - بالصالحات أعماله بمحمد وآله فى تاريخ شهر رجب الفرد سنة ثمان
مائة غفر الله له . (صورة ٩٦) .

فهل هذه هى بلاطة الجامع التى بنيت بالداخل ؟ أم تلك الموجودة أعلى

(*) يبدو أن السطر الأخير قد أضيف فيما بعد لأنه حفر حفرا بما لا يتلاءم مع بقية السطور
البارزة .

عتب الباب الرئيسى الثانى والثى تعود لسنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) ويوحى
وضعها بذلك والثى جاء عليها خمسة سطور بما يلى : -

١ - بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن

٢ - بالله واليوم الآخر أمر بانشاء هذا الجامع

٣ - المبارك المقر الاشرفى العام المولى السيدى

٤ - المالكى المخدومى العلاء آقبيقا الطولوتمرى الملكى

٥ - الناصرى أعز الله أنصاره بتاريخ شهر رجب الفرد سنة اثنين وثمان
مائة ٠ (صورة ٩٧) ٠

ويقال بأن علاه الدين آقبيقا الطولوتمرى كان يلقب « باللقاش » وهو
عبدا من عبيد السلطان برقوق الذى عينه حاكما على غزة (١١١) ٠ ويقول
ابن اياس بأنه وصل لمدينة غزة فى عام ٧٩٢ هـ واشترك فى مؤامرة ضد فرج
فى نفس العام (٨٠٢ هـ) حيث دارت معركة بين قوات الناصر فرج بن برقوق
والخارجين عليه فى « تل العجول » (١١٢) ٠

ويبقى السؤال الملح أى البلاطين تشير الى افتتاح الجامع ؟ خاصة وان
الزمن بينهما قريب وان ابن عثمان كان ما يزال على قيد الحياة ٠ وان اشارت
الاجابة على احدهما تبقى الأخرى منقولة فمن اين ؟ ٠

والذى يدعو للدهشة أن هناك « بلاطة » بنيت أعلى محراب صحن
الجامع تشير بأن هذا الجامع فى عام ٨٢١ هـ قد تعرض للهدم والخراب كتبت
بأربعة سطور كما يلى : -

١ - فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى
الموتى وهو

٢ - على كل شىء قدير أمر بعمارة هذا الجامع المبارك بعد الهدم والخراب
مولانا السلطان

٣ - الملك المؤيد أبو النصر شيخ أعز الله أنصاره بمباشرة المقر الكريم
العالى

٤ - السيفى أبو بكر اليغورى حاجب الحجاب بمدينة غزة المحروسة

بتاريخ شهر شعبان سنة احدى وعشرين وثمان مائة ٠ [الموافق أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر سنة ١٤١٨ م] (*) ٠ (صورة ٩٨) ٠

فما هي الأسباب التي أدت لهدم وخرابه جامع قد أنشئ قبل عشرين عاما فقط !! هل هي أمطار غزيرة ؟ أم لأسباب بشرية ناجمة عن رد فعل المؤامرة التي اشترك فيها آقبيغا الطولوتيمرى ضد السلطان فرج بن برقوق على فرضية لجوء بعض المؤيدين له بالجامع ٠ أم لا هذا ولا ذاك وتكون البلاطة منقولة ؟ والارجح أن تكون هذه البلاطة للجامع نفسه تؤكد كتابه البلاطة الموجودة أعلى المحراب الداخلى للجامع والتي تشير الى بعض الاصلاحات به جاء عليها : -

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين ٠ والمحراب أشرف مكان من المسجد ، عمر هذا المحراب وكذلك الفسقية والقبة أعلاه بصحن الجامع ابتغاء لوجه الله العبد الفقير الى الله تعالى الصدر الأجل الكبير الحاج علم الدين سنجر المعامل بغزة أعز الله بعزه وجعله في كنفه وحرزه وذلك في مدة آخرها العشر الأخير من شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثمانمئة » (صورة ٩٩) ٠

وربما تضمي هذه اللوحة بعض الشكوك عن مرتبة علم الدين سنجر هذا خاصة لو علمنا بأن حاكم غزة في هذه الفترة كان « انيال العلاني » ٠

وللدلالة على بعض الملامح الاقتصادية التي اتسم بها هذا العصر ومردودها على مدينة غزة هناك بلاطة توجد على الجدار الخارجى للجامع والمطلّة على الشارع العام الذى يقسم وسط الحى ويمثل فى الوقت نفسه سوقه الرئيسى تعود لسنة ٨٥٣ هـ (١٤٥٠ م) جاء عليها : -

١ - بسم الله الرحمن الرحيم رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطاني الملكى الظاهري السيفى أعلاه الله تعالى ٠

٢ - وشرفه وأنفذه وصرفه أن يبطل ما على الملح المجلوب الى مدينة غزة المحروسة من المكس الذى كان يؤخذ عند بيع الملح المذكور

٣ - استجلابا للأدعية الصالحة لهذه الدولة العادلة خلد الله ملك سلطانها بتاريخ خاتمه عام ثلاث وخمسين وثمان مائة ٠ (صورة ١٠٠) ٠

وعلى نفس هذا الجدار الخارجى هناك بلاطة رخامية نقش عليها سطران :-

(*) فى نفس هذا العام وقبل هذا التاريخ بسبعة شهور [فبراير سنة ١٤١٨] بنى الكجى مدرسته بالقرب من جامع محمد الطواشى على بعد أمتار شمال جامع ابن عثمان ٠

١ - بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى

٢ - الله تعالى المقر السيفى غردمل الملكى الظاهرى ٠٠ بتاريخ

(صورة ١٠١ - ١٠٢)

ويبدو أن هذه البلاطة هي التي تشير الى افتتاح مدرسة في هذا الحي
قريبة من الجامع نفسه هذا بالإضافة لوجود عدة بقايا من حجارة نقشت عليها
مسطور لافتتاح مؤسسات أخرى سواء أكانت دينية أو ثقافية قد بنيت
واستخدمت في بناء الجدار الخارجى لهذا الجامع كما هو موضح في الصورة
ولتدل على كثرة المؤسسات التي بنيت في هذه المدينة .

وبداخل هذا الجامع يوجد قبر للامير يلجاش حامش الناصرى نائب غزة
سنة ٨٤٩ هـ الذي تقلد منصبا مرموقا أيام الظاهر بريقوق وتوفى سنة ٨٥٠ هـ
ودفن بجامع ابن عثمان (١١٣) .

ولمكانة هذا الجامع فقد أوقفت له أوقاف عديدة زادت على اثني عشر مصدرا ،
مزارع بالقرب من خان يونس (مزرعة مميزة *) وارض زراعية أخرى بالقرب
من قرية بيت لاهيا ودكاكين ومعاصر وبيوت بنفس الحي رصدت له في أواخر
القرن التاسع الهجرى لاستمرار تواجده (١١٤) كمركز ديني وثقافي مرموق .

وفى حى بنى عامر بمدينة غزة أقيم مسجد المغربى سنة ٨٦٤ هـ (مسجد
السواد) وقد ذكر هذا العام على ضريح بداخله .

وتتعاظم حركة المعمار وداخل حى الشجاعية وعلى مسيرة بضعة مئات
من الأمتار التي تبعد عن جامع ابن عثمان والسيد على المغربى يقام جامع جديد
يطلق عليه « جامع البرديكية » سنة ٨٥٩ هـ ليحبر ليس فقط على ازدياد النمو
السكانى والانتعاش الاقتصادى بل ولتنافس أمراء المماليك وحكامهم وبعض رجال
الدين في إقامة المباني الدينية والمرافق الثقافية العامة وعلى رأسها المساجد
فيقوم « انبال العلائى » بانشاء هذا الجامع التي ألحق به مدرسة في نفس العام
أسسمها « برديك الداودان » كما جاء على البلاطة الموجودة أعلى عتب الباب الشمالى
للجامع (مغلق الآن) جاء عليها :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم الما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم
الآخر بنى هذه

(١١٣) عثمان الطيباع - اتحاف الأعزة بتاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٢ - ١٨٣ .
(*) ربما نسبته للشيخ جميز المدفون بالقرب من خان يونس وهو أخو الشيخ لبهان المدفون
جهة وادى غزة والمتوفى سنة ٦٨٤ هـ .
(١١٤) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ٧ .

٢ - المدرسة المباركة ابتغاء لوجه الله تعالى المقر الأشرف العالى السيدى

المالكى

٣ - المخدمى السيفى برديك الداودار الملكى الأشرفى اعز الله أنصاره

بتاريخ ذى الحجة الحرام

٤ - سنة تسع وخمسين وثمانمئة وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

تسليما أبدا .

(صور ١٠٣ - ١٠٦) .

وفيما بعد أطلق سكان المدينة على هذا الجامع اسم « جامع المحكمة » لأنه أصبح مقرا للحكم بين الناس وقد ذكر أن الأمير « بردريك الأشرفى اينال الداودار » كان نائبا لمدينة غزة وبنى جامعاً هو هذا الجامع وقد توفى سنة ٨٦٨ هـ (١١٥) .

ويوجد على جدار منبر الجامع بلاطه رخامية كبيرة بنيت بأسلوب ارتجالي محفور عليها بالخط الكوفى البديع خمسة عشر سطرا جميعها أدعية ربما كانت موضوعة فى مكان ما بالجامع أو المدرسة أو نقلت من مكان آخر تعرض للاندثار .

وفى ساحة الجامع يوجد ضريح عليه « شاهدان » عليهما كتابة احدهما حجر صغير مبتور جاء عليه اسم العالم الصالح الشيخ محمد البياس وقدمحيت الكتابة التى تدل على التاريخ ويبدو أنه منقول من ضريحه المندثر . وعلى الشاهد الآخر المتكامل جاءت كتابة تعود لشهيد الشباب محمد بن المرحوم الحاج درويش المتوفى سنة ٨٢٢ هجرية يعلوها شارة سنتحدث عنها عند تعرضنا لدراسة الرنوك فى غزة .

وفى عام ٨٠٠ هجرية وعند أقصى الطرف الشرقى لحي التفاح أقيم « مسجد ومزار الجولانى » بداخله ضريحه والمتوفى سنة ٨٠٠ هجرية وقد اندثر هذا المسجد ثم أعيد بناؤه فى أواخر سبعينات هذا القرن .

وفى داخل سور المدينة وفى حي البرجلية (الدريج) أقيمت زاوية ومزار « الشيخ ظريف » جاء على بابها :

« بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه الزاوية المباركة الجنب العالى السيفى . . . أستاذ الصعبة الشريفة جانبلاط الظاهرى لأولاده الأطفال خلى بآى وجابى

(١١٥) السخاوى - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - القاهرة ١٣٥٤ هـ - المجلد الثالث

ص ٤ - ٥ .

غزة - ٢٤١

بأى ومحمد وعلى وقد تم بناؤه فى الحامس عشر من شعبان المكرم سنة احدى
وثمانين وثمان مائة .

ويبدو أن الزاوية قد أقيمت على أنقاض بناية سبقتها ربما تكون زاوية
أو مسجد لأن بداخلها قبر الشيخ ظريف المتوفى سنة ٧٨٤ هـ حسبما جاء
على قبره مما يدل على أن التاريخ السابق لبناء الزاوية ربما كان لاعادة بنائها
وقد اندثرت هذه الزاوية ولا يوجد لها أثر على اثر شق شارع جديد بالمدينة
(شارع الوحدة) .

ومع بداية الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى والذى يوافق الربع
الآخر من القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا وفى ظل حكم السلطان قايتباى
(١٤٦٨ م) . أقام جامعا ومدرسة عند الطرف الجنوبى الغربى من حى الشجاعية
(ساقية الطواين) ولقد دمرت الزلازل هذا الجامع سنة ١٥٤٦ م وظل مهجورا
حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى عندما قام محمد كمال الدين البكرى
المتوفى سنة ١١٩٦ هـ بنقل حجارة هذا الجامع وأجزاء متكاملة منه مثل باب
الجامع والمحراب والمصطبة والدكة الخاصة بالقراء والمؤذنين وقام ببناؤها كما هى
فى صدر الايوانات الشرقية بالجامع العمرى الكبير (١١٦) كما ذكرنا آنفا .

ويبدو أن ولده الملك الناصر محمد قد بنى لجامع والده منبرا ، فقد جاء
على بلاطه طويلة أربعة سطور بنيت فوق المحراب بالاىوان الشرقى للجامع العمرى
جاء عليها : -

١ - بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك
جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا أنشأ هذا المنبر المبارك .

٢ - فى أيام مولانا السلطان ابن الملك الناصرى العلائى محمد بن المرحوم
مولانا السلطان الملك الأشرف ابى النصر قايتباى خلد الله ملكه

٣ - مولانا العبد الفقير الى الله تعالى قاضى القضاة الشافعى بدر الدين
ابن أبى الفضل محمد بن المرحوم علاء الدين بن ابراهيم الغربى وصاحب
ديوانى . . .

٤ - الجمالى يوسف بن المرحوم الناصرى محمد

ثلاثة وتسع مائة

(صورة ١٠٧) .

وأسفلها مباشرة توجد رخامة نقشست عليها آيات قرآنية :

(١١٦) عثمان الطباع ، اتحاد الامعة بتاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٢ .

« فأنظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شئ قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم » (صورة ١٠٧) .
وعلى الجانب الايمن لمحراب جامع قايتباى الموجود بالجامع العمري هناك بلاطه يبدو أنها كانت للجامع قام ببنائه محمد بن السلطان قايتباى وهى جزء من حجر قد كسر جاء عليها :

١ - ٠٠٠ الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة

٢ - ٠٠٠٠ الكفرة والمشركين محيى العدل بالمعالين محمد بن سيدنا ومولانا السلطان ال ٠٠٠ (صورة ١٠٨) .

كما يوجد جزء من حجر قد تهدم وبني أسفل قاعدة المنبر العلوية بشكل عشوائى مقلوب يبدو أنها كانت للجامع قد تعرض للاندثار جاء عيها سطران كما يلى :-

١ - ٠٠٠ متولى غزة المحروسة وذلك فى أيام مولانا .

٢ - ٠٠٠ هذا المسجد المبارك فى شهر شوال ٠٠ (صورة ١٠٩) .
وقد أوقف السلطان قايتباى على جامع ومدرسته أوقافا جليلة وكثيرة كما سنوضحه عند تعرضنا لظاهرة الوقف فى مدينة غزة وقراها سنة ٨٨٣ هـ .

ولقد بلغت مكانة غزة الاقتصادية مداها عندما نرى أن السلطان قايتباى قد أوقف العديد من المرافق والمصادر الاقتصادية فى غزة على مدرسته التى بناها بالقدس حيث أوقف الحوانيت وحمام السويحي بحى الشجاعية بالإضافة للمعاصر والقاعات (١١٧) .

ومما يؤسف له أن « حمام السويحي » بالشجاعية قد هدم دون أن نعرف من بانيه على الرغم من أنه مملوكى .

وفى هذه الحقبة ومع نهاية القرن التاسع الهجرى بنى شرف الدين عيسى بن الوزير مسجدا فى قلب مدينة غزة بالقرب من سوق الخضر والذي يطلق عليه الآن « مسجد الوزير » أوقف له فى عام ٨٩٢ هـ بعض الدكاكين الملاصقة له من الشمال (١١٨) . وعلى باب الجامع توجد جزء من بلاطه عليها أدعية فقط . (صور ١١٠ - ١١١) .

ولعل آخر الآثار المملوكية المباركة ما بناه قنصوى فى بداية القرن العشر

(١١٧) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٤ و ٤٠ - ٤١ .

(١١٨) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ١٤ .

الميلادى عند بوابة مدينة غزة الشرقى فأقام جامعہ الذى سمي فيما بعد وللآن مسجد الشيخ محمد أبو العزم الغربى « (*) وهو من رجال التقى المغاربة وكان معتكفا بزوايته بالمسجد حيث توفى فيها فقد جاء على بلاطه رخامية أعلى عتب الباب الخاص بالزاوية ما يلى :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك مولانا ملك الأمراء المقر الأشرفى السيفى .

٢ - قانصوه كافل المملك الغزى أعز الله أنصاره بتاريخ صفر سنة ثمان وتسعمائة « (صورة ١١٢ - ١١٣) » .

وبعد أن تعرض هذا الجامع للهدم قد نقلت هذه البلاطة للجامع العمرى الكبير ويبدو لنا أنها هى الموجودة الآن أعلى شبك مكتبة الجامع العمرى الكبير الداخلى .

وقد أوقفت لهذا الجامع أوقاف عديدة كما سنرى .

حتى كانت نهاية المماليك قام جان بردى الغزالي ببناء مسجد سسمى « جامع الغزالي » فى حى الشجاعية الجديدة وقبالة جامع السيد على وما دما بصدد ذكر بوابة غزة الشرقية « والى الغرب من جامع قنصوه « أو أبو العزم » توجد بنايات أثرية أو بالمعنى الأدق مجمع لبنانيات قديمة توحى بأهمية مكانتها الادارية والعسكرية خاصة وانها تقع على تلة عالية (٥٠ مترا فوق سطح البحر) تشرف منها على نواة المدينة وظهرها .

وفى وسط هذه الأبنية القديمة بناية ضخمة أشبه بقصر يطلق عليها « الدبوى » ترجع فى بنائها للقرن الثالث عشر الميلادى لو اعتبرنا الحجارة التى نقش عليها شعار « الأسد » والموجودة على جانبى احدى البلاطات فى الحائط الجنوبي للبنية وبالقرب من الباب العلوى الذى ينتهى عنده الدرج المؤدى للطابق العلوى هى جزء لا يتجزأ من البنية عند انشائها وهى كما هو معلوم شعار الظاهر بيبرس . وهذا افتراض بعيد الاحتمال ويعتقد ان هذه الحجارة لبناء « الدبوى » التى ما زالت ماثلة بقوة للآن (مدرسة الزهراء الثانوية الآن) .

ويبدو أن هذه البنية كانت تطل على بوابة غزة الشرقية المعززة بالأبراج

(*) يطلق على هذا الجامع ابناء غزة جامع « أبو العزم » وكثيرا ما يربطون بين هذه الصفة (أبو العزم) وبين ما تميز به شمشون الجبار الذى ورد ذكره فى التوراه فتراهم أحيانا يدعون بأن الضريح الموجود فى الزاوية بأنه شمشون وهذا خطأ لأنه لم يرد ذكر موضع شمشون فى غزة بل كثيرا ما ظهر فى الخرائط القديمة فى مواضع متباعدة فقد وضع على خريطة الحملة الفرنسية فوق تلة المنطار .

الحربية حيث يوجد أسفلها أنفاق أرضية تقود الى أماكن خارج حدود البناية وهي بالتالى مفتاح غزة من جهة الشرق والمطل على الطريق التجارى والعسكرى الهام بين مصر وفلسطين . لذا فقد أطلق على جميع الحى الذى توجد به وحتى حدوده الغربية عند مسجد الشيخ خالد جى البرجلية نسبة للإبراج ومن يقومون بالمرابطة بها .

والثف حول هذه البناية عدة بنايات قديمة مثل جامع القلعة (مقر دائرة الأوقاف الآن) والبيمارستان والحمامات (حمام القلعة وحمام السمرة وحمام الباشا) وجميعها اندثرت عدا « حمام السمرة » والقيسنارية (صورة ١١٤) .

أما بالنسبة للبناية الماثلة للآن فى هذه المنطقة (الدبوى) فسننتحدث عنها فى الوقت الذى بنيت فيه فى النصف الأول من القرن السابع عشر .

ولعل خير من يوجز مكانة غزة فى القرن التاسع الهجرى هو « الظاهرى » الذى ذكرها قائلا « انها من احدى الممالك الثمانية » واصفا مرافقها الحيوية « بأن فيها من الجوامع والمدارس والعمارات ما يورث العجب » وان المسلمين بدأوا فى تأسيس المساجد وتجديد السوق الكبير الذى يمتد الى الكرنتينة * جنوبا ، وأوجز دورها الوظيفى الحساس فى كلمتين بالغنى الدقة والدلالة بقوله انها أى غزة « دهليز الملك » (١١٩) .

ولو أعدنا النظر للمدينة وما حولها لتلمس بنيتها الاقتصادية وملائمها الديمغرافية وسباتها الثقافية فى الحقبة المملوكية . نجد أن المدينة وما حولها خضعت لمؤثرات طبيعية شكلت كيانها واثرت فى سكانها وعلى قيمتها الأمطار وذبذباتها الناجمة عن موقعها البينى المناخى بين مناخ الصحراء ومناخ البحر المتوسط ، يليه مباشرة كونها بوابة وجسر يربط بين قارتى آسيا وأفريقيا أو بمنطق « الظاهرى » « دهليز الملك » الذى عبره جيوش وتجار كل الامبراطوريات التى عرفها التاريخ .

فموقع غزة وقطاعها على هوامش الصحراء من الشمال وبداية مناخ البحر المتوسط من الجنوب جعلها تتلقف الحد الأدنى من كمية الأمطار [غزة يسقط عليها ٣٠٠ ورفح ١٥٠ ملم] والمدينة مع هذا لا يوجد بها أنهار أو ينابيع ، فاستنبت سكانها مياههم بحفر الآبار سواء آكانت آبار الجمع التى حفرت فى

(*) كانت هذه « الكرنتينة » تقع عند نهاية شارع الكمالية (دير اللاتين) الجنوبية فى

حى الزيتون .

(١١٩) الظاهرى - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - باريس ١٨٩٤ ص ١٤

وما بعدها .

غناء المنزل لتخزين مياه الأمطار أو حفر الآبار الارتوازية للحصول على مياهها الجوفية والتي حفرها داخل المدينة وعلى أطرافها .

وقد أوضح القلقشندى ، المتوفى سنة ١٤١٨ م بأن أهالى غزة يشربون من مياه الآبار (١٢٠) ولعل ما كشفت به النقوش المكتوبة على جدران المساحد ما يشير الى ذلك وكذلك ما جاء فى وقفيات وأملاك المسلمين فى فلسطين فى المدفتر العثماني ٥٢٢ ما يوضح مواقع البعض منها ومدى فاعلية السكان فى استصلاح الأراضي وزراعتها كما يستدل من الأراضي الزراعية العديدة التى أوقفت لصالح المؤسسات الدينية والثقافية والترفيهية فى المدينة كما سنرى .

فقد جاء كما ذكرنا سابقا على حجارة « جامع السيد على المغربى » بالشجاعة عن البئر والسقاية أشتا التى أوقفت لصالح المدرسة التى بجوارها .

وكذلك تم حفر بئر الأجمقية بحى التفاح فى أيام الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٦ هـ) الموافق ١٤٣٨ - ١٤٥٢ م والآبار التى جاء ذكرها فى وسط المدينة فى « خط الخضر » (١٢١) التى أوقفها أحد أبناء غزة فى عام ٨٨٧ هـ لأعمال الخير والبر . (صورة ١١٥) .

واستمر « بئر الأجمقية » الممول الوحيد للمدينة حتى أواخر العهد العثماني الذى جرت فيه مياهه حتى « سبيل الرفاعية » فى داخل المدينة (حى بنى عامر) لكى يستمر حتى عام ١٩٢٦ عندما أقامت عليه بلدية غزة موتورا يدفع المياه للخزان الموجود بسبيل الرفاعية ليفى باحتياجات المدينة .

وكان البناء الاقتصادى قويا بقوة الدولة المملوكية والتى بلغ أوجها فى القرنين السابع والثامن الهجرى وبصفة محددة حتى بداية النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المطابق لنهاية النصف الأول تقريبا من القرن الخامس عشر الميلادى (١٤٥٣ م) الذى يمكن اعتباره حد الازدهار النهائى للملوكى وبداية النهاية للعصر الذهبى الاقتصادى فى الشرق الاوسط قاطبة .

ويمكننا استقراء مثل هذه الأحوال للبنية الاقتصادية على الصعيد المحلى الغربى وما جاورها من خلال ما ورد من كتابات عربية على المرافق المختلفة داخل المدينة .

فحفر الآبار والسواقي العديدة التى كانت تسور المدينة كما جاء فى عديد من الوقفيات تعكس الرخاء الاقتصادى داخل المدينة وانتشار المرافق الانتاجية والأسواق العامة فقد جاء ذكر العديد منها داخل مدينة غزة الأم فهناك الأفران

(١٢٠) القلقشندى صبح الأعشى ، المجلد الرابع ، القاهرة ص ٩٨ ، ٩٩ .

(١٢١) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ١٦ .

في محلة البرجلية (حي الدرج الآن) والدكاكين العديدة داخل القيسارية ودكاكين بمحلة الخضرية وكذا المصانع بالبرجلية أيضا جميعها توحى ولو بشكل جزئي على رخاء المدينة بالإضافة لبناء المساجد العديدة التي قمنا بالتركيز عليها سابقا لدلالاتها المتعددة وبناء المكتبات والحمامات والرباطات والمدارس والبيمارستانات وانشاء الاسبلة والزوايا والتكايا هي جميعا أيضا تعكس متانة النسيج الاقتصادي للدولة أو حتى أفرادها من الأمراء أو من رجال الدين كانوا هم المساهمون ، كما تعكس بشكل واضح حجم المدينة العمراني الذي استوعب هذه المؤسسات الضخمة والعديدة سكنا وسكانا .

فالقياسر (*) التي أنشئت في قلب المدينة القديم « سوق القيسارية » وكذا سوق الشجاعة الذي يقع في منتصفه جامع ابن عثمان . والقياسر التي وجدت بالقرب من جامع ابن مروان بحي التفاح قد اندثرت جميعا عدا قيسارية مركز المدينة . فقد شاع بناء مثل هذه الأسواق التي تأخذ شكل القاطرة في العصر المملوكي وعلى جانبيها الحوانيت (الدكاكين) للمتجار والصناع خاصة في عصور بيبرس وقلاوون وبرقوق التي تميزت بتقسيم الأراضي على الشيوخ والأجناد والأمراء وبناء الخانات في معظم المدن الفلسطينية من صفد (١٢٣) شمالا في غزة وخان يونس جنوبا (انظر خريطة الخانات في فلسطين) .

كما شيدت الوكالات في نهاية العصر المملوكي التي هي أسواق في حد ذاتها في جميع أحياء المدينة والقياسر وهي تمثل نمطا عمرانيا وهندسيا في فترة العصور الاقتصادية وتستخدم الجوانب الاقتصادية للناس . كما أنها هندسيا تأتي تكيفا للاحوال المناخية الشرق أوسطية فلكونها مسقوفة تحمي المواطن من الأمطار شتاء وتوفر طقسا معتدلا ورطبا في الصيف الحار الجاف وبالتالي تمنع من تسرب الرمال والأتربة التي قد تذررها الرياح في الربيع والصيف وهي بالتالي توفر الفرصة الكافية للتنقل والتجوال للمشتريين بجرية . (صورة رقم ١١٤) .

ومن الملاحظ أن اختيار موقع القياسر بالقرب من الجامع الرئيسي في المدينة أو الحي كما بينا ، له فلسفته التجارية حتى إذا ما انفض المصلون من صلاتهم وجدوا أنفسهم في وسط هذه الأسواق مباشرة لقضاء حوائجهم بسهولة ويسر . وقد تسابق التجار وأمراء الممالك في بناء هذه القياسر فكانوا يؤجرونها

(١٢٢) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ٦ - ٧ .
 (*) القياسر لعلها مأخوذة من كلمة « قيصر » باللاتينية Cesaire وقد ظهرت في الشام قبل مصر ارجع لكتاب - د . نعيم زكي فهمي - طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ٢٩٦ .
 (١٢٣) احسان النمر - تاريخ جبل نابلس والبلقان ، الجزء الأول - نابلس ١٩٦١ ص ٣٠ .

للتجار والهيئات بالحجارة أو « الدكان » بأسعار خيالية يوقفون مدخولاتها على المساجد والجوامع والمدارس والبيمارستانات والزوايا كما جاء على إحدى بلاطات جامع ابن عثمان وجامع السيد على المغربي بالشجاعة وفي دفتر العثماني رقم ٥٢٢ . وتكاد معظم المدن الفلسطينية الرئيسية لا تخلو من هذا النمط من الأسواق .

وقد ألمحت بعض النقوش الواردة على إحدى بلاطات جامع ابن عثمان بالشجاعة عن بعض السلع المستوردة لمدينة غزة وهي « الملح » وكيف كان المكس أى الضريبة عليه تشغل بال الكثيرين من الناس والتجار لأهمية هذه السلعة ودخولها في صناعات محلية عديدة والمطالبة بالتالى بالغائها فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس عشر تقريبا وهى خط التقسيم بين الازدهار والاضمحلال . لذا قرر السلطان اعفاء الناس منها خاصة أيام حكم « اينال العلائى » الذى اتخذ فى مصر « ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م » خطوات اقتصادية واجراءات أمنية عندما تحفظ على كثير من السفن والسلع ووكالات التجار الأجانب متخذاً تدابير لمواجهة تدفق الأعداد الضخمة من هؤلاء التجار الأجانب الذين تركوا تركيا ومدنها الساحلية بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م فى أيدي الأتراك العثمانيين الذين بدأوا توسعاتهم الحربية فطردوا الجاليات الأجنبية وتجار المدن والجمهوريات الإيطالية لانهم ساعدوا البيزنطيين ضدهم . هذا السيل تلقفه « اينال العلائى » فمنحهم امتيازات تسمح لهم بتوسيع تجارتهم وانشاء المصارف والفنادق ففضلوا البقاء فى الموانئ السورية لقربها من أوروبا عن الموانئ المصرية (١٢٤) .

مما لا شك فيه قد استفادت غزة « دهليز الملك » بحكم موقعها بين مصر وبلاد الشام من هذه الأحوال الاقتصادية فانسعت أسواقها وراجت تجارتها وكثرت وكالاتها ودعم ذلك الانسان العربى فى غزة باهتمامه بالزراعة حتى طوق مدينته بالأراضى الزراعية التى أوقف العديد منها لصالح المؤسسات الخيرية والدينية فظهر منها :

ساقية الزيتون للجنوب من مدينة غزة وكذلك بسساتين الزيتون للغرب أما جهة الشمال فهناك خكر التفاح وساقية الأجمقية وبشرها وإلى الشرق - ساقية خليل (١٢٥) . « وساقية سويد » وفى الشمال الشرقى « ساقية الحكمة والرماد » حيث كانت تزرع أشجار الزيتون والفواكه معتمدين بذلك على

(١٢٤) د . نعيم زكى فهمى - طرق التجارة الدولية ومحطاتها - المرجع السابق ص ٢٩٥ وما بعدها .

(١٢٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ٦ - ٧ .

ما حفروه من آبار والتي أقاموا عليها الطواحين الهوائية للاستفادة من مياهها
فى الزراعة • (الخريطة رقم ٢٢) •

ولم يدم هذا الازدهار طويلا نتيجة لعملية الأسر الجغرافى لموقع الوطن
العربى الوسيط بعد الكشف الجغرافية سنة ١٤٩٨ م فسرق الأوربيون تجارة
جنوب شرق آسيا وتوابعها التى لم يسمح بتصديرها الا بأذن خاص من مندوب
الملك عما نويل، مما أثار غضب إيطاليا فكون مجلس التوابل فى فنيسيا لمعالجة
الموقف الذى يهدد تجارتها ، كما أقسم فى الوقت نفسه سلطان مصر المنصور
الثانى بأنه لن يدع أحدا يجرد من هذا الامتياز الذى يتمتع به هو الآخر (١٢٦) •
الا أن قرارات فنيسيا وقسم السلطان المملوكى ذهباً هباء ومع هذا وذاك سرقوا
قوتهم السياسية بالكامل ليبدأ الانحدار الرهيب ليصبحوا فريسة سهلة للعثمانيين
بعد فترة وجيزة •

أما من الناحية الديمغرافية السكانية :

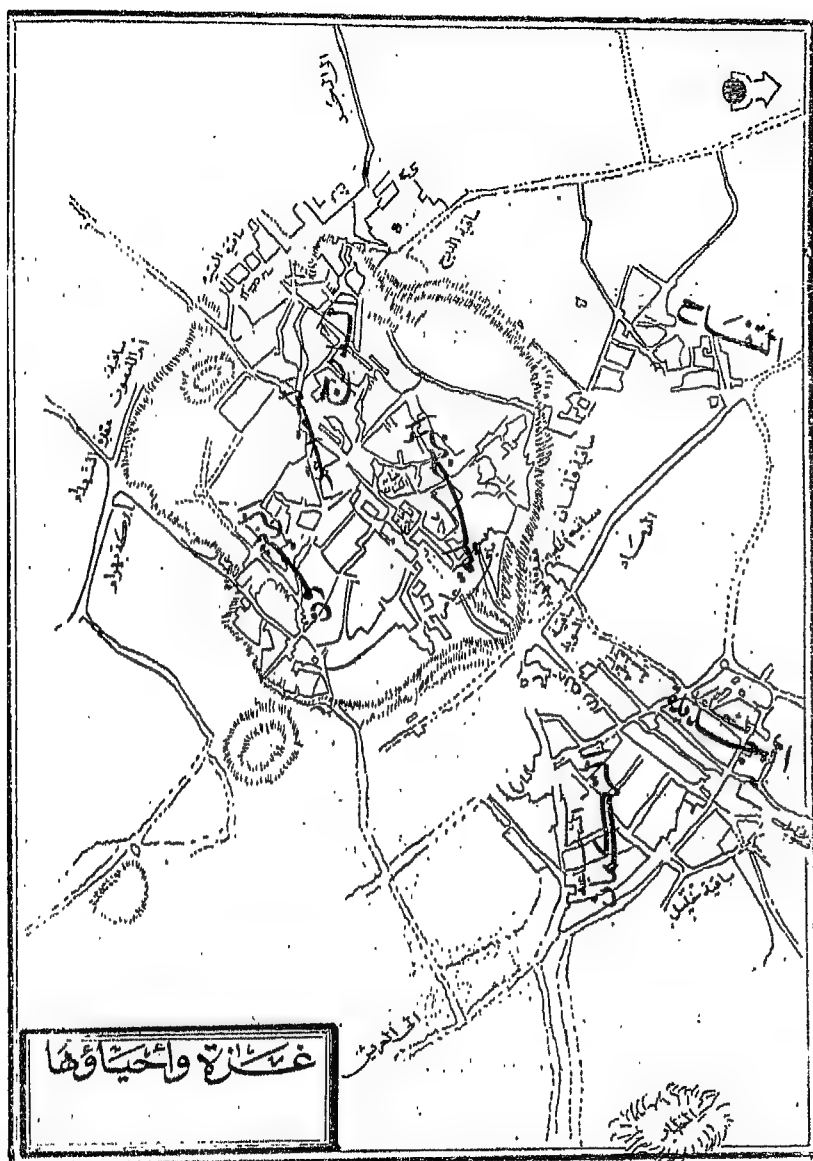
فقد وصلت المدينة الى قمة النضج فى حجمها واتساعها وخرجت المدينة
النواه الاكربوليسية « فوق المدينة » من عقال اسوارها لتمتد شرقا وجنوبا
وشمالا منذ الفترة الأيوبية ليصل كمال اتساعها مع نهاية المرحلة المملوكية •

فأصبحت هناك أحياء جديدة [الشجاعية شرقا والتفاح شمالا والزيتون
جنوبا] قائمة بذاتها مكثفة بمرافقها الحيوية من جوامع ومدارس وأسواق
تجارية • حتى بلغت هذه الأحياء فى امتدادها ومساحتها مسافات مساحة المدينة
الأم غزة (فوق المدينة) منسلد أن أنشأها العرب الكنعانيون وحتى الفترة
الأيوبية ، أى أن ما شاده الأيوبيون والمماليك على مدى قرنين من الزمان من
عمران قد فاق عمران آلاف السنين •

فالنمط العمرانى فى مدينة غزة الأم قد تأثر تأثرا كبيرا بالأنماط السابقة
التى تحكم فيها الاسوار وأبوابها وقلاعها الواقعة على حدودها • فكانت المباني
عبارة عن كتلة سكنية متراسة أشبه بقلعة وشوارعها ضيقة معوجة غالبا ما تتصل
ببعضها البعض ولا تتسع فى غالبيتها لائنين قد ركبا دابتيهما لو تقابلا مع
بعضهما ، كما كانت بعض الشوارع مغلقة •

وعليه لم يكن فى المدينة النواه تسميات أو تقسيمات على مستوى الأحياء
ولكن التقسيمات كانت وظيفية تخضع للحرفة التى يزاولها السكان وهذه سمة
من سمات المدينة العربية فى القرون الوسطى فهناك :

(١٢٦) سونيا هار - فى طلب التوابل - ترجمة محمد عزيز رفعت ، ١٩٥٧ ص ٢١٦ •



خريطة (٢٢)

مدينة غزة وأحيائها وسواقيها في الفترة المملوكية

سوق الزياتين وسوق التجارين وسوق السروجية وتقع في الناحية الجنوبية من نفس المدينة (حي الزيتون الآن) ثم سوق الكتان والغزالين والخضرية (في وسط وغرب المدينة الآن) وكانت هذه الأسواق جميعا الواقعة غربى الجامع العمري الكبير. تدعى «محلة البرجلية» ربما لسكنى جنود الابراج بها . بالإضافة الى أسواق اللبان والعطارين وخان الدباغة وخان الطباغية (١٢٧) فلسفة عمرانية قائمة على أساس أن يكون لها سوق «لقصدهم أرفق ولضائعهم أنفق» وفي وسط المدينة هذه وحول قلعتها. توجد الحمامات يتوسطها الرباط المنصوري «خان الزيت فيما بعد» بكل وظائفه كبورصة تجارية وفندق للمسافرين والتجار .

وكانت لهذه الحمامات وظائفها الترفيهية والصحية تنم عن حياة اجتماعية مشرفة حتى جعلها ابن خلدون من مظاهر «المدن المستبحرة» وبالنظر لمساحة مدينة غزة الأم أو النواة التالية التي لا تتعدى كيلو متر مربع من أقصاها لاقصاها أنشئ بها ثلاث حمامات تركزت في قلبها وحول قلعتها وهي حمام السوق وحمام القلعة وهناك حمام جاء اسمه في دفتر العثماني باسم «حمام الثنورة» كان قد أوقفه أقبغا بن عبد الله الأوحدي سنة ٧٣٤ هـ (١٢٨) . ربما كان هو موضع «حمام السمرة» الآن لأن جميعهم قد اندثر عدا هذا الحمام الذي يوجد خلف الرباط المنصوري القديم (خان الزيت) مباشرة من الجنوب وقد جاء على بلاطه تعلو الباب الداخلي له بما يفيد بأنه «قد آل الى أويس باشا والى دمشق وجنده وقام بعمارته وأصلحه ثم آل الى ابنته آمنه هانم أم أحمد باشيا الصغير (١٢٩)» (صور ١١٦ - ١١٨) .

هذا بالإضافة الى وجود بلاطه قديمة أخرى قد محيت سطورها وأصبح من الصعب قراءتها .

وقد افتن المالك بمظاهر الحمامات الجمالية ولعل «حمام السمرة» يبرز بعضا منها حيث يدخل اليه بمر ضيق لا يلبث أن يقودنا الى فناء واسع شبه دائري تتوسطه بركة صغيرة مضلعة وعلى جانب الفناء هذا قبو صغير للاستراحة والفناء له قبة ذات فتحات تأخذ أشكالا هندسية جميلة مغلقة بزجاج ملون وفي الجهة القبلية للفناء باب يقود لمر ضيق فيفرج عن صالة صغيرة ذات غرفة لتغيير الملابس والاستراحة الأولى بعد الاستحمام ومن هذه الصالة

(١٢٧) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ٩ - ١٠ و ص ٤٠ - ٤١ .

(١٢٨) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ١٠ .

(١٢٩) عثمان الطباع - انحاء الأعزة في تاريخ غزة - المجلد الأول - المرجع السابق

يُدخل الشخص نفسه الى الحمام المزود بالمياه الساخنة وهو عبارة عن قاعة متسعة عند اطرافها غرف صغيرة للاستحمام الشخصي (★) .

ومما يلفت الانتباه بالنسبة لمساجد غزة القديمة الواقعة فوق التلة أنها بنيت عند أطرافها القريبة من سورها القديم وربما كان مرد ذلك استغلال المسلمين للفراغ الواقع بالقرب من اسوارها المتهدمة كما هو الحال بالنسبة لجامع الشيخ زكريا عند الحافة الغربية وجامع الكمالية الى الشرق وجامع الياس . وعندما تهبط من فوق تلة المدينة تجد مقابرها التي تلفها من جهاتها الأربع تقريبا كحد نهائي للمعمور .

ويبدو أن هذه المقابر بدأت بزمن الشهداء الذين قاوموا الغزوة الصليبية منذ بداية القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) ولعل أقدمها وفقا لما جاء على أضرحة الشهداء :

— مقبرة ابن مروان : فى الطرف الشمالى الشرقى للمدينة ويبدو أن هذه التسمية قد أتت فيما بعد لان المقبرة قد بدأت فى موضع أبعد الى الشمال الشرقى من جامع ابن مروان نفسه فى منطقة « الشيخ بشير » حيث وجد ضريح لشهيد كتب عليه :

« هذا قبر المجاهد فى سبيل الله تعالى الخارج ابتغاء الله الراجى عفوه تعالى الحاج عز الدين حسن بن عمر بن عيسى الملكى الصالحى المقتول بالجهاد بعسقلان فى النصف من جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وسمائة » .

ومن بعد ذلك « الشيخ بشير » نفسه الذى أصبح ضريحه مزارا لأهل المدينة ومعلما دينيا تلتف حوله أضرحة الشهداء فقد جاء على ضريحه :

« هذا قبر الفقير الى الله تعالى الطواشى الأجل الكبير سعد الدين بشير ابن عبد الله الأشرفى رحمه الله تعالى توفى فى العشر الأخير من رمضان المعظم سنة تسع وأربعين وستماية » (١٣٠) .

وقد جاء على قبر آخر يقع الى الغرب منه :

« هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى على بن عز الدين خميس بن يوسف الشهرزورى المتوفى يوم الخميس الخامس عشر من ذى الحجة سنة اثنين وثلاثين وسبعماية » رحمه الله ورحم من ترحم عليه .

(★) هذا النمط الهندسى للحمامات تتكرر صورته وفنه المعمارى فى بقية حمامات فلسطين والأردن ومصر .

(١٣٠) عارف العارف ، تاريخ غزة ، المرجع السابق ص ٣٥٤ .

هكذا أخذت هذه المقبرة تتسع فيما بعد وتتجه غربا نحو المدينة الأم ايقام بها جامع بن مروان مع بداية القرن الثامن الهجرى (٧١٥ هـ) . كما اتجه امتدادها نحو الشمال الشرقى لتفصل بين حى التفاح وحى الشجاعية الجديدة .

وعند حافة المدينة الشرقية مباشرة قيل انه كانت هناك مقبرة تدعى مقبرة « بنى ميس » قامت عليها « مدرسة هاشم الآن » حيث عثر أثناء الحفر على ضريح لاسحق بن ابراهيم المقلدى المتوفى فى ١٤ محرم سنة ٧٤٠ هـ وبالقرب منها كان يوجد « خان الطيب » الذى اندثر فيما بعد (١٣١) .

هذا من الشرق والشمال الشرقى .

أما من الشمال فتحدها مقبرة الأوزاعى الواقعة أسفل منحدر المدينة الشمالى والتى يقع على أطرافها ضريح جد الرسول السيد هاشم رضى الله عنه الذى توفى أثناء رحلة له بين الشام والجزيرة .

أما من جهة الغرب فهناك مقبرة تحت سفحها الغربى وبالقرب من باب المدينة القديم (باب البحر) حيث دفن بها الكثير من المجاهدين والامراء الذين استشهدوا فى القرنين السابع والثامن الهجريين . ونظرا لعدم امتداد العمران فى هذا الاتجاه لسفن الرمال البحرية فقد ظلت هذه المقبرة هى حدها الغربى وأطلق عليها فيما بعد « مقبرة الشيخ شعبان أبى القرون » بعد الألف الهجرية حيث يوجد جامع أطلق عليه « جامع الشيخ شعبان » حيث أخذت هذه المقبرة تتجه غربا بجنوب .

أما من الجهة الجنوبية فقد حدثها أيضا مقبرة عند نهاية سفحها وفوق أرض منبسطة قبالة بابها الجنوبى « باب دير الروم » حيث دفن بها شهداء سجلت أسماءهم فوق أعمدة رخامية عديدة تخليدا لبطولاتهم حتى سمي هذا الحى « بحارة العواميد » وسميت المقبرة « بمقبرة العواميد » ومقبرة الشهداء ومن أسماء الشهداء التى حُفرت على هذه الأعمدة :

١ - محمد بن قنعمان القرم المتوفى سنة ٦٩١ هـ .

٢ - الشهيد الحاج نور الدين على بن الامير شهاب الدين بن منارة التركمانى المتوفى فى ٥ شعبان سنة ٦٩٤ هـ .

٣ - حساب الدين محمد العجمى توفى فى ٥ ربيع أول سنة ٨٩ هـ .

٤ - الشهيد الحاج اسماعيل القرمى المتوفى فى ربيع أول سنة ٧٠٥ هـ .
(صور ١١٩ - ١٢٠) .

(١٣١) عثمان الطباع - اتحاف الاعزة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٤٧ .

٥ - الأمير المرحوم بدر الدين الروبي الطالوي السعدى السلحدار المتوفى فى ١٨ شعبان سنة ٦٩٩ هـ .

وهكذا كانت المدينة غزة بحكم موقعها خط الدفاع الأول لمصر وكان المرابطون بها يعتبرون أنفسهم فى رباط دائم وعلى الجبهة القتالية المستمرة فى صدامها مع الأعداء لذا ترى كثرة هذه الصفات التى تسبق أسماء الأمراء والسلاطين والمجاهدين والمحفورة على كثير من الحجارة مثل « المرابطى والمجاهدى والمناعرى الخ » .

هذه هى الحلقة الأولى لمدينة غزة التلية القديمة الأم لتأخذ فى الاتساع كما ذكر مع الفترة الأيوبية والمملوكية وتتخطى المقابر القديمة السابقة الذكر لتدخل فى الطور الثانى المتمثل فى أحياء الشجاعة (التركمان والجديدة) شرقا وحتى « حكر التفاح » شمالا « وحى الزيتون » جنوبا تحيط بالمدينة الأم كحدوة حصان من جميع الجهات عدا الناحية الغربية لامتداد زحف الرمال وعدم صلاحيتها للزراعة اذا ما قورنت بأراضى المناطق فى الجهات الأخرى .

حى الشجاعة :

ويقع كما ذكرنا شرق المدينة الأم مباشرة بدأت سكنة القبائل الاسلامية التركمانية التى وفدت مع الأيوبيين لمقاتلة الصليبيين حيث أقطعوا كثيرا من الأراضى كما ذكرنا واستوطنوا القسم الجنوبى من الحى الذى سمي باسمهم « التركمان » يقابله فى الشمال « حى الجديدة » الذى سكن بعض شوارعه أكراد قبالة جامع السيد على المغربى كما جاء فى وقفية عماد الدين بن بدر الدين المسارعى سنة ٩٠٩ هـ بأنها سميت بحارة الأكراد (١٣٢) . فكانوا بذلك عوناً للأيوبيين والمماليك فى القتال والحكم حيث لا تدخل معظم المدن الفلسطينية من أحياء كاملة باسم « الأكراد » فيها .

تعتبر المساجد من العلامات الرئيسية البارزة التى تحكم كما يبدو فى تخطيط الأحياء الجديدة كما هو واضح فى هذا الحى فلا يكاد يوجد بها شارع واحد دون أن نجد به مسجد أو جامع يتوسطه أو يبتدىء به ان لم يكن عند نهايته .

فقد تمحور هذا الحى حول شارعين رئيسيين يقطعهما من الشمال للجنوب ومن الشرق للغرب تتفرع منهما شوارع طولية متوازية ضيقة الى حد ما لكنها شبه مستقيمة .

وعند تقاطع الشارعين الرئيسيين توجد السوق الرئيسية للحى وعلى طول

(١٣٢) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٤ .

امتدادهما خاصة تلك المتجهة نحو الشمال والجنوب والذي ينصفه تقريبا جامع ابن عثمان (شارع السوق) حيث يبدأ هذا الشارع من جهة الشمال بجامع السيد علي المغربي (الطواشي) بمدرسته يتوسطهم مزار الشيخ مسافر حتى اذا ما اقتربا عند نهايته الجنوبية في حي التركمان نكون قد وصلنا الى نهاية السوق . الذي يمثل العمود الفقري للشجاعة بأكملها .

في هذا الشارع السوق وهو أشبه بنظام القيسارية لكنها غير مسقوفة يتوزع التجار وفقا لمهنتهم المختلفة . فعند طرفه الجنوبي سوق الحدادين ليأتي بعده شمالا سوق التجارين والفرائين (عمل الفراء) ثم سوق الغرابلية في الوسط يليه سوق العطارين وعند التقاطع سوق الخضار لينتهي شمالا بدكاكين الصباغين .

بالإضافة لهذا كثرت الجوامع في هذا الحي كما ذكرنا سابقا وكذلك المدارس منها مدرسة جامع السيد علي المغربي ومدرسة جامع ابن عثمان والمدرسة الباسطية ومدرسة المحكمة ومدرسة قايتباي . يتوسطهم حمام واحد هو « حمام السويحي » الذي اندثر ولم نعرف بانيه . لينتهي شرقا بجنوب « بسوق الغنم » وبمقبرة تمثل نهاية حدود العمران المملوكي تسمى مقبرة « التونيسى » أو مقبرة « التفليسى » ، يقال انها كانت ملكا لرجل من تفليس ثم حُرقت فأطلق عليها « تونيسى » .

وقد حلت حي الشجاعة من الشمال مقبرة « الدررية » أو مقبرة « التمرتاش » حيث يوجد بها قبر محمد التمرتاش صاحب « الدررية » والمتوفى سنة ١٠٠٤ هـ ، ويقال ان « الدررية » اسم جماعة نزلوا بالقرب منها . وقد التحمت هذه المقبرة بمقبرة الشيخ بشير السابقة الذكر .

حي « حكر التفاح » :

ولعل هذا الاسم اشتق الكثرة أشجار التفاح في هذا الحي الذي تجمعت بيوته حول جامع الرئيس « الجامع الايبكى » وجامع علي بن مروان الذي كانت بجواره سوق كما جاء على أحد أحجاره وجامع ابن عثمان بالإضافة لجامع آخر يقع الى الشمال منه قد اندثر هو جامع « الجمعة » والى الشمال منه مباشرة يوجد بئر الأجمقية وسبيلها بالإضافة الى طاحونة ورد ذكرها في وقفية الشهابي أحمد بن علي بن علي الحاجب سنة ٨٩٣ هـ (١٤٣٣) .

وبالقرب من الأجمقية كانت هناك سدرية ، بنى بالقرب منها جامع يحمل اسمها -للآن- (جامع السدرية) .

(١٤٣٣) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ، المرجع السابق ص ١٥ .

أما بحى الزيتون ، الذى اشتهر بكثرة زراعة الزيتون منذ القدم فقد امتد مع سفح المدينة الجنونى وخلف باب الداروم « باب دير الروم » أى المواجهة لمدينة دير البلح يوم كان يطلق عليها « دير الروم » .

وقد أنشئ فى هذا الحى وفوق أرضه المنبسطة عدة مساجد قد اندثرت وبقيت أعمدة الشهداء السابق ذكرها فأطلق عليه « حارة العواميد » .

وقد كثرت أوقاف الأراضى المزروعة بالزيتون فى هذا الحى وكذلك السواقى وجامع قبل غزة الذى ورد ذكره فى وقفية أتبعها بن عبد الله الأوحى سنة ٧٣٤هـ ولم يذكر اسمه (١٣٤) .

هذه هى الحلقة الثانية من تاريخ تطور العمران بالمدينة حتى نهاية الفترة المملوكية انتهت أيضا بمقابر وقد استمر وضعها العمرانى على هذا الحال من الثبات التام طيلة أربعة قرون السيطرة العثمانية وحتى بداية حكم الانتداب البريطانى فقد ظلت حدود تنظيم بلدية غزة ضمن هذا الامتداد الجغرافى من جهاتها الأربع كما جاء فى الوقائع الفلسطينية لسنة ١٩٢٧ م من الشمال « بركة قمر » وهى ملاصقة تقريبا الساقية الأجمقية . ومن الشمال الشرقى « مقبرة الدردية » ومن الشرق « سوق الجمعة » (سوق الغنم) ومن الجنوب « حارة العواميد » (الأعمدة القديمة) بحى الزيتون ومن الغرب « سوق فراس » (١٣٥) الذى يحد باب المدينة من الغرب وهو « باب البحر » .

أما تقييم الجانب العلمى والثقافى فى الحقبة المملوكية لمدينة غزة وما حوالها . ومما لا شك فيه أن الحركة العلمية والتعليمية قد ارتقت وازدهرت فى دولة كثرت فيها الكتابات والمؤلفات الشاملة لكل علم وفن وعمت الموسوعات المستوعبة والجامعة ، طيلة قرنين ونصف من الزمان شملها السلام والأمن بعد أن صدوا جحافل التتار وقطعوا دابر الصليبيين غير رجعة ، ودعمتها المكانة الاقتصادية المتينة للدولة .

فأنشأت المكتبات العلمية أيام الظاهر بيبرس فى غزة ولم تعد المدارس ملحقة بالجوامع فقط بل أقيمت بشكل مستقل فى المدينة الأم وفى جميع أحيائها مثل المدرسة الكاملية ومدرسة الرومى والمدرسة الجركسية وكذلك مدرسة جامع المغربى (الطواشى) ومدرسة ابن عثمان والمدرسة الباسطية والمدرسة الحكمية (جامع المحكمة) . معلقا وواصفاً مبانيها وعماراتها الحسنة « بما يورث العجب » (١٣٦) .

(١٣٤) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق من ١٠ .
(١٣٥) جريدة حكومة فلسطين الرسمية ، العدد ١٧٩ القدس ١٦ آذار ١٩٢٧ ص ٤٣ .
(١٣٦) الظاهرى - زيد كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٨ وكتاب اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٧٥ .

هذه المرافق الثقافية أنجبت العديد من رجال العلم الذين لم يكتفوا بالاستزادة العلمية في المدينة بل خرجوا لاستكمالها في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد حتى بلغوا شأوا عظيما فألفوا الكتب وتسلم العديد منهم مناصب حكومية وصلت لمرتبة الوزير والمستشار من أمثال :

— ابراهيم بن محمد بهادر بن أحمد عبد الله برهان الدين المقرشى النوفلى الغزى ويعرف « بابن زقاعة » ولد بمدينة غزة سنة ١٣٤٤ م وتوفى سنة ١٤٠٧ م فكان عالما فى النبات والأعشاب وعلم الكيمياء فقربه اليه السلطان بوقوق تكريما له واستفادة منه ثم انتقل الى مصر فوصل لمكانة مرموقة أيام الملك الناصر فرج حيث توفى بها (١٣٧) .

ومن الشخصيات الغزية على بن أحمد بن محمد العلاء الغزى ولد بغزة سنة ١٤٠٨ م وتوفى سنة ١٤٥٨ م فتعلم فيها على يد فقيها ناصر الدين الاياسى فتعرف على الأشراف اينال نائب غزة الذى ارتقت به الأيام فأصبح سلطانا لمصر سنة ١٤٥٣ م فاستدعى هذا العالم وبوآه مكانة عالية بين كبار الأئمة حتى ولاء « نظارة الأوقاف » فى مصر أى أصبح وزيرا بها .

ومن رجال غزة أحمد بن عبد الله بن بدر « أبو نعيم » شهاب الدين العامرى الغزى ثم الدمشقى ولد بغزة سنة ١٣٦٨ م وتوفى سنة ١٤١٩ م ذهب لدمشق فولى افتاء دار العدل وقام بالتدريس فى عدة أماكن وله شرح « الحاوى الصغير » فى أربع مجلدات (١٣٨) .

ومن الشخصيات الغزية الشمس أبو عبد الله المكنى « بأبى الجود » ولد سنة ١٤٢٧ م وأخذ فى التجوال طلبا للعلم بين عدة مدن عربية منها حلب والقدس ثم عاد لمدينة غزة مسقط رأسه فتولى مشيخة جامع البرديكية (جامع المحكمة) ثم انتقل بعدها لمصر فتولى القضاء على المذهب الحنفى للديار المصرية فى القاهرة (١٣٩) .

وفى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا (١٤٥٥ م) ولد محمد ابن القاسم بن محمد بن الشمس « أبى الغرابيلى » الذى درس العلوم الدينية

(١٣٧) شمس الدين محمود عبد الرحمن السخاوى - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج ١ القاهرة ١٣٥٣هـ ، ص ١٣٠ وانظر خير الدين الزركلى - الاعلام - قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، المجلد الأول - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ص ٦٤ .

(١٣٨) خير الدين الزركلى - الاعلام - قاموس ترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين - المجلد الأول - بيروت ١٩٧٩ ص ١٥٩ .
(١٣٩) السخاوى - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - المرجع السابق .

والجبر في القاهرة واشتغل مدرسا في الأزهر ثم عين خطيبا في «جامع القلعة»
القريب من قلعتها (الأوقاف حاليا) ومفتيا بها .

كما أنجبت مدينة غزة مؤرخا هو محمد بن أحمد بن عبد الله بدر الغزى .
الذي أصبح نائبا لقاضى دمشق وأرخ لسيرة الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ -
١٤٥٣ م) .

وهناك من عمل في سلك التدريس داخل مدارس غزة التعليمية منهم أحمد
ابن شعبان بن علي بن شعبان الشهابي الانصارى الذى درس في القاهرة ثم
بمدارس القدس وأخيرا عينه السلطان قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٦٥ م) مدرسا
بمدرسته في غزة (مدرسة السلطان قايتباى) التى اندثرت (١٤٠) .

هؤلاء قلّة من كثيرين أنجبتهم مدينة غزة طافوا الأمصار سعيا وراء العلم
فاحتلوا مكانة مرموقة تزكيتهم سماحة الاسلام التى حطمت البعزات الاقليمية
والحدود الجغرافية الضيقة وفتحت لهم رحاب أرض الاسلام واسعة ليصل ابن
غزة الى ذوا المناصب في القاهرة أو فقيها في دمشق أو مدرسا في حلب أو
القدس . فلا حدود ولا فواصل أمام العلم والعلماء تحت راية الاسلام .

ولقد لعب الموقف الاسلامي دورا جوهريا في اذكاء الحياة العلمية والتعليمية
في غزة فما هو محمد بن مقبل الرومي يوقف من ماله وأراضيه في قرية بيت
حانون أوقافا جليلة ويطلب نفقة ثلثها على طلبة العلم الواردين من مصر ومن الجامع
الأزهر الشريف وعلى طلبة العلم الوافدين الى رواقه (رواق ابن مقبل) في غزة
وكان ذلك سنة ٨٠٧ هـ كما حرر محضرا لوقفه أيضا سنة ٩١٦ هـ (١٤١) أى
حتى نهاية الفترة المملوكية تقريبا .

قرى غزة :

أما بالنسبة لقرى مدينة غزة ونمط الاستقرار البشري فيها فقد اتسعت
مراكز الاستيطان البشري وتناثرت بشكل لم يسبق له مثيل على الجازظة الفلسطينية
فأصبح التوجه من المدينة نحو الأراضى الزراعية المبادرة بسببه الهدوء والامن
والاستقرار السياسى وهو السائد والمستمّر ، تحفهم مساحات شاسعة من الأراضى
الزراعية السهلة شرقا وشمالا وختوبا فهم فوق أوسع سهل ساحلى فلسطينى
خصيب . فانتشرت القرى الصغيرة التى هي أشبه « بالقرى المؤقتة » اختفى
أبنائها الزراعية لخدمة المدينة العامرة ذات المتطلبات الكثيرة والمقدرة الشرائية
القوية فبرزت قرى لأول مرة على الخريطة الجغرافية العمرانية الفلسطينية مثل

١٤٠ (٢٤٠) السخاوى ، الطهوع ، اللامع لأهل القرن التاسع عشر ، المجلد الأول من المراجع السابق
ص ٣١٢ .

(١٤١) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المراجع السابق ص ٣

قرى خرسا ونخاسة ولسن وقرى صحن (سيعان) وبيت حايين وزير الحرازين وبزا وبشا ٠٠٠ الخ قرى أوضحتها سجلات الأوقاف والدفاتر العثمانية كما سنرى فيما بعد أوقف أجزاء من أراضيها الزراعية المعطاة كثير من السلاطين والأمراء المماليك الوجوه البر والاحسان وتشجيع الدروس الدينية وتشيد المدارس والبيمارستانات والزوايا واستمرت هذه القرى فى مواقعها بسكانها حتى أيام الدولة العثمانية فيما بعد .

هذا مع ثبات القرى الرئيسية القديمة فى تواجدتها فقد تكشف التواجد السكانى فى قرية جباليا حول مزار وجامع المشيش المتوفى سنة ٤٠٠ هـ « واستمروا فى زراعة الأرض حتى أوقف سنجر الجاولى نائب غزة سنة ٧١١ هـ معظم أراضيها لمستلزمات جامعته وبيمارستانه فى مدينة غزة كما جعلها مقرا لمالكة الجركسية وقد احتوت « النزلة » التى لم نعد نسمع عنها الا فيما بعد .

أمام قرية « بيت لاهيا » فقد جاء ذكرها فى معجم ياقوت الحموى مع بداية القرن الثالث عشر (١٤٢) ويبدو أن هذه القرية قد اتسعت مساحة أراضيها الزراعية وأوقفت العديد منها لصالح البر والخير فى القوة المملوكية فقد أوقف حاجى حسن بن عبد الله الشهير « بابن العال » سنة ٨٦٧ هـ بعضا من أراضيها وأراضى قرية « رسم الشراقى » (١٤٣) فى هربيا .

وتتميز هذه القرية بكثرة آبارها الاثرية القديمة التى تحيط بموقع القرية الآن والتى تصل الى أكثر بقليل من عشرين بئرا لتعكس مدى العمران البشرى والتقدم الزراعى داخل القرية التى تجمع سكانها حول زاوية الشيخ سليم التى أوقفت لها مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية مع بداية الفترة العثمانية .

أما قرية « بيت حانون » فقد حظيت بنصيب وافر من الاهتمام المملوكى لموقعها الهام فأصبحت كنصب دفاعى للنصر الذى أحزوه المسلمون على الصليبيين سنة ١٢٣٩ م كما جاء على مسجد النصر فى القرية كما بينا .

وقد ذكرها المقرئى واصبحت مركزا للبريد وذكرت باسم « حنين » وقد أوقفت بعض أراضيها لصالح طلبة العلم فى غزة والأزهر مع بداية القرن التاسع الهجرى (١٤٤) .

أما قرى غزة الجنوبية فقد أدت ظروف الدولة المملوكية الادارية والاقتصادية الى خلق قرى جديدة حيث ظهرت لأول مرة مؤسسة تجارية عسكرية

(١٤٢) ياقوت الحموى - معجم البلدان - المجلد الأول - دار احياء التراث - بيروت - ص ٥٢٢ .

(١٤٣) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق - ص ٤٤ - ٤٥ .

(١٤٤) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق - ص ٣ .

وهي « خان يونس » سنة ١٣٨٩ . اعشوشبت حوله المحال التجارية لأبناء القرى المجاورة في مساحة لا تتعدى نصف كيلو متر مربع من جهات الحان الأربع لتكبر وتصبح قرية فمدينة خان يونس لخدمة التجار والمسافرين والحجاج ومحطة على الطريق .

وكذلك ازدهرت قرية « السلخا » التي ذكرنا أنها ربما كانت تعنى في وقت من الأوقات المملوكية « خان يونس » نفسه فقد جاء أن هذه القرية أقيمت على « بئر للمياه » حفر في عهد طرنتاي المملوكي لتأخذ فيما بعد وظيفة « محطة بريد » كما جاء على لسان المقرئ المتوفى سنة ١٤١٨ م وليعمرها سكان القرى الشرقية من أبناء عيسان وبنى سهيلا ومعن وخزاعة وقرية « سوق مازن » وعشائر النصيرات التي اتخذت من الأراضي الشرقية مسرحا لترحالهم وتجوألهم سعيا وراء الرعي كما احترفوا الزراعة واثين ما تبقى من خرب وهرابات لتخزين المياه بها من آثار مدن دائن « الدميثة » و « سوق مازن » وقد أوقف بعض أراضي قرية السلخا لصالح الحرميين الشريفين كما أوقفت إحدى سيدات غزة (سعادات بنت سعد الدين الحاجب) أوقافا لصالح الخير من أراضي هذه القرية سنة ٨٩٣ هـ (١٤٥) .

وقد أظهرت الوقفيات في الدفاتر العثمانية (دفتر ٥٢) كثير من الأراضي الزراعية لعديد من القرى مثل قرية « جميل المعاد » أو « المعادى » قرب النصيرات وربما تعنى هنا « المغازى » التي هي « الدميثة » الآن .

كما أوقف مجهول قطعة أرض زراعية لأعمال الخير تعرف « بمازنية غازى » تابعة لمدينة غزة ربما هي الواقعة بين سوق مازن والمغازى (١٤٦) فأطلق عليها « مازنية غازى » .

أما المدن التي كساها العمران في الفترة الرومانية والبيزنطية إلى حد ما كمناطق حدودية وقلاع كدير الروم (دير البلج) ومدينة رفح فلم تعد لهما هذه الوظيفة الإدارية أو حتى العسكرية لسقوط وظيفتها الحدودية والعسكرية ، فقد سلبت « خان يونس » دور المدينتين خاصة بعد أن دمر صلاح الدين قلعة دير الروم (الداروم) كمدينة صليبية حدودية سنة ٥٨٤ هـ (١٤٧) .

وانحدر الحال بمدينة رفح فبعد أن وصفها المهلبى « بأنها عامرة بسوقها وجامعها وفندقها » أصبحت أيام ياقوت الحموى « بأنها » أول الرمل وخربه الآن « مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى (١٤٨) .

(١٤٥) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ١ و ٤ .

(١٤٦) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين المرجع السابق ص ٤ - ٥ .

(١٤٧) ياقوت الحموى - معجم البلدان - مجلد ٣ المرجع السابق ص ٤٢٤ .

(١٤٨) ياقوت الحموى - المرجع السابق ص ٥٤ .

وبقى هناك موضع حظى بنصيب وافر من الذكر لموقعه الاستراتيجي الذي ورثه منذ آلاف السنين عند وادي غزة وهو « تل العجول » كمفتاح لمدينة غزة من الناحية الجنوبية وكموقع عسكري تركزت فيه جيوش صلاح الدين كما عسكر الملك العادل برجاله في هذه المنطقة كذلك فعل الملك الكامل عندما رابط بعساكره وهو متوجها لدمشق فقد جاء ذكرها طيلة هذه الحقبة الأيوبية والملوكية باسم « تل العجول » دون أى ذكر لطبيعة وظيقتها سواء أكانت قرية مأهولة أم مدينة ، الا انه جاء فى سجل الأوقاف العثمانية وحتى بداية الحكم العثماني باسم « منشية تل العجول » لترمز بذلك على سكنى بعض الناس فيها كما سنرى ، كما أوقفت بعض المزارع فيها لصالح البيمارستان الناصري فى مدينة غزة (١٤٩) .

وقد سبق لأحد جنود الأمير جمال الدين موسى يغمور أن تغزل بها وهو محتشد بقيادة الملك صلاح الدين الأيوبي قائلا :

يذكرنا زمان الذكر حقسا زمان اللهو فى تل العجول
وتطلب مسلما يروى حديثا رغب من أحاديث الرسول

ومع اطلالة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى الموافق للنصف الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بدأت غيوم الاضمحلال تتراكم وتخيم على سماء المنطقة بأجمعها لتعصف بها رياح التسيب الإدارى والخلف بين النواب والأمراء مع بداية سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، فكان هذا السقوط ناقوسا ينذر بمجى القوة العثمانية من الشمال مما أربك التجارة بين آسيا وأوروبا عبر بحار المتوسط والأسود . فبدأ خط الازدهار الصاعد المملوكى فى الانحناء والهبوط لتضيق الحياة بأهلها لشدة ما اكتنفها من أزمات اقتصادية عمت جميع المدن والقرى فى الشام ومصر ومن جملتها « المملكة الغزية » وبرز ذلك بوضوح بعد ربع قرن عندما أفرغت المدن معظم رصيدها المخزون من ثراء القرون السابقة ليذكرها ابن اياس ، مترجما الأزمة الاقتصادية فى صورة نقود الدولة المملوكية سنة ١٤٧٥ م بقوله : « انها جلبت الخسارة للناس عندما انخفضت قيمتها وتدنى مركزها النقدى لدرجة أن الناس قد « خسروا ثلث ثرواتهم من النقود » عندما استبدلوا قديمها بجديتها » (١٥٠) .

وقد سبق هذه الأزمة المالية بخمس سنوات (١٤٧٠ م) انتشار مرض الطاعون مبتدئا بالقدس ومستمرأ أربعة شهور يحصد فى أرواح البشر وقد بلغت ضحاياه ما بين ٣٠ - ٤٠ نسمة فى اليوم الواحد ضاربا الرقم القياسى

(١٤٩) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - ص ٦ .

(١٥٠) ابن اياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الجزء الثالث - القاهرة ، المرجع السابق ص ٢٢٨ .

بضحاياه في مدينة غزة فوصل عدد الموتى في أحد الأيام إلى أربعمائة نسمة 11
في حين بلغت ١١٠ ضحية في اليوم الواحد. في مدينة الرملة أما في مدينة الخليل
فقد مات خمسون شخصا في اليوم (١٥١) وربما تعكس هذه الأرقام ولو جزئيا
الكثافة السكانية في كل مدينة .

ولعل ما ذكره « فيلكس فابري » سنة ١٤٨٣ م يوضح هذه الكثافة
السكانية عندما تحدث عن ازدهار المدينة (غزة) وبأنها أضخم من القدس
مرتين من حيث اتساع مسطحها العمراني وانها من مدن فلسطين الرئيسية وبأنها
عامرة بالسكان وغنية ببضائعها المتميزة بانخفاض أسعارها وهذا عائد لموقعها
على الطريق التجاري ولقوة الدفع التاريخي وبأثر رجعي لمخزونها الثرى وقوة
اقتصادها الزراعي المحلي عبر السنوات السالفة .

وقد وصف مسكنها بأن معظمها من الطين باستثناء المساجد والحمامات
المبنية من الحجارة ومن الناحية الاثنوغرافية قال « ثابري » : ان سكان غزة
مزيج من عرب مصريين وسوريين وهنود ومسيحيين شرقيين .

وليس ذلك بمستغرب على مدينة غزة « دهلين الملك » أن تضم هؤلاء جميعا
موقعها البروري كجسر بين جناحي الاسلام الأفريقي والاسيوي . كما وصف
سلوك أبناء المدينة حيال الحجاج والمسافرين بأنه ممتاز ولا غبار عليه ، كما لم
يشاهد سورا يحيط بالمدينة لكنه شاهد إبراهيم العديدة مؤيدا ما لاحظته قبله
بعامين سنة ١٤٨١ م مشولام فولتيرا . الايطالي الذي أفاد بأنه لم يكن يحيط
بالمدينة سور (١٥٢) .

أما القاضي مجير الدين الحنبلي فهو خير من وصف الحياة المملوكية في نهاية
القرن الخامس عشر الميلادي (١٤٦٧ - ١٤٩٥ م) . وهي تحتضر بحكم منصبه
الحساس كقاض بالاضافة لكونه من مواطني البلد . فقد ذكر بأن « الخلاف بين
الحكام والأكابر » قد خرب أطنا به واستشرى في البلاد فانتشرت معه الخصومات
والمحن بين النواب لترتد مآسيهم على الفلاحين وابتداء المدن على حد سواء . حتى
وصل التسبيب الإداري حدا لا يعرف معه النائب حدود نيابته - أو هكذا
يتظاهرون - محكا للخلاف والاقتتال الذي أصبح السمة الظاهرة والغالبة
على تصرفاتهم فيفتعل النواب مشكلة تبعية القرى الحديثة بين نياباتهم ولأيها
تعود !!؟ .

فعلى سبيل التمثيل لا الحصر وفي عام ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) وقع خلاف
بين نائب القدس الشريف وملك الأمراء آقباي كافل المملكة الغزية لتعدي الأول

(١٥١) مجير الدين الحنبلي - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - المرجع السابق
س ٨٣ - ٨٤ .

M. A. Mayer, History of the city of Gaza, New York, 1966, pp. 92-93. (١٥٢)

على قرية « القباب » لادعائه بأنها تابعة له ، ويرى كافل غزة بأنها له فكانت النتيجة أن « قطعت الطرق وساد السلب والنهب » بين الناس في النيابتين على حد رأى مجير الدين (١٥٣) .

ومن صور التحلل الإدارى والسياسى ما حدث عندما انسحخت مدينة الرملة من ولاية غزة. لتتضم إلى الأمير جان نائب القدس فكان رد الفعل أن « فرح أهل الرملة بزوال نائب غزة » ثم حدث « تخبيط فى الطرق » وهى الرد المباشر لكل تقلب إدارى يقتضيه النواب فى البلاد وعلى أثره تقوم مظاهرة عنيفة من قبل السكان يقطعون فيها الطرق ويدمرون كل شئ تعيراه عن سخطهم .

أخذ النواب على اثر ذلك وكرد فعل لضعف الحكومة المركزية فى القاهرة ينفردون بولاياتهم فاخذوا فى ابتزاز الأموال من السكان خاصة الفلاحين وأهل المدن بأسلوب تميز بالشراسة والعنف فكانوا يأخذون الزيت المتحصل من مدينة نابلس فى الشمال الفلسطينى ويجبرون أهل القدس وغزة والخليل بشرائه بالقوة وبأثمان باهظة يحددونها كما حدث بالتحديد فى سنوات ١٤٩١ م وحتى سنة ١٤٩٤ م عندما فرضوا على سكان هذه المدن شراء كل قنطار من الزيت بالكيل الرملى (نسبة لمدينة الرملة) بما قيمته ١٥ دينارا ذهبيا (١٥٤) فى وقت كان يسمى « عصر النحاس » تعطلت فيه الأسواق عن البيع والشراء بسبب القلوس التى ضربها « قنصوى الغورى » « وهى تختص فى المعاملة الثلث » حتى على هذا العصر المملوكى الجركسى « عصر النحاس » لقلة كميات الذهب المتداولة فيباع كما ذكرنا قنطار الزيت فى غزة بخمسة عشر دينارا ذهبيا (١٥٥) فى حين كانت تصل كلفته دينارا واحدا فقط لكى تصل بذلك المكسرة ممتلئها بالمواطنين الذين لم يفتقوا بعد من حصاد الجراد لمزروعاتهم سنة ١٤٨٤ ليعقبها وفى عام ١٤٩٨ م هزة أرضية أسقطت العديد من المنازل مع ما حملته هذه السنة من ضربة مؤلمة وقاتلة ستددها البرتغاليون للمنطقة بأسرها بحركة كشوفهم الجغرافية الدموية ووصولهم للهند عبر رأس الرجاء الصالح مكتسحين العرب من بابهم الخلفى عند الخليج العربى فى منبسط عمان ويسلبون دورهم كوسيط تجارى بين الشرق والغرب مما حجب وصول السلع والتوابل عن مصر والشام وأصبح البحر المتوسط « بحيرة راكدة » بعد أن كان يعج بالسفن العربية والإيطالية التى واجهت هى الأخرى ظروفًا قاسية أصبحت فيها سفن البندقية وجنوه تعود فارغة لأول مرة من الموانئ الشامية .

وبذا نجح البرتغاليون من سلب قوة الممالك الاقتصادية ومن ثم

(١٥٣) مجير الدين الحنبلى - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - المرجع السابق

ص ٣٦٧ .

(١٥٤) مجير الدين الحنبلى - المرجع السابق ص ٣٧٣ .

(١٥٥) مجير الدين الحنبلى - المرجع السابق ص ٣٧٣ .

السياسية فى المنطقة فمجلت من شيخوخة الدولة المملوكية بحيث أصبح الاستيلاء على البلاد أمرا ميسورا وبحد أدنى من المقاومة المملوكية المنهكة نجحت القوات العثمانية بعد سنوات وجيزة ومع بداية القرن السادس عشر من اجتياز البلاد .

مع هذا الضمور الاقتصادى والتسيب الادارى ومع ما لازمه من ابتزاز للاموال العامة والخاصة بالتجار والفلاحين بدأت موجة معاكسة من القرية والمزارع المحيطة بالمدن للمتوجه نحو المدينة نفسها منجذبين نحوها لأنها توفر لهم حدا أعلى من الأمن والأمان ويحدهم الأمل فى نيل ما يخصهم من زكاة أموال الأغنياء المتمركزين فى المدينة ولما فى المدينة من مرافق حيوية كالجوامع والمدارس والبيمارستانات والحمامات والزوايا والأسبلة .

بدأت بالتالى القرى الصغيرة المؤقتة والحرب فى الانجذاب نحو قطب العمران المركزى وهى المدينة الأم ليتلاشى العديد منها ريثما يعود الأمن والاستقرار لتعود لها الحياة من جديد .

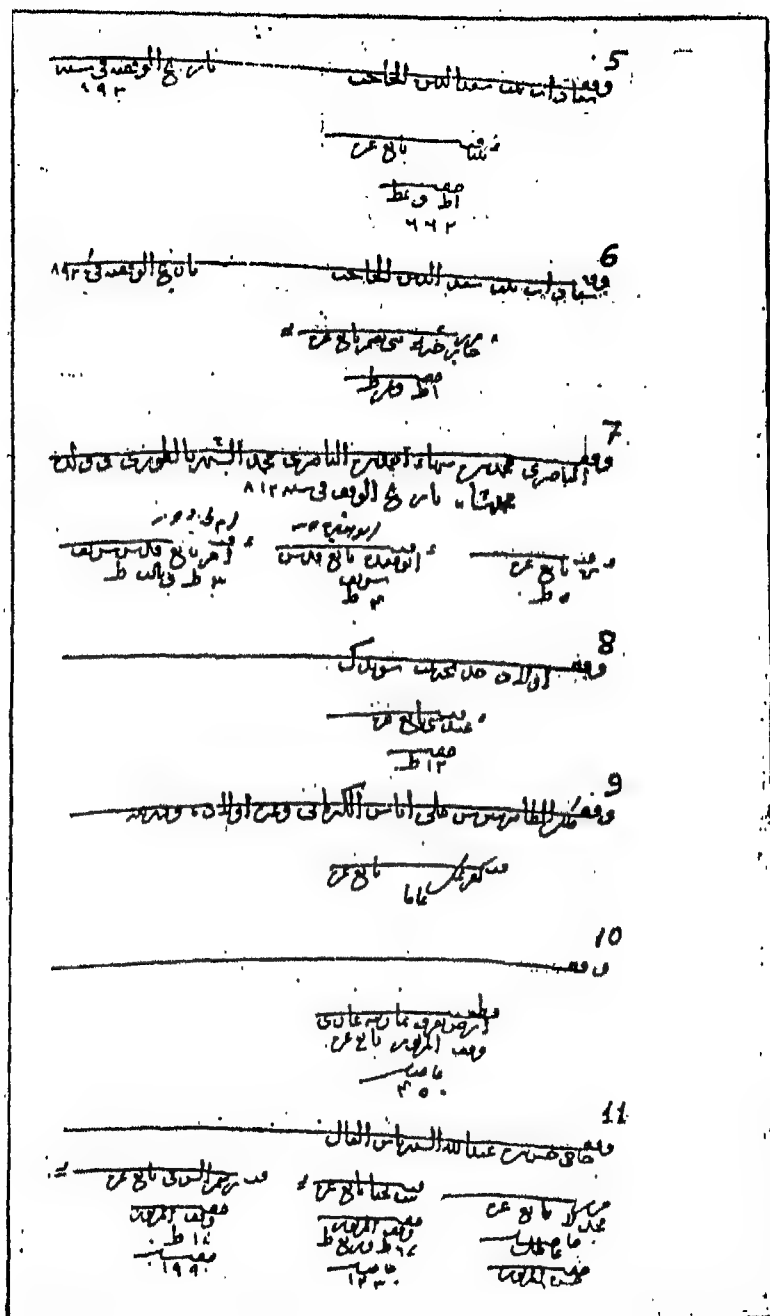
الوقف :

قبل أن نترك هذه الحقبة التى بدأت بقوة وعزة وازدهار وانتهت بضعف وانهيار قدر كل الامبراطوريات الحاكمة فقد كانت هناك قوة خفية طيلة هذا العصر على صمود وبقاء مؤسسات عديدة من مدارس وزوايا وحمامات وقيساريات وعلى رأسها الجوامع داخل مدينة غزة بل وفى جميع فلسطين والبلاد العربية هذه القوة هى ظاهرة « الوقف » الاسلامية التى رصدها الملوك والسلاطين والأمراء وأثرياء الشعب لمؤسسات بلادهم الدينية والثقافية والصحية فقد أوقفوا الأراضى الزراعية والأموال اللازمة لدفع مسيرة هذه المؤسسات لدوام تقديم خدماتها كما رأينا ساهم بها صلاح الدين الأيوبي وقلاوون وأبناؤه وكذا بيبرس [وثيقة رقم ١] وبرقوق وقايتباى وقنصوى حتى سيدات المدينة أوقفوا العديد من الأراضى والأموال كما بينا ليبقى هذا الوقف شريانا دافقا بالمال ليهب البقاء لها فقد حث فقهاء المسلمين على دعم الوقف ليس فقط على هذه المؤسسات بل تعداه لطلاب العلم واعتبروا ذلك من صور الجهاد فى سبيل الله مدعين فتواهم بالأحاديث النبوية الشريفة التى وضعت العلم والعلماء على مرتبة على من مراتب الجهاد والشهداء فشددت بذلك ظاهرة « الوقف » من أزر العلم والعلماء كما رأينا فى وقفه ابن مقبل الروبى على رواقه وطلاب العلم فى غزة والأزهر . وقد تعدى دور الوقف كممول مالى لهذه المؤسسات وليتعداه كمبرمج ومخطط للعملية التعليمية واضعا بذلك ما يجب على المعلم اتباعه وكذلك طلاب العلم .

ومما حفز الناس على وقف أراضيهم ما ساد المجتمع عند نهاية الفترة

المملوكية وما تعرض له من جشع الأمراء ومصادرة الأموال والأراضي مما حدا
بالأغنياء والأثرياء سواء منهم السيدات أو الرجال وهربوا من سلب أراضيهم
فقد أوقفوها لأعمال الخير .

وعملت بالتالى ظاهرة الوقف على الحد من الاقطاع الذى حاول جاهدا
مع نهاية العصر المملوكى والحكم العثمانى من مد يده على هذا الوقف مما أدى
الى اندثار كثير من المساجد والمدارس والزوايا كما رأينا ومما دفع المجلس الأعلى
الاسلامى أن يحصل على وثائق شرعية وقيود خاقانية مسجلة بدار الخلافة
بالاستانة العليا بوقف قرى ومزارع وحوانيت بفلسطين . نورد هنا منها
ما أوقف بقضاء غزة على يمين لنا أثر الوقف على بقاء هذه الثوابت العمرانية
والحيوية فى مدينة غزة ولتوضح بعض القرى التى ازدهرت وبانت على الأرض
الفلسطينية أيام الازدهار المملوكى واندثرت فيما بعد .



وثيقة (١)

توضح ما أولفه الظاهر « بيبرس » و « سيدات غزة » في القرنين السابع والثامن الهجري.
من أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - ص ١٥٠ .

مسلسل	اسم القرية أو المزرعة الموقوفة	الواقف	ملاحظات
١ -	قرية خرسة	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة	خربة تقع عند دير البلج .
٢ -	قرية نخاسة	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة	خربة عند الشيخ بنهان جنوب غزة
٣ -	قرية لسن	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة	أرض تابعة لمحلة التفاح والزيتون شرق غزة .
٤ -	قرية سيحان (صحن)	وقف السلطان قايتباي وعلى بن بوغا التميمي	أرض تابعة لمحلة الجديدة الشجاعية شرق غزة .
٥ -	قرية جونس	وقف السلطان قايتباي	خمس قراريط من الثلث .
٦ -	قرية عهورة	وقف السلطان قايتباي ومحمد سراج الدين الانصاري	أرض تقع بين قريتي سمسم وبربرة
٧ -	قرية عراق المشية	وقف السلطان قايتباي	تأخذ الاوقاف عشر اربعة قراريط .
٨ -	قرية كوكبا	وقف السلطان قايتباي والمدرسة الجوهرية	تأخذ الاوقاف خمس الحاصلات .
٩ -	قرية اوزا	وقف السلطان قايتباي	خربة تابعة لقرية بيت طهبا .
١٠ -	قرية شحمة المغار	وقف السلطان قايتباي وبوغا بن عبد الله التميمي	خربة تابعة لقرية المغار .
١١ -	قرية بيت حامين	وقف السلطان قايتباي	خربة تابعة لغزة .
١٢ -	قرية خصاصي عجلان	وقف السلطان قايتباي والامير الجاوي الخليل الرحمن	قرية قرب جوره وعسلان
١٣ -	قرية قابودة	وقف السلطان قايتباي والمارستان الجاوي	قرية قرب نعليا .
١٤ -	أرض جديدة	وقف السلطان قايتباي	خمس عشر قراطا تابعة لمحلة الجديدة الشجاعية بغزة .
١٥ -	غراس الكرم الكبير	وقف السلطان قايتباي	تابعة لمحلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٦ -	غراس الكرم الصغير	وقف السلطان قايتباي	تابعة لمحلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٧ -	غراس كرم عطا	وقف السلطان قايتباي	تابعة لمحلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٨ -	غراس النزاز	وقف السلطان قايتباي	تابعة لمحلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٩ -	غراس سلوة عند الحمام الكبير	وقف السلطان قايتباي	استحكر للبناء وصار بها محلات لوكالة ابي خضرة
٢٠ -	قرية زيد الحرازين	وقف السلطان قايتباي والملك قنصوي والحرمين	خربة تابعة لعرب ابي معيلق .
٢١ -	قرية جهنين	وقف السلطان قايتباي والمارستان والحرمين	لعلها « جين » من خرائب السبع
٢٢ -	قرية سمسم	وقف الامير الجاوي على جامعة بغزة	تأخذ الاوقاف عشر اثني عشر قراطا
٢٣ -	قرية كوكبا	وقف الامير الجاوي على جامعة بغزة	قرية معروفة .
٢٤ -	قرية جالما	وقف الامير الجاوي على جامعة بغزة	شمال غزة .

مسلسل	اسم القرية أو المزرعة الموقوفة	الواقف	ملاحظات
٢٥ -	قرية قهصا	وقف الأمير الجاولى على جامعة بغزة	قرايط لجامعة وقرايط للحرمين وهي من اراضى بربر .
٢٦ -	ملاقص	وقف الناصر على المارستان بغزة و خليل الرحمن	خربة ضمن اراضى بربر
٢٧ -	صميل عند عامورة	وقف الناصر على المارشان بغزة و خليل الرحمن	تستوفى اعشارها الحكومة .
٢٨ -	قرية هربيا	وقف الناصر على المارستان بغزة و خليل الرحمن	تستوفى اعشارها الحكومة .
٢٩ -	بطاني الشرقى	وقف الناصر على المارستان بغزة و خليل الرحمن	تستوفى اعشارها الحكومة .
٣٠ -	قرية البها	وقف الناصر على المارستان بغزة	تستوفى اعشارها الحكومة وهي خربة شرق غزة
٣١ -	مزرعة تل المجول	وقف الناصر على المارستان بغزة	معروفة بالمغراقة وضمت لوقف السيد هاشم .
٣٢ -	بريرة	وقف الناصر على المدينة المنورة والشيخ يوسف	النصف والنصف الآخر مبرى .
٣٣ -	جلس	وقف الناصر على المدينة المنورة والشيخ يوسف	خربة تابعة لارضى الفالوجا .
٣٤ -	سمعان	وقف قايتباى وعلى بن بوغا	وهى ارض سسماد ويقال السمداد بزيتون غزة .
٣٥ -	حمادة المجدل	وقف الحرمين والنزيه والقراءة وبوغا	شمال المجدل .
٣٦ -	المجدل	وقف الحرمين ١٤ قرايطا وثلاثة لمدسة الصالحية بالشام	شمال مدينة غزة .
٣٧ -	احليقات	وقف الحرمين	شمال غزة .
٣٨ -	بيت دراس الصغرى	وقف الحرمين	قرية ضمن اراضى بيت دراس الكبيرة
٣٩ -	الفالوجا	وقف الحرمين وبوغا بن عبد الله التميمى	قرية معروفة
٤٠ -	مشرفة غزة	وقف الحرمين وبوغا بن عبد الله التميمى	خربة باراضى عرب الحسنات والوحيدات
٤١ -	عوريا	وقف الحرمين وبوغا بن عبد الله التميمى	ارض جهة اراضى المجدل .
٤٢ -	ارض ابو المعالي	وقف الحرمين	ارض ابو المعالي .
٤٣ -	المحرقة	وقف الصخرة والخمس والبالى المنصورى بغزة (خان الزيت)	قرية شرق غزة .
٤٤ -	دمبطة (ديشة)	وقف خليل الرحمن	خربة الدميثة التابعة لعرب النصيرات بالمغازى .
٤٥ -	رشيدة	وقف خليل الرحمن	خربة ارشيد تابعة لعرب العتيها

ملاحظات	الواقف	اسم القرية او المزرعة الموقوفة	مسلسل
خربة تابعة لقرية دير البلج •	وقف خليل الرحمن وقف الخليل الرحمن	رمداس دويرة	٤٦ - ٤٧ -
أراضي تابعة لمحلة الزيتون بغزة • قرية شمال غزة •	وقف الخليل الرحمن وقف المدرسة الخنفية	منشية العجول دير سنيد	٤٨ - ٤٩ -
ضمن أراضي حمامه والرسم الشرقي فيها •	وقف المدرسة الشركسية وقراءة القرآن	مزرعة بلاس المنجلد	٥٠ -
ضمن أراضي المسمية الكبيرة •	وقف الزاوية الادمية	مزرعة صلوحية	٥١ -
عليها أرض الجواميس بمحلة الدرج •	وقف جامع انبال وزادية العمارة	مزرعة جيموس	٥٢ -
جنوب دير البلج •	وقف شهاب الدين أحمد بن شمان	مزرعة جميزة	٥٣ -
أراضي ضمن حي الشجاعية •	وقف حسن بن عبد العال	مزرعة الرسم الشرقي	٥٤ -
عليها خربة الجندی او قرية الجلدية؟	وقف علي بن بوغا التميمي	مصرية ؟ جندية	٥٥ -
قرية معروفة شمال غزة •	وقف عبد الله التميمي وعرب بن عطية	قرية بيت دراس	٥٦ -
بين البكاني الغربي وبيت دراس •	وقف عرب السوالة	قرية بردغة	٥٧ -
عليها تل جمة •	وقف عرب السوالة	تل حجر	٥٨ -
تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف •	وقف خليل الرحمن	المسمية الكبيرة	٥٩ -
تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف •	وقف خليل الرحمن	المسمية الصغيرة	٦٠ -
تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف •	وقف خليل الرحمن	السواوير الشرقية	٦١ -
تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف •	وقف خليل الرحمن	السواوير الشمالية	٦٢ -
	وقف الملك الظاهر بن سعيد برقوق سنة ٨٠٨ هـ	صميل	٦٣ -
	وقف الملك الظاهر بن سعيد برقوق سنة ٨٠٨ هـ	ياحور	٦٤ -
	وقف الملك الظاهر بن سعيد برقوق وعشرين قيراط	التسطينة	٦٥ -
شرق خان يونس •	وقف الملك الظاهر	عيسان	٦٦ -
	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٢ ١/٤ قيراط	دمرة	٦٧ -
	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٤ قيراط	برير	٦٨ -
	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٤ قيراط	عراق المنشية	٦٩ -
	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٤ قيراط	قطرة	٧٠ -
	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٣ ١/٤ قيراط	قرقلة الشرقي	٧١ -
	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٢ ١/٤ قيراط		

ملاحظات	الواقف	اسم القرية او المزرعة الموقوفة	مسلسل
	وقف السلطان قايتباى على مدرسته بغزة ٢/٤ قيراط	قرقله الغربى	١٢ -
	وقف السلطان قايتباى على مدرسته بغزة ١ قيراط	بيت نقا	١٣ -
	وقف السلطان المنصور كلاوون على الرباط المنصورى بغزة (خان الزيت) ودخل فى اوقاف احمد رضوان باشا نائب غزة (١٥٦) .	ارض الساقية والبركة	٧٤ -

هذا بالإضافة الى عديد من الاوقاف التى سبق أن ذكرناها والتى جاءت فى الدفتر رقم ٥٢٢ العثمانى .

عن أملاك المسلمين في فلسطين ص ١٤٩ .

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

خاتون السراپ

[illegible]

وثيقة (٤)

توضيح الأراضي والموارد المختلفة التي أوقفت في لواء غزة لصالح الحرمين الشريفين

• أملاك وأوقاف المسلمين في فلسطين ص ١٤٨ •

الفصل الثالث عشر

الرنوك الاسلاميه فى غزة وقطاعها

الرنوك الاسلامية في غزة وقطاعها

لقد أفردنا لهذا الموضوع الحيوى وهو « الرنوك » فصلا خاصا به لأسباب عديدة على رأسها كثرة ما بنى بمدينة غزة فى الفترة الأيوبية عامه والحقبة المملوكية بصفة خاصة من مرافق ومؤسسات دينية وثقافية وترفيهية واقتصادية تعرضت معظمها للاندثار كما أسلفنا . أما ما قاوم منها الزمن واستمر فقد حملت لنا رنوك « Runuk » أو شارات Heraldry, Emblem, Blazon تستوجب الدراسة والعناية خاصة وان معظمها تبعث فى مواقع ومواضع غير ما بنيت فيه مما يوجب تقفى أثرها وذلك لأن العديد من البنايات قد تهدمت وأخذت حجارتها بما تحمله من شارات ورنوك وبنى بها بنايات أخرى قد لا يتفق شعارها مع ما جاء على حجارتها من أسماء ملوك أو أمراء حكموا فى فترة تاريخية وزمنية محددة ولهم رنوك خاصة بهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد تميز العصر المملوكى ليس فقط داخل المملكة الغزية ، وفلسطين بل فى مصر والحجاز بأتماط فنية جديدة لازمت سلوكه السياسى والاقتصادى بحيث ظهرت مدرسة فنية مملوكية اسلامية وصلت الى درجة هامة جدا من الرقى الفنى عاشت أكثر من فرنين ونصف من الزمن « ٢٦٧ سنة » ابتداء من عام ١٢٥٠ ميلادية .

تمثلت ليس فقط بفن العمارة والكتابة والمسكوكات كمواد علمية أثرية بل زادهما ظهور مادة علمية فنية أخرى وهى « الرنوك الاسلامية » ابتدعها المماليت على آثارهم بأشغال ورسوم وعلامات متباينة لتفصح عن شخصية ملكها وأميرها النفسية والوظيفية .

لذا أصبح الامام والتعرف على هذه « الرنوك » أمرا علميا لا فكاك منه لكونها أصبحت الآن علما جديدا لاكتشاف . على الرغم من وعورة وصعوبة الخوض فى هذا المجال لندرة من تحدثوا عنها أو تعرضوا لقواعد صناعتها أو قوانين حملها (١٥٧) . فكثيرا ما ذكرها بأسلوب عرضى كل من القلقشندي وابن اياس والمقريزى واهتم بها الآن ، البرفسور الألمانى مايكل ماينكه Michael Meinecke كعلم من علوم الآثار له ذاتيته . ونحن هنا لسنا بصدد دراستها دراسة أكاديمية شاملة بل سنعرض لها بالتحليل وفقا لما وجد منها على البنايات الغزية الأثرية فقط .

(١٥٧) عبد الغنى محمد عبد الله - الرنوك الفن القديم المتجدد - مجلة الفيصل - العدد ٩٤ يناير سنة ١٩٨٥ ص ١٠٨ .

واختيار الرنك فى الغالب عبارة عن عملية إسقاط تعكس ما يجيش فى صدر الأمير أو السلطان من صفات أو تسميات تحلو له ويتمنى أن يوصف بها هو ومن يتبعه ويبرهن على ذلك عملية اختيارهم لأسمائهم التى لها أفضل الصفات فى القوة أو الشجاعة يأخذونها من أسماء بعض الحيوانات كالأسد والفهد والحصان أو الطيور كالنسر أو الأسماك كالقرش وكذلك من المعادن كالذهب فاسم بيبرس معناه الفهد من هنا اختار لنفسه رنك الفهد أو الأسد أحيانا (١٥٨) • وقلاوون ومعناه « البطة » فاتخذ منها شعارا له •

وللأمير أو السلطان حرية اختيار « رنكه » عند تأميره (١٥٩) وغالبا ما يختار شعارا له صلة بالوظيفة التى يشغلها أو الهواية التى يمارسها (١٦٠) •

وقد تعددت أشكال وألوان الرنوك كما تنوعت الأماكن التى وضعت عليها فقد كان الأمير أو السلطان يضعها على مقتنياته فمنا ما نقش على الحجارة وأخرى رسمت على الأواني الزجاجية المختلفة وبعضها حفر على الخشب ومنها ما تمت حياكته على الملابس أو نقش على أدوات القتال الحديدية المختلفة • وقد ورد مفهوم الرنك على لسان القلقشندي بمعنى « العلم » أو الراية التى يحملها الجنود عند الحرب ، فقد رفع الجنود المسلمون فى موقعة عين جالوت رنكا أحمر وآخر أبيض وثالث أصفر (١٦١) ويقال أن « الرنوك » عرفت بمفهومها الوظيفى أو الزمنى فى العصرين الفاطمى والأيوبرى وشاعت فى العصر المملوكى البحرى (١٦٢) •

ولو أننا نميل للاعتقاد بأن هذه الشارات أو الرموز قد ظهرت بظهور الاسلام الذى كان حافزا ومشجعا على اختيارها خاصة تلك التى خصها القرآن الكريم بالذكر أو أقسم بها الله عز وجل واستمد منها الرسول عليه الصلاة والسلام بعض أحاديثه • فقد جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ان الله عز وجل اختار من المدائن أربعة :

مكة وهى البلدة والمدينة وهى النخلة وبيت المقدس وهى الزيتونة ودمشق وهى التينة •• (١٦٣) « •• مستلهما ذلك عليه السلام من قسيم الله عز وجل

(١٥٨) المقرئى - السلوك - مجلد ١ ص ٣٦٨ •

(١٥٩) القلقشندي - صبح الأعشى مجلد ١١ القاهرة ١٩١٧ ص ٩٦ •

(١٦٠) جمال محرز - الرنوك المملوكية - مجلة المقتطف - مايو سنة ١٩٤١ •

(١٦١) القلقشندي - صبح الأعشى - مجلد ٤ - ص ٦٠ - ٦٢ •

(١٦٢) محمود نديم أحمد فهم - الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى -

الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٣ ص ٩٣ •

(١٦٣) أبى عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطى - اتحاف الاخصا بفضائل المسجد

الأقصى - تحقيق د. أحمد رمضان أحمد - القاهرة سنة ١٩٨٣ ص ٢١١ - ٢١٢ •

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم .. » سورة التين .

لذا نجد كثيرا من الفلوس الاسلامية المبكرة قد ظهر عليها رسم «النخلة» .
وسط دائرة في منتصف الفلوس وعلى الوجه الآخر رستم هلال وسط دائرة
في المنتصف أيضا عثر عليها في غزة وتخفهما الشهادة « لا اله الا الله محمد
رسول الله » (أنظر الصورة) ، كما ظهرت النخلة على فلوس اسلامية أخرى على
احدى وجهى الفلوس وعلى يمين الشهادة « محمد رسول الله » ومازالت الى الآن
المملكة العربية السعودية تتخذ من النخلة شعارا لعلمها . (أنظر صورة رقم
٤٦ السابقة) .

فلا مانع والحالة هذه أن يتخذ المباليك شارات ورموز مستوحاة من الكتاب
الكريم والسنة .

وسندرس الآن « الرنوك » التى وجدت على البنايات فى مدينة غزة وقطاعها
متخذين منها عنوانا للدراسة .

أولا : رنوك الأسد Heraldic Animals

يرجع هذا الرنك للسلطان الظاهر بيبرس فقد اختاره لنفسه شعارا يرمز
للقوة لأن «الأسد ملك الحيوان» فقد ذكر ابن اياس أن بيبرس اتخذ شعارا لقوته
وكان اذا أنشأ خانا أو سبيلا نقش على حجرين صورة أسدين متقابلين على جانبي
اللوحة التى عليها اسمه .

فقد ظهرا على بوابة « خان يونس » بمدينة خان يونس جنوب غزة صورة
أسدين متقابلين يعلو وجههما خطوط الشبر . ترمز لشباب الأسد ما لم نره فى
غيرهما .

ومن المتناقضات أن تكون اللوحة التى بينهما تعود لفترة حكم السلطان
برقوق كما سبق وأوضحنا عند الحديث عن هذا « الخان » اما أن تكون هذه الحجارة
التى عليها نقش الأسد منقولة من بناية محطة بريد السلطان التى أنشأها الظاهر
بيبرس واما من الشمال من الخان فى موضع ما على وادى السلطان الواقع جنوب
دير البلاج مباشرة . أو أن السلطان كانت تعنى نفس مكان خان يونس الآن ، ثم
أتى برقوق ليبنى الخان عليها كما بينا عند دراستنا لبوابة الخان الرئيسية .
(صورة ١٢٢) .

وهناك أسدان متقابلان موجودان على الجدار القبلى لبناية « الدبوية » فى
قلب مدينة غزة « مدرسة الزهراء الثانوية للبنات الآن » كما أن هناك أسدا ثالثا

نقش على حجر بالقرب من أحد أبواب غرف الطابق العلوى للمبناية ومما هو معلوم أن هذه المبناية قامت أيام (صورة ١٢٢) حكم أسرة آل رضوان التى بدأت مع نهاية الفترة المملوكية وبداية العثمانية حتى سنة ١٦٦٢ ميلادية تقريبا ولم يكن بانيها الظاهر بيبرس لذا فقد نقلت حجارتها على ما يبدو من مرافق قام ببنائها الملك الظاهر بيبرس مثل المكتبة التى أنشأها بالقرب من هذه المبناية وعلى بعد بضعة أمتار الى الجنوب منها . أو من أماكن أخرى اندثرت داخل المدينة .

ثانيا : مجموعة الرموز الرئكية Symbols

١ - زهرة السوسن Fleur de ly

كانت هذه الزهرة شعارا ملكيا لأسرة قلاوون الذى جلبه الصالح نجم الدين أيوب فاتخذ قلاوون رنكه زهرة ذات ثلاث بثلاث .

وقد وجدت زهرة السوسن منقوشة أسفل رنك دائرى لجامع كاتب الولاية وسط الحجر التذكارى الموجود أسفل المثانة العائد لسنة ٧٣٥ هـ . (انظر الصورة رقم ٧٤)

كما يوجد حول حجر مسجد الشيخ الياس « ٦٧١ هـ » ما يشبه زهرة السوسن قد أحاطت بزوايا الأربع تماما كما هو الحال بالنسبة للحجر الموجود داخل مسجد محمد العجمى بحي الزيتون « ٦٧٣ هـ » حتى ليبدو أن الكاتب واحد . (انظر الصورتين ٥٤ و ٥٥ السابقتين) .

وقد أحاط حجر الشيخ الياس سهران . أشبه بالتمغة منها للزهرة ويشبه هذا الرمز الشعار الموجود على سبيل الأمير شيخو الماخق بمسجده بالقاهرة « ١٦٤ » ، كما يشبه الرمز الموجود على قطعة من الفخار عليها رنك دائرى أصفر يتوسطه مثل هذا السهم ترجع للعصر المملوكى (*) .

٢ - الوريد Rossetta

هناك وريدة اتخذتها كما ذكرنا أسرة قلاوون رنكا لها ذات ست بثلاث وقد وجدت مثل هذه الوريد على أعلى محراب جامع ابن عثمان بالشجاعية الموجود فى صحن الجامع (صورة ١٢٦) .

L.A. Mayer, J.P.O.S. Vol. 3, 1923, p. 72.

(١٦٤)

(*) توجع. ضمن معروضات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة نماذج عديدة لقطع من الفخار مطلية ببطانات ملونة برونك مملوكية مختلفة .

كما أن هناك وريدة ذات ثمان بتلات أعلى الباب الشمالى للجامع
العمري الكبير *

كما عثر على فلوس نحاسية عليها وريدة ذات خمس بتلات ترجع للفترة
الاسلامية المملوكية *

وقد ظهرت وريدات ذات خمس بتلات وست بتلات مختومة على أدوات
للتدخين من الفخار « غليون » عثر على الكثير منها فى غزة (صورة ١٢٥) *

٣ - الهلال Crescent

وهو رمز امبراطورى وجد مرسوما على أحد جانبي حجر رخامى أعلى
الحائط الجنوبى لسور « الدبوىا » * (صورة ١٢٧) *

وقد ذكرنا أن هناك فلوسا نحاسية اسلامية عثر عليها فى غزة يوجد
فى وسط أحد وجهيها الهلال * (صورة ٤٦) *

٤ - الدرع Shield

يوجد هذا الدرع وسط لوحة رخامية أعلى الباب القبلى لجامع ابن عثمان
بحى الشجاعية ويتألف من ثلاث طبقات وسط دائرة تمثل جوهرتين على شكل
معين فى الطبقة العليا وفى الوسط كأس ثم كأس آخر فى الأسفل *
(صورة ٩٧) *

وقد كان هذا الرنك يحمله آقبغا الطولوتيمرى سنة ٨٠٢ هـ. وعند
تأسيس هذا الجامع (١٦٥) *

ثالثا : الرنوك الكتابية Written Blazons

تتألف هذه الرنوك من كتابات دعائية للسلطان وقد استخدمها لأول مرة
السلطان الناصر محمد فى مدة حكمه الثالثة لكى تحل محل رنكه « النسر » وتأخذ
الرنوك الكتابية عادة شكلا بيضاويا أو دائرة تقسم الى ثلاثة أقسام يكتب فى
الوسط عبارة دعائية يعلوها فى الطبقة العليا اسم السلطان وفى الأسفل عبارة
« عز نصره » كما جاء على الرنك الكتابى للسلطان برقوق بخان يونس حيث
جاء فى الوسط « عز لمولانا السلطان الظاهر » وفى الجزء العلوى « برقوق »
وفى الجزء السفلى « عز نصره » * (صورة ٨٨ و ٨٩) *

وكما جاء أيضا وسط بلاطة رخامية أعلى عتبة باب الجامع العمري الكبير الشمالى حيث وضع رنك بيضاوى صغير نقش فى الوسط « أمير المؤمنين » وفى الأعلى « العباس » وفى الجزء الأسفل « عز نصره » وترجع لبداية القرن التاسع الهجرى (صورة ١٢٨) .

وقد استمرت هذه الرنوك الكتابية أيام السلطان قلاوون على يد الظاهر بريقوق كما بينا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى حيث كان أول السلاطين البرجية . واستمر الحال هكذا حتى أواخر الفترة المملوكية (١٦٦) .

وهناك رنك دائرى كتابى « نقش على حجر رخامى استخدم كدرجة » فى سلم مثذنة جامع السيد هاشم . ويبدو أن الرنك يرجع للملك أبو النصر قايتباى . نقل من أنقاض جامعة . (صورة ١٢٩) .

رابعاً - شعارات الوظائف

Signs of officess

لقد حملت هذه الشارات التى تدل على وظائف معينة أو هويات اتخذها الموظفون لأنفسهم وقد تعددت أشكالها فمنها :

(١) عصا البولو Polo Stick

ويدعى حاملها « الجوكندار » أى لاعب البولو . وقد ظهر هذا الرنك على ضريح « قطلو خاتون » ابنة بهادر الجوكندار التى ترجع وفاتها لسنة ٧٣٣ هـ والموجود بالزاوية الأحمدية بمدينة غزة وقد حكم غزة فى هذه الفترة حسام الدين الجوكندار الذى ولاه الأمير سيف الدين تنكز فى الخامس عشر من شهر رمضان عام واحد وثلاثين وسبعمائة من الهجرة (١٦٧) . (انظر صورة ٧٩)

كما ظهر هذا الشعار على بلاطة رخامية توجد على جانب المحراب المنقول من الجامع الجاولى للجامع العمري الكبير وقد ظهرت عصا البولو وسط دائرة . وترجع لأيام المنصور قلاوون الصالحى والحجر غير مكتمل . (صورة رقم ١٣٠) .

ولقد كان بكنمور سيد البولو فى البلاط الملكى فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى (١٦٨) .

(١٦٦) عبد الغنى محمد عبد الله - الرنوك الفن القديم المتجدد - المرحم السابق من ١١٥ .

(١٦٧) القلشندي - صبح الأعشى - مجلد ١٢ ص ٣٣١ .

(١٦٨) Lane Pool, A history of Egypt in the Middle Ages, Frank Cass, 1968, p. 302.

(ب) المقلمة Pen-Pox

ويحمل هذا الشعار « الداودار » أى سكرتير السلطان وقد حملها الداودار
يونس النوروزى الذى أقام « الحان » المسمى باسمه « خان يونس » أيام
السلطان برقوق .

وقد ظهرت هذه الشارة أعلى رنك دائرى وأسفلها كأسان . (انظر
صور قلعة خان يونس) .

وهناك شارة « للمقلمة » ظهرت أعلى رنك يوجد على بلاطة جامع كاتب
الولاية الذى سبق ذكره . (انظر صور جامع كاتب الولاية ٧٤ - ٧٥) .

(ج) السيف المعقوف Sicimter

ظهر هذا السيف الصغير المعقوف على بلاطتين تحفان بأبجامع الوزير فى
قلب المدينة وقد بنى هذا الجامع فى نهاية القرن التاسع الهجرى ٨٩٢هـ والذى
بناه شرف الدين عيسى بن الوزير نقش عليهما سيف معقوف يتوسط هلالين لكل
منهما نجمة . (صورة ١٣١) .

ومما هو معلوم أن السلطان برقوق اتخذ لنفسه شارة « الترس
والنمجة » أى خنجر مقوس يشبه السيف القصير « والذى سلمه لخصمه يلنغا
عندما ثار ضده دلالة على التسليم (١٦٩) .

(د) الكاس

وقد اتخذها ساقى السلطان شارة له وقد ظهرت هذه الكؤوس فى عدة
مواقع أثرية بالمدينة فهناك أربعة رنوك بيضاوية يحاصر كل اثنين منها رنك
كتابى على واجهة خان يونس مقسم كل رنك الى ثلاثة مناطق العليا وعليها
المقلمة وفى الوسط كأس وفى الأسفل كأس آخر . (صورة خان يونس) .

كما يوجد رنك آخر وسط بلاطة بجامع بن عثمان بالشجاعة عليها
كأسان يعلو بعضها البعض وفى أعلاهما توجد زمردتين على شكل معين كما
ذكرنا سابقا .

(١٦٩) د إبراهيم على طرخان . - مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة - الالف كتاب -
القاهرة ١٩٦٠ ص ١٢٩ .

كما يوجد كأس وسبط رنك دائرى بجامع كاتب الولاية تعلوه المقلمة
واسفل منه زهره السوسن *
وقد عثر على نقود اسلامية عليها رنك الكأس ترجع للفترة الاسلامية
الملوكية *

(هـ) الخوانجا « الدائرة » Khanga Table

ويضع هذه الشارة أو الرنك * الأمير الذى يقوم باعداد الطعام والشراب
ويدوقه قبل أن يتناوله السلطان خوفا من محاولة سبه أو ما الى ذلك (١٧٠) *
وقد عثرنا على بلاطة تحمل هذا الرنك بنيت ضمن حجارة مئذنة الجامع
العمرى الكبير * (صورة ١٣٢) *

خامسا : التمغات الرنكية *

يسميت بالتمغات لأنها لم تتخذ شكلا حيوانيا أو طائرا كذلك لا تدل على
شعارا لوظيفة ما *

ومن اتخذ لنفسه هذه التمغات لم يكن يعمل بوظيفة عامة ولذا فانهم
استخدموا هذه العلامات القبلية شارة لمواطنهم الأصلية التى جاءوا منها سواء
بالجلب أو الهجرة. وهم فى الغالب أتراك قدموا من أواسط آسيا ثم هاجروا
لآسيا الصغرى ومنها لبلاد الشام ومصر فى العصرين الايوبى والملوكى أو
جلبوا اليها *

وقد اتخذوها كشعارات أو كرموز متنوعة ليس لها فى الغالب معنى أو
دلالة * لذا اتفق على تسميتها بالتمغات (١٧١) *

ولعل السهم الذى يحف بحجر الشيخ الياس السابق الذكر IV هو
فى الحقيقة يمت لثمن هذه « التمغات » *

كذلك يحف بالحجر الرخامى الموجود على جدار مسجد ابن عثمان
بالشجاعة الخارجى أربع تمغات تتوسط دائرة صغيرة * (صورة ١٠١) *

كما ظهر بعض التمغات على دراهم فضية اسلامية ملوكية عثر عليها
فى مدينة غزة *

(١٧٠) القلقشندى - صبح الأعشى - المجلد الخامس - ص ٤٦٠

(١٧١) عبد الفتى محمد عبد الله - الرنوك - المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٦ *

سادسا : الرنوك المركبة

لقد لاحظنا ان هناك رنوكا مركبة تضم عدة شارات ورموز داخل إطار واحد أو شكل واحد كدائرة أو شكل يضاوي لتشير الى الوظائف العديدة التي يمارسها الأمير أو السلطان كما هو الحال فى رنك جامع كاتب الولاية الذى ضم داخل دائرة مكونة من ثلاث طبقات، العليا تمثل مقلمة للداوادر وفي الوسط كائن للسناقي وفي الأسفل زهرة السوسن .

كذلك الحال بالنسبة للرنك المركب الخاص بجامع ابن عثمان بالشجاعة والذي تحدثنا عنه تحت عنوان « الدروع » .

وكذلك الحال بالنسبة للرنك المركب الموجود على واجهة خان يونس الذى يتألف من ثلاث طبقات العليا للمقلمة والوسطى تمثل كاسنا والسفلى لكاس أيضا .

وهناك بلاطتان تحفان قوس باب جامع الوزير عليهما شارات مركبة كلتاهما عبارة عن بلاطة مربعة الشكل تقريبا عليها سيف قصير معقوف « النجمة » يتوسط هلالين بداخل كل واحد منهما نجمة .

ومن خلال دراستنا للمساجد والزوايا لمدينة غزة لاحظنا أن هناك شعاعا يعلو شواهد أضرحة مميزة قد دفنت فى مساجد أو زوايا أو مقابر ملحقة بمدارس قديمة وأخرى وجد الشاهد فقط منقولا ومحتفظا به فى الجامع العمري الكبير لأهمية الفقيه ومكانته . ويتألف هذا الشعاع - وكما هو واضح من الصور - من قاعدتين عليهما شعلتان يتوسطهما ما يشبه القنديل المضيء أو السراج .

ويبدو من خلال دراسة النقوش المكتوبة على هذه الشواهد أن هذا الشعاع كان للشهداء فقط من رجال العلم والدين أو لأولئك الذين استشهدوا فى سبيل الله .

فقد نقش هذا الشعاع أعلى شاهد ضريح قاضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد الأغبر الغزى الشافعى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ومدفون شرق الجامع العمري الكبير فى مكتبة الظاهر ببيبرس قديما والمدرسنة الحسينية فيما بعد .

كما علا هذا الشعاع أيضا شاهد ضريح محمد العجمي المدفون بالمسجد المسمى بأسمه بحى الزيتون والذي - لقب كما جاء على الشاهد - بالقائد الورع ولم يذكر تاريخ وفاته عليه .

كذلك كلل هذا الشاهد لشاهد ضريح الشهيد الشاب محمد بن المرحوم الحاج درويش الذى انتقل لرحمة ربه سنة ٨٢٢ هـ ومدفون بجامعة المحكمة القروية بالشجاعة .

هذا بالإضافة لشاهد ضريح بنى أعلى باب احدى غرف زاوية ابي مدين الفوت يعلوه هذا الشعار ويرجع لعلاء الدين الرجاى المتوفى سنة ٩٣٩ هـ أى فى بداية الحكم العثمانى وقد عثرنا على شاهد لضريح موجود بالجامع العبرى الكبير عليه هذا الشعار يعود للمرحوم ابراهيم الدرنواسى المتوفى سنة ٧٠٨ هـ .
ولا ندرى من أى الأماكن قد نقل .

كما تم العثور على شاهد لضريح ابنى عبد الله بن ابنى عبيد المتوفى سنة ٧٩٢ هـ فى مقبرة « بنى هيس » القديمة والمندثرة الآن والمتى كانت تقع ملاصقة بسفح مدينة غزة الشرقى (بجوار مدرسة هاشم الإعدادية الآن) يعلوه هذا الشعار ، وقد انفرد هذا الشاهد بتمغه على هيئة قلب حفر بداخله صورة ما يشبه القط ربما كانت ترمز لناقش الشاهد وكاتبه . عند نهاية الحجر السبيلية (انظر صور ١٣٣) .

وقد علا هذا الشعار أيضا شاهد ضريح الشيخ أحمد طقماج المتوفى سنة ٧٤٣ هـ والمدفون بجامعة المندثر كما عثر على شاهد لضريح يعنونه هذا الشعار شئ مقبرة « الثوينى » بالشجاعة توفى صاحبه سنة ٧٩٣ هـ ويبدو انه كان رجلا عسكريا .

ويكلم هذا الشعار ضريح لأحد أولياء الله بمسجد « المغازين » بالشجاعة الحديثة .

يتضح لنا أن هذا الشعار الذى لم نقرأ عنه من قبل كما لم يات ذكره من قبل الرحالة والدارسين قد استمر ردها من الزمن لا ندرى بدايتها الا وفقا لما شاهدناه على الشواهد التى عثرنا عليها وقدمها الجائد لسنة ٤٠٦ هجرية مستمرا طيلة الفترة المملوكية وعلى مدى القرنين الثامن والتاسع الهجريين وفى بداية الفترة العثمانية . متمنين أن نعرف عنه الكثير مستقبلا .

الفصل الرابع عشر

الفترة العثمانية

- الغزيون يحرقون مخيمات العثمانيين •
- سنجق غزة يظل قوة مركزية للأطراف •
- اضمحلال قرى غزة الجنوبية •
- تمرد أغاوات خان يونس •

وقع العالم العربي بسرعة فائقة تحت سيطرة العثمانيين ، ولعل ما أوردناه من أسباب سياسية واقتصادية وكوارث طبيعية ما مهد لهذا الغزو السريع على الأمة العربية التي - منذ قرنين فقط - حطمت المد الصليبي ودمرت الموجة المغولية البربرية .

اندفع العثمانيون بقوة استمدوها بعد ما ملكوا البلقان وهوارده منذ قرنين من الزمان ساعدهم أنهم قلدوا بمسوح الدين الاسلامي في عصر الدين لا القومية .

وإذا كان هناك من يدعى بأن الاستعمار هو سيطرة الحضارة الراقية على الحضارة المتخلفة فإن للأتراك وضعاً مقلوباً ، ولهذا ستأتى النتائج والإنجازات عقيمة فى مجالات كثيرة بدليل ما سوف نراه ونقارنه بين ما خلفه المماليك والعثمانيون رغماً عن قدم الأولى وقصر مدتها زماناً وحدثة الثانية وقدم زمان سيطرتها (أربعة قرون) من آثار ثقافية وعمرانية فى هذه الشريحة العربية الفلسطينية « غزة » .

ولعل لموقع غزة الاستراتيجى الحساس - كدهليز - وآخر مجمع سكانى - ومركز تمويل نهائى للتوجه عبر الصحراء نحو مصر ما بينه وأوضحه . ابن اياس - فى بدائع زهوره - عندما عكس ذلك فى حالة الدعر والبلبة والدعايات النفسية والحشود وما لازمها من تمرد قبل وأثناء استيلاء العثمانيين على غزة ليمرر اهتزاز السلطة المملوكية .

ففى مدينة غزة كان « دولات باى الأعمش » آخر الولاة المماليك يترقب قدوم الجيش العثمانى بعد تلقيه نبأ هزيمة سلطانه « قنصوى الغورى » فى « مرج دابق » ينتظره بجهة داخلية يرئى لها معنوياً خاصة لو علمنا أنه يتهم قادة جيشه بالاتصال بالعثمانيين وهو على أشده الخلاف معهم لتثبت براءتهم أمام السلطان (١) .

ولعبت الحرب النفسية بدعاياتها المغرضة دورها عندما ذهب « الداودار نائب غزة » على باى الأعمش « لمصر يخبر السلطان » بأن الوحش انتشر فى عسكر السلطان العثمانى فصار يموت منهم كل يوم جماعة وعزت عليهم الاتاوات

(١) ابن اياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - تحقيق محمد مصطفى - الطبعة الثانية - الجزء الخامس - القاهرة - ١٩٦١ ص ١١٩ .

من الغلال والعلف ، وضيق عليهم العربان ٠٠ وكل من خرج من عسكره يموت ،
وهم فى غاية الحصر « (٢) » .

ليكتشف السلطان بعد ذلك بأيام بأنها فرية كاذبة . هذا فى مصر .

وفى غزة أشيع بأن الجيش العثمانى بقيادة سنان باشا قد هزم هزيمة
نكراء على يد القائد المملوكى « جان بردى الغزالى » « والوالى والعثمانى فيما بعد »
نحو مخيمات عساكر العثمانيين الذين استولوا على المدينة قبل مدة وجيزة
فنهبوا أمتعتهم وأحرقوا خيامهم وقتلوا منهم من قتلوا حتى بلغت ضحاياهم
نحو أربعمائة نسمة « (٣) » حتى اذا ما عاد القائد العثمانى سنان باشا منتصرا -
عكس ما أشيع - قام بجمع سكان مدينة غزة وأمر جنده بأن « يعملوا فيهم
بالسيف فقتلوا ما لا يحصى عدده وراح فيهم الصالح بالطالغ « (٤) » فأوقع
هذا الحدث الرعب فى نفوس الناس والعربان .

بذلت القيادة المملوكية فى مصر بقيادة طومان باى فى شوال سنة ٩٢٢ هـ
مجهودات مضنية لحشد وحث من جردوهم للقتال لمواجهة العثمانيين ، فقد تمرد
الجنود على السلطان عندما دفع لكل منهم خمسين دينارا فردوها عليه رافضين
محتجين « وخرجوا من باب الحوش على حمية وقصدوا ينشئون الفتنة » مما دفع
بعض الأمراء للتدخل وارضائهم بعد مزايدات حتى « منحوهم مائة وعشرون
دينارا على جارى العادة » (٥) ٩ ١١

وبالتالى فقد رفض الجنده المغاربة أمام سلطانهم أيضا القتال تحذوهم
جلالة الاسلام وليس طمعا فى الدنانير قائلين « لا نقاتل المسلمين بل نقاتل
الافرنج » .

هذه هى الفرق العسكرية - وبهذه الروح المعنوية - تقدمت كدفعة
احتياطية لمشاغلة العدو العثمانى المربط فى غزة .

فمن الطبيعى والحالة هذه أن تتقدم الجيوش العثمانية بسهولة لتستولى
على غزة ويرسل منها السلطان سليم الأول كتابا ينذر طومان باى بالاستسلام
مقابل « أن يضرب النقود باسمه وكذلك الخطبة ويكون نائبا له فى مصر ومعها
مدينة غزة » . فرفض طومان هذا العرض لتتقدم الجيوش العثمانية جنوبا
فتستولى على آخر قاعدة عسكرية مملوكية فى فلسطين فى « خان يونس »
يوم ٢٨ كانون أول ٩٢٢ هـ . كما أفاد القائد سنان باشا العثمانى سلطانه

(٢) ابن اياس - بدائع الزهور - المرجع السابق ص ١١٢ .

(٣) ابن اياس - بدائع الزهور - المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٤) ابن اياس - بدائع الزهور - المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٥) ابن اياس - بدائع الزهور - المرجع السابق ص ١١٦ .

سليم الأول بذلك فى هذا اليوم (٦) ولتواصل القوات العثمانية زحفها لتدخل مصر بعد موقعة « الريدانية » الفاصلة سنة ١٥١٧ م لتصبح مصر والشام تحت السيطرة العثمانية .

بدأت بعدها تعيش الدولة العثمانية فى أبهى أيامها عظمة فاستتب الأمن فى ربوع فلسطين حتى أواخر القرن السادس عشر تقريبا حيث تميزت فى عهد السلطان سليمان القانونى بأسلوب مارست فيه سلطتها ونظام ادارتها بشكل يمكن إختزاله بأنها دولة إقطاعية - عسكرية - دينية .

ووفقا لما جاء فى دفاتر التحرير العثمانية لعام ١٥٢٧ ميلادية قسمت فلسطين الى ثلاثة الوية هى لواء القدس وغزة ثم لواء نابلس وصفد وأخيرا لواء السلط وعجلون (٧) . (خريطة ٢٣) . وكل لواء يتكون من سناجق ليمثل كل سنجق وحدة اقتصادية - سياسية - وقضائية مستقلة وليضم سنجق غزة ثلاثة أقاليم هى غزة والرملة واللد حتى شمال مدينة يافا قامت الدولة العثمانية بعدها بتوزيع الأراضى على القادة العسكريين وفقا لمكانتهم ورتبهم العسكرية ، « لكى يمارس تحصيل الضرائب على المساحة المخصصة له بما فيها من مدن وقرى ومزارع مقابل تقديم عدد من الخيالة من أبناء سنجقه للقتال عند داعى النفير وذلك بنسبة فارس أو مقاتل واحد لكل « خمسة آلاف آقجه » .

وعليه قسمت السناجق تقسيما إقطاعيا عسكريا الى ثلاثة أنواع وفقا لعائدها :

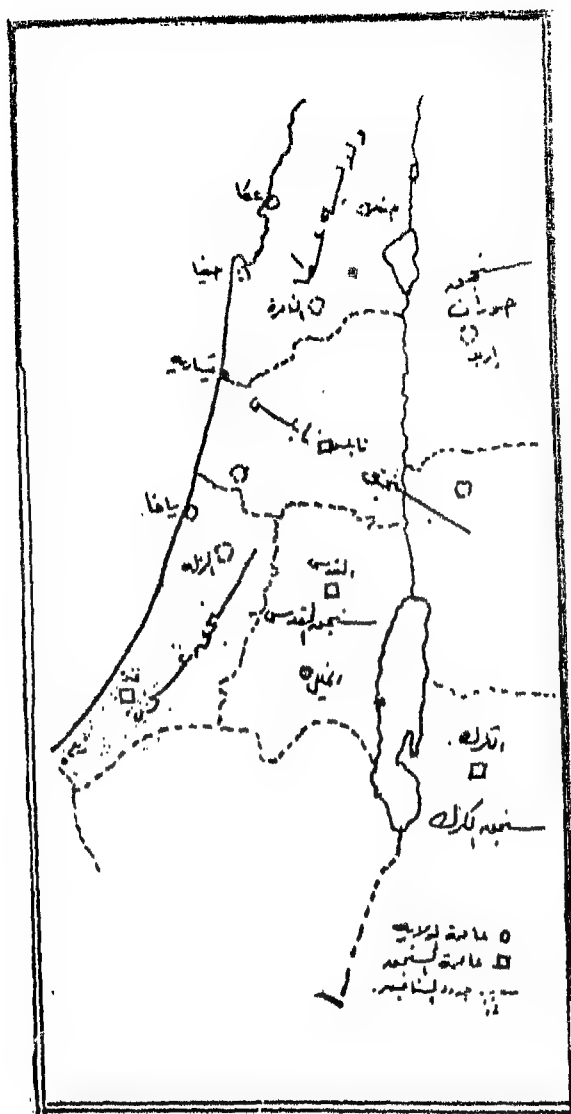
- ١ - المقاطعات الصغيرة : وهى تلك التى لا يزيد واردها الضريبى عن ٢٠٠٠٠ آقجه ويطلق عليها اسم « تيمار » .
- ٢ - المقاطعات المتوسطة : التى يصل واردها الضريبى ما بين ٢٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ آقجه وتسمى « زعامت » .
- ٣ - المقاطعات الكبيرة : التى لا يزيد دخلها الضريبى على ١٠٠٠٠٠ آقجه وتسمى « خاض » (٨) .

لا يمكننا القول بعدئذ بأن التقسيمات الادارية العثمانية هى ادارية مدنية محضة بل يغلفها ويسيطر عليها الطابع العسكرى خاصة لو علمنا أن « الأيالات »

(٦) ابن اياس - المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٧) محمد ابشرى ومحمد التيمى أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - ص ح .

(٨) ساطع الحصرى - البلاد العربية والدولة العثمانية - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٦٥



خريطة (٢٣)

التقسيمات الادارية في الفترة العثمانية (القرن ١٧ م)

التي تقسم سناجق تتألف بدورها من « تيمارات وزعامات » يدير شتون « الأيالة » باشا يطاق عليه « بكربكى » برتبة أمير لواء .

أما السنجق فيخضع لأمره « بك » (سنجق بكى) برتبة « ميرالو » والسنجق بك هذا هو الأمر الناهى والمرجع لجميع التيمارات والزعامات المشمولة لسنجقه ومنه يطلب تجهيز الفرسان من أهل المنطقة وحشدهم عند الحاجة العسكرية لهم . وبالتالي كان الباشا والبك يجمع كل منهما السلطتين المدنية والعسكرية كوال وقائد عسكري للجيش فى وقت واحد .

أما العشائر البدوية القاطنة على هوامش المدن والقرى فقد خرجت عن هذه الترتيبات الادارية العسكرية لتتبع مباشرة شيوخها ورؤساء عشيرتها تحكيمها التقاليد والأعراف المتعارف عليها فيما بينهم (٩) .

وقد جاء أول وصف للساحل الفلسطينى فى الفترة العثمانية على لسان Piri Kea's فى كتابه « كتاب بحرى » أنهى كتابته سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) . أى بعد احتلال العثمانيين بست سنوات ضمنه خريطين وصف فيهما الساحل وهو مبحر من العريش حتى الكرمل (١٠) (خريطة ٢٤) . وصفا مقتضبا وواضحا بها غزة كما رآها من البحر بأنها صغيرة تحيط بها الأشجار وكروم الأعناب من جميع الجهات يظهر فى وسطها مئذنة جامع ويبدو أن الشاطئ كان مأهولا بالسكان لما رآه من آبار عامرة . وبدت المدينة كما رسمها على الخريطة قلعة عامرة تميزت عن بقية مدن الساحل التى أصاب معظمها الخراب .

حكم مدينة غزة وسنجقها بعد « جان بردى الغزالى » الأمير مصطفى باشا ابن عبد المعين الذى ولى نيايتها سنة ٩٣٠ هـ « ١٥٢٤ م » ويبدو أن السلطان العثمانى سليم الأول قد منح ولاية غزة بالوراثة لأبناء هذا الرجل جد أسرة « آل رضوان » فيما بعد والتى استمر حكمها تباعا لما بعد النصف الثانى من القرن السابع عشر تقريبا بقليل .

ومن آثار هذا الرجل فى غزة « خان الكتان » الذى بناه غرب الجامع العمرى الكبير مباشرة وقد جرى وقفه لصالح الجامع ومكتوبا على باب الخان « هذا وقف مولانا المرحوم مصطفى باشا فى ذى الحجة سنة ٩٦٢ هـ « ١٥٥٦ م » (١١) . وبالإضافة لاهتمامات هذا الرجل الاقتصادية فقد كانت له مهامه العسكرية والأمنية التى توضحها هذه الوثيقة : -

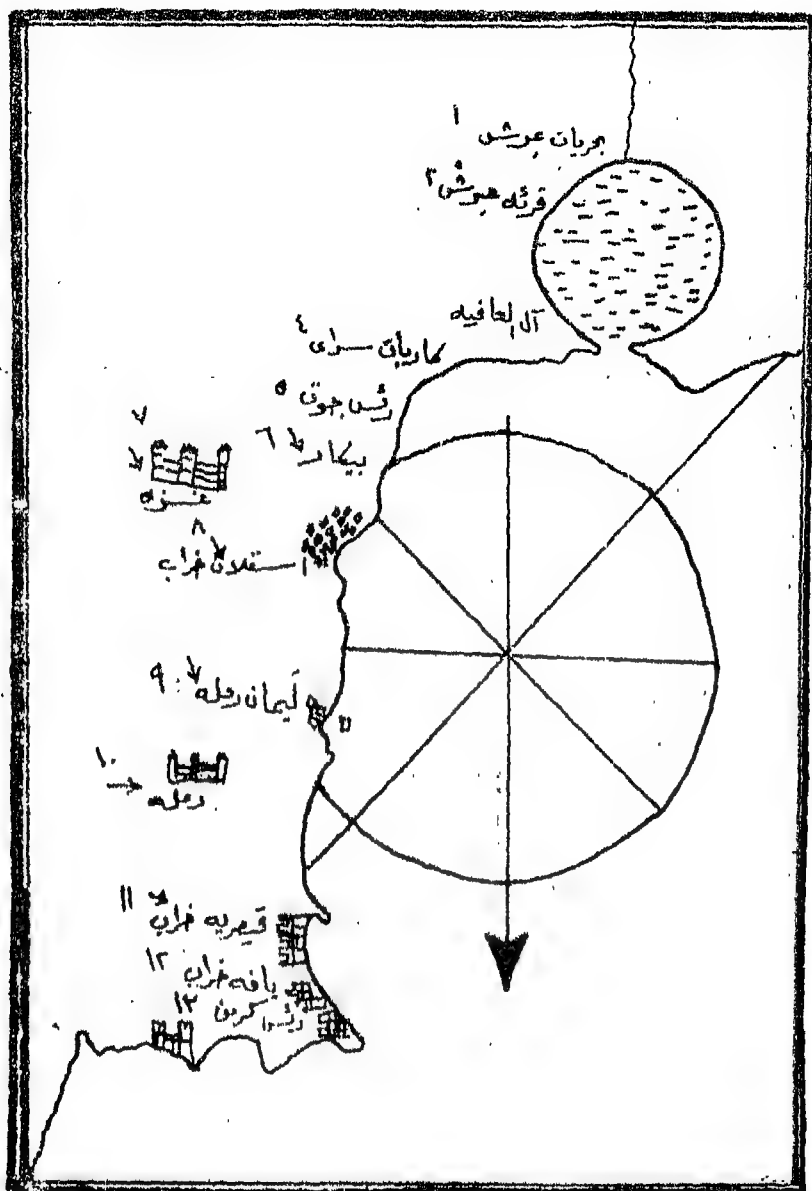
(٩) ساطع المصرى - المرجع السابق ص ٣٤ .

I.E.J, Vol VI, 1956, pp. 207

(١٠)

(١١) الشيخ عثمان الطباع - اتحاد الأعراف فى تاريخ غزة - ج ٢ - المرجع السابق

ص ٣١٧ .



خريطة (٢٤)

خريطة الساحل الفلسطيني سنة ١٥٢١م « عن خريطة بيرى ريسن » - الطبعة التركية
S.E. J. Vol. VI 1956

- ١ - بحيرة العريش
- ٢ - قرية العريش
- ٣ - آل العافية اسم قبيلة بدوية « بنو العافية وربما هي تحريف لاسم رافيا « رفح »
- ٤ - كاربات سراي Gayvan Seyai أى سرايا القافلة التى هي « خان يونس »
- ٥ - رأس جوت أى رأس المرقب التى ربما هي « دير البلح »
- ٦ - بیکار ٠٠ قبر على شاطئ غزة الجنوبي الذى ربما هو فى « الشيخ عجلين »
- ٧ - غزة : وقد بادت فى رسمها على هيئة قلعة كبيرة عامرة
- ٨ - عسقلان اسقلان وقد ظهرت خرابا

أمر الى دفتردار « مدير المال » ولاية العرب (١٢) .

مؤرخ ٢١ رجب ٩٥٩ هـ الموافق ١٣ يولية ١٥٥٢ م .

« لقد أرسل لنا مصطفى حاكم سنجق غزة خطابا يوضح فيه بأن قلعة جبرين تخلو من المؤن والعتاد وانها فى حاجة الى ثلاثة قناطير من مسحوق البارود الأسود وقنطارين رصاص وخمس مدافع خفيفة ومائة بندقية وثلاثة مدافع ثقيلة وكمية كافية من الحبوب) .

أوجه هذا الأمر اليك لتعلم هذه اللوازم للقلعة المذكورة .

ورغما عما يقال بأن هذا القرن (السادس عشر) قد شهد نوعا من الاستقرار الا انه يجب عدم المبالغة فى هذا الصدد سواء من الوجهة الادارية أو العسكرية وحتى الاقتصادية تفصح عن ذلك بعض الوثائق العثمانية لو درسناها فها هى احداها الموجهة الى أحمد بك رضوان حاكم غزة مؤرخه فى يولية سنة ١٥٧٩ م جاء فيها :

« عندما تم بناء قلعة رأس العين وضع فيها مائة خيال وثلاثين جنديا للعمل فيها وقد خصص أجورا لهم جميعا ، غير انه لا يوجد الآن سوى ثلاثين فحارباً فقط » ولما كانت هذه القلعة تشغل موقعا هاما بين سناجق غزة والقدس ونابلس وتقدم خدماتها لهم جميعا لذا أصبح من المتعذر تأدية واجبها بهذا العدد الضئيل .

وبناء على اقتراح تقدم به حاكم غزة فان القلعة المذكورة تضاف الى سنجق غزة ويوضع بها جنود بدل الفارين الذى أبدى قائدهم خيانة بهربه معهم .

لذا فقد أشار بالاستعاضة عنه بصاحب « نيمار » يعرف المنطقة جيدا ويضبط أمورها بعد أن يقوم حاكم غزة بتجهيز اللازم ويقدم كشفا بالجنود المكلفين فيها ليرسل دفتردار دمشق المبالغ اللازمة لدفع رواتبهم « (١٣) .

يتضح من هذه الوثيقة هروب أكثر من ثلثى رجال الحامية مع قائدهم المدعو « مصطفى » مما يعكس ظروفًا قاسية سواء أكانت اقتصادية أم سياسية أو حتى نفسية عسكرية . كما تبرز مركزية الأحوال المادية بدمشق وكيف يمكن إرسال رواتب الجنود منها وكيفية اختيار صاحب « نيمار » ليأخذ مكانه القائد العسكرى الحامية « أى اختيار أى رجل اقطاعى له مساحة من الأرض ليقوم بهذه المهمة » .

Uriel Heyed, Ottoman Documents on Palestine 1552-1615,, Clarendon (١٢) Press, Oxford, p. 1960.

Uriel Hayed, Ottoman Documents on Palestine 1552-1615, Ibid. (١٣)

وربما تفصح الوثيقة التالية وتفسر تردى الأحوال الاقتصادية وسوء المواصلات في مدينة غزة « عقدة المواصلات » في العصر المملوكى السابق مؤرخة في نوفمبر سنة ١٥٧٥ م (٦ شعبان سنة ٩٨٣ هـ) . كما توضح بعض الملامح الديمغرافية للمدينة الى حد ما . وهذه الوثيقة موجهة الى حاكم غزة وقاضيهما جاء فيها : -

« لقد أرسلت يا قاضى غزة خطابا تقول فيه ان اشخاصا موثوقين تقدموا الى محكمتك وقرروا أن غزة رغبهم وقوعها على الطريق الرئيسى بين دمشق وهرص تخلو من خيل البريد فيها مما ضايق السكان الذين يطلبون تخصيص ثلاثة خيول كما هو متبع فى مناطق أخرى ، لهذا تقرر بأن يربط فى غزة ثلاثة خيول للبريد وكل خمسة عشر رب بيت فى غزة يقدمون علقا لحصان واحد وبهذا يكون لديهم علف خمسة وأربعين حصانا ، والمهم أن تحافظوا على خيل البريد لتظل قوية وسليمة فلا تستخدموها لأغراض أخرى لئلا تهزل » (١٤) .

وثيقة تفصح عن تردى المواصلات مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى بشكل مهين أصبحت فيه الدولة العثمانية مشاة فى حاكمها من آل رضوان غير قادرة حتى على تقديم علف لثلاثة خيول وهذا ان دل على شئ فانما يدل على اهتراء الأحوال الادارية وسوء المواصلات أكثر منه لظروف اقتصادية فى مدينة كانت منذ أقل من قرن خلى قد امتلأت بمراكز البريد فى العصر المملوكى « رفح - السلقا - الداروم - غزة - وبيت حانون » .

وتضفى هذه الوثيقة على دلالة ديمغرافية خاصة بعدد السكان فى مدينة غزة خاصة عندما جاء فيها بأن كل خمسة عشر رب بيت عليهم ان يقدموا علقا لحصان فيكون لدى الحاكم علقا خمسة وأربعين حصانا وهذا يعنى أن فى غزة ٦٧٥ أسرة تقريبا أو ما يقارب من ٣٣٧٥ نسمة (على افتراض ان متوسط حجم الأسرة خمسة أشخاص) . وربما يكون هذا الرقم معقولا لو عرفنا أن عدد سكان فلسطين فى الخمسين سنة الأولى من القرن السادس عشر بلغت ٣٠٠.٠٠٠ نسمة يعيش ٢٠٪ من السكان فى خمس مدن هى غزة والقدس والخليل والرملة ونابلس وصفد (١٥) وتعكس الوثيقة فساد الأحوال الاقتصادية والأعباء الملقاة على عاتق السكان من تقديم الأعلاف للمحيوانات بالإضافة الى ما يدفعونه من ضرائب وأعباء مشنوعة كما توحى التوصيات بعدم استخدام الخيول للأغراض الأخرى - على حد تعبير الوثيقة - وبالعيب من قبل الولاة فى استخدام أموال

Uriel Hayed, Ibid, pp.

(١٤)

The History until 1880, Israel Pocket Library Jerusalem 1973, pp, 215-216.

(١٥)

الشعب وتبديدها كعملية نهب داخلى للسكان ورد فعل المحروب التى تقوم بها الدولة العثمانية فى الخارج .

ولعل الوثيقة الرابعة تدل على الخراب الذى أصاب القرى الجنوبية لمدينة غزة حتى كادت منطقة عازلة بعد أن لعبت « خان يونس » نقطة امداد وانطلاق للمسافرين .

فقد جاء فى سطورها الموجهة الى حاكم غزة أحمد بك عند نهاية هذا القرن ما يلى : -

« ان جزءا من طريق دمشق - القاهرة الواقع بين غزة وقطيا والذى يتحمل السفر فيه ما بين ستة وسبعة أيام يقع فى الصحراء الخالية من السكان - عدا منطقة العريش - مما سهل على أشراى البدو مضايقة المسافرين لدى مرورهم فى هذا الطريق وخاصة قرب أنقاض « خان يونس » . وحتى يمكن تأمين مرور المسافرين فى ظل حماية دولتنا العالية ورغم ما نتجمله من تكاليف كثيرة فانى أصدرت الأوامر لاعادة الخان المذكور ليكون قلعه حصينة كما أمرت « على باشا » حاكم ولاية مصر بأن يضع فى هذه القلعة مائة خيال من مصر تدفع أجورهم من الاقطاعات التابعة له كما هى الحال فى حامية العريش ، وبناء على ذلك أعيدت هذه القلعة ووضع فيها أربعون فارسا وعشرون جنديا من المشاة ولكن كثرة عدد البدو وموقع هذه القلعة المنعزل يجعل هذه الأعداد قليلة لهذا أصدرت الأوامر لباشا مصر المذكور أن يرسل أربعين فارسا آخرين من مصر لتصبح الحامية مائة رجل كما هو مقرر » (١٦) .

هكذا يبدو بأنه لم يعد هناك مناطق استقرار بشرية تذكر جنوب غزة حتى « قطيا » باستثناء العريش تماما كما جاء فى خريطة « بيرى ريس » سنة ١٥٢١ فقد أحالت الحرب العثمانية هذه القرى الى مناطق شبه خربة - دير البلح - السلخا - خان يونس - رفح - التى ربما ابتعد سكانها شرقا - فقد تحولت « مدينة خان يونس » الى « أنقاض خان يونس » وانها أصبحت كما جاء فى الوثيقة فى « موقع منعزل » . فى حين وصفت أعداد البدو بأنهم كثيرون مما دفعه لمضاعفة القوة المتمركزة فى قلعة الخان التى أمر بإعادة تحصينها والحاقها الى حاكم مصر « على باشا » . تأكيداً على عدم قدره حاكم غزة على تحصينها ولم تعد لديه الامكانيات المادية والعسكرية بعد أن ضم قلعة رأس العين التى بها نفس الطاقة العسكرية وكذا « قلعة بيت جبرين » التى يعوزها المدد كما أوضحنا .

وقد استمرت مدينة غزة تحكمها أسرة واحدة من المماليك الفقاريين مثل

[آل رضوان وآل بهرام وكيوان وفروخ] وهى آل رضوان الذين صاروا حكاما
لعديد من السناجق والمدن الفلسطينية طيلة القرن السادس عشر الميلادى .

فتولى الأمير بهرام بك « نيابة غزة بعد وفاة والده مصطفى السابق الذكر
والذى قام بترميم « الهدبوىا » والساقية التى كانت لحمام القلعة وسبق أن أوقفها
المنصور قلاوون على الرباط المنصورى فى وسط المدينة ثم جعل فيها « سبيلا »
جاء على احدى حجارته « بناء أعدل الحكام بهرام بك » وذلك فى سنة ٩٧٦ هـ
« ١٥٦٩ م » .

وقد تولى هذا الأمير اماره « الركب الشامى » وكذلك تولى أخوه الأمير
رضوان الفقارى اماره الركب المصرى ليجملا من مدينة غزة مركزا للركبين
نحو مكة (١٨) .

ولو نظرنا للخريطة العمرانية لمدينة غزة فى نهاية القرن السادس عشر
الميلادى نجد بأنه لا يوجد تطور عمرانى يذكر قد طرأ على المدينة باستثناء بعض
الترميمات لبعض مؤسساتها التى كانت منذ الفترة المملوكية .

فقد تم تجديد « مسجد الشيخ خالد » سنة ٩٥٥ هـ (١٥٥٠ م) عند حدود
المدينة الغربى فقد جدد ناظره الشيخ شهاب الدين أحمد بن ابراهيم المقدسى
الانصارى فى أوائل جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وتسعمائة .

كما تم بناء « مسجد الست رقيه » بحى الشجاعية ورقية يقال انها كانت
زوجه لأحد حكام غزة قبل الألف الهجرى وربما كانت بنت أحمد التى وجد قبرها
بجامع على بن مروان بتاريخ سنة ٩٦٧ هـ . ولا يوجد على المسجد أية كتابة تشير
لبانيه وقد أسفله عند الحفر على بقايا بلاطة أثرية عليها بضع كلمات .
(صورة ١٣٤) .

كما أعيد بناء جامع « مكاتب الولاية » التى سبق ذكره على يد أحمد بك
كاتب الولاية فى أوائل ذو القعدة سنة ٩٩٥ هـ (١٥٩٠ م) .

كما تم بناء بعض المساجد الصغيرة مثل . مسجد الهواشى (*) بحى الشجاعية
ومسجد الشيخ فرج بحى الدرج فى أواخر هذا القرن (١٩) .

كما بنيت « زاوية أبو مدين الغوث » فى قلب مدينة غزة القديمة وليس
هناك ما يدل على سنة بنائها سوى ضريح يوجد بها لأحد رجال الدين ترجع

(١٧) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعرسة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٣١٧ .

(١٨) احسان النمر - تاريخ نابلس والبلقاء - نابلس ١٩٦١ الجزء الاول ص ٧٥ - ٧٦ .

(*) نسبة الى قبيلة الهواشة من الحجاز نزلت فى النقبية وقبيب .

(١٩) عارف العارف - تاريخ غزة - القدس - ١٩٤٣ ص ٣٤٧ .

سنة وفاته لعام ٩٣٧ هـ نقش عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى علاء الدين الرجائي توفى في خامس عشر من شهر ربيع ثاني في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة » . ويعلو هذا النقش رنك أو شعار سبق أن تحدثنا عنه (صورة ١٣٥) .

وقد أبانت الدفاتر العثمانية عن وجود « زاوية الشيخ نبهان » في مدينة غزة والتي أوقف لصالحها بعض الأراضى سنة ٩٥٢ هـ (٢٠) وهذا الزاوية قديمة ترجع لأواخر القرن السابع الهجرى وبها ضريح الشيخ نبهان المتوفى سنة ٦٨٤ هـ .

هكذا ومع دوام الوجود العثماني لاقل قليل من قرن كثير ما وصفه الكتاب المؤرخون بأنه قرن الاستقرار والهدوء الا أن غزة لم تحظ الا بالنز اليسير من العمران في حين نجد قرى الجنوب مثل « خان يونس » قد دب فيها الخراب ولم نسمع شيئاً عن « دير البلح » أو رفح بأكثر من أراض فيها بعض المزروعات من خلال الدفاتر العثمانية طيلة القرن السادس عشر الميلادي الموقوفة .

ومرد ذلك انشغال الدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليم الأول المتوفى سنة ١٥٢٠ م وسليمان القانوني بالحروب في منطقة البحر الأحمر والخليج العربى وهزيمة أسطولهم هناك ، وما لاقته وجابته بعد ذلك أيام السلطان سليم الثاني الذى تولى الحكم سنة ١٥٦٦ م ومن بعده مراد الثالث المتوفى سنة ١٥٩٦ م (٢١) من حروب طاحنة في شمال افريقيا وأوربا أفقدت الدولة معها التركيز على الحكم والسيطرة الادارية والعسكرية على الولايات كما لاحظنا من خلال وثائق هذا القرن مما أتاح الفرصة للولاة العسكريين الابتزاز عن طريق جمع الضرائب والرسوم الباهظة لتعويض ما تنفقه الدولة العثمانية من جراء حروبها المتواصلة فى آسيا وأوربا وأفريقيا .

ولعل الدفتر العثماني لسنة ١٥٩٦ م خير ما يحمل الحياة الاقتصادية والديمقراطية فى أواخر عهد مراد الثالث وحتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، والمتضمن مجموع الضرائب بأنواعها المختلفة التى أخذت من جميع أسواق المدن الفلسطينية الهامة وكذا قراها ومزارعها . مبينا مكانة غزة التى اجتلت بأسواقها المكانة الأولى ، فقد بلغ ما أخذ منها مائة وخمسين ألف آقجه تقريباً فى حين بلغت قيمة ما أخذ من المدن الأخرى كالقدس و نابلس وصفه ما قيمته خمس وسبعون ألف آقجه لكل مدينة ولم تنافس غزة أية مدينة ساحلية تذكر كالمجدل وعكا بحيث لم يزد ما جبي من كل منهما عن ثمانية آلاف « آقجه »

(٢٠) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ١٥ .

(٢١) محمد فريد بك المحامى - تاريخ الدولة العثمانية - بيروت ١٩٧٧

ص ٩٧ - ١١٧ .

(خريطة ٢٥) وقد كانت تؤخذ الضرائب بوجه عام فى هذه السنة وفقا لما جاء فى - الدفتر العثمانى - على القمح والشعير والكروم والزيتون وأشجار الفاكهة والثروات الحيوانية والنحل والمحاصيل الصيفية مضافا لها ضريبة « الهوا والعروس » (★) .

ولقد استمدت غزة أهميتها هذه من موقعها الجغرافى الهام كأول محطة بين مصر والشام بالاضافة لما تضمنه سنجقها من مجموعة كبيرة من القرى والمقاطعات (زعامات وتيمارات) اذا ما قورن بتبعية السناجق الفلسطينية كما يتضح من الجدول التالى (٢٣) :

السنجق	زعامات	تيمار	المجموع
سنجق القدس	٩	١٦١	١٧٠
» غزة	٧	١٠٥	١١٢
» عجلون	٤	٦١	٠٦٥
» نابلس	٧	٤٧	٠٥٤
» اللجون « جنين »	٩	٣٩	٠٤٨
المجموع	٣٦	٤١٣	٤٤٩

هذه السناجق جميعا تتبع اداريا ولاية دمشق مباشرة ، وقد يأتى سنجق غزة فى المرتبة الثانية بعد القدس فى عدد اقطاعاته ليضم مساحة تغطى المنطقة السهلية الواقعة من قيسارية شمالا حتى خان يونس جنوبا والتي كثيرا ما كانت تذكر على أنها نهاية المعمر على الساحل الفلسطينى الجنوبى . أما حدوده الشرقية فلم تكن واضحة الا أنها لم تتعد السفوح الغربية لهضبة الخليل . محتلا بالتالى الأراضى الفسيحة والحصبة من السهل الساحلى الجنوبى ومستأثرا بأقل قليلا من خمس [زعامات] فلسطين ٤١٩٪ وأكثر قليلا من ربع « ٢٥٤٪ » التيمارات كلها .

هذه المصادر الزراعية لتلك المساحات مضافا لها موقع مدينة غزة كمسوق زراعى وصناعى هام مكنها من أن تصبح مركزا للمركب الشامى المصرى كما ذكرنا وقاعدة لتمويل قوافل الحج التى تمر منها وتلك التى تمر عبر الطريق

(٢٢) W. D. Hutteroth - K. Abdulfattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria, in the late 16 century Erlangen, 1977, p. 142-156.

(★) وهى ضريبة الرأس أما العروس فهى رسوم تؤخذ عند الزواج .
(٢٣) Amnon, Palestine in 18 century, Jerusalem, 1973, p. 295.

النسبة بالنسبة للأسواق التجارية الهامة في فلسطين سنة ١٩٥٦ م .

الشرقي والمارة بمدن معان وتبوك والعقبة لدعم مراكز حصونها وقلاعها العسكرية ، فكان على متصرف غزة أن يرسل قافلة من الإبل محملة بنحو ثلاثين ألف حمل من الشعير لتمويلها (٢٤) حتى يتسنى لها السيطرة على قطاع الطرق من البدو الذين يعيشون على هوامش المعمور بعيدين عن اهتمام السلطة التي لم تعيرهم اهتمامها قط وتمنحهم جانبا من الرعاية أو العناية مما عمق الهوة بينهم وبين السلطة العثمانية فلم يجدوا بدا من قطع الطرق على المسافرين والحجاج لتأمين الحد الأدنى من معاشهم ، الأمر الذي دفع السلطان العثماني تعيين ولاية الشام « أمراء الحج » يسطحون القوافل حتى مكة ليعودوا معهم بعد رحلة قد تمتد لثلاثة شهور يتركون فيها ولاياتهم .

وربما أضفت وقفيات وأملاك لواء غزة دلالة على مكانتها الاقتصادية ومدى ثراء أبنائها اذا ما قورنت ببقية الوقفيات للألوية فلسطين في القرن السادس عشر والتي نستخلصها من واقع دفتر تحرير الطابو رقم ٥٢٢ والذي يرجع لسنة ٩٥٤هـ وهي أحدث سنة وردت به (٢٥) .

اسم اللواء	عدد الوقفيات	عدد الاملاك	عدد مصادرو الوقفيات	عدد مصادرو الاملاك
لواء غزة	٥٥	٩	٢٣٠	١٠
لواء القدس	٩٠	١١	٣٤٤	١٧
لواء صفد	٦٤	٦٥	١٧٤	٧٣
لواء نابلس	٢٣	٣	١٤١	١٤
لواء عجلون	١	٤	١	٤
المجموع	٢٢٣	٩٢	٨٩٠	١٠٨

ليبدو لواء غزة وقد احتل المكانة الثانية بعد لواء القدس في عدد مصادر وقفياته ينافسه أحيانا لواء صفد .

وربما تتضح مكانة غزة أيضا لو استعرضنا ما جاء بدفتر التحرير العثماني رقم ٣١٢ م والذي حرر بعد عشر سنوات من الدفتر السابق الذكر حيث ورد أحدث تاريخ به لسنة ٩٦٤ هـ (١٥٥٦ - ١٥٥٧ م) (٢٦) .

(٢٤) Amnon, Palestine in 18 century Ibid, p. 896.

- (٢٥) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ل
- (٢٦) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ن

اسم اللواء	عدد الوقفيات	عدد الأملاك
لواء غزة وقضاء الرملة التابع له	١٤٥	٨٦
لواء نابلس	٧٣	٥٢
لواء صفد	٧٢	٧٧
المجموع	٢٩٠	٢١٥

هكذا يبدو وفى عقد من الزمان مدى القفزات الطفرية فى عدد الوقفيات التى طرأت فى لواء غزة فوصلت الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل عشر سنوات مع بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى وتتفوق على لوائى صفد ونابلس . ويعزى البعض كثرة الوقفيات كرد فعل لتسلط وابتزاز الحكام والأمراء بفرض الضرائب والتعدي على الملكيات الخاصة فلا يجد المواطن مناصا من وقفها على المؤسسات الدينية هروبا من جور الحاكم وتقربا لله تعالى ومحبة لأبناء جلدته .

أما على الصعيد الديمغرافى الخاص بالجغرافية العمرانية سكنا وسكانا فى أواخر القرن السادس عشر فالدفتى العثمانى لسنة ١٥٩٦ م هو المرجع الوحيد لشموله على جميع المواقع العمرانية من مدن وقرى ومضارب المبدو والمزارع فى فلسطين والتى شملتها الضرائب .

فقد شمل لواء غزة على ناحيتى غزة والرملة ضمت المواقع الجغرافية التالية التى شملتها الضرائب وفقا للجدول التالى (٢٧) :

لواء غزة	خاص	ميرالو	زعامة وتيمار	المجموع
ناحية غزة	٢٦	١٦	١٠٠	١٤٢
ناحية الرملة وتضم معها اللد .	١١	٥٥	٥٦	٥٧٢

وبذا ضم لواء غزة ٢١٤ مدينة وقرية ومزرعة ومضارب المبدو أخذت منها الضرائب وأحصيت فيها « الخانات » أى الأسر وسنكتفى هنا بأهم القرى التى جاءت تابعة لناحية غزة وعدد أسرها والتى هى الآن ضمن قطاع غزة :

V. D. Huettroth and Abdulfattah, Historical geography, ibid, (٢٧)
p. 142-156.

وجميع الجدول التالية الخاصة بهذه الفترة هى من واقع الكتاب نفسه :

اسم القرية	عدد الخانات (الأسر)	ملاحظات
بيت حانون	٣٦ أسرة	
بيت لاهيا	٧٠ »	
جباليا	٣٣١ »	
بيت زيتون	٢٣ »	علها حارة الزيتون
منشية المعجول	١٧ »	تل المعجول « المراقبة »
دميطه	٦٢ »	الدعشة الآن
دير الداروم	٣٠٠ »	دير البلج
سلفا	٦٣ »	مما يؤكد أن « السلفا » هي خان يونس
سوق مازن	١٩ »	
سطر	٤٥ »	
عيسان	٢٨ »	
رفح	١٥ »	
المجموع	١٠٠٩ أسرة	الى الشمال من « خان يونس »

هذا باستثناء مدينة غزة نفسها التي قدر عدد أسرها بناء على وثيقة سنة ١٥٧٥ أى قبل عقدين من الزمن تقريبا عن هذا الاحصاء بنحو ٦٧٥ أسرة .
أى تقريبا ضعف سكان قرية جباليا ودير البلج . وأكثر من المجدل التي بلغ سكانها ٥٥٩ أسرة .

كما يبدو من ذلك اندفاع السكان نحو الشرق من منطقة « خان يونس » - التي لم يرد ذكرها - نحو عيسان وكذلك نحو « سوق مازن » وفي منطقتي السطر والسلفا شمالا وقتلتهم في رفح بشكل يدعو للالتفات وربما كانت « السلفا » هي نفسها « خان يونس » .

كما يلاحظ توطن السكان في قرى صغيرة شبه متكئة شرق مدينة غزة مباشرة معتمدين على زراعة الحبوب بشكل خاص وأشجار الفاكهة ولم تكن هذه القرى تبعد عن غزة بأكثر من مسيرة ساعة من الزمن أو أقل وهي :

القرية	عدد الأسر	ملاحظات
صيعان	١١ أسرة	قرية الى الشرق من غزة
لسن	٤٩ »	قرية الى الشرق من غزة
البها	١٥ »	قرية الى الشرق من غزة
رسم الشرقى	٤٣ »	قرية الى الشرق من غزة
رسم الغربى	٣٥ »	قرية الى الشرق من غزة
نعاسة	١٧ »	جنوب شرقى غزة
تل جمة	٣٢ »	جنوب شرق غزة
المجموع	٢٠٢ »	

هذا بالإضافة الى مئات القرى والمزارع التي استطاع الانسان العربي الفلسطيني من فلاحتها واستثمارها جيدا بأنواع المزروعات المختلفة التي جاء بها الدفتر العثماني . ولقد اقتصرنا على قرى القطاع حاليا وتلك القرى والمزارع التي لا يبعد عنها مركز مدينة غزة بكيلو مترات بسيطة وتعتبر ظهيرا للمدينة تمولها بكل ما تحتاج اليه من سلع .

هذه هي الصورة الديمغرافية لمدينة غزة وما حولها وبنيتها الاقتصادية حتى آواخر القرن السادس عشر الميلادي .

حتى اذا ما جاء القرن السابع عشر الميلادي حمل معه ومنذ اطلالته الأولى بوادر الضعف وبذور الفوضى خاصة عندما سمح لغير الانكشاريين من الفلاحين والحرفيين بالانخراط في سلك الانكشارية بعد أن كانت حكرا لهم (٢٨) .

ومن أعراض هذا القرن ظهور الانتفاضات المحلية الطموحة للانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية والتي ظهرت بوادرها في شمال البلاد متمثلة في حركة « فخر الدين المعني » الذي تنفس خلالها أمير غزة أخوه بن رضوان الصعداء لانشغال « المعني » بالاستعداد لمجابهة السلطان العثماني نظرا لما كان بين هؤلاء الأمراء من ضغائن وأحقاد. فيما بينهم فما زالت أسرة آل رضوان وآل فروخ وبهرام يحكمون المدن الفلسطينية الرئيسية وكانوا جميعا يفكرون في القضاء على آل فروخ (٢٩) .

وقد بلغ من سطوة « فخر الدين المعني » أن اضطر السلطان مراد الرابع بإصدار فرمان سنة ١٦٢٤ م يخوله السلطة بمقتضاه على بلاد « عربستان » أي بلاد البدو الخارجة عن حدود المدن (٣٠) من حلب شمالا حتى العريش جنوبا مستغلا سطوة هذا الرجل ومحاولا تفريغ شحنات تمرده للقضاء على تمرد البدو الناجم عن التدهور الاقتصادي والتسيب الإداري وضعف السلطة المركزية للدولة العثمانية مقابل أن يقدم « المال الميري » للدولة العثمانية ومحافظته على الأمن . وكان هذا يعني بطبيعة الحال تدخل « فخر الدين المعني » في شئون بقية الأمراء في الولاية فلسطين وكانت لعبة استطاع السلطة العثمانية من خلالها

(٢٨) عبد العزيز عوض - الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤ - القاهرة سنة ١٩٦٩ ص ١٣ .

(٢٩) د. عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ - الطبعة الثانية - عكا - سنة ١٩٧٨ ص ١٥٤ .

(٣٠) د. عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون - المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦ .

زرع الاحقاد والفتن في نفوس أمراء الألوية ضد المعنى ، فبعد أن توفي أحمد باشا رضوان خلفه ابنه حسين باشا الذي وقف متحالفا في سنة ١٠١٠ هـ مع أحمد بن طرباي « حاكم اللجون جنين » وفروخ باشا حاكم نابلس ضد « فخر الدين المعنى » حتى قضى على الأخير سنة ١٦٣٥ م (٣١) ، ونجح بالتالي السلطان في القضاء على حركته مستغلا أحقاد هذه الأسرة فيما بينها .

ومع منتصف القرن السابع عشر وبالتحديد في عام ١٦٤٩ م زار مدينة غزة السائح التركي « أوليا جلبي » (٣٢) فنزل في ضيافة أميرها حسين باشا الذي مهد له السبيل بالاجتماع بعلماء المدينة وأشرافها ليصفها بعد ذلك وصفا شبه شامل مبينا تركيبها الوظيفي وحجم العمران بها ذاكرا مرافقها الحيوية .

ففي نطاق العمران ذكر أن بالمدينة ستة أحياء تضم ١٣٠٠ منزل جميعها مبنية من الحجارة واسطحها مستورة بالطين والكلس . ولم يذكر أسماء هذه الأحياء - الا أنها هي تلك التي جاء ذكرها قبل قرن تقريبا في الدفتر العثماني ٥٢٢ وهي : حي الشجاعية ومحلة دار الخضر وحكر التفاح وحي الزيتون ومحلة البرجلية وحارة الاكراد التي هي جزء من حي الشجاعية (٣٣) « الجديدة الآن » .

وأضاف « جلبي » أن بمدينة غزة سبعين مسجدا هذه المساجد ذات محاريب منها أحد عشر مسجدا تقام بها صلاة الجمعة ويتوسط المدينة « تكية عبد العظيم » وبالقرب منها « تكية مرغان » وأضاف أن بها حمامات ذكر منها « حمام الباشا » و« حمام العسكر » (٣٤) .

وان لم يكن هذا الرقم من عدد المساجد فيسه شيء من المبالغة حيث لم يتعد عدد ما تم معرفته حتى هذه السنة نصف هذا الرقم فان ذلك يدل على عظمة هذه المدينة الذي يخص فيها كل ١٩ منزلا مسجدا على افتراض ما ذكره جلبي (سبعون مسجدا) صحيحا .

(٣١) احسان النمر - تاريخ نابلس والبلقاء - الجزء الأول - نابلس سنة ١٩٦١ ص ٧٢ .

(٣٢) أوليا جلبي سياحتنا مي سي / ، مترجم بالانجليزية - ترجمة حنا اسطفان المتحف الفلسطيني بالقدس - المجلد ص ٧٦ .

(٣٣) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - المرجع السابق ص ٧ - ٢١ .

(٣٤) أوليا جلبي سياحتنا مي سي - المرجع السابق ص ٧٦ .

وفى مجال النشاط الاقتصادى والتجارى داخل المدينة فقد أفاد بأن بها ستمائة (٦٠٠) وكان واصفا اياها « بأنها مدينة تجارية وان لم تكن ميناء » وأن مصانع الزجاج والسروجية (★) فيها رائجة (٣٥) . ولم يفدنا « جلبنى » بأسماء أسواقها ، لكننا لو عدنا لقرن من الزمان وبالتحديد لسنة ١٥٤٩ م وهى السنة التى دون فيها أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين فى « الدفتر العثماني ٥٢٢ » نجد أنه جاء ذكر عشرة أسواق [سوق الشجاعية - سوق الغزل واللبان - سوق العطارين والقطن - خان الدباغة - خان الطباعية - سوق الحدادين - سوق باشورة الثقيلة ١٩] نضيف إليها « خان الكتان » الذى بنى فى أوائل الفترة العثمانية والقيصارية وخان حكر التفاح ليصبح بالمدينة عشرة أسواق تقريبا (٣٦) . هذا باستثناء سوق الغنم .

ومع افتراض أن هذه الأسواق بقيت على حالها حتى أيام « جلبنى ١٦٤٩م » فإن هذا يعنى أن كل سوق به ستون دكانا !! وتعتبر بذلك كثافة عالية تؤكدها أرقام « جلبنى » نفسه التى نستخلص منها بأن لكل منزلين بالمدينة تقريبا دكان واحد !!

أما بالنسبة للحياة الزراعية بالمدينة ، فقد وصف مزارع الحنطة بأنها كثيرة وتشتهر ببياض لونها وكبر حجمها ويطلق عليها أبناء المدينة « سن الجمل » كما تشتهر بشعيرها وقطنها وحريرها التى تصنع منه البشاكير والمحارم . وتحيط بالمدينة مزارع الكروم البالغ عددها سبعة آلاف كرم، لاعناؤها شهرة فائقة هذا بالإضافة لأشجار الزيتون والليمون والتين والرمال والنخيل مبينا ان لها شهرتها العالمية .

كما ذكر « زيت غزة » بأنه يصدر لمصر محملا على ظهور المئات من الإبل لشهرته بها .

أما عن مصادر المياه ، فقد أفاد « جلبنى » بأنها تسقى من عيون مائية ذكر منها « عين السجان » الواقعة فى مكان يدعى « غبيه » (**) وبجوارها أربعة ينابيع أخرى فى سهل منبسطة غير فسيحة واصفا مياهها بأنها « تزداد شتاء وتقل صيفا » كما انها تسقى من مياه الآبار لعدم وجود أنهار بالمدينة .

(*) مازال هناك « سوق السروجية » بقلب مدينة غزة الآن .

(٣٥) أوليا جلبنى - سياحتنا مى سى - المرجع السابق ص ٧٧ .

(٣٦) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - المرجع السابق ص ٦ - ١٥ .

(★★) هى المنطقة الواقعة الى الشمال مباشرة من « الإجمية » وكانت مصبا لسيول الامطار وتدعى « بركة قمر » .

وذكر أن بالمدينة مائتي سبيل يرتوى منها الناس ، وأن المياه تنقل على ظهور
الابل من خارج المدينة (٣٧) .

وإداريا : أوضح « جلبي » تبعية غزة لولاية سوريا وإن ما عليها من
ضرائب أميرية تقدر بنحو ٥٠٨٣٢٨ قطعة من الفضة مبينا أن لها سبع زعامات
ومائة وسبعة تيمارات .

وكان يدير الحكم في المدينة مع الباشا طاقم نذكره وفقا للترتيب الذي
أورده « جلبي » وهم : القاضي وشيخ الاسلام ثم نقيب الأشراف فالأعيان
والنبلاء ووجوه البلدة ثم السباهية ونائب المدينة فالصوماشي والمحتسب
والهاجدار . تساندتهم عسكريا فرقة من الجنود عددها ١١٥٠ عسكريا يتواجدون
بقلعة المدينة ذات بوابة حديدية بها كثير من المؤن والذخائر والمدافع بل ويحفظ
بها جميع مقتنيات السكان ومدخراتهم الثمينة (٣٨) ، وفي هذه الحقبة بنى
الأمير حسن باشا عمارة بغزة وصفها المحبى قائلا بأنها كانت أنيقة جدا حتى
أصبحت أحسن منتزة في غزة ، لعلها هي « الدبوا » الآن (٣٩) (خريطة
٢٦) تغطية جغرافية شبه شاملة للمدينة حتى عام ١٦٤٩ م تعكس ازدياد عدد
السكان الى الضعف تقريبا إذا ما قورن بعدد السكان عام ١٥٧٥ م .

ولعل ما ذكره قنصل فرنسا في صيدا « شيفاليه وارقيو » عندما زار
غزة سنة ١٦٦٠ م ما يكمل لنا الصورة - كل وفق اهتماماته - فقد شاهد
بالمدينة كنيسةين أحدهما أرمنية وأخرى كبيرة يونانية ، وإن الناس يتكلمون
العربية والتركية واليونانية - كما لم يلاحظ سورا للمدينة وأنه شاهد ستة
مساجد فقط عدا الجامع الكبير (٤٠) ويبدو من هذا الوصف أن القنصل لم
تتعد خطواته حدود قلب المدينة القديم وأنه شاهد فقط تلك المساجد الواقعة
بين الكنيسةين اللتين تقع احدهما في الشرق والأخرى في الغرب من المدينة .

وبعد ذلك بعام وفي سنة ١٦٦١ ميلادية أوقف موسى باشا متصرف مدينة
غزة ابن الأمير حسن باشا أوقافا كثيرة تدل على بداية اضمحلال سلطة
« آل رضوان » وحكمها لمدينة غزة بعد حكم دام لأكثر من قرن ونصف من
الزمان .

(٣٧) أوليا جلبي سياحتنا مى - المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣٨) أوليا جلبي - المرجع السابق ص ٥٧ .

(٣٩) محمد المتجبي - خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادى عشر ، الجزء الثانى - المطبعة
الرومية ١٢٨٤ هـ ص ١٦ .

(٤٠) عارف العارف / تاريخ غزة - المرجع السابق

وربما كان مرد ذلك تسلط الدولة العثمانية على أموال الأغنياء لتعويض ما تفقده في الحروب والمنافسة المقيتة بالقهر والابتزاز من قبل الولاة الجدد على الأقدمين ، مما دفع العديد من أغنياء المدينة وحتى أمرائها هروبا من المصادرة القيام بتحويل أموالهم للوقف الأهلي .

ومن خلال دراستنا الوقفية « موسى باشا آل رضوان » والتي وثقها بالمحاكم الشرعية بالقدس الشريف سنة ١٠٨١ هـ (١٦٦١ م) تبين المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية التي امتلكها بمفرده عدا تلك التي كانت تخص والده الأمير حسن باشا وأجداده أحمد باشا ومصطفى باشا وأخوته . والتي شملت أراضي وعقارات في مدينة غزة نفسها وعلى أطرافها (ساقية القيعة - والزيتون وحكر سويد ٥٠٠ الخ) . وأراضي زراعية في دير الداروم (دير البلح) وقرية السلقا ومعن وكذلك مساحات من أراضي مدينة رملة فلسطين وفي مدينة يافسا وأسكلتها (مينائها) .

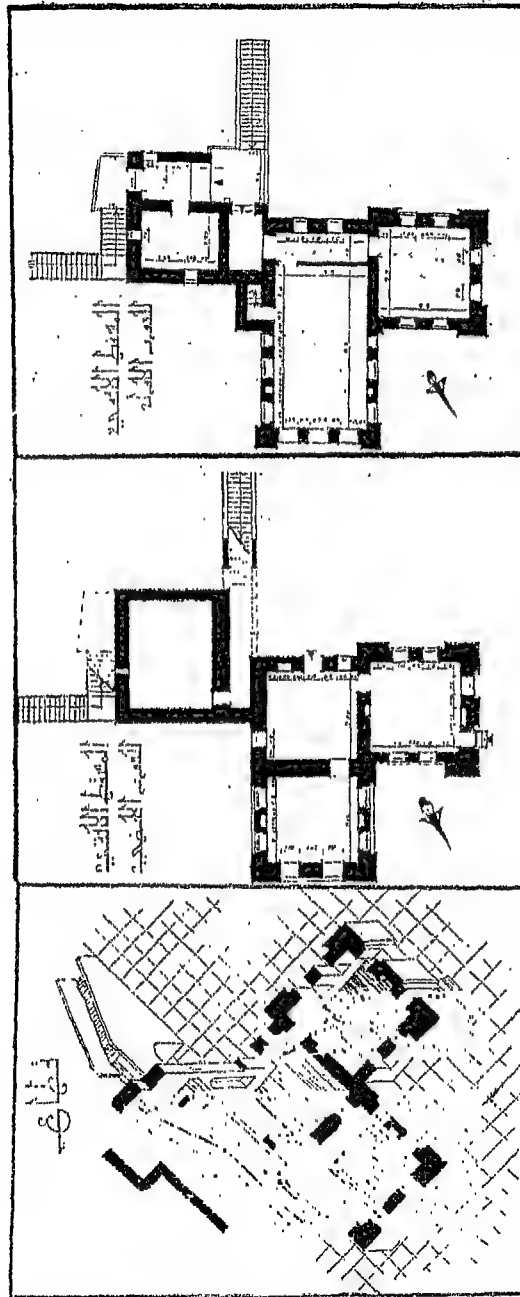
كما جاء ذكر بعض المساجد لأول مرة مثل جامع السواد (مسجد المغربى) بشارع بنى عامر بحى البرجلية كما ورد ذكر « حمام القلعة » وربما هو نفسه « حمام العسكر » الذى ذكره « جليلى » .

كما ورد لهذا الجامع (السواد) وقف فى سنة ٩٦٤ هـ (١٥٥٩ م) أوقفه عمر بن مراد (٤١) ومما يلفت النظر فى « الوقفية » ذكرها باسم «ميماس» وان بها أرضا زراعية بها « ساقيتين ببشرى ماء وأشجار مختلفة » . وبها مساكن ذات طابقين ومرافق وبركة لجمع الماء (٤٢) ، ليؤكد بذلك استغلال الأراضي حتى على شاطئ البحر الذى تكتشفه الكتابان الرملية .

ومع نهاية القرن السابع عشر تقريبا وفى ربيع الأولى من سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) زار مدينة غزة الشيخ عبد الغنى النابلسى حيث قام بجولة داخل المدينة وحولها تركزت على زيارة المساجد ولم يمنع ذلك من الذهاب لأحد منازل أبناء غزة المطربين ليسمع منه عزفا موسيقيا على آلة القانون بصحبة فرقته الانشادية .

ولقد زار الجامع العمرى الكبير وأدى الصلاة به ثم توجه الى مسجد الشيخ فرج واصفا اياه بأن له عمارة منيفة . ويقال ان الشيخ فرج هذا من رجال أواخر القرن العاشر الهجرى (نهاية القرن السادس عشر الميلادى) قد توفى ودفن به وقد اندثر هذا الجامع الآن .

(٤١) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الاعزة فى تاريخ غزة - ج ١ غير مطبوع من ٢٠١ .
(٤٢) وقفية محررة بالمحكمة الشرعية بالقدس سنة ١٠٨١ هـ .



خريطة توضح مساقط بناية (القصور) أو السراي التي يراها الأمير حسن آل رشيد في بغداد
(مدرسة القصور الآن)

ثم زار مسجد الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي وبالقرب منه توجه الى مغارة مدفون بها جد الرسول هاشم بن عبد مناف . ثم اتجه شرقا لزيارة مسجد الشيخ علي بن مروان ثم منها لزيارة جامع شهاب الدين أحمد بن عثمان يحيى الشجاعية ثم سار الى مدرسة الطواشي (*) الواقعة بالقرب من جامع السيد علي المغربي (والذي يطلق عليه أحيانا جامع الطواشي) ذاكرا أن قضاة غزة اتخذوا من هذه المدرسة مركز حكمهم وتلقاه بها « أحمد حلبى » النائب فى الحكم . ليتضح بالتالى أن مركز الثقل القضائى والإدارى للمدينة انتقل للأحياء الشرقية فى حى الشجاعية الجديدة .

ثم وصف « جامع الجاولى » بأنه خراب ومنعزل عن العمران وبالقرب منه شاهد مسجد ومزار الشيخ مجاهد ومسجد الشيخ محمد العيجانى .

واختتم زيارته لمعالم المدينة متجها الى أقصى الغرب متجتازا الكشبان الرملية نحو مزار ومدرسة الشيخ رضوان حفيد الشيخ علي بن عليل الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى وهو أخو الشيخ عجلين الذى سميت ضاحية الشيخ عجلين على شاطئ البحر والواقعة الى الزاوية الجنوبية الغربية من مدينة غزة باسمه وقد جدد مزار الشيخ رضوان والمدرسة كما أوضحنا مراد بك سنة ٩٧١ هـ فى زمن السلطان سليمان القانونى .

ومن فوق التلة الواقعة عليها مدرسة ومزار الشيخ رضوان شاهد النابلسى قرية جباليا واصفا اياها « قرية لطيفة الهواء غضة الماء فى أهلها صلاح ومحاسن الملاح » مما دفع أحد المصاحبين من أبناء غزة للشيخ النابلسى أن ينسده قائلا :

رشفتم رضسابه وسكرت منه وقلت لصباحى هذا جبالى

ثم ترك النابلسى غزة متجها الى قرية « الدير » (دير البلح) ثم خان يونس حيث صلى بجامعها وبطبيعة الحال كان هذا هو « جامع الخان » لندرك أن الحياة قد دبت فيه بعد خرابه .

واعتبر خان يونس هى أول البلاد المصرية كما قيل له لمشاهدته بعض الجنود الغز والعسكر المصرى بعض أبيات الشعر على المنبر (٤٣) .

هكذا يبدو الحال فى مدينة غزة وما حولها من قرى مع انتهاء القرن السابع عشر الميلادى فلم تعد هناك أية توسعات عمرانية تذكر على حدود المدينة بل

(*) الطواشي : مفرد « طواشية » وهم الحصيان الذين عملوا مع المماليك ومع الجريم وفى الطبان المملوكية وكانت لهم كلمة فعالة وحرمة مهابة ويعد شيخهم من الأعيان وقيل أن أحد هؤلاء قد بنى المدرسة على الرغم من عدم وجود ما يشبه ذلك على الحجارة المنقوشة .

Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, p. 156.

(٤٣)

وثيقة توضح جزءاً من وقفية موسى باشا آل رضوان محررة من المحكمة الشرعية بالقدس ١٠٨١هـ .

لحق الخراب بكثير من جوامعها ومؤسساتها الدينية والديوية وكثرت ظاهرة الوقف .

فأقبل القرن الثامن عشر الميلادي الذي يعتبر بحق قرن الانتقال والتحول في تاريخ فلسطين العثماني ، فقد تأصلت فيه جذور العائلية في مدنها وعلت منزلتها واستثارتها بالسلطة المحلية داخل المدن لتزداد قوتها في هذا القرن - تلازم عكسي مع قوة الدولة العثمانية التي أخذت في التراجع بعد أن افتتحت على نفسها جبهتين متنافرتين في الشرق مع الفرس سنة ١٧٢٥ وفي الغرب مع أوروبا الناهضة صناعيا فاستولت روسيا على شمال وشرق البحر الاسود ليدفع العرب جزءا ثقيلا من أقساط هذه الحرب الطاحنة في صورة ضرائب تكاثرت كما ونوعا لتشمل معظم المنتجات الزراعية والصناعية ، ففقد بلغت مع مطلع هذا القرن سنة ١٧٠٤ - ١٧٠٥ م من لواء غزة - المجدل وميناء يافا عشرين ألف ترس (٤٤) وفي عشرينات هذا القرن (١٧٢٠ م) أخذ متصرفو غزة والقدس ونابلس في جباية ضرائب خاصة على جميع السلع الضرورية منها والكمالية لتغدو عبئا ثقيلا على كاهل عامة الشعب فشملت ضرائب على الصابون (صابونك آججي سي) بواقع ٧٥ افجة لكل أوقية وضريبة زيت الزيتون « رسم روغن زيت » بواقع خمسة آقجات لكل أوقية أما الدخان فبلغت ضريبة خمسة آقجة لكل أوقية تصدر من ميناء يافا حتى الاسكندرية ويطلق عليها « دخان كمركي » ثم ضريبة القطن التي بلغ قيمتها عند نهاية القرن الثامن عشر من سنجق القدس وغزة ويافا حوالي عشرين ألف آقجة مضافا لها جميعا ضرائب البن والصوف والحرير وتُدفع بواقع آقجتان لكل أوقية (٤٥) .

ومما يلفت النظر أن ضريبة زيت الزيتون لم يمتد لها ذكر بعد عام ١٧٢٥ م مما يجعلنا نميل للاعتقاد بأن المحصول أما بدأ في القلة بحيث لم يعد هناك مبرر لوجود مثل هذه الضريبة وهذا افتراض نادر الحدوث وأما ناجم عن استياء السكان ورفضهم لهذه الضريبة على مادة أساسية وحيوية لكل بيت فهي الغذاء والدواء والوقود لهم لذا لم تستمر بعد عام ١٧٣٠ م (٤٦) .

وكان يحكم غزة في هذه الفترة حسن بن مكى .

ولقد ترجم هذا الوضع وصوره الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي الذي زار خان يونس ونزل بعدها بمدينة غزة مقيما في « خان الزيت » سنة

(٤٤) Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, pp. 261-265.

(٤٥) الشيخ عبد الغنى الشهير بابن نابلس - كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز سنة ١١٠١ هـ - مخطوط .

(٤٦) Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, p. 261.

١٧٣٠ م في كتابه « سوانح الأنس » برحلتى لوادى القدس « أن يندب جال المدينة بقوله « البلاد خراب من ظلم الأمراء وتحكم رهط الاعراب » معبرا عن ذلك بشعره :

يا ويح معاهدها للأنس جامعه
فأصبحت من سطو الأعراب خاوية
من كل معنى سما والحسن جامعه
على عروش مخيفات بلاقعه

فالأمر لم تعد خاوية. في غزة من سطو الأعراب بل ومن تصرفات السلطة العثمانية التي كانت توفد الأغوات الى مدن وقلاع غزة والغير مرغوب فيهم فيستولون على أراضيهم في حلب ويوقفونها بعد مباتهم على المدارس كما فعل بهرام باشا والى حلب والمتوفى سنة ٩٩٤ هـ عندما استولى على أراضى حسين أغا في حلب وأرسله « كتحدا » قلعة خان يونس وعوضه بأراض زراعية في غزة فمنحة « ساقية قلفان » وثلاثة أرباع « ساقية شندار » وساقية شعبان :

كذلك أرسل ببعض البكسوات الى العريش سنة ١١٥٠ (١٧٣٧ م) ليعطوهم أراضى في غزة منها « نصف الحكمة » « الرمداد » وقبلا على ذريتهم (٤٧) . وهى جميعا أراض زراعية تقع حول مدينة غزة .

ومع منتصف هذا القرن لم تعد تجبى معظم الضرائب السابقة الذكر فى المدن والقرى الفلسطينية حتى نهايته لما انتاب البلاد من موجة غلاء شديدة أيام السلطان عثمان الثالث (سنة ١٧٤٧ م) فضج الأهالى لصعوبة المقدرة الشرائية وجباد الأسواق وانكماش معروضاتها فانتفض البدو سكان الأطراف - كرد فعل طبيعى لسوء الأحوال فى المدن - فما بال الهوامش شبة المقفرة والصحراوية بأرض البدو - هبوا معترضين من أبناء قبيلة بنى صخر على قوافل الحجاج وقتلوا أميرها سنة ١٧٥٧م ليغمروا بها أسواق غزة ولشباع بأبخس الأثمان . وعلى أثرها هرب حاكم غزة حسين باشا مكى (٤٨) .

هذا الحد من الوهن الذى أصاب السلطة العثمانية المركزية دفعها أن تستجير « بالنقيب » وهى الوظيفة الثالثة بعد القاضى والمفتى « طالبة » المساعدة فى جباية الضرائب فقد شمل كتاب التعيين للسيد عبد اللطيف سنة ١٧٤٥م بالاضافة للقدس ونابلس وغزة والرملة وحنين يطلب منه جمع الضرائب من هذه المناطق (٤٩) .

(٤٧) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الاعزة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٤٨) عارف العارف - تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٤٩) مجلة الشرق - العدد الثالث - السنة الثامنة - تموز - أيلول سنة ١٩٧٩ - جبل

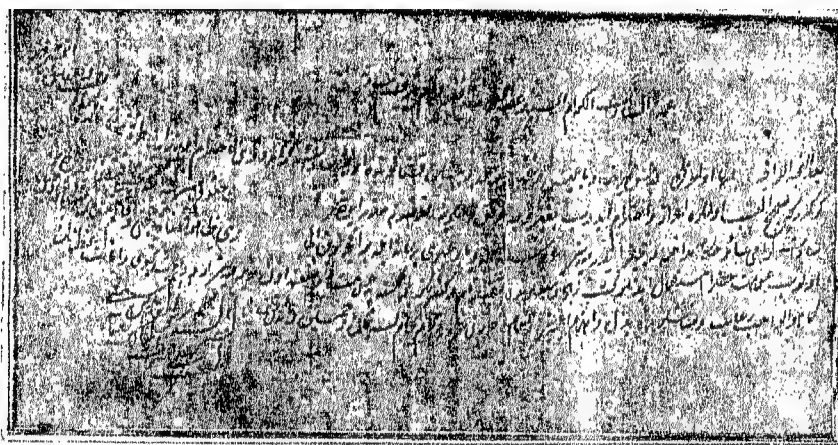
الكرمل - حيفا ص ١٩ .

واستمرت أسرة « آل مكى » تحكم المدينة التى لم نلمس لها أية آثار باستثناء مزار بقبة بالقرب منه « سبيل ماء » نقش على بلاطه فوق المزار [بسم الله الرحمن الرحيم .. يا مارا على قبرى قف شويه .. واقرأ القرآن بصدق نية .. واهد ثوابه لمنشئ هذا القبر الفقير الى الله تعالى محمد بك مكى حاكم الوية غزة سنة تسع وخمسين ومائة وألف] أى الموافق سنة ١٧٤٦ - ١٧٤٧ م . ويقع هذا المزار للمشرق من خان يونس مدفون به الشيخ محمد الجراح (★) . (صورة ١٣٩) .

ظل البدو مقياسا لقوة السلطة العثمانية الذى تحدده وتستنفده الظروف والأحوال الاقتصادية للبلاد فالاهتراء الإدارى والوهن العسكرى والاضمحور الاقتصادى كان يعنى بالطبع سعى البدو لقطع الطرق ونهب المدن بل والاعتداء على قوافل العساكر أنفسهم والذين تمردوا فى بعض الأحيان كما حدث أيام حكم حسين باشا بن مكى سنة ١٧٥٧ م . مما أكسب البدو هيبة وسيطرة حسب حسابها الحكام والقادة . ونظرا لموقع غزة الحدى مع مصر فقد رأى « على بك الكبير » شيخ مصر أن يرسل قائده العسكرى « محمد بك أبو الذهب » لمدينة غزة للانتقام من « سليط » زعيم إحدى القبائل البدوية وتم ذلك فعلا . لأنه يرى فى استقرار الأوضاع فى هذا الممر الحيوى ضمانا له لتنفيذ مخططاته المستقبلية فى التوسع نحو الشام والاستقلال عن الدولة العثمانية . خاصة وان « على بك الكبير » على دراية تامة بمشاكل أهالى غزة عندما عاش بينهم « كمنفى » سنة ١٧٦٦ م ولمس عن قرب تصرفات النائب العثمانى « عثمان باشا الكرجى » الذى انتقم منه أى من على بك الكبير يوم ان كان الاثنان امراء للحج سنة ١٧٦٤ م (٥٠) . فقد كانت غزة تتخذ هى والصعيد مكانا لنفى الزعماء والمتمردين على السلطة لموقعهما الحدى والبعيد عن العاصمة المصرية حيث سبق وان نفى لمدينة غزة « صالح بك » سنة ١٧٦٥ م (٥١) وهو من رجال على بك فى ذلك الوقت .

فى هذه الأثناء ظهر على المسرح السياسى « الشيخ طاهر العمر » فى شمال فلسطين الذى حاول جاهدا خلق « دويلة فلسطينية » متخذة فى بداية حركته من مدينة « طبرية » مركزا له لينتقل بعدها الى عكا واضعا يده بيد « على بك الكبير » شيخ مصر الذى اتصل بدوره مع قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ليؤازره ويموله بالأسلحة والعتاد الحربى مما مكنه للتوجه نحو

(★) عرف هذا القبر خطأ عن أهالى خان يونس بقبر أبو عبيدة الجراح .
(٥٠) د . عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ - المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .
(٥١) المختار من تاريخ الجبرتى - الجزء الثالث - القاهرة ١٩٥٨ ص ٧٥ و ٨١ .



وثيقة (٦)

غزة فاحتلها سنة ١٧٧٣ - ١٧٧٤ م (٥٢) . معلنا أنه ليس بخارج عن السلطان بل قادم لانقاذ أهل غزة من مظالم نائبيها « عثمان بك الكرجي » الذي اعتدى على علماء غزة وحجاجها وتجارها . ولعله بذلك قد عمل على تصفية حساباته مع عثمان الكرجي لما بينهما من عداوة كما أسلفنا ، معلنا بعدها على سكان المدينة بالغاء ضريبة « المال الميري » لمدة أربع سنوات (٥٣) . تقريبا للسكان واضعا بالتالي يده على أشد الأمور حساسية في البلاد التي كانت تعصرها الضرائب .

استطاعت جيوش علي بك الكبير من التقدم شمالا متحالفة مع جيش الشيخ ظاهر العمر مستغلين فرصة الحرب الدائرة بين تركيا وروسيا سنة ١٧٦٨ - ١٧٧٤ م ومتحالفين مع روسيا التي أرسلت أسطولها أمام حيفا ثم ضربت القوات التركية في صيدا سنة ١٧٧٢ م . مما شجع الشيخ ظاهر العمر للاستيلاء على جميع المدن الفلسطينية مع بداية سنة ١٧٧٣ م فاستولى على القدس ونابلس وبافا وغزة (٥٤) . وهكذا دانت له جميع المدن على الساحل الفلسطيني مستقلا بالبلاد ومعتمدا على اقتصادها وبوجه خاص القطن الذي غطت زراعته مساحات شاسعة في منطقة الجليل وحتى مدينتي المد والرملة فأخذ يصدره لفرنسا مقابل استيراد الأسلحة والذخائر (٥٥) .

إلا أن هذه الدويلة واجهت العديد من المشاكل الداخلية والخارجية بدأت بتحريض السلطان العثماني لقائده « محمد بك أبو الذهب » على قتل سيده سنة ١٧٧٣ م فقد على أثرها ظاهر العمر حليفه الوحيد .

وفي هذه الأثناء تفرغت تركيا لمجابهة « ظاهر العمر » بعد أن وصلت الحزب الروسية - التركية إلى منتهاها فبدأ السلطان العثماني عبد المجيد الأول بتحريض « أبي الذهب » ضد ظاهر العمر فقام بهملته ثانية على فلسطين متوجها لمدينة غزة سنة ١٧٧٥ ومنها شمالا إلى حيفا مما اضطر الشيخ ظاهر للفرار إلى صيدا ، ولم يعد إلا بعد موت أبي الذهب المفاجيء . وعيثا حاول بعدها الشيخ العجوز ظاهر العمر من التصدي للأسطول الروسي الراسي أمام عكا حتى وافته المنية سنة ١٧٧٥ م لتعود المدن الفلسطينية للسيطرة العثمانية ثانية .

لا بد من نتيجة لهذه الانتفاضات السياسية السريعة والتي تركزت في الشمال الفلسطيني أن تتمخض عنها كثير من حركات التأييد والتمرد خاصة في المناطق الحدية ذات الكثافة السكانية المتخلخلة .

(٥٢) محمد بك فريد - تاريخ الدولة العلية العثمانية - المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٥٣) المختار من تاريخ الجبرتي - المرجع السابق ص ٨١ .

(٥٤) Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, p. 98.

(٥٥) د. اميل توما - فلسطين في العهد العثماني - القدس - ١٩٨٣ ص ٤٣ - ٤٥ .

وهذا ما حدث فعلا في « خان يونس » [فقد علم أن خليل أغا جاسر كتنجدا أقام في قلعة خان يونس عندما عزل من منصبه سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) وأستبدل بعلي أغا عبد الله قام الأول بالتحالف مع البدو والفلاحين بتخريب القلعة ونهبها وقتل أهلها وأكل مزروعاتها فأعدمته السلطة العثمانية] (٥٦) .

وربما نجحت هذه التصرفات عن تأييد خليل أغا جاسر للشيخ ظاهر العمر فقام بالتمرد على السلطة متحالفا مع جميع قوى الشعب التي غالبا ما تتنافر وهي البدو والفلاحين وكدليل التأييد المطلق له فاعتبرته الدولة العثمانية تمردا ضدها فعزلته . يؤيد هذا شهادة السيد « مارتيني » الفرنسي . الذي قال إن عهد « ظاهر العمر » في فلسطين كان عهد نظام على الرغم من الحروب « فانغرباء وعابرو السبيل لم يتعرضوا في عصره لهجمات اللصوص أو القتل كما كان يحدث من قبل » كما وضع حدا للنزاع الذي لم ينقطع بين التجار الأجانب وبين شركات التأمين الأوروبية في عكا (٥٧) .

كما تمتعت البلاد في عهد الشيخ ظاهر العمر بقسط من التسامح الديني فبنى المسيحيون كنائس لهم في حيفا عندما أمر ظاهر بهدم المدينة القديمة وأنشاء مدينة حديثة جعل لها سورا ليصبح بالتالي باني حيفا الحديثة (٥٨) .

يخلو للكثير من الكتاب الأجانب وصف بؤس الحالة الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية في البلاد أيام « دويلة ظاهر العمر الفلسطينية » متناسين ما كان يرتكبه الولاة العثمانيون من أفعال « عثمان باشا الكرجي » ومن سبقه فقد تميزت فترات حكمهم القصيرة المضطربة بدفعهم للابتزاز وجمع الأموال بنشتى أنواع الوسائل والضرائب ومصادرة الأراضي والأموال تمثلت في نهاية بعض الأسر الحاكمة من قبلهم بالمساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية والمعارات التي أوقفوها لصالح المرافق العديدة وكذا لأفراد عائلاتهم بعد أن اقتربوا من الانتهاء .

ولم يكن جمع هذه الأموال لدافع توظيفها اقتصاديا ولتوفير أسباب الرخاء للسكان ، اللهم الا اذا كان هناك وازع ديني يدفعهم لبناء مسجد أو سبيل ماء - وهذا أقل القليل . كما لاحظنا في القرنين السابقين . كما لم يجبوا الأموال بسبب خطة عمرانية يرسمها السلاطين في الباب العالي لينفذها الولاة في سناجقهم وفقا لأيراداتهم

(٥٦) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعرزة في تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٥٧) د. الكسى كرمل - تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين - ترجمة تيسير إلياس حيفا ١٩٧٩ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٥٨) د. الكسى كرمل - تاريخ حيفا - المرجع السابق ص ٩٣ .

فالمواطنون في البلاد ابتداء من شيوخهم الثائرين ورؤساء العشائر البدوية وحتى الجنود في بعض الأحيان والفلاحين لم يقطعوا الطرق الا لما يصيبهم من فساد وظلم واعتداء من قبل الولاة ممثلين في السلطة العثمانية .

يؤكد ذلك ما يمكن إستنباطه مما كتبه الرحالة الفرنسي « فولني » الذي زار فلسطين ومصر في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٧٨٣ م - ١٧٨٥ م والتي واكبت تمرد أحمد باشا الجزائر بعد سيده ظاهر العجم مباشرة ١٧٧٦ م - ١٨٠٤ م .

فقد رأى « فولني » أن غالبية السكان في فلسطين هم من الفلاحين الملتصقين بأرضهم بفاعلية ونشاط، بما فيهم البدو حين وصفهم قائلا « حتى ان العشائر والقبائل المترحلة اذا ما وقعت على بقعة من الأرض فانها تقوم بحرثها وزرعها » . في حين يصف علاقة هؤلاء السكان بالسلطة العثمانية فيقول [اذا ما قاموا بالجور على سكان القرية هجروها الى الجبال] (٥٩) فالهجرة هنا قهرية تتم في ظروف قاسية وتعسفية للالتجاء والاحتباء بكهوف الجبال أما اذا سلب جنود السلطة منهم مواشيهم وأتلفوا مزروعاتهم وقضوا على تجارتهم فان رد الفعل - كما وصفه فولني - الهياج صارخين « الى اللصوص !! » وعندما يقول فولني « انهم على صواب » (٦٠) .

انها الدوافع الحقيقية لقطع الطرق أو مساندة قطاع الطرق وسيلة للتعبير والتنقيص عن سخطهم وعلان ثورتهم على عسكر السلطان الجائرين ، وليس صفة طبيعية عفوية في نفوسهم كما يحلو للبعض تفسيرها وطرحها .

ولم تكن مدينة غزة بأسعد حالا عما هو سائد في البلاد عامة باستثناء موقعها الذي منحها حدا من النشاط التجارى لموقعها بين مصر والشام الا انها لم تخرج من دائرة المحنة السياسية القلقة على نموها السكاني فقد ذكر « فولني » أن غزة : (ليست اليوم سوى قرية) سكانها لا يزيدون على ألفي نسمة يعيشون في ثلاثة أحياء أحدها « قلعة خربة يشغل قصر الأغا جانبا منها » هكذا أصبح الخراب يحيط بالقصور .

واثنوغرافيا لوحظ على سمات أبناء المدينة وملامحهم « الصفات المصرية أكثر من الصفات الشامية » .

(٥٩) س.ف. - فولني - ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام - الجزء الأول - ترجمة إدوارد البستاني - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٤٩ - ص ٢٤٥ .
(٦٠) س.ف. فولني - المرجع السابق ص ٢٤٤ .

وهذه حتمية المواقع الحدية وما تفرضه من احتكاك وامتزاج مضافا لها المناخ شبه الصحراوي بحرارته وما تطبعه على الوجوه من سمرة .

وديمغرافيا يبدو الانتكاس والتدهور سكنا وسكانا اذا ما قورن بما كان عليه الحال قبل قرن ونصف تقريبا عندما زارها « جلبي » سنة ١٦٤٩ م الذي قدر منازلها بنحو ١٣٠٠ منزل في ستة أحياء في حين رآها فولني سنة ١٧٨٤ م تتألف من ثلاثة أحياء بها ألفا نسمة - وإن لم يكن هذا الرقم مبالغ في قلة عدده - فإن الهجرة القهرية نحو الجبال هي الجواب القاطع لهذا التدهور العدي في السكان والذي يفترض أن يصل الى أضعاف ما كان عليه . وقد قام متصرف غزة درويش حسين باشا بتجديده منارة الجامع العمري الكبير وترميم الصهريج واتى بحوض رخامي كما جاء على بلاطة بفناء الجامع الشمالي (صورة ١٤٣) .

واقتصاديا : فالصورة تبدو باهتة مع هذه القلة المتبقية والمتمركزة في المدينة والتي تبدو أنها محافظة الى حد ما على مكانتها التجارية فكان تجار المدينة يقصدون السويس في حين نجد تجار مصر يتناغون من المدينة « الزيت والدقيق والتمر » وبها ثلاثة مصانع للصابون ونحو خمسمائة نول للحياكة !! وكثيرا ما كان سوق المدينة يزخر بما يأخذه البدو من الحجاج (٦١) .

وقد ظهر أيضا في قائمة رسوم الجمارك بميناء بولاق أن غزة قد صدرت ٧١ قنطارا من التين لمصر خلال عام ١٧٧٥ - ١٧٧٦ م (٦٢) ، لتتضح مكانة هذه المدينة التجارية ومدى انتعاش الزراعة بها في أواخر أيام الدولة الفلسطينية - بزعماء الشيخ ظاهر العمر .

أما على هوامش مدينة غزة وفي مضارب بدوها فقد أفاد « فولني » عند زيارته لأكبر مشايخها شوكة وجاها قائلاً « انى لم أتبين أن نفقاته تزيد على نفقات زارع كبير ، وكانت منقولاته عبارة عن عباآت وسجاد وأسلحة وخيول وأبل لا يتجاوز قيمتها خمسين ألف ليرة » (٦٣) .

ومع اطلالة الربع الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٥ م) قام أحمد باشا الجزائر المملوكى بالاستيلاء على ولاية عكا في حين بقيت الأجزاء الجنوبية ومنها غزة بعيدا عن سيطرته فلم يصلها الا متقدما لصد الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٩ م .

(٦١) س.ف - فولني - سوريا في القرن التاسع عشر - ترجمة حبيب البسيوني - الجزء الثاني - صيدا ١٩٤٩ ص ٧٤ - ٧٩ .
(٦٢) وصف مصر - علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - المجلد الرابع - الجزء الأول - القاهرة ١٩٧٨ ص ٣٦٦ .
(٦٣) فولني - ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام - الجزء الأول - المرجع السابق ص ٢٤٧ .

بقيت غزة طيلة الربع الأخير تقريبا من القرن الثامن عشر تحت السيطرة العثمانية حيث عاشت في قلق واضطرب تحت تسلط المتصرفين وعلى رأسهم متصرف القدس وغزة « محمد باشا أبو مرق » الذي كثرت مظالمه على جميع المدن الفلسطينية الواقعة جنوب القدس في غزة (٦٤) وقام بإخلع أغا خان يونس والذي سبق أن أعدمته السلطات العثمانية جدة وابن أخيه عبد الرحمن أغا وقام بتعيين عثمان أغا سنة ١٢١٤ هـ الموافق لسنة ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م أى إبان الحملة الفرنسية على بلاد الشام بقليل (٦٥) .

ولعل قراءة فرمان التعيين الصادر من متصرف القدس وغزة ما يوضح كيفية التعيين الوراثي وما يخلفه من تهديد ووعيد لمن يخالف السلطة على الرغم من امتداد الرقعة الواسعة المناطة بسلطته : -

« مفاخر الأقران اغا قلعة خان يونس -تالا عثمان أغا عبد الله » انه لسبب التكاسل الذي ظهر من عبد الرحمن أغا جاسر بالخدمة ونزوحه من القلعة وتركه اياها قد عزلناه وعيناك مكانه أغا على القلعة المذكورة وأذناك بالاقامة بها والتقييد بالخدمة الرخيخ لدينا على نهج الصدق والصداقة وحفظ الطرقات من العربان وخلافهم من وادى غزة الى الشيخ زويد وأنت مأذون من لدنا بصدد كل من عارضك من العربان أو قصدك بسوء أن تضربه بالرصاص وتهدر دمه ودائما تكون متنبها للأمور التي فيها رضانا ولا تخرج عن حدود الاستقامة وان ظهر منك خلاف ذلك يحل بك الندم اعتمد ذلك غاية الاعتماد والحذر ثم الحذر من الخلاف .

١٩ رجب ١٢١٤ هـ .

متصرف القدس وغزة

محمد بن محمد

حتى أغا القلعة يتركها وينزح عنها فالخان وما حوله حتى هذه الفترة لم يحظ بالاهتمام العمراني باستثناء تلك « السبيل » المجاور لضريح محمد الجراح السابق الذكر والواقع الى الشمال الشرقي من خان يونس .

(٦٤) عارف العارف ، تاريخ غزة - ١٩٤٣ القدس ص ١٨٤ .

(٦٥) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الاعزة في تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٢٣٣ .

الفصل الخامس عشر

الحملة الفرنسية

- ثورة أحمد باشا الجزائر واستيلائه على غزة •
- الحملة الفرنسية تهدم جامع الجاوي والبيمارستان ومدرسة قايتباي وبعض المساجد الأخرى •
- ظهور قرية « أبو حليب » على وادي السلقا •
- اعدام أربعة شباب أزهرين من غزة بتهمة إيواء سليمان الحلبي قاتل كليبر في القاهرة •

الحملة الفرنسية على فلسطين

لقد تفاقمت الأوضاع في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي وبلغت أوجها المصري على الساحة الفلسطينية وقطبها عكا التي تركز بها أحمد باشا الجزار المملوكي البشناقى بعد موت سيده ظاهر العمر وذلك في سبتمبر سنة ١٧٧٥ م .

لم يجد الجزار الطريق أمامه ممهدا عند استيلائه على السلطة فأول من تصدى له وقاومه أبناء ظاهر العمر وعلى رأسهم ولده الكبير « على » تعززه قوة عربية محلية أطلق عليها « عساكر العرب » من أهالي الجليل الفلسطيني ودخل معه الجزار بجنوده البشانقة والارناؤوط والمغاربة في حروب طاحنة اتخذت من الجليل مسرحا لها حتى قضى عليهم بموت ابن ظاهر العمر سنة ٧٧٦ م .

وبعدها واجه الجزار سكان جنوب لبنان « المتأولة » الذين سبق لهم ان ساندوا الشيخ ظاهر العمر ورفضوا بالتالي الاعتراف بسيطرته والتعاون معه وذلك بامتناعهم عن دفع الميري له (٦٦) . فقاومهم بحروب ضارية بلغت أشدها في عام ١٧٨١ وعامى ١٧٨٤ م - ١٧٨٥ م حتى تغلب عليهم وقضى على مقاومتهم وتمردهم مما أتاح له الفرصة بعد ذلك من تعيين « المسلمين » لجباية الضرائب .

بقيت هناك جبهة غير نظامية تهدد الجزار من البدو الممتدة مضاربيها الى الشرق من المدن الساحلية والوسطى من أقصى شمال القدس حتى جنوب غزة ، القبائل مارست التمرد في فترات التحلل السياسى والعسكرى المصحوبة غالباً بالتدهور الاقتصادى وانتشار المجاعة ولم يفلح فى اخماد تمردهم الا ان مقاومتهم كانت عنيفة مما اضطر الكثير من القبائل للرحيل شرقا نحو الأردن. (٦٧) .

فى هذه الأثناء لم يبد الجزار اهتماما بالتجارة الخارجية مع الدول الأوروبية كما فعل سلفه لتدهور الحالة الزراعية فتحملت طبقتات الشعب من مزارعين وحرفيين أعباء هذه الحروب . وانفرد حكام الولايات بسلطتهم شبه المطلقة على الشعب فانتشرت الرشوة فى وقت أصبحت معه مكانة وسلطة أصحاب الوظائف المدنية خاصة « النقيب » وهى تفوق سلطة العسكريين فشددوا بقبضتهم على

Amnon, Palestine in 18 century, Ibid, p, 101.

(٦٦)

Amnon, Palestine in 18 Century; Ibid, p. 94-110.

(٦٧)

مقدرات الشعب ليشبعوا منافعهم الشخصية وبلغت بهم القوة والسطوة قدرا جعل السلطة العثمانية المركزية تستجبر بهم فما هي ترسل «للقبيب» عبد الله نقيب القدس وتوابعها الممتدة في غزة في عام ١٧٧٦ م تطلب منه جمع الضرائب من السكان غير المسلمين في منطقته . واستمر هذا الحال حتى سنة ١٧٩٨ م عندما أرسلت لنقيب القدس أيضا مساعدة الحاكم التركي في جباية الضرائب من قبيلة « بنى حسن » شرقي القدس والتي نكثت بوعدها عن تقديم الضرائب (٦٨) .

ولم يكن الحال بأسعد حظا في غزة التي بقيت طيلة هذه الفترة تحت السلطة العثمانية التي يهددها الجزار من الشمال والتي كانت تطارد جنوده القبائل البدوية حتى جنوب الرملة كما كانت حركات التمرد واضحة ضد العثمانيين في قلعة خان يونس حتى عام ١٧٩٨ .

لقد وضع الجزار البلاد في حالة من الاضطراب الدائم لم يتمكن خلالها من السيطرة الفعلية على السكان فقد بلغت على سبيل المثال - مجموع الضرائب المتحصلة من « ضريبة القطن » في عهده ٣٥٠٠ آقجة في حين نفس الضريبة بلغت قبل ذلك من يافا وغزة ألف آقجة (٦٩) اذ توحى هذه الأرقام بضالة المساحة المنزرعة وتدهور الوضع الاقتصادي الناجم عن هجرة السكان الزراعيين عن قراهم والتوجه شرقا نحو المناطق الجبلية مما سبب ضمور الخريطة العمرانية لمواطن الاستقرار البشري على الساحة الفلسطينية كما أفادت السلطة العثمانية بعدم القضاء على أحمد باشا الجزار في فرمانها الصادر سنة ١٨٠٤ ضده فقد جاء فيه :

« فالديرة بما أنها بوقت موت الجزار كانت على حال التلف الكلي من الظلم والجور الذي أحاق بها مدة ولايته بنهبه أموالها وأرزاقها وضبطه أملاكها وقتل وجوهها وغالب أهاليها حتى صارت يرثى لها ، فالذين من أهلها وجوهها قتلوا انضبطت مالهم ورزاقهم والذين بقوا أحياء فغال بهم من الجور منهوبة أموالهم ومضبوطة أرزاقهم والذين أمكنهم الهرب هربوا لديره الشام وتوطنوا في جبل نابلس والقدس وعجلون والقنطرة والكبرك . . وغيرها من تلك النواحي وما بقي غير الفقير العاجز من المائة عشرة » .

وقد أضاف قنصل فرنسا في صيدا يقول « ان مساحة الأرض الزراعية

(٦٨) د بطرس أبو منه - أضواء جديدة على علو شأن العائلة الحسينية في القدس في القرن الثامن عشر مجلة الشرق - العدد الثالث - السنة التاسعة - تموز - أيلول ١٩٧٩ - حيفا - ص ١٨ - ١٩ .

Amnon, Palestine in 18 century p. Ibid, p. 264.

في فلسطين قد تناقشت الى « الربع في عهد الجزائر » (٧٠) .

هذا التوجه السكاني شرقا وترك الفلاحين لمزارعهم نتيجة الحروب المستمرة في الجليل والساحل الشمالى أدى الى هجر بعض القرى ففي منطقة صفد - الرامة تناقصت القرى من ٣٥ قرية في القرن السادس عشر الى ١٥ قرية في نهاية القرن الثامن عشر في حين وصل عدد القرى في منطقة حيفا وعكا وحتى الناصرة الى ١٩ قرية في نهاية القرن الثامن عشر بعد أن كان عددها ٦٠ قرية في القرن السادس عشر (٧١) .

فان كان هذا هو حال البنية الاقتصادية المتدهورة والاجتماعية والعمرانية المخلخلة التي خلفها الجزائر في الشمال الفلسطيني على وجه الخصوص هي على هذا النوال في الجنوب الفلسطيني خاصة في منطقة غزة التي كانت حقا تمور بالتمردات والقتال ولكن بشكل لا يماثل ما كان في الشمال على الرغم من تحفظنا للأرقام الصادرة عن الدولة العثمانية والقناصل الأجانب فنسبة الـ ١٠٪ المتبقية في مدن الشمال كما جاء في القربان العثماني ومساحة الأرض التي تناقصت للربع هي أرقام تعوزها الدقة فالقناصل تدفقوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادين للبلاد وأصبحوا رسلا يبعثون بتقاريرهم الشاملة لجوانب الحياة المختلفة في البلاد متأثرة بالأطماع السياسية والاستغلال الاقتصادي تماما كما كانت تصور الأوضاع السلطة العثمانية عند نهاية كل ناثر أو متمرّد يبغى الاستقلال عنها . حتى الرحالة فولني ، وملاحظاته في مصر وبلاد الشام والتي سبق لنا أن استشهدنا ببعض منها هي في الحقيقة مشار للريية والشك لو علمنا أن نابليون بونابرت تأثر بأقواله عندما حثه ضمن تقرير يدعو فيه لغزو مصر تلك الشجرة الناضجة التي ستسقط مع أول هزة لها . حيث بقيت هذه العبارة تدور في خلد نابليون . ومن هنا جاء وصف المؤرخين له بأنه « غاز » بعقل عالم وروح جاسوس (٧٢) .

فاذا قيل عن الجزائر بأنه أوهن البنية الاقتصادية للبلاد زراعيًا وحرفيًا وتجاريًا ، فانه وبحق حقق انجازا عسكريا لم يضاهه فيه أحد منذ طرد الصليبيين في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي . وذلك بتدميره أعنى قوة أوربية ضاربة هي الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت الذي حاول جاهدا بعد الاستيلاء على مصر في سنة ١٧٩٨م مباشرة وفي نفس العام للتوجه شمالا نحو فلسطين مستهدلا ذلك بمقدمات دبلوماسية حاول عن طريقها التفاوض مع أحمد باشا الجزائر لاستمالاته .

Amnon, Palestine in 18 century, Ibid, p. 327-328. (٧٠)

Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, p. 126. (٧١)

(٧٢) د. محمد متولى مقال بعنوان « الجذور التاريخية للثقافة الفرنسية في مصر » - مجلة

الهلل - عدد مايو سنة ١٩٨٥ ص ٥٨ .

ففى يوم ٢٧/٨/١٧٩٨م رد أحمد باشا الجزائر لنابليون بونابرت هديته رافضا حتى مقابلة حاملها (٧٣) .

وفى ٣/١١/١٧٩٨م أرسل أحمد باشا الجزائر أحد الهجانة ومعه فرمان عليه طرة متضمنة « براعة الاستهلال والآيات القرآنية والاحاديث الشريفة أو الآثار المتعينة بالجهاد ولعن طائفة الافرنج والخط عليهم وذكر عقيدتهم الفاسدة وكذبهم وتحيلهم » (٧٤) .

ليؤكد بذلك رفض الاحتلال الفرنسى ومقاومته له وليس كما ادعى بونابرت بأنه ذاهب للشام بسبب هجوم الجزائر لقلعة العريش الذى لم يصلها الا بعد ان سد الجزائر فى وجه نابليون كل سبل التفاوض والحداد .

عندما اندفع نابليون بجنوده عبر سيناء فاستولى على العريش حتى وصل خان يونس فى فبراير ١٧٩٩م ودخل مدينة غزة فى ٢٥/٢/١٧٩٩م الموافق لأواخر أيام شهر رمضان المبارك فلم تكن هناك مقاومة عنيفة على الرغم من امهادات متسلم يافا « محمد أغا الأمين العزوني » لغزة بقوة عسكرية بقيادة ولده محمود الذى قتل (٧٥) .

وعند دخول الجيوش الفرنسية مدينة غزة قاموا بتوزيع المنشور التالى : -

[من طرف بونابرتة أمير الجيوش الفرنسية الى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى ونواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله أجمعين ، بعد السلام - نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المالك وعسكر الجزائر عنكم ، ولأى سبب حضور عسكر الجزائر وتعبه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه ، ولأى سبب أيضا أرسل عساكره الى قلعة العريش بذلك حجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده اجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه .

فاذا أنتم يا أهالى الأطراف المشار اليها : فلم نقصد لكم أذى ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين مرتاحين ، وأخبروا من كان خارجا من محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ، ومن قبلنا عليكم ثم

(٧٣) المختار من تاريخ الجبرتي - اختيار محمد قنديل البقلى - الجزء الثالث - القاهرة - مطابع الشعب ١٩٥٩ ص

(٧٤) المختار من تاريخ الجبرتي - الجزء الثالث - المرجع السابق ص

(٧٥) احسان النمر - تاريخ جبل نابلس والبلقاء - الجزء الثانى - نابلس - ١٩٦١ ص ٥٥٦ .

عليهم الأمان الكافى والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم فى حالكم وما نملكه
يدكم .

وقصدنا ان القضاة يلزمون خدمتهم ووظائفهم على ما كانوا عليه ، وعلى
الخصوص أن دين الاسلام لم يزل معتزاً ومعتبراً ، والجوامع عامرة بالصلاة
وزيارة المؤمنين ، ان كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء .

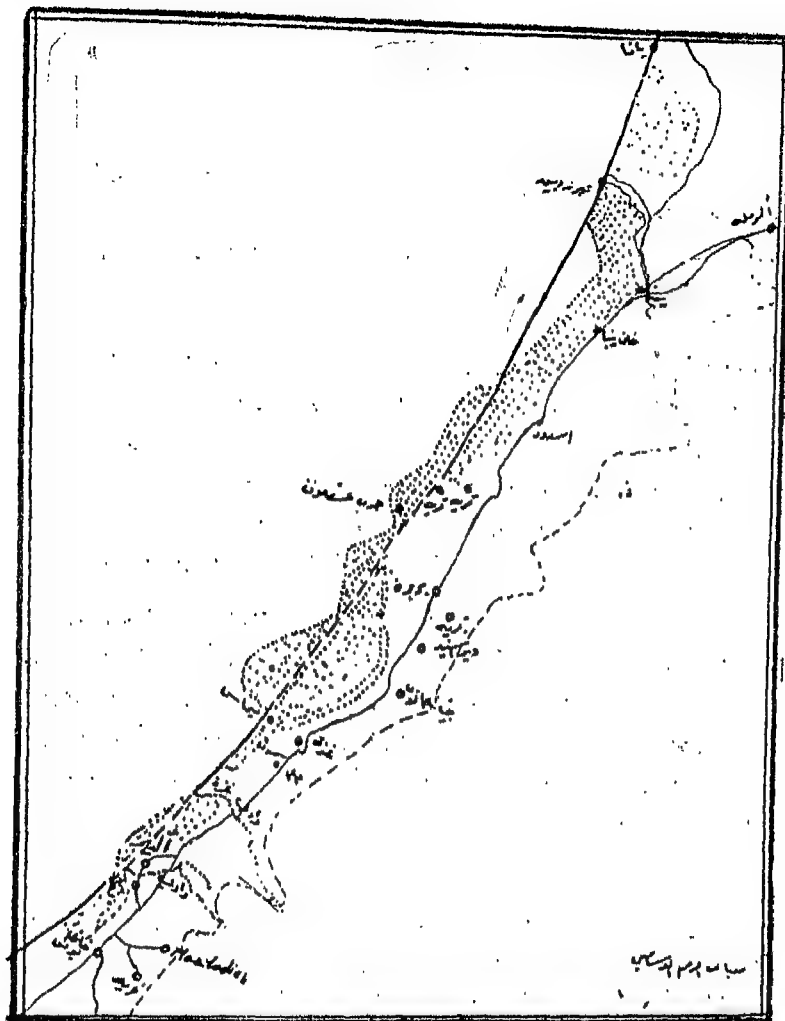
ولا يخشى أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا يغدو باطلا ولا نفع لهم به
لأن كل ما نفع يدنا لا بد من اتسامه بالخير والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح
والذى يتظاهر بالعدو يهلك ومن كل ما حصر تفهمون جيداً أننا نجمع اعداءنا
ونعصده من يحبنا وعلى الخصوص من كوننا متصفين بالرحمة والشفقة على
الفقراء والمساكين [(٧٦)] .

نلاحظ من سطور المنشور المبررات الواهية لأسباب حملة نابليون على
بلاد الشام وهى تعدى الجزائر على غزة وقلعة العريش ويدحض ذلك مراسلات
نابليون مع الجزائر الفاشلة قبل ذلك . كذلك تفادى بونا برت فى منشوره
ذكر السلطة العثمانية خوفاً من نقمة المسلمين ضده فى الوقت الذى يضم فيه
سوء النية والقضاء على الأمة الاسلامية وقد عبر عن نيته تلك عند تجديده
لزميله الجنرال بورين وهم قبالة اسوار عكا قائلاً : -

[« بورين »] اذا نجحت فى فتح هذه المدينة عكا كما اعتقد أننى سأنجح
- فأننى سأجد فيها كنوز الجزائر وأجده أسلحة تكفى لثلاثمائة ألف جندى
عندئذ أهيج أهالى سوريا الذين يبغضون الجزائر لظلمه و ٠٠٠٠ ثم أسلح منهم
جيشاً عرمرماً وأقصد دمشق وحلب فينضم الى القوم كمخلص لهم من المظالم
ثم اسير بجيوش لفتح الآستانة وأنشئ فى الشرق امبراطورية عظيمة
الشأن » [(٧٧)] تلك هى نيات بونا برت العدوانية التى دفينها الجزائر تحت
اسوار عكا .

وقد غنم الفرنسيون عند دخولهم غزة من مخازنها ما يوضح دورها
كمحطة امداد وتموين للجيوش وكحجر قفز وتأهب عبر الصحراء جنوباً فقد
استولوا على [حواصل مشحونة بالنخائر من بقسماط وشعير وأربعمائة قنطار
بارود واثنى عشر مدفعاً وحاصلاً كبيراً مملوء بالخيام الكثيرة] (٧٨) .
ثم صوز لنا الجبرتى جانباً من الحياة الاجتماعية فى قلب المدينة فى
شهر رمضان قائلاً : -

- (٧٦) المختار من تاريخ الجبرتى - الجزء الثالث - المرجع السابق ص ٢٩٨ .
(٧٧) أحمد حافظ عودة - فتح مصر الحديث - القاهرة ١٩٢٦ ص ٢٩٠ .
(٧٨) المختار من تاريخ الجبرتى - المرجع السابق ص ٢٩٩ .



خريطة (٢٧) « جاكوتين » للحملة الفرنسية للساحل الجنوبي الفلسطيني

كشبان رملية

خط سير الحملة

مدن و قری

حدود المناطق المسوحة

[« يسهر الناس فى القهاوى وزيارة الأصدقاء والسير بالليل بالفوانيس
.. والتسلى بالرواية والنقل .. وكان القادة الفرنسيون يدعون أعيان المدينة
للإفطار على موائدهم »] (٧٩) .

وهذا لا يمنع من وضوح الوجه الآخر للغزاة إذا ما أدبروا مهزومين وبعد
أن تكبدوا خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد فى مدينة يافا ثم عكا التى أجهزت
عليهم قوات أحمد باشا الجزار فارتدوا خائبين متذرعين بأكثر من ثلاثين سببا
لعودتهم مهزومين .

فقاموا بحرق جميع المدن الساحلية من يافا فى غزاة كرد فعل لانتقام
الضعفاء الذين أصابهم الطاعون وموت كبير المهندسين « كفرلى » المتخصص فى
عمل المئارس أمام عكا (٨٠) . مما جعلهم يضربون ويحرقون بقسوة وعنف
لعدم احتمالهم أية مقاومة .

وما أن وصلوا غزة حتى دمروا ما تبقى من سورها كما هدموا جامع
البيمارستان الجاولى ومدرسة قايتباى والمدرسة الكمالية وجامع القلعة وزاوية
الشيخ محمد شمس الدين أبى العزم محدثين بذلك الخراب والدمار فى وسط
المدينة . ويقال أن نابليون بونابرت قد أقام فى القلعة « الدبوى » فى حين أقام
جنوده فوق تلة المنطار [جبل شمشون كما جاء فى خريطة جاكوتين وبينما كانت
القوات الفرنسية منسحبة جنوبا باتجاه خان يونس تطاردها قوات الجيش
العثمانى . تعرضت لها قبائل « الترابين » لتنقض على القوافل المحملة
بالمؤن (٨١) . فحول خان يونس وفى جنوبها كانت تقطن عرب التياها والترابين
وعرب بن البرائق بلغ عدد فرسانها وفقا لما جاء فى « كتاب وصف مصر » ما بين
٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ فارس كما لم تستطع أن تقدر الحملة الفرنسية عدد فرسان
عرب الحناجرة فى حين قدرت عدد فرسان عرب الترابين القاطنين حول مدينة
غزة فى منطقة « دير اللاتين » بنحو خمسمائة فارس (٨٢) .

أما عرب الوحيدات فامتدت مضاربها جنوب خط عرض ٣١ درجة بين
البحر المتوسط والبحر الميت لتشمل شمال النقب وشرق غزة حتى العريش
وعدد فرسانها وفق تقديرات علماء الحملة الفرنسية ثلاثة آلاف فارس (٨٣) .

(٧٩) المختار من تاريخ الجبرتى - المرجع السابق ص ٣٠٠

(٨٠) المختار من تاريخ الجبرتى - المرجع السابق ص ٣٣٤

Amnon, Palestine in 18 century, Ibid, p. 108

(٨١)

(٨٢) وصف مصر - مجموعة من علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - المجلد

الثانى - القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٨٣) وصف مصر - المجلد الثانى - المرجع السابق ص ٢٦ - ٢٧ .

وقد شملت دراسة الحملة الفرنسية جميع القبائل العربية الفلسطينية من خان يونس حتى أقصى الشمال حيث قدرت أيضا عدد سكان فلسطين بنحو ٤٠٠ ألف (نسمة يعيش ٢٠٪ منهم في المدن) .

كما أفادت الحملة الفرنسية بأن مدن فلسطين ، وهي غزة ويافا وعكا ، ونابلس والقدس كانت تصدر الصابون وزيت الزيتون والقطن والوبر وبذور النيلة والسمن والأقمشة القطنية وكمية قليلة من الشمع تشحن جميعها من ميناء يافا وعكا الى ميناء دمياط عبر البحر المتوسط في حين يصدر جزء منها عبر الطريق البري تحملها القوافل التي تقودها القبائل البدوية وقد بلغت كمية ما صدر عن الطريق البري هذا نحو ألف الى ألفي صندوق من الصابون [زنة كل واحد منها من ٧٠٠ - ٨٠٠ رطل ووزنة الرطل ١٤٤ درهم] (٨٤) .

ولعل هذه التقديرات لعدد فرسان القبائل البدوية ومعها عدد سكان فلسطين ووصف الحركة التجارية كما وكيفا في عام ١٧٩٩ ما يناقض . ولو يقدر ما - تقديرات فولني والقناصل والسلطنة العثمانية لهذه الفترة . حيث يصل معدل سكان كل مدينة الى ١٦ ألفا كما أنها تؤكد بأن القبائل العربية البدوية اذا ما وجدت الأرض زرعها ، واذا أتتحت لها الفرصة للتجارة قادتها ، أما اذا زاد التعسف والجور من قبل الولاة صدته .

كما قامت الحملة الفرنسية برسم خريطة للساحل الفلسطيني أشرف عليها « الكولونيل جاكوتين » عليها جميع المدن والقرى التي مرت بها . وتعتبر هذه الخريطة أول خريطة لفلسطين بالمعنى الكارتوجرافى الحديث حيث تميزت بدقتها بدرجة لا تختلف كثيرا عن الخرائط الحديثة .

ومن دراستها يتضح عدم وجود « رفح » وإن « خان يونس » هي بداية قرية بنى سهيل وقرية الدير « دير البلح » ووادي غزة ثم مدينة غزة وميموما . ومن القرى الشمالية لم تظهر على الخريطة سوى قرية « بيت حانون » (٨٥) . [أنظر الخريطة ٢٧] .

ومما هو جدير بالتنويه ظهور قرية صغيرة على وادي السلخا تدعى « أبو حليب » نسبة الى قبيلة عائلة تنتمى لهذه القبيلة .

(٨٤) وصف مصر - علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - المجلد الرابع - الجزء الأول - القاهرة ١٩٧٨ ص ١٦ .

(٨٥) I.E.J., 1960, An Analysis of Jacotin's Map of Palestine, pp. 172-173.

(*) ما تزال هذه القبيلة تقطن المنطقة الواقعة الى الشرق من دير البلح وشمال خان يونس .
(**) هذا على اعتبار أن عدد سكان فلسطين ٤٠٠ ألف نسمة يقطن ٢٠٪ منهم مدن فلسطين الخمس الرئيسية وهي غزة ويافا - عكا - القدس - نابلس أى بما مجموعه ٨٠ ألف نسمة فيكون عدد سكان كل مدينة ما يقارب ١٦ ألف نسمة وفق تقديرات الحملة الفرنسية .

ذهبت الحملة الفرنسية عائدة لمصر ومعها عدد من أبناء المدن الفلسطينية ليزجوا بهم في سجن القلعة بمصر بحجة تبديد ما عليهم من ضرائب !! على الرغم من عدم تواجد الفرنسيين لأكثر من سبعة شهور في فلسطين ولم تفرج عنهم الا في نهاية شهر أغسطس من سنة ١٧٩٩م .

كما أعدموا أربعة شباب من أبناء غزة المقيمين بالأزهر الشريف للتعليم بتهمة أيواء ومعرفة « سليمان الحلبي » قاتل كليبر (٨٦) .

أقد تركت الحملة لفرنسية بضائع عميقة - رغما عن قصر فترة احتلالها للساحل الفلسطيني - فقد أعاد نابليون انتباه معظم القوى الأوروبية الى الشرق الأوسط عامة وإلى فلسطين بوجه خاص سياسته فسادت أوروبا في تكثيف إرسالياتها التبشيرية للبلاد ودعم قناصلها وزيادتهم تمسكا بالتجارة ، وإيفاد البعثات العلمية المتزايدة لتفسير غور امكانات البلاد الجغرافية والديمقراطية وبحجة البحث والاستطلاع أيضا ، ولكن جميعها سخرت كما سنرى وسيلة للغزو العسكري في الشرق الأوسط قاطبة .

وعاد العثمانيون مع نهاية آخر أيام سنة ١٧٩٩م وليبدأ القرن التاسع عشر بحكم البلاد كالعادة بعد انقضاء ثلاثة قرون تقريبا على السيطرة العثمانية التي بدأت تهتز مع حركتى ظاهر العمر وأحمد باشا الجزائر على مدى أكثر من نصف القرن الأخير .

ويبدو أن كلتا الحركتين لم يكن في خلد قائديهما تكوين كيان سياسى مستقل أو دولة ذات سيادة منفصلة تماما عن السلطة العثمانية وإن طموحهما لم يتعد أكثر من الانفراد بنوع من الحكم الذاتى فى إطار الدولة العثمانية .

ولعل « النقود » من المعايير الاقتصادية الهامة ذات الدلالة السياسية على ذلك فعندما قام على بك الكبير بثورته فى مصر ضد السلطة العثمانية قام بضرب نقود تحمل اسمه أطلق عليها « عشرينية » (٨٧) . الا أنه كتب على وجهها الآخر اسم السلطان العثماني « مصطفى الثالث » ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) . مما يؤكد اعتراف على بك الكبير بشرعية السلطة العثمانية . وعندما ارتد عنه قائده « أبو الذهب » أمر بإبطالها [فخسر الناس خسارة عظيمة وباعوها بالأرطال للسبك] فهبطت قيمتها للضعف وبدأ تهريبها للمدن الفلسطينية وللمدينة عكا

(٨٦) المختار من تاريخ الجبرثى - المراجع السابق - ص ٣٠٠ . وهم عبد الله الغزى ومحمد الغزى وأحمد الوال وعبد القادر الغزى .

(٨٧) وصف مصر - علماء الحملة الفرنسية - ترجمة الزهير الشايب - المجلد السادس - القاهرة ١٩٨٠ ص ١٢٠ . كذلك النقود العربية ماضيها وحاضرها - د. عبد الرحمن فهمي - محمد - القاهرة ١٩٦٤ ص ١٢١ .

على وجه الخصوص عاصمة الشيخ ظاهر حليفه (٨٨) .

أما الشيخ ظاهر العمر وأحمد باشا الجزائر فلم يقوموا بضرب نقود لهما على الرغم من سيطرتهم على البلاد لأكثر من ستين عاماً بقليل بحكم كل واحد منهما نصف هذه المدة تقريباً .

في حين أعاد تابليون بونابرت تشغيل « الضريبة » بالقلعة في يونيو ١٧٩٨ م وسك نقوداً قال عنها « صموئيل برنارد » بأنها كانت مقبولة في السوق التجارية وتخلوا عنها في يولية ١٨٠١ م (٨٩) ولم يكن لهذه النقود بطبيعة الحال تداول في فلسطين لقصر مدة السيطرة الفرنسية عليها .

وما دمنا بصدد ذكر « النقود » وانعكاساتها الاقتصادية الهامة على حالة البلاد فلنا أن نذكر بأنه لم يأت العثمانيون بأية إصلاحات للأنظمة النقدية طيلة الثلاثة قرون المنصرمة بل تعرضت قيمتها لعديد من الهزات المتتالية وصلت لحوالي ٢٤ تعديلاً مختلفاً لسعر المبادلة مما حدد معه قيمة العملة النحاسية والفضية والذهبية ولم يكن ذلك ناجم عن دراسة اقتصادية واعية من السلطة العثمانية بل هي أحداث افتعلتها لتجني من ورائها الخزينة العثمانية قيمة النقود الاسمية وقيمتها الحقيقية . فقد قامت الدولة العثمانية مرات عديدة بتخفيض قيمة عملتها المتداولة مما أثقل كاهل المواطن بالضرائب وزادتهم الحروب استنزافاً خاصة إذا ما عجزت الامبراطورية عن الوفاء بتغطية التزامات الحروب ، عندها يلجأ السلطان لتوزيع « النقود النحاسية » على الشعب بالقوة واستبدالها منهم « بنقود ذهبية » ، لذا كثيراً ما احتج الشعب بالاضراب عنها فقال ابن اياس واصفاً هذه النقود [« انها في غاية الخفة » ، فوُخِفَ حال الناس بسبب ذلك وحصل لهم الضرر الشامل وأغلقت الدكاكين »] (٩٠) .

(٨٨) د. عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ - المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٨٩) وصف مصر - المجلد السادس - المرجع السابق ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٩٠) د. عبد الرحمن فتنى محمد - النقود العربية فاضليها وحاضرتها - المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١ .

الفصل السادس عشر

غزة وقطاعها

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

- تمرد أهالى غزة بقيادة مصطفى الكاشف ضد العثمانيين
- حملة ابراهيم باشا وتغير المفاهيم الادارية والاقتصادية
- عائلات مصرية تستوطن فى غزة
- اصدار المنشورات والتنظيمات الادارية والاجتماعية العثمانية

ان القاء نظرة دقيقة داخل مدينة غزة للتعرف على تركيبها الوظيفي وبنيتها الديمغرافية يساعدنا على تقييم مكانتها وهي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، ذلك القرن المتميز بأحداث محورية هامة اكتنفته طفرات صناعية عالمية واكتشافات علمية ودراسات اركيولوجية ووقائع وأحداث تاريخية رافقتها تدخلات أوربية تبشيرية واستعمارية غيرت من مجريات الأحداث وخلقت معه مجتمعا له مميزات وملامح اقتصادية وسياسية مغايرة لما سبقه من قرون خلت ، كان من أهمها ظهور الحركة الصهيونية بما أحدثته من تغيرات كما سنرى .

فمدينة غزة بلا شك قد أصابها نوع من الضمور الوظيفي كمحطة على الطريق والتذبذبات الديمغرافية فمع بداية القرن التاسع عشر أصبح بها أربعة آلاف منزل وحوالي خمسمائة دكان .

وصناعيا وصل عدد أنسوال النسيج الى أربعين نولا . بالاضافة الى مصنعين للصابون وست معاصر لزيت الزيتون (بدود) ودكان للدباغة وستة مقاه يتوسطها جميعا « خان الزيت » وفي قعبة السوق لايواء المسافرين ومسلخ واحد (٩١) .

ومع ما للتعليق على الأرقام من حساسية في هذه الفترة التي يعوزها الاحصاء الدقيق الا أننا نبقي منجذبين لها ومضطربين للأخذ بها - لما تلقى لنا من أضواء تتلمس من خلالها مدى نماء المدينة ولكن بشيء من التحفظ .

ففي المجال الديمغرافي ندرك أن هناك فارقا بينا بين عدد المنازل قبل قرن ونصف من الزمان تقريبا « ١٦٤٩ م » وعما هو عليه الآن حيث وصل عدد المنازل الى أربعة آلاف منزل مقابل ١٣٠٠ منزل أيام جلبي (١٦٤٩ م) وهذه الزيادة تقدر بأقل قليلا من أربعة أمثال ما كانت عليه من الصعب أن نصفها بأنها كبيرة أو ضئيلة اذا ما أخذنا في الحسبان ما انتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين من الفوضى الادارية وكثرة الحروب الخارجية بين الدولة العثمانية والدول الأوربية مع ما يلازمهما من ضغوط داخلية على السكان . والانتفاضات الداخلية التي استمرت لأكثر من نصف قرن مع ما رافقها ونجم عنها من اضطراب داخلي .

(٩١) عارف العارف - تاريخ غزة - القدس ١٩٤٣ من ١٨٨ .

وبطبيعة الحال لابد من ازدياد عدد السكان الذى تراوح ما بين ١٢ ألف الى ١٦ ألف نسمة مع بداية هذا القرن لاستتباب الأمن الى حد كبير وعودة معظم السكان من القرى والمناطق الجبلية الشرقية الى المدن فالهجرة الداخلية تتلازم تلازما طرديا مع فقدان الأمن والحروب وأحيانا هروبا من دفع الضرائب المجحفة واتقاء من شر فرسان السلطة وابتزاز الولاة للمواطنين كما أشار كثير من الرحالة وكما ورد فى منشور نابليون بونابرت اذا ما قارناه بعدد السكان أيام فولنى سنة ١٧٨٤ حيث لم يتجاوز ألفى نسمة .

الا أنه لم يصاحب ازدياد السكان هذا ازديادا متماثلا أو متناسبا مع عدد المرافق الاقتصادية من « دكاكين » فبعد ان كانت ٦٠٠ دكان سنة ١٦٤٩م انخفض عددها الى خمسمائة مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى ليظهر عدم القدرة الشرائية لدى المواطن ، وعدم استقرار السوق الاقتصادية ، واضطراب حالة النقد وتدهور قيمتها كما أسلفنا بالاضافة لصعوبة الاتصال ، وانحياز عنصر الأمن طيلة النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى وكذلك قلت معه عدد مصانع الصابون فوصلت الى مصنعين بعد أن كانت ثلاثة مصانع سنة ١٧٨٤ م حيث كانت تصدر الصابون لمصر كما هبطت صناعة المنسوجات فى نفس الفترة من خمسمائة نول سنة ١٧٨٤ م الى أربعين نول فقط !!

فان صبح هذا الرقم فان السنوات الأخيرة من حكم أحمد باشا الجزائر وتحدى السلطة العثمانية له وهى على أرض غزة ثم استيلائه عليها لمجابهة الحملة الفرنسية ثم استيلاء الفرنسيين على المدينة وما أصابها من تدمير من جرائها وسيطرتها على الطريق الساحلى الهام .

أدت هذه الظروف جميعا الى نقل طريق التجارة التى تتوسطه غزة الى الشرق عبر الطريق الجبلى الممتد من السويس الى القصيمه فبشر السبع فالحليل الى منطقة اللسان بالبحر الميت ومنه الى الأردن (٩٢) فأصاب هذا التحول مدينة غزة بالذبول الاقتصادى وضعف الحركة التجارية طيلة هذه الفترة .

ولم تنعدم الجوانب الترفيهية بالمدينة ففيها « ست مقاه » حيث يتجمع بعض الناس لقضاء أوقات فراغهم ويستمعون أحيانا الى قصص البطولات والنقول من الراوى كما أوضح الجبرتى بالاضافة لوجود « خماره » واحدة .

تلك هى مقومات المدينة الاقتصادية والديمغرافية مع بداية القرن التاسع عشر حيث غادرها نابليون بونابرت مدحورا لمصر وجاءت من بعده القوات العثمانية فتولى أمر غزة وقراها رجل تميز بالقوة والجبروت وهو

C. Klien, on the fluctuation of the level of the Dead Sea the (٩٢) beginning 19 century, Hydrological Paper, No. 7, Jerusalem, 1965.

« محمد أغا أبو نبوت » فعين متسلما لغزة ويافا سنة ١٨٠٧ م فكان أهلا لفترة تميزت بعدم السيطرة على الأمن .

فعمل على كبح جماح عرب « الهنادى » المتسلطين على غزة وتجارها كما قضى على الفتنة بين قبائل قيس وعين فى المناطق الجبلية بالقدس التى كثيرا ما كانت تقطع سبل التجارة والاتصال بين المدن (٩٣) .

وهكذا أصبحت مدينة غزة فى تدرج السلم الادارى « متسلمية » أى مركزا لنائب المتصرف بعد أن كانت تدار مباشرة من قبل المتصرف التركى فى القدس .

وقد استمر « محمد أغا أبو نبوت » متسلما على غزة فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٨٠٧ حتى سنة ١٨١٨ م غادرها بعد ذلك لمصر وبصحبه أموال طائلة استنزفها من الضرائب والاعشار المتحصلة من المدن والقرى الجنوبية لفلسطين .

وبعد عام سنة ١٨١٨ م تولى متسلمية غزة « مصطفى أغا الوكيل » فشجع هذا الرجل الزراعة فى المناطق الشرقية لمدينة غزة فأقام المخافر أولا لدره الخطر عنها مشجعا بعد ذلك أبناء غزة خاصة من احيائها الشرقية (الشجاعية) للتوجه نحو قرى « هوج » والكوتى والمحرقه فاقطعهم بعضا من اراضيها لزراعتها وتعميرها (٩٤) .

وبعد عام ١٨٢٠ م تقريبا أصبحت متسلمية غزة تحت امرة « حسين أغا » وشملت الرملة حتى مدينة يافا وتم ذلك عن طريق عبد الله باشا والى (عكا وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزة ويافا ونابلس والقدس) . ثم تولى من بعده مجموعة من « المتسلمين » فى مدة لا تتعدى ست سنوات وحتى الحملة المصرية على الشام وهم (عيسى أغا المشعلجى سنة ١٨٢١ ثم سليمان أغا سنة ١٨٢٦ م وصالح أغا البشناق سنة ١٨٢٧ م ثم محمد أغا بن سليمان زينه الغزى وأخيرا ابراهيم أغا بازه الذى كان حاكما عند دخول الجيوش المصرية الشام فى أكتوبر سنة ١٨٣١ م) .

فان دل هذا فانما يدل على عدم استقرار الأمن فالعثمانيون لم تعد لهم الثقة التامة بالمتسلمين نتيجة عدم استقرارهم واطمئنانهم لهم كما أنهم - أى السلطة العثمانية - فقدوا عنصر التركيز وضبط الأمن أمام تعديات القبائل البدوية لاختلال الأوضاع الاقتصادية مما دفعهم لتغيير المتسلمين بشكل سريع

P.E.F., 1908 pp, 37-40.

(٩٣)

(٩٤) مصطفى الدباغ - بلادنا فلسطين - الجزء الاول - القسم الثانى - بيروت ١٩٦٦

ص ٩٥ - ٩٦ .

جريا وسعيا بشتى السبل لاعادة الاستقرار فلا غرابة أن يعبر قضاة غزة عن تدميرهم للأوضاع كما جاء على لسان أحدهم قائلا :

[ان « المسلمون » لم يفعلوا شيئا لاييقاف تعديات البدو بعد أن كان « أبو نبوت » قد أخلدهم للسكينة] ويستطرد القاضي الغزى قائلا أما اليوم (فأكثر من ستة آلاف بدوى يسرحون ويمرحون دون أن يجرد عليهم عبد الله باشا جنوده) . كما قدر هذا القاضي ما يصيب أهالي غزة من السلب بأكثر من « عشرة آلاف كيس سنويا » مؤكدا أن الحكام والولاة لا يهتمون سوى سلمية ونهب أموال الناس دون كلل ، مشبها إياهم « كرمال الصحراء التي لا تروى » والمطرقة الثقيلة على رؤوس الغزيين (٩٥) .

وقد ظلت هذه المطرقة ثقيلة بطرقاتها ليس فقط على رؤوس الغزيين بل وعلى معظم رؤوس أبناء المدن الفلسطينية في ظل حكم « عبد الله باشا » الوالي التركي .

فشارت ضده جميع المدن الفلسطينية ومنها نابلس فجرد لهم جيشا تؤازره قوات من بشير الشهابي أمير جبل لبنان استمرت تضرب بأهل هذه المدينة لبضعة شهور (٩٦) . مما دفع قاضي غزة للقول (« كان على عبد الله باشا يرسل جنوده لمقاومة اللصوص الذين يسلبون غزة بدلا من مقاتلة أبناء نابلس ») . واستمرت الثورة تستعر في معظم المدن الفلسطينية متحدية عبد الله باشا .

وقد عبر عنها أبناء مدينة غزة بطردهم « وكيل الجبارك » الذي بعثه الوالي عبد الله باشا فاتحدوا جميعا تحت قيادة « مصطفى الكاشف » الغزى الذي نجح في استقطاب عرب التياها والترابين معه ينتظرون رد فعل الوالي الذي أرسل لهم كتابا يهددهم « صادر من ديوان دار الجهاد محروسه عكا المحمية » جاء فيه : -

(طرق مسامعنا أن بهذا الاثناء تظاهرت بالعصيان لطرفنا وقد صار بينكم وبين عرب التياها والترابين اتفاق وبذلك الوقت كان متسلمنا في لواء غزة والرملة ويافا - حسين أغا - زيد مجده قد أرسل لطرفكم وكيلا من طرفه على الجمر ك فطردتموه وسحبتم أعناقكم من قلادة الطاعة وقد استغربنا هذه الحال) .

هذه الفقرة من الرسالة تكشف جانبا اجتماعيا وحيويا للوحدة الوطنية بين

(٩٥) سليمان أبو عز الدين - ابراهيم باشا في سوريا - بيروت ١٩٢٩ ص ٦٩ - ٧٠ .
(٩٦) عبد المنصف محمود باشا - ابراهيم الفاتح - القاهرة - ١٩٤٨ ص ١٥٦ .

أبناء الشعب الواحد في مدنه وقراه وبواديها إذا ما اشتد الخطب ، وليؤكد بأن البدو من الأهل لم يكونوا ليقطعوا الطرق أو يعتدوا على المدن إلا في وقت تعزفيه الأقوات وتقسموا السلطة على السكان بجمع الضرائب . .

فقد جاء في سطور الرسالة أيضا (كان آيالة غزة ديانا والرملة وتلك النواحي مالكانه لنا ببراءة مخلدة بيدنا بمدة حياتنا ، وأن أموال الميريه المرتبة من قديم الأيام وسالف العصر والأوان ، وبورود جناب شيخنا الشيخ محمد أفندي سكيك لطرفنا سمحنا منها بمقدار وافر مرحمة للفقراء وتلطفا للرعايا .)

إذا لم يكن هذا التذمر وإعلان الثورة والتمرد آت من فراغ فالضرائب الفادحة في صورة الاموال الاميرية . على الرغم من تطلفه بتخفيفها عن الفقراء هي من المحركات المباشرة على الثورة .

كما لم ينس الوالي عبد الله باشا أن يهددهم محاولا أن يذكرهم بمسألة فعله مع ثوار « راشيا » بجنوب لبنان وابناء « جسر بنات يعقوب » من قتل وقمع وكذلك مجازر « المزة » بدمشق وكيف قضوا على كل هؤلاء عندما ثاروا ضدهم ليوضح بالتالي شمولية الثورة والاستياء . فاستطرد في رسالته لأبناء غزة مهذبا ومبين علاقته بوالى مصر محمد على الذى أثبت جدارته العسكرية لدى السلطان العثماني بقمعه الحركة الوهابية بالجزيرة العربية وحربه مع بلاد المورة في اليونان . فقال (ان بجواركم الحاج محمد على باشا واطهار زيادة مينله وحبه القلبى لطرفنا ومهمنا طلبنا عساکر من جانبيه فلا يمنع من تساييرهم » (٩٧) .

مطالبأ أهالى غزة وبعد هذا التهديد والوعيد بتسليم « مصطفى الكاشف » قائد التمرد وارساله لمدينة يافا .

وفشلت كل محاولاته وتهديداته أمام السكان خاصة في عصر سسمى « بعصر القومية » حيث قام كل شعب يعيش تحت السيطرة العثمانية بالثورة كى ينال استقلاله فقامت ثورات قومية في البلقان تطالب بالتمرد والاستقلال ، كما بدأت فرنسا بالاستيلاء على دول شمال افريقية (الجزائر سنة ١٨٣٠) ، حتى داخل تركيا نفسها بدأت بذور القومية تنمو في صدورهم ، فلم يكن غريبا والحالة هذه أن تستعر نار القومية في بلاد الشام ضد السلطة العثمانية في دمشق وجسر بنات يعقوب وراشيا و نابلس حتى غزة . خاصة وبجوارهم محمد على باشا والى مصر الذى بدأ يتمرد على الامبراطورية العثمانية - مخيبا آمالها في شخص عبد الله باشا والى عكا الذى توعد أبناء غزة به .

(٩٧) عارف العارف - تاريخ غزة - القدس ١٩٤٣ ص ١٨٥ - ١٨٧ .

فقد وجد محمد علي باشا الطريق أمامه ممهدا لغزو الشام قبل ان يجف هتاد تهديدات عبد الله باشا بأقل من عام بل اتخذ منها سببا لغزوه . ومن آثار هذا الرجل في غزة تجديده لزواية الهنود فقد جاء على بابها (« أمر بتجديد زاوية الهنود الراجي لثواب الملك المعبود الطامع في سعة بحر كرمه الممدود ، حضرة سيد الوزراء العظام أفندينا وولينا السيد عبد الله باشا في غرة رجب سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨٢٠ م (صورة رقم ١٤١) » .

حملة ابراهيم باشا

١٨٣١م - ١٨٤٠م

لم تكن حرب محمد علي باشا والى مصر على بلاد الشام وليدة عام ١٨٣١م عام الغزو . بل لقد كان حلم الاستيلاء عليها شغله الشاغل منذ توليه الحكم في مصر مما يدفعه الادعاء القائل بأن حملته على الشام تعويض لما خسره في حرب « المورة » ومن قبلها الجزيرة العربية يكشف ذلك قنصل فرنسا في مصر المسمى «دورفيتي» الذي كاتب حكومته سنة ١٨١٠م قائلا « ان محمد علي طلب من السلطان ولاية الشام محتجا بأنه في حاجة لطاقتها البشرية والمادية لمعاونته على قتال الوهابيين » .

وفي رسالة أخرى بعثها نفس القنصل في سنة ١٨١١م الى بلاده قائلا (« ان محمد علي يطمع في ولاية سوريا وقد قال لي يوما انه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال قدره سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزينة السلطان ») (٩٨) .

فالتفكير اذن في الاستيلاء على الشام مبيت لدى محمد علي كهدف حيوي بالنسبة له منذ القدم ، ولكن تمخضت الظروف السياسية مع بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر عن تمهيد الأسباب والذرائع للغزو ، مهد لها محمد علي باشا بالفعل في سنة ١٨٢٢م عندما احتضن الأمير بشير الشهابي الذي فر من السلطان نتيجة ولائه لعبد الله باشا المخلوع من قبل السلطان والمؤيد له ، فأحسن لقاءه ، وأعلن تأييده له فأرسل للسلطان كتابا يقول فيه (اذا لم يرجع عبد الله باشا كما كان ، يضطره الأمر الى الخروج عن الطاعة) هكذا أعلن محمد علي تأييده للثلاثين ضد السلطان الذي بدوره أعلن عفوهم عنهما شريطة أن يدفع عبد الله باشا للسلطان ستين ألف كيس الى الخزينة قام محمد علي بتسديد جزء منها لعدم قدره عبد الله باشا على دفعها جميعا وبذلك استثمر

(٩٨) عبد المصنف محمود - الفاتح ابراهيم باشا - القاهرة - ١٩٤٨ م - ١٤٥ - ١٤٦ .

محمد علي باشا بحنكته السياسية هذا الموقف السياسي طالباً من الأمير الشهابي أن يعد له أربعة آلاف مقاتل من لبنان لمساندته في حرب المورة - إن دعت الحالة - كما طلب من عبد الله باشا سرا أن يهيئ له عشرة آلاف مقاتل لحماية ظهره وهو زاحف لتركيا (٩٩) .

وبناء على هذه العلاقة السرية هدد عبد الله باشا من قبل أبناء غزة بزميله محمد علي كما ذكرنا في الوقت الذي أخذ فيه الأخير يحشد طاقاته البشرية ويجبى الضرائب لاعداد العدة مما أدى الى فرار عديد من الأسر المصرية من منطقة الشرقية خاصة « بلبيس » متوجهين نحو فلسطين بأعداد وصلت حتى عام سنة ١٨٣١م نحو من ستة آلاف نسمة سكن معظمهم غزة وقرابها الشرقية والشمالية والجنوبية (*) (١٠٠) . مما حذى بمحمد علي باشا أن يطلب عبد الله باشا في عكا اعادتهم له لأن في ذلك اهدارا لطاقاته البشرية والاقتصادية في مصر فرد عليه عبد الله باشا قائلاً (ان هؤلاء الستة آلاف رعايا السلطان وشأنهم هنا كشأنهم في مصر فان شئت فاحضر لأخذهم) . فرد عليه والى مصر مهديداً (« انى ساحضر لأخذ ستة آلاف وواحد فوقهم ») (١٠١) .

لقد أخذت غزة عبد الله باشا الشاب بالاثم فأساء علاقته بمحمد علي صديقه مدعياً بسوء معاملته له فرفض تسديده ما عليه من ديون وبدأ في تنفيذ مقاطعته الاقتصادية لمصر فممنع عنها تصدير « بنور التوت » المستخدمة في تربية دودة القز ثم عمل على تحويل تجارة الحاصلات المصرية الى طريق سيناء البرى بدلا من تصديرها من الموانئ عبر البحر وذلك لتعريضها لعمليات النهب والسلب ، خاصة وأن عرب البريميات كانت تترقب للمقاول هسهسه وتنقض عليها كما فعلت في قافلة قد خرجت من غزة سنة ١٨٣٠ فسلبت كل حمولتها بعد معركة مشهورة عند العريش (١٠٢) .

لقد عجبت هذه العوامل من تنفيذ محمد علي لرغباته ، ولم تجد الدولة العثمانية لنفسها دورا حاسما بين المتخاصمين أكثر من أن ترسل خطابا لمحمد

(٩٩) عبد المنصف محمود - ابراهيم الفاتح - المرجع السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .

(*) من هؤلاء الأسر ، عائلة قمحاوي - المصري - العيزي - القطب - غزالة - عميرة - حجاب - أبو العافية - أبو طيبخ - خشانة - البليسي - الحناوي - القساوي - أبو لبن - أبو ضبة - عرفة - الشيخ علي - أبو جيباب - الأعوج - الدمياطي - ٠٠ الخ

(١٠٠) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعزة في تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٩٤ .

(١٠١) عبد المنصف محمود - ابراهيم الفاتح - المرجع السابق ص ١٥٤ - ١٥٦ .

(١٠٢) ابراهيم أمين غالي - سيناء المصرية عبر التاريخ - الهيئة المصرية العامة للكتاب -

القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٠٠ .

على يدل بشكل قاطع على مدى الضعف الذى وصلت اليه سلطة الباب العالي جاء فيه : -

(« ان شكوى بعض التجار لا يمكن ان تسوغ تحكيم الحسام واشعال نار الحرب وان ما ينشعب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى بأشهار السيف بل يتدخل الباب العالي ») (١٠٣) .

وبهذا لم يبق لمحمد على والى مصر من أسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية الا وقد توفرت له مؤمنا « بأن الشام باب الديار المصرية » (١٠٤) وتأمين سلامة حدوده وخدمة الدين كما جاء على لسان رفاعة رافع الطهطاوى واعظ الجيش المصرى وباعث الحركة العلمية معللا فتوحات محمد على بأنها « لم تكن من محض العبث ولا من ذميمة تعدى الحدود ، اذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملّة عظيمة ، تحسبهم أيقاظا وهم رقود » (١٠٥) .

اندفعت قوات محمد على بقيادة ابنه ابراهيم باشا بحرا وبراً فاستولت على خان يونس ثم عسكرت بظاهر مدينة غزة الجنوبية حتى اقتحموها فى أكتوبر سنة ١٨٣١ م دون مقاومة تذكر ثم حاصر الاسطول المصرى البحري مدينة عكا فى ٢٦ / نوفمبر سنة ١٨٣١ م وظل محاصرا المدينة حتى سقطت فى ٢٧ / مايو سنة ١٨٣٢ م بعد مقاومة ضارية فى حين استولت القوات البرية على مدينة القدس فى ديسمبر سنة ١٨٣١ م (١٠٦) ليكمل له الاستيلاء على فلسطين كلها ، مستمرا فى اندفاعه شمالا نحو سوريا وتركيا ليكمل مسيرته . فقد أجاب ابراهيم باشا على سؤال وهو يحاصر عكا الى أى حد ستصل فتوحاتك اذا ما سقطت عكا ؟ فأجاب (« الى مدى ما يتكلم الناس اللغة العربية ») (١٠٧) . ويمكن اعتبار التواجد المصرى فى فلسطين نقطة تحول هامة فى المجالات السياسية والاقتصادية وحتى الادارية والاجتماعية بالغة الأهمية تركت آثارا عميقة هى أشبه فى الواقع بثورة غيرت مناحى الحياة على الرغم من قصر مدة هذا التواجد الذى لم يتعد لتسع سنين الا ببضعة شهور .

فعلى صعيد الزراعة عماد البلاد الاقتصادى تركزت اهتماماته بالمناطق

- (١٠٣) د . هنرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على - ترجمة أحمد محمد عبد الحائق بك - القاهرة ٢٠٠ ص ١٢٣ .
- (١٠٤) محمود عوض - وعليكم السلام - دار المستقبل العربى - القاهرة ١٩٨٤ ص ٥٧ .
- (١٠٥) د . محمد عمارة - تيارات اليقظة الاسلامية - كتاب الهلال اغسطس ١٩٨٢ ص ٩٤ وماخوذ عن كتاب الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى - ج ١ ص ٥٣٤ .
- (١٠٦) عبد المنصف محمود - ابراهيم الفاتح - المرجع السابق ص ١٦٠ .
- (١٠٧) لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث - المجلد الاول - القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٧٠ .

السهلية لتنشر الأمن والهدوء بادی ذی بدء فارتدت القبائل البدوية لقلب الصحراء داخل النقب وسیناء .

شجع بعدها زراعة القطن ، ومنح الفلاحين « حق رفع الشكوى ضد المتمردين » الذين اتسعت سلطتهم فی هذا القرن بصورة فاقت حدود التزاماتهم الجغرافية فامتدت بامتداد قدراتهم العائلية والعصبية وبمقدار ما يخضع لسلطتهم من أناس يدورون فی فلكهم كجباة للضرائب حتى منحوا حق استخدام قوة مسلحة لجمع الضرائب تأتمر بأوامرهم (١٠٨) .

وعليه شجع ابراهيم باشا الفلاحين ومنحهم حق الاعتراض . ثم حاول جاهدا تركيز القبائل البدوية بحتهم على انشاء علاقات تجارية ثابتة مع سكان القرى والمدن واقناعهم بمزاولة حرفة الزراعة محاولا بالتالى توسيع رقعة المزروع من الأرض خاصة شرق مدن السهل الساحلى . مما شجع الشيخ سعيد المصطفى متسلم سنجق غزة ان يدفع ببعض أهالى مدينة غزة بالتوجه شرقا واستغلال الأراضي فی الزراعة فسكنوا قرى بربر وقبيبة والسكرية وهوج والكوفحة (١٠٩) . كما شاهد ذلك « روبنسن » فیما بعد سنة ١٨٣٨ عندما رأى بعض أبناء القبائل البدوية يمارسون الزراعة (١١٠) .

ثم عمل على تأمين الناس على أملاكهم وحمايتهم فأنعش حركة التجارة بین مصر وفلسطين بعد أن قام بترميم الطريق الساحلى لتصبح غزة محطة تجارية بین مصر والشام .

وبحكمته قطع دابر الرشوة بشهادة القبائل الانجليز فی البلاد سنة ١٨٣٦ م (١١١) .

وقام بتوزيع الضرائب توزيعا عادلا فارضا ضريبة جديدة « ضريبة الفردية بواقع خمسين قرشا على كل شخص خففها لتتراوح ما بین ثلاثین الى خمسين قرشا وفقا لثروة الفرد ودخله (١١٢) .

(١٠٨) د. هنرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر فی عهد محمد على - المرجع السابق ص ١٢٨ .

E. Robinson, Biblical Researches in Palestine and in the adjacent Regions, A journal of Travels in the year 1838, II, London, 1841, pp. 384-385.

I.E.J, Vol. 3, 1953, Jerusalem, pp. 353. (١١٠)

(١١١) هنرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر فی عهد محمد على - المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(١١٢) هنرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر فی عهد محمد على - المرجع السابق ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

اجتماعيا استطاع ابراهيم باشا أن يساوى بين الناس جميعا. فعمل على اطلاق الحريات الدينية على أرض حباها الله بجميع المقدسات ، ووضح ذلك برسالة بعثها لمفتى الاسلام فى القدس وباقى المدن الفلسطينية جاء فيها : -

(« أسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنيا فى دينهم وديانهم ولا تمنعوه من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة « نهر الاردن » شيئا من الكلفة والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموا الصغار بدفع المال ، فان أطعتم أحسنتم لانفسكم وان خالفتم أسأتم لها والسلام عليكم ورحمة الله ») (١١٣) .

هذه المزايا والاصلاحات الجذرية كانت بمثابة تحولات ثورية لم يعهد مثلها المواطن من قبل كما أنها شكلت خطرا ليس فقط على السلطة العثمانية بل وعلى جميع الدولة الأوروبية المتربصة بالمنطقة مما دفع السيد « دبرى » الى القول بأنه (« اذا استمر العمل بهذا النظام فانه كفىل بأن يؤدى الى أجزل الفوائد ») (١١٤) .

لذا نشط الأوروبيون والعثمانيون أمام هذه الموجة العاتية للدولة النامية فى استغلال كل صغيرة وكبيرة لتأليب الأهالى ضد ابراهيم باشا فاستغلوا ما قام به من « تجنيد اجبارى » وما نجم عنه من حل الجيوش الاقطاعية واستغلالها « لدواب الحمل » لدى الفلاحين لنقل العتاد العسكرى بأجور زهيدة وتسخير بعض العمال فى بناء التحصينات العسكرية (١١٥) ، وتجريد السكان من السلاح باستثناء « المخاتير والنباطير » (١١٦) وهى جميعا تعللات أجنبية واهية .

وكان من أهم الأسباب التى استثمروها سياسة التسامح الدينى التى مارسها ابراهيم باشا عند فتح المجال أمام البعثات التبشيرية فأتخذت التعليم وفتح المراكز التعليمية ستارا تختبئ من خلفه وعلى رأسهم البعثات الفرنسية والاميريكية تحولها هؤلاء جميعا وعلى رأسهم الانجليز الى شحنة من الحقد

(١١٣) عبد المصنف محمود - ابراهيم الفاتح - المرجع السابق ص ١٦١ .

(١١٤) عبد العزيز عوش - الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤ - المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(١١٥) منرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على - المرجع السابق

ص ٢٨٦ .

P.U.F., 1908, pp. 40.

(١١٦)

السياسى شحنوا بها عملاتهم ومنهم « ريتشارد وود » فأرسلوه لجبل لبنان لاقتناع المارونيين بالتوجه الى القناصل الأوروبية والاحتفاء بهم بمجرد ضرب ميناء بيروت . كما حرضوا اليهود باقامة دولة لهم (١١٧) .

واستغل الاتراك هذا التسامح من جانبهم فأرسلوا أشخاصا لمدينة نابلس يعمل على التحريض كما أفاد بذلك القنصل الانجليزى « كامبل » ضمن مذكراته يوم ٣٠/يونيه سنة ١٨٣٤ م عندما كتب بأن أحد الاتراك صعد على إحدى مآذن مدينة نابلس وأخذ يصرخ قائلا :

(« ألم يعد ثمة وجود للديانة الاسلامية هل تلاشت وعفا أثرها ... ألسنا عثمانيين فليهرع كل من يحب النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى السلاح وليصمد لذلك الرجل الذى يسمى ابراهيم باشا الذى لا ايمان له ذلك المدمن الذى يعاقر الخمر ويأكل الخنزير وكل من يخرج به البحر من قاذورات ») (١١٨)

كما دفع الأوروبيون رعاياهم بعدم الاهتمام برجال السلطة وحرصوهم حتى ضد حكام الأقاليم فيها هو كنغليك الذى وصل لمدينة غزة سنة ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ م قد جاءه حاكم غزة بنفسه وهو مقيم فى خان التجار ليشتكو له تابعه فى الرحلة « ديمترى » الذى حقره وتعدى عليه فانكر ديمترى قول الحاكم أمامه ليعترف بذلك بعد مغادرة الحاكم للمجلس ، والذى عقب كنغليك على الموقف بقوله « وانصرف الحاكم وهو يشعر بالمرارة لانه عاجز عن التوفيق بين واجبه الرسمى كممثل للدولة وبين اضاعة حقه على يد رجل يتمتع بالحماية الأجنبية » (١١٩) .

أمام ذلك كله قام السكان فى معظم المدن الفلسطينية بالعصيان والتمرد ضد ابراهيم باشا باستثناء مدينة يافا التى تحصن بها ابراهيم باشا .

أما فى مدينة غزة فقد قام متسلمها الشيخ سعيد المصطفى كما ورد فى رسالته المؤرخة فى ١٥/ربيع الآخر ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) والمرسلة لوالى مصر محمد على باشا ما يلى :

(« انه بحسب الارادة الشريفة السرى عسكرية توجه صحبه الأوردى المنصور الى الخليل وانه بسطوة سعادة الخديوى العظيم المعظم والسرى عسكر ، جمع المخالفين وحصلوا على ترتيب الجزاء التام وتحرك الركاب الشريف

(١١٧) محمود عوض - وعليكم السلام - المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ .

(١١٨) هنرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر - المرجع السابق ص ١٧٥ .

(١١٩) رحلة كنغليك الى الشرق - ترجمة محمود العايدى - عمان - ١٩٧١ من ٩٧ -

بالعساكر الظافرة الى الكرك لتأديب عربان غزة وغيرهم من الشوار الذين التجأوا اليها » (١٢٠) .

وهكذا عم العصيان جميع المدن من الشمال حتى الجنوب وقف ازاءها ابراهيم باشا ومن خلفه والده محمد باشا بقوة فقه وصلت قوات بحرية مصرية نزلت الساحل الغربى لمساندة قوات الحكومة بالمدينة حتى تم القضاء على التمرد فى جميع انحاء المدن مع نهاية عام ١٨٣٤ م .

أخذت هذه السولة الفتية بقيادة محمد على باشا تستحوذ اهتمام كثير من الدول الأوروبية المتنافسة على الشرق وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا ، خاصة عندما فجر هذا القائد الموقف السياسى فى مايو سنة ١٨٣٨ م وامام قناصل بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا معلنا « استقلاله التام والنهائى عن السلطان العثمانى » (١٢١) فكان الغضب الشديد من جانب لندن واحتجت باريس والعواصم الأوروبية الأخرى فاندفعوا نحو الباب العالي للضغط على ابراهيم باشا معززين قناصلهم داخل المدن متمسحين بمسوح الدين وحماية الحجاج المسيحيين ففتحت لها بريطانيا قنصلية بالقدس سنة ١٨٣٨ م وقد سبقتها روسيا فى سنة ١٨١٢م بفتح قنصليتها فى يافا كما أسس موسى مونتيوري أول مدرسة يهودية فى فلسطين فى عام ١٨٣٨ م ولحقهم فرنسا بفتح قنصليتها فى القدس سنة ١٨٤٣ م وكان يعمل فى جميع هذه القناصل يهود مستنصرون (١٢٢) .

أما رد الفعل العثمانى - وكعملية اسقاط - أصدر السلطان عبد المجيد « خط شريف كاخانه » سنة ١٨٣٩ م يخفف من أمر اعادة فلسطين الى الحكم التركى محاولا تحسين نظم الحكم بأن يرفع مكانة المواطن فى الامبراطورية والمحافظة على حياته وممتلكاته كما أراد توحيد جنباية الضرائب .

الا أن هذا المرسوم ذهب جفاء أمام تحديات الأوربيين الذين اتفقت مصالحهم التكتيكية مع الدولة العثمانية لتحجيم سيطرة محمد على فى مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ م وللسنا بصدد الآن سرد بنوده . فقد وصلت هذه الدولة الى قمة تدخلها عندما حاصر الأسطول الانجليزى ميناء عكا واستولى عليه فى أقل من سبعة فاسحب ابراهيم باشا بجيوشه شرقا سنة ١٨٤٠ - ١٨٤١ م عن طريق الغور الفلسطينى فاقتاد الكثير من جنوده واتباعه وهو فى طريق انسحابه (١٢٣)

- (١٢٠) الشيخ عثمان الطباع - اتحاد الاعزة فى تاريخ غزة - المربع السابق ص ٩٦ .
 (١٢١) أنتونى نائج - العرب تاريخ وحضارة - ترجمة محمود مسعود - الجزء الثانى - كتاب الهلال - القاهرة ١٩٨٠ ص ٦٦ .
 Jerusalem, Keterbooks, Jerusalem, 1973, pp. 102-111. (١٢٢)
 R.E.F. 1908, pp. 40-42. (١٢٣)

مخلفا أيضا كثيرا من العائلات والجنود الذين مكثوا واستوطنوا في جميع قرى ومدن فلسطين فاستوطن في منطقة الحولة والأغوار « الخوارثة » كما انتشروا في قرى عديدة مثل (المسيحية - جرجا - هوج - المحرق - الكوفخة وغزة وخان يونس حتى تأثرت هذه القرى في نمطها العمراني بالنمط السائد في ريف مصر سواء في شكل المنزل أو أسلوب الزراعة (١٢٤) .

غادر ابراهيم باشا البلاد تاركا فترة من التخلخل والفراغ السياسي سواء للقبائل البدوية التي هي بحق البارومتر السياسي الذي يقيس قوة الضغط المركزي للسلطة ، أى سلطة ، ومدى قدرتها على ضبط الأمن ، فانقضت عليه بعض القبائل ونهبت محطات البريد في منطقة الشيخ زويد مما دفع محمد علي باشا بضربهم بعرب الهنادى المصرية التي أخذت تلاحقهم حتى خان يونس (١٢٥)

وكذلك فعلت السلطة العثمانية التي قامت بمجرد عودتها بتأليب الفتنة واشعال نارها بين القيسية واليمنية من سكان مدن الجبل والسهل الفلسطيني فأقتتل أبناء نابلس ورام الله حتى مدينة الخليل جنوبا مع بعضهم البعض مما أودى بحياة الكثير من أبناء هذا الشعب حتى بلغ بالحاكم العسكرى التركى « محمد القبرصلى » بمحاصرة مدينة الخليل ودكها بقنابل مدافعه حتى هجرت المدينة من أهلها ليمنحهم بعدها مدة عشرين يوما للعودة الى بيوتهم ليواصل بعدها زحفه نحو غزة فدخلها دونما مقاومة وأخذ فى اعداد الترتيبات لتوطيد دعائم الأمن وحماية السكان (١٢٦) .

انتابت بعدها الدولة العثمانية حوى الاصلاحات واصدار المنشورات والتنظيمات الادارية والاجتماعية كرد فعل لما طبعه ابراهيم باشا فى نفوس المواطنين من أفكار تحررية واصلاحات اجتماعية وتسامح دينى . وما فقدته من أراض فى أوروبا وتغلغل الاستعمار الفرنسى واستيلاءه على أجزاء من شمال أفريقيا بحيث لم يبق لها سوى المنطقة العربية .

ففى عام ١٨٣٩ م بدأت بعملية تحول هامة للحد من الاقطاعات القديمة وذلك باشتراك الملتزمين والمحصلين مع أصحاب التيمارات والزعامات « واستمر الحال على هذا النحو حتى عام ١٨٥٨ م حيث صدر فيه قانون الاراضى الذى أنهى نظام الاقطاعات العسكرية بصورة شرعية وتحرير الفلاحين من عبودية التيمارجية والزعامات « وأصبحت المعاملة منحصرة فقط « بمأمرى الطابو » (١٢٧) .

I.E.J. Vol. 3, 1952, pp. 324-356.

(١٢٤)

(١٢٥) ابراهيم غالى - سينا المصرية عبر التاريخ - المرجع السابق ص ١٩٩ .

I.E.F. 1908, pp. 46.

(١٢٦)

(١٢٧) ديمس المر المحامى - أحكام الاراضى - القسم الاول - القدس ١٩٢٣ ص ١٢٣ .

وقبل ذلك بعامين أصدر الباب العالي « خطي همايون » في فبراير ١٨٥٦ م يعترف فيه السلطان بتحليل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية منذ قرن ونصف خلت أي منذ بداية القرن السابع عشر فقد جاء فيه (« ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيعة لمسيب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة ولهذا قد تحولت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدثار » (١٢٨) وعليه وعد الناس بحفظ شرفهم واموالهم وتعيين مال الوركو وتحديد مدة الخدمة العسكرية الى أربع سنوات أو خمس .

بدأ العمل بعد ذلك ومنذ عام ١٨٦٠ م بتسجيل الأرض في فلسطين الأمر الذي أفسح المجال للملتزمين والمحصلين من « الأفندية » بأمتلاك اقطاعات كبيرة أقلها مساحة بالشراء وأكثرها بالخداع وبسيف الحياء وكرجاج الملتزم لمن لا يقوى على دفع ما عليه وكثيرا ما سلبوا الأراضي كهدية أو مقابل عدم تقديم ابن الفلاح للخدمة العسكرية . أو عند عدم قدرة الفلاح على دفع ضريبة الاملاك حتى وصل الحال في منطقة غزة أن امتلكت عشرون عائلة فقط مساحات هائلة من الأراضي بل هناك أسرة واحدة كادت تمتلك أراضي قرية بكاملها .

لذا اندفع كثير من الأسر والعائلات الاقطاعية لشراء مساحات من الأراضي الشرعى وهو الفلاح العربى الفلسطينى الذى كان يفلحها كمالك لها مقابل نسبة من المخرأج من منتوجها يقدمه للدولة بحكم الملكية الجماعية للدولة لهذه الأرض .

لذا اندفعت كثير من الأسر والعائلات الاقطاعية لشراء مساحات من الأراضي من خارج الحدود الفلسطينية كما تسربت رؤوس الأموال الأجنبية التابعة للدول ذات الأطماع الاستعمارية (١٢٩) ومما أفشل هذه التنظيمات تحريض قناصل الدولة الأوربية للمسيحيين فى البلاد بعدم التنفيذ لها لأنهم المستفيدون الوحيدون من نظام الالتزام « لأن معظمهم يزاولون الالتزام » - مما دفع السلطان عبد الحميد الثانى فيما بعد للقول (« ونجحوا - أى القناصل - بأبقاء كل شئ على ما كان ») (١٣٠) .

ولكى تؤكد السلطة العثمانية هذه التنظيمات أرسلت لقائمقام غزة عن

- (١٢٨) د عبد العزيز محمد الشناوى و د يحيى جلال يحيى - وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر - القاهرة ، دار المعارف - ١٩٦٩ ص ١٤ - ١٦ .
- (١٢٩) لوتسكى - تاريخ الاقطار العربية - دار التقدم - موسكو - ص ١٦٠ .
- (١٣٠) السلطان عبد الحميد الثانى - مذكراتى السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٩ م - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٩ ص ٢٨ .

طريق والى القدس أمرا يبلغه وجوب تطبيق المساواة « من كل صنف وتبعه ومن أى ملة ومذهب » وعملا بأوامر الدولة العثمانية تطلب منه التدقيق على هوية مشتري العقار ويجب أن يكون من تبعة الدولة العلية ، مما يدل على تهافت الأجانب عن طريق قناصلهم على شراء العقارات فى مدينة غزة (١٣١) . بل تعدتها أكثر بارسال بعثات لاستخراج البترول والبحث عنه فى فلسطين مثل بعثة « لينس Lynch » الاميريكية سنة ١٨٤٩ م وبعثة دوق دى لانيس Du cde Lynes الفرنسية سنة ١٨٦٤ م ثم تلتها بعثات أخرى كما سنرى (١٣٢) وهكذا أصبح الدور القنصلى الأوربى مقلوبا فبعد تضافره مع السلطة العثمانية ضد التدخل العربى المصرى أصبح الآن يلعب دورا مضادا لترسيخ دعائمه ونفوذه الاقتصادى ومن ثم السياسى توطئة للغزو الامبريالى كما سيحدث .

ولعل ما عثرنا عليه من احدى سجلات صاحب مصنع للصابون بغزة (الشيخ محمد أبو شعبان) ما يكشف لنا طبيعة العلاقات التجارية بين مدينة غزة ومصر ، وذلك وفق ما جاء بها من بيان حساب الوارد والصادر من والى مصر والتي تعود حساباتها لنهاية عام ١٢٦٠ هجرية (١٨٤٣ م) أى بعد انسحاب الجيش المصرى من البلاد بمدة وجيزة (وثيقة رقم ٧) .

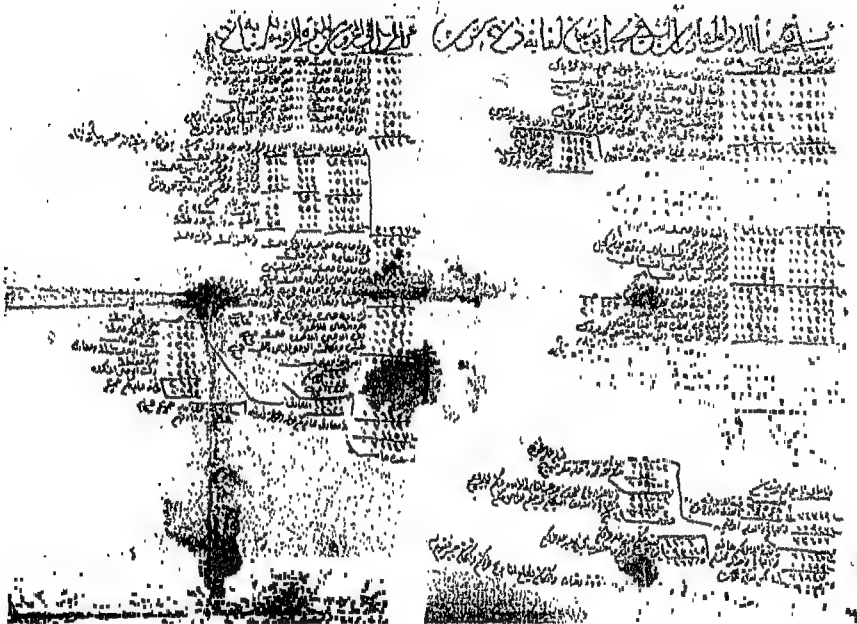
فقد استمر التبادل قائما بين ميناء مصر (بولاق) وفقا لما جاء فى فاتورة الاستيراد ، ومدينة غزة حيث تصدر مصر الأقمشة مثل (النافثة - التل - الخيش للخرم واللف) وتستورد مقابل ذلك الصابون والزيت :

وبتحليل المعطيات الرقمية الواردة بالوثيقة نجد أن أرباح الأقمشة المصرية كانت تتراوح ما بين ٣٣٪ و ٤٥٪ فى حين بلغت أرباح الصابون أقل قليلا من ١٥٪ مما يضطر التاجر المصرى لفرض عمولة على الدين .

كما أبانت الوثيقة دور مدينة غزة كسوق تجارى مركزى لما حولها من القرى الفلسطينية فى الشمال والجنوب فالى جانب الربح الذى يحصل عليه صاحب « المصبنة » فقد كان أمامه مجال لتوكيل تجار آخرين للبيع فى القرى مقابل أرباح بصفة عمولة لهم فقد ظهر من بين هؤلاء (ابراهيم الجبالى - وسعيد السوسى وعلى غنايم و ابراهيم الشاعر ومحمد قفه ومحمد مبروك وعبد السلام العرايشى) والآخر كان كأحد الزبائن من الطرف المصرى .

من هنا يتضح مكانة غزة كمسوق وممول لما حولها من المدن والقرى حتى مدينة العريش المصرية .

(١٣١) د . عبد الكريم رافق - غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ١٢٧٣ - ١٢٧٧ م -
 بحث اعد بمناسبة المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام - عمان - ١٩٨٠ ص ٤١ - ٤٢ .
 (١٣٢) عارف العارف - تاريخ بئر السبع - القدس - ١٩٣٤ ص ٦٩ .



قيلة (٧)

كشف بحساب الصادر والوارد لغاية نهاية سنة ١٢٦٠ هـ الخاص بمصبنة غزة .

كما ورد فى هذه الورقة التى هى جزء من دفتر سجلاته وحساباته تصدير (الدخان) الغزى لمصر بالاضافة للصابون وزيت الزيتون . وقد وصلت أرباح هذا التاجر فى هذه الفترة وكما يتضح من هذه الورقة من بعض صفقاته التجارية ما جملته ٩١٩١ قرشا ولهذا المبلغ قيمته خاصة لو علمنا أن ثمن قيراط الأرض فى مدينة غزة نفسها وفى ذلك الوقت وفقا لما جاء فى حجة بيع شرعية لأرض ترجع لسنة ١٢٥٦ هجرية ما قيمته ١١١١ قرشا وبلغت قيمة القيراط الواحد فى « كرم الزيتون » بمدينة غزة سنة ١٢٦٢ هـ ما قيمته ١٣١٢ قرشا ، لأدركنا قيمة الأرباح الذى يجنيها هذا التاجر الغزى .

هذه صورة ربما تكون مصغرة للأحوال الاقتصادية فى المدينة فى الأربعينات الأولى من القرن التاسع عشر الا أنها كافية لإبراز قسماها الاقتصادية .

ونظرا لما انتاب الدولة العثمانية - كما ذكرنا - من اصدار قوانين وقرارات أهمها التدقيق على هوية المشتري للعقارات والحرص التام بأن يكون من أتباع الدولة العثمانية لاحتساسها بتدخل عناصر غريبة ومربية فى شراء الأراضى مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر - فقد انعكس مردود ذلك داخل المدينة فى الحرص التام على توثيق جميع عمليات البيع والشراء بالنسبة للأراضى بأحكام وداخل المحكمة الشرعية بغزة نفسها شهادة وتوقيع أكبر عدد ممكن من وجهاء واعيان ومشايخ المدينة .

فقد حصلنا على عدة حجج بيع شرعية لأراضى فى فترة أربعينيات وسبعينات القرن التاسع عشر تبرز قيمة الأرض لدى المواطنين الفلسطينيين فى غزة ومدى تمسكهم بتسجيل ممتلكاتها وتوثيقها بشهادات وعقود شرعية رسمية . نستخلص منها العديد من الملامح الاقتصادية والاجتماعية السائدة .

فالوثيقة رقم ٨ عبارة عن حجة بيع شرعية اشترى بموجبها الحاج محمد أغا ابن المرحوم أبى بكر زنداح المغربى من بائعه عبد القادر أغا حصة قدرها ١/٤ قيراط من كرم الزيتون بغزة الواقع ضمن « ضريبة النرجس » بمبلغ ألف قرش أسدى وذلك فى عام ١٢٥٦ هـ (١٨٣٩ م) .

وزيادة فى الحرص والأهمية وتفاديا من كل لبث أو غموض فقد تمت عملية البيع داخل المحكمة الشرعية للمدينة وكانت تستهل بعبارة تقليدية كالتالى : -

(« بالمجلس الشرعى المحرر المرعى بمدينة غزة هاشم ولدى سيدنا ومولانا عين السادات الفخام والحاكم الشرعى الحنفى المولى والموقع ختمه الكريم أعلاه دام فضله وزاد علاه اشترى ٠٠٠٠) .

[illegible]

حجة بيع أرض في مدينة غزة سنة ١٢٥٦هـ

ويعنون هذه الحجة ختم الحاكم الشرعى نفسه وهو « عبد الله الرئيس » وكيل النائب بمدينة غزة هاشم آنذاك ، هذا بالإضافة الى شهادة وتوقيع عدد من الشهود بلغ عددهم عشرة من كبار مشايخ واعيان المدينة كما هو واضح من الوثيقة « ٨ » السابقة .

وتوضح « الوثيقة ٩ » وهى الخاصة ببيع قطعة أرض اشتراها الحاج مصطفى ابن المرحوم الحاج عمار من الحاج أبو بكر بن المرحوم الحاج عاشور المغربى فى شهر شوال سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥) ومساحتها نصف قيراط وربيع قيراط من أرض « كرم الزيتون » الكاين بأرض غزة المعروفة بكرم مقدمه (مقدمة آل رضوان) بثمن قدره سبعماية وخمسون قرشاً أسدياً .

وقد تم البيع كسابقته بالمجلس الشرعى ولدى الحاكم الشرعى الحنفى والموقع بختمه أعلى وثيقة البيع وهو السيد مصطفى .

وقد وقع على الوثيقة فى ذيلها عشرة من كبار المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ « محمد ساق الله » كما حرص على توثيقها بختمه وشهادته كل من الشيخ محمد محمد النحال وأحمد محى الدين عبد الحى الحسينى مفتى غزة فى ذلك الوقت .

وبعد سنتين انتقلت الحصة المحررة فى الوثيقة هذه الى الحرمة رقية بنت المرحوم عبد اللطيف الخزندار فى ٢٨/ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٦٤ هـ . ومن دراسة الوثيقتين السابقتين نجد ارتفاع سعر الأرض داخل مدينة غزة فى خلال ست سنوات من ١١١١ قرشاً للقيراط سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٣٩ م) الى ١٣١٢ قرشاً فى عام ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥ م) .

وربما يرجع هذا الارتفاع لظروف الحرب وعدم الاستقرار والأمن أثناء احتلال ابراهيم باشا بن محمد على للمنطقة وما ان انتهت بانسحابه وعودة السلطة العثمانية للمنطقة بدأ سعر الأرض فى الارتفاع خاصة وانها أخذت فى اصدار العديد من التشريعات التى تطمئن الناس على ملكياتهم وحفظ حقوقهم الشخصية .

أما « الوثيقة رقم ١٠ » فهى أيضاً حجة شرعية تفيد بشراء الحاج محمد بن المرحوم الشيخ عبد الخالق أبى شعبان المصابنى (صاحب المصبنة فى الوثيقة رقم ٧) من السيد أحمد وشقيقه الحاج محمد أفندى ابنى المرحوم السيد مصطفى أفندى شعشاعة العلمى (كان نقيب السادة الأشراف بغزة فى خمسينيات القرن الثالث عشر الهجرى وتوفى سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) والمحترم السيد محمود أفندى نجل المرحوم السيد محمد شعشاعة العلمى حصة من الأرض مساحتها أربعة قرايط بأرض غزة بضريبة الأسعار المعروفة « بكرم

اور مرطاب و نم

در حیات من
 علی بن ابی طالب
 علیه السلام

[illegible]

وثيقة (٩)

حجة بيع ارض في مدينة غزة سنة ١٢٦٢هـ .

« التينة » بمبلغ وقدره ألف وأربعمائة (١٤٠٠ قرش) قرش أسدى صاغ ، وذلك فى ثلاث وعشرين من شهر ذى القعدة سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف هجرية . معتمدة من المجلس الشرعى وقائمقام المدينة السيد محمود وبشهادة ثمان رجال من أهالى المدينة .

هكذا توضح هذه الحجة مدى التدهور فى قيمة الأرض حيث وصلت قيمة القيراط الى ٣٥٠ قرش أسدى سنة ١٨٧٠ م بهبوط حاد وصل الى أقل قليلا من ربع ما كانت عليه سنة ١٨٤٥ م .

هذا بالإضافة الى دفع رسوم ضريبية على هذه الحجة بلغت ٢٨ قرشا أى بمعدل ٢٪ من قيمة ثمن الأرض المشتراة وهى ضريبة مرتفعة الى حد ما ، هذا التدنى فى سعر الأرض وزيادة الرسوم التى وضعها السلطان عبد الحميد - كما سنرى - بأنها باهظة مع ما صاحبها من أزمات اقتصادية عالمية خانقة ضربت الزراعة فى سبعينات هذا القرن والتدخل الأجنبى فى فلسطين بالذات كانت المسؤولة عن تدهور سعر الأرض كمقدمة لخلع انسانها من عليها لكن دون جدوى . كما سنرى فيما بعد .

وقد تميزت هذه الحجة عن سابقتها بأنها مختومة بالطغراء التركية مما يدل على أن الأوراق المستخدمة فى كتابة الحجج الشرعية ، أخذت طابعا رسميا حكوميا حل محل الأوراق العادية .

وهناك حجة بيع أخرى « وثيقة ١١ » تمثل فى الحقيقة ثلاث حجج اشترى بمقتضاها الحاج محمد بن المرحوم عبد الخالق الى شعبان الغزى (صاحب المصبنة) ثلاث ثلث من الأرض جميعها تقع فى كرم الزيتون بضريبة « ساقية أم الليمون » يحددها جميعا من الشرق « تربة الشهداء » (حارة العواميد) .

وجميع القطع الثلاث متساوية المساحة ، مساحة احدها قيراط وربع قيراط ونصف ثمن قيراط اشتراها بمبلغ قدره سبعمائة قرش أسدى لكل منها . اشتراها من ثلاث أفراد يمتون لعائلة واحدة (عائلة الفرا) .

الأولى من الشيخ حمودة وأخويه خطاب وموسى الفرا والثانية من عطية ابن المرحوم الحاج بركات مبروك الفرا موكلا عن والدته محبوبه ، أما الثالثة فاشتراها من الحاج محمد صالح ابن الحاج اسماعيل الفرا الوكيل الشرعى عن والده . وقد تم شراؤهم جميعا فى بداية عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨) .

ويبدو أيضا من خلال هذه الوثيقة استمرار هبوط سعر الأرض وذلك لزيادة نفوذ الأجانب وقناصلهم فى فلسطين وضعف الدولة العثمانية أو بالمعنى الأدق اضعافها من قبل هؤلاء كما سنرى .

كما نلاحظ أن هذه الوثيقة لم تستهل بتلك المقدمة التقليدية التى جاءت فى الوثائق السابقة أى لم تسجل فى المحكمة الشرعية بالمدينة وتحت قائمقامها



الحمد لله الذي جعلنا من عباده
الذين هم في الدنيا والآخرة
في شرف وكرام

الحمد لله الذي جعلنا من عباده
الذين هم في الدنيا والآخرة
في شرف وكرام

بالحمد لله الذي جعلنا من عباده
الذين هم في الدنيا والآخرة
في شرف وكرام

أو حاكمها الشرعى . لكنها كتبت بأوراق رسمية مختومة بالطغراء التركية وعليها تواريخ من بينهم الشيخ يوسف شراب الذى سيرد ذكره فيما بعد .

وربما سجلت هذه الوثيقة بصفة شخصية زيادة فى التأكيد ووفقا لما تعودوا عليه من قبل ذلك على الرغم من ظهور شهادات رسمية يتم تعبئتها من قبل موظفين حكوميين عليها ختم خاقانى حصلنا على بعض منها يرجع لسنة ١٢٩٢هـ وسنة ١٢٩٤هـ (أنظر وثيقة ١٢) أى قبل تسجيل الوثيقة التى نحن بصدد دراستها .

اهتمت بعدها الدولة العثمانية بتطوير طباعة هذه الأوراق الرسمية مع مطلع القرن العشرين وذلك بإصدار « سندات خاقانية » هى بمثابة « كوشان طابو » تميزت بدقة طباعتها بحيث يصعب تقليدها تبعاً من قبل موظفين يعملون فى دائرة الأملاك (الطابو) وقد عززت لأول مرة بلصق « تمغات » حكومية رسمية (أنظر وثيقة ١٣) التى تعود لسنة ١٣٢٩ هـ الموافق لسنة ١٩١٠ م .

وعليه ومن خلال دراستنا لجميع الوثائق السابقة التى تمثل حججا شرعية نلاحظ تطور تسجيل هذه الملكيات وحرص الدولة العثمانية على تأكيدها والحفاظ عليها وعلى تطويرها بما يضمن حقوق الفرد وعدم التعدى عليه بالاعتماد على سندات خاقانية لها قيمتها ودقتها منعا للتزييف ، حرص الشعب الفلسطينى خلالها على مواكبة هذا التطور بتوثيق ملكياته طيلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية العشرين وحتى انتهاء الدولة العثمانية . وبما يلفت الانتباه فى جميع الوثائق السابقة أن ملاكها هم من أغاوات المدينة أصحاب الرتب العسكرية والألقاب الرسمية الذين يمثلون الزعامات المحلية .

كما أبانت هذه الحجج وهى تحدد مواقع الأراضى المراد شراؤها بأن معظم ما حولها كان ملكا لأسر الأمراء والباشوات والأفندية وبعض رجال الدين من القضاة والمفتين من آل رضوان ومكى والحسينى والنخال وشعشاعة العلمى ... ويعنى ذلك أن أراضيتهم مجاورة لبعضها البعض وتقع حول موقع المدينة الأم وفى منطقتها الزراعية .

ولما كان هؤلاء جميعا يعتبرون أنفسهم من رجال الحكم أم القريبين منهم ومن السلطة فقد تحمل الفلاح - زارع الأرض - عبئا مزدوجا على كاهله من الضرائب يقدم جزءا للحكومة المركزية والأخرى للمالك الأرض سواء أكان أغا أو باشا أو مفتى مما جعل استغلال الأرض عملية صعبة زادها ظهور الملتزمين والتخطيط الأجنبى للقضاء على الدواة العثمانية والاستيلاء على المنطقة عامة وفلسطين على وجه التخصيص .

كما توحى هذه الوثائق ببداية تحليل الأسر الحاكمة منذ نهاية العصر المملوكى وبداية الحكم العثمانى كما يتضح من بيع أفرادها للأراضى التى كانت ملكا لأجدادهم فى الوقت الذى بدأت فيه ظهور طبقات أخرى من الملتزمين أخذت فى شراء الأراضى والاستيلاء عليها مستغلين فقر الفلاح وعدم قدرته على دفع ما عليه كما سنرى مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وربما تعكس أيضا مردود العمل التجارى والصناعى داخل مدينة غزة وما يدره من أرباح لصاحبها وقدرته على الادخار تحفزه لشراء العديد من مساحات لا يستهان بها من الأراضى كما هو الحال بالنسبة لصاحب « المصينة » الشيخ محمد أبى شعبان الذى اشترى العديد منها كما بينا .

كما بينت هذه الوثائق العديد من رجال المدينة المثقفين الحائزين على ثقة المواطنين من المشايخ ورجال الدين والافتاء أمثال أحمد محى الدين الحسينى والشيخ يوسف شراب والشيخ محمد ساق الله الذين لعبوا دورا بارزا كما سنرى فى الحياة الاجتماعية والسياسية داخل المدينة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحكم العثمانى . تلك الفترة التى تميزت بأحداث طفرية هامة أثرت تأثيرا فعالا على مجالات الحياة ومناحيها المتعددة لسكان المنطقة الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية بصفة عامة وعلى أبناء فلسطين بشكل خاص . تمثلت فى التغيرات التى سبقتها الدولة العثمانية الخاصة بملكية الأرض وتسجيلها كما بينا وتغلغل القناصل بسلطتهم المعرضة ، ودخول العديد من الشركات الأجنبية مجال التجارة والتنقيب كستار تخفى من ورائه أطماعهم فى السيطرة كذلك دخلت البلاد عناصر الارساليات التبشيرية والدارسين والرحالة المغرضين ، مشجعين جميعا ميلاد الحركة الصهيونية كأخطر ظاهرة استيطانية زلزلت صلب المنطقة العربية مستغلة فرصة الضعف العثمانى الذى أنهكته القوى الأوروبية الاستعمارية الطامعة .

ثم كان حفر قناة السويس وافتتاحها للملاحة كوسيلة وصل بين البحرين المتوسط والأحمر وما وراءهما مما فضل معه الاتصال الأرضى المستمر بين مصر وفلسطين ومن خلفها الشام بل والقارة الآسيوية ، مما خلق للمنطقة وضعاً استراتيجياً أضاف لموقعها الاستراتيجى الهام بعدا عميق من شراهة الاستعمار الأوروبى ، فكانت السيطرة البريطانية على مصر سنة ١٨٨٢ م ومن ثم الاحتكاك والصدام مع الدولة العثمانية وما نجم عنه من خلق بدعة الحدود بين مصر الحديوية تحت السيطرة البريطانية وفلسطين العثمانية سنة ١٩٠٦ م امتدت من رفح حتى طابا كأول خط حدودى هندسى تعسفى فاصل بين جناحى الأمة العربية الواحدة بشقيها الآسيوى والأفريقى . وكانت الحرب العالمية الأولى



وثيقة (١٢)


شهادة تملك ارض في حي التفاح بغزة سنة ١٢٩٨هـ *

وما أفضت اليه من نتائج مخيبة للأمال والطموحات العربية في الاستقلال
والوحدة .

هذه الأحداث جميعا أمدتنا بذخيرة غزيرة من المعطيات نتحفزنا لدراسة
المدينة وقطاعها على مدى هذه الفترة الزمنية (١٨٥٠ - ١٩١٤ م) والقاء الضوء
عليها على نحو تفصيلي وتحليلي لجميع ملامحها وخصائصها السياسية والادارية
تم دراسة التركيبة الاجتماعية والديمغرافية سكونا وسكانا . وأخيرا نتعرض
لدراسة البنية الاقتصادية ، كل على حده وحتى بداية الحرب العالمية الأولى .

سند خاقانی


برگه اول	برگه دوم
برگه سوم	برگه چهارم
برگه پنجم	برگه ششم
برگه هفتم	برگه هشتم
برگه نهم	برگه دهم
برگه یازدهم	برگه بیستم




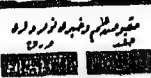
سند خاقانی

برگه اول	برگه دوم
برگه سوم	برگه چهارم
برگه پنجم	برگه ششم
برگه هفتم	برگه هشتم
برگه نهم	برگه دهم
برگه یازدهم	برگه بیستم

ردیف	شرح	تاریخ	محل	ملاحظات
۱
۲
۳
۴
۵
۶
۷
۸
۹
۱۰
۱۱
۱۲
۱۳
۱۴
۱۵
۱۶
۱۷
۱۸
۱۹
۲۰
۲۱
۲۲
۲۳
۲۴
۲۵
۲۶
۲۷
۲۸
۲۹
۳۰


سند خاقانی


سند خاقانی


سند خاقانی



خريطة (٢٨) خريطة لمدينة غزة سنة ١٨٤٣م

الفصل السابع عشر

غزة وقطاعها ١٨٥٠ - ١٩١٤

- الأحوال السياسية
- السلطة الادارية
- التركيبة الاجتماعية
- ديمغرافية غزة « سكانا وسكنا »
- البنية الاقتصادية

الأحوال السياسية

لقد آثرنا تقديم دراسة الأوضاع السياسية على غيرها لتأثيرها المباشر على جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ليس فقط على مدينة غزة وما حولها بل وعلى جميع أنحاء البلاد ، لما تميزت به من أحداث محورية هامة ومتلاحقة تبلورت فيها السياسة الأوروبية بجلاء ضد الدولة العثمانية .

فمع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى سعت الدولة العثمانية جاهدة وبكل الوسائل فى خلق واقع جديد يعزز مكانتها ويوطد أركانها المتداعية سواء بين الدول الأوروبية المتربصة لها وعلى رأسها كل من بريطانيا وفرنسا أو بالنسبة لشعوب المنطقة العربية التابعة لها وذلك باصدار العديد من التنظيمات « خطى همايون » سنة ١٨٥٦ م وقانون الأراضى سنة ١٨٥٨ م « معالجة بواسطتها ملكية الأرض » والغاء النظم الاقطاعية واطلاق الحريات وتحديد قوانين التجنيد لظهار حسن نياتهم مع شعوب المنطقة .

فبدأ الناس يسجلون اراضيهم ويتصرفون بها بالبيع والشراء فى المحاكم الشرعية كما يبدو ذلك فى عديد من الوثائق سواء الخاصة بالشرعية منها والتي تعود للفترة الواقعة ما بين ١٨٥٧ - ١٨٦١ م أو تلك التى عثرنا عليها فيما بعد (وثائق) . . .

الا أن الكثير من هذه الجهود وفعالية هذه التنظيمات ذهبت هدرا أمام تحديات الدول الأوروبية التى اتخذت وسائل شتى هى وحلفاؤها للقضاء على هذه الامبراطورية التى وصفوها « بالمريض » لا لتعافيتها بل لتقضى عليها أولا وتفرد بالشعب العربى لتمتص موارده ومقدراته وتقطع اراضيه دولا فيما بعد .

ولتنفيذ ذلك عملت على دفع العديد من القناصل للتدخل فى الشئون الاقتصادية والادارية وحتى السياسية وذلك بفتح العديد من الشركات . كما سئرى - فأقامت فى فلسطين شركتى « لويدي » « والمساجيرى ماريتيم » فى حيفا ويافا وتعبيد الطرق البرية لربط مدن الساحل بالداخل فى فلسطين لسهولة (١) انتشمار هؤلاء القناصل بها ولتتابعة تطورات الأوضاع الاقتصادية ، وتحريض السكان خاصة العرب المسيحيين بعدم دفع الضرائب بجميع أنواعها ،

(١) د. الكس كرم - تاريخ حيفا فى عهد الأتراك العثمانيين - حيفا - ١٩٧٩ م ١٣٤ .

ليرسلوا بعده ذلك بتقاريرهم لعواصمهم يشرحون فيها أوضاع البلاد معقبين بتوصياتهم وفق ما يرتأون لاختيار أنسب الطرق لهدم الدولة العثمانية .

ومن الأحداث التي أثرت على المنطقة سياسيا حفر قناة السويس في عام ١٨٥٩ وافتتاحها للملاحة سنة ١٨٦٩ م فقد جذب العمل في منطقتها العديد من تجار أبناء مدينة غزة فأقاموا الأكواخ هم وأبناء العريش والصالحية لبيع بضائعهم على عمال الحفر وبدؤ المنطقة واضعين بذلك حجر الأساس والنواة لمدينة « القنطرة شرق » (٢) .

وافتح القنطرة للملاحة بعد ذلك أضاف بعدا استراتيجيا ليس على مصر فقط بل وعلى فلسطين فان كانت سيناء منذ عهد الفراعنة تمثل عمقا استراتيجيا للدفاع عن مصر فالقنطرة عمقت هذا البعد الاستراتيجي وخلقت معه وضعا اقتصاديا مربكا من البداية على مصر بما أثقلته من ديون على يد الخديوي اسماعيل باشا ليصبح مقدمة للتدخل البريطاني والفرنسي فيما بعد ولينتهي باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ م .

فأصبحت القناة شريانا يربط الشرق صاحب المواد الخام الغنية والمغلوب على أمره وبين دول الغرب الاستعمارية المستنزفة لهذه الموارد والحايات ، وفي الوقت نفسه حدثت القناة من سيولة الحركة التجارية بين فلسطين عامة وغزة بوجه خاص ومصر . وأصبح المسافر العادي من أبناء غزة يسافر عن طريق البحر بدلا من البر . بالإضافة الى ذلك خلق « وجود القناة » جوا من المنافسة بين كل من بريطانيا وتركيا في التفكير بإنشاء قنوات بديلة على حساب الأرض الفلسطينية وكل وفق مخططاته المستقبلية .

فبعد أن استولت بريطانيا عسكريا على مصر سنة ١٨٨٢ م وأحسست بثقل المنافسة الفرنسية لها على القناة وحجبها في التدخل والسيطرة على الأراضي المجاورة في فلسطين والواقعة تحت النفوذ العثماني فكر الجنرال « غوردون باشا » بعد احتلال مصر بعام واحد وفي سنة ١٨٨٣ م أن تنشئ « انجلترا ترعة تمتد من حيفا الى بحيرة لوط (البحر الميت) ومنها لخليج العقبة تقوم مقام قناة السويس وتكون ملكا لبريطانيا مؤكدا لزميله المستر « ديمتريوس بولجر » الذي أطلعه سرا على هذا المشروع . ان احتلال بريطانيا لمصر غايته ضمان ربا الدين المصري البالغ تسعون مليوناً من الجنيهات والسيطرة على « ترعة السويس » (القناة) مما أدى الى وقوع المشاكل بين بريطانيا وفرنسا . واستطرد قائلا بأنه من المستحسن ان تنال بريطانيا من السلطان فرمانا لحفر ترعة واسعة توصل بحر الروم (البحر المتوسط) عند حيفا بالبحر الأحمر عند العقبة

(٢) ابراهيم غالي - سيناء المصرية المرجع السابق ص ٢٠٣ .

معدداً فواتيد هذا المشروع والتي من ضمنها التخلص من المشاكل التي نتجت عن احتلال مصر ومشاكل السودان (٣) ولم ير هذا المشروع النور . وبالمقابل فكرت تركيا عن طريق ضابط روسي بايصال البحر الميت بخليج العقبة وربطهما بالبحر المتوسط، للاستغناء عن قناة السويس مطلقاً على البحيرة الواقعة بين خليج العقبة والبحر الميت بعد الوصول (بحيرة عبد الحميد) (٤) . وكان ذلك في عام ١٨٩٨ م ولم يكتب له النجاح لأنه كان أعظم من قدرات الدولة التركية ، لكنها كانت إسقاطات تراود كلا الطرفين المتغلب على الآخر ولمدى ما أحدثته حفر القناة من تبدلات في السياسة العامة في المنطقة .

وازداد التفكير العثماني في البدائل ففكروا بإنشاء خط حديدي « سكة حديد بغداد » وخط سكة حديد الحجاز للاستغناء أيضاً عن قناة السويس من ناحية ولمجابهة التحديات والتحريض البريطاني لسكان اليمن ضد الدولة العثمانية ولتوطيد دعائم السياسة الإسلامية « جامعة الدول الإسلامية » الجديدة التي تبناها السلطان عبد الحميد والذي رأى بدوره أن هذه الخطوط الحديدية سلاح ذو حدين (٥) في حالة الضعف العثماني واستيلاء بريطانيا عليها . بعد ما مرقت وقارها هي وفرنسا على حد تعبير السلطان عبد الحميد لكسب امتياز مدهماً دون جدوى (٦) . وازدادت أساليب التدخلات الأجنبية بتركيز عمليات الاستطلاع على الأرض الفلسطينية التي أصبحت الآن « منطقة ارتطام » بين بريطانيا المحتلة لمصر والدولة العثمانية فتدفقت البعثات بحجة الدراسة والمسح الأركيولوجي والتنقيب عن البترول ظاهرياً لكن الواقع كانوا بمثابة طلائع استكشاف لهذه الأرض الحدية ، والا بماذا نفسر تأسيس « هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين » سنة ١٨٦٥ Palestine Exploration Fund لتبدأ أعمالها سنة ١٨٦٧م بقيادة ضابط مدفعية بريطاني صغير ثم ترسل من بعده بعثة أخرى سنة ١٨٧٢ م وتعمل حتى عام ١٨٧٨ م في طول البلاد وعرضها لرسم خرائط مساحية دقيقة مقياس رسم ١ : ١٠٠٠٠٠ (واحد لمائة ألف) بقيادة ضابط أيضاً يدعى كيتشنر H. H. Kitchiner وهو « اللورد كيتشنر فيما بعد » صاحب الشهرة الذائعة ومع كوندرا G. r. Condor (٧) لينتهوا من أعمالهم بكتابة ثلاثة مجلدات وأربع وعشرين خريطة تفصيلية دقيقة لفلسطين دون أن يمسحوا المنطقة الواقعة جنوب دير البلح ليأتي من بعدهم

(٣) المقتطف - المجلد التاسع والستون - يولييه - ديسمبر - ١٩٢٦ ص ٢٧٦ .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني - المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣٤ .

(٥) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني - المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٦) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ص ١٣٥ .

(٧) وليم ف. أولبرايت - آثار فلسطين - ترجمة زكي اسكندر و د. محمد عبد القادر

محمد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة - ١٩٧١ ص ٣٠ - ٣٤ .

« شوماخر » سنة ١٨٨٦ م ويكمل الدراسة والمسح فقط من دير البلح حتى « الشنيخ زويد » بسيّنا كما سنرى فيما بعد .

ثم لماذا تتخرج الحكومة المصرية من أمر تنقيب « فلنדרز بترى » فى الأراضى المصرية بعد أن اكتشف العديد من الآثار المصرية فيذهب من بعدها لفلسطين هو وغيره من أعضاء مدرسة الاركيولوجيا البريطانية بعد ما رأوا من المصاعب فى مصر على حد رأى معجاة ناتشر Nature (٨) ؟ !!

وهل تشبع مساحة الأرض الفلسطينية - خاصة تلك الواقعة شرق مدينة غزة حتى بئر السبع وجنوبها - القاحلة لأكثر من عشر شركات بريطانية وأمريكية للبحث عن البترول ؟ !! منها بعثة مستر هيل Hull الانجليزية سنة ١٨٩٣ وبعثة هربلوكين هورن Blanken horn سنة ١٩١١ وبعثة مستر براون سنة ١٩١٢ ثم بعثة دوى Doy سنة ١٩١٢ وبعثة الدكتور آرثر Arthur سنة ١٩١٣ وغيرهم ممن سبقوهم فقاموا بتعبيد الطرق لتربط بين مدن الخليل والسبع ومناطق التنقيب المزعومة فى « كرنب ، ونل الملبح » (٩) .

ولسوء الحظ لم تعثر أى شركة على قطرة من البترول وتضخ نواياهم من الشروط التى وضعوها أمام السلطان عبد الحميد ومنها حفر آبار جنوب الصحراء الشامية حتى إذا ما خرج الماء جعلوا المواطنين ينتفعون منه بشرط ان تكون مصادر المياه نفسها ملكا لهم (١٠) !! .

ولماذا هذا التكتف الواضح فى التوجه لهذه المنطقة ابان الحرب العالمية الأولى هل لموقع غزة كقاعدة لعمليات رئيسية للجيش التركى أم لمكانة « بئر السبع » الناشئة التى أعادت وجودها تركيا سنة ١٩٠٠ لتمثل قاعدة للجيش العثمانى للدفاع نحو قناة السويس ١٩ .

وظهر عنصر سياسى جديد فى خضم النهش فى جسد الدولة العثمانية ممثلا فى تأسيس اليهود « جمعية محبى صهيون » سنة ١٨٨١ م نتيجة لما تعرضوا له من اضطهاد فى روسيا يمثلون مجموعة تهدف للاستيطان فى الأراضى الفلسطينية فاستغلوا العديد من القناصل خاصة البريطانيين والفرنسيين اليهود - فى شراء الأراضى - القابضين على مقدرات الدولة العثمانية ومشاريعها يتحكمون فيها كما يشاؤون والذين ساعدوا اليهود من قبل فى تأسيس بعض المستوطنات لهم منذ عام ١٨٧٠) مستوطنة مكفا يزرييل (بالقرب من يافا « وبتاح تكفا »

(٨) المختطف - الجزء الرابع - المجلد ٩٦ عدد ١ ديسمبر ١٩٢٦ ص ٢٦٤ .

(٩) عارف العارف - تاريخ بئر السبع وقبلها - القدس ١٩٣٤ ص ٦٩ .

(١٠) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى - كتاب الهلال - عدد أكتوبر سنة ١٩٨٥

ص ١٠٤ - ١٠٥ .

سنة ١٨٧٨ شرق يافا ومستوطنات زخارون يعقوب وروش بينسا وريشون
لزيون وجميعهم في عام ١٨٨٢ (١١) . واستولت فرنسا سنة ١٨٨١ على
تونس فلم يجد السلطان عبد الحميد ازاء هذا الاخطبوط المتعدد الأطراف الا أن
يتخذ سياسة واقعية قائمة على مبدأ « الانحسار والتكثيف » سياسة ووسيلة
يحاول فيها استرداد ولو بعضا من عزيمة الامبراطورية فقرّر الانسحاب من
البلقان (١٢) . وعلى الرغم من ذلك ساءت علاقاته مع أوروبا أكثر وانهزمت
أمام روسيا في القوقاز وأوكرانيا .

وزدادت الهجمة الصهيونية تساندها بريطانيا ورؤوس الأموال اليهودية
المنتشرة في عواصم أوروبا والتي قادها «هرتزل» واضعاً أمام السلطان عبد الحميد
ملابن الليرات الذهبية ومخضبا العديد من ملوك وقياصرة وسفراء الكثير من
دول العالم للتدخل مع لسلطان في سبيل منحه أراض في فلسطين لاستعمارها
فأبى السلطان كل الاغراءات والضغوط مفضلاً عند الضرورة أن يمنحهم أراض
في تركيا لا في فلسطين خاصة بعد أن أعربوا عن نواياهم بوضوح في مؤتمراتهم
الأول المنعقد في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ م متخذين قرارهم الأول
بتشجيع هجرة واستيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقاً
لخطة مناسبة . كما أعلن هرتزل في سنة ١٨٩٩ م بلندن « بأن الفكرة
الصهيونية وهي فكرة استعمارية يجب أن تحظى في إنجلترا بفهم سريع وسهل »
ولقد فشل في اقناع السلطان عبد الحميد بمنح حقوق غير محدودة للهجرة
لفلسطين مقابل سداد الديون العامة للمملكة العثمانية (١٣) .

وعندما أحسوا بشئ من المنفعة فكرت بريطانيا لهم بإنشاء مستوطنة شرقي
قناة السويس في منطقة سيناء بواسطة اللورد كرومر الذي بذل جهوداً
مضنية هو وخبرائه الا أن المشروع قد فشل أمام عدم رغبة الحكومة
المصرية له (١٤) .

وركزت الصهيونية بعد ذلك جهدها مسخرة جميع مؤسساتها السياسية
والاقتصادية في وقت الوهن العثماني المحتضر وبدعم بريطانيا وهي في عنوان
تسلطها وجبروتها الاستعماري فأنشئت « الصندوق التأسيسي اليهودي »
« كيرن هيسود » وأنشأت دائرة خاصة لشئون فلسطين ثم أقامت مكتبا صهيونيا

(١١) Geography, I.P.L., Jerusalem 1973, p. 184-247.

(١٢) مذكرات عبد الحميد الثاني - المرجع السابق ص ٧٨ - ٨١ .

(١٣) يوميات هرتزل - اعداد آيس الصايغ - ترجمة هيلدا الصايغ - بيروت ١٩٧٣

ص ١٠٢ .

(١٤) ابراهيم أمين غالي - سيناء المصرية عبر التاريخ - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة -

١٩٧٦ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

في يافا سنة ١٩٠٨ م باسم « مكتب فلسطين » لبرمجة المخططات الاستيطانية وإقامت منطقة سكنية بالقرب من يافا سنة ١٩٠٩ كانت بمثابة نواة مدينة « تل أبيب » كمنافس لميناء يافا الفلسطينيين كما شكلوا في نفس العام شركة « انماء الأراضي في فلسطين » لشراء الأراضي بتمويل من « الصندوق القومي اليهودي » (كيرين كيميت لاسرائيل) الذي سبق أن تأسس سنة ١٩٠١ م .
أرست الحركة الصهيونية بذلك الأسس والدعائم التخطيطية والتنفيذية للتوجه نحو الاستيطان والاستيلاء على الأراضي بكل السبل مستغلين في البداية نظم الأراضي السائدة في البلاد بأنواعها المختلفة كالأراضي المملوكة والأميرية والموقوفة فأراضي الموات والأرض المتروكة ، متسبلين من خلال ما قبلت به الحكومة التركية خلال مفاوضاتها مع هرتزل سنة ١٩٠٣ والتي كشفها بنفسه للمؤتمر الصهيوني السادس والتي تنص على انشاء مستعمرات يهودية متفرقة في أنحاء الامبراطورية العثمانية دون أن يكون بينها رابط وينتفع بها المهاجرون دون سواهم (١٥) .

وكان بعض الناس من أصحاب الأراضي المملوكة يهبون أجزاء من أراضيهم للسلطان تبركا (١٦) وعلى وجه الخصوص من أولئك الذين لا يرثهم أحد مما زاد من مساحة أراضي السلطان والذي أخذ اليهود جزءا منها هبة من الحكومة التركية كما اشتروا أراضي من ملاك عرب غير فلسطينيين (عائلة سرسق - جدعون - القباني - التيان - خوري - مطران) أقاموا عليها مستوطنات تركزت في أقصى الشمال الفلسطيني في الجليل وبالقرب من طبرية وحول مدينة يافا كما أسلفنا . ولم يصلوا للجنوب الفلسطيني الا بعد عام ١٩٠٦ عندما اشترت المنظمات الصهيونية بواسطة القنصل البريطاني في مدينة غزة ووكيل هذه المنظمات عشرة آلاف فدان من أراضي سيناء بالقرب من رفح كما استخدموا قنصل بريطانيا في القدس وهو يهودي اسمه « كوتوفتش » لشراء أراضي فلسطينية تملكها الحكومة المصرية مساحتها ١٢٥ هكتار لصالح جمعية صهيونية « أجودات اسرائيل » (١٧) . فأصبحوا بذلك يمتلكون من عام ١٨٧٠ وحتى ١٩١٨ ما مساحته ٦٥٠ ألف دونم بما يعادل ٢٪ من مساحة الأرض الفلسطينية في الوقت الذي لم يتجاوز عددهم ٨٪ من عدد سكان العرب الفلسطينيين استوطنوا في ست وأربعين مستوطنة حتى عام ١٩١٤ م (١٨) .

ومن الأحداث المحورية مع مطلع القرن العشرين رسم أول خط هندسي حدودي تعسفي فاصل بين متصرفية فلسطين السورية كجزء من بلاد الشام

(١٥) د. محمد حسين هيكل - القضية الفلسطينية - تحليل ونقد - يافا - ١٩٣٧

(١٦) ديفيدس آلر - أحكام الأراضي - القسم الأول - القدس - ١٩٢٣ ص ٤٧ .

(١٧) جريدة الشعب - لسان حال حزب العمل الاشتراكي المصري - العدد ٢٨٦ ٢٨ مايو

١٩٨٥ ص ١٠ .

Geography, I.P.L. Ibid, pp. 184-187.

(١٨)

الخاضعة للدولة العثمانية وبين مصر وذلك ضمن اتفاقات معترف بها بين بريطانيا وتركيا بعد معارك سياسية ومناورات عسكرية بدأت منذ عام ١٨٩٢ م عندما أصدرت تركيا فرماناً بتولية الخديوى عباس محاولة فيه سلب سيناء عن أراضى مصر (١٩) ، لكي تدافع عن خط سكة حديد الحجاز الواصل بين دمشق والمدينة بعمق استراتيجى مساحته سيناء كعازل طبيعى يبعد بريطانيا عنه ، مما دفع الأخيرة لاستعراض عضلاتها ببوارجها الحربية البحرية التى أخذت تناور ما بين رفح تارة ومنطقة طابا فى خليج العقبة مرة أخرى . كما أراد الخديوى عباس أن يعزز هذه الحدود بزيارته لمدينة رفح فى ٥ مارس ١٨٩٨ فأمر محافظ العريش أن يسجل تاريخ هذه الزيارة على عمود رخامى يقع بين المتصرفية الفلسطينية ومصر (٢٠) .

واستمرت المفاوضات الساخنة سجالاً بين حكومتى مصر الخديوية ومن خلفها بريطانيا وتركيا اقترحت خلالها عدة خطوط بين رفح والسويس والعقبة تارة على هيئة مثلث يمزق سيناء الى قسمين واقترح آخر برسم مستقيم يشطر سيناء بشكل طولى يبدأ من شرق العريش لرأس محمد ومشروع ثالث تبدأ فيه الحدود من تل الخرايب على شاطئ بحر رفح حتى طابا على خليج العقبة (٢١) (انظر الخريطة) . لئن انتهى فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ م بالاتفاق على تحديدهما كما جاء فى نص المادة الأولى : -

(« يبدأ الخط الفاصل الادارى من نقطة رأس طابه الكائنة على الساحل الغربى لخليج العقبة ويمتد الى قمة جبل فورت مارا على رؤوس جبال طابه الشرقية المطلّة على وادى طابه ثم من قمة جبل فورت يتجه الخط بتل الخرايب على ساحل البحر المتوسط ») (٢٢) بطول يصل لنحو مائتين وأربعين كيلو مترا . (انظر الخرائط والصوره ١٤٢) .

وعليه أصبح هذا الخط ممزقا للقبائل العربية فى الجانب الفلسطينى والمصرى والمتجولة عبر الصحراء الواحدة سيناء والنقب الامتداد الطبيعى لها فحد من تجوالهم ومزق وحدة الملكية الواحدة على الرغم من تسميتها بالحدود الادارية فى نصوصهم وموائيقهم المكتوبة الا انه خط هندسى عسكرى وعلى الرغم من الترتيبات التى وضعت لحركة هبته القبائل التى وجدت ولأول مرة فى تاريخها المديد حداً أو خطاً - يحسب له حساب - ونشازاً غير متناسق أو متسق

(١٩) ابراهيم غالى - سيناء المصرية عبر التاريخ - المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٢٠) ابراهيم غالى - سيناء المصرية - المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٢١) عباس مصطفى عمار - المدخل الشرقى لمصر - القاهرة ١٩٤٦ ص ١٩٧ - ٢٠٠ .

(٢٢) د. حامد سلطان - مشكلة خليج العقبة - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة

١٩٦٦ - ١٩٦٧ ص ١٢ .

مع الحياة البدوية على جانبيه ولا مع حياة منطقة مدنية بها سكان هي « رفح »
لكي يشطرها بأسلوب فج لا يراعى فيه الجوانب الاجتماعية ولا حتى
الاقتصادية .

كما قلب هذا الخط الموازين العسكرية لصالح بريطانيا التي أصبحت
بموجبه كل سيناء عمقا استراتيجيا للدفاع عن القناة وأرضا فارغة من أى قوات
تركية يحسب لها حساب . فأضحى هذا الخط أشبه بسد يعوق التحرك بين
أبناء غزة « البوابة » المطلة عليه ومن خلفها فلسطين وبلاد الشام بل والقارة
الآسيوية بكاملها فكان أخطر خط صنع لسد هذه البوابة . . ولتصبح معه
مدينة غزة وقراتها أول مواقع المواجهة والمجابهة التي كادت أن تحدد مصير
بريطانيا العظمى فيما بعد وفى الحرب الكونية الأولى فانهزمت بها مرتين أفقدت
صواب لندن فى مدة وجيزة .

تلك هى أهم الأحداث التاريخية المحورية التي أثرت تأثيرا فعالا وعميقا
فى جسد الدولة العثمانية وفى المنطقة العربية وعلى رأسها بوابتها الآسيوية
والأفريقية غزة وإقليمها الجغرافى .

فما هو موقف العرب جميعا حيال هذه الأحداث فى الشام عامة ،
والفلسطينيين على وجه الخصوص والمستهدفين الأوائل وأبناء غزة الواقعين فى
منطقة التماس اللاهبة فى هذه الحقبة والمجاورين لمصر ؟

فقد أخذ أبناء مدينة غزة منذ البداية فى استغلال التنظيمات الخيرية الخاصة
بالأراضي بتسجيل ملكياتهم فى حجج رسمية وشرعية موثقة من المحاكم بتوقيع
قائمقام المدينة ورجال الدين كما سنرى عند دراستنا للملكية الأرض ضمانا
لتعزيز وتوثيق ملكياتهم وعقود البيع والشراء . فى وقت أخذت فيه الثغرات
الإدارية تتفشى وتوسع فى كيان الدولة العثمانية وما نجم عن ذلك من نزف
للأموال أنفقتة الدولة للقضاء على الدسائس التي تحيكها الدول الكبرى بواسطة
قناصلهم وشركاتهم فى الداخل . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد عايش
الشعب الفلسطينى محنة مصر المالية والسياسية فى هذه الفترة وهى تكابد
أهوال الديون أيام الحديوى اسماعيل باشا فتجاوب أبناءها جنبا لجنب مع
أخوتهم شعب مصر فانتقدوا السياسة المالية ومن بعدها التخطيط السياسى أيام
توفيق وأزروا الثورة العرابية وقد أعرب عن ذلك الشيخ يوسف شراب الشباب
الأزهري الغزى فى عام ١٨٨٢م بقصيدة شعرية انتقد فيها الأوضاع المالية
والسياسية قائلا فى مطلعها : -

من أرضهم وغذاء من غنائهم
أمرا ونهباً بتصويوب لفعلهم
فوق الذى لامام العرب والعجم
من الأمير على عنف لسلبهم

وصار يجلب لعمال أكسية
وفوضى الرأى فهم فى رعيته
وفى الخزينة قد صارت زواقيهم
وطارق النهب فى الأموال يطرقهم

وبعد تصوييره للفوضى المالية ونهب مقدرات الشعب على أيدي المحتلين من الانجليز انتقل منتقدا الوضع السياسي أيام الحديوى توفيق قائلاً :

وجاء من بعده خلف يغر به بدر المقنع فى أنحاء غربهم
وواعده خداعاً أنهم رهين الى أوامره ما شاء فى الحكم
وأودعوه موثيقاً موهمة بزخرف القول فى قرطاس كتبهم
مؤيداً بعد ذلك وهناصره الشائر أحمد عرابى فى ثورته ضد الحديوى
توفيق قائلاً :

فقام أحمد يحيى الدين مع نفر بأعوان النفوس على أثمان ربهم (٢٣)
وعلى أثر ذلك طرد الشيخ يوسف شراب ابن غزة من مصر مع مجموعة
المؤيدين لأحمد عرابى ومنهم الشيخ عبد الرحمن عيسى والشيخ محمد عبد الجواد
القاياتى والشيخ محمد عبد ذلك فى عام ١٨٨٢ م .

وتنامى العمل الوطنى ضد التدخلات الأجنبية والمشاريع الاستيطانية التى
بدأت تطفو على السطح جهاراً مع مولد الصهيونية فى مؤتمر بال بسويسرا
سنة ١٨٩٧ م وأصبحت « فلسطين » ذلك الجزء الجنوبى الذى لا يتجزأ من سوريا
الكبرى وكأنه وحدة سياسية مستقلة أفرزتها المخططات السياسية عنوة
فانفض أبناء غزة وعلى رأسهم نخبة من الشباب الأزهرى المتعلم والملىء
بالإيمان عن سخطهم وحبهم للاستقلال والحرية فقامت السلطة العثمانية فى أواخر
رمضان سنة ١٣١٥ (١٨٩٧ م) ليلاً بالقضاء القبض على كل من حنفى أفندى
المفتى بغزة سابقاً ومعه أخيه عبد الحى أفندى وابنه أحمد عارف وأيداعهم سجن
أنقرة بتركيا بتحريرض من القامقام حسن بك وجمال بك وتوفيق باشا متصرف
القدس . حيث مات المفتى وهو فى السجن « ١٩٠٥ م » . وقد سبق لوالد
هؤلاء وهو مفتى غزة فى ستينات القرن الثالث عشر الهجرى أن نفى الى مصر
سنة ١٢٨٢ هـ لمواقفه المعادية لتركيا ثم رجع لغزة على أثر تدخل اسماعيل باشا
فى سنة ١٢٨٥ هـ ثم أبعده ثانية للقدس فى سنة ١٢٨٦ هـ .

وقد وقف الرأى العام الفلسطينى فى غزة ما بين معارض شامت عليهم
وأسف صامت فكان من الفئة الأولى الذين عبروا عن معارضتهم بقصائد شعرية
وأكالوا السلطان بالمديح والثناء الشيخ عبد الله الغصين والشيخ أحمد مكى
والشيخ أحمد بسيسو الذى نورد من قصيدته مطلعها الذى امتدح فيها السلطان
ورجاله فى القدس وغزة قائلاً .

قله ماتت الغسايات وابتهج الورى حديث المسأل لظالم فى أنقرا
سلطاننا الجنازى جليل مهابة عبد الحميد الليث والسامى الذى
أهدى الى القدس الشريف سيده متصرفاً بأمورها لن يفجرا
توفيق بك ذى المعالى والعل بطلا هماما فارسا وغضنفرا

(٢٣) جمعت هذه القصائد من أوراق عديدة غير مطبوعة خطها الشيخ عثمان الطباع .

فى حين أنشد الأديب عبد الحى الحسينى ابن مفتى غزة سابقا وهو فى
سجن أنقرة قصيدة قال فى مطلعها : -

لئن نابنى دهرى مما أنا عاتبه ومن ذا يرجى رفق قرن يغالبه
وانى وهذا الدهر دوما كما نرى يجاذبنى طرف العلى وأجاذبه
وقالوا امتحنت اليوم قلت نعم لقد ظلمت ولم يستنكر الارث صساخه

ومن الصعب على المرء أن يقطع بيقين أى الفريقين على صواب فى وقت لم
تتضح فيه الرؤية السياسية لهؤلاء الذين وقفوا مع سياسة عبد الحميد عندما
نادى « بالجامعة الإسلامية » وسيلة لحل مشاكله أم أولئك الذين نادوا بالدستور
والاستقلال ضمن إطار سياسة تركيا الخارجية . فما تزال تركيا وسياستها
قضية للمناقشة والحوار .

الا أنها تبقى ظاهرة طيبة وطبيعية من شعب بدأ يتجاوب مع الأحداث
السياسية ولم تغلبه أو تسكنه ركامات أربعة قرون مضت بكل مآسيها .

وفى عام ١٩٠٨ ظهرت « حركة الشباب الأتراك » باعلانها الدستور
وتشكيل حكومة نيابية وابعاد السلطان عبد الحميد الذى رأى فيها أمرا مشبوها
قام بتحريض من انجلترا لتقويض حكمه والا لماذا لم تقم انجلترا نفسها حكما
دستوريا فى الهند وهى بلد متعدد العناصر من مسلمين ومسيحيين وبوذيين
... الخ ؟ وتريد تنفيذه فى الدولة العثمانية (٢٤) .

وواصل العرب كفاحهم فى نيل الاستقلال بأسلوب لا مركزى مع اشراكهم
فى السياسة الخارجية لتركيا ، ولما لم يجد ذلك ظهرت جمعيات وطنية مثل
« جمعية الاتحاد التركى » من العرب والترك وكان لها فرع فى غزة برئاسة
ضابط عربى عثمانى يدعى « سنوسى بك » يعاونه من أبناء غزة وضمن تنظيمه
أحمد عارف الحسينى الذى أطلق سراحه من قبل و خليل بسيوس رئيس بلدية
غزة السابق والحاج سميد الشوا ومحمد الصورانى وحسين خيال والشيخ محيى
الدين عبد الشافى أخذوا جميعا فى مقاومة سياسة التتريك التى بدأت تنفذ
مخططاتها فى المناطق العربية وبعد أن خيبت آمال العرب فى الاستقلال ، كما
قاوموا سياسة الاستيطان الصهيونية .

فقد أشارت التقارير البريطانية الصادرة من فلسطين الى استياء الفلسطينيين
ومعارضتهم للمستوطنين اليهود وعدائهم حتى للملاك من غير الفلسطينيين للأرض

(٢٤) مذكرات عبد الحميد الثانى السياسية - المرجع السابق ص ٧٨ - ٨١ .

لسهولة بيعهم لها دون اكرات وقام الفلاحون بمهاجمة الاراضى القريبة من بحيرة طبرية وتلك التى باعته « أسرة سرسق » وطردها منها العمال والفنيين مما أسفر عن استصدار قرار من تركيا بالغاء بعض الصفقات التى عقدها اليهود (٢٥) كما أمرت تركيا أجهزة الحكم فى فلسطين بمزيد من اليقظة والتصدى أمام أطماع وطموحات الصهاينة فى امتلاك الاراضى (٢٦) .

وتابعت هذه الجمعيات نضالها تكافح سياسة التتريك كما ناضلت من قبل سياسة عبد الحميد ومحمد رشاد تحت لواء « جمعية الاخاء العربى » سنة ١٩٠٨ « والمبتدى الأدبى » سنة ١٩٠٩ فى اسطنبول ومن أعضائه الغزيين مصطفى أحمد عارف الحسينى وعاصم خليل بسيمبو ورشدى سعيد الشوا ، فى الوقت الذى كانت تبدل فيه جهود سياسية تدعو للجهاد الاسلامى يقودها الشيخ عبد العزيز جالوش من زعماء الحزب الوطنى المصرى يساعده فى لبنان الأمير شكيب أرسلان يحاولون كسب أنصار ومؤيدين لدعوتهم فكان الأمير ينتقل بين المدن الفلسطينية فى كل من يافا ونابلس (٢٧) وعرج على مدينة غزة فى يوم ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) مجتمعاً بالحاج سعيد الشوا رئيس بلدية غزة فى منزله وبصحبتهم الشيخ عثمان الطباع أثناء مروره لمصر فى مهمة وصفها الطباع بأنها « سياسية » ولم يفصح فى أوراقه عما دار بينهم من حديث ، الا أن رئيس بلدية غزة كان له نشاط سياسى ودى مع الحكومية التركية فقد منحته النيشان الثالث العثمانى على حسن خدمته فى تجنيد العرب وذلك فى شهر صفر سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥/١٤) كما تم تبرئة ولده رشدى الشوا فى ٥/ جمادى الأول سنة ١٣٣٤ هـ ومعه عاصم خليل بسيسو (٢٨) فى حين تم اعدام مصطفى وأبيه أحمد عارف الحسينى بعد أن أعلنت تركيا اعدامهم جميعاً . وفى هذا العام أعلنت تركيا قيام الحرب .

هذه العوامل السياسية المحورية وعلى مدى أكثر من نصف قرن طبعته الأوضاع الادارية والاجتماعية وكذا الاقتصادية فى مدينة غزة وما حولها بل على الساحة الفلسطينية والعربية بطابع التسيب الادارى والفوضى الاجتماعية والتدهور الاقتصادى بشكل مهد للاحتلال الذى رسم لذلك وخطط وسنتابع تأثير ذلك على النظام الادارى والتركيبة الاجتماعية والديمغرافية والبنية الاقتصادية لمدينة غزة وقراها .

-
- (٢٥) جريدة الشعب - لسان حال حزب العمل الاشتراكى المصرى - عدد ٢٨ مايو سنة ١٩٨٥ ص ١٠ .
 (٢٦) د. يوسف هيكل - القضية الفلسطينية - المرجع السابق ص ٢٣ .
 (٢٧) الحرب العالمية الاولى - موسوعة تاريخية مصورة - الجزء العشرون - بيروت ص ٢٥
 وانظر الموسوعة العربية الميسرة - دار الشعب القاهرة - ١٩٦٥ ص ١١٧ .
 (٢٨) أوراق عثمان الطباع - غير مطبوعة .

السلطة الادارية

أخذت غزة وقراها تحتل مكانة لا تتعدى دور « القائمقاميه » أى يحكمها قائمقام ومركزه « سراى غزة » فى المنطقة الواقعة الى الشرق مباشرة من الجامع العمري الكبير [الدبويما فيما بعد] وتتلقى هذه القائمقامية رواتب موظفيها سنويا وتصدر لها الأوامر من والى القدس مباشرة ويعاون القائمقام مسئولون يمكن ترتيبهم وفقا لما جاء فى المراسلات الصادرة اليهم من والى القدس كالتالى : (٢٩) .

- قائمقام غزة وهو حاكم المدينة وقراها وعليه تنفيذ الأوامر الصادرة .
- نائب الشريعة ، أى القاضى الحنفى .

- مفتى أفندى ، وغالبا ما كانت هذه الوظيفة حكرا لبعض الأسر يتوارثها الأبناء عن الآباء كما هو الحال فى أسر تى الحسينى والعلمى فى غزة .

- قائمقام نقيب السادة الاشراف ، ويتم تعيينه من قبل السلطة العثمانية .
بأسطنبول مباشرة بعد أن يزيه علماء واشراف وارباب الكلام من سكان المدينة لما لها من مكانة فى نفوس العثمانيين خاصة وان نقيب الاشراف يشرف على شئون واحوال الأشراف من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام مستمدا سلطة خاصة فى الجهاز المحلى للحكم يحافظ بموجبها على مصالح هؤلاء ويمنع اذا لزم الأمر تدخل السلطة فى شئونهم . وفى فترات الضعف هذه تعدت سلطته حدودها لتدخل فى صلاحيات المساعدة فى جمع الضرائب كما رأينا سابقا وفى القرن الثامن عشر المنصرم (٣٠) .

وقد تقلد هذا المنصب فى غزة السيد مصطفى العلمى شعشاعة بعد عام ١٢٥٠هـ واستمر فيه حتى توفى سنة ١٢٦٨هـ خلفه فيه من بعده ولديه الحاج أحمد ثم الحاج محمد (٣١) وقد ورد اسمهما فى حجة بيع شرعية .

(٢٩) د. عبد الكريم رافق - غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٨٥٧ - ١٨٦١ - عمان ١٩٨٠ ص ٧ .
(٣٠) بطرس أبو منة - أعضاء جديدة على علو شأن المسيحية فى القدس - مجلة الشرق - العدد ٣ - تموز - يولييه ١٩٧٩ - حيفا - ص ١٨ - ١٩ .
(٣١) الشيخ عثمان الطباع - الشجرة الزكية - مخطوط ص ٨٨ - ٨٩ .

— يل نقيب الأشراف أعضاء المجلس ، ولم تشر الوثائق الشرعية الغزية التي تغطي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٥٧ - ١٨٦١م عن خصائص هذا المجلس أو صلاحياته يلي هؤلاء جميعا في المسئوليات الادارية أصحاب الألقاب التالية :

• وجوه البلد

• مختارو المحلات (المختار أو العمدة)

• مشايخ الحارات

• أرباب التكلم بوجه العموم

— مفاخر القبائل والعشائر ، وكان في منطقة غزة قبائل تقسم الى قسمين هما : —

— عربان بلاد غزة الصف الشمالى ، والتي تتمركز مضاربهم شمال مدينة غزة وعلى رأسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدى الحسينى ويحمل لقب شيخ مشايخ هؤلاء العربان •

— عربان بلاد غزة الصف القبلى ، ويسكنون جنوب غزة ويرأسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ عايش الوحيدى الحسينى الملقب بشيخ مشايخ العربان •

هذا بالاضافة لعربان « القديرات » جنوب شرقى غزة (وشيوخهم سلامة رقيق) وعرب العزازمة وبنى أيوب وعرب وادى موسى (٣٢) •

وقد اعتمدت عليهم الدولة العثمانية فى نقل المؤن خاصة القمح والشعير من غزة الى معان لحساب قافلة الحج الشامى (٣٣) كما كان الحال فى القرون التى سلت •

وهؤلاء جميعا كما أوضحنا سابقا يديرون شئونهم وفقا للعادات والاعراف المتداولة فيما بينهم ولا مانع من الاستعانة بالقوانين الحكومية اذا دعت الحالة كما سنرى عندما كانوا يشترون أراضى داخل المدينة أو يتزوجون من بنات القرى الغزية •

ونظرا لان هذه الوظائف الادارية غالبا ما كانت تنقل بالوراثة من الأب الى الابن أو فى أضيق الحالات لواحد من نفس الأسرة (الحسينى - العلمى) •

(٣٢) د • عبد الكريم رافق - غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية - المربع السابق ص ٧ - ٨ •

(٣٣) د • عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨ •

فقد خلقت جوا من التنافس الأسرى داخل المدينة ، كما كانت تخلق نوعا من الحساسية أو التدخل فى الشئون الداخلية فيما لو تم تعيين قائمقام أو مفتى أو نقيب أشرف من مدينة أخرى .

ونظرا لما عم البلاد فى هذه الحقبة من تدخلات سياسية كما أشرنا وما أصاب البلاد من جراء ذلك من تسيب ادارى عبر عنه ابناء مدينة غزة من الطبقة المثقفة والمتعلمة بأشعارهم يوم كان الشعر هو التعبير والوسيلة الشافية والمقنعة للتقييم والتقويم ، للنقد والاصلاح . وكان من أشعارهم ما يفصح عن جانب من الأوضاع الادارية السائدة داخل المدينة وما كان يقترفه بعض القضاة ورجال الافتاء والنواب والمتصرفين .

فها هو مفتى مدينة غزة السابق الشيخ أحمد محى الدين (سنة ١٢٦٢ هـ ظهر توقيعه على حجة شرعية) يبعد منفيا لمصر سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦ م) فأرسل قصيدة للخديوى اسماعيل باشا مستغلا قدومه من الأستانة شاكيا له فيها ظلمه وغرته قال فى مقدمتها :

غوثا لعبد كان فى أوطانه ينتمى لدولة عزكم وسنناها
مكرت به أعداؤه حتى احتفى فى حرمة لا يستباح حماها

واستمر يرفع شكواه حتى صدرت الأوامر من الأستانة بالسماح له بالعودة لمدينة غزة فى عام ١٢٨٥ هـ ليعود ثانية وبعدها بعام فقط الى القدس .

وها هو الشيخ صالح سكيك من أبناء مدينة غزة يفصح بشعره عن سوء الأحوال السياسية وتشاؤمه من الأوضاع ربما متأثرا بإبعاد مفتى غزة فيقول فى مطلع قصيدته سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٥) :

واعظم شدة وأشد بلوى معاداة الخسيس مع الرئيس
يبيح اليه عرضا مستهينا ويقدح منه فى عرض نفيس

ولعله يقدم لنا صورة اكثر وضوحا عن نساء رجال الادارة فى عهده فأنشد قائلا فى عام ١٨٨٨ م : -

ان الأولى كانوا بغزة هاشم أقمار سعد فى بروج سعودها
فتوحشت من بعدهم وتبدلت غلانيها بكلايها وقرودها
لا ترتجى من بعدهم خلا ترى من بشاشة وجهه لمريدها

ويبقى سوء الأحوال الادارية يضرب أطنابه مع أواخر القرن الثالث عشر الهجرى فيقدم لنا الشيخ محمد ساق الله الغزى صورة قاتمة لسلوكيات بعض

قضاة المدينة المدعو محمود شفيق من دمشق ويشكوه مباشرة بقصيدة شعرية
لشيخ الاسلام بالاستانة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) يقول فيها : -

أيها السامي مقاما	قيد علا هام الثريا
شيخ السلام هماما	فاضلا شهما تقيما
عندنا الآن قاض	دائما يزداد غيما
لا يعي فصل الدعوى	من تعاطيه الحميا
شربه شرب ذريع	عابه ما دام حيا
انه وانه والله عار	مشله يبقى وليا

وجاهد هذا الرجل في كشف التخلخل والتحلل الادارى رافعا شكواه لأعلى
المناصب الدينية في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، فعبّر عن ذلك في عام
١٢٩٧ هـ ليقدّم لنا صورة أخرى لماسى المدينة في قاضيها محمود أفندى الخاني
نقطتف من قصيدته الأبيات الناقدة التالية : -

الله نشكو قاضيا	هو في القضا سوء القضا
ما فيه من حسن سوى	بسط الأكف ليقبضا
وبكل زور باطل	قول الأيمة عارضا
ومجاهر بالارتشا	ومصرحا ومعرضا

واستمر الحال بالشيخ محمد ساق الله الحنفى الغزى حتى تم تعيينه
« مفتى » بمدينة غزة في تسعينات القرن التاسع عشر الميلادى فانفصل عن
الافتاء لتفتى الفتى والضغائن بين الناس فأرسل قصيدة للصدر الأعظم
بالاستانة يبينه شكواه ومسترحما العودة لوظيفته قال في مطلعها سنة ١٣١٠ هـ
(١٨٩٣ م) : -

يقول ناظمها من فكره دررا	محمد بن بساق الله مشتهر
ما جئت أستانه من غزة وطني	وساءنى في الطريق البرد والمطر
مع ان سنى ثمانون متممة	من السنين بدرس العلم أفتخر
الا لتقبيل اقدم اليك علت	هام الثريا التي يمحي بها الضرر
أرجو الاغاثة من أمر بليت به	مالى سواك لهذا الأمر ينتصر
وهو انفصالى عن الافتا بلا سبب	ولا أتيت بذنب منه يعتذر
بل كان ذاك الأمر سر مبدلى	بذى فساد جهول دأبه الضرر

ويضيف لنا الشيخ الغزى أحمد بسيسو ملامح أخرى عن صورة القضاة
المشوهة داخل المدينة يصف فيها بشعره القاضى محمود أفندى السرمينى
الحلبى والذين لقبوه « بالسخل » وكان قاضيا لمدينة غزة قال في مطلع قصيدته
سنة ١٢٨٨ هـ (١٧٧٢ م) : -

سرمين بلدته والسخل شهرته والكذب عادته فى كل ما قال
كم يدعى نسب الكيال من حلب فهل سمعت بكون السخل كيال
فى غزة بعض أهل سوء يصحبه اتعس بأسود وجه فى الردى جال

ويؤكد محمد عبده وزميله جمال الدين الأفغانى هذه الصورة القائمة للحياة الادارية فى يناير سنة ١٨٨٤م عندما أسدوا النصيحة لصديقهما « بلنت » الانجليزى المؤازر لهما فى محنتهما بعدم الذهاب للقسطنطينية لأنها تحت امرة « عثمان باشا » الصدر الأعظم الذى كرس كل اهتماماته « ليملا كيسه بالمال » واستطردا قائلين أما سوريا (الشام) فتسودها أفكار الحرية رغم طغيان رجال الشرطة والجواسيس (٣٤) . ولا ينكر السلطان عبد الحميد الثانى فى مذكراته هذا الوضع المهيئ الذى بلغ حدا ارتشى فيه صدره الأعظم السر عسكر « حسين عونى باشا » فتسلم نقودا من الانجليز مما دفع السلطان الى الاعتماد على « دراويش التكايا » كعيون له لكى يتعرف على « تفكير الرعية » على حد رأيه - تماما كما فعل من قبل جده محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) عندما وسع دائرة مخابراته بالدراويش ، والا فكيف يتسنى لدولة أن تعيش آمنة على حياتها وقد انحدر وزيرها الأعظم لهذا المستوى من التردى !؟ هكذا يتساءل السلطان عبد الحميد الثانى (٣٥) .

وهكذا نفشى سوء تصرف رجال الادارة فى هذه الحقبة بالذات مستغلين ومستثمرين مناصبهم وهم على أعلى درجات المسئولية فكيف سيكون الحال بالنسبة للقضاة والمفتشين من رجال الادارة القابعين فى مدن اطراف الامبراطورية كمدينة غزة وقد اكمل الوصف « براهيم المولىحى » الذى عايش السلطان عبد الحميد فى عاصمته فى الفترة الواقعة ما بين ١٨٨٥ - ١٨٩٢م فى كتابه « ما هنالك » قائلا [« يأتى المعزولون من المأمورين الى دار السلطنة فيدخلون وعبايهم مملوءة بالمال ورؤوسهم بالأحلام يطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتاب والحجاب ويقدمون الهدايا والتحف للنظار والوكيل والحاجب والنديم وعندما يعودون الى وظائفهم لا ترى منهم الرعية الا نمورا تميز الأجساد واسودا تفرق الأشلاء وإفاحى ناهششات ٠٠٠ وعرفوا ان لا عقاب على الرشوة ولا مؤاخذه فى استعمال القسوة »] (٣٦) .

(٣٤) كتاب س. بلنت - د. على شلش - الأفغانى ومحمد عبده - كتاب الهلال - يناير

١٩٨٦ ص ٧٣ .

(٣٥) مذكرات السلطان عبد الحميد - اعداد محمد حرب - كتاب الهلال - أكتوبر ١٩٨٥

ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣٦) مجلة الهلال - عدد يناير ١٩٨٦ ص ١٢٥ .

كان رجال الادارة فى مدينة غزة صورة لهذا الوضع اصبغ معه رجال العلم والاتباء يتفقون من الوظائف والمناصب وأصحاب الاقباب من « الأفندي » التى اصبحت تهمة يستنكرها الناس ولقد رسم لنا هذه الصورة بشعره أحد مشايخ غزة الشيخ عثمان الطباع عندما قال فى سنة ١٢٢٤هـ الموافق لسنة ١٩٠٦م :

تبا لأرباب الوظائف انهم أهل الشقاء والخزي والخسران
باعوا المروءة والمكارم والتقوى بالدرهم المبيوذ بالطفيلان
عدلوا عن الحق المبين وزينوا أعمالهم بوساوس الشيطان
هذا ما اتصف به أرباب الوظائف من الرشوة والبعد عن العدل
والانصاف بين الناس فيكمل لنا نفس الشيخ الطباع بلوحته الشعرية أخلاقيات
الموظفين ممن يحملون لقب « الأفندي » قائلا :

لا تصبحين من اللثام أفندي واترك مودته وأبعد عنه
لا ترتجى اسعافه لجوادث كل الضرر والمفاسد منه
خبث الأخصة مع سوء الفعال غدا فى فرقة قد دعوهم بالأفنديه
لذا بدا وجهه ما قالوه من زمن ان المراحیض تبني بالأفنديه

ولتأكيد هذا الوضع الادارى المتقلب . وحتى آخر سنوات الحكم العثماني
— فقد حدث أن فصل محمد رشدى — من رئاسة « بداية محكمة غزة » فتوجه
فوراً للاستانة فى شباط سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) ليتم تعيينه رئيساً لمحكمة
قضاء عكا التابعة لمصرفية طرابلس الشام فى حزيران من نفس العام .

هذا الفصل والتعيين فى مدى أشهر وجيزة دلالة قاطعة على التخبط
الادارى واتخاذ القرارات العفوية اللامسئولة اما لانتشار الرشوة والمحسوبية
كما بينا من قبل أو لتفسخ واسترخاء ادارى مقيت وينقل لنا هذه الصورة أحد
أبناء غزة وفى عام سنة ١٢٣٠هـ (١٩١٢م) يصف فيها نائب غزة قائلا :

عونا أمام العصر من ذى نائب بغزة أعيان الورى نائب
بقاؤه من أعظم المصائب اذا لم يكن فى حكمه صائب
مداره غدا بقبض اليد
مجاهر بالارتشا ومرتجى دوما يوافيه المنا ممن يعجى
ويخزن المقبوض عند المطرجى لذا سموه فى الورى بالمطرجى
بنى ظلمه ببغى جمع النقد

ووقف مع هذا الشاكى الأديب الفلسطينى الشيخ سليم أبو الاقبال
اليقوبى اللدى مؤازرا ومناشدا أهالى غزة محنتهم فيه قائلا :

يا آل غزة أودى المطرجى بكم والمطرجى كداء السبل فى الجسد
أن تنبذوه تنالوا كل مكرمة أو تطردوه تريحو الناس فى البلد

هكذا أصبحت الرشوة وسيلة من وسائل تخريب الإدارة التنفيذية
للسلطة العثمانية وعلى أيدي رجال إدارتها أنفسهم ، والتي استفحلت على
مدار أكثر من نصف قرن ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر وحتى بداية
الحرب العالمية الأولى وهكذا فقط وفقا لما عثرنا عليه .

وقد حدث قبل نهاية القرن التاسع عشر وفى عام ١٨٩٣م تشكيل أول
مجلس بلدى لمدينة غزة برئاسة الحاج مصطفى العلمى مستمرا فى رئاستها
حتى عام ١٨٩٨م ليخلفه ابنه الحاج أحمد العلمى وحتى عام ١٩٠٢م ليأتى بعده
على الشوا الذى استمر فى البلدية حتى ١٩٠٦م ليخلفه الشيخ عبد الله العلمى
فى عام ١٩١٠م ترأس البلدية خليل بسيسو ليرأس بعده البلدية الحاج سعيد
الشوا الذى بنى مقرا للبلدية (صورة ١٤٣) .

وقد جاء فى مرسوم التعيين الصلاحيات الواجب اتخاذها من قبل رئيس
البلدية :

« يجب ان تداوم على الحضور الى المجلس صارفا الهمة بالاتفاق على
عموم أعضائه لاستكمال وسائل طهارة البلده ونظافتها وتعديل أسعار ارزاقها
وتحسين عمرانها حسب التعليمات التى ترد من مركز الولاية ايجابا لحياتك
واقتضاء لفرايض الغيرة الوطنية والانسانية » (٣٧) .

أما القرى المحيطة بالمدينة فتتبع بطبيعة الحال فى جميع شئونها الادارية
والمدينة لمدينة غزة نفسها . وفى عام ١٩٠٤ أصبحت مدينة غزة تتبع متصرفية
القدس كما كانت سابقا والتي لها علاقتها المباشرة بوزارة الداخلية بتركيا دون
أن تتبع أية ولاية لمكانتها الدينية ولكن الجديد هو فى تشكيل أفضية أربعة
هى غزة ويافا وبئر سبع وخليل الرحمن أصبح معه قضاء غزة يضم أصغر
مساحة جغرافية له وحتى قيام الحرب العالمية الأولى .

الفصل الثامن عشر

التركيبة الاجتماعية

- الأحوال الاجتماعية
- مكانة المرأة العزبة
- التعليم في غزة
- الوقف كظاهرة اجتماعية

على العكس من الطبقة الادارية الحاكمة والضاغطة بانفلاتها عن كل النظم على كاهل الشعب عاش أبناء مدينة غزة فيما بينهم بقوة الايمان الذى يعمر فلوبهم تزكيتهم وتحليلهم روح التسامح الدينى ليس على أنفسهم بل وعلى الجميع من أبناء الطوائف الدينية الأخرى . فلا وجود للنظام الطبقي الفارق بينهم ، فالقطاع العسكرى العثمانى جعل الجميع من أبناء المدينة وهم جزء من الشعب الغزى الفلسطينى يعملون كفلاحين يحرثون الأرض ويفلحونها ويجنون ثمارها ليقدموا جزءا منها للمتسلمين على هيئة ضرائب (باستثناء قلة قليلة جدا من أسر الحكام والمتزيمين والأغوات الذين تمتعوا بمزايا امتلاك الاراضى وفقا لنظم الاقطاع العسكرى) .

واعتمد هؤلاء الفلاحون وهم السواد الأعظم من السكان على فائض انتاجهم لبيعه لأصحاب الحانات فى قلب المدينة الأم (فوق المدينة وعلى الحرفيين وأصحاب المصانع البسيطة . ليسدوا حاجاتهم اليومية .

هؤلاء جميعا تربطهم وشائج الود دون انفصام بين المسلمين الغالبية العظمى وبين اخوانهم من العرب المسيحيين .

ومن واقع المعلومات التى أمدتنا بها وثائق المحكمة الشرعية لمدينة غزة فى الأعوام الواقعة بين سنتى ١٨٥٧م سنة ١٢٦١م (٣٨) . نجد أنه لم يكن هناك خط أو شارع تعيش فيه فئة دينية أو اثنوغرافية معينة .

وان اختلفت أسعار المنازل - فى الحى الواحد - التى بيعت فى هذه الفترة فان ذلك مرده لبعده المنزل المراد شراؤه عن مركز المدينة التجارى (قصبة السوق) التى يتوسطه « جامعها العمرى الكبير » لا الى قيمة الأرض فى حد ذاتها أى أن الذى يحدد السعر هو « موقع المنزل » بالنسبة لمركز السوق وليس لطبقة اجتماعية معينة تسكن الحى ، فالمنزل الذى يبع بالقرب من مسجد الشيخ عثمان تشقار وهو يبعد عن قصب السوق والجامع العمرى الكبير بنحو مائة متر تقريبا يحى الزيتون كان أغلى سعرا من المنزل فى خط مسجد الشمعة والذى يقع وفى نفس الخط بنحو ٢٠٠ متر الى الجنوب من الأول وهذه المنطقة منازلها أغلى ثمننا من تلك الواقعة الى الجنوب منها وفى نفس الخط والواقعة بالقرب من « مسجد البطل » الواقعة تقريبا عند نهاية سفح تلة المدينة لتبدأ الاراضى الزراعية والسواقى والتى يمثل الحد النهائى لمعمور المدينة .

(٣٨) د . عبد الكريم رافق - غزة - المرجع السابق ص ٢٦ .

هذا التباين في الأسعار مرده كما ذكرنا الموقع أو البعد عن مركز المدينة
لا الى التمايز الطبقي فجميع هذه المنازل واقعة في « حى الزيتون » وفي خط
واحد (شارع واحد) فقط .

ولم يكن بالمدينة حى خاص للعرب الفلسطينيين المسيحيين في هذه الحقة
من النصف الثانى من القرن التاسع عشر بل كانوا جميعا منتشرين في شتى
أنحاء المدينة وفي أحيائها ولو أن معظمهم كانوا يتركزون في خط واحد (هو
الخط السابق الذكر فيما بين مسجد قشقار ومسجد الشمعة في حى الزيتون
(حوالى سبعة منازل) .

هذا الانتشار وعدم التركز في حى خاص بهم يعود لقلة عددهم بالنسبة
لبقية السكان المسلمين وعليه كانوا جميعا يسكنون جنبا لجنب مع منازل
أخوتهم المسلمين كذلك الحال بالنسبة لأماكن عملهم « أى دكاكينهم » فالبعض
امتلك « دكانا » في قسبة سوق الشجاعية والزيتون وحى الحضر والبرجلية
مشاركين أخوتهم المسلمين في البيع والشراء (٣٩) بحرية وسماحة لا تشوبها
شائبة التعصب أو التوقع بدليل عدم محاولة المسيحيين شراء منازل المسلمين
الواقعة بجوارهم عند طرحها للبيع وغير مستغلين حق الجوار بالشفعة
لامتلاكها (٤٠) .

كما اعتمدت المحاكم الشرعية بمدينة غزة شهادة المواطن المسيحي
بالنسبة للمسلم بمساواة تامة ودعمت ذلك السلطة العثمانية في تنظيماتها
الصادرة سنة ١٨٥٦م وفي قانون العقوبات الجديد سنة ١٨٥٨م والقاضى
بالمساواة بين جميع السكان بقطع النظر عن مذهبهم وقد أبلغ قائم مقام غزة
من والى القدس بوجوب تطبيق وتنفيذ المساواة والعدالة « من كل صنف وتبعه
ومن أى ملة ومذهب » (٤١) .

ولم تشر هذه الوثائق حتى بداية الستينات من القرن التاسع عشر سنة
(١٨٦١م) عن وجود يهود يسكنون المدينة كذلك لم يرد ذكرهم على لسان
« طومسون » حين زار المدينة سنة ١٨٥٧م وتحدث عن سكانها (٤٢) . وفي
نهاية السبعينات وفي عام ١٨٨٧م ذكر جات Gatte القس النمساوى بوجود
« حى لليهود » داخل المدينة في حين لم يذكر شوماخر Schumacher
سنة ١٨٨٦م والذي زار المدينة قبله بعام واحد عن وجود يهود داخل المدينة

(٣٩) د عبد الكريم رافق - غزة المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧ .

(٤٠) د عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٣٩ .

(٤١) د عبد الكريم رافق المرجع السابق ص ٤٢ .

(٤٢) w.M. Thomson, The land and the book, Londo 1913, p. 547.

مبيناً أن بالمدينة مائتى مسيحي ، وقد لاحظ أثناء تجوله بقرية دير البلح وجود أسرة مسيحية واحدة وفدت للمدينة فى نفس العام قادمة من السلط (٤٣) .

وقد بقى الحال على ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر ليسجل السيد مناير Meyer سنة ١٩٠٦ نقلاً عن السيد سبورل D. Sourdel أن بالمدينة ١٦٠ يهودياً منهم ثلاثون من السفارديم (٤٤) ، وإن افترضنا وجود مثل هذه الفئة الدينية اليهودية فإننا لا نجد لها فعالية اقتصادية أو حتى اجتماعية تذكر . وعلى العكس كان المسيحيون الذين امتلكوا منازل وأراضى زراعية ومحلات للبيع والشراء فى معظم أسواق المدينة وأشهر الوثائق الشرعية الغزية بوجود طائفة « النور » بمدينة غزة (٤٥) . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطائفة قد تركزت فى سكنها على أطراف المدينة للشرق من حى الشجاعية (التركمان) وفى أقصى الطرف الجنوبي الغزي (حى الزيتون) وقد احترقت الحدادة الخاصة بالمواقد ومستلزماتها وشحذ آلات وأدوات الزراعة كالمحاريث والفؤوس . وقد اختلف العديد من الدارسين عن موطنهم الأصلي سواء أكانوا من الهند أو مصر أو نجد أو قدموا من القسطنطينية وكذلك عن مدلول اسمهم هل هو كما يقول « كارتير مير » مشتق من الكلمة العربية « النار » والفعل العربي لها « نور » لأنهم كانوا يشاهدون وهم يحملون الفوانيس (٤٦) ؟ .

فأيا كان مصدرهم يبقى أن موقع مدينة غزة الجغرافى كعقدة مواصلات وبوابة لقارتى آسيا وأفريقيا ومركز تجارى هام فى القرون الوسطى وحتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً لا يمنع من استقرار فئة من هؤلاء للارتزاق وهم لا يزايدون عن عشر أسر تقريباً فى المدينة .

كما نزل بمدينة غزة هنود مسلمون أقيمت لهم زاوية فى قلب المدينة التجارى تحمل اسم « زاوية الهنود » للآن ولكن هذا لا يعنى توطنهم بها .

ولأهمية هذا الموقع احتل مكان التجمع بين حجاج المسلمين فى جناح الوطن العربى الأفريقى وفى مقدمته مصر وبلاد المغرب والآسيوى مثلاً فى سوريا الكبرى حيث يتجمعون فى المدينة كمركز لمحمل الحجاج بقيادة حاكم المدينة لذا فضل الكثير من هؤلاء الحجاج بعد العودة الإقامة فى المدينة وبناء

G. S. Schumacher, Researches in Southern Palestin, P.E.F., (٤٣) 1886, p. 179.

M. A. Meyer, History of the city of Gaza, New York, 1966, p. 108. (٤٤)

(٤٥) د. عبد الكريم رافق - غزة - المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨ .

(٤٦) د. نبيل حنا - البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع الفجر - دار المعارف - القاهرة

١٩٨٣ ص ١٠٦ - ١٠٩ .

المساجيد وشراء الأراضي كما بينت الوثائق الخاصة بشراء الأراضي في سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) والخاصة بملكية محمد أغا أبي بكر زنداح المغربي (وثيقة رقم ٨ =)

كما أوضحت الوثائق أيضا ذكر العديد من الأسر المغربية التي أقامت في المدينة منها استيفاء الحرمة حفيظة بنت المرحوم محمد أغا البرعصي المغربي مبلغا من المال من زوجها عبد الحفيظ البرعصي المغربي في عام ١٨٥٩ هـ . وجاء ذكر سكنى الحاج هيبه المغربي بمحلة الشجاعية يخط الشيخ محمد الطيار (٤٧) .

كما استقر في غزة العديد من الأسر العربية المصرية من مناطق الصالحية ومن طائفة السعاديين وأكباد الغتايوة سكنوا جميعا في منازل اشتروها لأنفسهم في أحياء الزيتون والشجاعية والبرجلية واختلطوا بالسكان بفعالية وعملوا في وظائف فمنهم من عمل « دقاق بارود » وآخرون في « الكرنتينه » الواقعة جنوب المدينة مباشرة (نهاية شارع الكمالية) . كما سكنوا قرى غزة في خان يونس ودير البلخ وبيننا وجولس وزرنوقه (٤٨) وهؤلاء جميعا عاشوا بالمدينة عربا مسلمين متضامنين متكافلين تحت مظلة الاسلام التي لا تعرف الطبقية أو التمايز الا بالتقوى .

مكانة المرأة الغزية :

لقد تعدى دور المرأة العربية الفلسطينية في غزة وقراها وظيفة « سيدة البيت » المتفرغة لأعمال الطهي وتنظيف وترتيب منزلها لخدمة زوجها وأولادها الى ما هو أوسع مدى وذلك بمشاركة زوجها في الحقل زراعية وعناية وحصادا كما أوقفت في المدينة الكثير من أموالها الخاصة لخدمة العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية كما رأينا مع بداية العهد العثماني ونهاية الفترة المملوكية (وثيقة رقم ١ =) كما ساهمت في عمليات البيع والشراء فاشترت وباعت أراضى زراعية داخل المدينة وخارجها (وثيقة رقم ٩ =) .

ووقفت بنفسها في المحاكم بخصوص زواجها أو طلاقها كما وقفت كمدعية ومدعى عليها وفي بعض الحالات وكما ظهر في وثائق غزة الشرعية في خمسينات القرن التاسع عشر كان ينوب عنها زوجها أو أحد أقاربها .

كما عملت المرأة العربية الفلسطينية في غزة في صناعة الألبان وبيعها وقطف القطن وغزله ونسجه في قاعات الحياكة المنتشرة في معظم أحياء المدينة في الشجاعية والبرجلية .

(٤٧) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص. ٤٦ .

(*) لا تزال هذه الأسر تعيش في غزة .

(٤٨) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٤٥ .

كما أقرضت العديد من الرجال ومنهم الحرمة (زينب الرملي) التي بلغت قيمة تركتها ٣٣٢٦٧ قرشا أسديا منها ٩٣٥٢ قرشا قيمة حليها ونقود ، كما أعطت ١٦ ألف قرش دين عقده مع شخص يدعى أحمد عودة (٤٩) .

وكان لبعض الأسر الغزية في هذه الحقبة من النصف الثاني للقرن التاسع عشر جوار بيعت احدها وهي سمراء في سنة ١٨٥٩ م بمبلغ ٢٥٠٠ قرش أسدي وكانت من ضمن جوارى أحمد عودة البطل (٥٠) .

أما المرأة المسيحية فان ظهورها في المحاكم كان أقل من ظهور المسلمات ربما لأسباب دينية تسمح لهن بالتوجه الى مكان آخر غير المحكمة .

وعموما كانت المرأة العربية المسيحية تجارى المسلمة في ملابسها فكان لها حجابها الشبيه بحجاب المرأة المسلمة المتمثل في (الكاب ومنديل وشطيرة) وجميعها سوداء اللون وتلبسه نساء أحياء الحضر والدرج والبرجلية أما نساء الشجاعة التركمان فكن يلبسن ثوبا فضفاضاً لونه أزرق بأكماء غريضة عند معصمهن (أردان) وعلى وجوههن «برقع» من القماش مرصع ببعض النقود الفضية متدلّيا على جانبي رأسها بحيث يكون وجهها مكشوفاً وتغطي رأسها بغطاء أبيض يسمى (غطراس) أى غطاء رأس . أما نساء الشجاعة الجديدة والتفاح والزيتون فيلبسن جميعاً ثوبا لونه أسود ويتميز باتساعه وتغطي رأسها بغطاء أبيض يتدلى على ظهرها تحجب به وجهها باستثناء عينيها فقط .

ولعل الدراسة التي قام بها الدكتور رافق على عينة عشوائية من الوثائق الشرعية لمحكمة غزة في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٥٧م و ١٨٦١م ، تعطينا صورة ولو بشكل محدود عن ملامح الحياة الاجتماعية لظاهرة الزواج والطلاق على الرغم مما قد يتكرر من حالات للزواج أو الطلاق ، إلا أنها تقدم لنا ظاهرة اجتماعية حيث وجد أن هناك إحدى وخمسين (٥١) حالة زواج يقابلها سبع وثمانون حالة طلاق . مما يضيف جوا من عدم الاستقرار الأسري - ولو جزئيا - ناجم عن سوء الأحوال الاقتصادية ومن المتزوجين الواحد والخمسين كانت الزوجة في ثلاث وثلاثين منها بالغلة عند الزواج وقاصرة في الحالات الباقية (٥١) التي تمثل أكثر من ٣٠٪ من حالات الزواج .

مما يعكس وضعا اقتصاديا واجتماعيا له مميزاته في هذه الفترة متصفا بالتدني والفقر لنسبة غير ضئيلة على الأقل من الناس خاصة لو علمنا أن متوسط مهر البنت للعينة العشوائية نفسها ١٦١٨ قرشا أسديا في حين وصل

(٤٩) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٦٨

(٥٠) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٤٦

(٥١) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٥

متوسط مهر البنت القاصر ١٧٢٥ قرشا أسديا ويمكننا أن نحكم على هذا المبلغ من المهر لو عرفنا أن متوسط سعر شراء المنزل في مواقع مختلفة من أحياء المدينة في نفس الفترة بلغ ٣١٠٠ قرش وقيمة الدكان ٢٢٥٠ قرشا

أسديا على المتوسط (٥٢) . وهذا يعني أن مهر البنت يعادل أقل قليلا من نصف قيمة المنزل للدلالة على ارتفاع قيمة المهر .

أما الزواج من غير البالغات فيرجع لظروف اجتماعية في غالبية أهمها زواج الأقرباء من بعضهم البعض ، وأحيانا يفضلون الزواج من الصغيرة إيماناً منهم بسهولة تربيتها وتطبيعها وفقا لسلوكياتهم وظروف تربيتهم . كما أن للفقر أثره في تفضيل الأب تزويج بناته وبسرعة خاصة عند نهاية الخسب العثماني يوم كان معظم الرجال يساقون للجندية ولم يبق في البيت إلا المسنون هذه الأحوال السياسية أيضا سببت تعجيل الزواج لما أضافته أيضا من القلق في نفوس الناس والاضطراب الأمني دفع العديد للتعجيل في زواج بناتهم صونا للعرض وتخفيفا من النفقات على الأسرة التي يعولها والتي هي في الغالب أسرة مركبة .

وقد كانت هناك علاقة مودة ومصاهرة بين السكان البدو وسكان القرى على الرغم من أن البدو غالبا ما يأنفون من زواج القرويات أو المدن إلا أننا نجد الشيخ عوض بن الشيخ سلامة أبي رقيق شيخ عرب القديرات قد تزوج من أمونه البكر البالغ بنت المرحوم أحمد الشاعر اللهواني (بيت لاهيا) بمهر مقداره ٤٥٠٠ قرش أسدي في شهر فبراير سنة ١٨٥٧م . مما يؤكد سعة عيش هذا الشيخ .

التعليم في غزة :

تمركزت مراكز التعليم في مدينة غزة ومنذ بداية الفترة الإسلامية في الجوامع والمساجد والزوايا ولم تنفرد بمؤسسات أو مبان خاصة بها إلا في العصر المملوكي الذي وجدنا فيه انتشار المدارس في معظم الأحياء وكانت غابيتها ملحقة أو قريبة من الجوامع والمساجد مثل مدرسة السلطان قايتاي بالقرب من جامع في حي الشجاعية والمدرسة الحنفية والمدرسة الجركسية (الزاوية الاحمدية) بحي الدرج ومدرسة بالقرب من مسجد السيد علي المغربي وجامع ابن عثمان ومدرسة الباسطية في حي الشجاعية ورواق محمد بن مقبل الرومي الخاص بتعليم طلبة غزة والذي استمر حتى قبل مجيء العثمانيين كما رأينا من قبل .

واستمرت هذه المدارس تعمل حتى الحملة الفرنسية التي هدمت بعضها منها ودمرت الأقطار والهزات الأرضية بعضها آخر مع بداية القرن التاسع عشر .

ومع نهاية الفترة العثمانية أخذت هذه المدارس تتفوق داخل الجوامع والمساجد فقط فلم يهتم العثمانيون ببناء المدارس الخاصة بالتعليم داخل المدينة باستثناء تلك التي جاء ذكرها في الوثائق الشرعية لمحكمة غزة (١٨٥٧ م - ١٨٦١ م) واسمها « المدرسة الحسنية » بمحلة البرجلية (الدرج حاليا) بالقرب من الجامع العمري الكبير (مكتبة الظاهر بيبرس سابقا) . حيث يتلقى الطلبة علومهم الدينية واللغوية في الغالب الأعم ليواصلوا بعدها تعليمهم بالأزهر الشريف بالقاهرة ليعودوا بعدها لمدينتهم يعملون إما في التدريس أو داخل المحاكم الشرعية وكثيرا ما كانوا يتسلمون مناصب خارج مدينتهم وفي مدن عربية أخرى يوم كانت أرض العرب للعرب تحت راية الاسلام بلا حدود .

وقبل أن نتحدث عن أحوال التعليم في غزة ابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب الكونية الأولى نذكر هنا من نبغ من أبناء هذه المدينة في الفترة السابقة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين منهم :-

- القاضي تقي الدين التميمي الغزي الذي جال في عديد من البلاد الرومية وألف العديد من الكتب منها كتاب « طبقات الحنفية » وقد عمل بالقضاء مدة طويلة خلص منها بتجربة قائلا :

من تمنى القضا فلا تعطينه واجعل الموت سابقا للقضا .

وقد توفي بمصر سنة ١٠١٠ هـ (٥٣) .

- الشيخ حسين بن عبد الكريم بن عبد الله الملقب زين الدين الغزي المعروف بابن النخالة الشافعي تعلم في صباه بمدينة غزة ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف بمصر سنة ٩٩٨ هـ ليعود لمسقط رأسه ويعمل مفتيا للشافعية حيث توفي سنة ١٠٥١ هـ (٥٤) ودفن بغزة .

- شرف الدين المعروف بابن حبيب الغزي الحنفي وكان عالما جليلا وفقها متمكنا له عدة تأليف منها حاشيته المشهورة على الأشباه والنظائر لابن نجيم سماها « تنوير البصائر » وله كتاب « محاسن الفضائل بجمع الرسائل » (٥٥) .

(٥٣) محمد المحبى - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر - الجزء الأول - المطبعة الزهية المصرية - ١٢٨٤ هـ - ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٥٤) محمد المحبى - خلاصة الأثر - الجزء الثانى - المرجع السابق ص ٩٤ .

(٥٥) - محمد المحبى - الجزء الثانى - المرجع السابق ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

- الشيخ شعبان المعروف بابن القرون الغزى وقد اشتهر بمدينة غزة حيث اتخذ لنفسه طريق الأحمدية عن الشيخ أحمد الجركسى خليفة السيد أحمد البدوى . وقد ذهب لدمشق سنة ١٠٤٥ هـ ليحج من بعدها ثم يعود لغزة ، وكان لهذا الرجل مكانة كبيرة بالمدينة لما له من أحوال عجيبة وتوفى سنة ١٠٧٦ هـ (٥٦) . ودفن غرب مدينة غزة حيث أقيم بجواره مسجد يحمل اسمه (مسجد الشيخ شعبان ومقبرته) .

- صالح بن محمد بن عبد الله بن أحمد الخطيب التمرتاشى الغزى وكان رجلا بحتة وله عدة تأليف فى الفقه ونظم أشعارا عديدة وقد ولد بغزة سنة ٩٨٠ هـ وتوفى سنة ١٠٥٥ هـ وقد نبغ من هذه الأسرة العديد من العلماء فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) منهم محفوظ التمرتاشى الغزى (٥٧) .

- عبد القادر الغزى الشافعى المعروف بابن الغصين :

ذهب لمصر لتلقى العلم على أيدي مشايخها منهم أبى العباس المقرئ والبرهان اللقانى فبرع فى عدة علوم سنة ١٠٣٣ هـ ليعود لمدينة غزة سنة ١٠٣٧ هـ حيث توفى بها سنة ١٠٨٧ هـ (٥٨) .

- على الغزى القاهرى الشافعى الملقب علاء الدين وهو عالم محقق ولد بمدينة غزة سنة ٩٣٣ هـ ونشأ بها ثم ذهب لمصر ولازم عدة مشايخ ليذهب من بعدها لمدينة حلب سنة ٩٦٩ هـ وقد فسر القرآن وتوفى سنة ١٠٠١ هـ (٥٩) .

- عمر المشرقى الغزى ، وهو رجل علامة اشتغل بالعلم وصار من أجلاء علماء المدينة وأصبح مفتيا بها وله أشعار عديدة توفى سنة ١٠٨٧ هـ ولهذه العائلة (المشرقى) شهرتها بغزة ونبغ منها العلامة الشيخ محمد المشرقى وقد توفى سنة ٩٨٠ هـ (٦٠) ولهذه العائلة أيضا أوقاف عديدة فى غزة كما سنرى .

هؤلاء هم صفوة من علماء أجلاء غزة فى القرن الحادى عشر الهجرى . (السابع عشر الميلادى) أما أولئك الذين نبغوا فى العلم فى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى فمنهم على سبيل التمثيل لا الحصر :

(٥٦) - محمد المحبى - المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٥٧) - محمد المحبى - المرجع السابق ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٥٨) - محمد المحبى - المرجع السابق ص ٤٣٧ .

(٥٩) - محمد المحبى - الجزء الثالث - المرجع السابق ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٦٠) - محمد المحبى - خلاصة الأثر - الجزء الثالث - المرجع السابق ص ٢١٢ - ٢١٤ .

- ابراهيم بن سفر الغزى :

تعلم فى مدينة غزة ثم واصل تعليمه بمصر حيث مكث بها خمسة عشر عاما قضاها فى التحصيل ثم عاد لمدينته وله أشعار عديدة (٦١) .

- حسن بن محمد بن أحمد المعروف بالنخال الشافعى الغزى العمروى .
(نسبة لحنى بنى عامر) ارتحل لمصر طلبا للعلم ثم عاد لمدينة غزة وتوفى بها سنة ١١٦٥ هـ (٦٢) .

- حسين باشا مكى الغزى :

كان جده من كبار تجار غزة وقد نشأ حسين فى حجر الشيخ حسين خليفة الشيخ شعبان أبى القرون وأصبحت له مكانة علمية حتى سنة ١١٥٥ هـ الى أن وصل الى مرتبة حاكم غزة ثم أصبح حاكما للقدس سنة ١١٦٩ هـ ثم عاد لغزة وقد قام الجنود وبعض الطوائف ضده ثم هاجمته عربان بنى صخر والوحيديات حيث مات سنة ١١٩٧ هـ (٦٣) .

- عبد الرحمن الغزى ، ولد سنة ١١٢٤ هـ ونشأ على يد جده لأمه الشيخ عبد الغنى النابلسى صاحب كتاب الرحلة المشهورة « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » وتوفى سنة ١١٤٤ هـ (٦٤) .

- كمال الدين البكرى الغزى :

وهو شيخ علامة وشاعر ولد سنة ١١٤٣ هـ وله غدة مؤلفات منها « النفحات العواطر على الكلمات والخواطر » وكتاب « البكرية فى حل معانى الأرومية » وكشف اللثام « الروض الرائض فى علم الفرائض » وله ديوان شعر أسماه « نبراس الأفكار » وتوفى بمدينة غزة سنة ١١٩٦ هـ (٦٥) . استمرت هذه الأسرة تلعب دورا هاما فى حياة المدينة كما سنرى .

- وقد ظهرت من بين نساء غزة « زينب الغزيرة » وهى شاعرة ومن أفاضل النساء من أهل العلم والدين ولها أشعار عديدة وقد توفيت سنة ١٢٨٠ هـ (★)

- الشيخ محمد الرئيس ابن عبد الله بن سليمان الشهير بالرئيس الحنفى

(٦١) - محمد خليل المرادى - سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر - الجزء الأول - بولاق مصر ١٣٠١ هـ ص ٣٠ - ٣١ .

(٦٢) - محمد خليل المرادى - المرجع السابق ص ٣٤ .

(٦٣) - المرادى - الجزء الثانى - المرجع السابق ص ٦٠ - ٦٢ .

(٦٤) - المرادى - المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٦٥) - المرادى - الجزء الرابع - المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ .

(★) الشيخ نجم الدين المغربى - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - الجزء الثالث -

بيروت ١٩٧٩ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

الغزى ، وهو عالم بالطب والحكمة والفلك والهيئة ، ولد بغزة هاشم ونشأ بها وأخذ الطب عن والده وقد ارتحل لمصر ودمشق وله تأليف فى الطب وتوفى سنة ١١٣٠ هـ ودفن بالقدس (٦٦) .

— يوسف الغزى بن أحمد بن عثمان الشهير بالمقرى .

ولد بغزة سنة ١١١٩ هـ وتعلم الفقه والنحو ورحل الى بغداد سنة ١١٤٣ هـ ثم أقام بعدها بالمدينة المنورة ليعود بعدها لمدينة غزة سنة ١١٤٩ هـ وبعدها أخذ ينتقل ما بين مكة واليمن عدة سنوات حتى عاد سنة ١١٦٩ هـ وفى عهد واليها حسين باشا مكى فأنزله على الرحب والسعة الى أن توفى سنة ١١٨٨ هـ (٦٧) .

ومن رجال غزة النابهين والذين تولوا المناصب التعليمية والدينية الهامة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للنصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادى تقريبا .

— الشيخ محمد بن الشيخ محمد بن شاهين سكيك الغزى أسهم هذا الرجل بالنهضة العلمية فى مدينة غزة فقد عثرنا على العديد من كتب قام بنسخها بخطه الجميل فقد نسخ كتاب « قلايد الفحام فى مولده عليه الصلاة والسلام » سنة ١١٩٥ هـ كما نسخ كتاب سنة ١٢٠٠ هـ « الفوائد المحصلة فيما يتعلق بالبسملة » للعلامة الجوهري (٦٨) .

— الشيخ حسن بن الشيخ محمد بن شاهين بن سليمان سكيك . كان عالما فاضلا وحسن الخط ونسخ أيضا الكثير من الكتب النفيسة وكان يجيد الشعر الذى يتميز بخفة روحه وقد توفى سنة ١٢٣٤ هـ (٦٩) .

ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى أخذت الدولة العثمانية تعاني الكثير من الأزمات السياسية والاقتصادية الطاحنة فلم تعد قادرة على الوفاء بخدمات المدن التعليمية أو حتى الاقتصادية بدرجة لم تعد فيها لتقوى على بناء ما انهدم من المدارس أو الجوامع والمساجد على أيدي جنود الحملة الفرنسية أو ما هدمته الأمطار وعوامل الزمن فبقيت أطلالها على حالها من الخراب والدمار (مدرسة

(٦٦) المرادى — سلك الدرر — الجزء الرابع — المرجع السابق ص ٥٩ .

(٦٧) المرادى — المرجع السابق ص ٢٣٨ .

(٦٨) مخطوطات تم الاطلاع عليها من أماكن متعددة فى غزة .

(٦٩) إبراهيم سكيك — نشرة خاصة تمثل شجرة عائلة آل سكيك سنة ١٩٨٦ .

الباسطية وجامع ومدرسة قايتباى وجامع الجاولى والقلعة وجامعها ٠٠) تمثل خرائب وسط وعلى أطراف المدينة حتى أصبحت علامات « مميزة فكثر استخدام كلمة « الخرابة » والخربة كعناوين يسترشد بها داخل المدينة .

وعليه استمرت بقية المساجد والجوامع هى الأماكن التى يتلقى فيها طلبية المدينة علومهم الدينية والدنيوية حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا حتى قام السلطان عبد المجيد ببناء جامع على ضريح السيد هاشم جد الرسول عليه السلام فى حى الدرج مستخدما حجارة انقاض جامع الجاولى والبيمارستان والقلعة المتهدمة سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) كما يتضح من بقايا حجارة نقش عليها كتابة ترجع لسنة ٧١١ هـ أى لفترة حكم علم الدين سنجر الجاولى . وكذلك بعض الحجارة عليها نقوش ترجع لفترة أخرى غير واضحة وقد بنيت ضمن سلالمة المئذنة وقد ألحق بالجامع أربعة غرف أعدت للتدريس كما يبدو ذلك من لوحتين رخاميتين نقش على إحداها أبيات من الشعر والواقعة على باب الجامع الداخلى وأخرى تقع فوق شبك غرفة ضريح السيد هاشم (صور ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧) .

وفى عام ١٨٤٣ قام الشيخ محمد كمال الدين البكرى بتوسيع الجامع العمرى الكبير من الجهة الشمالية فبنى الباب الشمالى بحجارة جامع التركمانى والمنقول على ما يبدو من حى الشجاعية وكذلك بحجارة أحد المساجد الذى يرجع لسنة ٨١٥ هـ مضيفا أربع غرف كمدرسة لتعليم أبناء غزة مستغلا انقاض جامع الجاولى وجامع قايتباى كما ذكرنا سابقا عند حديثنا عن هذه الحجارة فى تاريخها .

أخذ أبناء المدينة يتجهون « للكتاتيب » الملحقة بالجوامع والمساجد والمنتشرة فى جميع أحياء المدينة وكانت فى هذه الفترة على النحو التالى :

كتاب العجمى « بجامع العجمى » وكتاب الشيخ عطية وكتاب جامع أبى ركاب وجميعها فى حى الزيتون .

أما كتاتيب حى الشجاعية فكانت كتاب جامع المحكمة « وكتاب الست رقية » وكتاب جامع الغزالى ومسجد السيد على المغربى ومسجد الظفر دمرى وكتاب الطيار وجامع ابن عثمان . وهى كما نرى ملحقة جميعها بالجوامع والمساجد وفى حى الدرج كانت الكتاتيب الملحقة بالمساجد التالية والمسماة بأسمائها مسجد الشيخ ظريف ومسجد الشيخ خالد والشيخ فرج وكتاب مسجد الهليس .

أما كتاتيب حى الدرج فكانت ملحقة بالمساجد كمسجد السدرة ومسجد ابن سلطان .

وبداخل هذه الكتاتيب كان الأطفال يتلقون تعليمهم بمبادئ القراءة والكتابة

والحساب وتلاوة وتحفظ القرآن الكريم فاذا استطاع فريق منهم ان يحفظ القرآن عن ظهر قلب تخرج من الكتاب بحفل كبير ليواصل بعدها حياته العملية بالاتجاه نحو حرفة وهناك آخرون يواصلون تعليمهم في المدرسة الوحيدة التي اقامتها الدولة العثمانية ١٨٨٧م وتتألف من ثلاثة فصول ابتدائي (كانت تقع للشرق مباشرة من مدرسته الزهراء الحالية) (صورة ١٤٨) . وكان هناك مدرسة أخرى ملحقة بزاوية أبي العزم تسمى « مكتب الفنون » أو « كتاب الفنون » يدرس فيها تلاوة القرآن الكريم وتجويده وكان يقوم بتدريسهما الشيخ يوسف المالكى المغربى . وهناك مواد التجويد والتوحيد والحساب والاملاء والعبادات فيدرسها جميعا الفقيه الشيخ حامد السقا الحنفى الغزى وكانت الدراسة في هذا « المكتب » تستمر لعامين يحصل الطالب على شهادة (شهادتنامه) تؤهله بعدها لدخول « المكتب الرشدى » الذى يدرس فيه مواد التجويد والتوحيد والحساب والنحو والصرف والتاريخ والجغرافيا والصرف العثمانى والخط والاملاء ومبادئ اللغة التركية واللغة الفارسية ومن مدرسى هذا المكتب الشيخ عبد اللطيف الخزندار الغزى والمعلم القدير محمد شوكت أفندى والدراسة لمدة سنتين ينتقل بعدها الطالب المتفوق الى « المدرسة العلمية » الملحقة بالجامع العمري الكبير بغزة حيث تقوم بتدريس المواد السابقة بتوسع مضافا لها حفظ المشتون الصغيرة والكبيرة وكان من مدرسى هذه المدرسة الشيخ سليم سليم شعشاعة والشيخ يوسف شراب والشيخ عبد الله الغصين والشيخ عبد اللطيف الخزندار والشيخ سعيد مراد والشيخ أحمد بسيسو .

وكانت الدراسة في « المدرسة العلمية » ثلاث سنوات بعدها يكون الطالب قد انهى دراسته في مدينة غزة ليتوجه بعدها - وفقا لظروف أهله الاقتصادية - الى الأزهر الشريف بمصر لتكملة دراسته .

هذه النخبة من المدرسين السابق ذكرهم هم من أبناء غزة وعلى كاهلهم قامت النهضة التعليمية داخل المدينة في أحلك الأوقات سوادا تحاصرهم الظروف السياسية والادارية المتردية كما أوضحنا وسوء الأحوال الاقتصادية وعلى الرغم من ذلك تخطوا هذه الصعاب وتعددها للتصدي لها نقدا وتجريحا بجرأة وإقدام فنظموا الشغل المعبر عن ظروفهم السياسية والاجتماعية وكذا الاقتصادية كما بينا ومعظمهم تتلمذوا على أيدي علماء الأزهر في مصر . وفي حجر هؤلاء اتجه الكثير من أبناء غزة لتكملة علومهم يدفعهم ايمانهم ويحدوهم الأمل نحو مستقبل أفضل في وقت عصيب من نهاية القرن التاسع عشر ينبىء بتحولات مصيرية خطيرة بوجه عام وبلدهم بوجه خاص .

هذه الآمال دفعت العديد من الأسر الغزية لارسال أبنائها للأزهر الشريف بمصر فكان على الطالب اما أن يسافر برا عبر صحراء سيناء حتى القاهرة مع

احدى القوافل كما فعل الطالب الشيخ سعيد أبو شعبان سنة ١٣١٥ هـ (١٧٩٨ م) وهناك من يتخذ الطريق البحرى بالاتجاه الى مدينة يافا ومن مينائها يسبح الى مصر متجها لميناء بورسعيد ثم للقاهرة كما فعل الطالب الشيخ عثمان الطباع والشيخ عمر صوان سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) هذا على سبيل التمثيل لا الحصر .

وفى هذه الأيام من تسعينات القرن التاسع عشر كان هناك عدد لا يستهان به من طلبة مدينة غزة يتلقون تعليمهم فى الأزهر الشريف منهم الشيخ عبد الله خلف والشيخ خليل الحليمي وسعيد وفا العلمي ومحمد مكى وعبد الرؤوف غربية و خليل غزال وسليم الغيضى (٧٠) وكذلك المشايخ يوسف القولق وأحمد البك ومحمد السقا وشاكر العلمي وسعيد عطا الله وأخيه بدر الدين أحمد اليازجى وعبد الله القيشاوى كما وردت أسماؤهم من خلال رسالة بعث بها الطالب سعيد أبو شعبان من الأزهر الى أهله فى غزة . (أنظر صورة لها رقم ١٤) .

وبعد انتهاء دراستهم الأزهرية يعودون لمدينتهم ليكون فى استقبالهم شيخ العلماء فى المدينة « والذى كان فى سنة ١٩٠٤ الشيخ يوسف شراب » مع نخبة من علماء المدينة ووجهائها . ثم يطلب من كل خريج الاستعداد لالقاء درس أمام هؤلاء جميعا ومعهم أفراد الشعب فى موضوع يختاروه له مثل «مبحث القياس فى علم الأصول » مثلا فيستعد الخريج له ثم يلتقى هؤلاء جميعا بعد صلاة العصر فى الجامع العمرى الكبير ويقوم بالقاء الدرس ليظهر فيه مدى قدرته على التمهيد وكفاءته فى الأداء حتى اذا ما أعجب به العلماء واجتاز الاختبار بنجاح كتبوا له شهادة تجيز له التدريس فى جوامع ومساجد المدينة مصدقة بمنصبه من مجلس الادارة وواصل التعليم مسيرته بأن أصبح جامع السيد هاشم فى حى الدرج مدرسة ينتقل منها الطلاب للأزهر . وفى عام ١٩١١ م أقيمت مدرسة جديدة أطلق عليها اسم « المدرسة الرشيدية » نسبة « لمحمد رشاد » (مدرسة هاشم الاعدادية الآن) وتقع قبالة « مسجد أبى العزم » وكتاب « الفنون » يتألف من أربعة فصول يدرس فيها باللغة التركية مواد التاريخ والجغرافيا والمغة العربية وهبأدى العلوم الطبيعية ثم بنى فوقها طابقا علويا ليصبح بها ستة فصول وذلك فى عام ١٩١٤ م تتم فيها الدراسة على مراحل ثلاث ابتدائية دنيا وأخرى وسطى وثالثة عليا مدتها جميعا ست سنوات . أصبح الطلبة وفى ظل سياسة التتريك يتعلمون اللغة التركية (★)

(٧٠) من أوراق الشيخ عثمان الطباع - غير مطبوعة .

(★) حدثنى بعض المسنين ممن تلقوا تعليمهم فى هذه المدرسة انهم كانوا ينشدون فى

الصباح باللغة التركية قائلين (نحن أبأؤنا الطورانيون) .

ولعل ما عثر عليه بين أوراق أحد موظفي المالية (٧١) في العهد التركي والخاصة برواتب الموظفين في الدوائر والمديريات المتنوعة لسنة ١٩٠٤ ، ما يلقى الضوء على نصيب كل دائرة من الاهتمام على ضوء نسبة رواتبها .

الرواتب بالقرش	الدائرة
٢٣٣٦ قرشا	رواتب القائمقام وموظفي الادارة المركزية
» ١٤٤٠	رواتب مديري النواحي
» ١٩٢٣	» المالية
» ٥٦٠٠	» محصل الأموال
» ١٧٣٤	» العدلية
» ٠٩١٦	» الشرعية
» ٢٢٢٧٢	» النظامية
» ٠٨١١	» الضبطية
» ١١٠٣٥	» الجندرية
» ٠٧٧٦	» الذاتية
» ٠٨٧٠	» المعارف
» ٠٤٠٠	» الموقوفين والمحجوسين
» ٢٨٠٠٠	مخصصات العتبة
» ٠٨٣١	مخصصات المتقاعدين الملكيين
» ٧١١٠	مخصصات المتقاعدين العسكريين
» ٠٩٥١	معاشات الأرمال والأيتام
	المجموع يعادل ٨٦٩ ليرة عثمانية

يستدل من هذه الرواتب أن رواتب التعليم لا تساهم الا بنسبة لا تزيد عن ١٪ من جميع المخصصات الخاصة برواتب المؤسسات محتلة بالتالي أدنى درجات الاهتمام ولا تسبق الا رواتب الموقوفين والمحجوسين ورواتب الذاتية والضبطية ويعلوهم جميعا رواتب الجندرية (الجيش) ومحصلي الأموال ليتضح هيمنة الطابع العسكري على الاقتصاد .

وعلى الرغم من ذلك استطاعت هذه المدينة أن تنجب شموعا تضيء وسط الظلام المدلهم في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أسهموا في حركة التعليم وتسلموا مناصب عالية ليس فقط داخل مدينتهم بل وانتشروا في مدن عديدة من مدن وقرى مصر والجزيرة العربية والشام فكانوا ترجمانا حقيقيا لما يدور حولهم يعكسونه بصدق وأمانة وبشجاعة نادرة فسجن وأبعد بعضهم وصمد الباكون يجمعون الطلاب من حولهم تحت أقبية المساجد مكان من هؤلاء :

(٧١) عارف المعارف ... تاريخ غزة - القدس - ١٩٤٣ ص ٢٠١ .

— الشيخ صالح سكيك. وهو شاعر غزى تخرج من جامعة الأزهر وتميز شعره بالزهد والحكمة والرثاء تقتطف من قصائده فى عام ١٨٦٥م قائلا :

تمسك بكتب الطبع لا تنبغ بيعها فان رقيق اللفظ فيها محسور
ومن يطلب التغيير منك فقل له لعمرك ان الطبع لا يتغير
وله أشعار تعكس الظروف الاجتماعية سبق أن تحدثنا عنها .

وله مراثية قالها عند وفاة العلامة الشيخ عبد الوهاب انفالوجى الشافعى سنة ١٨٦٢ م وتتألف من واحد وسبعين بيتا قال فى مطلعها :

الى كم ذا التئانى والتمادى وحادى الموت بالأرواح حادى
وراحات المنون اليه تطوى على الساعات أرواح العباد
وترمى بالسهم على سهام علت قوسا علا عن قوس عاد

كما رثى العلامة الفقيه الشيخ يوسف كساب الحنفى الذى تعلم بالأزهر الشريف وسكن المدينة المنورة حيث توفى هناك سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٥) رثاه فى قصيدة طويلة كان مطلعها :

نشرت يد الأقدار طى العنبر من أرض طيبة والمقام الأنور
وبنت بها قبرا زها فى روضه فكأنه فى روض عدن الأزهر

ومن أبناء غزة الشيخ أحمد محى الدين المفتى والذى أبعد عن مدينته مصر وقد كان مفتيا بها سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٨ م) ثم عاد اليها بواسطة الخديوى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٧ كما ذكرنا .

وهناك أيضا انقاضى الشيخ أحمد عاشور الغزى وقد تم تعيينه قاضيا برفقته بمصر ثم نقل الى « بيت غمرة » وبعدها أصبح نائبا فى الزقازيق بمصر وتوفى سنة ١٩١٠م .

ومن مشايخ غزة وشعرائها الشيخ محمد سباق الله وقد تعرضنا لأشعاره العديدة الناقدة لمساوئ الجهاز الادارى فى هذه الحقبة .

ومن أهم مشايخ غزة وشعرائها فى هذه الحقبة (١٨٥٠ - ١٩١٤) .

الشيخ صالح بن عبد الحى الحنينى وقام بمجهودات كبيرة فى نسخ الكتب والمخطوطات العلمية والدينية التى يرجع بعضها لسنة ١٢٥٥ هـ .

الشيخ صالح عبد الشافى والشيخ عبد الرحمن أغا مكى وعبد المحسن التتوخى وحسن محمد شاهين سكيك وعيسى محمد شاهين الحياط وعبد الله صلاح العلمى وراشد المظلوم وحسن هاشم الشبرا والشيخ يوسف شراب والشيخ

ابراهيم الصحاني والشيخ عبد الله الغصين وأحمد مكى وعبد الحى الحسينى
وجميع هؤلاء من أبناء غزة ولهم أشعار عديدة .

وقد نبغ من بينهم الشيخ عثمان الطباع الغزى الذى ولد بالمدينة فى
الثمانينات الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٨٢ م) وتعلم بكتاتيب غزة ثم
ذهب لمصر ليواصل تعليمه سنة ١٣١٨ هـ فتعلم على أيدي علمائها الاجلاء وتخرج
سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) تولى بعدها مناصب عدة . وقام بتأليف عدة كتب
ورسائل زادت على الأربعين منها رسائل فى النحو والبيان وشرح الديباج
المنشور على زورق البحور فى علم العروض وقد طبع فى مصر فى أوائل القرن
العشرين . كما طبع له كتاب آخر فى يافا سنة ١٣٤٤ هـ بعنوان « هداية
الرحمن فى هدم البدع وترك شرب التمهك والدخان » كما ألف كتاب « اتحاف
الأعزة فى تاريخ غزة » ولم يطبع وله أشعار عديدة انتقد فيها بمرارة كما ذكرنا
الأوضاع الادارية فى نهاية العصر العثمانى .

وأسمهم العديد من أبناء غزة فى نسخ العديد من الكتب العلمية والدينية فى
وقت لم تيسر فيه الطباعة من أمثال خير الدين سليمان بن محمد بن الحاج
مصطفى عرفات القدوة الغزى فنسخ كتاب « نظم الوهبانية » للشيخ وهبان
سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) . (أنظر صور افتتاحية المخطوطات المنسوخة ١٥) .

الوقف :

يدفعنا الحديث عن « الوقف » استمرارية اسهاماته فى الحياة الاجتماعية
بفعالية مجزية غمرت الى حد كبير معظم المؤسسات وفى مقدمتها الجوامع
والمساجد وسدنتها من رجال الدين كمرافق دينية وتعليمية .

فقد اشارت كل « الوقفيات » لتخصيص جزء من الاموال للجوامع والمساجد
للمحفاظ عليها ولاداء واجبها باستمرار .

فقد خصصت كل الاموال الخاصة بالأوقاف المدرسية لتعليم أبناء غزة
وبعضها خصص للعجزة . كما غذى « الوقف » المكتبات بكثير من الكتب
والمخطوطات .

وارتبط العديد من الناس وفى مقدمتهم رجال الدين والتعليم والفلاحين
فى معيشتهم ورواتبهم بأموال الوقف وعلى اختلاف أنواع هذا الوقف خيرا كان
أم أهليا « ذريا »

وتعدى الأمر لأكثر من ذلك فى استثمار أموال الوقف وتوظيفها فى شراء
العقارات وبناء المؤسسات باسم « الوقف » والأوقاف . فقد جاء فى « تركة أبناء
غزة دين بدمتهم لجامع السيد هاشم سنة ١٨٥٧ و قدرة (٨٧٥ قرش أسدى)

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

مسودة الكتاب المأذون في سنة ١٢٥٥ هـ
الحسين بن الخضر ١٢٥٥ هـ

بالحمد والثناء على نعمته
والعظيم من فضله

فأقر الله شهيداً بالكتاب وقل
الله يعمل ذوالجلال والإكرام

هذه النوايا المحصلة
نما شغلي بالسياسة
للمعبد المتبرع على
الصفحة الأولى
العلامة
أجوري

هذا الكتاب قلاب الخيام في
تدوينه عليه افضل الصلاة والسلام
والسلام فقد انعم الله عليه
بما لا يحصى من النعمان
نسب الله له الدين
والعلم والفضل
والجود

[illegible]

الفرع النبوية على صاحبها
السلام والصلوة والسلام
محمد بن عبد الله بن شاهين
سنة ١٢٨٤

” صور ثلاث نسخ من كتبها الشيخ حول بيده
بما هي في سبائك الغرب
في مستورات ١١٩٥ هـ وسنة ١٢٠٥ هـ ”

في الموضع المذكور
 و قد ورننا الشيخ
 احمد بن محمد
 قاضي
 امين

[illegible]

100

صور لاهتياجات الكتب المنسوخة للمخطوطات بأيدي مشايخ أبناء غزة .

هذا كتاب نظم الوهبانية للشيخ الإمام العالم العلامة
ابن ووهبان رحمه تعالى وتفضله
والمسلمين اجمعين
امين
هو

افضل السلام علي خير الانام سيدنا وسوالنا وغيثنا يوم الدين
وعلي الوصية اجمعين فقد وفق الله القلم بقلم افقر الورى
كذلك هذا وطلبه من الحنفية مذهب القاصي الخلق الرفاعي طريقت
العرفية نسبة صاحب خير الدين الري سليمان ابن المرحوم السيد محمد
عرفات ابن المرحوم السيد الحاج مصطفى عرفات المقدم القزويني
غفر الله اليهما واليه ولوالديه وسلم في امين في يوم السبت المبارك
تالي يوم اولاد في محلة من شهر شعبان سنة الف وثمان مائة
وسبعمائة من الهجرة النبوية علي صاحبها الصلاة والسلام

وثيقة (١٦)

« صورة لكتاب نسخه خير الدين الرمل بن محمد عرفات بن مصطفى عرفات القدوة القزويني
سنة ١٢٦٣ هـ »

وعلى آخر بلغ (٢٧٩٥ قرش) لجامع الحضر (كاتب الولاية) فى سنة ١٨٥٨ م (٧٢) وربما تم عقد هذا « الدين » من قبل نظار الأوقاف •

ونظرا لكثرة من تبوأوا المناصب الرفيعة من أبناء غزة من حكام وأغوات وقضاة ونقباء للإشراف مدة طويلة واحتكروها لأسرهم من بعدهم خاصة فى الفترة العثمانية فقد جمعوا خلالها أموالا طائلة وامتلكوا أراضى شاسعة وعقارات عديدة أخذ جزء منها بالتسلط وارهاب الناس وقهرهم بسبب وبدون أسباب فبلغت حدا غير معقول كما نرى ذلك فى العقارات والاراضى المملوكة والمسجلة فى « وقفية موسى آل رضوان » السابقة الذكر • وتعدت هذه الملكيات حدود غزة وإقليمها لتمدت لمدن فلسطينية أخرى وشامية • خاصة تلك الوقفيات التى تعود «آل رضوان » تلك الأسرة التى حكمت المدينة لأكثر قليلا من قرن ونصف منذ نهاية الفترة المملوكية وحتى النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى تقريبا •

واستمرت أوقاف هذه العائلة فى عطائها حيث تم تعيين متولين شرعيين لها من آل رضوان وآل وفا العلمى وأسرة رباح الحسينى نظارا عليها •

وفى نهاية هذا القرن التاسع عشر ومع انتشار الفوضى الادارية والرشوة والانكماش الاقتصادى والتدخلات الأجنبية فى شئون الدولة العثمانية الداخلية وعدم الأمن فقد تغشى نوع من التسيب ونهب الأموال الموقوفة لسوء استخدامها فدفع البعض لايجار المحلات والدكاكين بغبن فاحش مما اضطر المحاكم الشرعية لاسناد الاشراف عليها لبعض رجال الدين الموثوق بهم كما دلت على ذلك بعض أوراق وشهادات للقاضى الشيخ عثمان الطباع (٧٣) ، الذى كان أحد المتولين الشرعيين على « نصف سهم » من وقف آل رضوان نظرا لثبوت سوء استغلال بعض الأفراد المتولين عليه ولكى نوضح قيمة « نصف السهم » هذا نبين ما يشمله من عقارات فى غزة فقط وهى :

- نصف كرم القسيمة العامة وتمام القسيمة الخاربة •
- أرض « بركة الباشا » بمحلة الزيتون •
- كرم أم الزرور •
- ثلث ساقية البحر بحى الدرج •
- ربع ساقية شنقار •

(٧٢) د • عبد الكريم رافق - ص ٦٧ •

(٧٣) سجلات وأوراق خاصة بالشيخ عثمان الطباع غير مطبوعة •

• - دكان ببابين بغزة

هذا بالاضافة للعديد من المنازل والدكاكين فى مدينتى الرملة ويافا وعددها جميعا ٣٤ عقارا جميعها تابعة لنصف السهم هذا •

ويتقاضى المتولى على هذا الوقف راتبا شهريا من مال الوقف نفسه يصل لأربعمائة قرش شهريا كما كان راتب مدرس الجامع وخطيبه ثلاثمائة قرش شهريا من « مال الوقف » فى نهاية الفترة العثمانية (٧٤) •

ومن أوقاف مدينة غزة وقف حسين باشا مكى الغزى الذى كان جده أحد تجار غزة البارزين وقد أخذ والده محمد بلاد غزة اقطاعا له بطريق « المالكانة » سنة ١١٥٥ هـ أما ولده حسين فقد كان حاكما على غزة وقد تعرضنا لسيرته من قبل فأوقف أوقافا جليلة بعد مماته وعينه أشخاصا من أسرة مكى نظارا عليها ونتيجة لتلاعب بعض المتولين والاعتداء على أموال الوقف أقامت السيدة مهيبة بنت سلمان آل رضوان طعنا فيهم وأقامت حجة وكالة على وقف حسين باشا مكى بغزة ومدينة الرملة بتفويض وتولية الشيخ عثمان الطباع على تأجيريه وتعميره ومحاسبة المتولى السابق وذلك ابان الحرب العالمية الأولى (٧٥) كذلك فعل العديد من نساء أسرة آل رضوان (رقيه وتحفه وكذلك على وكتبها آل رضوان) (★) • وهناك أوقاف أسرة « المشرقى » والجبرى والخزيراتى كما قام العديد من أبناء المدينة رجالا ونساء بوقف العديد من عقاراتهم وممتلكاتهم من أراض رزاعية وسواق لصالح أعمال البر فقد أوقف الحاج أحمد عدس ساقيته سنة ١٢٨٢ هـ بحى الشجاعية (ساقية العدسية) (٧٦) كذلك أوقف الكثير من رجال الدين والعلمين كتبهم ومخطوطات نفيسة عديدة لمكتبة الجامع العبرى الكبير للاستفادة منها •

لذا كان الوقف رافدا فياضا يتدفق فى شرايين المدينة الاجتماعية والاقتصادية يمولهم بالطاقة والقدرة على مجابهة الفاقة التى بدأت تطبق عليهم مع نهاية الدولة العثمانية •

وبعد الحرب العالمية الأولى أصبحت الأموال الوقفية تتولاها لجنة محلية تدار من قبل المجلس الاسلامى الأعلى •

(٧٤) كان هذا راتب الشيخ عثمان الطباع كمدرس فى جامع الحكمة ومسجد الشيخ فرج ومتولى أوقاف مسجدى الشيخ سليم امسلم ومسجد سعد بقرية بيت لاهيا •
(٧٥) الشيخ عثمان الطباع - ضمن أوراقه ومذكرات خاصة غير مطبوعة •
(★) تولى أوقافهم كل من احسان البكرى وزكريا العلمى - شمسبان الرئيس - توفيق العلمى - خليل عاشور •
(٧٦) الشيخ عثمان الطباع - الشجرة الزكية - مخطوط •

بسم الله الرحمن الرحيم
 حمد الم جعل الوقف من اعظم القربات وصلوات على سيدنا محمد اشرف
 المخلوقات وعلى اله واصحابه اهل الكرامات اما بعد فلما كان الوقف من اعظم
 المبرات ومن الاعمال الجارية ثوابها في الحياة وبعد الممات رغبت هذه الكارورة
 صاحب الخير والاحسان جناب حضرة الشيخ سعيده المصطفى تسلم متخوفا
 وفواحيها في وقف هذا الكتاب فادققه على كل من يتتبع به من اهل العلم
 وجعل مقرة في خزائنه مولانا السيد محمد بن ابي بكر سليم الدجاني مفتي
 يافا المحترم وجعل النظر له مدة حياته يتتبع به ويغيره لمن
 ثم بعد يكون النظر فيه لمن له ولاية النظر على خزائنه جناب الموصي الميرزا
 وقف صاحبها سريعا اوقفه بطريقه الشرعي فمن بدله بعد ما سمعه فانه مسلم
 ائمه على الذين يبدلون ان الله سبحانه وتعالى وصلى الله على نبيه وعلى اله وصحبه
 وسلم
 محمد بن ابي بكر
 الذي ختمه الله
 في شهر جمادى الثاني

وليقة (١٧)

مسودة تعبر عن وقف كتاب رحلة النابلسي أيام الشيخ سعيد المصطفى تسلم سنجق غزة

في سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٧ م)

الفصل التاسع عشر

ديمغرافية غزة

● النمو السكاني

● أحياء المدينة « خطوطها ومرافقها »

● نمط السكن

ان دراسة تطور النمو السكاني لمدينة غزة عبر تاريخها العثماني ليس بالامر الهين لانه مقعم بالتقلبات السياسية والاضطرابات الادارية والاقتصادية ، عملت جميعها الى شبه ودفع المؤشر السكاني في المدينة وما حولها فجعلته يتميز بخطوط متذبذبة صعودا وهبوطا حادا من الصعب وضعه ضمن قاعدة سكانية معينة وذلك لصعوبة ضبط الاتجاهات السياسية الفوارة في المنطقة (انظر الرسم البياني) .

فاتخذت المدينة لنفسها وظيفة المضخة الماصصة الكاسية تمتص ما حولها من سكان القرى عند شيوخ التدهور الاقتصادي والانحطاط الأمني فالمناطق الهامشية القروية هذه تمثل الأطراف شديدة الحساسية التي يندفع أهلها فورا نحو المدن فترتفع كثافة المدن بسكانها ، لا تلبث في فترات الاستقرار والأمن أن تضخ المدينة بسكانها لما حولها فيعمرون قراهم .

هذه الحركة من القرية للمدينة وبالعكس وليدة الظروف السياسية والأمنية الداخلية للدولة العثمانية يحددها في القالب الأعم سياستها الاقتصادية نحو الفلاحين وما ينجم عنه من هجوم القبائل البدوية المحيطة بالمدينة عليها انتقاما في صورة الحاكم المقيم وسطها .

أما في حالة تعرض البلاد لغزو خارجي فتكون ظاهرة الطرد السكاني من داخل المدن الى خارجها أشد خاصة تلك الواقعة على طرق القوات العسكرية الرئيسية مثل غزة . ويتضح ذلك عند دراستنا لتطور عدد سكان غزة في القرن السادس عشر الميلادي وهو قرن الاستقرار السياسي والعسكري والاقتصادي للدولة العثمانية والذي يمثل « العصر الذهبي » في تاريخ المنطقة ، نلاحظ ارتفاع عدد سكان غزة بشكل مضطرب على مر عقود هذا القرن منسجبا ذلك على بقية المدن الفلسطينية الهامة .

والجدول التالي (٧٧) يوضح هذا التطور ويرتب عدد سكان غزة بالنسبة لبقية المدن على امتداد القرن السادس عشر تقريبا :

المدينة	١٥٢٥م	١٥٣٩م	١٥٤٩	١٥٥٧	١٥٩٦ ميلادية
صقل	٥٩٠٩ نسمة	-	١٧١١٣	١٧١١٢	١٦٥١٤
غزة	٥٨٨٦ »	٨٧٨٩	١٣٩٦٤	١٣١٤٢	١١٣٩٠
القدس	-	٥٥١٢	٩١٣٥	-	٨٤٣١
نابلس	-	٦٦٢٨	٨٨٧٠	-	٧٩٩٢

P. Madgeblie, Gaza et son Histoire Chrétienne, Jerusalem, 1982, (٧٧) p. 47.

هكذا ازداد عدد سكان المدينة الى أكثر من الضعف خلال أقل قليلا من ثلاثة أرباع القرن في عصر الاندفاع والاصلاح الزراعي وانتعاش التجارة ازداد معه عدد السكان في كلتا بوابتي فلسطين شمالا في صغد وجنوبا في غزة وصل لدروته في منتصف القرن عندما اقترب عدد سكان غزة من ١٤ ألف نسمة في سنة ١٥٤٩ م ليبدأ في الهبوط الى ١١ ألف نسمة عند نهاية القرن منطبقا ذلك على بقية المدن الفلسطينية الرئيسية وليبدأ الانخفاض في التعداد السكاني لعدم تكرار مثل هذا القرن في حياة الدولة العثمانية وحتى انتهائها من المنطقة في بداية القرن العشرين .

بدأ الهبوط في عدد سكان المدينة فوصل في عام ١٦٤٩ م ما بين ٦ - ٨ آلاف نسمة وفقا لما ذكره الرحالة أوليا جلبي والذي قدر عدد منازلها بنحو ١٣٠٠ منزل هذا على افتراض متوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة في كل منزل ما بين ٥ - ٦ أفراد ، وحتى لو افترضنا أقصى ما يمكن افتراضه وهو « متوسط عشرة أفراد للأسرة » فهذا يعني أن عدد السكان سيصل الى ١٣ ألف نسمة وهذا يشير الى تجمع عدد السكان ان لم يكن انخفاضه على مدى قرن من الزمن ومنذ ان كان تعدادها مثل هذا الرقم تقريبا في سنة ١٥٤٩ م .

فالقرن السابع عشر هو قرن التحول بالنسبة للدولة العثمانية حيث وصلت فيه لبداية الكهولة وتصل للشيوخوخة في القرن الثامن عشر فيهوى عدد سكان غزة الى قعر الحضيض حين يدعى فولنى لدى زيارته للمدينة سنة ١٧٨٤ م بأن عدد سكانها ألفا نسمة فقط ، ودعمت هذا الرقم الحملة الفرنسية دون زيادة أو نقصان على الرغم من مرور خمسة عشر عاما من زيارة فولنى .

ولا ندري كيف قدر فولنى هذا الرقم المخيف ، هل قدره وفقا لعدد « الحملات » كما قدر عدد سكان مصر والتي أعطاها نفس التدهور السكاني في هذه الحقبة ؟ (٧٨) . أم هي وليدة الانحطاط الاقتصادي وتدهور الأمن وازدياد هجمات القبائل البدوية أنتقاما من السلطة . أم هي هجرة سكانية عادة ما تسبق أو تواكب عمليات الغزو الخارجي فيهاجر أهل المدن الواقعة على الطريق العسكري الرئيسي الذي تسلكه الحملات العسكرية كما هو الحال في موقع غزة حيث يبتعد سكانها متجهين نحو الأطراف ريثما ينجلي الموقف العسكري لهم كما

(٧٨) جمال حمدان - شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان - الجزء الرابع - القاهرة ١٩٨٤ ص ٢٠ - ٢٣ .

لاحظنا عند مناقشة نابليون بونابرت سكان غزة من خلال منشورة - بالعودة
للمدنيين آمنين ٠٠ وهذه الهجرة المؤقتة أصبحت عادة لسكان منطقة مروية
ودرب عسكري لامبراطوريات سبقت وحتى اليوم .

ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادي أخذ عدد السكان في الازدياد
بصورة طفيفة وصل معها في منتصف القرن تقريبا وفي سنة ١٨٥٧ م (٧٩)
بالتحديد إلى سبعة آلاف نسمة كما روى ذلك « طومسون » عند زيارته للمدينة -
ليتناغم ويصل إلى ١٨ ألف نسمة في فترة زمنية لا تتعدى ربع قرن وفقا
لتقدير مصلحة مساحة غرب فلسطين S.W.P. في سنة ١٨٧٥ م (٨٠) -
ولما قامت هذه البعثة بتقدير عدد سكان معظم المدن الفلسطينية الرئيسية
فلعله من الأهمية أن نورد عدد سكانها وسيلة للمقارنة وتتبعا لما اعتراها (٨١)

مصلحة غرب فلسطين S.W.P			عدد السكان	سنة	المدينة	الترتيب
الترتيب	مصلحة	الترتيب				
١ -	١٦٢ - ١٦٣	٣	٢٠٩٠٠ نسمة	١٨٧٣ م	القدس	
٢ -	٢٩٥	٣	١٨٠٠٠	١٨٧٥	غزة	
٣ -	٢٠٣	٢	١٣٠٠٠	١٨٧٥	نابلس	
٤ -	٣٠٩	٣	١٠٠٠٠	١٨٧٤	الخليل	
٥ -	١٩٩	١	٤٤٥٠ - ١٣١٥٠	١٨٨٠ - ١٨٧٧	صفد	
٦ -	١٤٥	١	٨٠٠٠	١٨٧٤	عكا	
٧ -	٢٥٥ - ٢٥٤	٢	٨٠٠٠	١٨٧٦	بيانا	
٨ -	٢٥٢	٢	٦٨٥٠	١٨٦٩	اللد	
٩ -	٢٧٨	١	٥٦٦٠	١٨٧٤	الناصرة	
١٠ -	٢٩	٣	٥٠٠٠	١٨٧٤	بيت لحم	
١١ -	٢٨٣ - ٢٨٢	١	٤١٩٤	١٨٧٣ - ١٨٦٩	حيفا	
١٢ -	٢٥٣ - ٢٥٢	٢	٢٥٨٤	١٨٧٢	الرملة	
١٣ -	٤٤	٢	٢٠٠٠	١٨٧٢	جنين	
١٤ -	٢٠	٣	٢٨٠٠	١٨٧٠	بيت جالا	
١٥ -	٢٦٢ - ٢٦١	١	٢٠٠٠	١٨٧٧	طبرية	
١٦ -	٢٧٢	١	٢٠٠٠	١٨٧٤	شفا عمرو	
١٧ -	٤١٠	٢	١٥٠٠	١٨٧٥	مجدل عسقلان	

W. M. Thomson, The land and the book, Ibid, p. 549.

(٧٩)

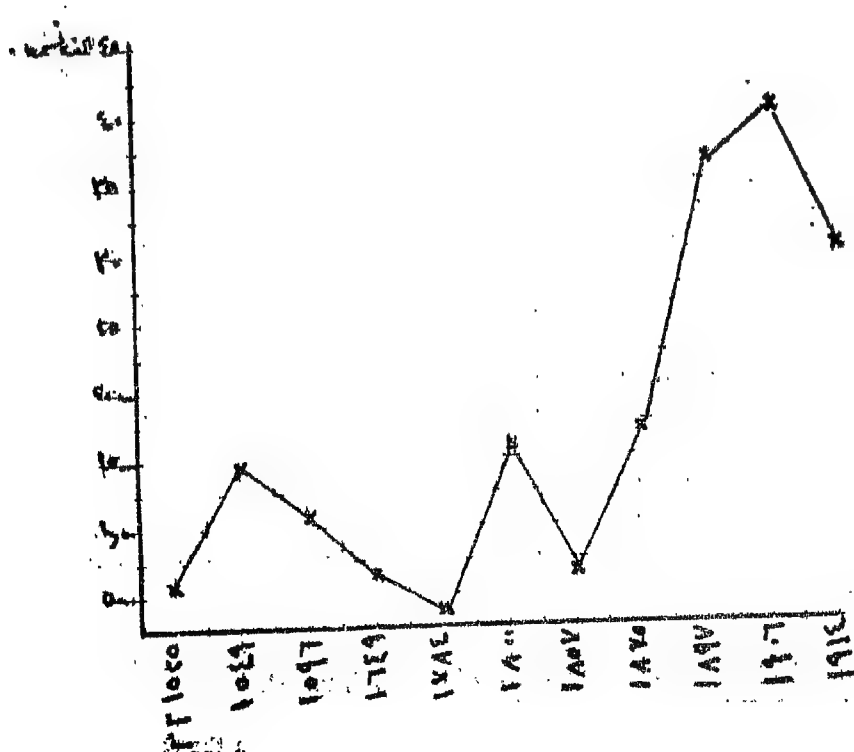
S. w. P. Vol. 3, ibid, p. 238.

(٨٠)

Amiron estimates of the Urban Population of Palestine in the second
of 19 century, I.E.J., Vol. X, 1960, pp. 181-182.

(٨١)

ليتضح من هذا الجدول أن سكان غزة يأتون في تعدادهم بعدد سكان القدس مباشرة ويبدو فيه التوطن البشري المدني في المدن الجبلية الداخلية مع نهاية القرن التاسع عشر اذ تركز غالبية السكان في المدن الجبلية والداخلية والتي تمثل في عددها ٥٨٨٪ من عدد جميع المدن يسكنها نفس النسبة تقريبا ٥٨٣٪ من مجموع عدد سكان المدن والنسبة الباقية من السكان تسكن المدن الساحلية ، هذا التوجه السكاني نحو الداخل يفسره عنصر الأمن المضطرب حيث يلجأ السكان لسكنى المناطق الجبلية الوعرة الأكثر أمنا بالنسبة لهم . كما نجد ان غزة مازالت أكبر المدن الساحلية سكانا على الرغم من منافسة مينائى حيفا ويافا لها منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى الا أن موقعها التجارى كمحطة على طريق مصر وكسوق رئيسية محلية لمعظم القرى الفلسطينية شمالها وجنوبها وشرقها ومعها القبائل العربية البدوية المتمركزة شمال النقب الفلسطينى وجنوبه ومع ما صاحب ذلك من هجرة كثير من سكان القرى هذه الى غزة كما سنلاحظ لسوء الاحوال الاقتصادية والأمنية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين .



وعليه نلاحظ ازدياد عدد سكان مدينة غزة فوصل في عام ١٨٨٦ م الى ٢٠ ألف نسمة كما ذكر ذلك « شوماخر » عند زيارته لها ، ليزداد أكثر وفي قمة التجلل والضعف العثماني بجميع مجالاته عدد سكان غزة فيصل الى ٣٦ ألف نسمة سنة ١٨٩٧ م ليقفز مرة أخرى الى ٤٠ ألف نسمة سنة ١٩٠٦ ثم يهبط فيصل الى ٣٠ ألف نسمة إبان الحرب العالمية الأولى وبذا يكون عدد سكان غزة قد قفز الى أكثر من ضعف عدده قبل ٣١ سنة ومرد ذلك بطبيعة الحال للهجرة الداخلية من القرية للمدينة لسوء الأوضاع الاقتصادية للفلاح مما دفعهم للتوجه نحو المدينة علهم يجدون فيها ما يسد رمقهم من فائض عطاء أغنيائها بحيث لم نعد نجد آثارا لتلك القرى الصغيرة المحيطة بالمدينة مثل (سوق مازن - المدينة - السلقا - البها - لسن - سيحان - الجوباني - منشية تل العجول ٥٥٥٠ الخ) والتي هجرها سكانها نحو غزة ٥٥٠ ولم تقتصر هذه الظاهرة على مدينة غزة وقراها بل تمثلت في جميع القرى الصغيرة المحيطة بمعظم المدن الفلسطينية كما نلاحظ ذلك من تعداد سكان المدن الرئيسية التالية إبان الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ م (٨٢) .

المدينة	عدد السكان	المدينة	عدد السكان
القدس	٩٠,٥٠٠ نسمة	عكا	١٠,٥٠٠ نسمة
غزة	٣٠,٥٠٠ »	حيفا	١٠,٥٠٠ »
يافا	٢٥,٥٠٠ »	الناصرة	١٠,٥٠٠ »
الخليل	١٥,٥٠٠ »	نابلس	١٠,٥٠٠ »
صفد	١٢,٥٠٠ »	بيت لحم	٦,٥٠٠ »

حيث يبدو لنا ازدياد عدد سكان جميع المدن اذا ما قارناه بالجدول السابق الخاص بتعداد مساحة غرب فلسطين S.W.P. . وأكثر ما يلاحظ من ازدياد طفرى للسكان في مدينة « القدس » لمكانتها الدينية ولازدياد التدخل الأجنبي المتمسح بالدين وارسالياته وقناصله الذين مدوا طريقا معبدا تصلها بالميناء عند يافا كما اتصلت بها بخط سكة حديد عزز التواجد بها ، كما بدأت المدن الساحلية في الازدياد خاصة يافا وحيفا لأنهما أصبحتا محل اهتمام كبير وكشف للشركات الأجنبية وقناصلها مما فتح مجالا للنشاط الاقتصادي ومن ثم جذب العديد من العمال لها على حساب الزراعة .

(٨٢) الهيئة البهية في الكرة الأرضية - المطبعة الأمريكية - بيروت ١٩١٤ ص ٦٣ - ٦٤ .

غزة - ٤١٧

واجمالاً ترينا جميع الجداول السابقة الخاصة بتطور أعداد السكان لمدينة غزة أننا بازاء تعدادات وتطور سكاني لا قواعد ولا ضوابط له تماماً كالأحوال السياسية والغزوات القبلية والتسلط الخارجى وهجوم الأوبئة ومداهمه المجاعات والقحط تأتى جميعاً أو فرادى دون استئذان .

فموقع المدينة جر عليها النعم تماماً كما ألصق بها الكثير من النقم فى فترات متنوعة ومتعاقبة من التاريخ العثمانى كما لاحظنا . مما جعل صورة التعداد السكانى تعاكس كل النظريات والتطورات السكانية التى يرى علماءها ومنهم ابن بطوطه صاحب نظرية العمران والدولة والسلطان ، القائلة بأن الدولة فى عصر فتوتها وشبابها تتمتع بقوة الادارة والتنظيم والاستقرار السياسى وما يتبعه ذلك من ازدهار اقتصادى ونمو سكاني - والى هذا الحد من النظرية ينطبق القول على سكان مدينة غزة كما لاحظنا حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى - ويمضى قائلاً أما فى فترات الشيخوخة للدولة فيصيبها الوهن والتسيب والانحدار الاقتصادى ليرتبط بالعجز السياسى وتناقض السكان وانهيار تعدادهم وهنا نجد الأمر مقلوباً بالنسبة لسكان غزة وتعدادهم بل ولعظم المدن الفلسطينية الرئيسية كما رأينا والتى أخذ سكانها فى الازدياد بشكل قفزات ضفدعية واسعة المدى لا يفسرها الا الهجرة من القرية للمدينة نظراً لما أصاب الدولة العثمانية من انهيار اقتصادى وتدهور أمنى ناجم عن التدخل الأجنبى كما رأينا عند دراستنا للأحوال السياسية والادارية من قبل ادت الى قيام الحرب العالمية الأولى .

ديمغرافية غزة

أحياء غزة :

لم يطرأ تغير يذكر بالنسبة لأحياء مدينة غزة وتسمياتها منذ بداية القرن السادس عشر وحتى نهاية الفترة العثمانية تقريباً حيث طرأ عليها بعض التعديلات المفروضة ابتداء من النصف الثانى للقرن ١٩ ففقد جاء فى الدفتر العثمانى (رقم ٥٢٢) السابق الذكر والذى يسجل أملاك وأوقاف فلسطين فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى أن لمدينة غزة الأحياء التالية :

- حى حكر التفاح

- محلة دار الحضر

- محلة الزيتون
- محلة الدباغة أو الصباغة •
- محلة البرجلية
- محلة التركمان وسجاعة الأكراد (٨٣) •

وبقيت هذه التقسيمات والتسميات للأحياء حتى مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي فكثر الرحلات والرحالة يقودها اما رجال دين أو عسكريين محشوة أدمغتهم بأفكار مسبقة كما سبق أن ذكرنا بدأوا بتزويدنا بأسماء وفق أهوائهم • منها هو « طمسون » يزور المدينة سنة ١٨٥٧ ويذكر أن بها أربعة أحياء هي (٨٤) : -

- حي السجارية •

« ويقصد هنا حي الشجاعة » لكنه اعتمد على السمع الخادع فقط فتمادى في خطئه وعلل هذه التسمية لكثرة أشجار الحى • • هكذا !! مما يدعونا للتشكك في صحة كثير من البيانات التي يوردونها •

- حي التفاح (التفين) •

- حي الدرج •

- حي الزيتون •

« لااشت بناء على ذلك تسميات أحياء » الحضر « لأنها في الواقع جزء لا يتجزأ من حي الزيتون حيث كان وما زال للآن يسكن هذا الجزء من الحى والواقع أقصى غرب المدينة القديم فئة التجار وأصحاب الحوانيت والخانات لذا أطلق عليهم « الحضر » أي الطبقة المتمدنية •

كذلك لم نعد نسمع عن « حي البرجلية » « والدباغة » لأنها جزء من « حي الدرج » حيث التحم العمران ببعضه البعض ولم يعد هناك تمييز بين

(٨٣) محمد ابشرى ومحمد التميمي - أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - مركز الأبحاث للتاريخ والفنون - استانبول ١٩٨٢ ص ١٤ - ١٩ •
 (٨٤) W. M. Thomson, The land and the Book, Ibid, pp. 549.

أولئك الذين يسكنون ويخدمون « الأبراج » الواقعة شرق المدينة القديم وهم « البرجلية » وبين بقية السكان ممن يمتنون « الصباغة » فأصبحوا جميعاً في حي واحد هو « حي الدرج » نسبة « لساقية الدرج » أى التى لها عدة درجات (*) .

ثم أبانت وثائق غزة الشرعية التى تغطى الفترة الواقعة ما بين سنتى ١٨٥٧ - ١٨٦١ م (٨٥) أن بالمدينة سبعة « أحياء » هى :

- حي الشجاعية .
- حي الزيتون .
- محله الحضر .
- حي التفاح .
- حي الدرج .
- حي البرجلية .
- حي بنى عامر .

ولعل زيادة هذه التسميات يعود لعدم نسيان الناس تاريخهم الديمغرافى بسهولة بل يبقى حياً فى أذهانهم فحي بنى عامر من الأحياء القديمة التى سكنها العرب قبل الفتح الإسلامى وأصبح يمثل عدة شوارع فقط من حي الدرج والى الشرق والشمال « برجها وقلعتها » القديمة . ولعل ذكر مثل هذه الأحياء الصغيرة راجع لزيادة الأيضاح عند ادلاء الشاكين فى المحاكم والأوراق الثبوتية بأقوالهم .

ثم قدمت بعثة المسح الأثرى (مساحة غرب فلسطين S.W.P.) فى سنة ١٨٧٥ م بقيادة « كوندور وكنتشمر » لتسجل أن بالمدينة أربعة أحياء تحتل مساحة تقدر بنحو ٣/٤ ميل مربع وهى (٨٦) :

(*) هكذا يفسر معظم المسنون والمشايخ بالمدينة .

(٨٥) د . عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ١٤ .

S.W.P. Vol. 3, Jerusalem, 1973, p. 234.

(٨٦)

- حارة الدرج
- حارة التفاح (التفين)
- حارة الشجاعة
- حارة الزيتون

وأخبرهم السكان بأنه كان يعيش بينهم سومريون منذ مائة عام خلت
على حد تعبيرهم

وبعد ذلك ذكر الهرجات GATTE المبشر النمساوى الذى عاش فى دير
اللاتين بغزة فترة من الزمن أن المدينة تتألف من تسعة أحياء هي :

- حى الزيتون
- حى اليهود
- حى النصارى
- حى المسلمين
- حى الفواخير
- حى الدرج
- حى التفاح
- حى بنى عامر
- حى الشجاعة

وكان متأثرا بهذه التسمية بما جاء فى كتاب « بيدىكر » بالألمانية على
الرغم من مكوته داخل المدينة سنوات ، فهل هذا يعنى قدوم يهود أو نصارى
ومسلمين جدد وخلال عدة أعوام فقط وأصبحت لهم أحياء جديدة أو حتى قديمة
مستقلة ؟

وان دخل المدينة أفراد من اليهود - وفى هذه المدة الوجيزة - هل
وصل بهم الحد والكثرة حتى يطلق على سكانهم « حارة اليهود » !!؟

والحقيقة أن شعبنا العربي اعتاد أن يطلق التسميات أحيانا وفقا لندرتها
تميزا لها فيبقى أن يسكن فرد واحد من مصر أو المغرب أو أرمينيا في شارع
واحد لكي يطلق على الشارع اسم « شارع المصري - أو المغربي . أو اليهودي »
لسهولة تحديده الشارع في أيام لم يكن للشوارع فيها تسميات محددة خاصة
لو خلت من جامع أو زاوية أو خان أو حمام ٠٠٠ الى آخره من المؤسسات
والمرافق الحيوية القديمة .

فالخلط هنا واضح بين الشارع والحارة والحي فأحيانا يطلق على الشارع
« حارة » خاصة لو سكن الشارع عدة أسر مسيحية أو ذات حرفة معينة فنظرا
لتمركز عدة أسر مسيحية في شارع واحد من « حي الزيتون » خاصة « جامع
الشمعة » لذا يطلق عليه الناس « حارة المسيحية » .

ولكن أين تقع حارة المسلمين ١٩ التي ذكرها « جات » والمدينة كلها مسلمون
ولم يزد عدد العرب المسيحيين في ذلك الوقت على ٧٥٠ نسمة وحتى نهاية
القرن أما اليهود فهم أقل من هذا الرقم بكثير . وعليه يكون تصنيف الأحياء
وفقا للدين هو تصنيف غير منطقي وغير معقول . تماما كما جعل من « شارع
الفواخير » الذي هو جزء من حي « الدرج » حارة بأكملها .

وقد هذا « ماير » في كتابه عن تاريخ غزة سنة ١٩٠٦ حذو جات دون
تمحيص ذاكرة نفس الأحياء التسعة (٨٧) .

والحقيقة أن معظم هؤلاء المستشرقين والرحالة لم تكن دراستهم قائمة على البحث
الجاد أو الدراسة الحقلية النقالة داخل المدينة ، فمعظمهم ان لم يكونوا جميعا لم
يستقروا بالمدينة أكثر من ساعات يعتمدون فيها على نقل المعلومات من عامة
الناس فكما رأينا سجل طمسون اسم « حارة السجيرية » بدلا من الشجاعة
وراح يعلل تسميتها ١١ كما نسيبت أو ثناسبت بعثة كوندور وكنتشنر دراسة قرى
جنوب غزة بأكملها ولم تسجل العديد من مواضع الاستقرار القديمة (الحرب)
في فلسطين . ليأتي من بعدهم « شوماخر » في سنة ١٨٨٦ م فيعمل على دراسة

قرى جنوب مدينة غزة وحتى « الشيخ زويد » وعندما دخل مدينة غزة فى صيف ذلك العام لم يذكر من أحيائها سوى حى الدرج وحى الشجاعية فقط . من هنا لا بد من الحيلة والحذر من دراساتهم فى هذه الحقبة التى تميزت بطابع سياسى معين كما ذكرنا من قبل اختلفت وتعددت فيها الأهداف والمقاصد لياتى فى نهايتها الدراسة والمسح والتنقيب .

ومع مطلع القرن العشرين أصبح هناك أربعة أحياء فقط بتسمياتها القديمة وإن تعددت شوارعها فهى حى الشجاعية بتسمية (تركمان وجديدة) ثم حى الدرج وحى الزيتون ثم حى التفاح ويطلق عليه عامة الناس للتخفيف « التفين » وللشمال من حى التفاح هناك ضاحية أو حارة « المشاهرة » وشمالها « سكة الزرقة » . كضواحي المدينة غزة شمالا .

الاحياء - خطوطها ومرافقها :

لعل دراسة خطوط (شوارع) الأحياء بمدينة غزة ما يؤكد هوية المدينة العربية الفلسطينية ويبرز عن قرب دقائق ملامحها وقسماتها ويكشف لنا العديد من مؤسساتها الدينية والثقافية والترفيهية والاقتصادية ويدحض لنا التصنيفات التعسفية الاستشراقية .

واعتمادنا فى الغالب الأعم على الوثائق الشرعية الغزية التى تغطى الفترة الزمنية الواقعة بين عامى ١٨٥٧ م وسنة ١٨٦١ م ، يدفعنا لمزيد من التحفظ على ما جاء ذكره من خطوط (شوارع) ، لأنها عبارة عن سجلات لوقائع وشكاوى وحجج وتركات لمواطنين من أهل المدينة ذكر كل فرد منهم عنوانه مع ما يكتنفه من غموض أحيانا أو عدم دقة يدعم ذلك ما يلى :

- تعدد التسميات لخط (شارع) واحد نظرا لامتداده أحيانا فى أكثر من حى .

- نظرا لوجود أكثر من مسجد وجامع فى شارع واحد أحيانا يؤدى الى تعدد تسميته بتعدد المساجد .

- ونتيجة لعدم تسمية محددة للشوارع من قبل السلطة أو أى جهة نلاحظ تعدد التسميات وفقا لما يراه المواطن لأى ظاهرة موجودة فيه مثل (مسجد - زاوية - حمام - عائلة كبيرة - سبيل - سوق - الخ) من هنا تكررت التسميات للشارع وكأنه عدة شوارع هذا بالإضافة للخلط أحيانا بين « حى » وحارة وعليه سنذكر هذه « الخطوط » وفقا لما جاءت به سجلات المحكمة

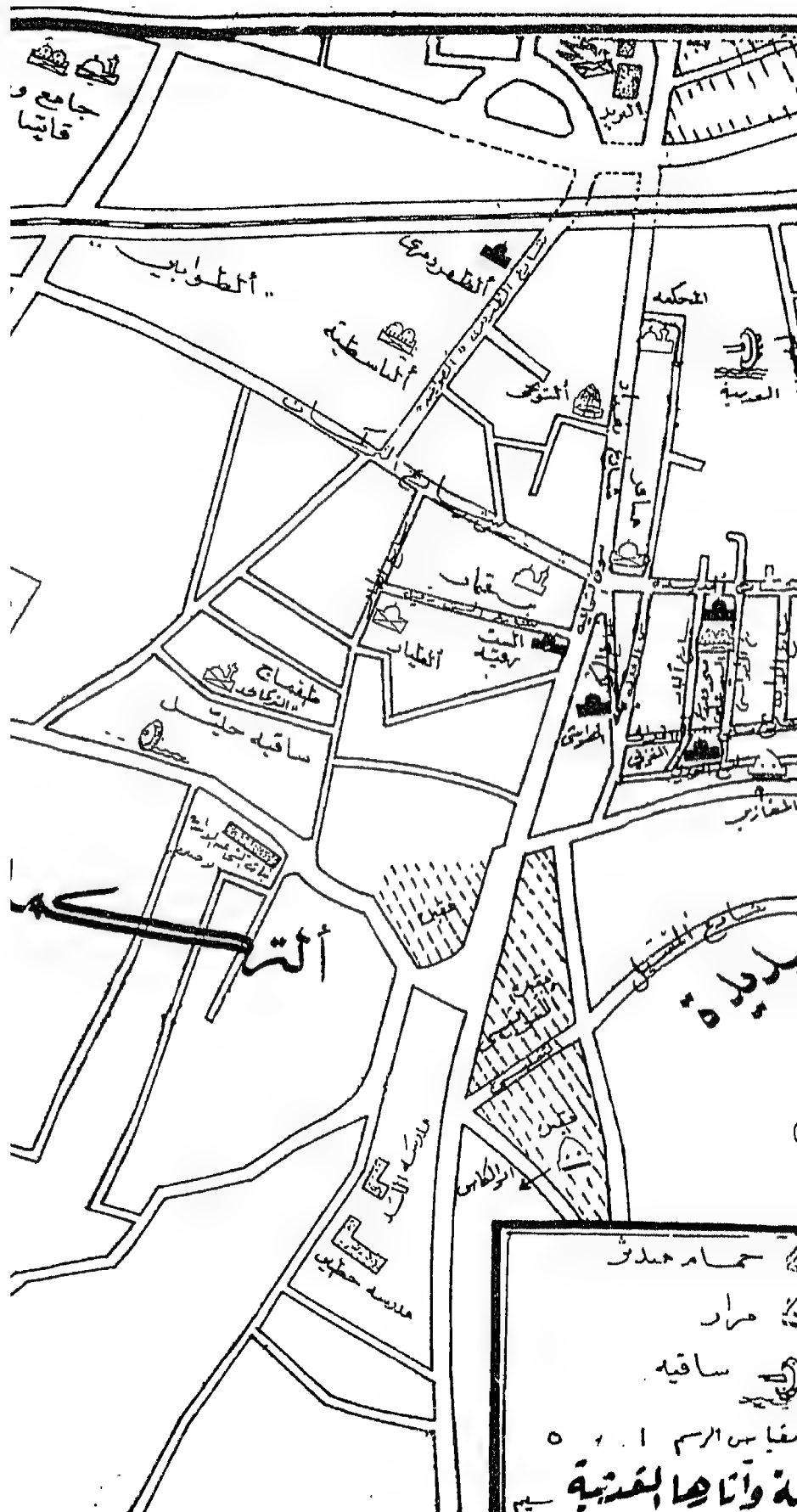
حي الشجاعية

اسم « خط » والشارع (٨٨)	ملاحظات (★)
خط الجديدة	الشارع الرئيسي حي الشجاعية الجديدة الآن ويقع في وسطه مسجد الطواشي ومسافر
خط التركمان	الشارع الرئيسي في الشجاعية التركمان ويقع في منتصفه شارع جامع بن عثمان
خط الاسكافية	اسم عائلة بحي الشجاعية الجديدة وربما كان الاسكافية يعملون في خط التركمان السابق
خط المحكمة القديمة	شارع يقع عليه جامع المحكمة بحي الشجاعية الجديدة الآن وهو « حمام السويحي » كما جاء في دفتر العثماني ٥٢٢ وقد اندثر .
خط الشيخ الغزالي	وهو شارع مسجد الغزالي بالشجاعية الجديدة وأعيد بناؤه الآن وهو « مسجد الطواشي » ويقع على الشارع الرئيسي حي الشجاعية الجديدة السابق الذكر (خط الجديدة) .
خط اولاد عبد (العبادة) أو خط بوابة ابو بكر (ابو كر)	كانت هذه البوابة تقع عند نهاية سوق الشجاعية التركمان الجنوبي وقد اندثرت وعائلة ابو كر قديمة ينتهي اليها الشيخ محمد العابد الذي له مسجد معروف باسمه (٨٩)
خط ولي الله تعالى الشيخ نصر الدين	كان مسجداً وهو الآن مزار بحي الشجاعية الجديدة ويقع عند بداية شارع المحكمة
خط مسجد الشيخ عكرى بن مسافر	اسم المقبرة الواقعة شرق حي الشجاعية يقع بالقرب من جامع الظفر دمرى الآن .
خط التفليس	وهو نفس شارع سوق الغزل (الصوافين الآن)
خط سوق الغزل	ربما هو شارع مسجد محمد العابد المندثر
خط مسجد ولي الله تعالى	اسم عائلة تسكن الآن بشارع مسجد الست رقية بالشجاعية الجديدة
الشيخ محمد الظفر دمرى	نسبة لجامع الباسطية المندثر
خط العابد	اندثر هذا المسجد وهو بالشجاعية التركمان
خط زقاق اولاد حنحت	اندثرت الساقية وتقع الأرض الآن شرق الشجاعية التركمان عند نهاية خط مسجد محمد الطيار
خط الباسطية	خط يقع ضمن سوق الشجاعية
خط مسجد الشيخ محمد الطيار	عائلة تسكن الشارع بحي الشجاعية الجديدة ومازال يحمل نفس الاسم .
خط ساقية خلبن	
خط المفتى	
خط البازار	
خط الباز	

(★) أسماء الخطوط وفقاً لما ذكرته « الوثائق » أما الملاحظات فهي من تعليق المؤلف .

(٨٨) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ١٧ - ٢٧ .

(٨٩) عثمان الطباع - الشجرة الزكية - مخطوط .



تابع خطوط الشجاعة :

اسم الخط - الشارع	ملاحظات
خط مسجد ولي الله الشيخ سعيد خط الشيخ أبو الكاس	يوجد الآن مزار الشيخ أبو الكاس ويقع ضمن مقبرة الشجاعة (التليسي) وهو الجامع الكبير بحي الشجاعة ويقع وسط خط التركمان وامداد خط الجديدة .
خط جامع شهاب الدين بن عثمان خط ولي الله الشيخ المصلح خط الجامع الكبير خط حارة جلس	هو نفسه خط جامع ابن عثمان السابق الذكر وخط التركمان . اسم عائلة تسكن هذا الشارع ويقع بالقرب من « سوق الجمعة الآن » وقد ذكر في الوثائق « حارة » للدلالة على عدة شوارع وليس « حي » وهو نفسه « خط الجديدة » الذي يقع وسطه مسجد السيد علي المغربي الذي يطلق عليه أيضا « مسجد الطواشي » بحي الشجاعة الجديدة . شارع عند نهاية حي الشجاعة الجديدة من المشرق وما تزال هذه العائلة موجودة .
خط اولاد سهود خط مسجد محمد الهواشي	مسجد يقع بحي الشجاعة الجديدة وقد اندثر القديم وبني حديث فوقه . مسجد يوجد بحي الشجاعة الجديدة وما زال قائما ويقع عند بداية خط اولاد تحتع السابق الذكر .
خط مسجد الست رقية	

الشرعية في غرة للفترة المذكورة مع اضافة ملاحظات امامها توضح ما تكرر منها أو أي ملاحظات أخرى . هذا مع أخذنا في الاعتبار أن هذه الخطوط الوارد ذكرها ليست هي خطوط المدينة في كمها وشمولها التام فهناك بعض « الخطوط » لم تذكر . الا أنها في الحقيقة تغطي معظم خطوط المدينة

وستذكر خطوط كل حي من أحياء المدينة وأهم المرافق الموجودة فيه من دراستنا « للخطوط » نلاحظ سيادة الطابع العربي الاسلامي على شوارع « الحي » بل المدينة بأسرها فكانت « المساجد والجوامع » هي رموز الشوارع وعناوينها ومعها أولياء الله الصالحين . « انظر الخريطة ٢٩ » .

كذلك تبين لنا تكرار التسميات كما أوضحنا . كما شمل الحي علي أحد عشر مسجدا أو جامعا مازالت باقية لليوم باستثناء اثنين قد اندثرا (مسجد الشيخ سعيد ومسجد الباسطة) واثنان قد أصبحا مجرد مزارين فقط ولم تبق

فيهما الصلاة (مسجد الطيار ومسجد الشيخ مسافر) وتوسط الحى الحمام الوحيد (حمام السويحي) وقبله اندثر .

أما « الأسبله » فلم يأت بذكرها باستثناء « سبيل واحد » هو « سبيل الاسكافية » جاء ذكره فى الوثائق بمناسبة وقف دكان للصباغة عليه بنفس الحى (٩٠) .

أما بالنسبة لفعالية « الحى » الاقتصادية والمتمثلة فى مرافقه بالأسواق والخانات فقد كانت من الكفاية الانتاجية لأهل « الحى » بدرجة أصبحت معه تمثل أشبه ما يكون بوحدة سكنية مستقلة بكيانها الاقتصادى حتى أشكل على بعض الدارسين وأظهرها فى خريطته باسم « قرية الشجاعية » فى سنة ١٨٤٣ م وكان من هذه الأسواق والخانات والمعاصر :

• سوق الصوافين : ويقع بحى الشجاعية التركمان وبالقرب من جامع الظفر دمرى السابق الذكر

• سوق الغزل : ويقع بجوار سوق الصوافين وبنفس الخط .

• سوق العطارين : ويقع فى منتصف سوق الشجاعية وكان بمثابة الصيدلية بالنسبة لسكان الحى حيث يشترون ما يلزمهم للوصفات الطبية للعلاج وغالبا ما كان يصفها لهم « العطار » نفسه .

• سوق الاسكافية : ويقع بجوار جامع ابن عثمان (الجامع الكبير) وفى منتصف الشارع تقريبا وهو خاص بالصناعات الجلدية وأهمها صناعة الأحذية

• خان القهوة : وهو الخان الوحيد التى ذكر بالحى فى خمسينات القرن التاسع عشر كما جاء ذكر « معاصر » بداخل الحى وهى ثلاث :

• معصرة أولاد الغزالى

• معصرة بدوى حثحت وتقع بخط مسجده الست رقية .

• معصرة أولاد حثحت وتقع بخط جامع ابن عثمان .

وهناك بالإضافة لذلك أربعة محلات للصباغة هى :

• مصبغة لصاحبها أحمد بن على المشهراوى وقد أوقفها لصالح

« سبيل الاسكافية » الذى يقع بجوار سوق الاسكافية وقبالة جامع ابن عثمان .

• مصبغة أخرى بنفس الشارع .

• مصبغتان يمتلكهما عبد الرحمن زمو ونازعه فى احداها يوسف

السقا وأخوه فى خمسينات القرن التاسع عشر .

وفى حى الشجاعية الجديدة وفى شارعها الرئيسى كانت هناك قاعة

للحياكة بخط مسجد السيد علي المغربي (خط الجديدة) يعمل بها العديد من النساء .

واستمرت معظم هذه المرافق الاقتصادية في مطلع القرن العشرين الى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى .

حي الدرج

وهو من أقدم أحياء المدينة ويقع على ربوتها القديمة (٤٥) مترا فوق مستوى سطح البحر) ويحتل قسمها الشمالي وقد تعددت تسمياته وفقا لتعدد مرافقه فاطلق على قسمه الشرقي والقريب من حافة المدينة الشرقية (حي بنى عامر) وإلى الغرب من هذا الحي مباشرة أطلق عليه « حي البرجلية » نسبة للبرج الموجود فيه وفي أقصى الغرب أطلق عليه « حي الفواخير » وهي في الحقيقة لا تمثل أكثر من عدة شوارع في الحي كله والذي غلب على تسميته بحي الدرج .

وسينتبع خطوطه (شوارعه) وفقا لما ورد ذكره في الوثائق الشرعية وبنفس التقسيم لأحيائه وهي محلة الدرج ومحلة البرجلية ومحلة بنى عامر .

ملاحظات	الخط (الشارع)
يقع غربي « سباط المفتى » بالقرب من الفواخير وقد دمر ذكره جات سنة ١٨٨٧م واندثر	خط مسجد الشيخ تريف
مسجد يوجد عند سفح المدينة الغربي قبالة الفواخير وهو للأسف مهجور الآن والأوقاف تنظر اليه .	خط الشيخ ذكرى
يوجد الى الشرق مباشرة من القلعة القديمة .	خط الشيخ خالد
الندثر	خط الخرابة
شارع الفواخير أي الواقع امام منطقة صناعة الفخار عند سفح المدينة الغربي	خط مسجد البلاطة
الى الشرق من الخط السابق .	خط الفواخير
خط الشيخ شعبان ابي القرون وقد اندثر جامعہ وبني من جديد	خط سوق الفخار
دمر البيمارستان جنود نابليون سنة ١٨٠٠	خط بير الدولاب
يتوسط مقبرة القروبي عند سفح المدينة الشمال واسفل جامع السيد هاشم .	خط الشيخ شعبان
	خط البيمارستان
	خط الشيخ محمد القروبي

نأتى للقسم الثاني من حي الدرج نفسه والذي كان يطلق عليه « حي البرجلية » فقد جاءت الخطوط التالية ويقع للشرق من حي الدرج نفسه وخطوطه هي :

محله البرجلية

اسم الخط (الشارع)	ملاحظات
خط سوق الخضف	يوجد في وسط الحى وهو للآن تطلق عليه نفس التسمية .
خط مسجد ولى الله الشيخ ظريف	ورد في حى الدرج من قبل مما يؤكد وحدة الحى . (الندثر) .
خط زاوية الهنود	في قلب سوق المدينة القديم واندثرت الزاوية وبني فوقها مسجد
خط مسجد ولى الله الشيخ عياد	يقع الى الشرق من جامع السيد هاشم وقد اندثر نتيجة لفتح شارع جديد .
خط مسجد ولى الله الشيخ فرج	ويسمى هذا المسجد باسم « مسجد السواد » ومازال موجودة
خط مسجد ولى الله محمد المغربى	الندثر .
خط الشيخ محمد العرافى	نسبة لبنى عامر مما يؤكد ان هذا الحى جزء لا يتجزأ من حى الدرج
خط مسجد ولى الله محمد الهليس	سبق ذكره نتيجة لامتداد الخط في القسمين من الحى .
خط بنى عامر	تكرر نفس الاسم اما لامتداد الشارع او لأن الحى واحد .
خط الخرابة	ويقع للغرب مباشرة من « سوق القيسارية » الآن وقد اندثر الخان
خط سوق الفخار	وقد اندثر هذا المسجد وكان يقع عند بداية شارع فهمى بك من الشمال .
خط خان الكتان	ويقع عند بداية سوق الخضار من الشرق وقد اندثر الحمام .
خط مسجد ولى الله الشيخ على الاندلسى	لا يعرف موقعها .
خط حمام السوق	الندثر هذا المسجد .
خط القهوة	ويقع عند سفح المدينة الشمالى وقد بني في نفس الفترة سنة ١٨٥١ م .
خط الشيخ على الازاعى	سيرد ذكره في حى الزيتون « يقع في حى الزيتون »
خط مسجد السيد هاشم	الندثر
خط مسجد محمد العجمى	الندثر وقد ورد ذكره في حى الدرج
خط مسجد ولى الله الشيخ منصور	الندثر .
خط جامع البلاطة	لقد سمى حى الدرج نسبة لها
خط الشيخ شرف	وتقع هذه الزاوية قبالة زاوية الهنود وهى خربة الآن .
خط مسجد ولى الله الشيخ محمد الأزبكى	وقد دمرها جيش نابليون بونابرت .
خط ساقية الدرج	وهو الجامع العمري الكبير بوسط المدينة القديمة .
خط البيطار	
خط زاوية سيدى بن مدين الفوث	
خط القلعة	
خط الجامع الكبير	

تلك هي خطوط « حى البرجالية » :

أما بالنسبة « لحي بنى عامر » فقد اشتمل على خط واحد اسمه خط مسجد ولى الله تعالى محمد المغربى (٩٢) (السواد) والذى ورد ذكره فى حى الدرج « من قبل كما جاء أيضا ضمن « حى البرجالية » وأخيرا ذكر فى حى بنى عامر « فان دل ذلك فانما يدل على أن الأحياء جميعها تمثل كتلة سكنية مترابطة لا انفصام بينها • وما التسميات الالوجود ظاهرات عمرانية بارزة (جوامع أو مساجد • الخ) أو سكنائية (عائلات • وظائف) أو بعض الصناعات • (انظر خريطة ٣٠) •

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه ورد فى وقفية موسى آل رضىوان سنة ١٦٦١ م أى قبل قرنين من الزمان بالتحديد اسم « شارع بنى عامر » •

وعليه سيطرت تسميات الجوامع والمساجد والزوايا وأولياء الله الصالحين على معظم الخطوط بالرغم من أنه لم يأت ذكر الزاوية الأحمدية وجامع الشيخ زكريا ومسجد الهجانى وزاوية المغاربة بخط الشيخ فرج فهى جميعا ما زالت باقية باستثناء زاوية المغاربة التى اندثرت • فإذا أضفنا هؤلاء جميعا يصبح هناك تسعة عشر جامعا ومسجدا وزاوية • ونظرا لقدم هذا الحى ووقوعه الملاصق لقلاع وأبراج المدينة فكثيرا ما تعرض للتدمير أو الإهمال فى فترات التحلل ، وكانت آخرها فى ستينات القرن العشرين الأولى عندما دمر أعظم مساجده وزواياه أثرا وآثارا بحجة شق شارع فى الحى (شارع الوحدة الآن) ففضى بالتالى على كثير من الشوارع المسقوفة (سباط المفتى) حتى بلغ ما اندثر كلية من تلك الأماكن الدينية أحد عشر مسجدا وجامعا •

هذا بالإضافة لإهمال بعض الزوايا مثل « زاوية ابن معدين الغوث » المهمة ومعها مسجد الشيخ خالد • ولما كان هذا الحى يمثل جزءا من الحى القديم للمدينة الأم ذات السور القديم لذا كان مركزا للنشاط التجارى والصناعى وتنوعت فيه الخدمات وتعددت الوظائف فهو المركز الإدارى للحكم ، به قصر القائمقام وقلعته وبیمارستانه والسوق ، وعليه تركزت الأسواق والحانات فهو عصب المدينة الاقتصادى ومستودعها ومركز تجارتها فقد جاء فى الوثائق الشرعية (٨١٥٧ - ٨١٦١ م) ذكر المؤسسات التالية فى الحى •

— خان الكتان •

(٩٢) عبد الكريم رافق — غزة — المرجع السابق ص ٢٤ •

• خان زاوية الهنود

• خان الغلة

• وكالة أبو شعبان

• وكالة على ساق الله (٩٣)

وكان بالحي « مسلخ » وسوق للنحاسين ومصبغة بشارع بنى عامر
ومعصرة لأولاد القهوجى بالقرب من الحمام

وقد انفرد هذا الحي بصناعة « الفخار » عند أقصى طرفه الغربى وما زالت
فى نفس الموضع ومارست هذه الصناعة عدة أسر غزية كما ورد فى الوثائق
منها (أسر قعوة - ابراهيم الشوبكى - خلف الأقرع - محمد فلل - عبد ربه
الغداوى - الحاج عبد الفتاح المشهراوى - ابراهيم الزنوتى - وأبو عبيد الأزعر
والحرمة أمونة صالح وغمش » (٩٤) للدلالة على مشاركة المرأة جنبا لجنب مع
الرجل فى ميدان الصناعة والعمل

ونلاحظ عند استعراضنا للأسواق دخول اصطلاح « وكالة » لأول مرة
دلالة للتأثير المصرى على السوق التجارية فى غزة فقد شيد السلطان قنصوى
الغورى « الوكالات » فى مصر سنة ١٥٠٠ م (٩٥) • وتبدو فعالية السوق
والحركة التجارية من الكثافة الواضحة لعدد الخانات والوكالات فى منطقة
محددة من الحي (لا يتعدى طولها مائتى متر) •

واستمرت هذه الفعالية حتى نهاية القرن التاسع عشر حيث ظهرت هذه
الخانات على خريطة رسمها « بيدىكر » سنة ١٨٨٧ م • لذا كانت هذه المنطقة
هى « مدينة التجار » اذا جاز التعبير • (انظر خريطة ٣٣) •

من المظاهر العمرانية التى حرصت الدولة العثمانية على الاهتمام بها
وتجديدها فى هذا الحي « ساقية الرفاعية » التى كانت تستمد مياهها من بئر
حفر بالقرب من « برج المدينة » ويخدم بدوره منطقة أو حي « البرجلىة » بالدرجة
الأولى لموقعها بالقرب منه ثم بنى عامر وحي الدرج بأكمله من هنا سمى
« بئر البرج » قام بتجديده سنة ٩٧٦ هـ (١٥٧٠ م) بهرام بك آل رضوان
كما يستدل من كتابة كانت على الساقية :

(٩٣) عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٥٤

(٩٤) د • عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٥٥

(٩٥) ثروت عكاشة - القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية - دار المعارف - القاهرة ١٩٨١

بناءً أعدل الأحكام بهرام بك أمير اللواء
هو ابن المصطفى باشا تكون الجنة مثواه
فلما انتهى من تأسيس هذا قيل للتاريخ
سبيل الله يا عطشان باسم الله (*)

بعد ذلك قام بتجديدها قائمقام غزة « رفعت بك الجركسي » سنة ١٢٨٨ هـ
(١٨٧٠ / ١٨٧١ م) واليه تنسب الساقية للآن « ساقية الرفاعية » (٩٦) حيث
قام بتسخير العديد لأعمارها من الناس المسنين ومستقطعا الأموال من الناس
بطريقة وصفت « بالشدة وكلفهم بالدفع خارجا وداخلا » وسجل عليها آياتا
من الشعر تنم عن الركابة والتكلف جاء فيها : (صور ١٥٣ - ١٥٤) .

بشارة (*) تمت على أعلى نظام رفعت بك شادها القائمقام
لما انتهى تعميرها تاريخها زها ابتهاجا فادخلوها بسلام (٩٧)
ثم قام بتعميرها السلطان عبد الحميد الثاني وأضاف إليها « سبيل ماء »
على الشارع في سنة ١٣٨١ هـ (١٩٠٠ م) كما جاء على بلاطة رخامية وضعت
أسفل قوس الجدار .

ثم جرى عليها آخر صيانة سنة ١٣٣٢ قبيل الحرب العالمية الأولى حيث
مازال الجدار الخارجى قائما للآن أما البئر والساقية فقد اندثرا وأصبحت
الأرض الآن تحتلها المدارس .

حى الزيتون

مكمل لحي الدريج السابق من الناحية الجنوبية ولا يفصله عنه سوى
الاسم فقط فالاتصال العمرانى بينهما يمثل كتلة عمرانية ملتصقة ويقع بطبيعة
الحال فوق تلة المدينة القديمة. وقد اشتمل على الخطوط التالية كما جاء فى
الوثائق الشرعية (٩٨) .

-
- (٩٦) عثمان الطباع - اتحاف الأعرسة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٤ « غير مطبوع »
(*) يوجد هذا الحجر المسجل عليه هذه الأبيات أعلا عتب غرفة بالطابق العلوى « لمدرسة البلدية »
بشارع عمر المختار بغزة وهى مهجورة الآن .
(*) بشارة : نسبة للبئر الذى يروى مساحة من الأرض مزروعة بالخضار والفواكه أما الآن
فتعنى الأرض الواسعة المزارعة غالبا بأشجار الحمضيات وتسقى بمياه الآبار .
(٩٧) عثمان الطباع - اتحاف الأعرسة - المرجع السابق ص ١١٨
(٩٨) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٢٤

اسم الخط (الشوارع)	ملاحظات
خط مسجد ولي الله الشيخ عثمان قشقار	مازال موجودا
خط الكمالية	نسبة جامع الكمالية ويطلق عليه الآن اسم « مسجد المعجمي الجديد »
خط الحضر	أى حى الحضر الذى هو جزء من حى الزيتون •
خط بوابة أولاد شير	ويقع بخط مسجد ولي الله عثمان قشقار السابق الذكر •
خط ولي الله الشيخ عطية	ويقع فى نفس خط الشيخ عطية ومسجد قشقار وهو ما زال موجودا •
خط مسجد الشمعة	•
خط مسجد ولي الله الشيخ كاتب	مازال موجودا •
خط مسجد ولي الله الشيخ محمد البطل	لقد اندثر وهو بنفس خط مسجد قشقار
خط جامع باب الدروب	اندثر وأقيم فوقه جامع صلاح الدين الحالى •
خط ساقية القيدة	تقع أسفل سفح المدينة الجنوبي •
خط الشيخ الياس	اندثر مسجده ويقع على أسفل سفح المدينة الجنوبي الشرقى •
خط مسجد ولي الله الشيخ محمد المعجمي	مازال موجودا •
خط مسجد الشيخ أبى ركب	موجودة بقاياها وهو خرب الآن •
خط مسجد الشيخ الصيغاني	•
خط آل رضوان	اسم عائلة تسكن الحى •
خط بوابة عليط	•
خط دار شير	•
خط مسجد ولي الله الشيخ عمر	مازال قائما وقد أزيل جزء منه عند شق شارع عمر المختار
خط مسجد الوزيري	فى نهاية الفترة العثمانية على يد جمال باشا •

وتعتبر « محلة الحضر » أيضا ضمن هذا الحى لكنها شوارع تميزت بسكنى الطبقة التجارية من الناس الذين يتمتعون بحياة حضرية داخل المدينة فاطلق السكان على ساكنى هذه الشوارع « محلة الحضر » وتتألف من الخطوط التالية (٩٩) •

اسم الخط (الشارع)	ملاحظات
خط حمام السمرة	مازال قائما في الحي
خط مسجد كاتب الاولياء	مازال موجودا وقد ورد ذكره ضمن حي الزيتون
خط مسجد الشيخ ركاب	ورد ذكره بحي الزيتون
خط سوق الحضر	ورد في حي الزيتون
خط معصرة اولاد مكي	اندثرت

تكرار هذه التسميات في الخطوط دلالة قاطعة على وحدة المبنى للحي وما تسمية « حي الحضر » الا للدلالة على عدة شوارع يسكنها هؤلاء الناس في قلب المدينة التجاري وبالقرب من حوائطهم فنالوا قسما من الثراء .

وهكذا نالت معظم الخطوط (الشوارع) أسماءها من المساجد والجوامع كمراكز إشعاع ديني وثقافي رصنع قلب المدينة العاجزة وقد بلغ تعددها حتى الستينيات الأولى للقرن التاسع عشر اثني عشر جامعاً ومسجداً اندثر منها ستة مساجد .

وتوسط الحي حمام واحد . (انظر خريطة ٣٠) .

وفي وسط هذا الحي توجد كنيسة « برفيريوس » التي أعيد ترميمها على يد تاجر سنة ١٨٥٦ م يدعى جورج بك أيوب حضر من مصر فجدد زينتها وزخرفتها (١٠٠) والتي تم أنشاؤها في القرن الخامس الميلادي . وفي نهاية ص ٤١٥ .

القرن التاسع عشر تم بناء كنيسة دير اللاتين أنشاها الراهب النمساوي الهرجات . سنة ١٨٧٩ م في « خط الكمالية » كما تم بناء كنيسة أخرى « كنيسة البروتستانت » وقد أسستها الارشالية التبشيرية الانجليزية سنة ١٨٩٣ م التي

(١٠٠) عثمان الطباع - اتحاف الأعزة في تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٢ .

غزة - ٢٣٣

أقامت حولها مستشفى أطلق عليه « المستشفى الانجليزى » (المستشفى الأهلى الآن) عند الطرف الغربى من الحى .

وقد ورد ذكر « سبيل واحد » بالحى يدعى « سبيل سوق الخضر » (١٠١) .

أما بالنسبة للمرافق الاقتصادية بالحى فهى كما ذكرنا تقع وسط المدينة القديمة وعليه فهو يمثل قمة النشاط والحركة التجارية مكملًا بالتالى الأسواق وخانات حى الدرج ، وقد جاء ذكر الأسواق التالية فيه :

— خان الزيت :

وهو من أشهر أسواق المدينة القديمة فهو « الرباط المنصورى » القديم ومن ثم أصبح « خان » ينزل فيه التجار والمسافرون لعقد صفقاتهم الجارية وأصبح فيما بعد ضمن أوقاف آل رضوان وقد هدم فى ستينيات هذا القرن .

وكثيرا ما ذكره الرحالة والمسافرون .

— خان الجمالى : ويقع بخط سوق الخضر .

— سوق السراجين : وما زال هذا الشارع يحمل نفس الاسم وإن اختلفت الوظيفة « سوق السروجية » .

— سوق الخضر : وهذا السوق ما زال فى وسط المدينة يحمل نفس الاسم .

— سوق الحمير : وكان يقع فى الطرف الجنوبى الغربى من المدينة .

— معصرة أولاد مكى : كانت توجد بمحلة الحضر وقد اندثرت .

— معصرة الحاج حسن البورنه (البورنو) بخط الشبيخ عطية وقد اندثرت .

ونظرا لشهرة هذا الحى بزراعة أشجار الزيتون التى تنتشر الى الجنوب من المدينة والتى ما زالت مساحة شاسعة حتى اليوم تغطى أرضها هذه الأشجار لذا تميز عن غيره من الأحياء بانتشار معاصر زيت الزيتون « ألبد » فقد جاء فى الوثائق البدود التالية (١٠٢) :

(١٠١) د . عبد الكريم رافق — ص ٢٨ .

(١٠٢) د . عبد الكريم رافق — المرجع السابق ص ٥٩ .

— بد أولاد شرير

— بد بخط البطل

— بد زايد بمنطقة الخربة

وهكذا استغرقت التجارة ممثلة في الحانات والأسواق ومعها الصناعة والتحويلية من معاصر وبدود وصناعة الفخار والصابون معظم مؤسسات المدينة داخل حي الدرج والزيتون ، ففي هذه المنطقة نبض الحياة الاقتصادية بجميع فروعها .

حي التفاح « التفين »

وهو حي جديد تمحور حول مسجده « الشيخ الأيبكي » السابق الذكر ويحد المدينة القديمة من جهة الشمال ويقع على أرض سهلية منبسطة كانت مزروعة بأشجار التفاح « حكر التفاح » وقد ضم الخطوط التالية (١٠٣) وفقا لما جاء في الوثائق حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .

اسم الخط (الشارع)	ملاحظات
خط جامع الشيخ عبد الله الأيبكي	مازال هذا الجامع قائما حتى الآن في وسط الحي .
خط جامع السكة	اندثر
خط ولي الله تعالى الشيخ	بني فوقه مسجد
عبد الرحمن بن سلطان	اندثر
خط جامع القهوة	مازال موجودا
خط جامع السدرة	اندثر
خط المعصرة	اندثرت « الجماعية »
خط الجماعية	ربما قاعات للحياة
خط القاعات	اسم عائلة ما تزال تعيش في الحي
خط زقاق الشرفا	

هكذا كانت الجوامع والمساجد هي العامل المشجع للحياة الحضرية والاستقرار البشري ليس وسط المدينة القديم فحسب بل وفي أحيائها الجديدة .

(١٠٣) د . عبد الكريم رافق ص ٢٤ .

ويعتبر هذا الحى من أصغر أحياء المدينة كما يبدو من خطوطه وعدد مساجده التى تصل لأربعة كما فى الوثائق علما بأن هناك أهم جامع للحى لم تذكره الوثائق وهى كما ذكرنا ليست معطياتها تامة - ألا وهو جامع على بن مروان الذى استمر خالفا يصلى فيه حتى اليوم وكذلك « مسجد الجولانى » عند أقصى طرف الحى الشمالى الشرقى وبذا يكون عدد مساجده الحى ستة اندثر منها اثنان .

وبهذا الحى كانت توجد « الأجمقية » وهى « سبيل ماء » كانت تغطى احتياجات حى التفاح وحى الشجاعة الجديدة من مياه الشرب واستمرت تواصل خدماتها حتى نهاية الفترة العثمانية الا أنها اندثرت فيما بعد

ولم يكن بهذا الحى على ما يبدو أية أسواق أو حمامات فكان يعتمد جميع مستلزماته من « فوق المدينة » حيث يغلب عليه الطابع الريفى فذكرت « الوثائق الشرعية » ان بالحى حارة تدعى « حارة الجمالة » نسبة لاقتناء ساكنيها أو معظمهم « الإبل » لاستخدامها إما فى الفلاحة و كوسيلة للنقل بين المدينة وقراها تنقل منتوجاتهم الزراعية للمدينة وترد لهم صناعات المدينة وبضائعها من سلع استهلاكية ضرورية . (أنظر خريطة ٣٠) .

وإجمالاً نجد أن بمدينة غزة وأحيائها تسعا وأربعين جامعاً ومسجداً اندثر منها ثلاثة وعشرون مسجداً وجامعاً أى أقل قليلاً من نصفها . استحوذت المدينة القديمة الأم (فوق المدينة) المشتملة على حى الدرج والزيتون بثلاثة وثلاثين مسجداً أى بما يعادل ٦٧,٣٪ من جميع مساجد المدينة بأحيائها الجديدة فى حين بلغت مساجد وجوامع حى الشجاعة بقسميه (الجديدة والتركمان) وحى التفاح بسبعة عشر مسجداً وجامعاً أى بما يعادل ٣٢,٧٪ من مساجد وجوامع المدينة .

وبحكم التقادم وتعرض المدينة التلية القديمة لكثير من الطرقات الحربية كقاعدة للحكم والادارة والجيش وأعمال الهدم المتعمدة فقد تعرض الكثير من مؤسساتها الدينية للهدم فبلغ ما اندثر من جوامعها ومساجدها تسعة عشر بنسبة ٨٢,٦٪ من مجموع الجوامع والمساجد المندثرة .

ولو أضفنا لعدد الجوامع والمساجد أربع زوايا (الأحمدية - المغاربة - الهنود - أبو مدبر الغوث) لأصبح هناك ٥٣ مؤسسة دينية فى المدينة كلها تتوزع على نواحي المدينة المختلفة . ووفقاً لتعداد سكان المدينة الذى قدر بنحو ٧ آلاف نسمة فى خمسينات القرن التاسع عشر (١٨٥٧ م) ووفقاً لما ذكره طمسون منهم ٥٠٠ نسمة من ديانات أخرى وسيكون نصيب الجامع نحو

مائة واثنين وعشرين شخصا دون أن نحذف رقم الأطفال ٠ ومع افتراض مساحة الجوامع والمساجد والزوايا تقدر بنحو ١٣٢٥٠ (*) مترا مربعا (وعلى افتراض أن متوسط مساحة الجامع والمسجد والزاوية ٢٥٠ م^٢) فسيصل نصيب المصلي الواحد - مع خصم ١/٢ السكان كأطفال الى ٦ أمتار تقريبا ٠

ازداد عدد السكان حتى وصل الى ثلاثين ألفا قبيل الحرب العالمية الأولى وبقيت هذه الجوامع والمساجد على حالها وقد ورثتها جميعا من العصر المملوكي باستثناء جامع السيد هاشم وجامع البطل الذي أنشئ ومسجد الغزالي بالشجاعة الجديدة ٠

وقد وصل عدد الكنائس بالمدينة مع نهاية القرن التاسع عشر الى ثلاث كنائس وعدد العرب المسيحيين سبعمائة وخمسون نسمة (روم وأرثوذكس - وبروتستانت - كاثوليك) ٠

أما بالنسبة لأمؤسسات الصحية مثل الحمامات فلم يرد ذكر أكثر من ثلاث حمامات بالمدينة بالشجاعة والزيتون والدرج أى بمعدل حمام واحد لكل حى وهى نسبة ضئيلة ربما تعكس قلة مصادر المياه داخل المدينة خاصة وأن الأسبلة قد تضائل عددها بشكل كبير اذا ما قارناه بالرقم الذى أورده « جلبي » فى منتصف القرن السابع عشر ٠

ولعل ما تعهد به أحد أبناء المدينة من تقديم « ألف قرية » ماء كل سنة لجامع كاتب الأولياء فى شهر أغسطس سنة ١٨٦٠ (١٠٤) أى بمعدل « ثلاث قرب » فى اليوم لجامع يقع فى منتصف « حى الحضر » المكتظ بالسكان الذين يتمتعون بمستوى معيشى مرتفع اذا ما قورن ببقية الأحياء تعتبر هذه الكمية من المياه ضئيلة جدا خاصة لو علمنا أن كل « ٢٥ قرية ماء » تعادل كمية مياهها متر مكعب من الماء ٠

وقد استمر الرجل « السقا » يجهل على ظهره قرينته كوسيلة وحيدة لتوزيع المياه على المنازل والمساجد حتى قيام الحرب العالمية الأولى داخل المدينة غزة وأحيانا تحمل المياه الدواب فى جرار فخارية ٠

أما بالنسبة لمراكز الاستقرار البشرى على ساحل المدينة فقد استوطن قلة من السكان حول أضرحة أولياء الله الصالحين حول الشيخ عجلى السابق الذكر فأصبحت هناك أشبه بقرية صغيرة تدعى « الشيخ عجلى » ٠

والى الشمال منها وقبالة مدينة غزة مباشرة هناك سكان التفتوا حول ضريح « الشيخ حسن » الواقع بالقرب من ميناء المدينة « والكرنشينة البحرية » التى

(*) أخذت هذه المعدلات وفقا لدراسة مساحة معظم الجوامع والمساجد ٠

(١٠٤) د ٠ عبد الكريم رافق - ص ٣١ ٠

أقامها السلطان عبد المجيد ويقع بالقرب من الشيخ حسن منطقة أثرية كانت تسمى « القيشاني » في آخر القرن التاسع عشر (١٨٧٥ م) (١٠٥) .
كذلك الحال بالنسبة لمنطقة « الشيخ رضوان » حيث سكن بعض الناس حول مقامه التي ألحقت به مدرسة سبق أن تحدثنا عنها وقد دكت قنابل السفن البحرية البريطانية في الحرب العالمية الأولى هذا المقام ولم يبق له أثر سوى الضريح فقط .

« ضاحية المشاهرة »

من ضواحي مدينة غزة الشمالية والواقعة جنوب جبالياً اعتمدت في حياتها على الزراعة وكان أغلبها من أشجار الزيتون وكان بها « بد » لعصر الزيتون في سنة ١٨٥٨ م (١٠٦) . وقد وصفها بعثة غرب فلسطين سنة ١٨٧٥ م بأنها قرية صغيرة أو ضاحية من ضواحي غزة تقع وسط أرض سهلية زراعية خصبة تحيط بها الحدائق والبيارات التي تروى بمياه الآبار الواقعة إلى الشمال والغرب منها وهي « بشر بيارة البقارة » « وبشر بيارة الغباري » وبشر بيارة الراحش (١٠٧) . ويقال لها « نزلة المشاهرة » (*) نظراً لانخفاض فوقها بالنسبة للنازل من فوق المدينة الشلية القديمة (غزة) . وأخذ العمران يمتد إلى شمالها نظراً لازدياد أعداد السكان ، فأصبحت المنطقة العمرانية التي أنبتتها المشاهرة تسمى « سكنة الزرقا » التي لاحق عمرانها قرية جباليا .

الوحدة العمرية

نمطها الانشائي والعمراني والعوامل المؤثرة فيها

إن أهم ما يسترعى انتباه الناظر لمدينة غزة كثرتها السكنية المتراسة والمتحمة أحيائها مع بعضها البعض فوق التلة المرتفعة (الدرج وحي الزيتون) القديمة فتحتشد بيوتها بشكل لا يسمح في الغالب الأعم بوجود فراغ أو مسافات ارتداد بين كل منزل وآخر وهذا النظام هيباً عنصر التضامن والتكافل فجعل المدينة أشبه بقلعة حصينة يسهل الدفاع عنها ضد غوائل الزمن وكان استجابة لعنصر الأمن وكذا الروابط الاجتماعية فيما بين الأسر ، فغالباً ما يقطن الشارع

S.W.P., Vol. 5, Ibid, p. 233.

(١٠٥)

(١٠٦) د . عبد الكريم رافق ص ٥٩ .

S.W.P. Vol. 3, p. 236.

(١٠٧)

(*) يقال انه نزل بها السيد صالح البلاسى وهو فى رحلته من العراق لمر ثم تركها واقام بها ابن عمه الشيخ شهاب الدين البلاسى الشريف الحسنى وصار اتباعه يضعون العمامة الخضراء على رؤوسهم (عثمان الطباع - اتحاف الأعزة - ص ١٤٨ .

النواحد عائلية واحدة تتوزع على طول الشارع في عدة منازل متجاورة لبعضها البعض حتى ليطلق عليها « حارة » العائلة نفسها كما لمسنا ذلك في تسميات العديد من شوارع أحياء المدينة .

وتميزت شوارع المدينة بضيقها (ما بين متر ومتر ونصف عرضا) واعوجاجها بشكل لا يسمح معه لسيير أكثر من رجلين يمشيان جنباً لجنب أو لرجل واحد يركب دابته .

ومن الشوارع ما كانت أجزاء منه « معقودة » أى تشبه بداية « القيسارية » كما هو الحال في « سباط المفتى » بحى الدرج مستغلين الأجزاء المسقوفة من الشارع والتي هي أشبه ما تكون « بالكويرى » فى بناء غرفة فوقها « صورة ٠٠٠٠٠ » .

هذا الضيق والاعوجاج للشارع لا يسمح العربات الحربية فى أوقات الحرب من حرية الحركة داخلها أو حتى السماح لها بدخوله أحيانا (الزقاق) وفى الوقت نفسه يمنع من دخول الأتربة وتوغلها داخل الشارع عندما تزدورها الرياح مثل رياح الخماسين كما تحدث من سرعتها لتعرجها فتصل للشارع معتدلة الحرارة . كما ان لضيقها واعوجاجها أثره فى أنها تصبح ظليمة تلتطف من حرارة الصيف وتساعد المشاة على السير والتجوال داخل الأحياء .

ومن شوارع المدينة ما كان مفتوحا على غيره يطلق عليه فى « الوقفيات والحجج الشرعية » بالطريق السالك . ومنها ما كان مسدودا « غير نافذ » وهذه عوامل مشجعة لسكناء وسعره فموقع المنزل على الطريق السالك يعطيه الأولوية فى السكن وفى السعر المرتفع عند بيعه .

وغالبا ما كانت المساجد والجوامع تحدد اتجاه الشارع حيث كانت تقع عند بداية الشارع وأحيانا عند نهايته أو فى منتصفه . كما هو الحال فى أحياء الشجاعية والدرج والزيتون والتفاح . لذا كانت جميعا عابلا مشجعا على استمرارية سكنى المدينة فالعلاقة وطيدة بين الدين والمدينة منذ أقدم العصور فالدين لا يمارس بحق الا داخل المدينة ففيه تقام صلاة الجمعة « والجمعة من التجمع » والتششت والتباعد العمرانى يؤدى الى التهوان والابتعاد بالمسجد أول أساس يتم فى المدينة الاسلامية الجديدة (١٠٨) .

ولعل وصف « منزل » كوحدة أساسية ونواة أولى للحى ومن ثم للمدينة يوضح نمط هذا العمران والعوامل المؤثرة فيه .

فقد جاء فى « وقفية » موسى باشا آل رضوان متصرف مدينة غزة والمسجلة بالقدس سنة ١٠٨١ هـ (١٦٦١ م) وصف لمنزل . قد أوقفه المذكور يقع فى

(١٠٨) جمال حمدان - جغرافية المدن - القاهرة - بدون تاريخ ص ٣٢٧ .

« حى البرجلية » الذى هو جزء من حى الدرج ونعتبره من « منازل » الأمراء وصف مكوناته كالتالى :

« جميع الدار العامرة القائمة البنا الكاينة بمحلة البرجلية داخل مدينة غزة هاشم بشنارح بنى عامر ^(*) المشتجلة على بيوت وايران ومطبخ معقودات بالحجر والشيد وساحة سماوية مفروش أرضها بالرخام والبلاط المحكم ومقر علوى بقبة بالجهة القبلىة منها وايران ملاحق له معقودين بالحجر والشيد وتجاههما حضير يصعد الى ذلك من سلم حجر معقود بالحجر والشيد ومقعد برانى وايران ملاصق له معقودين بالحجر والشيد وساحة سماوية تجاههما من جهة القبلىة والشرقية واصطبلين وبيرين معدنين لحزن الغسال أحدهما بالايران والآخر بالساحة ، وأرضه ملاصقة لدهليز الباب المتوصل منه معقودين بالحجر والشيد » (صورة ١٥٤ - ١٥٥)

ولقد حافظ هذا النمط العمرانى السكنى على شكله ووظائفه حتى بعد قرنين من الزمان فقد جاء فى أحد الوثائق الشرعية الغربية وصفاً لمنزل سنة ١٨٥٧ م تم بيعه فى نفس الحى « البرجلية » كالتالى :

« قاعتين عقد وثلاثة بيوت (غرف) مسقفات بالخشب وثلاثة لواوين مسقفات بالخشب ومحل راحة عقد وساحة سماوية مفروشة بالبلاط بها سلمين من الحجر أحدهما يوصل الى قصر مقعد بالحجر والجير وايران «وأوضفة» مسقفة بالخشب بجانب القصر المذكور ومحل راحة (دورة مياه) عقد والسلم الثانى موصل الى حضير فقط » . (أنظر للرسم التخطيطى للمنزل ٣١)

ولهذا المنزل بابان أحدهما « جوانى » يفتح على زقاق سد أى غير نافذ والآخر « برانى » يفتح على طريق سالك .

وقد بيع هذا المنزل بمبلغ ٢٤٠٠٠ قرش أسدى وهو أغلى منزل بيع فى ذلك العقد من خمسينات القرن التاسع عشر فى غزة (١٠٩) .

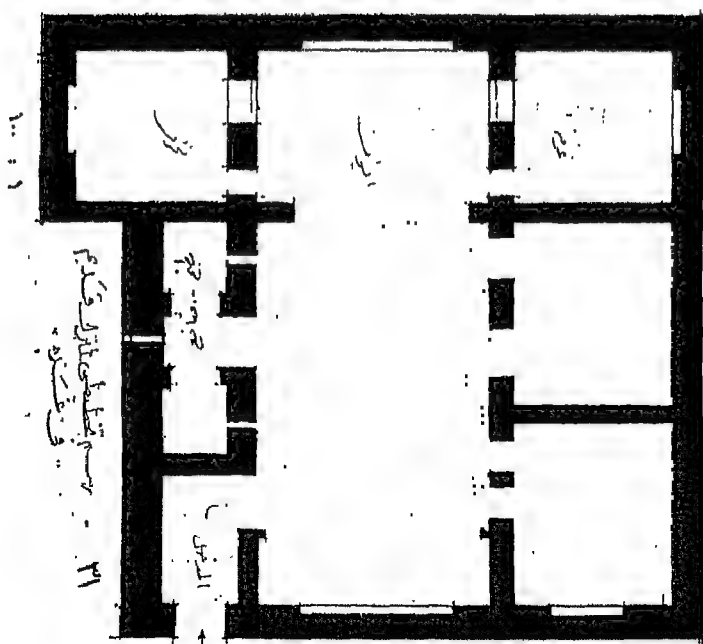
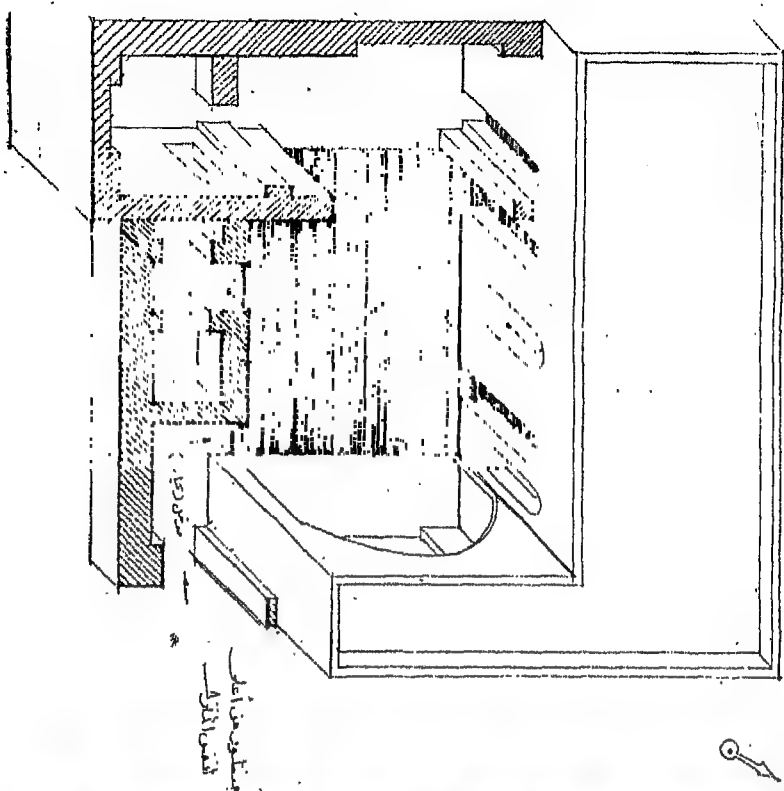
وفى عام ١٨٦٠ م تم بيع منزل بحى الشجاعية بشنارح « مسجد الست رقية » جاء فى وصفه « المشتمل على بيتين (غرفتين) وخزانة ومطبخ مسقفات بالأخشاب وساحة سماوية » .

كما جاء ذكر أصغر بيت بيع بحى الشجاعية الجديدة بشنارح جامع المحكمة فى سنة ١٨٦٠ م مكوناً من « بيتاً واحداً ضم غرفة وساحة سماوية » (١١٠) بيع بثمان مائة قرش .

(*) ورد الشارح هنا باسم بنى عامر ليؤكد أنه جزء من حى البرجلية .

(١٠٩) د عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ١٣ .

(١١٠) د عبد الكريم رافق ص ١٨ - ٣٠ .



أما منازل بقية الأحياء الواقعة في ظاهر المدينة (الشجاعية والتفاح) فكان أغلبها مبنيا من الطين عدا الجوامع والمساجد والحمامات والأسواق فقد كانت من الحجارة وكان البيت يشتمل على غرفة أو أكثر تبنى من الطين ومسقوفة بجذوع الأشجار وأغصانها ليوضع فوقها الطين وكانت البيوت تبنى على هيئة قاطرة أمامها عريشة وأحيانا يلحق بالبيت « بايكة » لحزن الغلال ومبيت الحيوانات وعلى مقربة من (لغرف هذه يبنى « القرن » أو « الطابون » فهو بمثابة المطبخ للمنزل الذي تقضى المرأة معظم وقتها اليومي بجواره تطهى الطعام وتعد الخبز .

من خلال مكونات كل منزل من هذه المنازل وتركيبه الوظيفي نلاحظ ان هناك عدة عوامل دينية واجتماعية ، مناخية ، وعسكرية قد تأثر بها العمران العربى داخل المدينة وبذل الانسان الفلسطيني جهدا لتطويعها وفقا لمقتضيات هذه الظروف جميعا وبيئته المحلية .

فمن الناحية الدينية والاجتماعية : -

نجد ان شكل المنزل الخارجى قد تم تصميم جدرانها الخارجية على هيئة جدار مرتفع مصمت يشرف على الشوارع بفتحات ضيقة وصغيرة فى أعلاه وفى المنتصف السفلى الباب الرئيسى (البرانى) الذى يوصل لداخل المنزل بدهليز وملتحق يسمح للمرأة بالتحرك فيه لو طرق طارق البيت دون أن يراها ، تماما كما يمنع الجدار الخارجى المرتفع الراجلة من الناس فى الشارع من رؤية من بداخل البيت بما يتناسب مع « حجاب المرأة » وعدم رؤية الآخرين لها وفقا للعوامل الدينية الخفيفة والعادات والتقاليد المتوارثة .

كما نلاحظ تعدد غرف المنزل الواحد أحيانا ويتألف من طابقين لكى يفى بتعدد أفراد الأسرة الواحدة المركبة التى يرغب الأب فيها من سكتى أولاده وزوجاتهم معه . كما تبدو التأثيرات الريفية واضحة داخل المدن من وجود « الحصىير » لتربية الدواجن ، والآبار المعدة لحزن الغلال فى كل منزل .

وجيولوجيا :

لعبت ظروف التكوينات الجيولوجية لمدينة غزة وما حولها فى تقديم جميع الخامات اللازمة للبناء قام باستغلالها واستثمارها العربى الفلسطينى فى الشمال والشرق والجنوب الشرقى من مدينة غزة القديمة تنتشر تكوينات التربة الطينية التى استغلتها الطبقة الفقيرة من المواطنين فى جلبها من المكاشف الجيولوجية الطينية (المطينة) وصنع منها قوالب طينية مستطيلة الشكل بعد خلطها « بالتبن » لتزداد تماسكا ليبنى بها جدران منزله .

والى الشرق من نطاق التربة الطينية توجد تكوينات الحجر الرملى (الكركار) على هيئة حزان مرتفع (٦٥ - ٨٥ مترا فوق مستوى سطح البحر) وعلى طول

القطاع فأخذ الانسان العربي الفلسطيني فى تقطيع حجارتها منها متوغلا فى بطن هذه التكوينات على هيئة « مغارة » حاول الاحتباء بها أثناء الخطر يطلق عليها « المحجار » حيث يأخذ حجارتها الخام ثم يقوم بتشذيبها وفقا لاحتياجاته (الحجر البلدى) لينبئ بها منزله والذي غالبا ما يستخدمها الأغنياء فى المدينة كما هو الحال (فى حى الدرج والزيتون وأجزاء من الشجاعية) .

أما « الشيد » فقد استخلصه من « الحجر الجيرى » المنتشرة تكويناته غالبا الى الشرق من تكوينات الحجر الرهلى الى الغرب من مدينة « بئر السبع » وفى منطقة جبال الخليل يقوم بحرقها فى « اللتون » ثم يضعها فى حفرة ليصب فوقها الماء (المصول) مستخلصا منها الجير ليمزجه بعد ذلك بالرماد (السكن) لتكون مادة يبنى بها الحجارة (قصرمل) ويبيض بها الجدران الداخلية للغرف . وكثيرا ما كان يجلب بعض أمراء المدينة « والأفندية » حجارتهم من المنطقة الجبلية الوسطى يطلقون عليه (حجر قدسى) نسبة للقدس .

واستعانت العمارة الفلسطينية بكثير من الأعمدة الرخامية الإسلامية والرومانية والبيزنطية لتدعم بها الايوانات كما زينتها الحجارة ذات الزخارف الجصية بأساليبها العربية الإسلامية . (صورة عمارة الزهراء) .

كما أدخلت بعض المصنوعات الفخارية مثل « الجرار والأباريق » فى عملية البناء فوضعت فى أسقف المنازل كما زينت بعض جدران الأسطح منها . (الصورة رقم ١٥٥) .

ومناخيا :

لعبت عناصر المناخ التى تتنازعها المؤثرات الصحراوية جنوبا والبحر المتوسط صاحب الأمطار العاصرية المتذبذبة فى كميتها دورا هاما فى تصميم المنزل فى المدينة فجميع المنازل الطينية فى الأحياء الفقيرة كانت أسطحها مستوية لا تسمح باستقرار المياه عليها .

فى حين نجد المنازل المبنية بالحجارة فى أحياء الدرج والزيتون وأجزاء من الشجاعية كانت ذات قباب تنزلق عليها مياه الأمطار وفى الوقت نفسه لا تكون عرضة لأشعة الشمس طول النهار .

كما أن وضع « الساحة السماوية » فى منتصف المنزل يتمشى مع الظروف المناخية القارية الى حد ما ويتفق مع المنطق العلمى فالهواء البارد يسقط أثناء الليل على أرضية هذه الساحة السماوية ليتسرب وفقا لثقله الى غرف النوم والايوانات المحيطة به فيعمل على تلطيفها مدة طويلة حتى اذا ما سخن بعضه ارتفع الى أعلى وخرج من الفتحات الضيقة أعلى الغرف . وقد أثبتت الدراسات

العديدة صحة فكرة هذه « الساحة السماوية » أو « الصحن » في البيت،
العربي الاسلامي (١١١) .

كما كان لندرة الأمطار وتذبذبها حرص الانسان الفلسطيني في الحفاظ
عليها فقام البعض بحفر آبار في منتصف الساحة السماوية تقريبا لحزن مياه
الأمطار به أثناء سقوطها عبر « المزراب » من فوق أسطح البيت . كما حرصوا
على بناء « مزيرة » لحفظ المياه بها أشبه بخزان يبنى غالبا أسفل السلم الحجري
الموصل للطابق العلوى .

هكذا كان النمط العمراني للمنزل العربي الفلسطيني يفى بجميع متطلبات
الانسان (غرفة نوم - مضيفة - مطبخ - بئر للغلال - بئر للماء أو مزيرة -
بيت الراحة (دورة مياه) - فرن بايكة - اصطبل) يتفاوت بمكوناته هذه
بتفاوت المستوى المعيشي داخل أحياء المدينة .

حافظت مدينة غزة وضواحيها على نمط عمرانيها حتى بداية الحرب العالمية
الأولى كما وصفها معظم الرحالة والدارسين والبعثات في سنة ١٨٧٥ م وكما
وصفها . شوماخر سنة ٨٨٦ م عندما ذكر بأن شوارعها نظيفة ولنازلها (حتى
الدرج) مشربيات مفسرا ذلك بالتأثير المصري على المدينة كما وصف حتى
الشجاعة بأن معظم مبانيه من الطين مجعلا قوله بأن المدينة متأخرة عن ركب
المدن المتحضرة الأخرى عشرون عاما !!! فقط .

ولم يطرأ على كتلة المدينة السكنية أية تغيرات تذكر حتى عام ١٩٠٧ م
وعندما تم شق شارع يشطر المدينة من أقصى غربها (مقبرة ومسجد الشميخ
شعبان أبى القرون) حتى أقصى شرقها وجرى تعبيده على يد جمال باشا في
سنة ١٩١٤ وأطلق عليه شارع « جمال باشا » (*) شارع عمر المختار الآن) .
وعلى أثر ذلك جرى هدم بيوت كثيرة من حى الحضر بالزيتون وهدم منه أجزاء
وأجزاء من « جامع الوزيري » كذلك شطر « خان الزيت » وهدم منه أجزاء
كثيرة ، وقد وصف المعاصرون ذلك بقولهم « قد لحق الناس ضرر وحزنوا جزوا
شديداً - لأن الحكومة التركية لم تعوذكهم » (١١٢) .

(١١١) مصطفى عباس الموسوى - العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية -
منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد - ١٩٨٢ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(*) أطلق عليه المجلس البلدى لمدينة غزة سنة ١٩٢٨ اسم « شارع عمر المختار » تخليداً
لبطولته ضد الايطاليين فأصبح قنصل ايطاليا في فلسطين معتبرا ذلك « اهالة » فرد عليه رئيس
بلديتها فهمي بك الحسينى بكتاب قائلا « اذا كان هذا العمل يعتبر اهانة فان ايطاليا قد أهانت
نفسها باعدامها هذا الشيخ العربى (حلمى أبو شعبان) - تاريخ غزة نقد وتحليل - القدس -
١٩٤٣ ص ٥٥ - ٥٦ .

(١١٢) عثمان الطباع - اتحاف الأعزة - المرجع السابق ص ١٨٥ .

كما تعرضت المدينة وسكانها لأقصى وأقصى ما تتعرض له من كوارث ونكبات ما زال العديد من أبنائها يتحدثون عنه فقد اجتاحتها « الجراد » في سنة ١٩١٤م من الشرق والشمال ليقضم كل أخضر بها . وتبعه في العام التالي وفي سنة ١٩١٥ وباء الكوليرا الذي حصده العديد من سكانها .

وفي نفس العام نصبت الدولة العثمانية أعواد المشايخ لمن فر من الخدمة العسكرية في ثلاثة مواضع من المدينة شنت على مرأى من الناس أربعة أشخاص أمام مسجد أبي العزم واثنين قبالة الجامع العمري الكبير وسط المدينة وشنت آخر عند طرف المدينة الغربي في وضوح النهار والناس متجمهرة حولهم .

وبعدها أتى رسول من جمال باشا يخبر أهالي غزة بأن مدينتهم أصبحت خطاً حريباً وأمر أهلها بالرحيل عنها « خلال يومين ولو زحفا على الركب » وكل من تأخر يحرق هو وأمتعه وكان مناد ينادى بذلك ليلا على الناس .

فرحل الناس عن المدينة حتى غدا هذا الرحيل سجلا مستقرا في أذهانهم يطلقون عليه « رحيل غزة » فاتجهوا شرقا شمال بشر السبع وشمالا نحو مدن فلسطين بعدها أخذ الجنود الأتراك في هدم جميع المنازل المبنية من الطين وسحب أخشاب أسقفها لعمل المتاريس أو حرقها (الشجاعة - التفاح - وجنوب الزيتون) ليعود الناس بعد عامين ليجدوا معظم أحياء مدينتهم قد دمرت . سواء من العثمانيين أو قنابل جيش الحلفاء التي انهمرت على المدينة من البر والبحر فأصابت منازلها ومساجدها بالتدمير .

أما القرى الفلسطينية المحيطة بمدينة غزة - فقد لعبت المساجد وأضرحة أولياء الله الصالحين دورا بارزا في استقطاب السكان وترسيخ تواجدهم فيها لا اعتقادهم بصلاح هؤلاء وتبركهم بهم لمقامهم عند ربهم (إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) صدق الله العظيم - وبركتهم هذه يحرس الله لهم مقامهم ومن جاورهم من السكان . لذا فضل السكان الاستقرار والسكنى بالقرب من هذه الأضرحة والتي غالبا ما أقيم بالقرب منها جوامع أو مساجد تجمع السكان خمس مرات في اليوم .

فقد كان لأهل مدينة يينا اعتقاد بالشيوخ عوض الغزي بأنه خفير البلاد (١١٣) في سنة ٩٢٥ هـ .

وقد ورثت هذه القرى مواقعها ومواضعها في الغالب من القرى العربية الكنعانية وارتبطت في نشأتها بأسباب دينية وحرية فكثيرا ما نجد أسماءها تسبقها كلمة « بيت » أو « دير » أو اله من الآلهة ليأتي الاسلام فيعزز ويرسخ تواجدها بجوامع ومساجده وقبائله .

(١١٣) نجم الدين الغزي - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - تحقيق د. جبرائيل

حبور - الجزء الأول ، بيروت ١٩٧٩ ص ٢٨٧ .

فها هي قرية « بيت حانون » العربية القديمة يعمق بقاءها « مسجد النصر » رمزا وتخليدا لنصر المسلمين على الصليبيين فيها كما ذكرنا وقرية « بيت لاهيا » الكنعانية يحافظ الاسلام على تواجدها بزراع مساجد الشيخ سليم أبو مسلم والشيخ سعد في أوائل أيام الدولة العثمانية لتلتف مباني القرية حولهما وكذلك الحال في أكبر قرى غزة الشمالية وهي قرية « جباليا » التي تجمعت مبانيها حول جامع برجس وأصبح جامعها الكبير ومقام الشيخ محمد المشيش مع بداية القرن الخامس الهجري .

ونفس المكانة كانت لأضرحة أولياء الله في منطقة شمال غرب غزة وفوق تلها الرملية حيث تواجد ضريح « الشيخ رضوان » ومدرسته والى الغرب من غزة مباشرة وعلى ساحل بحرهما ضريح الشيخ حسن الأغبر وفي جنوبها الغربي وفوق تلة مرتفعة هي أشبه بالجرف كان وما زال ضريح الشيخ عجلاين فكانوا بالتالي نواة لتكوين قرى اندثر بعضها وبقي البعض ينمو السكان من حولهم بشكل كاد يفوق حدود القرية كما هو الحال في منطقة الشيخ عجلاين . حتى حرص الرحالة من المسلمين - كما ذكرنا من قبل - على زيارة هذه الأضرحة عند مجيئهم لمدينة غزة .

أما جنوب مدينة غزة فقد جذبت هذه الأضرحة كثيرا من السكان كما هو الحال عند وادي غزة حول مقام الشيخ نبهان المتوفى سنة ٦٨٤ هـ كما جاء على قبره . ومسجد الحضر في دير البلح وضريح المغزا في منطقة الدميثة (دائن) جنوب المغازي والشيخ عبيد وأبو جهيزه في منطقة خان يونس وهو أخو الشيخ نبهان السابق الذكر وهما ابنا الشيخ عزاز المدفون بجهة الصالحية بمصر ويمتون بصلة القرى بكل من الشيخ محمد البطاحي المدفون فوق تلة المنطار شرق غزة والشيخ رضوان (١١٤) السابق الذكر . (خريطة رقم ٣٢) .

تماما كما أضفت القبائل العربية الاسلامية على مناطق استقرارها اسمها ، فكانت قرى خان يونس الشرقية وهي قرى بنى سهيل وعيسان الكبيرة والصغيرة وقرية خزاعة وقرية معن . حتى لينخيل اليك بأنها جميعا « قرى أضرحة » والتي كثيرا ما أقيمت حولها ليس قرى بل مدن بكاملها كما في العراق ومصر وبقية الدول العربية أما رفح فانتشرت فيها « الحرب » كمناطق استقرار بشرية تعرضت للتخريب والاندثار كمناطق حديثة صحراوية فانتشرت فيها خربة مهصيح وخربة العلس ودرمس .

أما النمط العمراني والسكنى للقرية فنجد جامعها هو مركزها ومعلمها الجغرافي الثابت وهو الوحيد المبني من الحجر تحيط به بيوتها الطينية المنجوعة.

(١١٤) الشيخ عثمان الطباع - الشجرة الزكية - مخطوط .

خريطة (٣٢)
غزة وجنوبها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر

والمكتلة كأنها بيت واحد ضمنا للأمن وقوة للدفاع إذا ما كبر صفوفها معتد من الداخل أو الخارج ، تتخللها شوارع ضيقة معوجة تسمى في الغالب إما باسم الجامع أو المسجد أو الضريح أو باسم أكثر العائلات سكنا فيه .

فها هي قرية جباليا بها شارعان فقط ورد ذكرهما في أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر وهما خط الجامع الكبير (جامع برجس) وخط الدردنة (١١٥) نسبة لعائلة تسكن القرى الآن .

وللديوان أم « المقعد » وظيفة حيوية لأهل القرية يجتمعون فيه مساء كل يوم يناقشون قضاياهم الاجتماعية والاقتصادية وكل ما يتعلق بمشاكلهم للوصول إلى أنسب الحلول بشكل جماعي . وللديوان أيضا وظيفة « المضافة » يحتفون به بالزائرين أو الضيوف كل بقدر استطاعته .

والمنزل في القرية يتألف من غرفة أو أكثر مبنية من الطين يزداد عددها أو ينقص وفقا للظروف الاقتصادية في المقام الأول لرب الأسرة ثم عدد أفراد أسرته وتأخذ الغرف شكل القاطرة بجوان بعضها البعض وأمامها ساحة سماوية ويبني بالقرب منها « القرن » للطهي والخبز ويبني في البيت أحيانا « بايكة » هي بمثابة مخزن للفلال واصطبلا للحيوانات . ويحاط المنزل بسور طيني له باب .

وبئر القرية هو الممول الوحيد لاحتياجات كل منزل من الماء .

وليس للقرية في الغالب « سوق » فهي تسوق منتجاتها الزراعية لأقرب مدينة لها وهي غزة بالنسبة لقرى الشمال والشرق حيث يفدون لها في يوم سوقها « سوق الجمعة » في الطرف الجنوبي الشرقي من حي الشجاعة التركمان يشترون منه كل ما يحتاجونه من منتجات زراعية وصناعة أو مواش وأغنام .

أما قرى جنوب مدينة غزة فهناك « سوق الثلاثاء » في دير البلح وسوق الأربعاء في « خان يونس » و« سوق السبت » يعقد في رفح .

وهذه الأسواق جميعا تقع في أماكن مناسبة في بعدها عن القرى القريبة منها بحيث لا تتعدى ثلاثة كيلو مترات عنها .

الفصل العشرون

البنية الاقتصادية

● أولا : الزراعة

● ثانيا : الصناعة

● ثالثا : التجارة

البنية الاقتصادية

يتألف البناء الاقتصادي في الأرض الفلسطينية التابعة للدولة العثمانية ومن ضمنها غزة وإقليمها الطبيعي الجغرافي من قاعدة أساسية تكاد تكون وحيدة وهي « الزراعة » تفرعت منها وقامت عليها صناعات معاشية ترفيهية أصبحت فيما بعد استهلاكية بسيطة لتصل في نهايتها الصناعات تكميلية خادمة للاقتصاد الزراعي القاعدة سدت احتياجات المنطقة الذاتية وفاضت لتدخل في قائمة الصادرات وليعودوا بقيمتها بما يحتاجونه من واردات فكانت التجارة .

تلك ثلاثية الاقتصاد الغزي الفلسطيني في غزة التي سننتعرض لها ، باللامح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب الكونية الأولى .

أولا : الزراعة

اعتمدت مدينة غزة وإقليمها الطبيعي الواسع على الزراعة بصفة رئيسية فهي بحق « سلة الخبز » الفلسطيني لتتعدى بانتاجها وشهرتها الى ما وراء البحار فيصدر شعيرها بالمقام الأول للعالم العربي والخارجي ثم قمحها وفواكهها . كما زرع القطن شرق وشمال شرق غزة .

فقد أحيطت مدينة غزة بنطاقين زراعيين :

الأول نطاق زراعي معاشي يسور المدينة من جهاتها الأربع كالسوار الضيق المتصق باليد وهو « نطاق السواقي » نطاق الزراعة القطاعية التي يتحكم فيها أمراء المدينة وحجابها ورجال السلطة المقربين . وعلى الفلاح الذي يزرعها وتعتمد أساسا على زراعة الخضار والفواكه التي تخدم مالكيها القطاعي في المقام الأول وما يفيض يذهب للسوق المحلية وتعتمد هذه « السواقي » على مياه الآبار التي حفرتها لها خصيصا .

وتعددت هذه السواقي فكانت في حي الشجاعية « ساقية خليل » للشرق من حي التركمان « وساقية العدسية » (*) « وساقية سويد » للغرب من حي الشجاعية الجديدة . « هذا في حي الشجاعية الواقع الى الشرق من المدينة

(*) أوقفها الشيخ أحمد بن الحاج محمد عدس سنة ١٢٨٢هـ والمتوفى سنة ١٣٠٢هـ .

« الأم (٠) وإلى الشمال منها في حى التفاح الممتلك لأراضى التفاح كانت تحده « ساقية قلفان » الواقعة الى الشمال مباشرة من أسوار المدينة وساقية شعبان وساقية حسن ، أما الى الجنوب من موضع المدينة فهناك حى الزيتون بزيتونه الشهير تحده « ساقية الزيتون » « وساقية القيد » وبركة بهرام التى أوقفها سنة ١٠٠٠ هـ . وساقية أم الليمون « وساقية القصر » ولعل أسماءها تفصح عن زراعتها .

أما فى الجهة الغربية فهناك « ساقية الدرج » « وساقية الزفاعة » الواقعة بداخل مدينة غزة الأم .

فقد أسهمت هذه « السواقي » التى أوقفها الأمراء ورجال الحكم فيما بعد - فى سد احتياجات المدينة وأحيائها المحلية من خضار وفواكه فى مساحة زراعية امتدت حول المدينة لمسافة تقدر بأربعة أميال شمالها وجنوبها وبمنحو ٢٥ ميل الى الشرق والغرب أما النطاق الثانى ، فهو المتمثل فى ظهير مدينة غزة السهل الساحلى والذى وصل الى حده الأدنى مع سبعينات القرن التاسع عشر الميلادى فأصبح يمتد حتى المجدل شمالا ليضم احدى عشر قرية فقط (١١٦) . تمول مدينة غزة فى الغالب بخضارها وفواكهها كما وصف من قبل طومسون سنة ١٨٥٧ (١١٧) وخاصة الزيتون الذى ترسله قرية جباليا . أما بقية القرى الشمالية هذه فكانت النزلة وبيت لاهيا وبيت حانون ودير اسنيد وهرييا وبيت دمره والجوزة وكان لكل قرية بشر واحد ترتوى منه .

أما قرى الجنوب فلم تذكر بعثة مسح غرب فلسطين سنة ١٨٧٥ م سوى دير البلح وشهرتها بأشجار النخيل (١١٨) .

فى حين ذكرها « شوماخر » سنة ١٨٨٦ م بأنها مزدهرة الزراعة تحيط بها أشجار النخيل « والبيارات » ذات الآبار الواقعة عند مدخل القرية الشمالى « بيارة أبو سته » وان معظم اراضيها مزروعة بالبطيخ والشمام ويزرعها عرب الحناجرة والملاحة والنصيرات بمساحة كبيرة تصل حتى « وادى غزة » شمال القرية كما يزرعون القمح والشعير والدخان والبقوليات مستخدمين وسائل رى أشبه ما تكون « برى الحياض » فى مصر ، كما شاهد خادثة وهو فى قرية دير البلح ربما تعكس دلالات اقتصادية معينة عندما منع أحد العساكر بدويا كان يطلب منه ضريبة العشر فصفعه البدوى وهرب مما دفع العسكرى

S.W.P. Vol. 3, Ibid, p. 233.

W. M. Thomson, Ibid, p. 547.

S.W.P. Vol. 3, Ibid, p. 248.

(١١٦)

(١١٧)

(١١٨)

الى قتله وفر بعدها الى تكيته. فهاج الأهالي وأخذوا العسكرى وسلموه لشيخ قبيلة الحناجرة الذى أمر بقتله فأرسل على أثر ذلك المتصرف حملة عسكرية قامت بحرق جميع مزروعات المنطقة (١١٩) . مما دفع هذه القبائل لتركها والتوجه جنوبا شرق منطقة « الشيخ حمودة » .

هذا يؤكد أولا أنه لم يعد هناك بدابة خالصة تعتمد على الرعى فقط بل ارتبطوا بالأرض وزرعوها . . كما تشير هذه الحادثة الى الضيق الاقتصادى وسوء أحوال المزارع التى لم يعد معها بقادر على دفع الضرائب وعدم قدرة السلطة على الانضباط الذى يؤكد الضعف والتهور فيحرق الأرض بما عليها ليترك أبناء الشعب بلا مورد خاصة « البدوى » الذى كان يأنف الزراعة والذى ربما ارتبط بها واحترفها لتردى الأحوال التجارية فى أواخر القرن التاسع عشر ومن ثم الاعتماد على ابله كوسيلة للنقل أو الاعتماد عليه هو كدليل للقوافل التجارية فاتجه للأرض .

والى الجنوب انتشرت أيضا زراعة الخضار والفواكه الى الشرق من خان يونس فى قرى بنى سهيل وعيسان الصغيرة والكبيرة وخزاعة ومعن فزرع سكانها من عرب الحناجرة الحبوب والدخان والتين والنخيل وحفروا الآبار واعتمدوا على مياهها .

أما رفح وقراها فقد كان يسود غربها الرعى فى خربه مصبح وخربة العدس وأم الكلام ودرمس عرب الترابين فقط (١٢٠) .

أما الممول الرئيسى لمدينة غزة فهى الأراضى الواسعة الممتدة الى الشرق منها وحتى بئر السبع أرض القمح والشعير الذى تميز بشهرته الفائقة والذى أخذ فى الاضمحلال كما سنرى حيث بدأت الزراعة تنسوء لمنافسة البضائع الأوروبية وانخفاض قيمة النقد العثمانى وفقدان مدينة غزة موقعها كممر تجارى وكميناء بحرى ومحطة لمحمل الحجاج بعد عام ١٨٨٥م فأصبحت على آخر الطريق الشامى جنوبا بعد أن كانت حلقة وصل وذلك لسيطرة الإنجليز واحتلالهم لمصر وممرها المائى قناة السويس .

واستنداء الدولة العثمانية لمعظم الشباب للانخراط بالعسكرية التركية وإرسالهم الى جبهات القتال فى اليمن وأوربا وتسليط القلة القليلة من أبناء المتصرفين والأفندية والمتزمين على معظم الأراضى الزراعية مما جعل الفلاحين لا يقدرون على سداد ما عليهم فسلبت أراضى البعض ولم يقدر الآخرون الا على كفاف أنفسهم ساعدهم وخفف عنهم روح الأسرة المركبة التى يسودها التكافل

G. Schumiacher, P.E.F., Ibid p. 178-180.

(١١٩)

G. Schumacher, ibid, p. 190-191.

(١٢٠)

فالكبير عليه العطف على الصغير وكذلك ما ورثوه من عادات وتقاليده كعادة « الرزقة » عندما يجتمعون في « الديوان » للأكل جميعا بمساهمة كل فرد بما لديه وعادة « المنوخة » والتي بموجبها يقدمون الأغنام لمن لا أغنام عنده لكي يحلبها ويستفيد من لبنائها • كما يمنحون شجرة لأولئك الذين لا يملكون مزارع لكي يأكلوا من ثمارها • وتتجلى مساعدتهم لبعض في عادة « العونة » حيث يهب الجميع لحراثة أراضي الغير كل بمحراثه لمن لا يملك القدرة بنفسه أن يحراث أرضه الواسعة •

حتى ديون أهل القرية كان سدادهما جماعيا •

بروح التكافل والتضامن هذه استطاع الفلاح العربي الفلسطيني أن يخفف الى حد كبير من وطأة الفقر الذي اجتاحت المنطقة عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين •

فبعد أن كانت ثروات الشعب معظمها آت من الزراعة والتجارة كما في بداية خمسينات القرن التاسع عشر وكما أوضحته الدراسة القائمة على ثلاث وأربعين تركة من تركات أبناء غزة (١٢١) • نجد أنه بدأت فترة الضمور والتدهور الاقتصادي ممثلا خير تمثيل في الزراعة مما أدى الى تدنى سعر الأرض التي هي عماد الفلاح الاقتصادي ورصيده المتمسك به تمسكه بحياته وشرفه ووطنيته « الى ما له عطن ما له وطن » •

فقد بلغت قطعة من أرض زراعية بيعت في مدينة غزة سنة ١٢٥٦ هـ مساحتها ٤٦ قيراط ألف قرش أسدي أي بما يعادل ألف ومائة وأحد عشر قرشا أسديا تقريبا للقيراط الواحد بأعها أحد أغوات المدينة أيام ابراهيم باشا • (وثيقة رقم ٠٠٠) •

وفي عام ١٢٦٢ هـ بيعت قطعة أرض أخرى تقدر مساحتها بثلاثة ارباع قيراط في حي الزيتون بمبلغ قدره سبعمائة وخمسون قرشا أسديا أي بما يعادل ألف قرش للقيراط الواحد • « وثيقة رقم ٩ » •

وعليه نجد أن قيمة الأرض في هذه الفترة ان لم تكن قد احتفظت بسعرها فانها قد ارتفعت قليلا في حين نجد التدهور بدأ يأخذ مجراه في سبعينات هذا القرن لاضطراب الأمن وازدياد التدخل الأجنبي وسوء الأحوال الاقتصادية التي ربما عززتها الأزمة الاقتصادية العالمية في هذه السبعينيات من القرن (١٢٢) حيث بيعت قطعة أرض زراعية مساحتها أربعة قرايط بمدينة غزة

(١٢١) د • عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٦٥

(١٢٢) جمال حمدان - شخصية مصر - الجزء الثالث - القاهرة - ١٩٨١ ، ص ٢٥ •

سنة ١٢٨٨ هـ بمبلغ ألف وأربعمائة قرش أسدى أى بما يعادل ثلاثمائة وخمسون قرشا للقيراط الواحد لتصل الى قمة التندى وقد أخذ ثمانية وعشرين قرشا ضريبة على هذه الحجة من البيع أى بنسبة قدرها ٢٪ من قيمة الأرض . وثيقة رقم ٠٠٠٠

وتفاهم الوضع الاقتصادى سوءا حتى هبط سعر الأرض الزراعية لحد وصل معه فى عام ١٢٩٦ هـ أن تم شراء قطعة أرض بساقية أم الليمون بحى الزيتون مساحتها ١/٣ قيراط بمبلغ ستمائة قرش أسدى . أى بما يعادل ثلثمائة واثان وأربعون قرشا للقيراط الواحد .

حتى وصل الحد بالفلاح أن يقدم أرضه للملتزم مجانا اذا ما حاول الأخير مطالبة بالعشر أو أى مبلغ من المال يريد . ومن هذه الحقبة بدأ كثير من أسر الأغوات تفقد الكثير من أراضيها فى حين ظهرت طبقة جديدة من الملتزمين تسلب الأراضي بشراهة ونهم تارة بالكرباج ومرة أخرى بالتهديد والتخويف وتارة بالتخجيل ولدى الأجداد والآباء وكثير من هذه القصص التى حاول فيها البعض امتلاك الآلاف بل عشرات الآلاف من الدونمات .

ثانيا : الصناعة

قامت الصناعات الغزية فى غالبيتها على الزراعة كمادة خام أساسية بشقيها النباتى والحيوانى ، ومن ثم واكبت هذه الصناعات التحويلية فى معظمها مسيرة الزراعة وارتبطت بها لحد كبير صعودا وهبوطا وكان على رأس هذه الصناعات .

صناعة عصر الزيتون :

تصدرت صناعة عصر الزيتون لاستخراج زيتته مكانة هامة فى مدينة غزة بل وفى جميع أرجاء فلسطين لقيمة هذه الشجرة المباركة التى تعدت القيمة الغذائية بل ودوائية ومادة وقود . لا ينافسها الا القمح حتى أصبح كلاهما - القمح والزيت - ثنائية ينشدها كل بيت لضمان استقراره المعيشى وناموسا شعبيا يسعى الجميع لضمانه « عمارة البيت خبز وزيت » . فانتشرت « البدود » لعصر الزيتون واستخراج زيتته ، وبمنطق الجغرافيا تركزت معظمها كما لمسنا من قبل وفى خمسينات القرن التاسع عشر الأخيرة فى حى الزيتون وضاحية

غزة الشمالية « والمشاهرة » فحققت منه اكتفاء ذاتيا ثم فائضا تصدر منه لما حولها خاصة الى مصر كما ذكر العديد من الرحالة وحتى أوائل القرن التاسع عشر ٠ واستمر تصدير غزة له في بداية القرن العشرين ولكننا لا نجزم بتلك الكمية التي كانت في العصر المملوكي أو حتى بداية العصر العثماني ٠ فقد ذكر « ماير » أن معاصر غزة أصبحت تدار بطواحين بخارية سنة ١٩٠٥ (١٢٣) ٠

كذلك عملت « معاصر » غزة لاستخراج « السرج » من السمسم وذلك للاكتفاء الذاتي داخل المدينة وقد جاء ذكر ست منها ما بين عامي ١٨٥٧ - ١٨٦١ م نصفها تركز في « حى الشجاعية » كما ذكرنا من قبل ٠

صناعة الصابون :

انتعشت صناعة الصابون بمدينة غزة في أربعينات القرن التاسع عشر لوفرة « الزيت » مادة خامه الأولى ٠ وانتشرت « المصابين » لذلك في قلب المدينة وحقت أرباحا جيدة ، فمن خلال دراستنا لبعض أوراق خاصة بمصبنة « أبو شعبان » سنة ١٢٦٠ هـ سجل فيها صاحبها جزءا من حساباته نجد أنه حقق أرباحا وصلت الى آلاف القروش (٩١٩١ قرشا) وهذا مبلغ لا يستهان به في حينه خاصة لو رجعنا الى قيمة الأرض في تلك الأيام والتي وصلت فيها الى أكثر قليلا من ألف قرش للقيراط الواحد ٠

كذلك نلمس حجم التعامل التجارى في « المصبنية » من خلال دراستنا للدخل الذى وصل الى ٨١٩١٠٤ قروش والخارج ٦٣٥٢٨٩ قرشا ٠ كما سبق أن أوضحناه ٠

واستمرت هذه الصناعة كما اتضح بعضها على خريطة جات سنة ١٨٨٧ ومنها « مصبنة الباشا » وبقيت مع ما أصابها من الانكماش لمنافسة بعض الصناعات الأوربية صامدة في غزة ولكن للاكتفاء المحلى وأقل القليل يصدر للخارج حتى سنة ١٩٠٥ م (انظر خريطة ٣٣) ٠

أما صناعة النسيج : فقد واصلت غزة صناعة الملابس والبشاكير مستمدة خاماتها من القطن المزروع الى الشرق منها كما صنعت « الأعبية » والطواقي مستغلة أصناف الأغنام وأوزار الابل الموجودة في سوق الصوافين والغزاليين بالمدينة لكنها لم تعد تلك الصناعة التي كانت أيام « اوليا جبل » لا في كمها أو نوعها ٠

فقد ذكر طمسون سنة ١٨٥٧ م أن بمدينة غزة مصبعا للنسيج يدار

بطاحونة بخارية (١٢٤) وتوزعت قاعات الحياكة في خمسينات القرن التاسع عشر تعمل فيها نساء المدينة داخل أحياء الشجاعة والدرج والتفاح .

وبقيت المدينة تعمل في صناعة الأكلمة الصوفية والأعبية حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حيث ظهرت ضمن قائمة صادراتها (١٢٥) .

وقد قامت على هذه الصناعة بعض محلات « الصباغة » تركزت معظمها في سوق حى الشجاعة وفي حى « الدرج » عند « سدره الخروبي » .

صناعة لفخار :

وهي أقدم الصناعات الفلسطينية التي اشتهرت بها مدينة غزة ومن قبلها « تل العجول » وللأسف لا يمكننا القول بأن هذه الصناعة بقيت على حالها لأن بل تراجعت في نوعيتها على الرغم من كثرة استخداماتها داخل المدينة في ذلك الوقت وللآن .

وكما ذكرنا فقد حافظت على موقع صناعتها الجغرافي بالنسبة للمدينة ببقيت عند حافة المدينة الغربية وفي « حى الدرج » حتى الآن وغطت بإنتاجها معظم الجنوب الفلسطيني وحتى القدس واستمر الطلب عليها حتى بلغ ما في المدينة « خمسون دولارا » لصناعتها في عام ١٩٠٥ (١٢٦) . وهي لليوم على حالها تحتاج الى التطوير .

صناعة الجلود :

ليست هناك احصاءات أو تقديرات محددة للثروة الحيوانية في غزة الا أنها لعبت دورا هاما في اقتصاد المدينة المعتمد في أساسه على الزراعة . كما جاء في ثنايا الوثائق الشرعية الغزية (١٨٥٧ - ١٨٦١ م) ذكر الأماكن التي كانت تذبج فيها تلك الحيوانات (المسلخ) في حى الدرج وحى الزيتون كما أبانت لنا في الفترة ذاتها وجود « سوق الاسكافية » بحى الشجاعة حيث كانت تصنع الجلود ويتم دبغها لتصنع منها الأحذية وتقوم عليها صناعة « الغرابيل » والمناخل » والتي ظهرت ضمن قائمة الصادرات الغزية في سنة ١٩٠٥ م (٢٧) .

W.M. Thomson, Ibid, p, 549 :

(١٢٤)

M. A. Meyer, ibid, p. 106.

(١٢٥)

M.A. Meyer, ibid, p. 107.

(١٢٦)

M. A. Meyer, ibid, p. 106-107.

(١٢٧)

خريطة لمدينة غزة سنة ١٨٨٧م (خريطة بيدكو)

الا أن هذه الصناعات الغزية جميعاً أخذت في الاضمحلال كما وكيفاً لمزاحمة الصناعات الأوروبية لها في نهاية الفترة العثمانية فأصبحت غزة كما سنرى تتدقق على أسواقها الأكلمة والبشاكير ومواد البناء والصابون والسكر وغيرها والتي معظمها تعتبر مصنوعات مثبيلة لصناعاتها فانزوت الصناعات المحلية أمام منافستها هذه وأصبحت قاصرة فقط على سد حاجات الطبقة الفقيرة من المجتمع الغزي .

ولم تعد غزة تشارك الا بالنذر اليسير من صناعة المنسوجات والفخار كما يتضح ذلك من عدد العمال العاملين في الصناعات الفلسطينية المختلفة سنة ١٩١٢ م (١٢٨) .

الصناعة	المدن الصناعية	عدد العمال
الخزف	القدس - الرملة - غزة	٢٥٩
النسيج	غزة - المجدل - القدس	٤٦٧
دبج الجلود	الخليل - يافا - القدس	٥٨٢
البسط والسجاد	القدس - يافا	١٥٦
صناعة الزجاج	الخليل	٥٣٩
صناعة الصابون	نابلس	٦٠٠
المجموع		١٦٠٣

ثالثاً : التجارة :

بقيت مدينة غزة محتفظة بمكانتها الاقتصادية كقاعدة تجارية ومتجر لظهير واسع من السهل الساحلي الفلسطيني معتمدة ليس فقط على مواردها الزراعية وصناعاتها القائمة عليها ، بل وعلى تجارة المرور فانتقلت أهميتها من دور المحلية والإقليمية لمجال أوسع شمل مناطق عربية وإسلامية مجاورة وتعداها لما وراء البحار نحو أوروبا . كما كان في فترات من العصر الفرعوني الكنعاني والروماني والنبطي ثم الاسلامي في الفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية لحدها ما .

الا أن هذه المكانة وهذا الدور كميناء بحري وقاعدة تجارية مروزية بدأت في الذبول في نهاية المرحلة العثمانية واتضحت عليها سمات الشيخوخة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث بدأت التجارة تلفظ أنفاسها الأخيرة .

(١٢٨) محمد يونس الحسيني - التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية - القدس

١٩٤٦ م ١٢٤ .

ففى عام ١٨٥٧ م كانت تجارة غزة كما وصفها طمسون « معتبرة » تصدر القمح والشعير والسمسم للأقطار العربية ولأوروبا ولكن عن طريق ميناء يافا (١٢٩) . واستوردت غزة فى سنة ١٨٥٨ م الخيول والبازود من مصر .

وفى عام ١٨٦٠ م استوردت غزة الذرة من الاسكندرية عن طريق البحر معبأ فى اكياس داخل كل كيس « ثلاثة وعشرين ربعا » عن طريق وكلائها المتواجدين بمدينة الاسكندرية . كما استوردت الصوف من جدة بالجزيرة العربية وذلك عن طريق أمين التجار « جريس الظهر » بمدينة السويس لحساب « أحمد يوسف السقا » فى غزة ، والصوف مرسل للسيد « الحاج عمر زعيتى » بنبلس الا أنه فضل تسويقه فى مدينة غزة ، ربما لحاجة مدينة غزة له أو لارتفاع مستوى الحاجة عند الفرد وقدرته الشرائية داخل المدينة (١٣٠) .

ويرى الدكتور رافق من خلال دراسته لحوالى ثلاثة وأربعين تركة لرجال أعمال من مدينة غزة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٥٧ - ١٨٦١ م أن ٢٠٪ منها كان أصحابها مثقلين بالديون كما بلغت نسبة الديون لبعض الحالات ٦٠٪ بالنسبة لمقدار ثروته الاجمالية والبعض منهم بلغت نسبة ديونه ٤٤٫١٪ من مقدار ثروته الاجمالية . ويرد ذلك للعقلية التجارية النشطة وذلك لقدرتها على توظيف الأموال بشكل مربح والاهتمام بسيولتها وعدم تجميدها وتخبئتها (١٣١) .

كما يعكس نوعا من التكافل الاجتماعى بين البائع والمستهلك أو يعكس ضعف المقدرة الشرائية لدى المواطنين الذين كانوا يتعاملون معهم .

ولم يبق لمدينة غزة سوى مصر ترسل اليها قمعها وشعيرها الجيد والتي وصف تجارتها الرائجة معها « شوماخر » سنة ١٨٨٦ م ذاكرا أسواق المدينة بأنها كبيرة ومتعددة المخازن على الرغم من أنه ينهى حديثه عن غزة بأنها متأخرة عشرين عاما عن مدن العالم ! (١٣٢) .

وان جاز هذا التأخر فان مرجعه للسياسة الأوروبية التى بدأت تجتاح المنطقه بأسرها فالبريطانيون قد استولوا على مصر منذ عام ١٨٨٢ م والبعثات المغرصة بدأت فى التسلل بحجة الدين والدراسة ومعها العديد من الشركات ينظر لها جميعا القناصل الموزعون فى عديد من المدن كما سبق ان ذكرنا مما

W. M. Thomson, Ibid, p. 550.

(١٢٩)

(١٣٠) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٣١) د. عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٦٥ .

G. Schumacher, Ibid, p. 175-176.

(١٣٢)

أوقع الدولة العثمانية تحت تراكمات ثقيلة من الديون بدأت معها أعراض التفسخ تسم جميع مرافق الدولة الإدارية منها والاقتصادية .

وفي عام ١٨٨٥م وجهت بريطانيا ضربة عنيفة للاقتصاد الغزي بالذات بأن قامت بتخريض المصريين الحجاج بعدم الذهاب للمدينة التي هي مركز تجمع محمل الحج وأمرتهم بالتوجه مباشرة لمدينة « السنويس » ومنها الى مكة كما بدأ قناصل الدول الأجنبية وعلى رأسهم الانجليز والفرنسيين في التكتف داخل مدن الأحداث وحول المناطق الحساسة الفلسطينية ، فسكنوا مدينة حيفا التي بدأت تسلب دور مدينة عكا كميناء شمال فلسطين بعد أن تفجر مينائها سنة ١٨٤٠م على أثر قذيفة دمرت مخازن البارود من قبل الأسطول الانجليزي (١٣٣) ، وساعد على ازدهارها موقعها الخليجي تحت حماية جبل الكرمل من خلفها وانعشها اقامة شركتنا « لويدي » « والمساجيرى مارتييم » سنة ١٨٥٠م محطات لها لنقل الركاب بالإضافة لتمتعها بظهير زراعي خصيب يضم سهل مرج ابن عامر والجليل بإمكاناتهم الزراعية من قطن وحبوب وزيت وصابون نابلسي . فازدهرت الى حد ما حركة الصادرات والواردات مما دفع « ميزلين » صاحب كتاب « سبعة موانئ في سوريا » الى احصاء مائة واثنين وستين سفينة في ميناء حيفا معظمها يونانية (اثنان وثمانون سفينة) وفرنسية (أربع وعشرون سفينة) وتركية وانجليزية - من سردينيا وغيرها ، مقسدا مكوسهما بنحو ستمائة ألف قرش كما ذكر بأن ميناء يافا قد استأثر ببضائع ومنتوجات المناطق الوسطى والجنوبية من فلسطين وتصديرها للخارج (١٣٤) حتى أصبح ميناء يافا الميناء الفلسطيني الأول مع مطلع تسعينات القرن التاسع عشر في تلقى صادرات وواردات البلاد .

فقد كتب المستر « ديكسن » قنصل انجلترا في القدس الشريف يصف تجارة فلسطين بقوله انها اتسعت نطاقا في العامين الآخرين (١٨٩٠ - ١٨٩١م) وان قيمة الصادرات الفلسطينية في ازدياد خاصة من الصابون والشمس والبرتقال ويصدر الأخير من ميناء يافا الى انجلترا لكبر حجمه وجودة طعمه وتحوص بيوتات لندن التجارية بارسال معتمد لها للذهاب الى بساتين فلسطين لاختيار أجود الأنواع وارسالها الى لندن .

ويرى ان التجارة لم يصعبها الرواج في سنة ١٨٩١ م بالمقارنة للسنة التي سبقتها وذلك لما أصاب البلاد في سنة ١٨٩٠ م من مجل وانتشار مرض الكوليرا . لذا وصلت قيمة الصادرات الى ٤٠٠٥٣٠ جنيهها والواردات بلغت

(١٣٣) الكس كرمل - تاريخ حيفا في العهد العثماني - المرجع السابق ص ١٣٥ .

(١٣٤) الكس كرمل - تاريخ حيفا - المرجع السابق ص ١٣٦ .

قيمتها ٢٨٧٠٠ جنيه بجملة قيمتها ٦٨٨٣٠٠ جنيه ليتضح الهبوط من جراء ذلك وكانت أكثر الصادرات الفلسطينية من الذرة والصابون والبرتقال والحنظل والجلود والحبوب وزيت الزيتون والسمن والصوف والعظام ، كما صدرت الحمر الجيد الذي شبهه بخمر برغندى بفرنسا . بلغت جملة ما صدر من الصابون فقط سنة ١٨٩١ م خمسون طناً بقيمة قدرها ١٢٤ ألف جنيه أكثره خرج من مدينة نابلس كما ساهم البرتقال في الصادرات بنحو ٢٧٠ مائتان وسبعون ألف صندوق بلغت قيمتها ١٠٧ مائة سبعة آلاف جنيه أى بنسبة ٣٥٩٪ من قيمة الصادرات الفلسطينية فى حين أسهمت الصادرات من البرتقال بنحو ٢٦٧٪ من قيمة الصادرات فى هذا العام .

أما الواردات الفلسطينية فكانت من الجوخ والفحم الجوى والخشب والملح والدقيق والحديد والمنسوجات القطنية والبن والأرز والسكر والخزف والكحول (١٣٥) وهى واردات كما نرى مثيله فى معظمها لما ينتجه هذا الشعب كوسيلة لضرب الانتاج المحلى بمنافسته فى البداية والقضاء عليه فى النهاية .

وربما يكون جديراً بالتنويه هنا أن شعب كاليفورنيا فى الولايات المتحدة قد شرع فى زراعة البرتقال فى سنة ١٨٨٧ م (١٣٦) فقط فى حين وصلت الصادرات الفلسطينية منه أسواق لندن .

وهكذا بدأ ميناء يافا يحتل مكانة وأهمية ميناء غزة ويسلب منه ظهوره الزراعى بدرجة لا يستهان بها حتى غدت « الكرنيتية البحرية » لميناء غزة لا تستقبل الا القليل من السفن القادمة من أوروبا وموانئ مصر لتفى بحاجات المدينة بالكاد فقط .

أخذت بعدها الضرائب تثقل كاهل الشعب بعد أن ضاعفتها الدولة العثمانية فجعلت ضريبة الأرض والمسققات أربعة فى الألف لكل منها بحيث يؤخذ ثلاثة قروش على كل رأس من الماعز وأربعة قروش على كل رأس من الأغنام وبعد دفع هذه الضرائب جميعاً يرى السلطان عبد الحميد الثانى « أن لا مجال إذا لتحصيلهم فوق ما يطيقون » (١٣٧) .

(١٣٥) مجلة المقتطف - الجزء الحادى عشر السنة السادسة عشر عدد ١/٨/١٨٩٢

ص ٧٩٨ - ٧٨٨ .

(١٣٦) مجلة المقتطف - المجلد ٦١ عدد يونيه - ديسمبر ١٩٢٢ ص ١٨٢ .

(١٣٧) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى مذكراتى السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨ - مؤسسة

الرسالة - بيروت ١٩٧٩ ص ٨٨ .

وعله من المفيد هنا أن نضع قائمة بالأعشار الضريبية التي تم تحصيلها من أحياء مدينة غزة وقراها التابعة لها والمتحصلة سنة ١٨٩٤ م (١٣٨) .

اسم الحى	الأعشار الضريبية	بازة	ملاحظات
حتى الدرج	١٧٣٩١ قرشا	١٠	الشجاعة
» الزيتون	» ٣٤٧٨٤		
» الجديدة	» ٢٤٦٥٢		
» التركمان	» ٢٦٥٢٢		
» التفاح	» ٢٦٢٦١		
مجموع الأحياء	» ١٢٩٦١٠	١٠	
مجموع ما تم تحصيله من قرى غزة	١٣١٧٩٠٨	٣٠	

ومن قراءة هذا الجدول يتضح لنا أن حى الشجاعة بقسميه أكثر الأحياء دفعا للأعشار الضريبية وذلك لمساحة الأراضى الزراعية الشاسعة من خلفه شرقا ومزاولة أهله الزراعة وتربية الحيوانات ومن بعده حى الزيتون صاحب حقول الزيتون الواسعة التى تطوف المدينة من الجنوب والجنوب الغربى . كما يتضح لنا أن مجموع ما دفعته المدينة بأحيائها يعادل ٩٨٪ من مجموع ما دفعه أبناء القرى التابعة لها .

بدأت غزة مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين تفقد دورها كميناء بحرى وكممر تجارى الى حد كبير أمام الأطماع الأوروبية المتسلطة والمستنزفة والتمزق العثماني . فلم يعد ميناء غزة يستقبل الا المنتوجات الزراعية المتاخمة لظهيره القريب منه تحمله الابل وحيوانات الحمل الأخرى مخترقة طريقا تكتنفه الكثبان الرملية لم يشق الا فى عام ١٩٠٢ م .

فقد صدرت غزة عن طريق مينائها البحرى هذا من القمح والشعير فى سنة ١٩٠٥ م ما قيمته ١٥ مليون دولار تم شحنه فى خمس وعشرين سفينة تنقلها اليها سفن صغيرة من الشاطئ ومعها الذرة والسمسم والبلح والجلود والدواجن . وتستورد البضائع القطنية والملابس الجاهزة والأحذية والسجاجيد والبن والسكر والتبيلة وصلت قيمتها ٧٥٠ ألف دولار أمريكى (١٣٩) محققة بالتالى وفى هذا العام فقط ميزانا تجاريا فى صالحها .

(١٣٨) عارف العارف - تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٦ .
M. A. Meyer, ibid, p. 106-107.
(١٣٩)

هذه البضائع خلقت وهما اقتصاديا جعلته أقرب ما يكون للموضى الاقتصادية داخل البلاد غمرت بها أسواقها التجارية حتى ليخيل اليك أنك أمام معرض للسلع والبضائم الأجنبية

فالامتيازات الأجنبية أطبقت على مقدرات الشعب وسيطرت معها على شرايين المواصلات والموانئ والسكك الحديدية بحق الامتياز عجزت معها الدولة العثمانية عن بسط نفوذها وسيطرتها لا على الاقتصاد فحسب بل وعلى الأمن مما جعل السلطان عبد الحميد الثانى يعترف بأن هذه الامتيازات الأجنبية أصبحت عبئا اقتصاديا وسياسيا على الامبراطورية ، فاققتصاديا فوتت على الخزينة العثمانية موردا سنويا ضخما ، وسياسيا أخلت بسيادة الدولة وأمنها (١٤٠) ، ضاعف من هذا العبء النظام الاقطاعى الالتزامى الذى أفرزته التيمارجية والملكانة والزعامات على الرغم من زوالها اسمياً الا أنها خلفت لنا المترمين والأفندية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين مستغلين تقربهم للإدارة الحاكمة بالليرات الذهبية فاستحوذت بالقوة والتلويح بها وبأسلوب الهدية والتخجيل على مساحات كبيرة من أراضى الطبقة المطحونة من الفلاحين فاثروا ثراء فاحشاً . لم يقو بعدها الفلاح ومخ مطلع القرن العشرين من انتاج ما يقيم أوده - انتاج معاشى فقط - نجم عن هذا الوضع ان اهتزت الثقة بالقيمة الشرائية للنقد العثمانى أمام النقد الأجنبى وفى مقدمته « الليرة الفرنسية » كوحدة نقدية حسابية فى التبادل والمعاملات التجارية لما تتميز به من دعم اقتصادى وإدارى متين فشلت أمامه الدولة العثمانية فى الحفاظ على قيمة نقدها بالسعر القانونى حتى أصبحت المدن الفلسطينية بل وقراها تتداوله بأسعار متباينة ومتفاوتة من مدينة لأخرى بل ومن قرية لقرية .

ولعل هذا الجدول يؤكد لنا ذلك حيث يوضح أسعار النقدين فى أسواق المدن الفلسطينية (المجيدى العثمانى والليرة الفرنسية) (١٤١) .

المدينة	الليرة الفرنسية	الريال المجيدى	البشك
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	٣١٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
لواء عكا	١٠٨	٢٣١٢	٣١٦
الناصره	١٣٠	٢٧	٢

(١٤٠) مذكرات السلطان عبد الحميد - المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٤١) عمر البرغوثى و خليل طوطح - تاريخ فلسطين - القدس - ١٩٢٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

هذا التفاوت الواضح فى قيمة العملة العثمانية والفرنسية فى أسواق المدن الفلسطينية يكشف لنا بوضوح النفوذ والتغلغل الأوروبى الاقتصادى والسياسى فى المنطقة ويتجلى ذلك فى المدن الفلسطينية التى تكثر فيها الطوائف المسيحية بارسالياتها التبشيرية ومدارسها ومعاهدها لذا نجد مدينتى غزة ونابلس أقل المدن تأثرا (وحدة التحويل ٤٧٢) لقلة الجاليات المسيحية بها فى حين نجد مدينة الناصرة من أكثر المدن (٤٨١) لمكانتها الدينية لدى هذه الطوائف تليها مباشرة مدينة يافا لمكانتها كميناء رئيسى وهام (٤٧٧) ثم القدس وعكا (٤٧٥) *

ومع هذا التدخل المغرض تبدو أحيانا ملامح الانتعاش الاقتصادى التى هى فى الحقيقة تورم اقتصادى يخفى معه مرض التبعية والالحاق الاقتصادى للمنطقة بأسرها بدأ معه ميناء يافا وحيفا يقضيان على ميناء غزة المتطوح فى أقصى جنوب الساحل الفلسطينى عند نهاية الطريق التى سدته بريطانيا باحتلالها لمصر وتغيير مسار الحج المصرى عنها الى السويس *

وتمركز الوكالات الأجنبية وقناصلها فى يافا وحيفا * بدأت على أثر ذلك شواطئ غزة ومينائها فى الجمود الاقتصادى ببطء ، والجدول التالى لقيمة الصادرات الفلسطينية من موانئها بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٣ م ما يبرز ذلك (١٤٢) *

الصادرات بالجنيه الفلسطينى *

الميناء	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢	١٩١٣
يافا	٥٥٦٣٠٠	٥٦٠٩٠٠	٦٣٦١٠٠	٧١٠٦٠٠	٧٧٤١٠٠	-
حيفا	٣٧١٧٧٠	-	٧٠٥٠٠	٩٠٠٠٠	٣٤٦٧٠٠	٧٤٥٤٠٠
غزة	٢٠٦٢٤٠	٤٩٧٦٠	٨٥٥٠	٧٧١٥٠	٦٧٠٠	١٦١١٢
المجموع	١١٣٤٣١٠	٦١٠٦٦٦٠	٧١٥١٥٠	٨٧٧٧٥٠	١١٢٧٥٠٠	٩٠٦٥٢٠

وهكذا تأتى الصادرات من ميناء غزة فى نهاية القائمة بالنسبة لبقية الموانئ وفى كل السنوات وتتضاءل قيمتها كلما مر بها الزمن ففى حين ساهمت بنحو ١٨٪ من قيمة مجموع الصادرات الفلسطينية سنة ١٩٠٨ نجد أنها

(١٤٢) محمد يونس الحسينى - التطور الاجتماعى والاقتصادى فى فلسطين العربية - المرجع السابق ص ١٥١ *

(*) لم يكن هناك نقد فلسطينى فى هذه الفترة ولكن المؤلف حاول حسابها فيما بعد بالجنيه الفلسطينى *

تدنت حتى وصلت في سنة ١٩١٣ الى ١٧٪ من مجمل قيمة الصادرات . وفي المقابل صعد ميناء يافا من ٤٩٪ من مجمل قيمة الصادرات الفلسطينية سنة ١٩٠٨ قفز لكي يستحوذ على ٨٢٪ من مجموع قيمة الصادرات الفلسطينية سنة ١٩١٣ .

ولا تختلف هذه الصورة عندما نستعرض جدول الواردات الفلسطينية في الثلاثة موانئ الفلسطينية والمقدرة قيمتها بالجنية الفلسطيني وللفس الفترة (١٤٣) .

الميناء	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢	١٩١٣
يافا	٨٠٣٤٠٠	٩٧٣١٠٠	١٠٠٣٤٠٠	١١٦٩٩٩٠٠	١٠٩٠٠٠٠	١٣١٣٦٠٠
حيفا	٣٥٥٥٠٠	-	٣٩٩١٠٠	٣٧٥١٠٠	٤٦٠٤٠٠	٥٣٠٠٠٠
غزة	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٩٦٤٠٠	١٠٨٢٠٠
المجموع	١٢٣٠٩٠٠	١٠٤٥١٠٠	١٤٧٤٥٠٠	١٦١٧٠٠٠	١٦٤٦٨٠٠	١٩٥٠٨٠٠

ولأول وهلة يبدو الجمود في قيمة الواردات الغزية طيلة أربع سنوات متتالية ابتداء من ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١ لم تتخط قيمة الواردات مبلغ ٧٢ اثنين وسبعين ألف جنيه وبنسبة لا تتعدى ٥٨٪ فقط من قيمة الواردات الفلسطينية الاجمالية سنة ١٩٠٨ م لتهبط الى ٥٥٪ من قيمة الواردات سنة ١٩١٣ التي وصلت فيه الصادرات الغزية من الشعير الى ١٨٤٠٠ طن بعد أن كانت في عام ١٩٠٨ م ٣٨ ألف طن (١٤٤) لتصل الى الحد الأدنى في أهم منتجاتها الزراعية التي اشتهرت بها وهو الشعير . لتقطف الدول الأوروبية الاستعمارية ثمار مخططاتها الاقتصادية والسياسية فتعلن بعدها الحرب التي شملت الكرة الأرضية لتنزوي مدينة غزة في ركنها منكفأة على نفسها طيلة سنوات الانتداب البريطاني البغيض الأسود .

(١٤٣) محمد يونس الحسيني - التطور الاجتماعي والاقتصادي - المرجع السابق ص ١٥١ .
(١٤٤) عارف العارف - تاريخ غزة - المرجع السابق ص ٢٨٨ .

المراجع

المطبوعات

- ابن حوقل - صور الأرض - بيروت ٠٠ بدون تاريخ .
- محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى - المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور - تحقيق محمد مصطفى كتاب الشعب القاهرة ١٩٦٠ .
- ابن بطوطة - مهذب رحلة ابن بطوطة - تهذيب وضبط أحمد العوامى ومحمد أحمد جاد المولى - القاهرة .
- أبو الفدا - البداية والنهاية - بيروت ١٩٦٦ .
- أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطى - اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى - تحقيق د . أحمد رمضان أحمد - القاهرة ١٩٨٣ .
- البلاذرى - فتوح البلدان - القاهرة ١٩٥٩ .
- السخاوى - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - القاهرة : ١٣٥٣ هـ المجلد ٢ و ٣ .
- السويدي - سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب - دار احياء العلوم - بيروت - بدون .
- الظاهرى - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - باريس ١٨٩٤ .
- القلقشنبدى - صبح الأعشى - القاهرة .
- المختار من تاريخ الجبرتى - اختيار محمد قنديل الثعلبى - مطابع الشعب - القاهرة ١٩٥٩ .
- هجر الدين الحمبلى - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل - عمان ١٩٧٠ .
- المقرئى - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - القاهرة ١٩٥٧ .
- المقدسى الدمشقى - الذيل على الروضتين وتراجم رجال القرنين السادس والسابع - دار الجليل - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

- محمد خليل المرادى - سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر - بولاق مصر ١٣٠١ هـ (٤ أجزاء) •
- محمد المحبى - خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر - ثلاثة أجزاء - المطبعة الوهبية المصرية - ١٢٨٤ هـ •
- نجم الدين الغزى - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - تحقيق د• جبرائيل جبور (ثلاثة أجزاء) - بيروت ١٩٧٩ •
- ياقوت الحموى - معجم البلدان - خمسة أجزاء - دار احياء التراث - بيروت - بدون •
- قدامة بن جعفر - الحراج وصناعة الكتابة - شرح وتعليق د• محمد حسين الزبيدى - دار الرشيد - بغداد ١٩٨١ •

المخطوطات

- الشيخ عبد الغنى الشهير بابن النابلسي - كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز سنة ١١٠١ هـ - مخطوط -
- الامام علي بن بكر الهروي - الاشارات في الزيارات - مخطوط سنة ١٣٦٨ هـ نسخة حماد بن ذيب بن حماد اللدى -
- الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعزة في تاريخ غزة - ١٩٤٣ مخطوط -
- الشيخ عثمان الطباع - الشجرة الزكية - مخطوط -

المجلات العربية

- المقتطف - الجزء ١١ من السنة السادسة عشر عدد ١٨٩٢/٨/١ م .
- المقتطف - الجزء ٧ السنة السادسة والعشرون عدد ابريل ١٨٩٣ م .
- المقتطف - - ديسمبر ١٩٢٧ م .
- المقتطف الجزء الرابع المجلد ٦٩ - ديسمبر ١٩٢٦ م .
- المقتطف المجلد ٦١ - ديسمبر ١٩٢٢ م .
- مجلة الهلال - عدد يناير سنة ١٩٨٦ م القاهرة .
- مجلة الفيصل العدد ٩٤ يناير سنة ١٩٨٥ - دار الفيصل الثقافية - الرياض .
- مجلة الشرق - العدد ٣ السنة التاسعة تموز - ايلول ١٩٧٩ جبل الكرمل - حيفا .
- مجلة الحرب العالمية الأولى - موسوعة تاريخية مصورة - الجزء ٢٠ بيروت .
- مجلة الفجر الأدنى - العدد آذار سنة ١٩٨٣ - القدس .
- جريدة مكرونة فلسطين الرسمية - العدد ١٧٩ القدس ١٦/٣/١٩٢٧ .
- جريدة الشعب - لسان حال حزب العمل الاشتراكي المصري - العدد ٢٨٦ - ٢٨ / مايو سنة ١٩٨٥ القاهرة .

المجلات العلمية الأجنبية

- P. E. F, 1886.
 P.E.F, 1908.
 J.O.P.S., Vol. XI 1929.
 J.O.P.S. Vol. XI, 1925.
 P.J.B., 20, 1924
 I.E.J , 15, 1950.
 I.E.J., 1, 1950.
 I.E.J., 2, 1952.
 I.E.J., 5, 1955.
 I.E.J., 9, 1959.
 I.E.J., 6, 1956.
 I.E.J., 10, 1960
 I.E.J., 22, 1972.
 I.E.J., Vol 20, 1970.
 I.E.J., Vol. 23, 1973
 I.E.J., 24, 1974.
 I.E.J., 28, 1978.
 I.E.J., 3, 1953.
 B.A.S.O.R., 87, 1947.
 B.A.S.O.R. — 137, 1955.
 A.A.S.O.R. 23, 1923.
 T.B.L. 79, 1960.
 Z.D.P.U, 74, 1928.
 I.E.A., 14, 1928.
 J.E.A., 50, 1964.
 Z.D.P.U., 67, 1944.

المراجع الأجنبية المترجمة

- جيمى هنرى بريستد - العصور القديمة - ترجمة تريبان - المطبعة
الأمريكانية - بيروت ١٩٣٠ .
- جيمى هنرى بريستد - تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسى -
ترجمة حسن كمال - القاهرة - ١٩٢٩ .
- وليم - ف أولبرايت - آثار فلسطين - ترجمة زكى اسكندر ود - محمد
عبد القادر محمد - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - القاهرة ١٩٧١ .
- ج - برونوفسكى - ارتقاء الانسان - ترجمة موفق شخاشيروا - سلسلة
عالم المعرفة - الكويت ١٩٨١ .
- س . و . دلدرج - الجغرافيا مغزاها ورمها - ترجمة د . يوسف
أبو الحجاج - القاهرة - الألف كتاب ١٧٨ .
- ول - ديورانت - قصة الحضارة - الجزء الثالث - المجلد ٣ ترجمة جامعة
الدول العربية - ١٩٦٤ .
- ل . م . ماير - بعض البنايات الاسلامية الدينية فى اسرائيل -
القدس - ١٩٥٠ .
- انتونى نائنج - يقطعة العرب - مترجم - كتاب الهلال .
- سونيا هاو - فى طاب التوابل - ترجمة محمد عزيز رفعت - القاهرة
١٩٥٧ .
- انتونى نائنج - العرب تاريخ وحضارة - ترجمة محمود مسعود - الجزء
الثانى - كتاب الهلال - القاهرة ١٩٨٠ .
- رحلة كنغايك الى الشرق - ترجمة محمود العابد - عمان - ١٩٧١ .
- د . هنرى دودويل - الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على -
ترجمة أحمد محمد عبد الحالى بك - القاهرة .
- د . الكس كرم - تاريخ حيفا فى عهد الأتراك العثمانيين - ترجمة تيسير
الياس - حيفا ١٩٧٩ .

- س . ف فولنى - ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام - ترجمة ادوارد
البستاني - الجزء الأول - طبعة ثانية - بيروت - ١٩٤٩ .
- س . ف فولنى - سوريا فى القرن التاسع عشر - ترجمة حبيب
السيوفى - الجزء الثانى - صيدا ١٩٤٩ .
- علماء الحملة الفرنسية - وصف مصر - ترجمة زهير الشايب - المجلد
الرابع - القاهرة ١٩٧٨ .
- شمس الدين جونالناى - سوريا وفلسطين - أنقرة - ١٩٤٧ (باللغة
التركية) .

المراجع العربية

- د ابراهيم رزقانه - موضوعات في الجغرافيا التاريخية - القاهرة ١٩٦٦ .
- د ابراهيم أمين غالى - سيناء المصرية عبر التاريخ - القاهرة ١٩٧٦ .
- د ابراهيم طرقات - مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة - الألف كتاب - القاهرة ١٩٦٠ .
- المهندس الدكتور - أحمد سوسة - تاريخ حضارة وادى الرافدين - الجزء الاول - وزارة الزراعة - بغداد ١٩٨١ .
- احسان النمر - تاريخ نابلس والبلقاء - نابلس ١٩٦١ .
- أحمد حافظ عودة - فتح مصر الحديث - القاهرة ١٩٢٦ .
- د أحمد عيسى بك - تاريخ البيمارستانات فى الاسلام - دمشق - ١٩٣٩ .
- د أحمد البيل - حياة صلاح الدين الأيوبي - القاهرة ١٩٢٢ .
- د حسين ابراهيم حسن - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى - ج ٤ - القاهرة ١٩٦٨ .
- د جمال حمدان - جغرافية المدن - القاهرة - بدون تاريخ .
- د جمال حمدان - شخصية مصر - ٤ أجزاء - عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ .
- ثروت عكاشة - القيم الجمالية فى العمارة الاسلامية - دار المعارف - القاهرة ١٩٨١ .
- د عيسى النمر - أحكام الأراضي - القسم الأول - القدس - ١٩٢٣ .
- خير الدين الزركلى - الاعلام - قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩ .
- د سعاد ماهر - القاهرة القديمة وحياتها - المكتبة الثقافية - العدد ٧٠ القاهرة ١٩٦٢ .

- .. د. رمضان ششن - نوادر المخطوطات العربية فى مكتبات تركيا - المجلد
الثانى - بيروت ١٩٨٠ .
- ساطع الحصرى - البلاد العربية والدولة العثمانية - بيروت - الطبعة
الثالثة - ١٩٦٥ .
- سليمان أبو عز الدين - ابراهيم باشا فى سوريا - بيروت ١٩٢٩ .
- د. سيد أحمد الناصرى - قضية التاريخ القديم - المكتبة الثقافية -
القاهرة - ١٩٧١ .
- صاعد الأندلسى - طبقات الأمم - بيروت - ١٩١٢ .
- عمر البرغوثى - و خليل طوطح - تاريخ فلسطين - القدس - ١٩٢٣ .
- عبد الغنى قمر - الامام الشافعى فقيه السنة الاكبر - القاهرة - دار القلم -
١٩٧٦ .
- عبد العزيز عوض - الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤ -
القاهرة ١٩٦٩ .
- عبد العزيز محمد الشناوى ود. يحيى جلال يحيى - وثائق ونصوص وتاريخ
الحديث والمعاصر - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٩ .
- عباس محمود عمار - المدخل الشرقى لمصر - القاهرة ١٩٤٦ .
- عفت الشرفاوى - فلسفة الحضارة الاسلامية - بيروت ١٩٧٨ .
- د. عبد الكريم رافق - العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ - طبعة
ثانية - عكا - ١٩٧٨ .
- د. عبد الكريم رافق - غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ١٢٧٣ -
١٢٧٧ هـ - عمان ١٩٨٠ .
- السلطان عبد الحميد الثانى - مذكراتى السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨ -
الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٩ .
- عبد المنصف محمود باشا - ابراهيم الفاتح - القاهرة ١٩٤٨ .
- د. على شلش - كتاب س . بلنت الأفغانى ومحمد عبده - كتاب الهلال ..
يناير سنة ١٩٨٦ .
- عارف العارف - تاريخ بشر السبع وقبائلها - القدس - ١٩٣٤ .
- عارف العارف - تاريخ غزة - القدس ١٩٤٣ .

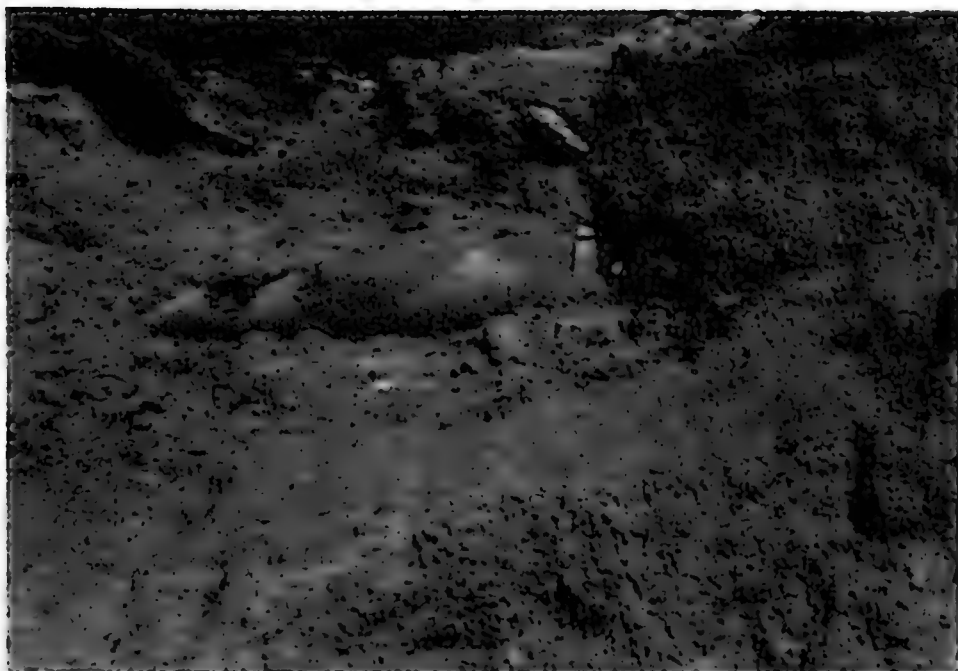
- عارف المعارف - القضاء بين البدو - القدس - ١٩٣٤ .
- عبد مياشر واسلام توفيق - سيناء الموقع والتاريخ - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨ .
- ٥ عبد الرحمن فهمي محمد - النقود العربية ماضيها وحاضرها - القاهرة ١٩٦٤ .
- لويس عوض - تاريخ الفكر المصري الحديث - المجلد الأول - القاهرة ١٩٨٠ .
- السيد أحمد بن زين دحلان - الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٨ .
- السيد عبد العزيز سالم وزميله - تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر المتوسط - ج ١ الاسكندرية ١٩٧١ .
- د محمد عماره - العرب والتحدى - كتاب الهلال - العدد ٣٨٤ القاهرة ١٩٨١ .
- د محمد عماره - تيارات اليقظة الاسلامية - كتاب الهلال - أغسطس ١٩٨٢ .
- د محمد علي خلوصي - التنمية الاقتصادية في غزة - القاهرة ١٩٦٦ .
- د محمد غلاب - الجغرافيا التاريخية لاقليم النقب - مجلة الجمعية الجغرافية المصرية - الموسم الثقافي لعام ١٩٥٦ القاهرة .
- د محمد غلاب - الساحل الفينيقي وظهيره بيروت - ١٩٦٩ .
- د محمد عواد حسين - البحرية في عهد البطالمة - جامعة الاسكندرية - ١٩٧٣ .
- د محمد كرد علي - خطط الشام - الجزء الرابع - دمشق ١٩٢٦ .
- د محمد فريد بك المحامى - تاريخ الدولة العلية العثمانية - بيروت ١٩٧٧ .
- د محمد ابشرى ومحمد التميمي - أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين - استانبول - ١٩٨٢ .
- د محمد حسين هيكل - القضية الفلسطينية تحليل ونقد - يافا ١٩٣٧ .
- د محمود العابد - التبراد - عمان - نابلس ١٩٥٦ .
- د محمود نديم أحمد فهمي - الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٣ .

- محمود عوض - وعليكم السلام - دار المستقبل العربى - القاهرة ١٩٨٤ •
- د. مصطفى العبادى - محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام - بيروت ١٩٨٢ •
- مصطفى مراد الدباغ - بلادنا فلسطين - الجزء الأول - القسم الثانى - بيروت ١٩٦٦ •
- مصطفى عباس الموصوى - العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية - وزارة الثقافة والاعلام - بغداد - ١٩٨٢ •
- الهيئة البهية فى الكرة الأرضية - المطبعة الأمريكية - بيروت ١٩١٤ •
- أميل توما - فلسطين فى العهد العثمانى - القدس - ١٩٨٣ •
- اوليا جلبي - سياحتنا مرسى •
- حامد سلطان - مشكلة خليج العقبة - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٦٧/١٩٦٦ •
- د. نعيم زكى فهمى •
- د. نبيل حنا - البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع الغجر - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٣ •
- مصطفى مراد الدباغ - بلادنا فلسطين - الجزء الأول - القسم الأول - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٤ •
- الدبس - تاريخ سوريا - المجلد الأول - الجزء الأول - بيروت ١٨٩٣ م •
- انيس الصايغ - سوريا فى الأدب القديم - بيروت ١٩٥٧ •
- الشيخ نسيب وهيب الخازن - من الساميين الى العرب - بيروت - ١٩٦٢ •

- M. A. Meyer, History of the City of Gaza, New York, 1960.
- Condor and H. Kitchener, Survey of Western Palestine, 3 vol, Jerusalem, 1970.
- F. Petrie, Ancient Gaza, 3 vol, London, 1931.
- J. L. Starky and Lankester, Beth Pelet II, London, 1932.
- V. H. Duncscombe calt, interduction in excavation of Nassana, London, 1962.
- G. Dawney, Gaza in the early sixth century, university of Acklahama Press, 1963.
- Leo Picard, Geography, Library Boket, Jerusalem, 1973.
- Palestin Map, 1 : 1000, Scheet II, Gaza, 1941-1942.
- V. Hintington, Palestine and its Transformation. London, 1910.
- Wolly and Lawrance, The wilderness of zin.
- N. Glueck, exploration in eastern Palestine, I, B.A.A.S.O.R. 14, 1933.
- F. Petrie, Ancient Egypt and the East, Part I, 1934.
- A.J. Herbertson, Regional environment, London, 1915.
- Cardinar, Egypt of the Pharoahs, Oxford, 1961.
- K. M. Kenyon, Archeology in the Holly Land London, 1965.
- Y. Aharoni, The land of the Bible, Historical Geography, Philadel-
phia, 1967.
- J. Mellart, The Chalcolithic and Early Bronze Ages in Near east and
Anatolia, Berut, 1960.
- G. rauk, Ancient Iraq, London, Plican Book, 1966.
- W. M. Flinders petri, Anthedon, London, 1937.
- N. Glueck, The other Side of Jordan, New Haven, 1945.
- V. Grace, Stamped Handle of Commercial Amphoras, excavation of
Nassana, Vol. I, London, 1962.
- Pritchard, Ancient near East text relating to the old testament, Prin-
ceton, 1929.

- H. G. Wells, *The Outline of History* Vol. I, New York, 1956.
- C. F. Hill, *Catalogue of the Greek Coins of Palestine*, London, 1914.
- M. Rosenberger, *city coins of Palestine*, Vol. II, Jerusalem 1975.
- Archaeology of Israel*. Pocket Library, Jerusalem, 1974.
- M. Rossovt Zeff, *Social and economic history of the Hellenistic World*, Vol. I, Oxford, 1941.
- C. F. Hurani, *Arab Sea faring in the Indian Ocean*, Princeton, 1951.
- Atlas of israel*, Jerusaulem, 1970.
- G. A. Smith, *Historical Geography of the holy land*, London, 1966.
- W. B. Fisher, *The Middle east*, London, 1950.
- Phliip Hitti, *The Arabs*, London, 1948.
- Steven Runiciman, *A history of the Grusades*, 2, Pelican Books, 1971.
- G. A. May, *Oxford Bible Atlas*, London, 1968.
- Lane Pool, *A history of egypt in the Middle Ages*, Frank Cass, 1968.
- Uriel Heyed, *Ottoman Documents on Palestine 1552-1615*, London, 1960.
- G. Dawney, *Antioch in the Ages of eodosius thegreat*, Norman, 1962.
- Amnon, *Palestine in 18 century*, Jerusalem, 1973.
- The History Until 1880*, Israel Pocket library, Jerusalem 1973.
- W.D. Huetteroth and K. Abdul Fattach, *Historical geography of Palestine Transjordan and Southern Syria in the late 16 century*, Erlangen, 1977.
- Jerusalem, Keter Book, Jerusalem, 1973.
- P. Medcblelié, *Gaza et Son Histoire Chrétienne*, Jerusalem; 1982.
- Bulletin de la Société de géographie D'Egypte*, xxxiii, Cairo, 1960.
- H. J. Mackinder, *Democratic ideals and Reality*, Pelican Books, 1944.
- Levent, *Journal of the British School of Archeology in Jerusalem*.

اللوحات



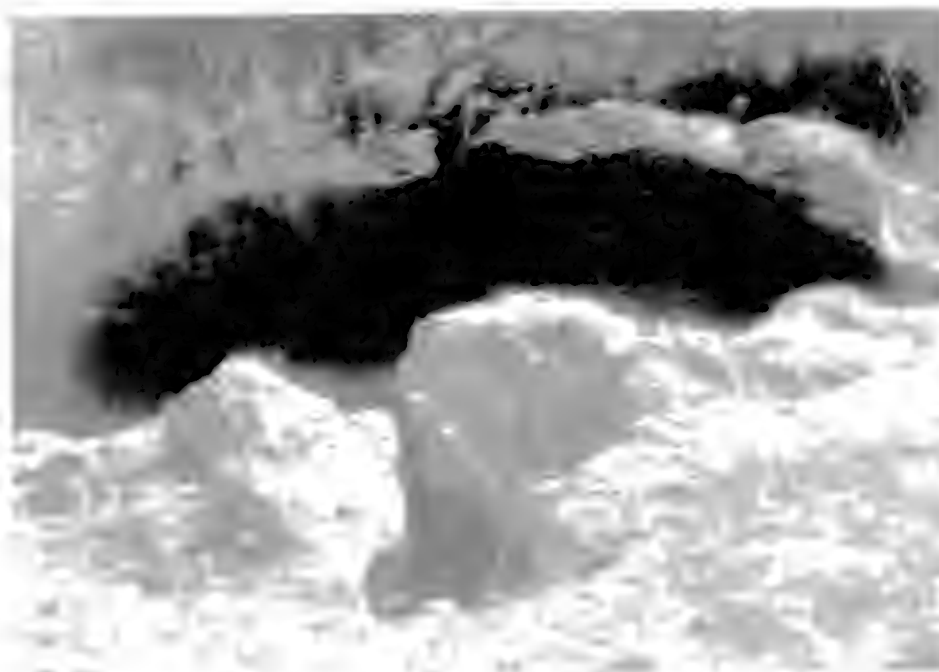
صورة رقم ١٨



صورة رقم ٣٢



صورة رقم ٣٨



صورة رقم ٣٩



صورة رقم ٤٣



صورة رقم ٤٥



صورة رقم ٤٧



صورة رقم ٤٨



صورة رقم ٤٩



صورة رقم ٥٢



صورة رقم ٥٣



صورة رقم ٥٤



صورة رقم ٥٧



صورة رقم ٥٧ ب



صورة رقم ٥٩



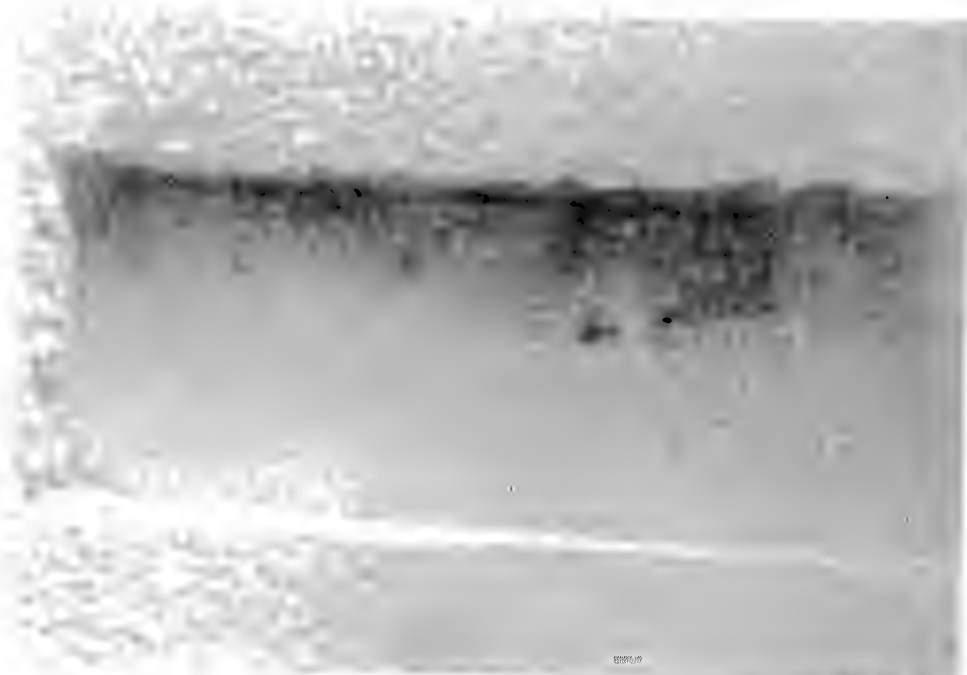
صورة رقم ٦٤



صورة رقم ٦٥



صورة رقم ٦٩



صورة رقم ٦٩



صورة رقم ٧٥



صورة رقم ٨٤



صورة رقم ٨٥



صورة رقم ٨٦



البحر المتوسط - صور - ١٩٨٠

صورة رقم ٩٣



صورة رقم ٩٩



صورة رقم ١٠٢



صورة رقم ١٠٤



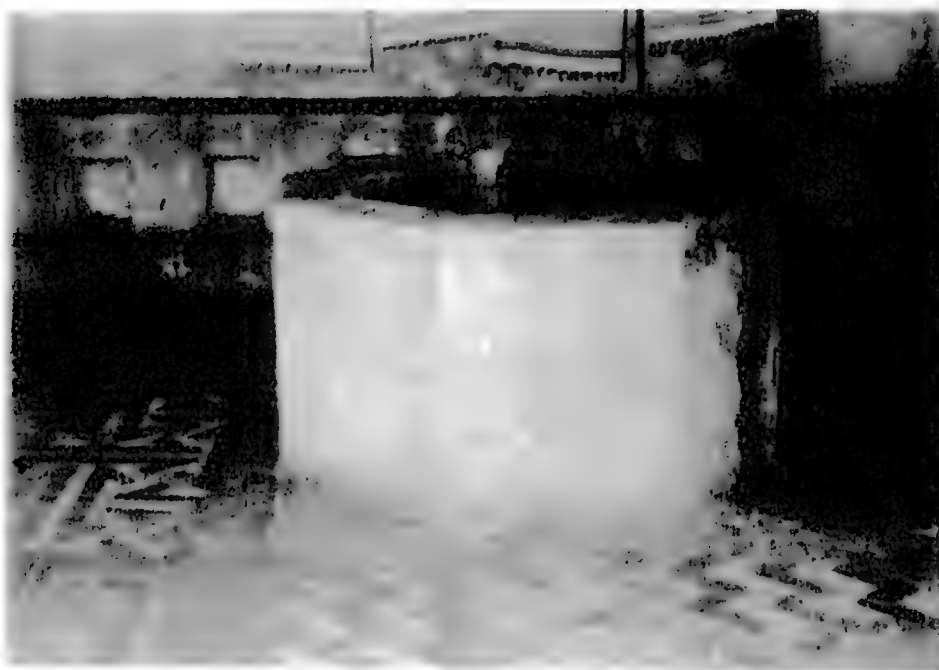
صورة رقم ١٠٦



صورة رقم ١١٢



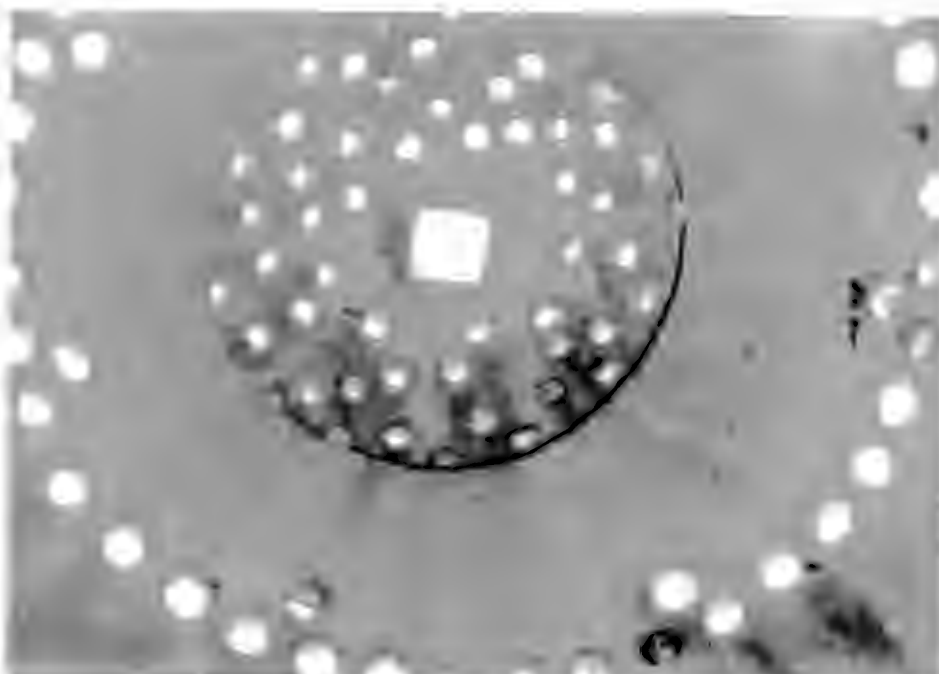
صورة رقم ١١٤



صورة رقم ١١٦



صورة رقم ١١٧



صورة رقم ١١٨



صورة رقم ١٢٣



صورة رقم ١٢٥



صورة رقم ١٢٧



صورة رقم ١٢٨



صورة رقم ١٣٠



صورة رقم ١٣١



صورة رقم ١٣٢



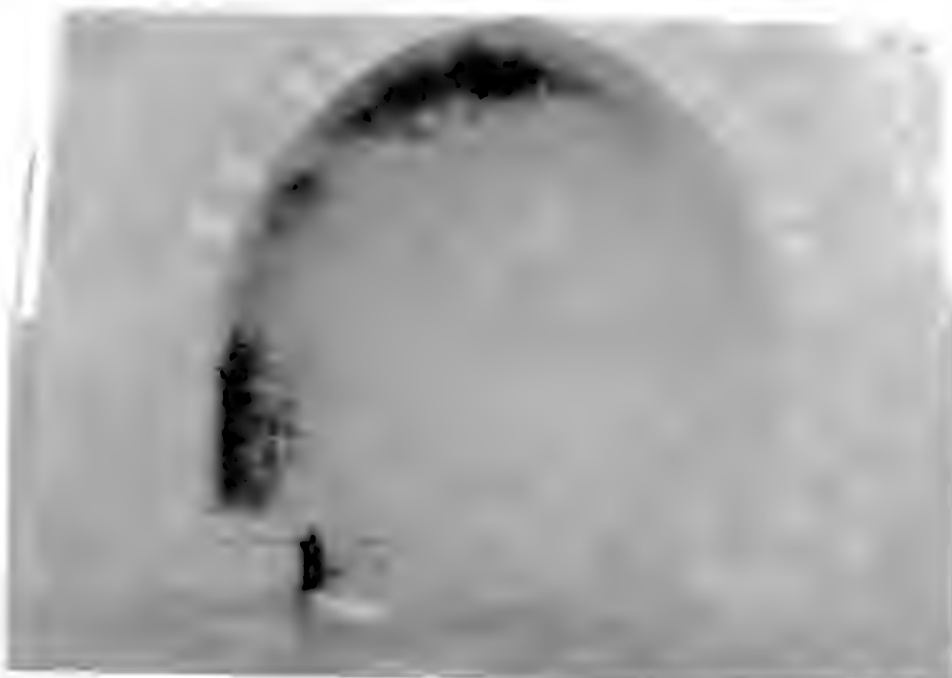
صورة رقم ١٣٣



صورة رقم ١٣٤



صورة رقم ١٣٩



صورة رقم ١٥١



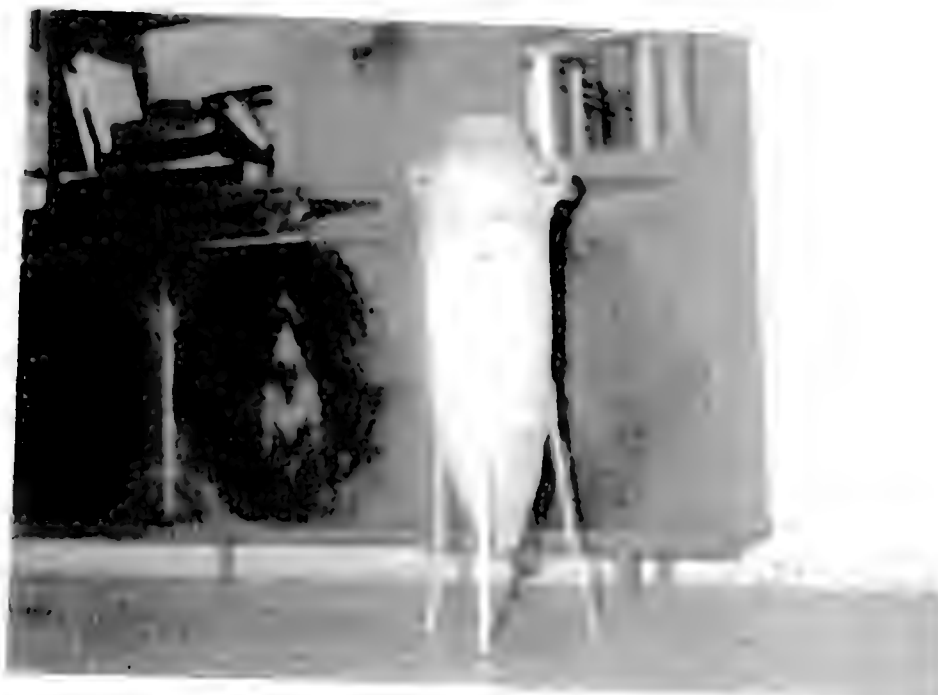
صورة رقم ١٥٢



صورة رقم ١٥٤



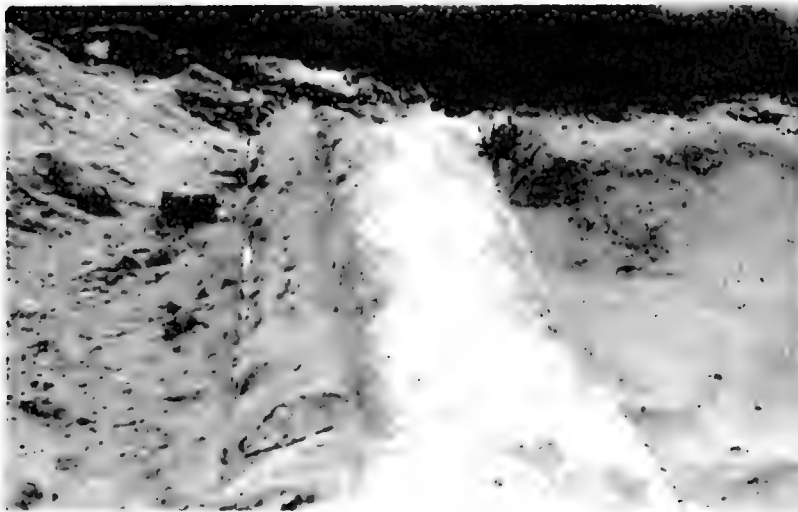
قوالب فخارية رومانية لأشكال مختلفة (عثر عليها على شاطئ غزه)



زير فخاري روماني (خرب العدس برفح)



صورة رقم ١٣



صورة رقم ١٤



صورة رقم ١٥



صورة رقم ١٦



صورة رقم ١٧



صورة رقم ١٩



صورة رقم ٢٠



صورة رقم ٢٢



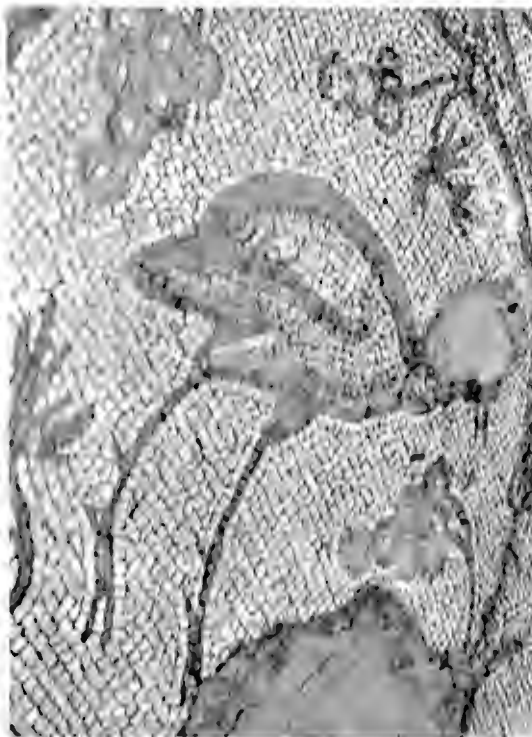
صورة رقم ٢٣



صورة رقم ٢٤



صورة رقم ٢٥



صورة رقم ٢٦



صورة رقم ٣٦



صورة رقم ٣٧



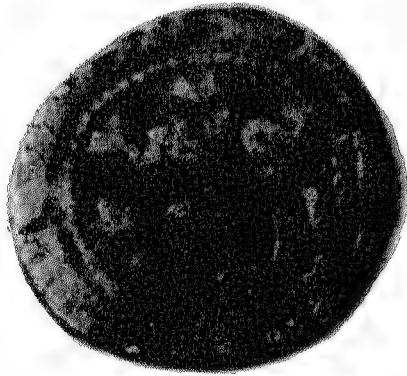
صورة رقم ٤١



صورة رقم ٤٤



صورة رقم ٤٦



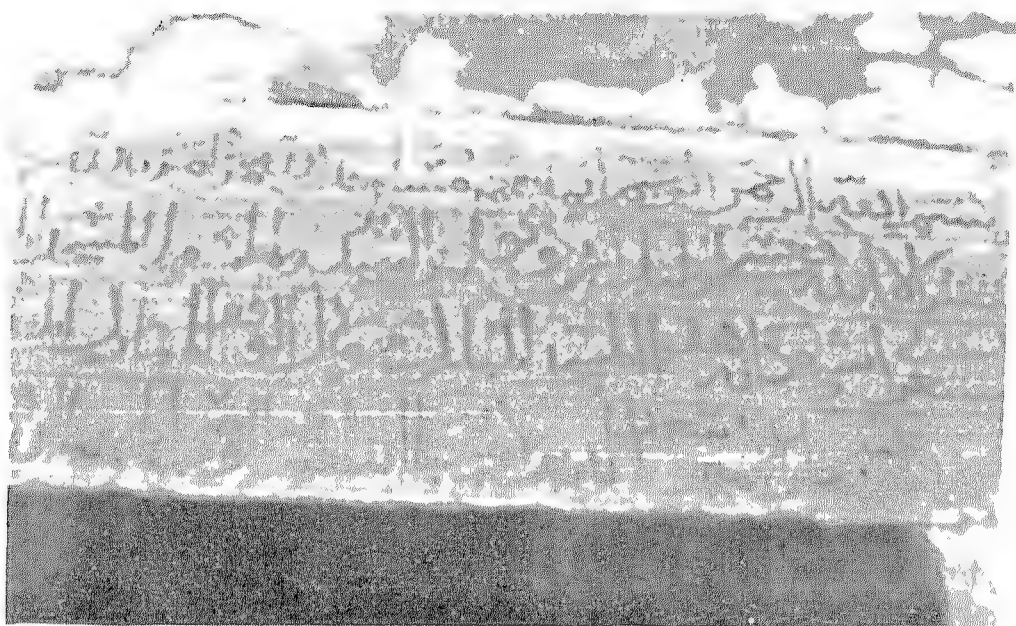
صورة رقم ٥١



صورة رقم ٥٥



صورة رقم ٥٦



صورة رقم ٥٨



صورة رقم ٦٠



صورة رقم ٦١



صورة رقم ٦٢



صورة رقم ٦٢ ح



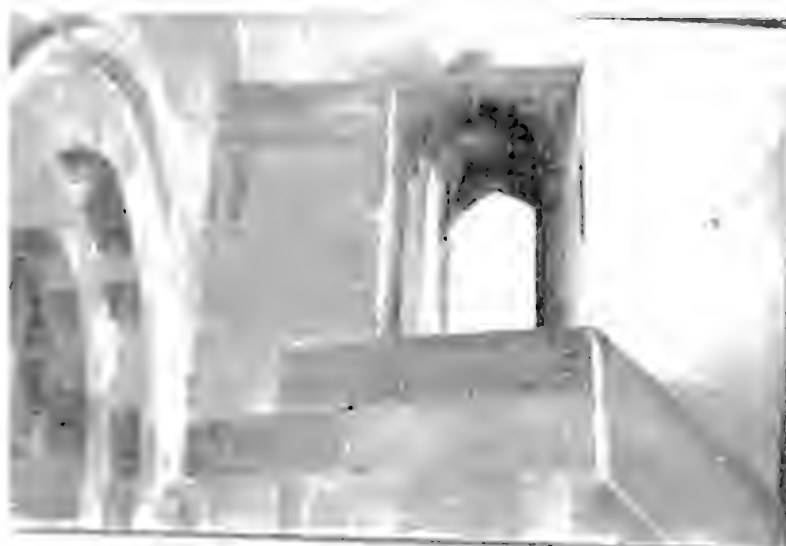
صورة رقم ٦٢ ب



صورة رقم ٦٢



صورة رقم ٦٣



صورة رقم ٦٦



صورة رقم ٦٧



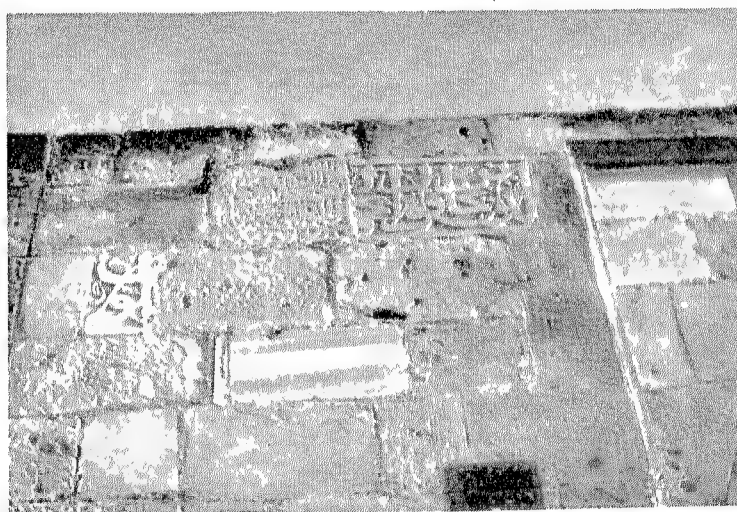
صورة رقم ٦٨



صورة رقم ٧٠



صورة رقم ٧٧



صورة رقم ٧٣



صورة رقم ٧٤

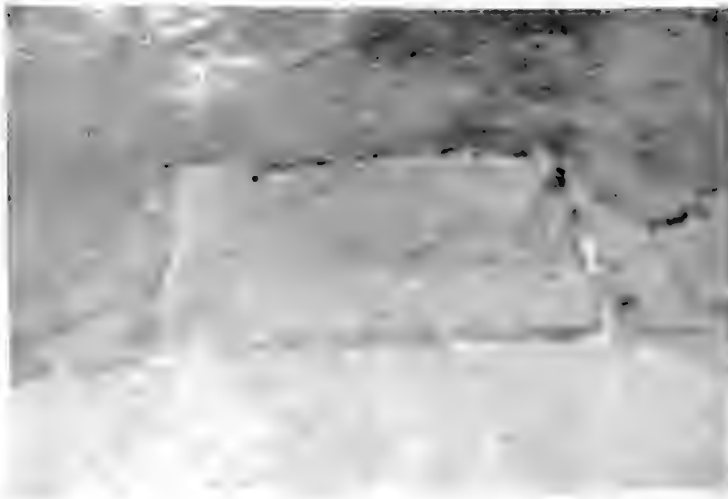




صورة رقم ٧٦



صورة رقم ٧٦ ب



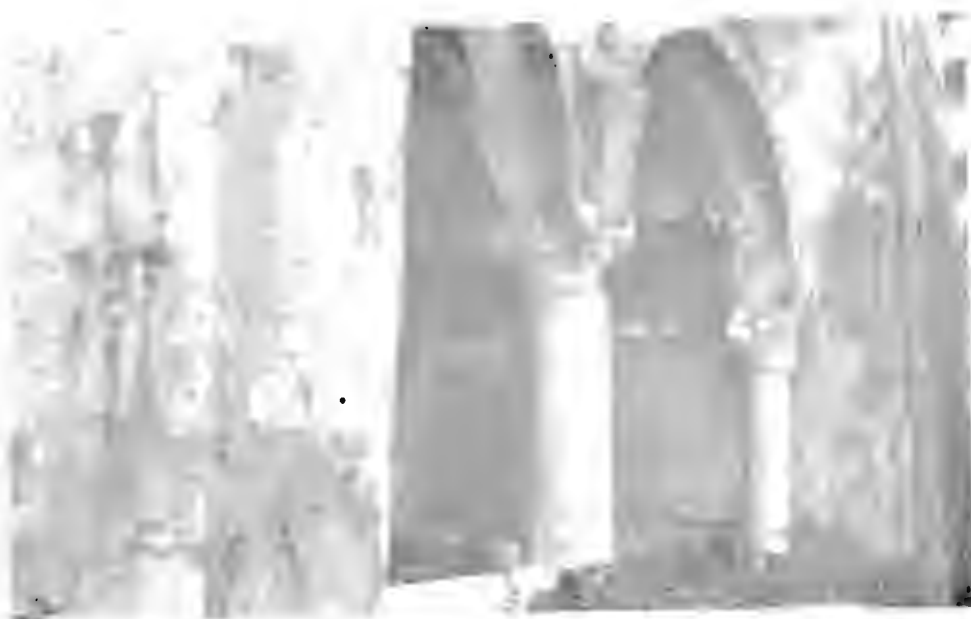
صورة رقم ٧٧



صورة رقم ٧٨



صورة رقم ٧٩



صورة رقم ٨٠



صورة رقم ٨١



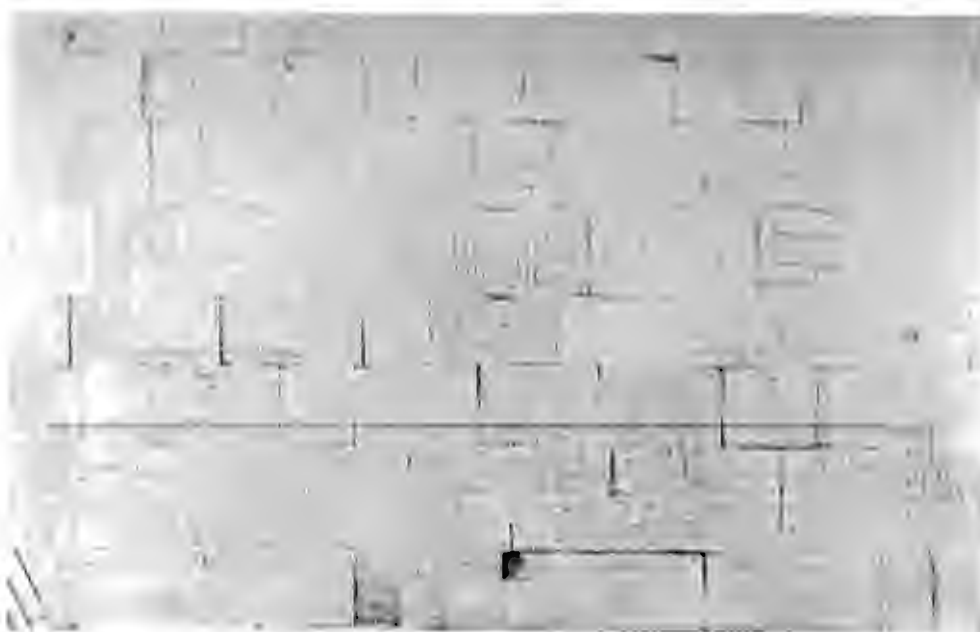
صورة رقم ٨٢



صورة رقم ١٣.



صورة رقم ٨٧



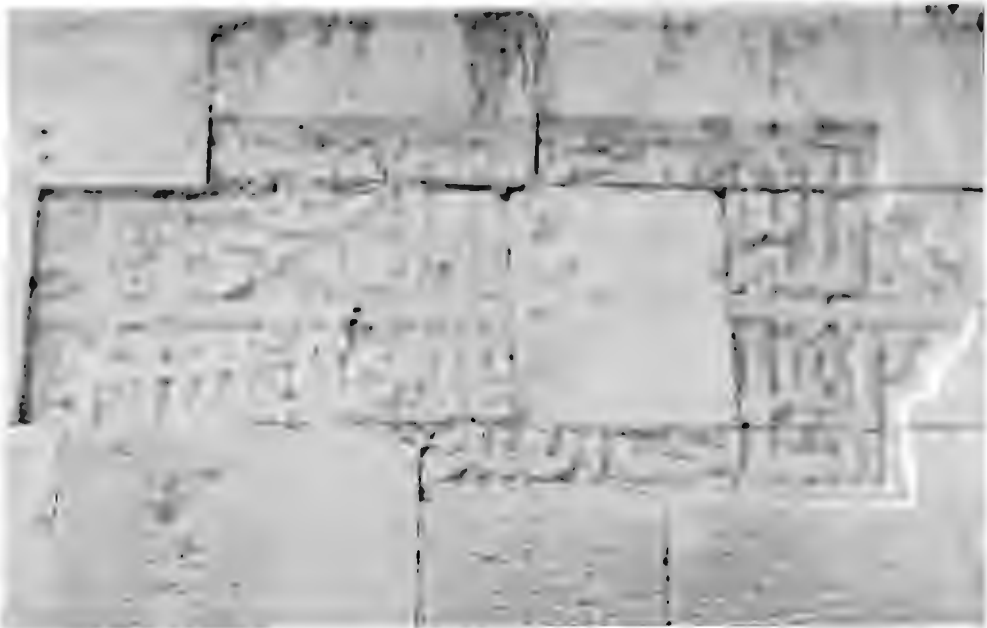
صورة رقم ٨٨



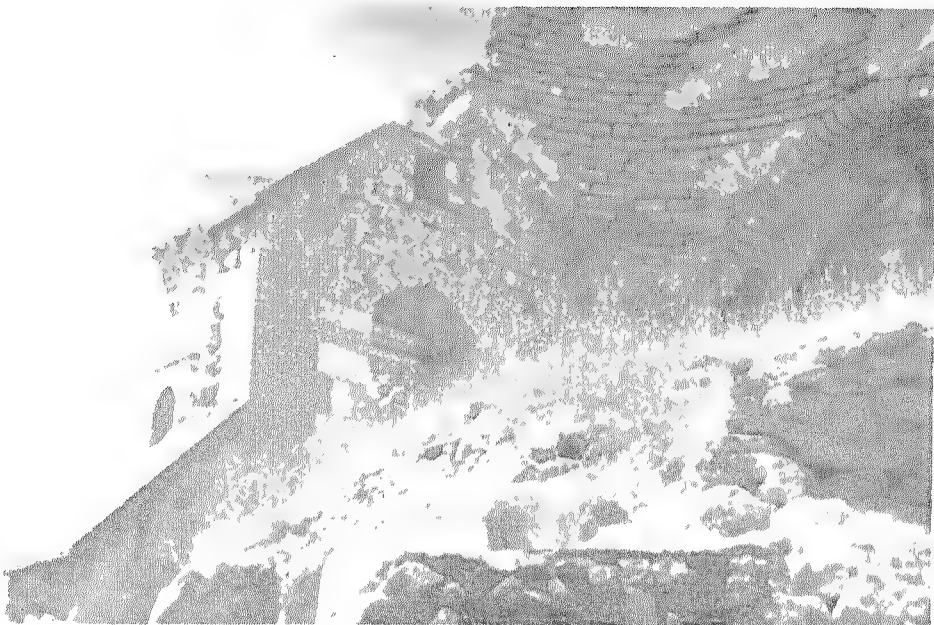
صورة رقم ٨٩



صورة رقم ٩٠



صورة رقم ٩١



صورة رقم ٩٤



صورة رقم ٩٤



صورة رقم ٩٥



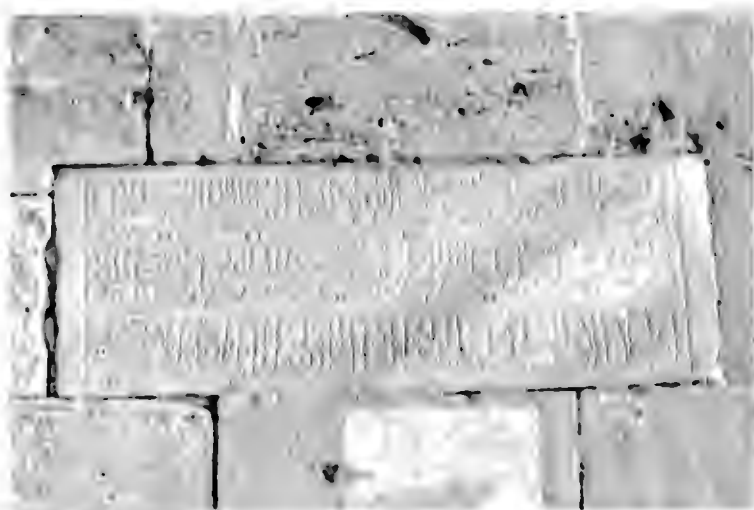
صورة رقم ٩٦



صورة رقم ٩٧



صورة رقم ٩٨



صورة رقم ١٠٠



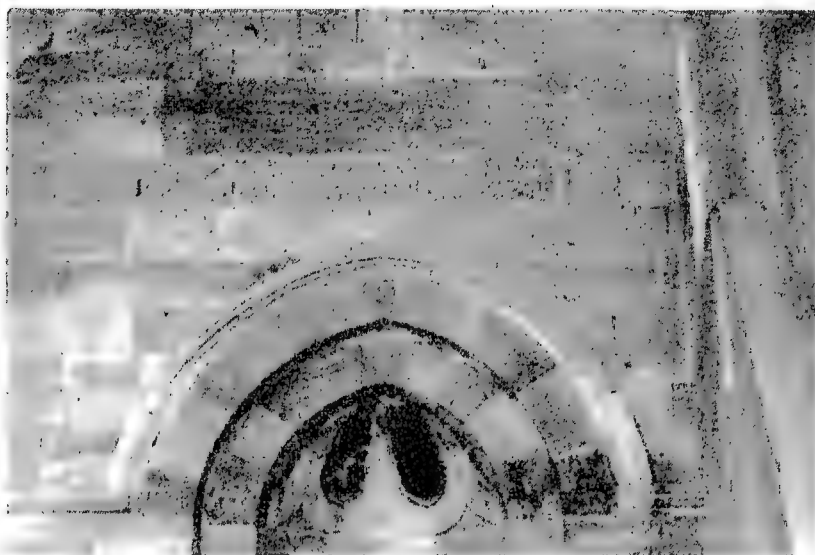
صورة رقم ١٠١



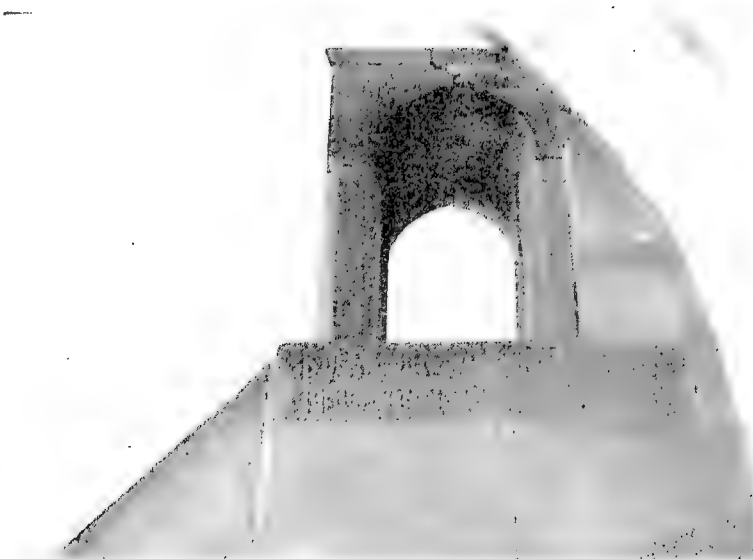
صورة رقم ١٠٣



صورة رقم ١٠٥



صورة رقم ١٠٧



صورة رقم ١٠٨



صورة رقم ١٠٩



صورة رقم ١١٠



صورة رقم ١١١



صورة رقم ١١٩



صورة رقم ١٢٠



صورة رقم ١٢١



صورة رقم ١٢٢



صورة رقم ١٢٤



صورة رقم ١٢٦



صورة رقم ١٢٩



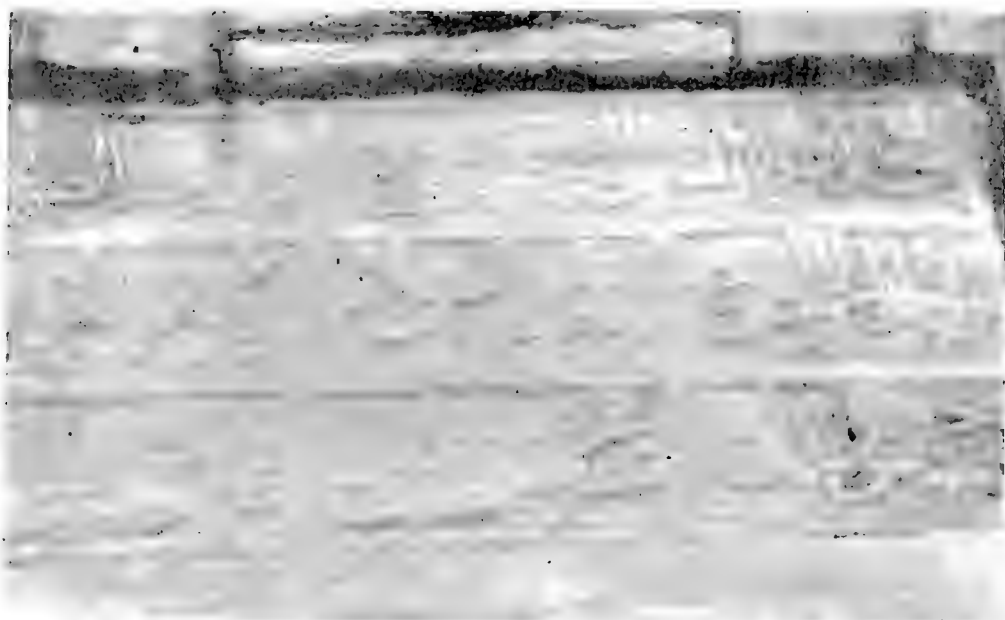
صورة رقم ١٣٣



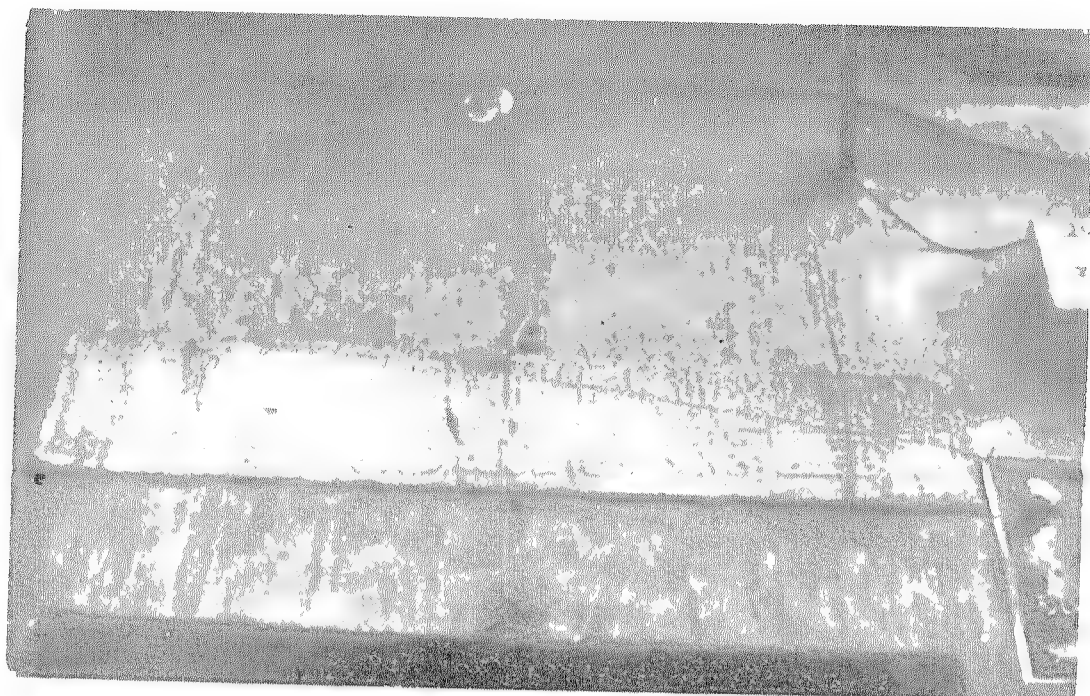
صورة رقم ١٣٥



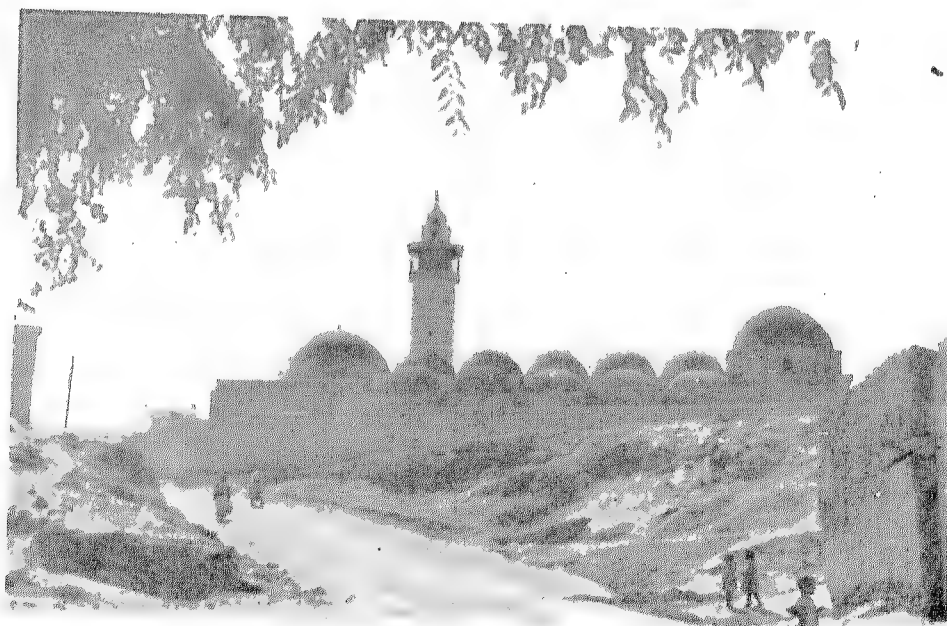
صورة رقم ١٣٦



صورة رقم ١٤٠



صورة رقم ١٤١



صورة رقم ١٤٥



صورة رقم ١٤٦



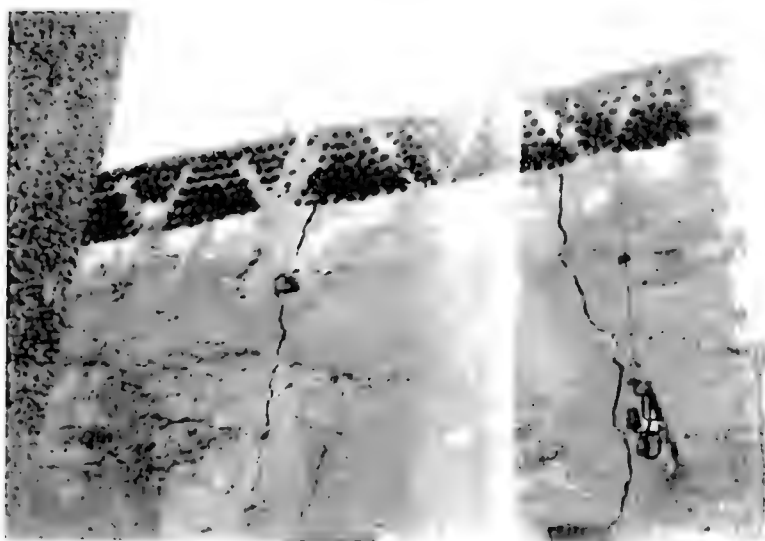
صورة رقم ١٤٧



صورة رقم ١٥٠



صورة رقم ١٥٣



صورة رقم ١٥٥



صورة رقم ١٥٦



صورة رقم ١٥٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٨١٥ / ١٩٨٧

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٤٩ - ٩

هذه الدراسة تصل إلى التوغل داخل مكونات هذه
المدينة حتى تمسك بمفتاح سرها الذي منحها الخلود على مر
العصور دون أن يأتي عليها حين من الزمان كانت فيه
مندثرة ، وهذا قمة فلسفتها المكانية - خاصة لمدينة ذات
موقع متميز بزخم تاريخي رسم ، واكب معظم
الحضارات بل وكان لكل منها ، بل ولمعظم القادة الكبار
عبر التاريخ القديم والحديث حدث وحديث في هذه
المدينة